FIFA WORLD CUP
Qatar2022
14.11.2022

معجزة كاستل دي سانغرو

حكاية شغف وطيش في قلب إيطاليا

جو ماكغينيس

ترجمة : تحسين الخطيب



جو ماكغينيس

معجزة كاستل دي سانغرو

حكاية شغف وطيش في قلب إيطاليا

ترجمة: **تحسين الخطيب**

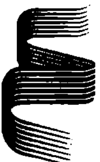
مراجعة: **أحمد خريس**

GV943.6.C35 M35125 2021
McGinniss, Joe, 1942- 2014
معجزة كاستل دي سانغرو : حكاية شغف وطيش في قلب إيطاليا / تأليف جو ماكغينيس ؛ ترجمة تحسين الخطيب ؛ مراجعة أحمد خريس. ـ ط. 1. ـ أبوظبي : دائرة الثقافة والسياحة، كلمة، 2021.
637 ص. ؛ 21 سم.
ترجمة كتاب: The Miracle of Castel di Sangro: A Tale of Passion and Folly in the Heart of Italy
تدمك: 978-9948-33-028-8
1-كرة القدم- كاستل دي سانغرو. 2- كرة القدم- تاريخ. 3- إيطاليا- وصف ورحلات. أ- خطيب، تحسين. ب- خريس، أحمد. ج- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:
The Miracle of Castel di Sangro: A Tale of Passion and Folly in the Heart of Italy by Joe McGinniss







معجزة كاستل دي سانغرو

حكاية شغف وطيش في قلب إيطاليا

إلى نانسي

وإلى دِلِنْ، وسبستيان، ولورين



خارطة وفَّرتها دار فُوْدُورْ للمنشورات السياحيَّة.

■ 1996– 1997 الدرجة الثانية[1] بلدة/ مدينة

تعلَّمتُ في نهاية المطاف، وقد انقضت سنينُ، أنْ أَقْبَلَ نفسي مثلما هي: إنني شحَّاذٌ يستجدي مشاهدة مباراة كرة قدم جيِّدة. أطوفُ العالَم، يدي ممدودةٌ، وفي الاستادات أتوسَّل [قائلاً]: نقلةً جميلة، كرمى لمحبَّة الله.

وحين تجري مباراة كرة قدم جيِّدة، أحمدُ الله على تلك المعجزة، ولا أُبالي البتَّةَ أيٌّ فريق يخوضها ومن أيِّ بلد.

- إدواردو غاليانو

لاعبو فريق كاستل دي سانغرو

المهاجمون (Attaccanti)

جوناتا سپينيسي	أندريا پستلًا
جياكومو غالي	دانيلي روسُّو
دانيلو دي ڤِنْتِشِنْسُو	لوقا ألبيري

لاعبو خطٍّ الوسط (Centrocampisti)

الجناح الأيسر	الوسط	الوسط	الجناح الأيمن
كلاوديو بونومي	غويدو دي فابيو	روبرت ألبيرتي	تونينو مارتينو
	پاولو ميكلِّيني	دومينيكو كريستيانو	دانييلِهْ فْرَانْتِشِسْكِيني

المدافعون (Difensori)

الأيسر	الوسط	الوسط	الأيمن
پيرلويجي پريتِهْ	لوقا دَانْجِلُو	دَاڤِدِهْ تِشِيْنِي	پيترو فوسكو
فابيو ريميديو		أنطونِلّو ألتامورا	فيلِپُّو بيوندي

حرَّاس المرمى (portiere)

ماسينو لوتّي

روبيرتو دي يُوْلِيُس

پيترو سپينوزا

المحتويات

استهلال

سافرتُ إلى إيطاليا سنةَ 1994 سعياً إلى شغفٍ جديد، وكنتُ في أثناء الأسبوع الأول من شهر ديسمبر على متن قطار متَّجهٍ من پادوا[2] إلى روما، حيث سيلعب صديقي الجديد ألكسي لالاس، بعد أربعة أيَّام، مباراةَ كرة قدم.

كان لالاس طويلاً، أحمرَ الشَعْرِ، مُلتحياً، ونجمَ فريق الولايات المتَّحدة في بطولة كأس العالم لكرة القدم سنةَ 1994، وهي بطولة تُعقَد على شاكلة الألعاب الأولمبيَّة مرَّةً كلَّ أربع سنين في بلد مختلف، وقد أُقيمتْ بأمريكا في ذلك الصَّيف. أبلى لالاس، بلاءً حسناً، فجذب انتباه الفريق الذي يُمثِّل پادوا في دوري الدرجة الأولى الذي يُعَدُّ أفضل دوريٍّ كرةِ قدمٍ في إيطاليا والعالم أجمع. لقد وقَّع عقداً مع پادوا فانتقل إلى إيطاليا في شهرِ أغسطس. لحقتُ بلالاس، بعد ثلاثة أشهر، آملاً في أن يُتيح لي فرصةَ قضاء بعض الوقت معه، حتَّى أستطيع تعلُّم المزيد حول هذه اللعبة التي أضحتْ هَوَسي في الآونة الأخيرة.

وكان ألكَسي وخليلته جيل ماكنيل أكثرَ من مِضيافَيْن، فكرَّسا أوقاتاً طويلة يقضيانها معي. لكنَّنا الآن في شهر ديسمبر، ويتوجَّب علـيَّ بعد مشاهدة لالاس يلعب مباراته الأخيرة هذه أن أعود إلى الدِّيار.

كنتُ قد جلستُ للتوِّ في مقعدي على متن القطار الذاهب إلى روما حين رمقني رجل وأنا أقرأ «لا غازيتَّا ديلُّو سپورت». (اعتقدتُ أنَّ

قراءتها في العلن طريقة ناجعة للاندماج مع الإيطاليين، فلا يمكن أن تخطئ العينُ الصفحاتِ الورديَّـةَ لهذه الصحيفة، ولكنَّ حقيقةَ أنني لم أَبْدُ إيطالياً، على نحو واضح، أثارت فضولاً جاء بردِّ فعل عكسيٍّ).

لذلك فإنَّ الرجل الذي كان ربَّما في أواخر الثلاثينيَّات، المتوسِّطَ القامة وذا الشعر البنيِّ، ويرتدي بذلة رسميَّـة وربطة عنق مُحافظة، ويتحدث إنكليزيَّـةً جيِّدةً مثيرة للإعجاب، قد سألَ إنْ كنتُ بريطانياً؟ كلا. هولندياً؟ كلا. نرويجياً؟ كلا. لستَ ألمانياً، بالطَّبع؟ كلا، إنَّني في الحقيقة أميركيٌّ.

وكأنَّني قد رشقتُ وجهَه بكأس ماء بارد، صاح: «كلا!» «غير ممكن!». فلا يمكن لأميركيٍّ أن يقرأ «لا غازيتَّا ديلُّو سپورت»، فهم لا يكترثون بكرة القدم، كما هو معروف جيِّداً في أرجاء العالَم كافَّة.

ثُمَّ رحنا، بالطَّبع، نتجاذب أطراف الحديث. لقد كان أحد القادة المظلِّيين بسلاح الجوِّ، وفي طريقه إلى پادوا للمثول أمام محكمة عسكريَّـة بتهمة الاختلاس. كان مقرُّ عمله في غروسيتو، على السَّاحل التِّيرانيِّ، جنوبي غرب سيينا، ولم يُعلَن أنَّه غير مذنبٍ إلا قبل ساعة، فبدا مرتاحاً على نحو مفهوم، بَيْدَ أنَّ ذلك قد هانَ أمام هول لقائه بأمريكيٍّ أحبَّ كرة القدم حقاً.

ولم يكُن قد أحبَّها فحسب، وإنَّما اكتسب، حتَّى في ذلك الوقت، قَدْراً لا بأس به من المعرفة حولها، وبخاصَّة ما يتعلَّق بالطراز الإيطالـيِّ. كنتُ قد ذهبتِ، قبل أقلَّ من ثلاثة شهور، رفقةَ زوجتي نانسي، لحضور أوَّل مباراة لنا في سان سيرو بميلانو -الذي يُعَدُّ «لا سكالا»[3] ملاعب كرة القدم العالميَّـة- ولكنَّنا كُنا، حتى قبل ذلك، قد تابعنا المنتخب الإيطاليَّ، عن كثبٍ بما يكفي،

في أثناء بطولة كأس العالم، إلى الحدِّ الذي كنت فيه قادراً على إبهار هذا المظليِّ بما بدا، وهو يخرج من فم أميركيٍّ، طائفةً مذهلةً من الأسماء والوقائع التي لا يعرفها الكثيرون (على الرَّغم من قُدرة مَن بلغ الثامنة من عمره في إيطاليا سَرْدَ تلك الأسماء والوقائع في منامه).

لقد عمل، قبل ذهابه إلى غروسيتو، مساعداً لقائد حلف شمال الأطلسي الإيطاليِّ في البرتغال. (وكانت عمليَّة التحضير لتلك الوظيفة هي التي أكسبته طلاقةَ الحديث بالإنكليزيَّة). وهو الآن مخطوب للمرأة التي حلَّت في المرتبة الرابعة بمسابقة ملكة جمال البرتغال سنةَ 1992، كما أخبرني متفاخراً، ولكنَّ لحظةَ العَجَبِ العُجَابِ في حياته -قبل أن يلقاني- وقعتْ حين ذهبَ إلى حفلة رأس السَّنة بالسفارة الأمريكيَّة في لشبونة، فاضطر إلى استخدام الحمَّام، وحين مدَّ يده لالتقاط ورق التُّواليت، تعالَى من البَكَرةِ نشيدُ «الرَّاية المُرصَّعة بالنُّجوم»[4]. ظلَّ يعتقد، بعد ذلك، طيلة حياته، أنَّ أمريكا أرض ساحرة، لا لأنَّها تضمُّ ديزني لاند وهوليوود ولاس ڤيغاس فحسب، وإنما لأنَّها زوَّدت سفاراتها بورق تواليت عزفَ النشيد الوطنيَّ.

ومن الواضح أنَّني بَدَوْت بِدَوْري أعجوبةً على نحوٍ مماثل. قال: «كلا، كلا، لا يتوجَّب علـيَّ الذهاب إلى روما مباشرة، فمازالت أربعة أيَّام باقية على بدء المباراة، ولا بُدَّ أنْ أذهب معه إلى بلدة أوربيتيلُّو، حيث كان يعيش في تلك الأثناء، جنوبي غروسيتو، حتَّى يستطيع أن يُري أصدقاءه وزملاءه هذا الأمريكيَّ الذي لديه معرفة بكرة القدم.

هكذا، وحين بدَّلنا القطار في بولونيا، ذهبَ مباشرة إلى هاتف عموميٍّ، يعمل بالعُملة المعدنيَّة، واتَّصل بالفندق الذي أقيم فيه بروما، وألغى

حجزي، ثم هاتفَ نحو ثمانية أشخاص في غروسيتو وأوربيتيلُّو ليخبرهم بهذه الحكاية الخياليَّـة حول لقائه بي، وأنَّه سوف يُحضرني لملاقاتهم! وكي يقول أيضاً إنَّه قد وُجِدَ غير مذنبٍ ولا يتوجَّب عليه الذهاب إلى السجن عشرين سنة.

وينبغي علـيَّ القول إنَّ كلَّ شيء قد بالغَتْ في حدوثه، إلى حدٍّ بعيدٍ، حقيقةُ أنَّني كنت أحمل حقيبة سفرٍ عليها شعار «إيه. سي. ميلان» وأنَّ هذا الرجل -الذي لطالما فكَّرت فيه على أنَّه «الرّائد»[5]، على الرَّغم من أنَّه قد أخبرني باسمه على الفور- كان أحد المشجِّعين المتعصِّبين[6] لـ «إيه. سي. ميلان»؛ النَّادي الذي فاز ببطولة دوري الدرجة الأولى للسنوات الثلاث الماضية على التوالي.

ناهيك عن أنَّ «إيه. سي. ميلان» كان يلعب، في ذلك اليوم، في طوكيو ضدَّ نادي «فيليسْ سَارْسفِيلد» الأرجنتيني في البطولة التي عُرفت، ومازالت[7] تُعرف، ببطولة العالم للأندية: وهي مباراة فرديَّـة يلعب فيها الفائز في الموسم السابق لبطولة أبطال أوروبا ضدَّ الفائز بالبطولة التي تعادلها في أمريكا الجنوبيّة[8].

وإذا كان الممثل الأوروبيُّ، في الواقع، فريقاً إيطالياً، مثلما هي العادة دوماً، فإنَّ ذلك يثقل كاهل اللاعبين الذين يتوجب عليهم السَّفر بالطائرة إلى طوكيو والعودة خلال منتصف الأسبوع، والبقاء محافظين على جدول مواعيد مباريات دوري الدرجة الأولى بأكمله، ولكنَّ الجائزة الماليَّـة وفيرة بما يكفي لتعدَّها إدارة النَّادي مجرَّدَ كَرَزَةٍ يانعة يسهل قطافها.

ولكنَّ هذه البطولة، التي تُعرف داخل إيطاليا بـ «كأس تويوتا»، تثير الفضول أكثر من كونها مجرَّد مباراة تثير الشَّغف والهستيريا.. إلا لدى

«الرَّائد»، مثلما سأعرف على وجه السُّرعة، فهو لم يستهن قطُّ بأيِّ شيء فعله «إيه. سي. ميلان»، أو أنجزه في السابق، أو قام به على الإطلاق.

وقد صادف أنْ شاهدتُ الشوط الأول من المباراة قبل مغادرة الفندق الذي أنزل فيه متوجِّهاً إلى القطار، وعرفت أنَّ النتيجة كانت في تلك اللحظة صفر-صفر. ولكنَّ المباراة سوف تُعرض ثانيةً في وقت الذروة للإيطاليِّين الذين فاتهم حظُّ مشاهدتها على وجه الخصوص، كهذا «الرَّائد» الذي خضع لمحاكمة عسكريَّة، أو أولئك الذين لم يكونوا قادرين، لسبب آخر، على أخذ إجازة نهاريَّة لمشاهدة مباراة تُبَثُّ من اليابان (علاوة على الملايين الذين -بافتراض فوز ميلان- يودُّون مشاهدتها ثانيةً).

ذكرتُ للرَّائد أنَّني شاهدت الشوط الأوَّل قبل صعودي على متن القطار، وأنَّ- فصاح: «كلا!» كلا، كلا، كلا، كلا! عليكَ ألا تقول شيئاً مما حدث، فسوف نشاهد الليلةَ في شقَّتي، بأربيتيلُّو، المباراةَ معاً، ولا يتوجَّب عليَّ أن أعرف شيئاً»!

ولكنَّنا حتماً سوف نعرف النتيجة النهائيَّة في مكان ما من رحلتنا، بغير قصد، لأنَّ هذه إيطاليا، ولن يتوقف الناس عن الكلام حول المباراة في القطارات والمحطة حين نبدِّل القطار مرَّة أخرى (إذ لا بُدَّ أن نفعل ذلك في فلورنسا).

«كلا، كلا، كلا، كلا! لا بُدَّ لهذا الشيء ألا يحدث! إنَّه يوم عمل، وفي شهر ديسمبر، والقطار ليس ممتلئاً، وسوف نجلس، أنا وأنت، وحدنا ولن نكفَّ عن الحديث قطُّ حتَّى لا نسمع النتيجة بمحض الصدفة، ولسوف أسدُّ أُذنَيَّ، في محطة فيرنيزي، وأمشي خلفك وعيناي في الأرض، حتى تستطيع أن تنظر أمامك لتتأكَّد ألا أخبارَ عن المباراة مبثوثة».

ولقد أقدم على فعل ذلك، ممزِّقاً قطعاً من صحيفة «غازيتَّا» التي في حوزتي، حاشراً إيَّاها في أُذنيه، على نحوٍ لم يَبْدُ أنَّه أكثر الطرائق راحةً أو حتَّى أكثرها فاعليَّـةً، ولكنَّني أدركت للتوِّ القليل بشأن الهوس الذي تُثيره كرة القدم، ولقد مسَّني في الحقيقة ذلك الهوس بالفعل، وإلا لما كنتُ موجوداً هناك، لذا فقد عرفت ما يكفي لأدعه يحشو أذنيه بالطريقة التي يختارها.

وحين ترجَّلنا من القطار في فلورنسا، سار خلفي كرجل أعمى، وإحدى يديه تقبض على كتفي، وقطع من ورق الصحيفة الورديِّ تنتأ من أذنيه. لم يكترث لأمرنا أحدٌ: هذا الأمريكي البالغ طوله ستُّ أقدام وثلاث بوصات يقود سيِّداً إيطالياً -يرتدي بذلة رسميَّـة وربطة عنق، ينتأ من أذنيه ورق صحيفة ورديٌّ- إلى الطرف الرئيس للمحطة. وليست مجرَّد عبارة مبتذلة تلك التي تقول من غير السهل على شعب فلورنسا أن يرتبك.

لم تكُن القطارات السريعة تذهب إلى أوربيتيلُّو، فوجدنا أنفسنا في نهاية المطاف، الرَّائد وأنا، وعتمةُ الأصيل قد أرخت سدولها على متن ما ينبغي أن يكون في العُرف المحلـيِّ قطارَ سكَّةِ حديدٍ على شاكلة القطارات الموجودة في أنحاء إيطاليا كافَّة. كانت حرارة العربة البالية قد امتزجت ببرد الخارج فضبَّبت النَّوافذ، وعَدَّ الرّائدُ ذلك نعمةً إلهيَّـة، إذ يستطيع وهو يتحدَّث عن اللحظات العظيمة في تاريخ «إيه. سي. ميلان» (وقد فعل ذلك، بحماسة بالغة وبلا توقُّف) أن يشرح محاضرته برسم مُجريات مباريات شهيرة على نافذة القطار التي غطَّاها الضباب.

ولقد انطلق بنا القطار ثُمَّ انطلق وانطلق، فكان يرسم خطوطاً على النافذة بإصبعه ولا يكفُّ عن قول: «أَلْقِ نظرةً! أَلْقِ نظرة!»، ثمّ دبَّت

فيه حماسة بالغة حين خطَّ علامات «x» و«o»، لدرجة أنَّه راح يتحدَّث بالإيطاليَّـة التي لم أكن أتكلَّمها في تلك اللحظة ولا أفهمها. وأخيراً، في الساعة 7:30 مساءً، وصلنا أوربيتيلُّو.

لم نتناول طعام العشاء قطُّ، بسبب انتقالنا من قطار إلى آخر، وكل الأشياء التي حدثت، فتحرَّقتُ شوقاً إلى تناول الطعام. ولكنَّ وقتَ إعادةِ بثِّ شريط المباراة كان مقرَّراً في 8:30، فقال الرَّائدُ ألا وقت لدينا لتناول عشاء محترم قبل تلك السَّاعة، ناهيك عن أنَّ أيَّ مطعم سوف يكون أخطر مكان يمكن الذهاب إليه في حالة عدم معرفة النتيجة. ولكنَّه وعدني، حالَ انتهاء المباراة، بتناول وجبة فاخرة في أرقى المطاعم الموجودة في أوربيتيلُّو كافَّة (ولا بُدَّ أن تكون ثمَّة ثلاثة مطاعم موجودة هناك على الأقل). بيْد أنّه كان ينبغي علينا، في تلك اللحظة، التَّوجه مباشرة إلى شقته.

ركن سيَّارته في المحطة، فالمشوار لم يستغرق إلا عشر دقائق بالسيَّارة. كانت شقته مثاليَّـة، وبلا معالم محدَّدة، على شاكلة مساكن الطبقة المتوسطة التي قد يعيش فيها أيُّ إيطاليٍّ عازب. وفي الوقت الذي انتهينا فيه من الاغتسال، دقَّت السَّاعة الثامنة مساءً، فراح «الرَّائد» يذرع المكان بعصبيَّـة أمام جهاز تلفازه، في حين كنتُ أحدِّق في نحو 5000 صورة للمرأة التي احتلت المرتبة الرابعة في مسابقة ملكة جمال البرتغال سنةَ 1992 والتي كانت جديرةً بالنَّظر إليها دون شكٍّ، ولكن ربَّما ليس 5000 مرَّة. خطر ببالي في أثناء هذه اللحظة أن أسأل «الرَّائدَ» لماذا لم نشاهد المباراة في أحد المطاعم مع رفاقه في السِّلاح، قاطعين على أنفسنا العهد بأن نظلَّ صامتين، فمشاهدة مباراة مهمَّة تُعَدُّ في إيطاليا، على الدَّوام، تجربة اجتماعيَّـة عظيمة.

لأنَّ هذا، مثلما أخبرني الرَّائد، هو «إيه. سي. ميلان». وحين يكون الفريق الذي يلعب هو «إيه. سي. ميلان»، فإنه يشاهد المباراة وحيداً أو رفقةَ شخص على شاكلتي أنا يعرف بما يكفي ليبقي فمه مطبقاً خلال المباراة ولا يقطع تركيز «الرَّائد».

بدأت المباراة، ثم راح «الرَّائد»، وهو يشاهد في صمت مطبق، شاخصاً ببصريه إلى الشاشة، يتصبَّبُ عرقاً. وخلال خمس عشرة دقيقة -على الرغم من أنْ لا شيءَ مُهماً قد حدث- أخذ العرق يتصبب من جبينه، وبدأت بقع كبيرة في الانتشار غامقةً تحت إبط القميص الأزرق الذي كان قد بدَّله [قبل بدء المباراة]. كان قميصه، بعد مرور نصف ساعة على المباراة، قد انتقع بأكمله كما لو أنَّه، هو نفسه، يلعب مع الفريق.

ثمَّ نظر إلـيَّ، عند انتهاء الشوط الأوَّل، ونظرةُ تعاسة مطلقة ترتسم على محيَّاه: مرَّت خمس وأربعون دقيقة دون هدف واحد يسجِّله ميلان ضدَّ هؤلاء الأرجنتينيِّين! قال إنَّه بحاجة إلى أن يستلقي قليلاً. وحين عاد، قبل ثوان من بداية الشوط الثاني، لاحظتُ أنَّه قد نشَّف وجهه وبدَّل قميصه.

أخذ مكانه في المقعد الذي يبعد ثلاث أقدام عن شاشة التلفاز على كرسيٍّ خشبيٍّ متضعضع ذي ظهر مستقيم. (كنت أجلس على أريكة مريحة، على بُعْد نحو عشر أقدام، مائلاً قليلاً إلى أحد الجانبَيْن). وبعد مرور ستِّ دقائق على بداية الشوط الثاني، عرقل كوستاكورتا، مدافع ميلان، أحدَ لاعبي فيليس في منطقة الجزاء، فحوَّل الفريق الأرجنتينيُّ النتيجةَ بضربة الجزاء متقدِّماً 1- صفر. ولأنَّ غرفة المعيشة كانت مظلمة تماماً إلا من وهج الشَّاشة، لم أستطع أن أرى هذا المشهد، ولكنَّها المرَّة الأولى والوحيدة في حياتي التي استطعت فيها أن أشعر فعلياً بشخص

وقد امتقع وجهه شاحباً. كانت العرقلة المتعمَّدة غاية في الوضوح، فلم يشتم الحكم!

وبعد مرور ستٍّ دقائق، وفي أثناء محاولة كوستاكورتا ذاته (الذي كان، على سبيل المصادفة، عضواً في المنتخب القوميِّ الإيطالي، حينئذ وفي هذه الأوقات) ركلَ الكرة إلى روسِّي، حارس المرمى، بتمريرة غير مناسبة، انقضَّ عليها أحد مهاجمي فيليس سارسفيلد المندفعين، ولم ينتبه كوستاكورتا لوجوده تماماً، فوصل إليها أوَّلاً واضعاً إيَّاها في الشِّباك على وجه السُّرعة: فتحوَّلت النتيجة إلى 2- صفر لصالح فيليس سَارسفيلد.

وكان ذلك الهدف قد سُجِّل في النِّهاية.

وحين انطلقت الصافرة الأخيرة، معلنةً انتهاء المباراة، مال الرَّائد في كرسيِّه إلى الأمام وأطفأ جهاز التِّلفاز، ثم أخذ الكرسيَّ الخشبيَّ ذا الظهر المستقيم وأداره حتَّى يستطيع حين يجلس عليه مرَّة أخرى أن يكون في مواجهتي مباشرة، على بُعْد نحو خمس أقدام.

ثمَّ قال: «جاءت مياه الطوفان، في الربيع، إلى تورينو. أتت على الأخضر واليابس. لقد زال بيتي الذي ولدتُ وترعرتُ فيه. دمره الطُّوفان، وانهارت أمُّي عاطفياً حينئذ، وعانت جرَّاء ذلك معاناةً شديدة حتَّى اضطررتُ إلى الذهاب إلى هناك ووضع هذه السيِّدة في الـ.. «مَنِكُوْمْيُوْ manicomio».. بالإنكليزيَّة هو.. حسناً، مستشفى الذين ذهبت عقولهم بلا رجعة؛ المجانين، فكلُّ ما كان لديَّ قد أخذته مياه الطُّوفان».

نظر باضطراب إلى جهاز التِّلفاز، ثمَّ نظر إلـيَّ ثانيةً، وقال: «والآن هذه»، «والآن هذه».

ثمَّ تنفَّس الصُّعداء: «أرجو المعذرة، ولكنني لا أستطيع اصطحابك إلى العشاء. ولكنَّ أوربيتيلُّو بلدة صغيرة، ولن يشقَّ عليك أن تجد المطعم. لا بُدَّ الآن، على أيِّ حال، أن أخلو بنفسي. أرجو المعذرة. سأمشي. سأذهبُ مع نفسي مشوراً طويلاً. تمتَّع بوجبة جيِّدة، ونَمْ نوماً هنيئاً. لعلَّ الغد أفضل، سنرى.» فقلتُ له: «إنَّني آسفٌ حقاً». «بشأن الطوفان وما حصل الليلة».

«شكراً، ولكن أنا الذي يتوجب عليه في الحقيقة أن يأسف. فالرجل لا يلقي مشاكله على أصدقائه، وأنت الآن قد صرت صديقي، وكان يتوجَّب علـيَّ أن أعرف النتيجة في بولونيا».

ثم خطا خارج الباب ولم يَعُد. انتظرته طيلة يوم *السَّبت*، وبقيتُ في شقته، مرَّة أخرى، طيلة ليلة السَّبت أيضاً. لم أدر بمن أتَّصل أو ماذا أفعل لأعرف إنْ كان على خير ما يرام، ولم أكُن أتكلَّم الإيطالية اللازمة كي أتبيَّن وأعرف، ولم تكُن الإنكليزيَّة تُحكَى في بلدة كأوربيتيلُّو.

وهكذا، صبيحةَ الأحد، ركبتُ مضطَّراً القطارَ الذاهب إلى روما، تاركاً خلفي رسالةً مقتضبة إلى «الرَّائد» أشكره فيها على حسن الضيافة، راجياً أن يكون بخير، وأن نتمكَّن من البقاء على تواصل.

وكان يتوجَّب علـيَّ في اليوم التالي العودة إلى أمريكا، ولم أسمع منه ثانيةً البتَّةَ. وعلى الرَّغم من أنني قد كتبتُ إلى السلطات العسكريَّـة في غروسيتو، وإلى تلك التي في روما في مرحلة لاحقة، ذاكراً اسمه، وإلى مسؤولي بلدة أوربيتيلُّو، وحتى إلى المسؤولين في تورينو، فإنني لم أتمكَّن من معرفة ما الذي حدث لَه.

ولكنَّني أوجستُ، بحلول شهر يونيو، في نفسي خيفةَ الأسوأ، ومازلتُ كذلك، فربَّما يكون «الرّائد» قد تجاوز محنة نهاية الأسبوع تلك،

ولكنَّني أشكُّ، بناءً على المعاناة التي كابدها بعد الطُّوفان، في أن يكون قد صمد طويلاً في موسم لم يخفق فيه «إيه. سي. ميلان» في الفوز بالبطولة فحسب، وإنما هبط إلى المرتبة الرابعة على نحو مُشين.



1
الوصول إلى أرض الحكايات الخرافيَّة

وصلتني، في اليوم الذي سبق عودتي إلى إيطاليا، رسالةٌ بالفاكس من رجل يدعى جُوْزِبِّهْ. لم تكُن الأخبار التي تضمَّنتها الرسالةُ طيِّبة.

إليكَ[9]، كما وعدتُك، تفاصيلَ رحلة قدومك. ليس من السَّهل الذهاب من روما إلى كاستل دي سانغرو: فنحن نعيش في منطقة جبليَّـة[10] (800 م فوق سطح البحر؛ وتبعد عن روما أكثر من 200 كم) ولسوف تستقلُّ القطار كي تصل إلى هناك.

لو وصلتَ إلى مطار فيوميتشينو بروما في الساعة 7:35 صباحاً، فسوف تكون قادراً على أن تستقلَّ سيَّارة أجرة لتذهب إلى «محطَّة سكَّة حديد تيرميني» لتستقلَّ قطار الساعة 11:50 من روما إلى **سولمونا**. سيكون الوصول في تمام الساعة 15:06 مساءً[11]. فسولمونا تبعدُ 150 كم عن كاستل دي سانغرو وسوف تكون قد وصلت حينئذ إلى محطَّة سولمونا. أستميحك عذراً، فأنا مشغول جداً في هذه الأيام[12] قبل المباراة الأولى من البطولة بتنظيم تظاهرة حول كاستل دي سانغرو، ومن سابع المستحيلات أن أكون في روما كما أريد... ولكنَّنا جبليُّون معتادون على مجابهة الصِّعاب، فلا تقلق. إنَّنا كَقَوْمِ «لِيلِيپُتْ» في عالم عمالقة[13].

لن يتمكَّن جوزبِّه، إذاً، في نهاية المطاف من ملاقاتي في المطار عند وصول طائرتي. ولكنَّني، بالطَّبع، قد ركبت الطائرة المغادرة إلى روما على أيِّ حال، ومَا كدتُ أدفعُ عربة أمتعتي خارج منطقة الجمارك، حتَّى اندفع نحوي على نحو مباغت حشدُ سائقي سيَّارات الأجرة، فاخترتُ الأوَّل.

«كم الأجرة إلى سولمونا؟»

«خمس مئةِ ألف»[14].

فقلتُ: «بل أربعةٌ».

فأشارَ بإبهامه: «اتبعني». وهكذا وجدتُني منطلقاً إلى أَبْرُوتْسُو، قبل وصول قطار الساعة 11:50 القادم من روما، بوقت طويل.

تتكوَّن إيطاليا من عشرين إقليماً، بعض هذه الأقاليم أسطوريٌّ، وبعضها الآخر يحظى بشعبيَّـة جارفة لدى السيَّاح الأجانب، ولايزال الإيطاليُّون أنفسهم يُقدِّرون المزيد من هذه الأقاليم، على الرغم من أنَّها غير معروفة جيِّداً لدى الغرباء. ثُمَّ هَا هُو ذا إقليم أبروتسو هناك.

يصف دليل «فْرُومَر» إلى إيطاليا، الصادر في العام 1996، أبروتسو أنَّه «واحدٌ من أفقر الأقاليم ومن أقلِّها زيارةً» في البلد. «قاحلٌ إقليم أبروتسو، سفعته الشَّمس.. عرضة لزلازل متكرِّرة.. فقيرٌ وأرضه جرداء». ويقول كُتيِّب سياحيٌّ آخر إنَّه إقليم «لا يرى فيه المرءُ إلا أشياءَ قليلة ذاتَ بالٍ، ولا شيء يمكن للمرء أن يفعله هناك، أيضاً، إلا أقلَّ القليل».

لِم تتأتَّ هذه السُّمعة بين عشيَّـة أو ضحاها. لقد زار ناثانييل هوثورن المنطقة في القرن التاسع عشر، وكتب حينئذ أنَّ الإقليم كان «بلا حياةٍ وحيويَّـةٍ كافيتَيْن لتمنعانه من أن يصبح بعد الآن عرضةً للاضمحلال.

سيتيح أيُّ زلزال له الفرصة الوحيدة كي يصبح خاوياً على عروشه، فوقَ خرابه الحالـيِّ».

وكان ذلك في الموسم السياحيِّ، ثمَّ حاول الشاعر الإنكليزيُّ سْوِنْبيرن، لأسباب لم يوضِّحها كفايةً البتَّة، اختراقَ دفاعات أبروتسو الجبليَّـة في شتاء 1879، ولكنَّ «عاصفةَ ثلجٍ هوجاء لم يسبق أن واجه مثلها البتة» أجبرته على الرُجوع، فعاد إلى روما ولَم يُعِد الكَرَّة قط.

أمَّا السكَّان، فقد كتب نورمَن دوغلاس، كاتبُ الرَّحلات الإنكليزيُّ، في السنوات الأولى من عُمْر هذا القرن[15]، أنَّ «حياتَهم بائسة، ترزح تحت وطأة فقر مدقع، يبعث على الغثيان». ولقد أشار دليل فرومر في الآونة الأخيرة إلى أنَّ «كثيراً من سكَّان الإقليم قد هاجروا إلى مناطق أكثر ازدهاراً»، تاركين خلفهم «العائلات المحليَّـة القَبَليَّـة» الموصوفين في كُرَّاسٌ آخر بأنَّهم «تأسليُّون[16] واستبطانيُّون».

ولقد كتب تِمْ جِبْسِن، قائلاً: «هذه أرضٌ مازالت تستطيع أن توفِّر بيئاتٍ لعشرات الحكايات الخرافيَّـة، بذئابها ودببتها وقروييها الصَّارمين.. فالقرى الواقعة على تلال ملطَّخة بالثَّلج قد لفَّها السَّديم وسط الجبال المقفرة والوديان العميقة والغابات المعتمة، أمَّا الحِرَفُ التي يمارسونها لاستخداماتهم الشخصيَّـة، لا من أجل السيَّاح، فهي حِرَفٌ ممعنةٌ في القِدَم».

بَيْدَ أنَّني لم أكُن سائحاً، فقد كان لديَّ عمل أنجزه في أبروتسو، بصرف النظر عما يمكن أن يسفر عنه ذلك. كانت وجهتي «كَاسْتِل دِيْ سَانْغْرُو»، البلدة النائية، التي يجادلُ بعضهم بأنَّ اسمها يعني «قلعة الدَّم» في اللهجة المحليَّـة.

يحمي البلدةَ من الغرباء ما يصفه أحدُ الكتب المرجعيَّة بـ «مشقَّة الوصول إليها، حتَّى ضمن المعايير السائدة في أبروتسو». فهي تقع على بُعْد نحو 3000 قدم فوق مستوى سطح البحر، ويدوم فصل الشتاء فيها من أكتوبر حتَّى شهر مايو، وتهبُّ الريح عاصفةً عليها في جميع الفصول من الجبال العالية فوق.

ويحدُّ كاستل دي سانغرو، من جهةٍ، متنزَّه أبروتسو الوطنيُّ الذي مازال يضمُّ الذئابَ والدببة البنيَّـة بالإضافة إلى أكثر من ثلاثين فصيلة من الزواحف. ويمتدُّ، في الجهة الأخرى، «ڤَالّهْ دِلَّا فِيْمِنَا مُوْرْتَا» أو «وادي المرأة الميِّتة». لا يتلقَّى الغرباء على المنطقة، الذين يسألون كيف التصق مثل هذا الاسم بتلك المساحة الشاسعة الخالية، إلّا هزَّ الأكتاف أو تحريك الرُّؤوس جواباً.

وتنهضُ «لَا مَايِيلَّا»[17] خلفَ الوادي، وهي كتلةٌ جِيريَّة هائلة تقطعها أخاديدُ عميقة وخَطِرة تضمُّ أكثر من خمسين قمَّةً أعلاها على الإطلاق «مُوْنْتِهْ أَمَارُوْ»، أو «الجبل المُر»، الذي يرتفع إلى نحو 10000 قدم. ولقد ضاع أصل هذا الاسم، مرَّة أخرى، في سُدم الزمن والأسطورة.

ويحذِّر كتيب سياحيٌّ آخر من أنَّه «منظر طبيعيٌّ يتوجَّب الاقتراب منه بحذر»، أو كخيارٍ بديلٍ عدم الاقتراب منه البتَّة. ولكنَّني لم أقتربْ منه –وقد استبدَّ بي هوسُ الذهاب– فحسب، وإنَّما هيأت نفسي لاقتحامه والإيغال في أعماقه: وحيداً، لا أعرف أحداً، ولا أعرف التحدُّث بكلمة إيطاليَّـة واحدة، ومع ذلك فقد عقدتُ العزم على البقاء أكثر من تسعة شهور.

صادفَ وصولي يومَ سبتٍ حاراً في أوائل شهر سبتمبر سنةَ 1996. أنزلني السائق في محطة قطارات سولمونا المهجورة قُبيل الظهيرة. بدا كلُّ

شيء هادئاً وبهيجاً. تركتُ حزمة أمتعتي في ذمَّة وكيل بيع تذاكرٍ، يبدو غير مكترث بعضَ الشيء بالحوائج التي تودع لديه، ومشيتُ بضع مئات من الياردات إلى وسط المدينة (عدد السكَّان: 25000)، تناولت غداءً خفيفاً، ثمَّ رجعتُ إلى المحطَّة. أَقَلْتُ لساعةٍ متقطِّعة أو ساعتَيْن، مستلقياً على الرصيف قرب سكَّة القطارات، مُوسِّداً رأسي حقيبةً كبيرة من الخَيْش وضياءُ الشمس يسقطُ مُرقَّطاً علـيَّ عبر أوراق أشجار آخر الصيف.

سمعتُ في منتصف العصر[18] صافرة قطار تتعالى في المسافة البعيدة. إنَّه قطاري! قطار الساعة 11:50 القادم من روما. نظرت إلى ساعتي: إنَّها الثالثة عصراً. في الوقت تماماً. تركتُ حقائبي مرَّة أخرى، ومشيتُ إلى الجهة الأماميَّـة من المحطَّة، باحثاً عن شخص قد يكون جُوْزِبِّهْ، آملاً ألا تكون «تظاهرةٌ» جديدة قد منعته القدومَ إلى سولمونا.

ثُمَّ دخلتْ، حنيئذٍ تماماً، سيَّارة صغيرة باليةٌ السَّاحةَ المخصَّصة لوقوف السيَّارات بسرعة فائقة وتوقَّفتْ فجأةً. خرج منها رجل بدا في منتصف العشرينيَّات من عمره ذو شعر أسود، ونظرةُ استنفارٍ في عينيه.

فناديتُ: «جُوْزِبِّهْ؟»

نظر إلـيَّ، فأدرك على الفور أنني لا بُدَّ أن أكون «الكاتبَ الأمريكي scrittore americano»، ولكنَّه بدا مُشوَّشاً، فقال: «جُو؟»، وهو يرفع عينيه عنِّي ناظراً في ساعة يده.

«نعم، نعم، جميع أمتعتي في الطرف الآخر».

«ولكنَّ القطار لم يصل[19] بَعْد».

«كلا، كلا، ولكنَّني جئتُ بالسيَّارة. ليس مُهماً. سأجرُّ حقائبي إلى الجهة الأمامية».

بدا جوزبِّه مشدوهاً، ولكنَّه لم يتابع ما قلته. فلو تتبَّعَ المرءُ كلَّ شيء لا معنى لَهُ، فلن يتمكَّن من إنجاز أيِّ شيءٍ البتَّة.

ولَمْ تكد الحقائبُ تُحمَّل سليمةً -وآخرُ اثنتين ترتفعان من حضني إلى أعلى رأسي آنَ حشرتُ نفسي في المقعد الأماميِّ لسيَّارته الصغيرة جداً- حتَّى انطلقنا إلى كاستل دي سانغرو، أو هكذا ظننتُ. قاد جوزبِّه السيَّارة بسرعة شعرتُ بأنَّها عالية متهوِّرة، ولكنَّني سرعان ما سوف أدركُ أنَّها كانت أقلَّ من المعتاد على نحو كبير. لم أعرف إنْ كان عجزي عن رؤية الطريق من خلال حقائبي هو الذي جعل الأمر أحسنَ، بالنسبة إلـيَّ، أو أسوأ.

ولكنَّني، حتَّى قبل أن أتمكَّن من محاولة الحديث، سمعتُ نغمةً عاليةً تصرُّ قُربي، فالتقطَ جوزبِّهْ هاتفاً خلوياً من جيبه، وراح يتحدَّث على نحو أسرعَ مما قاد به السيَّارة. وما كادت تلك المكالمة تنتهي حتَّى أجرى مكالمةً تخصُّه، ناظراً باهتمام إلى الأزرار لا إلى الطريق، وهو ينقر عليها بتتابع سريع. تحدَّث لعشر ثوانٍ فحسب، ثمَّ أغلق الخطَّ صائحاً «تَشاوْ»[20] على نحو متكرِّر وسريع، ثمَّ أجرى مكالمةً أخرى على الفور، واستقبل مكالمتَيْن إضافيَّتَيْن، ثم أجرى مكالمةً، واستقبل ثلاثاً على التَّوالي. كنتُ أحاول عَدَّ المكالمات جميعاً: وردت إليه مكالمتان أُخريان، وأجرى ثلاثاً. أجرى جُوزبِّهْ 5 مكالمات، واستقبل 9. كان يقول «تَشاوْ» قبُيل نهايةِ كلِّ مكالمة. «تَشْاوْ.. تَشْاوْ، تَشْاوْ، تَشْاوْ.. تَشْاوْ تَشْاوْ تَشْاوْ.. تَشاوْتَشاوْتَشاوْتَشاوْتَشاوْ».

إنَّ إحدى أشرس المنافسات اليومية بين الإيطالـيِّين الذين يتحدَّث بعضِهم بالهواتف الخلوية إلى بعض- مثلما سوف أعرف قريباً- تتمثَّل فيمن يستطيعُ حَشْرَ أكبر عدد ممكن من لفظة «تَشاوْ» في ختام المحادثة. ولا بُدَّ، لتحقيق نصرٍ مُظفَّرٍ، ألا تلفظَ الكلمة مرَّات كثيرة، أكثرَ من نِدِّكَ

الذي تحادثُهُ فحسب، وإنما يتوجَّبُ عليك، أيضاً، أن تكون صاحبَ الـ «تَشاوْ» الأخيرة، ضاغطاً زرَّ «إنهاء» المكالمة حتَّى وأنتَ تلفظُ الكلمة.

ثُمَّ، في نهاية المطاف، دَسَّ الهاتف ثانيةً في جيبه، ناظراً إلـيَّ، ثم قال: «أرجو المعذرة». من الواضح أنَّ وقت محادثتنا قد حان. حدَّق جوزيِّهْ بي بجديَّـةٍ، وهذا يعني، بالطَّبع، أنَّ عينيه لم تكونا ترقبان الطريق التي بَدَتْ -من حركة السيَّارة وصوت محرِّكها المتهالك- أنَّها قد أخذتْ تصعد أحد الجبال، على الرغم من أنني أنا نفسي لم أستطع رؤيتها من خلال أمتعتي.

قلتُ: «هل تستطيع أن ترى؟» مشيراً إلى زجاج سيَّارته الأماميِّ.

بدا مشوَّشاً، فنظر في ذلك الاتِّجاه، ثمَّ نظر إلـيَّ قائلاً: «نعم.. نعم، نعم، نعم»[21].

كلا، أعني: «هل ترى»؟

ضحكَ مبتهجاً. «لا.. نعم. لا.. نعم. ماذا تقصدُ بِـ «لا، نعم؟» نعم، لا بالإنكليزية، لا»؟

فقلتُ: «نعم»، «أقصدُ، بلى»[22].

رمقَ الطريق بنظرة خاطفةٍ، وأدار عجلة القيادة قليلاً، ثمَّ نظر إلـيَّ ثانيةً: «لا أفهمُ الإنكليزيَّـة كثيراً، لا؟ أنا لا أتكلَّمُ هذه اللغة. من الأسهل علـيَّ فهمُ الكتابة، موافق؟ وليس الكلام».

فقلتُ «نعم». «ولكن، هل تبعدُ كاستل دي سانغرو كثيراً»؟

«كاستل دي سانغرو؟» لفظ الاسم بريبةٍ أوحتْ بأنَّه لم يسمع به في حياته مِن قَبْل.

«نعم. هل نحن ذاهبان إلى كاستل دي سانغرو. أجل؟ أعني: نعم؟»

«لا، لا، لا، لا، لا. سأوصلكَ إلى روكَّاراسو».

«أين»؟

«روكَّاراسو. ولكن لا تقلق، فهي لست بعيدة».

«ولكنني ذاهب إلى كاستل دي سانغرو».

هزَّ جوزبِّهْ رأسه. «ليس ممكناً». «لا ترتيبَ لذلك».

«ماذا تقصد»؟

«لا فنادقَ في كاستل دي سانغرو. فنادق كثيرة في روكَّاراسو. لممارسة الكثير من «التزحلق schee»[23]. هل تحبُّ «التزحلق»؟

«التزحلق»؟

حين يهطل الثلج كثيراً. التزحلق. مثل تُوْمْبَا»[24].

«أوه. التَّزلج ski! حسناً، كلا. ليس بالضَّبط. أنا لا أتزحلق schee. ولكن، يا جوزبِّهْ، ماذا بشأن كاستل دي سانغرو»؟

«لا مشكلة. أقول لك: لا تقلق. اذهب إلى فندق «بِسْتْ وِسْتِرْنْ رُوكارَاسُو». خذ قسطاً من النَّوم، ثمَّ سوف أتَّصل بك لاحقاً. فأنا مشغول جداً في هذه الأيَّام. ولكنّ «بِسْتْ وِسْتِرْنْ رُوْكَّارَاسُو» فندق جيِّد، اتَّفقنا؟ لا مشكلة. لا تقلق».

ثم استقبل ستَّ مكالماتٍ هاتفيَّة أخرى -كانت «تَشاوْ تَشاوْ تَشاوْ تَشاوْ تَشاوْ» التي يردِّدها، تقدح كصمَّامات محرِّك سيَّارته- ثمَّ خرج عن الطريق ودخل في موقف للسيَّارات. أستطيع أن أرى، وأنا أنظر من نافذة السيَّارة الجانبيَّة جهتي نُزُلاً باسم «بِسْتْ وِسْتِرْنْ».

ويمكنني أن أرى، وأنا أخرجُ من السيَّارة مُتعثِّراً وحقائبُ أمتعتي تسَّاقط من حولي، أننا قد كُنَّا في جزء من طريق مرصوفة بفنادق صغيرة

تفصل بعضها عن بعض، كما يبدو، محلَّات سلع رياضيَّـةٍ تعرضُ أزواجاً من الزلَّاجاتِ وسُتَرَ تزلُّجٍ ملوَّنة في ڤتريناتها.

فقال جوزبِّه: «لا تقلقْ. لا مشكلة. لا تقلق».

«لديَّ مشاغل كثيرة الآن. اِذهب إلى النَّوم. سأهاتفك لاحقاً. لا مشكلة».

«في أيِّ وقت، يا جوزبِّهْ؟» أشرتُ إلى ساعتي، «في أيِّ وقت ستتَّصل»؟

فطوَّح كلتا يديه عالياً، ثمَّ زفر زفرةً عميقة. كان ينبغي علـيَّ أن أفهم من حركته تلك، كما أعتقد، أنَّ سؤالي تستحيلُ الإجابة عنه. فأنَّى له أن يعرف متى سيتَّصل، وقد كان لديه الكثير من المشاغل، وهو منكبٌّ عليها في هذه الأيَّام؟ ثمَّ قال: «لا تقلق»، «لا مشكلة».

«حسناً، جوزبِّهْ. لا مشكلة. و.. شكراً لك على توصيلي. أقصدُ «غْرَاتْسيِهْ grazie».

«عَفْواً prego. انظر، الكتابة أسهل بالنسبة إلـيَّ من الكلام، أليس كذلك»؟

«أجل، أعني نعم. ولكنْ، يا جوزبِّهْ، هل لديَّ غرفة محجوزة هُنَا»؟

«نعم، نعم. أقول لك لا مشكلة».

«حسناً، لا بأس. لا مشكلة. ولكن، يا جوزبِّهْ أين تقع كاستل دي سانغرو»؟

«لا تقلق. ليستْ بعيدة. تشاوْ، تشاوْ».

«حسناً. تشاوْ».

«تشاوْ، تشاوْ، تشاوْ».

« تشاوْ، تشاوْ، تشاوْ، يا جوزبِّهْ».

«نعم، تشاوْ تشاوْ تشاوْ تشاوْ»، ثمَّ رفع زجاج نافذة سيَّارته وقادها منطلقاً، مُجرياً مكالمةً جديدة بهاتفه الخلويِّ.

2
الكالتشيو: شغفٌ فطريٌّ

أحتفظ بذكريات واضحة عمَّا كانت تبدو عليه حياتي مِن قَبْل. أفترض أنها كانت، في مناحٍ كثيرة، حياةً أفضل. لقد احترمني أولادي، وشاركتني زوجتي في اهتمامات عديدة، وكان لديَّ أصدقاء، واستمتعت بالموسيقى، وقرأت كتباً. بَيْدَ أنْ تستحوذ، فجأةً، علـيَّ «كرة القدم football» (وهو المصطلح المستخدم في أنحاء العالم كافّة، لوصف الرياضة المعروفة في أمريكا باسم «soccer») مسألةٌ بدتْ أقرب إلى احتماليَّـة أنْ أغدو رائد فضاء أكثر من أيِّ شيء آخر.

ولم يكن ثمة شيء تدريجيٌّ أفضى إلى البداية. استيقظت، بكل بساطة، ذات صباح في أواخر ربيع عام 1994، وقد غمرتني فجأةً حماسة جارفة ولدتها حقيقة أنَّ الولايات المتحدة سوف تستضيف كأس العالم في ذلك الصيف، وهي منافسة تعقد كل أربع سنين لتحديد بطل العالم في كرة القدم. ولم تَبْدُ حقيقة أنني لم أشاهد مباراة واحدة البتَّةَ، طيلة حياتي، ذاتَ صلةٍ بالأمر على الأقل.

ولأنَّني كنت متلهِّفاً إلى الحصول على المعلومات تلهُّفاً شديداً، في عصر ما قبل الإنترنت، فقد حرصتُ على الذَّهاب المتكرِّر، على غير عادتي، إلى مكتباتٍ مغمورة بعيدة عن بيتي، عائداً في أيَّام السَّعْد بمجلَّداتٍ لا تحوي فحسبُ ملخَّصات إحصائيَّـة عن جميع مباريات كأس العالم التي أقيمتْ منذ أنْ عُقدَتْ البطولة لأوَّل مرَّة سنةَ 1930، وإنّما على أوصاف وتحليلات

عن المنتخبات القوميَّـة الأربعة والعشرين التي ستتنافس في أمريكا أيضاً. رحتُ أُعلِّمُ بعض الأسماء كفرانك دي بور، وجورجي هاجِّي، وغابرييل باتيستوتا، وبعض العبارات من قَبِيل «هل تعرف أنَّ هذه هي المرَّة الأولى التي تتأهل فيها النَّرويج منذ العام 1938»؟

ولقد شاهد طبيبي، الذي كان أيضاً صديقي، مباراة تمهيديَّـة برفقتي، ثم عزا في الختام حالتي، مُتهكِّماً في معظم كلامه، إلى جلطة صغيرة من ذلك النَّوع الذي أدَّى على ما يبدو -في الوقت الذي كانت فيه جميع وظائف المُحرِّك [الجسد] صحيحة، لم يمسسها سُوء- إلى تعطيل ذلك الجزء من الدِّماغ الذي يعمل عادة على حماية الأمريكيين ضدَّ أيِّ تقديرٍ لكرة القدم أو حتَّى الاهتمام بهذه الرِّياضة.

أستطيع أن أرى، متأمِّلاً أحداث حياتي الماضية، أنَّ تفسيراً أقلَّ مدعاة للقلق قد يكون مرتبطاً، لأسبابٍ متنوِّعة غير ذات صلة بالغة بهذه الحكاية، باستعدادي النَّفسيِّ، في ذلك الوقت، إلى خوض غمار شغفٍ يستنفدني لا علاقة له بتجربتي الحياتيَّـة السابقة. ولكنَّ ذلك لا يهمُّ على أيِّ حال. ومثلما لاحظ كيركيغارد ذات مرَّة: «لا يمكن تمييزُ العبثيِّ في حدود النِّطاق السَّويِّ للفهم».

ثُمَّ انطَلَقَتْ، بعد أقلَّ من أسبوعين، بطولة كأس العالم. كنت، منذ اليوم الأول للمسابقة، قد انجذبت إلى جهاز تلفازي انجذاباً شديداً، أشاهدُ المباريات في بثِّها الحيِّ ومسجلة على أشرطة الفيديو على حدٍّ سواء طيلة الوقت. كانت الطبيعة المهووسة لحماستي الجديدة واضحة منذ البداية.

افتتحتْ ألمانيا، حاملةُ اللقب، البطولةَ بخوض مباراة ضدَّ بوليڤيا. قامت بوليڤيا، في الشوط الثاني، بإدخال لاعب بديل طويل الشعر يتطاير

من عينيه شرر الغضب، يدعى إتشيڤيري، وهو الذي سوف يُطرَد، في غضون ستين ثانية، بسبب ما عَدَّهُ الحكمُ حركةً بالغة العُنف ضدَّ أحد اللاعبين الألمان.

فثارت ثائرتي. صرختُ على جهاز تلفازي: «ماذا»؟ «هذا لا يُصدَّق». لا يمكن طرده لهذا السبَّب! كان الأمر كما لو أنني قد وُلدت وترعرعت في «لا پاس»، هكذا غضبت (كان طيش الغضب نابعاً من حقيقة أنَّه لم تكُن لديَّ في ذلك الوقت ألا معرفة سطحيَّةً بقواعد كرة القدم، ولذلك فلا أساسَ منطقياً البتَّةَ للشكِّ في قرار الحكم، ناهيك عن الصِّياح بأعلى صوتي).

والأسوأ من ذلك، أنَّني كنتُ أُبَرْبِرُ، بين المباريات، إلى العائلة والأصدقاء حول اللاعبين المُبرِّزين، المجهولين (بالنسبة إلـيَّ) حتى ذلك الحين، من أمثال سْتُويْتشكوف البلغاريِّ، ودَالِينْ السويديِّ، وبيركامپ الهولنديِّ، وبيتو البرازيلـيِّ، وأومام بييك الكاميرونيِّ، وحتَّى ذلك الشَّاب السَّعودي الذي يدعى سعيد العويران. «هل شاهدتم ذلك الهدف في مرمى البلجيكيِّين؟!»[25].

كانت الولايات المتّحدة تُنافس، ولا بُدَّ لي من الاعتراف بأنَّ الروح الوطنيَّة لم تلعب أيَّ دور في هَوَسي، فلقد تأثَّرت بتعادل إسپانيا وكوريا الجنوبيَّـة تأثُّراً شديداً، لا يختلف عن مدى تأثُّري بفوز أمريكا الصاعق وغير المتوقَّع على كولومبيا. وحين علمتُ، على وجه السُّرعة، أنَّ التذاكر كانت متوافرة للمباراة التي سوف تقام في الخامس والعشرين من شهر يونيو في ستاد فوكسبورو، خارج بوسطن، على بُعْد مسافة تستغرق ثلاث ساعات بالسيَّارة من منزلي بغربيِّ ماساتشوستس، لم أعبأ كثيراً بأنَّ الفريقَيْن اللذيَنْ سوف يلعبان هما نيجيريا والأرجنتين.

حتَّى إنَّنى، على الرغم من إعجابي باللاعبين النيجيريِّين، إعجاباً شديداً، لم أنزعج كثيراً في نهاية اليوم من حقيقة أنَّ الأرجنتين قد فازت. لم تكُن النتيجة النهائيَّـة هي التي غيرَّت العالَم الذي عرفته إلى الأبد، وإنَّما متعة الفُرجة وأُبَّهة الحدث: الشَّغف في المدرَّجات والملعب على حدٍّ سواء، الأجواء البرَّاقة والذَّوق والحماسة المدويَّـة، فضلاً عن الجمال والتألُّق والقوَّة البدنيَّـة والدَّهاء البارع الذي ساد لعب المباراة في حدِّ ذاته.

كنت قادراً، حتَّى ذلك الحين، على إشباع لهفتي بكل بساطة، بمشاهدة المباريات على شاشة التلفاز. ولكنَّ اللذة الأولى لذلك الشيء الحقيقيِّ قد دفعتني إلى أفقٍ جديد. وكي استخدم استعارة جنسيَّـة (قد اعتذر عنها، فما يشغف به الرِّجال شغفاً شديداً مثلما هو معروف في أنحاء العالم كافة خارج الولايات المتَّحدة وكندا، على ما أعتقد، هو اللذة التي تهيِّجها ممارسة الجنس وكرة القدم) فإنَّ الفارق بين المشاهدة على شاشة التِّلفاز أو هناك في المدرَّجات، قد ثَبُتَ بأنَّه لا يختلف قط، في متعته، عن ممارسة كرة القدم والجنس.

قيَّدتني الظروف بمشاهدة مباراة واحدة أخرى مشاهدةً حيَّـةً في مدرَّجات ستاد فوكسبورو، يومَ الخامس من شهر يوليو. كان أحد الفريقَيْن، مرّة أخرى، منتخب نيجيريا الذي تمكَّن من تخطِّي المرحلة الأولى على الرغم من خسارته أمام الأرجنتين. ولكن في هذه المرَّة كان الخصم إيطاليا التي، على الرغم من كونها أحد المرشَّحين المفضَّلين للفوز للبطولة، قد لعبت على نحو بالغ الرداءة في الدَّور الأوَّل، إلى درجة أنَّها لم تتمكَّن إلا بالهوامش الإحصائيَّـة الطَّفيفة من التأهُّل إلى مرحلة الإقصاء الفرديِّ [خروج المغلوب] التي ستتنافس فيها الدُّول الست عشرة الباقية.

ولم يَبْدُ أيضاً أنَّ إيطاليا قد تحسَّن مستواها قَيْدَ أُنملةٍ، معظمَ تلك الظهيرة القائظة شديدة الرُّطوبة في ستاد فوكسبورو. ومما لا شكَّ فيه أنَّ المباراة الثانية التي سوف أشاهدها مشاهدةً حيَّـةً، كانت تبدو كما لو أنَّها ستغدو واحدةً من الانتصارات العظيمة وغير المتوقعة في تاريخ كرة القدم، فلقد تقدَّمت نيجيريا، ا- صفر، ولم يَبْقَ على انتهاء المباراة إلا دقيقتَيْن اثنتَيْن. صاح 55000 متفرِّج -وهو العدد الذي يمكن أن يستوعبه ستاد فوكسبورو- بأعلى أصواتهم حتَّى بُحَّتْ حناجرهم، مُنجرفين في سلسلة نغم المشاعر الإنسانيّة، فغدَوْ، عند اقتراب النهاية، مُنهكين عاطفياً على شاكلة اللاعبين الذين كانوا منهكين جسدياً.

ولكن حين بدا أكيداً ألا شيءَ قد تبقَّى عند أحد، في كلا الجانبَيْن، يمكن أن يقدِّمه جسدياً أو عاطفياً، تقدم إيطاليٌّ نحيف ووسيم يدعى روبيرتو باجيو، وركل الكرة ركلةً خفيفةً بطرف قدمه اليمنى، فأصابتِ الكرةُ المرمى، ثُم قام باجيو، هذا، بالتسجيل ثانيةً في الشَّوط الإضافيِّ ففازت إيطاليا.

لقد أنقذ باجيو -هذا البوذيُّ، ذو القامة التي تنتصبُ خمسَ أقدام وسبعَ بوصاتٍ، ولا يزنُ إلا 145 باونداً، ويعقدُ شعرَهُ ذيلَ حصانٍ، ولَمْ يَبْرَحِ السَّابعةَ والعشرين من عُمره بعدُ- كبرياءَ هذه الأُمَّة.

كُنتُ مبهوراً، وغدا هوسي الآن في بؤرة التَّركيز والاهتمام، فلقد أضفى باجيو على اللعبة قَدْراً من الأناقة والأُبَّهة وهالةً من السِّحر لم أشاهدها حاضرةً قطُّ في أيِّ رياضة مِن قَبْل.

ثمَّ بعد أربعة أيَّام فعلها باجيو مرَّة أخرى ضدَّ إسبانيا في الرُّبع النهائيِّ، مسجِّلاً هدفاً ولم يبقَ سوى دقيقتَيْن على النِّهاية، مانحاً إيطاليا الفوزَ 2-1.

ثم سجَّل بملعب مدولاندز في نيوجيرزي يومَ الثالث عشر من شهر يوليو هدفَيْن مدهشَيْن في غضون أربع دقائق، ليضمن الفوز لإيطاليا على بلغاريا العنيدة، 2-1.

لقد سجل باجيو خمسة أهداف في ثلاثٍ من أكثر المباريات أهميَّـةً خاضها في حياته قطُّ (حدث هذا في رياضةٍ كان معدَّل التفوُّق في التَّسجيل، في أيِّ دوريٍّ حول العالم، نحو «0,75» هدفاً في المباراة الواحدة). كان أداء باجيو يُصنَّف ضمن أعظم الإنجازات الفرديَّـة في بطولة كأس العالم منذ انطلاقها، أوَّل مرَّة، سنةَ 1932.

ولكنَّه تعرَّض، لسوء الحظِّ، لإصابة بالغة في عضلة العرقوب في وقت متأخِّر من مباراته ضدَّ بلغاريا، فخرج من الملعب عند انتهاء المباراة والدموع تنهمر من عينيه، متأكِّداً أنَّه لن يكون قادراً على اللعب في المباراة النهائيَّـة التي سوف تواجه فيها إيطاليا البرازيل في ستاد روز باول بعد أربعة أيَّام.

ومما لا شكَّ فيه أنَّه لم يكُن لائقاً من الناحية البدنيَّـة كي يلعب. ولكنَّه، وقد جازف مجازفة كبيرة تعرِّضه للخطر، قاد الفريق في الملعب، على الرغم من أنَّ أيَّ طبيب رياضيٍّ (أو مدرِّب) كفء لم يكن ليسمح له بأن يفعل ذلك. لقد عَرَج، بشجاعة، طيلة تسعين دقيقة من اللعب الخالي من الأهدف ضدَّ البرازيل، ثُمَّ طيلةَ الثلاثين دقيقة من الشوط الإضافيِّ الذي انتهى بدوره بلا أهداف مُسجَّلة.

ثمَّ تقرَّر أن تُحسَم هذه المباراة، وبطولة العالم، بضربات الجزاء. سيحاول خمسة لاعبين من كل فريق ركل الكرة في مرمى الخصم (الذي كان بعرض أربع وعشرين قدماً وبارتفاع ثماني أقدام) من مسافة تبعد

ثِنْتَي عشرة ياردة، ولا يُسمَح إلا لحارس مرمى الخصم أن يحاول صدَّ الضَّربة.

ولم ينجح في التَّسديد، من بين أوَّل أربعة لاعبين من كل فريق نفَّذوا الضَّربات، إلا ثلاثةُ برازيليِّين وإيطاليَّان. كان باجيو الخامسَ والإيطاليَّ الأخير الذي يحاول. ولقد ضيَّع الضربة أيضاً، فغدت البرازيل بطلة العالم. وكانت صورته واقفاً -بعد ذلك- وحده في منتصف ملعب روز بأول، مطأطأ الرأس وإحدى يديه مرفوعة إلى عينيه الطافحتين بالدموع، قد حرَّكت مشاعري فأصابتني بحزن شديد، ولم أستطع، لعدَّة أيَّام بعدها، أن آكل أو أتحدَّث إلا لِماماً، على الرَّغم من أنَّني لم أكُن حتَّى إيطالياً!

وفي منتصف سبتمبر، قبل شهرين من إقامتي في إيطاليا مع إلكسي لالاس، ذهبتُ ونانسي إلى سويسرا على أمل أن يصفي بعضُ التنزُّه سيراً على الأقدام في جبال الألب ذهني. ولكنَّنا وصلنا، ذات ظهيرة، إلى قرية صغيرة على شاطي بحيرة لوسرن، فلمحتُ، من مسافة لا تقلُّ عن خمسين ياردة، نسخةً من «لا غازيتَّا ديلُّو سبورت» في كشك يبيع الجرائد.

تُعَدُّ «لا غازيتَّا» أفضل الصُّحف الإيطاليّة الثلاث اليوميَّة التي تكاد تكون مكرَّسة بالكامل لأخبار عالم الـ «كَالْتشْيُو» والإشاعات التي تدور حوله؛ و«الكالتشيو» هي الكلمة التي يطلقها الإيطاليُّون على كرة القدم (المعنى الحرفيُّ: الرَّكلة). الصحيفة مطبوعة على ورقٍورديٍّ صارخ، بعناوين سوداء حالكة تزعق بحروف كبيرة لتهيِّج مشاعر القارئ، تهيُّجاً شديداً، حتَّى قبل أن يعرف إنْ كان من المفترض عليه الشُّعور بالغضب أم الفرح، وهي مسألة مرتبطة على نحو مثاليٍّ بالهستيريا الدَّراماتيكيَّة التي تشيعها هذه الرياضة في كلِّ زاوية من زوايا الحياة الإيطاليَّة.

كان تأثير هذا المشهد علـيَّ، في ظهيرة يوم السَّبت الرائق ذاك عند بحيرة لوسرن، تأثيراً حماسياً. عرفْتُ، بنظرة خاطفة على الصفحة الأولى، أنَّ «إيه. سي. ميلان» سوف يلعب على أرضه، في اليوم التالي، ضدَّ فريق لاتسيو القويِّ القادم من روما. لم أحتجْ، بعد ذلك، إلا خمسَ دقائق، وأنا أدقِّق في جداول المواعيد، لأعرفَ أنَّ بإمكاننا القيام بذلك.

فشرحتُ لنانسي أنَّنا إن استيقظنا في الساعة 5:30 صباحاً، وركبنا أوَّل مُعَدِّيةٍ ذاهبة إلى لوسرن، ثمَّ التحقنا بالقطار السريع المنطلق إلى زيورخ، ثمَّ صَعِدنا على متن القطار الذاهب إلى مطار زيورخ، فسوف نكون قادرَيْن على اللحاق بطائرة الساعة 12:30 مساءً التي سوف تهبط بمطار ميلانو تمامَ الساعة الثانية مساء، حيث يمكننا أن نستقلَّ سيارة أجرة من هناك إلى سان سيرو، ستاد ميلان، في الوقت المناسب لمشاهدة المباراة التي ستقام في الرابعة مساء. ثم إننا نستطيع، بعد ذلك، ركوب سيَّارة أجرة إلى المطار، والصعود على متن الطائرة الأخيرة الذاهبة من ميلانو إلى زيورخ في تلك الليلة، والعودة إلى جبال الألب في اليوم التالي.

وهذا ما حدث. وصلنا إلى سان سيرو -الذي يُعَدُّ معبدَ عشقٍ متعدِّدَ الطبقات للدور الذي ينهض به الكالتشيو في المجتمع الإيطالـيِّ- قبل بدء المباراة بساعة كاملة. ثم خبرنا غير مُصدّقَيْن هستيريا الجموع الغفيرة الحقيقيَّـة، لأوَّل مرَّة، في حياتَيْنَا. موجة إثر موجة من الشغف المُلحِّ والمُحفِّز الذي تهفو إليه القلوب، مُتجسِّداً في شماريخ ناريَّـة حمراء يتطاير منها الشّرر ويتصاعد منها دخانٌ ورديٌّ عارمٌ، وفي هتافاتٍ تصمُّ الآذان تتعالى من حناجر 70000 مشجِّع لنادي ميلان أحاطو بنا وغمرونا، خابطين على مدرَّجات الاستاد الكونكريتيَّـة.

لم تكُن هذه المباراةُ مباراةً يخوضها المنتخب القوميُّ؛ فالمجموعة التي ينضوي عليها المنتخب تحوي، بصورة أساسيَّة، فرقةً من نجوم اللعبة الذين جُمعوا لخوض المنافسات الأقلِّ استمرارية نسبياً بين البلدان. وبانتهاء بطولة كأس العالم، عاد أعضاء المنتخب الإيطالي إلى نواديهم التي يلعبون فيها، لخوض موسم الدوري الإيطالي الذي يستمرُّ تسعة شهور.

لم تكُن مشاهدة هذه المباراة، بأيِّ حال من الأحوال، كمثل مشاهدة مباراةٍ في بطولة كأس العالم بأمريكا حيث بدت المراعاة المجاملة التي يُبديها المرء تجاه ما يُحبِّذه جاره هي الأخلاق السائدة هناك. كانت هذه حرباً! وكان لاتسيو هو العدوَّ، على الرَّغم من أنَّ ثلاثة أعضاء في فريق لاتسيو قد لعبوا في المنتخب القوميِّ قبل ثلاثة شهور، وتلقَّوا الدَّعم بالحماسة البالغة ذاتها التي يتلقَّون بها السخرية والازدراء الآن.

أما مشجِّعو لاتسيو، الذين بلغوا الألف أو نحو ذلك، القادمون من روما بعد أن حصلوا على التذاكر بطريقة أو أخرى، فقد كانوا في حماية عدد كبير من رجال الشرطة الذين يعتمرون خوذهم في أرجاء زاوية بعيدة، حتَّى لا يتمكَّن الـ «المِيْلَانَاوِيَّـةُ»[26] الهتَّافون، المطلقونَ المشاعل الناريَّـة، من الوصول إليهم وإلحاق الأذى بهم.

ولا بُدَّ من الاعتراف أنَّ الإيطالـيِّين لم يتعلَّموا لعب كرة القدم أفضل من أيِّ بشر آخرين في معظم بلدان العالم فحسب، وإنما غرسوا في اللعبة شغفاً فِطرياً جامحاً أيضاً، تجسَّدَ على نحو أسبوعيٍّ -وكنا شهوداً عليه في سان سيرو- حتَّى كأنَّهُ يعدِلُ كلَّ الشَّغف الذي ولَّدته جميع الأحداث الرياضيَّـة، وحفلات الرُّوك، وحركات الاحتجاجات السياسيَّـة، ومحافل إحياء عقيدة الولادة الجديدة في المسيحيَّـة، ومظاهرات الحقوق المدنيَّـة،

ومسيرات مناهضة الحروب، والتظاهرات العلنيَّـة الأخرى المعبرة عن المشاعر التي جرت في الولايات المتَّحدة مجتمعة.

وصلت شدَّة الشَّغف ذروتها الأولى قبل دقائق من بداية الساعة الرابعة مساءً حين دخل لاعبو «إيه. سي. ميلان»، بقمصانهم المميَّزة المقلَّمة بشرائط حمراء وسوداء، إلى أرض الملعب. أما الذروتان الثانية والثالثة -اللتان كانتا ضعفَ شدَّة الذروة التي سبقتهما مرَّتين- فقد تجلَّتا حين تألَّق هولنديٌّ مضفور الشَّعْر ينحدر من أصول سومطريَّـة، يدعى رود خوليت، فسجَّل هدفَيْن مُذهلَيْن لصالح فريق ميلان؛ مانحاً ميلان الفوزَ 2-1، بهدفه الثَّاني الذي سجَّله قبل ثوان من انتهاء المباراة.

راقصَيْن من الفرح حول موقف السيَّارات المكتظِّ عن بكرة أبيه، بعد ذلك، رفقةَ آلاف الإيطالـيِّين من مختلف الأعمار الذين لا يَخفى بأنَّهم قد كانوا «ميلاناويَّـة» منذ ولادتهم، أو منذ يوم معموديَّتهم على الأقلِّ (فقد جرت العادة لدى كثير من العائلات الإيطاليَّـة ألا يُسمُّوا الطِّفل في أثناء طقوس العموديَّـة فحسب، وإنَّما يقرِّرون أيضاً أيَّ فِرَقِ «الكالتشيو» سوف يناصر ببسالة طيلة حياته)، خبطنا نانسي وأنا بسائق سيَّارة أجرة يكاد يطير من الفرح، وما إن استنتجَ أنَّنا أميركيَّان، قطعا كلَّ تلك المسافة إلى ميلانو لمشاهدة المباراة فحسب، حتَّى أصرَّ على توصيلنا إلى المطار دون مقابل.

ولكنَّنا، في تلك الاندفاعة المحضة الأولى غير المنقطعة من النَّشوة التي ولَّدتها الكالتشيو، لم نأخذ الجانبَ المظلم بعين الاعتبار: أنَّ هَوَسي سوف يزداد سوءاً، إلى الحدِّ الذي سوف تغدو فيه هذه الممارسة الترفيهيَّـةُ القوَّةَ المهيمنة على حياتي، دافعةً إياي لا محالةَ إلى السقوط من علياء الفرح، الذي جسَّده ذلك الأصيل الساحر بسان سيرو، نحو سهول كاستل دي سانغرو البعيدة التي تذروها الرِّياح.

3
الحالمة بجرَّة الذَّهب

رنَّ الهاتف. بعد ساعةٍ؟ ساعتَيْن؟ لم أعرف.

«مرحباً»؟

«مرحباً، جُو». كان صوتاً أنثوياً لم أعرفه يتحدث الإنكليزية.

«هذه باربرا»، تحدَّثتْ بلكنة إيطاليّـَة لا تكاد تُلحظ.

«نعم»؟

«حسناً، إنَّني في الرُّدهة. أترغب في أن أنتظرك هناك»؟

حاولتُ، وقد أثقلَ الأرقُ جفنيَّ بسبب إعياء السَّفر واختلاف التَّوقيت والإحساس بالغرابة الذي انتابني جرَّاء هذه المكالمة، أن أجد شيئاً أتشبَّث به ولكنني لم أفلح.

«حسناً، بالطَّبع. انتظريني هناك. ولكنْ لماذا؟ أقصدُ، مَن أنتِ»؟

«أوه، ألا تذكر؟ لقد قلت، في رسالتك المرسلة بالفاكس، إنَّك تأمل في أن تجد لك لا سُوتِشتَا[27] مترجماً»؟

«آه، أجل، نعم، نعم، نعم، نعم. أرجو المعذرة. لقد كنتُ نائماً». تذكَّرت. كانت «لا سُوتِشتَا» هي المؤسسة التي تملك كاستل دي سانغرو -نادي كرة القدم في البلدة- وتشرف على إدارته، وكان السيِّد غابرييل غرافينيا رئيس النادي. وقد سألت، في إحدى رسائلي المرسلة بالفاكس، سواء إليه أو إلى جوزبِّه، مساعده الجديد للشؤون الخارجيَّـة، إنْ كان من الممكن تعيين أحد السكَّان المحلـيِّين ليعمل مترجماً لي، في البداية على

الأقلِّ. ويبدو أنَّ الأمر قد كان. فها هي ذي تنتظري الآن في الرُّدهة، على الرَّغم من أنَّه لا يخطر ببالي في هذه اللحظة أيُّ شيء يحتاج إلى ترجمة، إلا ربَّما أحلامي المضطربة.

قالت: «أنا آسفة». «إن كان هذا الوقت غير مناسب لك، يمكننا الالتقاء لاحقاً، ولكنَّ جوزبِّه اقترح أن أهاتفك لأنَّ الرئيس غرافينيا قد دعاك إلى العشاء بمطعم البيتزا في الساعة التاسعة مساءً، فظننتُ أنَّني أستطيع أخذك، قبل أن نذهب إلى هناك، في جولة قصيرة بكاستل دي سانغرو».

«أجل، بالطَّبع، أو يمكنك أن تُريني مكان المطعم على الأقلِّ».

فقالت ضاحكةً: «أوه، لا تقلق، إنَّه ليس بعيداً».

التقيتها في الرُّدهة. رأيت، بعينيَّ اللتين مازالتا مُحْمرَّتين ومتورِّمتين، امرأة جذَّابةً، في الأربعين من عمرها أو تكاد، ترتدي ثيابها بأناقة حاذقة. حيَّتني بابتسامة ودودةٍ وصافحتني بحرارة. لا بُدَّ أنّني قد بدوت حيرانَ بعض الشيء لأنَّها سألتني على الفور: «أثمَّةَ خَطْبٌ»؟

هززت رأسي، «أوه، كلا، كلا. إنَّه مُجرَّد- حسناً، لا أعرف، لم أكن أتوقَّع مجيئك. أقصدُ، شخصاً مثلك. أرجو المعذرة.. فكلُّ شيء مازال الآن خارج نطاق التَّركيز قليلاً».

فتبسَّمتْ ثانيةً، ثمَّ قالت: «آه». «لم تكُن تتوقَّع شخصاً مستعداً ومتعلِّماً، تعليماً عالياً، يرتدي ثيابه بطريقة محترمة، ويتكلَّم الإنكليزية بلكنة لا تكاد تظهر»؟

«تماماً. كنت أتوقَّع أن تكوني، حسناً.. ربَّما رجعيَّـةً وتأسُّليَّـةً».

فقالت: «رجعيَّـةً، كلا»، «ولكنّني قد أكون تأسُّليَّـةً في بعض الأحيان».

«هل تنحدرين من عشيرة محليَّـة؟»

«نعم، أعتقد أنك تستطيع قول ذلك».

«ولكن هل تعيشين حياة بائسة في فقر مدقع»؟

«ليس منذ الجامعة. أستميحك عذراً، هل هذه مقابلة عمل»؟ «أوه، كلا، أرجوكِ. لا تسيئي فهمي؛ إنَّه مجرَّد.. مازال رأسي يدور منذ الرحلة بالطائرة، كما تعرفين، ولم أكد أصل إلى كاستل دي سانغرو حتى تهاوت جميع الأفكار النمطيَّـة التي تكوَّنت لديَّ في السَّابق عن المنطقة وشعبها».

فضحكتْ. «حسناً، متأسِّفةٌ لأنني أسهمت في مثل هذه العمليَّـة المؤلمة، ولكنني نشأت في كاستل دي سانغرو، ثم ذهبت إلى الجامعة، وعشت خارج البلاد عدَّة سنين، في إنكلترا وتونس، حتى إنني قضيت بعض الوقت في أمريكا، ولم أعد إلا قبل سنتين لأنَّ أمِّي كبيرة في السنِّ وليست بصحَّة جيِّدة، ولكنَّني أستطيعُ، من هُنَا، مِن كاستل دي سانغرو، ومن خلال آلة الفاكس التي أملكها ومعرفتي باللغة وسيَّارتي، التَّفرغَ للعمل مترجمةً للنصوص الطبيَّـة والمقالات الصحافيَّـة لعدَّة شركات أدوية أميركية وإنكليزيَّـة مختلفة تمتلك مكاتب كبيرة في روما، فأقضي ثلاثة أيَّام عمل في الأسبوع بكاستل دي سانغرو واثنين بروما».

«يا للرَّوعة»!

«كلا، ليس رائعاً إلى هذا الحدِّ؛ إنَّما أفضل حياة يمكنني تأمينها لنفسي في الوقت الرَّاهن. وكي أريح بالك وأفكارك النمطيَّـة المُسبَّقة، فليس ثمَّة كثيرون على شاكلتي في كاستل دي سانغرو. وأعتقد أنني لن أتبجَّح حين أقول إنني أمتلك أفضل المؤهِّلات، في البلدة برمَّتها للتحدُّث بالإنكليزيَّـة والترجمة إليها. فإنْ كنت قد جئتَ متصوِّراً أنَّنا، في أبروتسو، نعيش في

أكواخ شديدة الرُّطوبة مع نساء احدودبت ظهورهنَّ، يرتدين شالات غامقة ويحدِّقن صامتات بعيون مريبة وأفواه سقطت أسنانها، فالصُّورة التي تحملها ناقصة وقد عفا عليها الزمن ومُبالَغ فيها إلى حدٍّ ما، لكنّها ليست غير صحيحة تماماً».

«آمل أنني لم أجرح مشاعرك».

«بالطَّبع لا. لا تضيرني البتَّةَ الأفكار النمطيَّة المسبقة. فهي ليست أسوأ من لفظة اللاپوتينيِّين التي تدعوننا بها الصُّحف، قائلة إنَّ حيواتنا قد تحوَّلت الآن، بسبب المعجزة، إلى حكايات خرافيَّة. فإذا كانت حياتي الآن حكايةً خرافيَّة، فلا أقلَّ من أن أحظى بأمير أحلامي وأفوز ربَّما بجرَّة الذَّهب في المكان الذي ينتهي فيه قوس قزح[28]. ولكنَّ هذي الأمانيَّ لم تتحقق لغاية اللحظة».

فقلتُ: «ولكنَّ المعجزة قد وقعت، أليس كذلك»؟ «أوه، بلى. وقعت المعجزة. ولقد كانت طيلةَ ثلاثة شهور الشيءَ الوحيد الذي يمكن لأيٍّ امرئٍ الحديث عنه. أمَّا أنا فأعتقد أنَّها قد تسفر في النهاية عن أمرٍ وخيم، مفضية إلى آمالٍ زائفة وخيباتِ أملٍ أسوأ، ولكنَّني في زمرة أقليةٍ صغيرة جداً تقول ذلك. فالمعجزة، بالنِّسبة إلى كل شخص تقريباً، قد رسمت البسمة، لأوَّل مرَّة، على الوجوه سنينَ طويلة. لقد جلبت الأمل. لقد جلبت الإيمان. ولقد جلبت احترام الذَّات. والآن جاءت بشيء آخر».

«ألا وهو»؟

«أنت أيَّها الأمريكيُّ. فأنتَ، أيضاً، سوف تغدو الآن جزءاً من الحكاية الخرافيّة: الغريب الغامض القادم من البعيد. نأمل أن تجلب لنا مزيداً من حسن الطَّالع، ولكنَّنا لسنا على يقين من ذلك».

فسألتها: «وإن لم يكُن كذلك»؟

هزَّت كتفيها غير مبالية، وقالت: «لا أحدَ يعرف البتَّة».

وفي أثناء ذهابنا بالسيَّارة إلى كاستل دي سانغرو، التي لم تبعُد سوى اثني عشر كيلومتراً، كان ضوء أوَّل المساء هادئاً وشفَّافاً -على الشَّاكلة التي شعرتُ فيها برأسي- فامتدَّت مناظر واسعة من جانبَي الطريق حتَّى الجبال العالية المغطَّاة بالثلوج في المسافة البعيدة.

فقلت: «مشهد جميل».

فوافقتني باربرا قائلة: «خلابٌ، ولكنَّ البلدة ذاتها ليست جميلة، لسوء الحظِّ، إلى هذا الحدِّ. لقد احتلَّها الألمان في الحرب أوَّلاً، ثمَّ قصفها الأمريكيون من الجوِّ. ودَكَّ الألمانُ، حين غادروا، كلَّ ما تبقَّى بالمدفعيَّـة الأرضيَّـة، فلم تبقَ لنا سوى كنيسة واحدة أثريَّـة. وكلُّ ما سواها قد شُيِّد منذ الحرب. ولم يُشيَّد للفرجة الجماليَّـة وإنما لتحقيق الرِّبح. ولكن هُنَا: تستطيع أن ترى بنفسك».

انحرفت باربرا عن الطريق التي كنَّا نسير فيها وسلكت شارعاً أصغر وأضيق تهادى ذات الشِّمال، ثمَّ بانتْ فجأةً على جانبَيْه حوانيت صغيرة. فقالت باربرا: «بلدتنا صغيرة، ولكنَّها الوحيدة في الجوار لعدَّة أميال. لذا، فالناس يأتون إلى هنا للتسوُّق، قادمين من الـ «كوميونات»[29] والقرى التي هي أصغر من بلدتنا. وكذلك الذين يأتون «للتزلُّج ski»- لفظتِ الكلمة بإنكليزيّةٍ سليمةٍ بكلِّ سهولة[30]- فيقدمون، في بعض الأحيان، من روكّاراسو لشراء بعض الحاجيَّات. ويأتي بعضهم، في العطل ونهاية الأسبوع؛ يأتي الناس من نابلوي ليقضوا النَّهار في شوارع نظيفة وينعموا

بهواء نقيٍّ. لذا، فثمَّة ما يكفي لدى حوانيتنا الصغيرة لتبقى مفتوحة. قلَّة قليلة منا أغنياء، بَيْدَ ألا أحدَ يتضوَّر جوعاً».

«ولكن أين ذوت أرواحنا منذ كنتُ صبيَّـةً فغدت خاوية الآن هنا؟ إنَّ المنظر الطبيعيَّ والجبال جميلة، ولكنَّها خارج أنفسنا. أخشى أن تكون الحياة، بالنسبة إلى الكثيرين، كمثل هذه الحوانيت التي تراها. أفضل من لا شيء، ولكن لا أحد ينتبه إلى هذه الملاحظة، بالقَدْر الذي تستحقُّه، إلا نادراً. وعلى الرَّغم من مضي أكثر من خمسين سنة على الحرب، فإنَّنا لم نتعافَ، إلى حدٍّ بعيد، من تبعاتها بعد. لقد فرَّ الكثير من شعبنا، ولم يعد منهم إلا القليل. ولكنَّهم حين عادوا لم يجدوا سوى الحطام والأنقاض. لم نَبْنِ من تلك الأنقاض إلا ما تراه. كان ينبغي أن نكون خمسة وعشرين ألف نسمة في هذه البلدة، ولكننا خمسة آلاف الآن فحسب».

«ولكن، ربَّما ستغيِّر المعجزة كلَّ ذلك».

«أجل، هذا ما يواصل غابرييل -السيِّد غرافينيا- قولَه. ولكنَّني لا أرى كيف. فحتَّى المعجزة لا تدوم، كما تعرف، إلى الأبد».

ركنتْ السيَّارة فيما بدا من الواضح أنَّه مركز المدينة. كان شيئاً يصعب وصفه مثلما قالت. (سأجد، بمرور الوقت، أنَّ كل شيء تقريباً كمثل ما قالته باربرا. وسوف أجد أيضاً أنها حين لم تعرف، لم تنبس ببنت شفة البتَّة، الأمر الذي كان سوف يجعلها-وحده- فريدة بين أقرانها، لا في كاستل دي سانغرو فحسب). لم تكن البلدة شنيعة -فالعين لا تنفر منها، كعديد البلدات الإيطاليَّـة التي مررت بها خلال الشهور التسعة التَّالية- ولكنَّها شاحبة بلا أدنى شكٍّ.

بيد أنَّ ذلك لم يهمني قطُّ، فلستُ سائحاً، ولم آتِ لشراء بطاقات بريديَّـة.

ما سرَّني فيها هو مداها: صغير ومقدور عليه. فالمرء يستطيع العيش هنا بلا سيَّارة. حذاء جيِّد، ومعطف دافئ للطقس البارد، وكساء خارجيٌّ يقيني المطر تكفي، ولقد خُيِّلَ إلـيَّ أنَّ المرء يمكنه الذهاب ماشياً إلى أيِّ وجهة ممكنة داخل البلدة.

كانت الأرصفة، في الحقيقة، تعجُّ بالمشاة الذين يتدفقون إلى الشارع. قالت باربرا: «هذا وقت التنزُّه سيراً على الأقدام passeggiata». فأغلب النَّاس يخرجون في بداية المساء للتَّمشِّي، بأنحاء إيطاليا كافَّة. لا وجهة بعينها، ولا غاية. يسير المرء على مهله، ناظراً من حوله، متجاذباً أطراف الحديث مع الأصدقاء بين حين وآخر. وربَّما للتسوُّق، ولكنَّ ذلك لا يعنُّ على بال المرء في العادة إلا بعد الخروج، ولا يكون غايةً في ذاته. تكمن متعة «التنزُّه سيراً على الأقدام» في أنْ لا غايةَ أبعدَ من ممارستها في حدِّ ذاتها».

«ولكنْ متى يمارسون الحرف القديمة لأجل منافعهم الخاصَّة»؟

«عفواً»؟

«أوه، لا عليكِ. مجرَّد شيء آخر قرأتُه في أحد الكتب».

«لا يوجد كتاب واحد يتحدث عن حقيقة أبروتسو، لأنَّ لدينا هنا عدَّة حقائق، وأيضاً- أوه، انظر، عبر الشَّارع، ها هو السيّد رِيتْسَا»!

فحدَّقتُ بجمهرة من النَّاس.

«الرجل القصير صاحب المعطف الطويل والسيكار الكبير؛ إنَّه مالك نادي كاستل دي سانغرو لكرة القدم. غابرييل غرافينيا، رئيس النَّادي، متزوِّج من ابنة أخته. وهؤلاء الرجال الطوال الذين يحيطون به على الجانبَيْن. إنَّهم حرَّاسه الشخصيُّون».

«انتظري لحظة. هل يحتاج مالك فريق كرة قدم إلى حرَّاس شخصيِّين؟»

«لديه حرَّاس شخصيُّون. لم أقل «يحتاج»».

«فَلِمَ يعملون لديه؟ ومَن هُو؟»

«ألم تسمع باسمه؟ أوه، ولكنَّك سوف تسمع؛ إنَّه «لَا بْرِزِنْسَا أُكُّولْتَا la presenza occulta»: الحضور الخفيُّ الذي يقف وراء كلِّ شيء.

«ولكن ماذا يعمل»؟

«السيِّد ريتسا؟ المسألة ليست ماذا يعمل، وإنَّما ماذا يمكنه أن يعمل؟ وكم من المال لديه»؟

«من أين أتى بكلِّ هذا المال»؟

فقالت باربرا على الفور: «لا أريد أن أعرف؛ ليس من شأني أن أسأل رجلاً لِمَ هو ثريٌّ. إنه رجل أعمال. لعلَّه كَدَّ فكسب المال من عرق جبينه».

«حسناً، ولكن أخبريني لماذا هو-مثلما قلتِ- خفيٌّ»؟ «لا يرغب السيِّد ريتسا الظهور علانية، لعدَّة أسباب. يرغب في إشاعة أنَّه بعيد، كلَّ البُعْد، عن «لا سُوتِشْتَا»، لأنَّ المعجزة حكاية بسيطة وسعيدة بالنسبة إلى الصحف وقنوات التلفزة، وربَّما لا يكون السيِّد ريتسا بسيطاً إلى هذا الحدِّ».

«قلتِ رجلَ أعمالٍ، ففي أيِّ مجالٍ»؟

«عدَّة مجالات، ولكنَّه عمل أوَّلاً في قطاع الإنشاءات في نابولي، ولا يتوجَّب عليك إبداء تعليق ردَّاً على ذلك».

ثم تبسَّمتْ ثانية، وانضممنا إلى مئات الآخرين الذين يتنزَّهون سيراً على الأقدام في الأماكن المخصصَّة للمشاة.

لمحتُ، بعد خمس دقائق، لافتةً على بناية خرسانيَّة مربَّعة، قزَّمتْ كلَّ ما يحيط بها، لجهة كونها غير جذَّابة على الأقلِّ. كُتبَ على اللافتة «أَلْبِيرْغُو albergo»، فعرفت أنَّ الكلمة تعني «فندقاً».

«انظري يا باربرا هناك في نهاية المربَّع السَّكني ثمة فندق. ظننت ألا فنادقَ في كاستل دي سانغرو».

توقَّفت باربرا عن السَّير، وطوت ذراعيها. نظرت إلى البناية وتنهَّدت، ثمَّ نظرت إلـيَّ. قالت: «لقد عرف السيِّد غرافينيا بوجود هذا الفندق هنا، ولكنَّه فضَّل أن يحجز لك في بِسْثْ وِسْتِرْنْ من أجل راحتك».

حسناً، أقدِّر ذلك وسوف أشكره بلا ريب، ولكنني لا أستطيع أن أوجد في مكان يبعد عن البلدة اثني عشر كيلومتراً».

«إن كنتَ مصراً، فلندلف إلى الداخل لترى بنفسك. ولكن، يتوجب علـيَّ أن أخبرك، تصنِّف حكومتنا جميع الفنادق الموجودة في البلد، كما تعلم: خمسة نجوم، وأربعة نجوم، وهكذا دواليك نزولاً».

«أجل، أجل. فكم نجمةً تصنيف هذا الفندق»؟

«صفر».

كان الفندق مكعَّب خرسانة مروِّعاً، مطلياً بلون صدأ باهت على شاكلة لون الطوب حين يحمرُّ بفعل العوامل الجويَّـة ويتصدَّع. كان اسمه فندق[31] كُورَادِيتِّي، والمالك رجلاً لم يبتسم البتَّة. لقد بدا، في الحقيقة، منزعجاً حين شرحت له باربرا برغبتي في حجز غرفة، لأسبوع أو اثنَيْن على الأقلِّ، ريثما أبحث عن مكان أكثر ديمومة أعيش فيه. هزَّ رأسه، في نهاية المطاف، وتمتم ببضع كلمات. تبسَّمت باربرا إلـيَّ، ولكنني أستطيع القول إنها لم تعن ذلك. ستكلِّف الغرفة أربعين دولاراً في الليلة ولا بُدَّ أن أدفع نقداً أجرة أسبوعين مُقدَّماً.

فسألتها: «لا بطاقات ائتمان»؟

فرفعت عينيها.

وافقتُ ورحت أعدُّ النُّقود في حين أخبرت باربرا المالك أنني سأنتقل إلى الفندق يوم الإثنين. سألتُ باربرا إنْ كان ثمَّة هاتف في غرفتي، فقالت كلا، دون أن تتجشَّم عناء السُّؤال، ولكنَّها استفسرت عن وجود هاتف بالفندق، فدفعت المالك إلى هزِّ رأسه الثقيل والتمتمة ببضع كلمات أخرى.

«يقول إنَّ الهاتف الوحيد هو هذا الذي وراء المكتب، ولكنَّه لن يسمح لك باستخدامه».

«آه، يا له من فندق مريح».

فقالت باربرا: «ألا ترى الآن كيف أنَّ السيد غراڤينيا لم يرغب في أن يكون هذا الموقف هو أوَّل انطباع تأخذه عن كاستل دي سانغرو»؟

«بلى، يا باربرا، ولكن الموقع، في عملي كما في عمل المطاعم، يُعَدُّ كلَّ شيء».

فقالت باربرا: «أتساءل إنْ كنت ستظلُّ تقول ذلك في غضون ثلاثة أسابيع».

وصلت نزهتنا في الخارج سيراً على الأقدام إلى نهايتها حين حلَّ الظلام: فرغت الشوارع الضيِّقة على وجه السرعة، وأغلقت الحوانيت، وأطفأت الأضواء، فبدا كلُّ شيء، في غضون خمس دقائق، كأنَّ السَّاعة الثالِثة صباحاً.

«أين ذهب الجميع»؟

«إلى بيوتهم، فالحياة في الليل هنا ليست كمثلها في روما».

«ونحن»؟

«سنذهب إلى مطعم مارتشيلا. سوف يكون السيِّد غرافينيا قد سبقنا إلى هناك». «أووه. أتمنَّى ألا يكون من الفظاظة أن نجعله ينتظر».

«غابرييل لا ينتظر، فهو ليس من طينة الرجال الذين ينتظرون. سوف يكون محاطاً بأناس كثيرين. فهو في النهاية رئيس «لا سُوتِشْتَا» التي حقَّقت معجزة للتوِّ، وهذه الليلة التي تسبق المباراة الأولى من الموسم الجديد».

سرنا في زقاق تفرَّع ممَّا بدا أنَّه الشَّارع الرئيس لكاستل دي سانغرو. استدرنا، في نهاية الزُّقاق، ذات اليمين. كان ثمة موقف صغير للسيارات، يغصُّ بسيَّارات اصطفت لصق بعضها حتى خُيِّل إلـيَّ بأنْ لا سيَّارة سوف تكون قادرة على الخروج البتَّة. وها هو ذا نهر سانغرو، بدا كأنَّه جدول، يتدفق ببطء على أحد الجانبَيْن. وفي الجانب الآخر، كان مطعم مارتشيلا.

وكانت باربرا، في وقت سابق، قد أشارت إلى مطعم مارتشيلَّا بوصفه مطعم بيتزا، ولكنه بدا مطعماً شاملاً، يقدِّم أصناف الطَّعام كافة. ناهيك عن أنَّه قدَّم إجابة إضافية عن سؤالي السابق بشأن أين ذهب كلُّ أولئك النَّاس. فمن لم يذهب إلى بيته لا بُدَّ أنه قد حضر إلى هنا، إذ كانت الغرفة الوحيدة التي يقدَّم فيها طعام العشاء صاخبةً، وحارَّة، وتعجُّ بالدُّخان، ومكتظَّة عن آخرها، حتَّى ظننتُ أنَّنا أنا وباربرا لن نتمكَّن من العبور، دع عنك إيجاد مقعدَيْن فارغَيْن.

ولكنَّها انسابت عبر الحشد بأريحيَّـةٍ كأيِّ مواطن أصليٍّ، فتبعتها، متمتماً «أرجو المعذرة»، في كلِّ مرَّة أخبط فيها أحداً أو أدوس قدماً، كان ذلك دَيْدَني في كلِّ خطوة خطوتها. ولكنَّنا تمكَّنا، على نحو مدهش، من الوصول إلى الطرف القصيِّ الأقرب إلى المطبخ. ثمَّة ركن، في أحد الجانبَيْن، حيث

أفران البيتزا تعمل بكامل طاقتها. وكان، في الجانب الآخر، بار صغير يملأ من خلفه شابٌّ البيرةَ من صنبور في أكواز كبيرة. في حين كانت زجاجات النبيذ مصفوفة، جنباً إلى جنب، على أحد الجدران. وثمَّة شبَّانٌ وصبايا يتصبَّبون عرقاً،لاهثين، يحملون الصواني والأطباق المملوءة بالطَّعام، خارجين عبر أبواب دوَّارة تفضي إلى المطبخ. لا بُدَّ أنَّ 500 شخص كانوا في مكان مصمم لاستيعاب ما لا يزيد على 100، وكانوا كأنَّهم يدخِّنون السجائر ويأكلون ويشربون ويتحدَّثون بأعلى أصوات يقدرون عليها في وقت واحدٍ أجمعين.

غمرتني موجة أخرى من الإعياء الناجم عن سفري بالطَّائرة، فشعرت كأنَّ زمام الواقع راح يفلت من يدي، ثمَّ شعرت بباربرا وهي تجذب ذراعي. كنَّا واقفَيْن قرب طاولة كبيرة هيمنت على المساحة الخلفيَّـة للغرفة. وأُحضِرَ إلينا، من أحد الأمكنة، كرسيَّان فارغان، فأومأتْ إلـيَّ باربرا بأنْ أجلس.

وحين فعلتُ، ظهر رغيف پيتزا بأكمله أمامي، كأنَّ سِحْراً قد أحضرَه. وبعد هنيهة، ملأ أحدهم كأس نبيذ أحمر ووضع قربه كوباً فارغاً وزجاجةَ مياه معدنيَّـة لم تفتح بعد.

«أعرِّفك على السيِّد غراڤينيا». كان ذلك صوت باربرا، قرب أذني اليمنى. استدرت صوبها، فوجدتُني أواجه رجلاً أنيقاً ووسيماً، في منتصف العُمْر، يرتدي سترةً مدبوغة، من جلد الغزال، وسراولَ جينز أزرق. كان يدخِّن ويتحدث في هاتف خلويٍّ، ويرشف من كأس نبيذ، ويتحدَّث إلى امرأة بجانبه، ويقضم لقمةً من البيتزا، دفعة واحدة، ثم تمكَّن على نحو ما من التَّبسُّم لي ورفع يده ملوِّحاً بالتَّحية.

فتبسَّمتُ ولوَّحت له بدوري. وسمعت، بأذني اليسرى، صوتاً أنثوياً دافئاً فاستدرتُ صوبَهُ لأرى امرأة قصيرة شقراء تنتصب فوقي. كانت ترتدي مئزراً، وعلى محيَّاها ابتسامة عريضة، ثم مالتْ نحوي لتأخذ يديَّ بين يديها. كان فمها يتحرَّك بسرعة كبيرة فأدركت أنها كانت تقول لي أشياء كثيرة، ولكنَّني لا أكاد أسمع صوتها في ذلك الصَّخب إلا لماماً، ناهيك عن فقداني أيَّ أمل في فهم ماذا كانت تقول.

فقالت باربرا: «مارتشيلَّا». «هي تقول لك إنَّها ترحِّب بك هنا كما لو أنَّك ابنها».

فنظرتُ بدوري إليها، ثم قلت بصوت عال: «شكراً لكِ، شكراً لكِ»! فهزَّت رأسها، متبسِّمة، فقلت لباربرا: «أخبريها أنَّني أشكرها».

«كلا، قُلها بنفسك. لا بُد أن تبدأ التحدُّث بالإيطاليَّـة في وقت ما. الأمر غاية في البساطة. «غْرَاتْسِيهْ. مُولْتُو غْرَاتْسِيهْ»[32].

فحاولتُ.

تهلَّل وجه المرأة التي تدعى مارتشيلَّا فرحاً، وقالت: «آه، برِيغُو!»[33]، ثمَّ مالت نحوي وحضنتني، ثم قالت شيئاً لباربرا جعلها تضحك.

«ماذا كان ذلك»؟

«تقول الآن إنَّها تراك بالطَّبع أكبر من أن تكون ابنها، ولهذا لا بُدَّ أن ترحِّب بك كأنَّك والدها».

«على رسلك لحظةً! لستُ كبيراً إلى هذا الحدِّ، وهي ليست صغيرة إلى ذلك الحدِّ». ولا بُدَّ أنَّ باربرا قد ترجمت قولي هذا، لأنَّ مارتشيلَّا رفعت رأسها، بعد هنيهة، وضحكت مبتهجة، ومالت علـيَّ وحضنتني ثانيةً، قائلة: «مَانْجَا. مَانْجَا!»[34].

فقالت باربرا: «ستقابلك، غداً، بصورة أكثر رسميَّـة. تريدك الآن أن تأكل. ولكن، بدايةً، أرجو المعذرة، أعتقد أنَّ غابرييل قد يكون غير مشغول الآن».

ولهذا فقد عدنا أدراجنا إلى مقدمة الطاولة. كان السيِّد غراڤينيا غير مشغول بالفعل، أو على وشك أن يتحرَّر من أشغاله، على الأقلِّ، مثلما يبدو في ذلك المساء. كان لايزال يدخِّن ويتحدَّث في هاتفه الخلويِّ، فمدَّ يده وصافحني، مُومئاً برأسه إلـيَّ، ثم وضع يده على موضع التحدُّث في الهاتف الخلويِّ وتحدَّث بسرعة مع باربرا. وأومأ برأسه إلـيَّ ثانيةً، راشفاً رشفةَ نبيذ خاطفة، ثمَّ، وهو لايزال يتحدَّث في هاتفه الخلويِّ، وقف وعانقني أنا الذي كنت قد تقدَّمتُ لتحيَّته فحسب.

فقالت باربرا على الفور: «حسناً. نستطيع المغادرة الآن».

«هل تقصدين أنَّ ذلك هو كل شيء»؟

«فما كان ذلك»؟

«هل كانت تلك هي الطريقة التي تعرِّفينني بها على السيِّد غراڤينيا»؟

«في الواقع، نعم، لهذه الليلة وحسب، فهو مشغول جداً مثلما ترى. ولكنَّه أخبرني أنَّه سوف يحضر غداً في العاشرة صباحاً ليقلَّك بنفسه في السيَّارة من فندق بِسْتْ وسْترْن، وسوف أكون هناك أنا أيضاً. سيكون ثمَّة متَّسع من الوقت كي نتحدَّث في السيارة».

«حسناً. لا بأس. ولكن انتظري. في السيارة إلى أين؟ وماذا تقصدين بقولك «نُغادر»؟ فلقد وصلنا للتوِّ، وثمة كل هذا الطعام الوفير».

«تلك هي المعضلة. لا يمكنك التهامه كله».

«ولكنني أتضوَّر جوعاً».

«سوف أشرح لك. آه، حسناً، خذ شريحة پيتزا أو اثنتين، يمكنك أكلها في السيَّارة. ولكنَّنا ينبغي أن نذهب الآن، فالغد سوف يكون يوماً

في غاية الأهميَّـة». استدارت باربرا على الفور وراحت تشق طريقها عائدة إلى الباب الأماميِّ.

وهكذا، وعبر موجة خرقاء أخرى من المشي في اتِّجاه السيِّد غرافينيا الذي لم يَبْدُ بأنَّه قد لاحظ، وابتسامات غريبة صوب أولئك الذين كنت قد جلست بينهم لفترة وجيزة ولم أتعرَّف إليهم، وقفتُ وسلكتُ طريق خروجي من مطعم مارتشيلَّا، قائلاً: «أرجو المعذرة.. أرجو المعذرة.. أرجو المعذرة» طيلة الطريق.

وفي الخارج، قلت: «أرجو المعذرة» مرَّة أخرى -إلى باربرا، هذه المرَّة- ثم أضفت «أعتقد، على الرغم من تعبي، أنَّ ذهني مشوَّش حقاً».

فقالت: «بالطَّبع». «لقد كان ذلك تطوُّراً غير متوقَّع. ولا بُد لي من القول إنَّني مستغربة جداً كذلك. أما بالنسبة إليك، فالأمر شرف عظيم، عظيم جداً».

«ما هذا الشرف العظيم»؟

فقالت: «سأشرح لك في السيَّارة». كنَّا عائدَينْ على وجه السرعة إلى فندق بست وسترن.

ثم قالت: «غداً». «نظراً إلى أهميَّـته التاريخيَّـة، فإنَّ السيِّد ريتسا- وليس السيِّد غرافينيا فحسب- يودُّ الاحتفالَ بإقامة مأدبة غداء خاصَّة لعائلته والأصدقاء المقرَّبين في ناديه الخاص ببسكارا، ولقد أخبرني غابرييل أنَّك مدعوٌّ».

«لماذا، هذا رائع. يا لكرمه».

قالت باربرا: «نعم، إنها مجاملة باذخة. فإذا كان ثمَّة خمسة آلاف شخص يعيشون في كاستل دي سانغرو، فمن المحتمل أنَّ أربعة آلاف وتسعمائة وتسعين لم يسبق لهم أن شاركوا السيِّد ريتسا أيَّ وجبة قطُّ».

«يشرِّفني ذلك حقاً».

فقالت باربرا: «وما هو أهم من التَّشريف أنْ تكون جائعاً، فالسيِّد ريتسا يغضب -غضباً شديداً، شديداً- إذا رأى أحد الجالسين إلى طاولته لا يلتهم كلَّ ما يوجد في طبقه».

فضحكتُ.

قالت باربرا: «ليست هذه نكتة». «ستجازف بالإساءة إلى السيِّد ريتسا، إساءةً بالغة، إذا لم تلتهم كل شيء يُقدَّم إليك. لا تفعل ذلك في مثل مناسبة مأدبة الغداء هذه غداً. حسناً، لا ينبغي أن يحدث ذلك بكلِّ بساطة».

«أنت جادَّة».

«في غاية الجدِّ».

كنا قد وصلنا إلى فندق بست وسترن، فدخلت باربرا بالسيَّارة إلى المرأب وتوقَّفت.

فقلت لها: «اعتدتُ، حين كنت صغيراً، على إخفاء البازلَّاء واللوبياء تحت سجَّادة غرفة الطَّعام».

فتبسَّمت باربرا ولكنَّها هزَّت رأسها هزاً شديداً. «لا تحاول القيام بأيِّ خدع غداً، فالسيد ريتسا يراقب دائماً، فإنْ لم يكُن هو، فأحد حرَّاسه الشَّخصيِّين. تصبح على خير».

4
دوائر جحيم دانتي

عُهِدَ، في الأشهر الأولى بعد الحرب العالمية الثانية، إلى قسِّيس شابٍّ يُدعى الدُّون[35] أربيتي، بمهمَّةِ إعادة بناء مجتمع أوَّلي في كاستل دي سانغرو، حين بدأت العائلات المحزونة تعود أدراجها على مهل من المنفى الذي فرضته عليهم الحرب إلى أطلال ما كانت بلدتهم ذات يوم.

بدأ القسِّيس بالطريقة الوحيدة التي كان يعرفها: بالأطفال المتلهِّفين لركل «كرةٍ» من الجوارب الوسخة، شُدَّ بعضها بخيط قنَّب إلى بعض. ولقد كان، بحلول الخريف، فخوراً بالمهام الملقاة على عاتقه فأعلن تحديه لقرية مجاورة كانت أقلَّ دماراً إلى حدٍّ ما. قُبِلَ التَّحدي، وذات صباح باكر من شهر أكتوبر سنةَ 1945، والطرق ماتزال غير سالكة بسبب القصف، إلا دربَ سكةِ حديدٍ فرعياً قصيراً لم يتهدَّم، فحمَّل فِتْيَتَهُ[36] الحفاةَ وكرتَهُمُ المصنوعة من الجواربَ في عربة مكشوفة، ثمَّ انطلقوا قاطعين عشرة الكيلومترات وهم يحرِّكون عربة السكَّة الحديد الصغيرة يدوياً حتَّى وصلوا إلى «الكامبو»[37] الأجرد الذي تتناثر فيه الحجارة حيث كان أعضاء الفريق الخصم ينتظر: مزهوِّينَ بأنفسهم زهواً شديداً؛ لا لأنَّ لديهم أحذيةً فحسب، وإنما لأنَّهم يمتلكون كرة قدم حقيقيَّـةً أيضاً من حقبة ما قبل الحرب، وإنْ كانت منكمشةً بعض الشَّيء، لاستخدامها في المباراة.

ولكنَّ هذه العيوب لم تحل دون أن يلوذ فتيانُ كاستل دي سانغرو بالفرار بعد أن أحرزوا النَّصر -وعبارة «يلوذون بالفرار» هي العبارة العمليَّـة

هنا- راكضينَ حفاةً كي ينجوا بحيواتهم صوب العربة المكشوفة، وجُبَّةُ الدُّون أربيتي السَّوداء تصطفق حول ساقيه وهو يعدو مسرعاً بجانبهم بأقصى ما يستطيع. ولقد نجحوا في الهروب من مطارديهم السَّاخطين، بفضل الجهود الجبَّارة التي بذلها الفريق على متن العربة المكشوفة لتسريع حركتها اليدويَّـة (رغم حركتها البطيئة في البداية بعض الشيء) عائدين إلى قريتهم التي دمَّرتها الحرب، بحكاية نصر بعيدة الاحتمال إلى درجة أنَّ كثيراً لم يكونوا ليصدِّقوا وقوعها البتَّةَ لولا شهادة القسِّيس نفسِهِ على ذلك.

استبدلت كرة الجوارب على مرِّ السنين بكرة قدم قانونيَّـة، ولكنَّ بطولات أوَّل «فرقة» squad[38] شهدتها كاستل دي سانغرو بعد الحرب، قد ضبطتْ أسلوب النَّهج الذي سيسلكه القرويُّون تُجاه هذه الرياضة. كان تعداد السكَّان ضئيلاً، ولكنَّ سقف التوقعات كان عالياً.

تشكَّل الفريق المحليُّ رسمياً في العام 1953، ولكنَّ فرقة كاستل دي سانغرو اكتسبت، في غضون العقود التي تلت ذلك، سمعتَها (داخل جنوب إقليم أبروتسو على الأقل) بوصفها صعبة المراس، وأنها مارست اللعبة على نحو غير عاديٍّ من العناد. ولقد حقَّق الفريق درجةً عالية من النَّجاح في صفوف أندية الهواة وشبه المحترفين على الصعيد المحلـيِّ.

وكانت هاتان المرتبتان -اللتان لم تتأتيا بمحض الصدفة، في ضوء المعجزة اللاحقة- مَرْتَبَتَيْن تمايزت إحداهما عن الأخرى على نحو واضح. فلقد طَوَّرتْ كرةُ القدم في إيطاليا، بسبب الموقع الفريد الذي تتبوَّأه في صلب الحياة الاجتماعيَّـة، بنيةً وتراتبيَّـةً تشبهان، في تعقيدهما وسعة نطاقهما والتمسُّك الصَّارم بقوانينهما، البنيةَ والتراتبيةَ المطبَّقتين لدى الڤاتيكان أو المافيا. فثمَّة مستويات فوق مستويات فوق مستويات،

وداخل كل مستوى طبقات على طبقات على طبقات. وقد يتخيَّل المرء أن هذه البنية تشبه الهرم، ولاسيَّما من الأعلى باتجاه القاعدة، إلا أنَّ الشكل الهندسيَّ السَّلس يجنح إلى التشابك قليلاً وتسيطر عليه تلك العشوائيَّة الوجوديَّة الذائعة في مناحٍ أخرى من الحياة الإيطاليَّة.

وثمَّة، في أعلى الهرم، ثمانية عشر فريقاً يلعبون كلَّ سنة في دوري الدرجة الأولى. هنا، يجد المرء، على نحو دائم، أندية إيه. سي. ميلان، وإنتر ميلان، ويوفنتوس، وروما، ولاتسيو، وفيورنتينا، فضلاً عن اثني عشر نادياً آخر من تلك الأندية التي صَعِدت، مؤقَّتاً على الأقلِّ، المُنحدَر الزَّلق الذي يفضي إلى هذا المستوى الأعلى.

والفوز ببطولة دوري الدرجة الأولى يشبه الفوز ببطولة دوري البيسبول في أمريكا الشماليَّة World Series، وبطولة دوري كرة القدم الأمريكية Super Bowl، وبطولة دوري المحترفين لكرة السلَّة الأمريكية NBA، كلها مجتمعةً على حدٍّ سواء. يُعَدُّ «لُوْ سْكُودِيتُّو»[39]، كما يدعونه، البطولة الرياضيَّة الوحيدة التي يهتمُّ بها الناس في إيطاليا، وهي ذات أهميَّة بالغة إلى الحدِّ الذي لا يمكن لأيِّ أميركيٍّ أن يستوعبه بسهولة.

فثمَّة، علاوة على المجد، المال: عشرات الملايين من الدولارات. يمنح بعضها مكافأةً على الفوز بالبطولة، ولكنَّ الكثير يأتي من تأهُّل النادي الفائز للموسم القادم من المنافسة الأوروبيَّة الدولية المعروفة باسم كأس الأبطال. وتُعَدُّ هذه المسابقة، التي تتنافس فيها الأندية موسماً طويلاً، المسابقةَ الأكثر وجاهةً وإدراراً للمال، مقارنةً بتلك التي تخوضها المنتخبات الوطنية للبلدان المختلفة. ولقد أدَّى بيع حقوق بثِّ دوري كأس الأبطال على شاشات التلفزة في جميع أنحاء العالم (يمكن مشاهدة بعض هذه المباريات حتَّى

في أمريكا!) إلى جعله بمثابة بيضة الذَّهب، إنْ لم يكُن الإوزَّة نفسها التي تبيضها، التي يكافح كلُّ ناد في أوروبا إلى الفوز بها بكل ما أوتي من قوَّة.

وثمَّة، أيضاً، منافستان دوليَّتان أخريان للأندية التي لم تفُز، على الرغم من قوَّتها، ببطولة الدوري في بلدها. ويمكن لهذه الفرق أن تحقق مكاسب ماديَّـة عظيمة وتحظى بمزيد من الوجاهة والصِّيت.

وبما أنَّ مثل تلك المكافآت غير كافية لضمان منافسة شرسة طيلة موسم دوري الدرجة الأولى (الذي يمتدُّ من شهر سپتمبر حتى شهر مايو) فإنَّ العصا تُستخَدم، هنا، علاوة على الجزرة. بعبارة أخرى: «تُبعَد»، أو تهبط، الفرق التي تحتلُّ المراتب الأربع الأخيرة، في كلِ موسم، إلى المستوى التالي نزولاً؛ دوري الدرجة الثانية. أما الفرق التي تحتلُّ المراتب الأربع الأولى في دوري الدرجة الثانية، فإنَّها تصعد، بطريقة مماثلة، إلى دوري الدرجة الأولى.

ويمكن للمرء، كي يكوِّن تصوُّراً بسيطاً حول الخوف النَّاجم عن احتماليَّـة الهبوط، أن يتخيَّل نادي «نيويورك يانكيز»، على سبيل المثال، وقد احتلَّ المرتبة الأخيرة في القسم [الشرقيِّ] الذي يلعبون فيه، فيُخبَر بأنَّه لن يلعب، نتيجةَ ذلك، في الدوري الأمريكي American League [للمحترفين] الموسمَ القادم، وإنَّما في دوري الدرجة الثانية minor International League. ولن يتمكَّن الفريق من العودة إلى دوري المحترفين إلا إذا فاز ببطولة ذلك الدَّوري. وللمرء أن يتخيَّل المقاعد الفارغة في المدرَّجات التي ستنجم عن إعلان خبر أنَّ فريق «بوسطن رِد سوكس» لن يأتي إلى البلدة للَّعب في نهاية الأِسبوع، وإنَّما فريق پُوتاكيت.

ويمكن، بالطَّبع، تفادي الهبوط إلى المراتب الأخيرة من دوري الدرجة الثانية أيضاً. تصعد، في كلِّ سنة، الفرق التي تحتلُّ المراتب الأربع الأولى

من ذلك الدوريِّ، الذي يضمُّ عشرين فريقاً، إلى دوري الدرجة الأولى، وتهبط الفرق الأربعة التي جاءت في المراتب الأربع الأخيرة إلى المجموعة الأولى من دوري الدرجة الثالثة C1. تنقسم، هنا، الأفرقة الستة والثلاثون، إلى قسمين، شماليٍّ وجنوبيٍّ (لتقليص كلف النقل التي تستنفد الموارد الماليَّـة للأندية على نحو متزايد، فكلَّما فقد النادي تألُّقه وابتعد عن مجد المنافسة الدوليَّـة والملاعب الكبيرة المملوءة بالجماهير الغفيرة على بكرة أبيها، تقلَّصت موارده الماليَّـة إلى حدٍّ كبير).

وثمَّة، تحت المجموعة الأولى من دوري الدرجة الثالثة، جحيم المجموعة الثانية التي تضمُّ أربعة وخمسين فريقاً، مقسَّمة إلى ثلاثة أقسام إقليميَّـة. ولذلك، فإنَّ كرة قدم المحترفين تتكوَّن، في إيطاليا، من 128 فريقاً، بمعدَّل قد يبلغ عشرين لاعباً في كلِّ فريق، ممَّا يعني وجود نحو 2500 رجلٍ يكسبون أرزاقهم من ممارسة هذه اللعبة، قابضين رواتب قد تتراوح بين 20000 دولار في المجموعة الثانية، من دوري الدرجة الثالثة، وعدَّة ملايين تدفع إلى نجوم دوري الدرجة الأولى.

ولكن البنية الكليَّـة تواصل تفرُّعها نزولاً من المجموعة الثانية من دوري الدرجة الثالثة. فثمَّة، تحت المجموعة الثانية، الـ «كَامْپِيُونَاتُو نَاتْسِيُونَالِي دِيلِيتَانْتِي»، أو دوري الهواة القوميُّ، المقسَّم إلى تسع «دوائر gironi» (كما في دوائر جحيم دانتي)، تضمُّ كلُّ دائرة ثمانية عشر فريقاً. يُضيف هذا الدَّوري، بصرف النَّظر عن اسمه -ويتلقَّى فيه اللاعبون بعض التَّعويض الماديِّ- 112 نادياً شبه محترف إلى الـ128 نادياً للمحترفين.

ويتمُّ تفادي الركود، حتَّى عند هذا المستوى العميق، بهبوط النَّوادي الثلاثة التي تحتلُّ المراتب الأخيرة من المجموعة الثانية، في دوري الدرجة

الثالثة، إلى دوري «الهواة Dilettanti»، في حين تتاح الفرصة للفائزين بكلِّ «دائرة girone» للصعود إلى دوري الدرجة الثالثة. أما النَّوادي، التي تحتلُّ المراتب الأربع الأخيرة في كلِّ قطاع من قطاعات دوري الهواة، فيعاد تعيينها للعب في البطولة الأدنى منزلة على وجه الإطلاق؛ الـ «كَامْپِيُونَاتِي دي إِتْشِلِنْتْسَا ريجيونالي»، أو بطولة «فرق الإقليم المبرِّزة»، وهو لقب لَا يتناسب مع التَّعبير اللغويِّ الحسن الذي يتصف به.

وتواصل هذه الدوَّامة هبوطها، حتَّى من هذه البطولة، عبر الـ «كَامْپِيُونَاتو پْرُومُوتْسْيُوني[40]»، وصولاً إلى أرض اللا أسماء، حيث يصبح الترتيب الهرميُّ مجرَّد «بْرِيمَا كَاتِيغُورْيَا»، أو «سِيكُونْدَا كَاتِيغُورْيَا»[41]، وصولاً إلى «تِيرتْسَا كَاتِيغُورْيَا»، أو الفئة الثالثة، في أدنى قاع التَّرتيب، وهو المستوى الذي لا يوجد دونه أيُّ فريق سوى عمَّال المصانع المفتقدين إلى اللياقة البدنيَّـة الذين يركلون الكرة هنا وهناك في صباحات الآحاد، عوضاً عن الذهاب إلى الكنيسة.

بدأ فريق كاستل دي سانغرو مشواره من القاع: تِيرتْسَا كَاتِيغُورْيَا. كان هذا مستوى مناسباً لفرقة لاعبين محلـيِّين، قادمين من بلدة في إقليم أبروتسو، مازال سكَّانها خمسة الآلاف يعيدون تشييدها بعد أن هدَّمتها الحرب.

وكان، ضمن السكَّان الجدد، شابٌّ جنوبيٌّ ضخم البنية يدعى پيترو ريتسا، وصل إلى القرية على ظهر حمار ذات يوم فراح على الفور يشيِّد المنازل لبلدة كانت في أمسِّ الحاجة إليها، ثمَّ سرعان ما تزوَّج ريتسا ابنةَ إحدى أثرى العائلات التي عادت إلى كاستل دي سانغرو بعد الحرب.

بدأ ريتسا، بعد أن ضمن بزواجه هذا الحصول على الأموال، في تشييد الأبنية خارج حدود البلدة، قاصداً الجنوب نحو مدينة نابولي في نهاية المطاف حيث لم يكُن الوافدون الجدد، السّاعون إلى جني أموال طائلة، موضعَ ترحيبٍ حارٍّ لدى «لا كاموزَّا»، الصِّنو النَّاپولـيِّ لمافيا صقليَّـة، وحيث كانت عبارة «الأعمال الإنشائيَّـة» تستخدم لوصف طائفة من مشاريع كانت تنزع -حين تدبُّ الصراعات بين أولئك المتورِّطين فيها- إلى دفن الرجال تحت الأرض (أو في قاع ميناء نابولي على الأقلِّ) أسرعَ من قيامها بتأمين مشاريع سكنيَّـة جديدة فوقها.

ولكنَّ ريتسا -إذا رغب المرء في السؤال عن التفاصيل، قد نُصِحَ على وجه السُّرعة ألا يفعل ذلك- فلم يبقَ فوق الأرض فحسب، وإنّما جنى ثروة طائلة مكَّنته من أن يشيِّد لنفسه عقاراً على طراز «الحديقة الجوراسيَّـة» وحجمها، تتطاول عالياً فوق بلدة كاستل دي سانغرو الصغيرة. واشترى كذلك منازلَ باذخة لقضاء العطلات قرب البحر، في پسكارا، وفي لوغانو بسويسرا، حيث كان العديد من كبار أعضاء مجموعات الجريمة المنظَّمة يشترون منتجعات شخصيَّـة أو يشيِّدونها. وفي هذه الأثناء، وبعد ثلاثين سنة من تأسيسه، صَعِد فريق كرة قدم بلدة كاستل دي سانغرو، الذي تبنَّاه السيِّد ريتسا، من الفئة الثالثة إلى الفئة الثانية، فكان ربَّما الحدث الرئيس إبان ذلك الزمن في تاريخ البلدة المتواضع في حقبة ما بعد الحرب. كان الفريق والبلدة، لسوء الحظِّ، لا يملكان شَرْوَى نَقِير. وكان اللعب في الفئة الثانية لا يتطلَّب الكثير من المال: مجرَّدَ رسم بسيط يُدفع إلى مكتب تصنيف الفئات المركزي من أجل ميزانيته التشغيليَّـة، وبضع آلاف من الليرات تدفع إلى كلِّ لاعب بعد كلِّ فوز، وقليلاً من المعدَّات الجديدة،

وأموالاً نقديَّـة متاحة بالقَدْر الذي يكفي لتغطية مصاريف الوقود لأولئك اللاعبين الذين يقودون سياراتهم إلى المباريات البعيدة.

ولكنَّ الفارق بين «ليس كثيراً من المال» وجميع الأموال الموجودة في العالم، ليس موجوداً في الواقع إنْ لم تكُن تملك البتَّة أيَّ شيء من المال. وهكذا، فقد بدا، لبضعة أسابيع خلال صيف 1982، أنَّ فرقة كاستل دي سانغرو قد تضطر فعلياً إلى الاستنكاف عن الصعود إلى الفئة الثانية لعدم مقدرتها على تحمُّل تكاليف القبول، فلم يكن لدى نصف اللاعبين جوربان متشابهان. ولكنَّهم حقَّقوا، بطريقتهم المتواضعة، شيئاً ما: الفوز بحقِّ الصعود حجراً أعلى في هرم الكالتشيو الضخم (إنْ جُمِّعتْ أركانه المتباعدة) المشيَّد من مئات الدوريَّات المحليَّـة التي تكاد تمتدُّ من جبال الألب حتَّى ساحل إفريقيا الشماليَّـة.

ولقد حلَّ السيِّد ريتسا، الذي لم يُبْد أيَّ اهتمام مسبق بالكالتشيو، المعضلةَ على وجه السُّرعة بشراء النَّادي. وكان يبلغ، في ذَلك الوقت، الثانية والستين من عمره، بلا أولاد، ومنفصلاً عن زوجته، ويعيش في شقَّتها في كاستل دي سانغرو. عَدَّ بعض سكَّان البلدة فعلته هذه أنَّها نابعة من اهتمامه بما يجري في المجتمع الذي يعيش فيه. في حين لاحظ آخرون أنَّ الممارسات الماليَّـة المراوغة لامتيازات كرة القدم، في المستويات الدُّنيا في إيطاليا، قد وفرت طريقة مناسبة لأيِّ شخص عازم على نقل مبالغ صغيرة من المال على الأقلِّ تجنباً لدفع الضرائب.

كان لدى السيِّد ريتسا ابنتا أخت: تزوَّجت إحداهما طبيب أسنان، لم يكترث قيد أنملة بالكالتشيو. أما الأخرى، ماريا تريزا، فتزوَّجت غابرييل غراڤينيا، البشوش الذي جاء إلى الشِّمال، على شاكلة ريتسا نفسه قادماً من إقليم بُولْيَا، وقد شَبَّ تعتمل في أعماقه طموحات كبيرة غير محدَّدة.

بدأ غرافينيا بعد زواجه بالعمل عن كثب مع السيِّد ريتسا في الأعمال الإنشائيَّـة والمشاريع ذات الصِّلة بها على حدٍّ سواء. وكان فريق كاستل دي سانغرو لكرة القدم يندرج في فئة أحد «المشاريع ذات الصِّلة». عيَّن ريتسا غرافينيا مسؤولاً عن النَّادي، متناسياً كلَّ شيء يتعلق به على الفور.

حلَّ كاستل دي سانغرو، في سنته الأولى، بالفئة الثانية (سِيكُونْدَا كَاتِيغُورْيَا) في المركز الثَّاني. ولكنَّه حلَّ في المركز الأوَّل في السَّنة اللاحقة، فصعد، نتيجةَ ذلك، إلى الفئة الأولى (بْرِيمَا كَاتِيغُورْيَا). ولم يكن ممكناً، حتى في هذا المستوى المتدني، إنشاء فريق تنافسيٍّ لا يتكوَّن إلا من رجال ولدوا في كاستل دي سانغرو وترعرعوا فيها. وهكذا، رتَّب الداهية غرافينيا، في الوقت الذي لم يكُن قد عرض فيه دفع رواتب إلى اللاعبين بعد، توفيرَ وظائف لبضعة لاعبين ذوي مهارة فائقة، ومساكن يعيشون فيها طيلة الموسم، لإغرائهم على اللعب في الفرقة.

ولهذا، فقد تعزَّزت المراتب التي حصدها فريق كاستل دي سانغرو، ففاز ببطولة التَّرويج (البِرُومُوتْسِيُونِي) في وقت قصير، وهو مستوى كانت أغلبية الأفرقة التي تلعب فيه، تمثِّل مدناً لا يقلُّ تعداد سكَّانها عن 20000 نسمة، وبعضها أكثر من ذلك إلى حدٍّ كبير.

ثمَّ واصل فريق كاستل دي سانغرو الصُّعودَ، بوتيرة منتظمة، طيلة ثمانينيَّات القرن العشرين، ولم يهبط أدنى درجة قطُّ. بدأ مزيد من اللاعبين الحضورَ من مناطق بعيدة، وأخرى أبعد، حتَّى تمكَّن الفريق، في نهاية المطاف، في العام 1989 –وسط دهشةٍ (وإنْ كانت بسيطة) عمَّت البلاد– من اختراق الصُّفوف والوصول إلى الفئة الثانية من دوري الدرجة الثالثة Serie C2 حيث اللعب الاحترافيُّ الحقُّ.

ولقد كان وصوله إلى هذه الفئة، على أيِّ حال، أكثر من مجرَّد خطوة إلى الأمام. كانت قفزة عظيمة في مدار جديد وغير مستقرٍّ تماماً. ولن يكون تحقيق أيِّ إنجاز، في هذه الفئة، سريعاً ويسيراً، على شاكلة ما حققه في دوري الهواة والتَّصفيات شبه الاحترافيَّة. كانت السَّنتان الأوليان صراعاً مريراً من أجل البقاء: تفادي الهبوط إلى مصاف التصفيات غير الاحترافيَّة. ولكنَّ غرافينيا، بعينه الثاقبة، ظلَّ يبحث عن المواهب المفيدة، عاقداً معها الصَّفقات بأسعار متدنية، فأسهم في أن يحلَّ الفريق على التَّوالي في المرتبتَيْن الخامسة والرَّابعة. ولكن، حينئذ، ومثلما يحدث غالباً في عالم الكالتشيو شديد التوتُّر، غادر المدير الفنيُّ في نهاية الموسم، ليتَّضح أنَّ بديله لم يكُن على هوى غرافينيا ولا على قَدْر تطلُّعاته.

حلَّ فريق كاستل دي سانغرو، إبان الثلث الأول من موسم 1993-94، في المرتبة الأخيرة بالقسم الذي كان يلعب فيه، فبدت حقبته الاحترافيَّة تندفع نحو نهاية سريعة وشائنة، فطرد غرافينيا الشخص الذي حلَّ محلَّ المدير الفنيِّ، بعد عيد الميلاد المجيد مباشرة، وسلَّم مقاليد الإدارة المشلولة إلى مدير فنيٍّ سابق عاطل عن العمل يدعى أُزڤالدو ياكوني، وهو رجل ينحدر من الإقليم الشماليِّ لبحيرة كومو، وسيرته الشخصيَّة معلَّقة في عنقه الغليظة، بوصفه لاعباً سابقاً، مثل حجر الرَّحى[42].

كان ياكوني يعيش على بُعْد ثلاث ساعات بالسيَّارة من السَّاحل الأدرياتيكي في مدينة تشيڤيتانوڤا التي يقام فيها دوري الفئة الثانية من الدرجة الثالثة، وكان الكالتشيو كلَّ شيء عرفه في حياته. فبعد خمسَ عشرة سنة من ممارسته اللعب في المستويات الكرويَّة الدُّنيا، وهي في المقام الأوَّل مسيرة لا تُنسَى بالنسبة إليه، تقاعد في سنِّ الرابعة والثلاثين، مُقتحماً مجال العمل الإداريِّ.

ولقد طاف البلادَ، خلال العقد الذي أعقب ذلك، سعياً إلى تحقيق هذه الغاية، من البحيرات الشماليَّـة حتى قرية لِنْتِيني القائظة في أعماق جنوب صقلِّية. عُيِّنَ وفُصِلَ عدَّة مرَّات من العمل في مختلف المستويات الكروية الدُّنيا، من الفئة الأولى بدوري الدرجة الثالثة نزولاً حتَّى التَّصفيات شبه الاحترافيَّـة، ولكنَّه لم يحقق، في جميع الوظائف التي عمل بها، سوى نجاحٍ متقطِّع.

كان بشوشاً، وحتَّى مرحاً، وأبدى بين أصدقائه مودَّةً حقيقيَّـة. ولكنَّه لم يكُن، على المستوى الوظيفيِّ، ذلك الرجل الذي يستمتع بالإنصات إلى آراء الآخرين. سيزعم مفتخراً، بعد سنين لاحقة، أنَّه لم يعرف سوى كلمة إنكليزيَّـة واحدة: «بلدوزر bulldozer». كان يقول، وهو يشير إلى صدره: «أنا بلدوزر». كانت هذه العبارة، مقارنةً بغيرها من التَّقييمات الذاتيَّـة النموذجيَّـة، دقيقةً على نحو لافت للنظر، وتلخيصاً عميقاً لجميع نقاط القوَّة والضَّعف المهنيَّـة التي تمتَّع بها ياكوني.

كان ثمَّة شهر يفصل ياكوني عن عيد ميلاده السَّادس والأربعين، حين عيَّنه غرافينيا، وكانت المرَّة الأولى -منذ أن أصبح لاعباً محترفاً في التاسعة عشرة من عمره- التي يظلُّ فيها عاطلاً عن العمل طيلة ستَّة شهور. وكان سيعتذر مدراء فنيون عديدون عن عدم قبول المهمَّة، بعد أن يلقوا مجرَّد نظرة واحدة على كاستل دي سانغرو، في حين سيرفضها آخرون حتَّى قبل أن يتجشَّموا عناء إلقاء مثل تلك النظرة. ولكنَّ ياكوني كان يائساً فقبل على الفور.

حقَّق نجاحاً فورياً. انتشلت أساليبه العنيفة (تحدَّث بعضُهم عن تنمُّره) الفريقَ من الحضيض إلى المركز السَّابع في نهاية الموسم. ولكنَّه

أدهش الجميع، في السنة التالية، بقيادة كاستل دي سانغرو لتجاوز عائق بقائهم ستَّ سنين في الفئة الثانية من دوري الدرجة الثالثة والصعود بهم إلى الفئة الأولى.

وقد يكون من الصعب إدراك مدى الاختلاف بين الفئة الثانية والفئة الوسطى والفئة الأولى من دوري الدرجة الثالثة، ولكنَّه مدى واسع. فعلى الرَّغم من أنَّ الفئة الثانية هي فئة احترافيَّـة، فإنَّها لا تكاد تكون كذلك. ذلك أنَّ غالبية الأندية تأتي من مدن وبلدات مغمورة إلى درجة أنَّ كثيراً من الإيطالـيِّين يجدون مشقَّة في تحديد مواقعها على الخريطة. كان هذا الدَّوري، الذي يضمُّ أندية كتيانا وفيرمانا وجيورجيوني وساندونا وفورلي وتولنتينو وإيمولا، دوري إيطاليا الثانويَّ الذي يعقد في أراضيها الخلفيَّـة المنعزلة، حيث لم تكن السياحة مصدر دخل أساسياً.

وكان من المدهش، رغم ذلك، أن تصعد كاستل دي سانغرو، الواقعة في أعماق إقليمٍ أبروتسو ولا يتجاوز تعداد سكَّانها 5000 نسمة، إلى هذا المستوى وتتمكَّن من الحفاظ عليه سبعَ سنين. أما أنْ يكون الفريق على وشك الصعود إلى مستوى أعلى -إلى الفئة الأولى من الدرجة الثالثة- فإنه حدثٌ بدا، كالمسافة بين المجرَّات، أبعدَ من قدرة المرء على أن يتخيَّله.

كانت كاستل دي سانغرو ستواجه، في موسم 1995-96 وفي الدائرة الثانية من الفئة الأولى من دوري الدرجة الثالثة، خصوصاً من أمثال فريق مدينة أسكولي الذي سبق له اللعب في دوري الدرجة الأولى أربعة عشر موسماً، كان آخرها في العام 1990. وليتشه، المدينة الكبيرة جهةَ الجنوب، التي لا يزيد عدد سكَّانها على 10000 نسمة، وتمتلك فريقاً لعب في دوري الدرجة الأولى قبل سنتين فحسب.

كان المدى الجغرافي وحده مهولاً. امتدَّ القسم الجنوبيُّ للفئة الأولى من دوري الدرجة الثالثة، من ليتشه الواقعة في كعب جزمة إيطاليا[43] حتَّى سيينا في توسكانا بأقصى الشِّمال. وليس من السهل العثور على أيِّ خصم ضمن المدى الجغرافيِّ لبلدة كاستل دي سانغرو. لذا، فالأمر يتطلَّب استئجار حافلة لنقل الفريق وأموالاً لملء خزان الوقود. ولا بُدَّ أيضاً من توفير وجبات الطعام للاعبين وحجز غرف فندقيَّة يبيتون فيها. كانت الإشاعة تقول إنَّ السيِّد ريتسا لم يكن راضياً البتَّة؛ فهو لم يُرد خسارة الأموال على فريق كرة القدم الذي يملكه، ولكن بوجود ستاد محليٍّ تتسع مقاعد مدرَّجاته لـ 4000 متفرِّج (وحتَّى ذلك العدد لا يتعدَّى 80٪ من تعداد سكَّان البلدة) لن يكون جني الأرباح من نجاح الفريق مسألة هيِّنة.

وبينما لا يمكن توقُّع تحقيق مثل ذلك النَّجاح في الفئة الأولى من دوري الدرجة الثانية، فقد رفض غراڤينيا، الذي كان شديد التَّقتير ولا تخرج النقود من بين أصابعه إلا بشقِّ الأنفس[44]، زيادةَ الأموال المصروفة على الفرقة بأيِّ شكل من الأشكال. ولكنَّ أهل البلدة آمنوا، إيمانَ الأطفال، بالقوى السحريَّـة المفترضة لدى ياكوني. ولعلَّه قد فعل ذلك بدهاء بارع، أو ربَّما عبر قوَّة الإرادة المطلقة (فلقد كان لاعبوه يخشون غضبه كثيراً إلى درجة أنَّهم يرتعبون من الخسارة) أو لعلَّه كان، بكلٍّ بساطة، مثلما قال بعضهم «إِيِّومُو دِلَّا پْرُوڤِيدِنْسَا»: هبة من الله[45]. لقد أحرز نتائج، في أيِّ حدث، وكان يحرزها تماماً برجال لم يمتلكوا أيَّ مؤهِّلات خاصَّة من أجل اللعبة.

توجَّب على ياكوني، لخوض مغامرة الفئة الثانية من دوري الدرجة الثالثة، أن يقنع بما لديه. كانت تلك هي طريقة أهل أبروتسو. وكانت

طائفة قليلة من أهل البلدة آمنت باحتماليَّـة أن يكون قادراً على إنقاذ الفريق من الهبوط الفوريِّ إلى الفئة الثانية، ولكن لا أحد تنبَّأ حقاً بما حدث: أنهى فريق كاستل دي سانغرو الموسمَ حاصلاً على المركز الثاني. لم تكُن ثمَّة جدوى حتَّى من التساؤل كيف حدث ذلك، لأنَّها كانت المرحلة الأولى من المعجزة؛ والمُعْجِزُ، بحسب تعريفه، يقاوم أيَّ محاولة للتفسير.

كان فريق ليتشه، الفائز بالمركز الأوَّل، سيصعد إلى دوري الدرجة الثانية تلقائياً، ولكنَّ القوانين الجديدة أوجبتْ أنْ تُجرَى تصفيات بين الفرق التي حلَّت بالمركز الثاني حتَّى الخامس، لتحديد أيٍّ فريق آخر سوف يصعد أيضاً.

لعب فريق كاستل دي سانغرو، في الدَّور الأوَّل من التَّصفيات، مبارتَيْن -ذهاباً وإياباً- ضدَّ فريق غوالدو الذي حلَّ خامساً، وهو فريق قادم من مدينة ماشيراتا بإقليم ماركي، شماليَّ إقليم أبروتسو.

ويوم الأحد، 16 يونيو 1996، في المباراة التي أقيمت بغوالدو، أضاع فريق كاستل دي سانغرو هدفاً قبل ستٍّ دقائق من نهاية المباراة، فخسر 1- صفر. وبعد أسبوع، في المباراة التي أجريت بكاستل دي سانغرو، ولم يبق على نهاية المباراة إلا خمس عشرة ثانية، والنتيجة صفر- صفر، مما يعني الخسارة لكاستل دي سانغرو، أجرى ياكوني تبديلاً غريباً: أرسل إلى الملعب مدافعاً لم يلعب سوى سبع مباريات طيلة الموسم، ولم يسبق له أن سجَّل هدفاً قطُّ، ولم تكد تمضي سبع ثوانٍ على دخول هذا المدافع إلى المباراة حتَّى أحرز هدفاً.

وحين سُئل ياكوني، لاحقاً، كيفَ استطاع أن يختار ذلك اللاعب على وجه التَّحديد في تلك اللحظة ذاتها، هزَّ كتفيه العريضَتيْن، بكل بساطة،

شاخصاً ببصره إلى السَّماء، وفارداً كفَّيه المرفوعتين كل واحدة إلى جهة، وقال: «تِشيِسَّا! chissa»: مَن يعرف؟ أسفرت مباراتا الذهاب والإياب عن التَّعادل 1-1، ولكنَّ كاستل دي سانغرو هو الذي تأهَّل إلى المباراة النهائيَّـة، لكونه الفريق الذي حلَّ بالمركز الأعلى في ترتيب الموسم العاديِّ.

وكانت هذه المباراة ستُجرَى في 22 يونيو بمدينة فوجيبا الحياديَّـة التي تبعد 150 ميلاً جنوب شرق كاستل دي سانغرو: مباراة واحدة لتحديد أيِّ فريقَي الدَّائرة الثانية بالفئة الأولى من دوري الدرجة الثالثة، سوف ينضمُّ إلى ليتشه الموسمَ القادم في عالم دوري الدرجة الثانية الذي يبدو عالماً أسطورياً. سيكون الخصم مدينة أسكولي، عاصمة إحدى مقاطعات إقليم ماركي، وهي مدينة يبلغ تعداد سكَّانها عشرة أضعاف عدد سكَّان كاستل دي سانغرو، وتمتلك فريقاً فاز على كاستل دي سانغرو في كلتا المباراتَيْن اللتين خيضتا في الموسم العاديِّ.

وجد أهل البلدة أنفسهم، عند هذا الحدِّ، في حالة من القلق لم يعهدوها منذ بداية الحرب العالمية الثانية، أو، بالنسبة إلى بعضهم، منذ الزلزال العظيم الذي ضرب البلدة في العام 1915، مسفراً عن مقتل نحو نصف سكَّان البلدة. ولكنَّ الإثارة كانت قد ارتبطت، لأوَّل مرّة، بالأمل بدلاً من الخوف.

أعلن غرافينيا بأنَّه سيوفر حافلة خاصَّة لقاطني البلدة الرَّاغبين في القيام برحلة إلى فوجيبا لتشجيع الفريق. كان يفكِّر في تأمين حافلة أو ربَّما اثنتين. وما إن أدرك بسطاءُ كاستل دي سانغرو بأنَّه جادٌّ، حتَّى اصطفوا خارج مكاتب «لا سُوتِشْتَا»، ليضمنوا لأنفسهم مكاناً على متن الحافلة. كبر الصفُّ سريعاً: بضع مئات، في الأوَّل، ثمَّ امتدَّ ليشمل الآلاف.

نظر رئيس النَّادي فزعاً خارج نافذة مكتبه، فرأى جميع سكَّان البلدة تقريباً يغنُّون ويضحكون، ولكنَّهم كانوا أيضاً يتوسَّلون الحصول على مقاعد في الحافلة. فاضطر غرافينيا، في نهاية المطاف، إلى دفع ثمن استئجار أكثر من ثلاثين حافلة خاصَّة، ما أدَّى في الواقع إلى نفاد أرباح الفريق لذلك الموسم والتسبُّب في أن يصاب السيِّد ريتسا بحالة من الهلع الشديد.

ولا شيء كثيراً يمكن أن يقال عن المباراة. فظروف الملعب كانت مشابهة لتلك التي في بيت بلاستيكيٍّ؛ حَر أحد أيَّام الصيف القائظة ورطوبته، في جنوب إيطاليا، وقد اجتمعا معاً ليُنهكا اللاعبين لدى الطرفَيْن كليهما؛ أولئك اللاعبين الذين قد شلَّهم في الواقع الخوف الناجم عن معرفة أنَّ خطأ واحداً قد يكون قاتلاً ويقضي على أحلام الآلاف.

انتهت المباراة، التي استمرَّت تسعين دقيقة، بنتيجة صفر- صفر. وظلَّت النتيجة كذلك طيلة الشوط الإضافيِّ الممتد ثلاثينَ دقيقة، الذي سوف تتبعه عند الضرورة ركلات التَّرجيح على شاكلة ما حدث في المباراة النهائيَّـة بكأس العالم بين إيطاليا والبرازيل.

ويُسمح لكل فريق، وفق قواعد كرة القدم، بإجراء ثلاثة تبديلات، وحين يُبدَّل اللاعب لا يحق له العودة. أجرى ياكوني، حين انقضت فترة العصر القائظة وخارت قوى اللاعبين، التَّبديلَ الأوَّل، ثمَّ الثَّاني.

ولكنَّه أحجم، طيلة التِّسعين دقيقة، والثَّلاثين دقيقة التي أعقبتها، عن إجراء التبديل الثَّالث. أوقع هذا التصرُّف جمهورَ كاستل دي سانغرو في حيرة شديدة، إذ باتَ واضحاً أنَّه لم يبق أيُّ لاعبٍ، من بين لاعبي فريق القرية الأحد عشر، قادراً على بذل مزيدٍ من الجُهد -إلا حارس المرمى الذي لم يكُن يتوجَّب عليه أن يعدو بأقصى سرعة- مقاوماً في كلِّ خطوة،

وسطَ تلك الظروف الخانقة والشاقَّة، خصوماً شرسين وعنيفين في العادة.

وكان ياكوني لايزال ينتظر. ثمَّ، حينئذٍ، وفي الدقيقة 119، قام هذا السَّاحر بحركته، ويا لها من حركة غامضة! فلم يكُن اللاعب، الذي لوَّح له كي يتوجَّه إلى خطِّ التَّماس، أحدَ المدافعين أو لاعبي خطِّ الوسط أو المهاجمين المُنهَكين الذين جفَّت أجسادهم من شدَّة الرُّطوبة والحرِّ، وإنَّما روبيرتو دي يُولْيُس، حارسُ المرمى ذو الأربعة والعشرين عاماً، صاحب المقدرة البارعة الذي كان في هذا اليوم على الأقلِّ الحارسَ الذي لم تشبه شائبة ولا غبار على أدائه البتَّة.

وكان الذي هرول إلى الملعب بديلاً لَهُ الحارسُ الاحتياط، البالغ من العمر أربعة وثلاثين عاماً، پيترو سپينوزا، الذي لم يسبق له أن لعب طيلةَ الموسم دقيقةً واحدة. ولكنَّ سپينوزا، على الرَّغم من تسجيله كلاعب محترف طيلة عشرة مواسم، لم يلعب في أيِّ مستوىً يفوق مستوى الفئة الثانية من دوري الدرجة الثالثة، حتَّى إنَّ آخر مباراة خاضها في ذلك المستوى قد جرت قبل سنتين.

ولكنَّه، فجأةً، هَا هُنَا قد كان: حارس مرمى كاستل دي سانغرو لخوض دور ركلات الجزاء الترجيحيَّـة الحاسمة. غادر الشابُّ دي يوليس الملعب والدُّموع في عينيه، غافلاً عن التَّصفيق الحارِّ الذي تلقَّاه من الجماهير الواقفة.

ولا يمنح الحكم ضربات الجزاء، خلال المباراة، إلا لماماً؛ حين يعتقد بأنَّه قد شاهد خطأً فادحاً وقع في منطقة الجزاء، وهي منطقة مستطيلة تمتدُّ ثماني عشرة ياردة، بالتَّمام والكمال، من جانبَي قائمي المرمى وثماني عشرة ياردة إلى الأمام باتِّجاه منتصف الملعب.

ولكنَّ جولةً من ضربات الجزاء تُعقَد بعد المباراة لكسر التَّعادل وتحديد الفائز في المباريات التي تتطلَّب ذلك. يتناوب خمسة لاعبين من كلٍّ طرف (يُختارون من بين اللاعبين الموجودين بالملعب عند انتهاء المباراة في الوقت القانونيِّ) في تنفيذ الرَّكلات، والفريق الذي يحرز العدد الأكبر يفوز. (فإذا كانت نتيجة ركلات الجزاء متعادلة، بعد أن ينفذ اللاعبون الخمسة المعيَّنون ركلاتهم، يتواصل تنفيذ الرَّكلات وفقَ قاعدة الهدف القاتل).

ومن بين ركلات الجزاء التي تمنح على مدى المباراة، فإنَّ نحو ثمانٍ من أصل عَشْرٍ تنفَّذ بنجاح، ومن المُستبعد أن يخطئ اللاعب الماهر الهدف من مثل تلك المسافة القصيرة، ومن المستبعد أيضاً أن يصدَّ الركلةَ حارسُ المرمى.

ولكن مثلما شاهدنا في المباراة النهائية لكأس العالم سنة 1994، حين استُخدمتْ ركلات التَّرجيح لتحديد الفائز بعد أن أخفقت 120 دقيقة من اللعب الشاقِّ في أن تفعل ذلك، فإنَّ نسبة الرَّكلات الناجحة يمكن أن تكون منخفضة، ويمكن لحارس المرمى الماهر أن يكون ذا قيمة لا حدَّ لها.

فما الذي كان يفكِّر فيه ياكوني؟ تغليب الخبرة على الفتوَّة؟ أملُ أن تزعزعَ مفاجأةٌ أركانَ فريق أسكولي؟ اختلاجةُ عصبيَّةٍ اعترت الشابَّ دي يوليس ولا يستطيع كشفها إلا ياكوني السَّريع الملاحظة على نحو خارق؟ أو ربَّما كانت، كما أصبح يعتقد القرويون لاحقاً، لحظة إلهام إلهيٍّ؟ «تِشيسَّا!»: مَن يعرف؟

نفَّذ اللاعبون ركلاتهم، واحداً إثر واحد. كانت النَّتيجة، في نهاية الجولة الخامسة، متعادلةً، إذ سجل أربعة من كلا الطرفَيْن ركلاتهم، وصدَّ كلا الحارسين ركلةً واحدة.

وصلت المباراة في تلك الأثناء إلى مرحلة الهدف القاتل. نفذ فريق كاستل دي سانغرو ركلته فسجَّل. ونفَّذ فريق أسكولي وسجل. الفريقان متعادلان بعد الركلة السادسة. فنفَّذ كاستل دي سانغرو وسجَّل، ثمَّ سدَّد ركلةَ أسكولي لاعبٌ اسمه ميلانا، وكانت تسديدةً رائعة: ركلةً قويَّـة إلى يمين سپينوزا، مندفعةً مباشرة نحو باطن الزاوية القائمة من المرمى. كانت ركلات التَّرجيح سوف تذهب حينئذ إلى جولة ثامنة.

ولكن، كلا!

فلقد وثبَ المُبارَك سپينوزا -مدفوعاً بكلِّ غرائز الدَّهاء التي اكتسبها على مرِّ السِّنين- مسرعاً كالقطِّ، كأنَّه أصغر من عمره بعشر سنين، ذاتَ اليمين، في اللحظة التي رُكلتْ فيها الكرةُ، ثمَّ وذراعاه مفرودتان وجسده ممتدٌّ أفقياً على قَدْر طوله، تمكَّن بطرف قفَّازه لمسَ الكرة التي كانت قادمةً نحوه من مسافة لا تتجاوز اثنتي عشرة ياردة وبسرعة ستِّين ميلاً في السَّاعة تقريباً، فحرفها بضع بوصاتٍ واسعة عن منطقة المرمى.

كانت هذه اللحظة التي تحقَّق فيها مفهوم الكتلة الحرجة، وكانت هذه الهنيهة التي سوف تُعرف، بين عشيَّة وضحاها، بمعجزة كاستل دي سانغرو.

كانت كاستل دي سانغرو، الصغيرة والمغمورة والمعزولة، صاعدة إلى دوري الدرجة الثانية! معجزة؟ لا ريب في ذلك! حتَّى إنَّ تلك الكلمة الوحيدة لم تَعُد كافية لدى الصحافة الإيطاليَّـة، فأعلنت إحدى الصحف قائلة: «دِي مِرَاكُلُو إنْ مِرَاكُلُو!»[46]: معجزة المعجزات!

لقد باتَ فريق كاستل دي سانغرو، الذي لم يأتِ من إقليم أبروتسو القاحل فحسب، وإنَّما من أرض اللاپوتانيِّين أيضاً، ذاهباً إلى دوري

الدرجة الثانية، حيث سينافس في الموسم القادم، في طول البلاد وعرضها، أفرقة مدن كبيرة كتورينو[47] وجنوا وپَادوڤا وپاليرمو[48] وڤيرونا وباري والبندقية.

ولقد كانت معجزةً عصيَّـةً على الفهم، ولا يمكن لأشدِّ المخيِّلات جموحاً وحماسةً أن تُدرك كنهها وتحيط بأسباب وقوعها. أدركتُ، في اللحظة التي قرأت عنها، في شهر يونيو سنة 1996، بمجلَّة «غورين سپورتيڤو» -وهي مجلَّة إيطاليَّـة متخصصة في كرة القدم، كنت قد اشتركت فيها- أنْ لا بُدَّ من الذهاب إلى كاستل دي سانغرو، لأكتب حول المعجزة وعما حدث بعدها.

وسبق لأحد مدراء فريق ليڤرپول أن قال: «يُعتَقَدُ، بالطريقة التي يتحدَّث فيها بعض النَّاس عن كرة القدم، أنها مسألة حياة أو موت. إنَّهم لا يفهمون. المسألة أعمق جداً من ذلك».

ولقد فهمتُ المسألة، بهذا القَدْرِ، على الأقلِّ.

5

في حضرة الرَّئيس

كان صباح الأحد بارداً، ولكنَّه طافح بأشعة الشمس الباهرة. كان يوماً من تلك الأيَّام التي تجعل المرء يرغب في شراء زلَّاجتَيْن، ولكنني قاومت تلك الرَّغبة. وقاومت أيضاً أيَّ أفكار تتعلَّق بالإفطار. حتَّى إنَّني كنت خائفاً من شرب الماء.

وليست تلك هي المرَّة الأولى التي يكون فيها ذهني مشوَّشاً. نظرتُ إلى إحدى الخرائط، فشاهدت أنَّ مدينة پسكارا، حيث قالت باربرا إنَّنا سنذهب لتناول طعام الغداء رفقةَ السيِّد ريتسا، تبعد أكثر من 100 كيلومتر (60 ميلاً) عن كاستل دي سانغرو. ولقد كانت تقع، في الواقع، على شاطئ البحر الأدرياتيكي. فبدت المسافة كأنَّها طريق طويل على نحو فظيع لتناول الغداء فحسب، ولاسيَّما أنَّ من المفترض، حين تنتهي الوليمة، أنْ نعود أدراجنا مُسرعَيْن عبر الجبال، لنكون في كاستل دي سانغرو في الوقت المناسب لمشاهدة المباراة التي ستجري الساعةَ الرَّابعة مساءً.

كانت الساعة العاشرة صباحاً، حينَ وصل السيِّد غراڤينيا إلى فندق وست وسترن، والحصى الصغير يتطاير من حول عجلات سيَّارته التي اندفعت متمايلةً إلى المدخل الخاصِّ بالسيَّارات بسرعة نحو ستِّين ميلاً في الساعة. كان يقود سيَّارة لانسيا كحليَّـة، مُرتدياً نظَّارات شمسيَّـة داكنة، ويدخِّن سيكارة، ويتحدَّث في هاتفه الخلويِّ. وكان يرتدي، في هذه المرَّة أيضاً، سترة مدبوغة من جلد الغزال وسروال جينز أزرقَ. أدهشتني، وأنا

أشاهد رئيس النادي لأوَّل مرَّة في وضح النَّهار، وسامته وقامته المشوقة؛ شيء على شاكلة كيرك دوغلاس. وكانت زوجته، ابنة أخت السيِّد ريتسا، تجلس إلى جانبه، وهي امرأة قصيرة وريَّانة وذات ابتسامة في غاية العذوبة. أما باربرا، فجلستْ في المقعد الخلفيِّ.

أخبرتني باربرا أنَّ لعائلة غراڤينيا ولدَيْن مراهقَيْن، ولكنَّهما لن يحضرا المأدبة لعدم وجود متَّسع لهما في السيَّارة. ولقد أصرَّ غابرييل على أن يوصلني بالسيَّارة إلى پسكارا، بدلاً من ولديه، تعبيراً آخرَ عن المودَّة التي استقبلني بها في كاستل دي سانغرو. وكانت هذه التوصيلة تعني، بالطَّبع، توصيلَ باربرا أيضاً، فغابرييل لا يعرف أيَّ كلمة بالإنكليزيَّـة، ولا حتَّى زوجته.

لكزتني باربرا، بعد تفسير هذه المسألة، ثمَّ أشارت جهة مقدِّمة السيَّارة، قاصدة بأنَّه يتوجب علـيَّ التعبير عن امتناني للسيد غراڤينيا.

ملتُ إلى الأمام. «غْرَاتْسيهْ مِيلِ، سِنْيُورِي. لِيبِي إِيْ مُولتُو جِنْتِيلِهْ»[49]: ألف شكر، يا سيِّدي. أنت في غاية اللطف. لقد كنتُ هنا منذ السادسة صباحاً، أحفظُ هذه العبارة عن ظهر قلبٍ، مردِّداً إيَّاها على نَفْسي بصوت عالٍ. كنت آمل أن تكون هذه العبارة، رفقةَ «مَانْجيُو! مَانْجيُو!» (إنني آكل! إنَّني آكل!)، كافيةً لتعينني على تمضية سحابة اليوم.

فقال السيِّد غراڤينيا «نِيينْتِهْ Niente»، (لا شيءَ يُوجب الشُّكر)، ملوِّحاً بيده التي لا تمسك الهاتف، بقوَّة، للتَّعبير عن عدم الحاجة إلى أن أشكره. إنَّه شيء بسيط لا يستحق الشُّكر. لم يكُن قد نظر إلـيَّ بالفعل منذ دخلتُ إلى السيَّارة، ولكنَّ زوجته استدارت نحوي ثمَّ تبسَّمت، فتبسَّمت إليها بدوري. رنَّ الهاتف، فراح غراڤينيا يتحدَّث بنبرة خفيضة، وشفتاه تمسحان موضع التكلُّم في الهاتف، كأنَّه لم يرغب في أن يسمعه أحد. لم يكن ثمَّة ما يخشاه منِّي في هذا الصَّدد.

فقالت باربرا، ونبرة رسميَّـة جديدة كانت قد زحفت إلى تراكيبها اللغويَّـة في حضرة «الرَّئيس il presidente»، على الرَّغم من أنَّه لم يسمع كلمةً مما كانت تقول: «ولأنَّ الرحلة بالسيَّارة إلى بسكارا طويلة بعض الشَّيء، فقد طلب السيِّد غرافينيا أن أصاحبكم، كي يغدو الحوار يسيراً».

فقلت: «حسناً، ولكنَّني لا أستطيع التَّحدث إليه وهو يتكلَّم بالهاتف».

«كلا، ولكنَّك تستطيع أن تحدِّث السيِّدة غرافينيا مُعلِّقاً على جمال المنطقة وروعة الطَّقس، ويمكنك إخبارها، كما أخبرتني بالأمس، عن برنامج إقامتك، وأنَّه يتوجب عليك العودة إلى أمريكا في غضون ثلاثة أسابيع، ولكنَّك ستعود إلى هنا على وجه السُّرعة الممكنة، وتبقى حتَّى عيد الميلاد المجيد، ثمَّ ترافق الفريق حتَّى نهاية الموسم، في شهر يونيو القادم».

فملتُ إلى الأمام وربَّتُّ على كتف السيِّدة غرافينيا، قائلاً: «أرجو المعذرة». فاستدارت ثانيةً، جافلةً من هذا الاتصال الجسديِّ.

فقلتُ، ملوِّحاً بيدي على نحو رجوتُ أن يكون بادرة تعارف شاملة: «هذا جميل»، ثمَّ تبسَّمتُ: «والطَّقس؟ آه، ما أروعه!» ثم تبسَّمتُ ضاحكاً: «لا بُدَّ أن أعود إلى الوطن في غضون ثلاثة أسابيع، لإنجاز بعض الأمور المتفرِّقة، ولكنني سوف أعود وأبقى حتَّى عيد الميلاد المجيد».

فقالت باربرا بضع كلمات قليلة بالإيطاليَّـة، مفترضاً أنَّها تترجم ملاحظاتي العفويَّـة، ثمَّ انفجرت موجة من الكلام الإيطالـيِّ الهائج، من فوق كتف غرافينيا الأيمن، كأنَّها زخَّات من الرَّصاص، متوجِّهةً بكلِّ وضوح صوب المقعد الخلفيِّ.

أصغتْ باربرا باهتمام، ثمَّ قالت: «آه، يرغب السيِّد غرافينيا بمعرفة إن كانت إقامتك بالفندق ليلة البارحة مُرضية».

«أوه، بلى، بالطَّبع. ولا بُدَّ أن تخبريه بأنَّني سوف أغادر إلى نُزُل كوراديتِّي غداً».

وفعلت باربرا ذلك، فانفجرت بينهما سلسلة من الحوارات القصيرة الهائجة، بين أخذٍ وردٍّ، ثم قالت في نهاية المطاف: «يأسف السيِّد غراڤينيا لأنَّك قد فعلت ذلك، فنُزل كوراديتِّي، من وجهة نظره، ليس ملائماً لرجل في مثل مقامك. ولقد كان هذا السَّبب هو الذي دفعه في المقام الأول إلى حجز غرفة لك في فندق وست وسترن».

«حقاً، ولكن يا باربرا، اشرحي له، رجاءً كيف ينبغي أن أوجد في وسط البلد، قرب كلِّ شيء، وبخاصَّة الاستاد. تفحَّصْتُ إحدى الخرائط فوجدت أنَّ كوراديتِّي لا يبعد عن الاستاد إلا ثلاث وحداتٍ سكنيَّـة أو أربع».

ولكنَّ باربرا هزَّت رأسها: «ليس من اللائق ذكر الاستاد في هذا الصباح المميَّز».

«ماذا، وَلِمَ لا يا تُرى؟»

«أعتقدُ أنَّ الأمر يندرج في نطاق ما يمكن أن نسميه المسائل الحسَّاسة المثيرة للغضب».

«لا بُدَّ أن نكون جالسين في الاستاد، يا باربرا، عند الساعة الرابعة عصرَ هذا اليوم، وهذا يتوقَّف على عودتنا من مأدبة الغداء في الوقت المناسب».

فقالت باربرا: «اعتقدتُ أنَّه لا بُدَّ لشخصٍ يقطع كلَّ هذه المسافة، قادماً من أمريكا ليؤلِّف كتاباً عن معجزتنا، أن يكون قد أجرى بعض الاستقصاءات على نحو مسبق».

«كنت في عجلة من أمري كي أصل إلى هنا، ولكن ما المفترض أن يعنيه ذلك، على أيِّ حال»؟

«ليس هذا الوقت المناسب كي نتبادل الحديث حول الأمر، ليس هنا في سيارة السيِّد غرافينيا، ولا سيَّما أنه غمرنا بوافر كرمه بإصراره على توصيلنا بنفسه إلى مأدبة الغداء التي يقيمها السيِّد ريتسا».

وحين سمع غرافينيا ذكرَ اسمه واسم ريتسا في الجملة ذاتها استدار استدارة كاملة صوب المقعد الخلفيِّ.

فقلتُ: «غْرَاتْسِيهْ مِيْلِ، سِنْيُورِي. لِيي إي مُولْتُو جِينْتِيلِي».

ولا بُدَّ لي أن أذكر أنَّ غرافينيا كان يقود سيارة اللانسيا، في هذه الأثناء، بطريق ذات مسربَيْن، وسرعةٍ تقترب من 200 كيلومتر في الساعة، أي نحو 120 ميلاً في الساعة. وكنت الوحيد الذي يرتدي حزام الأمان، فقالت باربرا: «لا يوجد ستاد».

«ماذا؟ ماذا قلتِ؟»

أعتقد أنَّك تحتاج إلى أن تتعلَّم كيف تقول «ماذا؟» بالإيطاليّة. فهلَّا حاولت أن تقول: «تِشيْ che؟!»

«حسناً، حسناً، ولكن ماذا -أقصدُ «تِشيْ»- قلتِ للتوِّ؟ بشأن عدم وجود ستاد»؟

«حسناً، أجل، يوجد ستاد، ولكن لا يمكن استخدامه. تنصُّ لوائح تشريعات دوري الدرجة الثانية، بضرورة ألا تقلَّ القُدرة الاستيعابيَّة للاستادات عن عشرة آلاف شخص جلوساً، ولا يتَّسع استادنا القديم إلا لأربعة آلاف، ولقد أُنجز الكثير من أعمال البناء، ولكنَّ هذه الأعمال لم تكتمل للأسف. ولذلك فإنَّ المباراة لن تُعقَد اليومَ في كاستل دي سانغرو، وإنَّما في تِشيتِي، حيث حصل غابرييل بكلِّ ذكاءٍ على حق استخدام الاستاد المقام في هذه المدينة التي لا تبعد عن پسكارا كثيراً، ولهذا السَّبب اختار السيِّد ريتسا تناول طعام الغداء في مطعم پسكارا».

«لا أكاد أصدق ذلك. أوَّلاً، لا يوجد فندق، والآن تخبرينني بعدم وجود ستاد»؟

فقالت باربرا: «والكثيرون في كاستل دي سانغرو لا يكادون يصدِّقون ذلك؛ إنَّه وضع غير مريح».

«ولكن أنَّى ذلك؟ كان أمامهم الصَّيفُ بطوله، لإضافة ستَّة آلاف مقعد، إنْ كان ذلك كلَّ ما توجَّب عليهم فعله. كيف لم يُنجزوا ذلك»؟

«هذا سؤال يُطرَح مراراً، مثلما أقول. ثمَّة قَدْر كبير من الحيرة التي تدفع المرء، بالطَّبع، إلى التَّخمين الذي لا ريبَ أنَّ قَدْراً كبيراً منه لا أساس له من الصحة. فلقد كان من المفترض أن تأتي الأموال المقدَّرة لأعمال البناء، على سبيل المثال، من سلطة الإقليم ومن المقاطعة. ولكنَّ غابرييل أعلن أن هذه الأموال لم تصل. يلمِّح بعضهم إلى أنَّها قد وصلت ولكنها حُوِّلتْ إلى مطرح آخر. فلدى السيِّد ريتسا وغابرييل، كما تعرف، مصالح تجارية كثيرة علاوة على فريق كاستل دي سانغرو لكرة القدم».

«أتقولين بأنهم سرقوا الأموال التي كان من المفترض أن تذهب إلى بناء الاستاد»؟

«بالطَّبع كلا. لا أجرؤ على كَيْل مثل هذا الاتِّهام، سواء إلى السيِّد ريتسا أو غابرييل. إنَّني أقصُّ عليك الفرضيَّات التي يتداولها الآخرون لأغراض تتعلَّق بالخلفيَّـة التي تحيط بهذه المسألة فحسب».

«ولماذا لم يستخدم السيِّد ريتسا بعض ملايينه الخاصَّة لإضافة ستة الآلاف مقعد؟ ولقد قلتِ إنَّ ريتسا كان مقاولاً كبيراً في نابولي؟ فمكالمة هاتفية واحدة ورجل على شاكلته كفيلان بإقامة هذه المقاعد الناقصة بين عشيَّـة وضحاها! لا يوجد ستاد؟ هذا أسخف شيء سمعته البتَّة في حياتي».

فقالت باربرا: «رجاءً»! «حين ترفع صوتك بتلك الطريقة، وخاصَّة حين تذكر اسم السيِّد ريتسا، يغدو الأمر مزعجاً بالنسبة إلى مضيِّفنا ومضيِّفتنا في المقعد الأماميِّ».

«ماذا؟ أتريدينني ألا ألفظ اسميهما كي لا يعرفا أنَّنا كنا نتحدث عنهما؟ أقصدُ «تِشيْ»؟

فقالت باربرا: «تِشيْ»؟

«أجل، لقد نطقتُ «ماذا» في بداية ما قد قلته للتوِّ، في حين توجب علـيَّ أن أقول «تِشيْ»، أقصد في مستهلِّ كلامي الذي بدأته بكلمة «تِشيْ».

«كلا، ليست المسألة في غاية السُّهولة، فيما يتعلَّق باستخدام «تِشيْ». رجاءً، اِنسَ حتَّى أنَّني قد ذكرتها. وحين تكون لدينا حصَّة رسميَّـة، سوف أشرح لك. وأرجو أن تعرف أيضاً أنَّ معضلة الاستاد، على الرَّغم من أنَّ الخبر قد وقع عليك كالصَّاعقة، ذائعةٌ في كاستل دي سانغرو وفي أرجاء أبروتسو كافَّة. وسيكون من غير اللائق البتَّةَ أن تثير هذا الموضوع أمام رفقتنا الحاليَّـة وفي حضرة مضيِّفنا عند الغداء».

ثمَّ أضفتْ باربرا نبرةَ مرحٍ خفيفةً على صوتها ثانيةً، وتبسَّمت ابتسامةً عريضة، وراحت تتحدَّث بلا توقُّف مع غراڤينيا وزوجته. هزَّ السيِّد غراڤينيا والسيِّدة غراڤينيا رأسيهما رداً عليها، ثمَّ تبسَّما إلـيَّ، واستدارا ثانيةً إلى الأمام، وغراڤينيا يزيد سرعة السيارة أكثر فأكثر، ثم يشعل سيكارة، ويجري بهاتفه الخلويِّ مكالمة أخرى.

فقلت: «حسناً، ماذا أخبرتهما بحقِّ السَّماء[50]»؟

«لم أقلُ إلا أنَّك كنتَ راغباً في التَّشديد على مدى أهميَّـة أن يعرف السيِّد غراڤينيا والسيِّدة غراڤينيا مبلغَ عرفانك لهما على الحفاوة الاستثنائيَّـة

التي أظهراها تجاهك. وقلتُ أيضاً إنِّ من شيمة النَّاس في مناطق أميركيَّة معيَّنة، حين تغمرهم المسرَّة، أن يستخدموا نبرة صوت قد يُساء فهمها، فتُؤخذَ على أنَّها تعبير عن الاستياء والتذمُّر».

«مدهش. أراهن بأنَّك لم تتعلمي ذلك في أيِّ مدرسة».

«ما ذلك»؟

«اللفُّ والدَّوران بالكلام الفارغ. بَيْدَ أنّكِ قد أبليتِ بلاءً حسناً، لو كنتِ تقولينَ الحقيقةَ».

فقالت باربرا: «رجاءً»، وقد احمرَّ وجهها خجلاً بعض الشيء وهي تبتسم.

ثمَّ ملت إلى الأمام ثانيةً، وقلتُ: «غْرَاتْسِيهْ مِيْلِ».

هزَّ غرافينيا رأسه هزَّة قصيرة، وتبسَّمت زوجته.

ثم أضفتُ: «مَانْجِيُو! مَانْجِيُو!»، فشخصت أبصارهما.

سألتني باربرا: «ما الذي قلته للتوِّ»؟

«لا شيء مهماً، يا باربرا. إنَّني أتمرَّن فحسب».

كانت الحرارة في پسكارا أشدَّ ممَّا هي عليه خارج فندق وست وسترن بثلاثين درجة على الأقلِّ. اعتقدت أنَّ عشر درجات ناجمة عن حلول وقت الظهيرة، والساعة قد تعدَّت العاشرة صباحاً [وقت مغادرة الفندق]، أما العشرون الباقيات فأظنُّ أنَّها ناجمة عن الفارق في مستوى الارتفاع عن سطح البحر: ترتفع كاستل دي سانغرو 3000 قدم عن سطح البحر. لم تكن هذه الحرارة ذات شأن، في أوائل سپتمبر، ولكنني حين فكَّرت

بالشتاء الطويل البارد والعاصف، انتابتني أوَّل لحظة تقدير حقيقيَّـة تجاه [الشاعر الإنكليزي] سوِنْبِيرن.

ناور غراڤينيا، تاركاً الأوتوستراد خلفه، عبـر متاهـة من الطرق الخلفيَّـة والشوارع وحيدة الاتِّجاه للوصول إلى نادي «سي رِفَرْ كْلَب»[51] الوارف والهادئ.

فسألتُ باربرا: «لِمَ لَهُ اسمٌ إنكليزيٌّ»؟ ونحن ندخل إلى المطعم.

«أعتقد أن ذلك يجعله يبدو أرقى. يعتقد كثير من الإيطالـيِّين، بغباوةٍ، أنَّ استخدام المصطلحات الإنكليزيَّـة علامة على الثقافة الرفيعة».

«وهل يتكلَّم السيِّد ريتسا الإنكليزيَّـة»؟

توتَّرت شفتاها وهي تكتم ابتسامةً، «ولا حتَّى الإيطاليَّـة. السيِّد ريتسا ينظر، والسيِّد ريتسا يومئ، فيحصل السيِّد ريتسا على ما يريد».

في تلك اللحظة، وقعت عينا ريتسا علـيَّ، ولا «تقع» عينا الرجل العجوز في الواقع كثيراً على أحد إلا حين «يغدو» محطَّ اهتمامه. كان يدخِّن سيكاراً لا يقلُّ طوله عن تسع بوصات. ولم يكن طوله هو نفسه يزيد على خمس أقدام وستِّ بوصات، محدودباً بعض الشَّيء ولديه كرش مدوَّر كبير. بيد أنَّ ذلك لم يثر في ذاكرتي أيَّ صور لسانتا كلوز. كان شعر ريتسا الأشيب الخشن مقصوصاً قصيراً على شاكلة شعر حارس سجن، ووجهه مربَّعاً أكثر من كونه مستديراً، وشفتاه ترتسمانِ خيطاً رفيعاً صلداً كأنَّه طوق خَنْقٍ[52].

وقف على جانبَيْه الرَّجلان اللذان يُفترض أنَّهما حارساه الشخصيَّان. كان أحدهما شاباً في العشرينيَّات من عمره، لا يقلُّ وزن جسده الخالي من الشُّحوم تماماً عن 300 پاوند [136 كيلوغراماً]. ارتدى قميصاً بكمَّين قصيرين، فرأيت أنَّ محيط ذراعيه يكاد يكون كمحيط فخذيه نفسه. وكان الآخر، الأكبر سناً، نحيلاً

مائلاً إلى الشحوب، محدودباً بعض الشَّيء، ويرتدي -يا للمفارقة الصَّارخة!- نظَّارةً شمسيَّة ومعطف مطر بنياً غامقاً.

فهمستُ إلى باربرا: «لا يبدو الرَّجل العجوز كأنَّه حارس شخصيٌّ؛ يبدو في الحقيقة كأنَّه يحتاج إلى واحدٍ».

فقالت: «أجل، إنَّه «كَارَابِنْيِيرِي carabiniere» متقاعد، مِن شرطة الدَّرَك الأقوياء، وهو الذي يحمل المسدَّس».

تقدَّمت باربرا ثلاث خطوات، فابتعد الحارسان، سامحين لها بتقبيل السيِّد ريتسا على وجنتيه ثم أومأت إلـيَّ. لم يرفع الرجل ذو السَّاعدَيْن مفتولَي العضلات عينيه عنِّي قطُّ. ولعلَّ الرجل الآخر كذلك، ولكنَّ نظارته الدَّاكنة لم تُمكِّني من أن أعرف.

لو كان السيِّد ريتسا سيومئُ برأسه إلـيَّ، فسيحركه أقلَّ من بوصة واحدة، ولكنَّه على الأرجح لن يفعل ذلك على الإطلاق. وممَّا لا ريب فيه أنَّ تعابير وجهه لم تتغيَّر قطُّ. لم ينفتح فمه، ولم تلن حدَّة تحديقته؛ ظلَّ واقفاً هناك والسيكار في يده.

فقلت لباربرا: «أرجو أن تخبري السيِّد ريتسا أنَّني قد تشرَّفت، شرفاً عظيماً، بأنْ أكون في زمرة هذه الصحبة المميَّزة في مثل هذه المناسبة الميمونة، وأنَّني أتمنَّى له ولفريقه أعظم نجاح ممكن، ليس اليوم فحسب وإنَّما في الموسم القادم برمَّته. ولكِ أن تخبريه أيضاً أنَّني مسرور لتناول الطعام في مطعم يدعى «سي رِفْرْ كْلَب»، ليس بسبب اسمه الإنكليزيِّ، وإنَّما لأنَّني مغرم بأكل السَّمك على وجه الخصوص، ومن الصَّعب الحصول على سمك طازج جيِّد النَّوعية حيث أعيش في أمريكا، فبيتي يبعد عدَّة أميال عن البحر. ولكِ أن تخبريه أيضاً-»

فقاطعنى صوت نخيرٍ أصدره ريتسا. كان على الأرجح يشاهدني، ونظرة انزعاج ترتسم على محيَّاه.

فقالت باربرا: «يريدك أن تتوقف عن الكلام، فهو لا يحبُّ الرجال الذين يتكلَّمون كثيراً؛ إنَّه يفضِّل الرِّجال الذين يعرفون كيف يأكلون وأولئك الذين يعرفون كيف يظلُّون صامتين».

«متي قال كلَّ ذلك؟ لقد نَخَرَ فحسْب».

فأخبرتني باربرا: «لقد عرفت السيِّد ريتسا سنين عديدة، وأستطيع تأويل أصوات النَّخير التي يصدرها».

ثم استدارت نحو ريتسا، متلفِّظة بنحو ستِّ كلمات سريعة، وتبسَّمت ابتسامةً عريضة، وقادتني بعيداً.

قالت وهي تبدو مرتاحة: «هكذا، لقد زالت الرسميَّات الآن».

«ماذا قلت له»؟

«أن يتكرَّم بالتماس العذر لك، لأنَّك كنت، بكلّ بساطة، متوتراً بشأن المباراة».

«ولكن ماذا قلت بالضَّبط؟ لقد بدا الأمر مختلفاً، كان الكلام في غاية السرعة، ولكنَّه كان مختلفاً».

«أجل، فأنا لم أتكلَّم بالإيطاليَّـة القاعديَّـة. لقد تحدَّثت إلى السيِّد ريتسا بالمحكيَّـة».

«المحكيَّـة»؟

«اللهجة العاميَّـة لإقليم أبروتسو؛ إنَّها اللهجة التي يفهمها على أكمل وجه. هو لا يتحدَّث على الدَّوام إلا بلهجتَيْ أبروتسو وبوليا، فالإيطاليَّـة لا تُعلَّمُ إلا في المدارس، والسيِّد ريتسا لم يذهب إلى المدرسة إلا لماماً».

فقلتُ: «ألم يتعلم بالمعنى التقليديِّ [في المدارس]».

فتبسَّمت باربرا: «نعم، لم يتعلم بالمعنى التقليديِّ».

ولقد كانت المجموعة، لحسن الحظِّ، كبيرة بما يكفي لأن تتوزَّع على عدَّة طاولات كبيرة، فكنت على الطاولة التي يتزعمها غراڤينيا، ولكنَّني لم أتمكن من الحديث إليه خلال مأدبة الغداء، ناهيك عن أنَّني لم أتمكَّن من الحديث إلى السيِّد ريتسا بالطَّبع.

فكلُّ ما فعلته هو الأكل. التهمت كلَّ لقمة في كلِّ طبق قُدِّم إلـيَّ، وكانت ثمَّة ثمانية أطباق على الأقلِّ. أتيتُ على كلِّ شيء تماماً، ولم تفلت منِّي حتَّى حسكة سمك واحدة. لقد كانت الأسماك والأطعمة البحريَّـة -التي امتدَّت من المحارات إلى السَّلطعونات المستخرجة من البحر الأدرياتيكي، وتضم ما لا يقلُّ عن ستَّة أنواع من الأسماك التي لم يسبق لي أن شاهدتها قطُّ- من أفضل الأطعمة التي قُدِّمت إلـيَّ في حياتي. وصاحبت هذه الأطباق أنبذة بيضاء مختلفة، ثم تبعتها الشَّمبانيا.

أشعل السيِّد ريستا، في نهاية المأدبة، سيكاراً جديداً ونهض. فَزَّ حارساه الشخصيَّان من مكانَيْهما. نظر السيِّد ريتسا إلى ساعته، فأومأ الحارس الشخصيُّ العجوز على الفور إلى الحارس الشابِّ الذي غادر غرفة الطَّعام، وهو يهرول هرولةً خفيفةً، صوب المرآب لجلب سيارة السيِّد ريتسا.

توقَّفت الدَّردشات في جميع أرجاء الغرفة، والجُمَلُ مازالت في منتصفها، لم تُلفَظ كاملةً بعد. نهض الجميع، ثم راح السيِّد ريتسا، وهو يومئُ برأسه وينخر في اتِّجاه كبير النُّدلاء الذي يحوم حوله، يتهادي مغادراً الغرفة على مهله كالبطريق، والدُّخان يتعالى من سيكاره الجديد كأنَّه دخان نار شبَّت في أيكة. تزاحم معشر المدعوِّين بالمناكب خلفه، كي يتبعوه عن

كثب بقدر المستطاع دون أن يبدو أنَّهم يحاولون ذلك.

كان غرافينيا يتمتم مسرعاً في هاتفه الخلويِّ وهو يمشي. لم يخلع نظارته الشمسيَّة بالمرَّة، فكان المرء لا يستطيع أخذ انطباع بأنَّ ساعة المباراة قد حانت إلا من اختلاجات المنطقة المحيطة بفمه، ثمَّ توتَّر فجأةً بما يكفي لالتهام سيكاره الجديد بدلاً من أن يدخِّنه.

كانت الساعة 3:30 مساءً، وسوف تنطلق المباراة التاريخيَّة -بل المعجزة- الأولى لفريق كاستل دي سانغرو في دوري الدرجة الثانية بعد نصف ساعة فحسب، في مكان ليس قريباً من بلدة كاستل دي سانغرو، لسوء الحظِّ.

6
جِينز سوڤيتي

وإذا كانت ثمَّة معالم أخَّاذة في مدينة تِشْيتِي (50000 نسمة) الواقعة على بُعْد بضعة أميال داخل أراضي پسكارا، فلا بُدَّ أنَّني قد فوَّتُّ رؤيتها في أثناء اندفاعنا مسرعين إلى الاستاد، وهو كتلة خرسانية كئيبة تتَّسع للعشرة آلاف مقعد المطلوبة.

كان وقت العصر رائعاً. ظلت الشَّمس، حين دنت الساعة الرابعة مساءً، حارَّة وشديدة في سماء زرقاء صافية. وكان الملعب العشبيُّ الممتدُّ أمامنا أخضرَ على نحو مثاليٍّ. ولكنَّ الاستاد كان نصف ممتلئ فحسب، وهذه مسألة جديدة بالنِّسبة إلى تجربتي المتواضعة.

فلم يسبق أن خطر ببالي، بعد مشاهدتي مباريات كأس العالم ودوري الدرجة الأولى في إيطاليا، أنَّ مقاعد استاد كرة قدم قد تترك فارغة. ولكن هنا، خارج المنطقة الفعليَّة لمقصورة كبار الشخصيات، كانت مقاعد خرسانيَّة واسعةٌ، خاليةٌ من المتفرِّجين، تمتدُّ إلى خطوط حدود المرمى وما بعدها.

ولم تكن علامات الحياة قد دبَّت إلا في أطراف الاستاد المنحنية: كان مشجعو كاستل دي سانغرو، جهة الشمال، يلوِّحون بأعلام حمراء-صفراء ويطلقون شماريخ ناريَّة حمراء، أما جهة اليمين، فكانت فيها ثلَّة أصغر من المشجعين القادمين من كالابريا في الجنوب لمؤازرة الخصوم، لاعبي فريق كُوزِنْتْسَا، في المباراة الافتتاحية، ناشرين أعلامهم الزرقاء-والبيضاء، ومُطلقين مشاعلهم النارية الزرقاء.

فسألت باربرا التي كانت تجلس في المدرَّج ورائي: «أين ذهب الجميع؟ إلى الشَّاطئ»؟

«كثيرٌ منهم، وكنتُ سأكون هناك أيضاً، لو لم أوافق على أن أكون هنا».

«ولكنَّه حدث تاريخيٌّ».

«أجل، ولعلَّ ثلاثة آلاف شخص قد قدموا إلى هُنَا من كاستل دي سانغرو، ما يعدل ستِّين بالمائة من عدد السكان. ولو قدم ستُّون بالمائة من عدد سكَّان تورينو لحضور هذه المباراة، لفاقوا نصف المليون. يتوجب عليك أن تتذكَّر دائماً كم نحن قليلون، قليلون جداً في الواقع [من حيث العدد]».

دخل الفريقان في تلك اللحظة إلى أرض الملعب، فسنحت لي الفرصة كي أنظر لأوَّل مرَّة إلى صانعي المعجزة الذين سوف أقضي معهم تسعة الشهور القادمة.

لا تحمل قمصان لاعبي كرة القدم، في أنحاء أوروبَّا وأمريكا الجنوبيَّة، اسمَ الفريق وإنَّما اسم الرَّاعي الرئيس الذي يدفع أعلى مبلغ يُتفاوَض عليه لقاء ذلك. لقد كنت مدركاً هذه المسألة، فاسم شركة «أوپل» مكتوب على قمصان لاعبي إيه. سي. ميلان، في حين تحمل قمصان لاعبي يوڤنتوس شعار شركة «سوني»، على سبيل المثال.

بيد أنَّني، على الرغم من ذلك، قد ذهلت قليلاً حين رأيت أنَّ قمصان لاعبي فريق كاستل دي سانغرو الأحدَ عشر، الذين دخلوا مهرولين إلى أرض الملعب لخوض مباراتهم التاريخية الأولى في دوري الدرجة الثانية، مكتوبٌ عليها «جينز سوڤييتي SOVIET JEANS».

فاستدرت إلى باربرا: « جينز سوڤييتي؟»

فضَحِكَتْ، «لا بُدَّ أن يبدو الأمر غريباً بالنسبة إلى أمريكي. ولكنَّ الاسم يعود إلى شركة تصنيع ملابس رياضيَّة موجود في ناپولي».

«ولكن، لم يَعُد ثمَّة وجود لأي اتِّحاد سوڤييتيٍّ»!

«نعم، وهذا سبب رواج الاسم».

«رائج أين؟ فاسم هذه الماركة ليس كالڤين كلاين تماماً»، «كلا، ولكن حين تزداد شهرة فريق كاستل دي سانغرو، فإنَّ النَّاس سوف يعرفون «جينز سوڤييتي». ناهيك عن أنَّ المرء لا بُدَّ أن يفعل أفضل ما يقدر عليه. فالماركات الكبيرة تحتاج إلى أندية ذائعة الصِّيت».

«وماذا بشأن الجينز؟ أهو جيِّد»؟

فقالت: «حسناً، لن أرغب في ارتدائه».

واستتبع ذلك، بالطَّبع، السؤال إنْ كان فريق كاستل دي سانغرو فريقاً جيداً. لم أكن قادراً بَعْدُ على طرح سؤال كهذا على أحد قد يكون على دراية بالحقيقة، ولكنَّ الإجابة كفيلةٌ لا محالةَ، أكثرَ من أي شيء آخر، بتحديد شكل الشهور التسعة القادمة، والأحاسيس التي سوف تسود فيها.

فلو راح الفريق يخسر مبارياته في دوري الدرجة الثانية على نحو يائس، وينخفض ترتيبه، في جدول النقاط، كلَّ أسبوع، فسوف تكون تجربتي معهم -بعد أن أكون قد فقدت اهتمامي- تجربة من نوعية مختلفة عنها لو أنَّهم كافحوا للقيام بمحاولة شرعيَّة من أجل «الخلاص la salvezza»؛ وهي حالة الغبطة تلك التي يبلغها في نهاية الموسم فريق منهك ويائس يُفلِت من الهبوط بشقِّ الأنفس.

وسوف يكون النَّجاح، بالنسبة إلى كاستل دي سانغرو في الموسم القادم، مرادفاً لكلمة واحدة فقط: البقاء. فلم يكُن هدفهم أعظم من

الحصول، في ماراثون المباريات الثماني والثلاثين، على مركز لا يقلُّ عن المرتبة السادسة عشرة من بين تلك العشرين، فيُسمح لهم بالبقاء في دوري الدرجة الثانية والكفاح لسنة أخرى.

سيكون مثيراً للضَّحك، من منظور أمريكيٍّ، القول إنَّ طموح الفريق، منذ بداية الموسم، هو أن يحلَّ في نهايته بالمركز السَّادس عشر. ولكنَّ نظام الصعود والهبوط في إيطاليا كان غاية في المنطقيَّة ولا يقبل التَّعديل إلى درجة تثير الملل.

ولقد بدت الصحف ومجلات الكالتشيو، التي سنحت لي الفرصة للاطلاع عليها حتى الآن، مجمعةً على أنَّ «الخلاص» بعيد المنال عن كاستل دي سانغرو، بصرف النَّظر عن مشاعر الغبطة والمسرَّة التي هيَّجتها «المعجزة il miracolo».

وكانت التلميحات تقول إنَّ دوري الدرجة الثانية ليس دورياً عبثياً للعمَّال والكادحين، إنَّه تربة قاحلة لا تتجذَّرُ فيها الحكايات الخرافيَّة. وعلى الرَّغم من أنَّ هذا الدوري قريب جداً من مجد دوري الدرجة الأولى وسحره، فإنَّه لايزال بعيداً عنهما، وأشبه ما يكون بطريق أحلام محطَّمة، إلى حدٍّ بعيد، من أن يكون ملاذاً للحالمين. فلا يبقى أي فريق على قيد البقاء في هذا المستوى بالشَّعوذة الإداريَّة، ولا حتَّى بِـ «إلْ كُورِي il cuore» و«لَا غْرِيْنْتَا la grinta»-الجسارة والرُّوح القتاليَّة- مجتمعتَيْن. تأتي الموهبة، في دوري الدرجة الثانية، بالمقام الأوَّل، وهذا النَّوع من الموهبة لا يتأتَّى رخيصاً.

تلقَّى فريق كاستل دي سانغرو مكافأة على صعوده؛ مبلغاً يصل إلى خمسة ملايين دولار من الاتِّحاد الذي يدير الكالتشيو، ولكنَّ مجلة «لا غازيتَّا ديلُّو سپورت» نقلت عن غرافينيا قوله «لسنا إلا مجرَّد فريق فقير قادم من

قرية صغيرة في إقليم أبروتسو، ولا نقدر على دفع الأموال للحصول على أفضل اللاعبين». بدا واضحاً أنَّه قد عقد العزم على خوض غمار البطولة مكتفياً، أساساً، بالفريق ذاته الذي صعد، الذي هو، في جزء كبير منه، الفرقة ذاتها التي صعدت قبل سنة من دوري الدرجة الثالثة. قال غراڤينيا إنَّهم سيعوِّضون الموهبةَ التي يفتقر إليها فريق كاستل دي سانغرو بـ «لا پُوْتِنْتسَا دِلَّا سْپِرَانْتْسَا»[53]: قوَّة الأمل.

أما فريق كوزنتسا الذي حلَّ بالمركز الثاني عشر في الموسم السابق، ومثَّل مدينة معدمة بكالابريا يبلغ تعداد سكَّانها 100000 نسمة، فقد وعد باختبار القدرة الحقيقيَّـة لهذه القوَّة العابرة إلى حدٍّ ما. كانت فرقة بلا نجوم، لكنها مزيج من لاعبين مخضرمين نزَّاعين إلى السخرية والتهكُّم، وشباب أشدَّاء متوسِّطي الموهبة، أدركوا الحقيقة المرَّة: أنَّ الموضع الذي بلغوه، في تلك الأوقات، لم يكُن سهلَ المنال، بالقَدْر الذي كان عليه الموضع الذي يتوقون إلى الوصول إليه.

ولم نكُن نحن (وأعني بـ «نحن» فريق كاستل دي سانغرو، فلقد شعرتُ في اللحظة التي دَخَلَتْ فيها الفرقة إلى الملعب، أنَّ كل علامات الموضوعيَّـة والتجرُّد قد تلاشت: لقد غدا هذا الفريق، بصرف النظر عن النتيجة، فريقي الآن، على نحو لم أعهده في أي رياضة من قبل) في أفضل أحوالنا، ولا حتى بالمستوى الذي يرقى إلى المستوى الذي لعبنا به في الفئة الأولى من دوري الدرجة الثالثة.

علمتُ من الصحف الصباحية أنَّ حارس المرمى، دي يُولْيُس، الذي أخلى مكانه لصالح سپينوزا في فوجيا، قد حُرم من اللعب في هذه المباراة، لتراكم المخالفات [الإنذارات] الثانوية المرتكبة في الموسم السَّابق، على

الرغم من أنَّه أظهر مهارة عظيمة طيلة المباريات التي خاضها فيه. وحرم أيضاً ميكليني، لاعب خطِّ الوسط، البالغ من العمر اثنين وثلاثين عاماً الذي يلعب مع الفريق منذ تسعة مواسم متتالية، انطلاقاً من دوري الهواة.

علاوة على أنَّ الإصابات قد حرمت أيضاً فوسكو، مدافع الفريق الأول، وكلاوديو بونومي، لاعب خط الوسط البالغ من العمر أربعة وعشرين عاماً، الذي طار صيته كأفضل لاعبي الفريق، والذي خاض المباريات كافة إلا مباراة واحدة في السنة السابقة، ثم سيُحرَم الفريق، لبضعة أسابيع قادمة، من المهاجم المصاب جياكومو غالِّي، صاحب الأهداف التِّسعة التي قادت الفريق إلى تصدُّر الفئة الأولى من دوري الدرجة الثالثة.

وكان غرافينيا قد شحذ قوة الأمل قليلاً فحسب، فاستجلب لاعباً واحداً باهظ الثَّمن: مهاجماً يبلغ من العمر ثلاثين عاماً يدعى بِسْتِلَّا، اشتراه من فريق لوكيزي الذي يلعب في دوري الدرجة الثانية، ممثِّلاً مدينة لوكَّا التُّوسكانيَّـة. وكان قد طلب، بدرجة أقل، شراءَ: مهاجم آخر، يدعى دانيلو دي ڤِنْتِشِنْسُو، الذي نال بالتَّصويت لقبَ لاعب العام في الموسم السابق بالفئة الثانية من دوري الدرجة الثالثة، ومدافع شابٍّ يدعى لوقا دَانْجِلُو الذي يلعب هنا في تشيتي، ولاعبِ خطٍّ وسطِ كبيرٍ في السنِّ يدعى دي فابيو، مرَّت على تجربته الأخيرة في دوري الدرجة الثانية خمسُ سنين.

اتَّضحَ أنَّ غرافينيا قد عقد العزم، قبل أسبوعين، على ضرورة السَّماح لبيترو سبينوزا، الذي غدا أسطورة في هذه الأثناء، بالتقاعد، وهالته المعجزة تحيط به لم يمسسها أي سوء. ولهذا، فقد اشترى ماسيمو لوتِّي البالغ من العمر سبعة وعشرين عاماً الذي لعب المواسم الثلاثة الماضية في

نادٍ مغمور بالفئة الثانية من دوري الدرجة الثالثة، لا يبعد كثيراً من نابولي، ليكون بديل دي يوليس في حراسة المرمى.

وباتَ واضحاً أنَّ لوتّي قد جُلِب لاستخدامه في الحالات الطارئة فحسب؛ فَدِي يوليس هو الحارس الأوَّل. بيد أنَّه لسوء الحظِّ، ونظراً إلى حرمان دي يوليس من اللعب لفترة وجيزة، فإنَّ أولى الحالات الطارئة حدثت اليوم في مباراتنا الأولى بدوري الدرجة الثانية.

حينئذ، ومن دون جلبة تُذكَر، أسقط الحكم الكرة في منتصف الملعب، فبدأ مشوار حياة فريق كاستل دي سانغرو، وحياتي، في دوري الدرجة الثانية.

ثمَّة أحد عشر لاعباً في فريق كرة القدم، لا يسمح لأيٍّ منهم بلمس الكرة بيديه في أثناء لعبها إلا حارس المرمى. وغاية المباراة التي تستمرُّ تسعين دقيقة (مقسَّمة على شوطَيْن من خمس وأربعين دقيقة لكل منهما) أن تضع الكرة في مرمى خصمك عددَ مرَّات أكثر مما يضعها الخصم في مرماك. ويميل كثير من الأمريكيين إلى التندُّر حول صعوبة ذلك، ساخرين من المباريات الكثيرة التي تنتهي بنتيجة صفر- صفر، و1- صفر، بدلاً من أن تدهشهم حقيقةُ أنَّ الهدف يمكن أَلَّا يُحرَز أبداً.

وما إن تداعت آليَّـتي الدفاعيَّـة ضدَّ أمجاد الرياضة، حتى سحرتني في البدء، من بين عناصرها الأخرى، تلك الدرجة التي يستطيع فيها اللاعبون المهرة من تنفيذ جميع المناورات الأساسيَّـة لأي لاعب كرة سلَّة -المراوغة، والتَّمرير الدقيق، وقذف الكرة على الهدف- ولكن بأقدامهم فحسب. وفي أثناء الركض المتواصل (لا أوقات مستقطعة في كرة القدم) في منطقة أكبر إلى حدٍّ بعيد من ملعب كرة القدم الأمريكيَّـة، لنحو ساعة

ونصف في المجمل، تحت رحمة المدافعين الذين يسمح لهم، بخلاف كرة السلَّة، بالاحتكاك الجسديِّ المتكرِّر والعنيف في أغلب الأحيان.

وتمتزجُ هذه الاحتكاكات الجسديَّـة، في الأداء الاحترافيِّ الأعلى، كأداء باجيو على سبيل المثال، بمسحة من الفخامة والرقيِّ، أو حتى مسحة روحانيَّـة mystical: «أفعال تأبى الخضوع للمنطق الرَّاهن والمعرفة المتعلِّقة باحتمالات القدم والكرة»، بحسب تعبير الكاتب الهولندي أُوسْتَرغْ.

ولم تكُن الفخامة، على أي حال، مثلما سوف أعرف عما قريب، خاصيَّـةً ظاهرة للعيان على نحو متكرِّر في دوري الدرجة الثانية، ولكنَّ أولى اكتشافاتي العظيمة فيما يتصل بفريق كاستل دي سانغرو قد تبدَّت لي جليَّـةً في أثناء مشاهدة الدقائق الأولى المملَّة من المباراة: لا تنطوي هذه المباراة الجارية في تشيتي على أي شيءٍ من [سحر] تلك العناصر التي اجتمعَتْ لتولِّد هوسي باللعبة في المقام الأول.

ولكنني، تعويضاً عن ذلك، رحت أختبر موجة عنيفة من التَّعصُّب الكرويِّ، جعلتني أشعر كأنَّني قد تقلصت إلى أنبوبة أدرينالين. فكل ما استطعت فعله، منذ اللحظة الأولى، أن أصرخ وأتأوَّه وأهتف وألعن (بالإنكليزيَّـة، ولكنَّ ذلك لن يدوم طويلاً) حين كان فريق كاستل دي سانغرو لا يتقدم أو يتراجع في كثير من الأحيان إلى منطقة الدفاع في ارتباك واضح.

لم أكن راغباً في رؤية البراعة الفنيَّـة، ولا راغباً في تفجُّر المهارات الاستعراضيَّـة، ولا راغباً في مشاهدة اللحظات البارعة المتفوِّقة: أردتُّ فقط أن نغلب كوزنتسا! على الرَّغم من أنني لم أقابل اللاعبين بعد.

ثم بدأ شيء من التشويق بالظهور في نهاية الأمر. حدث ذلك في الدقيقة التاسعة عشرة، على وجه التعيين، حين تعرَّض دي فْنتشنسو (بديل المصاب

غالِّي) وهو يشنُّ هجمةً إلى جانب پستلّا، إلى عرقلة من طرف أحد مدافعي كوزنتسا في منطقة الجزاء، فمُنح ضربة جزاء. ركل الكرة بأريحيَّـة، فسجَّل أوَّل أهدافه وكاستل دي سانغرو في دوري الدرجة الثانية.

صرختُ وأنا أنطُّ بهستيريَّـة، ثم رحتُ وأنا في قمَّة الهيجان أقرصُ الذراع الأيسر لغرافينيا، رئيس نادي كاستل دي سانغرو، وأعصره على التَّوالي. كان جالساً دونما حراك ويحدِّق ببرودة فيَّ.

ثمَّ صرخت: «غابرييل! غابرييل! لقد سجَّلنا هدفاً رائعاً! إننا نفوز»! واستدرت جهةَ الملعب وهززت قبضتي عالياً في الهواء: «بْرَاڤڤووو، دي ڤنتشنسو»!

ولكنَّ غراڤينيا لم ينبس ببنت شفة على الرَّغم من ذلك، فمنحني فرصة التفكير في أنَّ ردَّة فعلي قد تكون غير لائقة ربَّما، فلا يتوجب على الضَّيف، بصرف النظر عما حدث في الملعب، أن يأخذ في قرص ذراع رئيس النادي. وهكذا، انتهزت الفرصة، حين انطلقت صافرة انتهاء الشوط الأوَّل، لأقول لغرافينيا: «سْكُوزِيْ. غْرَاتْسِيهْ مِيْلِ. لِيبي إِي مُولْتُوْ جِنْتِيلِهْ»، فلم ينبس ببنت شفة، بل أشعل سيكارة بكل بساطة، ثم نهض، وغادر مبتعداً.

كانت فترة الرَّاحة بين الشَّوطَيْن قصيرة؛ خمس عشرة دقيقة فحسب، بلا أي تسلية خارجيَّـة أُعدَّت للترويح عن المتفرِّجين وإلهائهم. يحتاج المرء في مباراة كرة قدم جيدة إلى الأوكسجين بعد انتهاء الشوط الأوَّل، وليس التفرُّج على عروض ترويحيَّـة إضافيَّـة.

وقد بدا واضحاً، عند بداية الشوط الثَّاني، أنَّ فريق كوزنتسا قد أدرك، في أثناء فترة الرَّاحة، أنَّ خسارة المباراة أمام كاستل دي سانغرو سوف

تضعهم في موقف محرج، فهاجموا، منذ اللحظة الأولى، مظهرين الهدوء والتَّركيز والثقة التي توقَّع المرء وجودها منذ البداية لدى فريق خبير بدوري الدرجة الثانية.

ثم سرعان ما بات واضحاً أنَّ فريق كاستل دي سانغرو قد لا يكون الفريق الذي يستحقُّ اللعب في دوري الدرجة الأولى؛ كأنَّ اللاعبين ليسوا حقيقيّين بل أناس تنكَّروا في هيئتهم. ويبدو أنَّ ياكوني، المدير الفنيَّ، قد خاف هذا المصير، فطلب من الفرقة، في محاولة لحماية تقدُّمه - تقدُّمنا- بهدف غير متوقَّع، اللعب وفق تشكيلة دفاعيَّـة تماماً.

ولقد خضنا المعركة، بهذه التشكيلة، في منتصف الملعب بضراوة وعناد، بعضَ الوقت، ولكنَّ فريق كوزنتسا بدأ في اختراق الصفوف، مسدِّداً ركلات دقيقة على المرمى من كل حدب وصوب.

ثم بدا ياكوني، من نقطة رصدي المشرفة، وهو يقفز وقد اعتراه الخوف والغضب -ذارعاً المكان الذي توجد فيه الـ «پانْتِشْينَا panchina» (وهي الدكة التي يجلس عليها لاعبو الاحتياط) جيئةً وذهاباً- كأنَّه طُوبة خرسانة ترتدي ربطة عنق، محاولاً إقامة حاجز حول المرمى بدويِّ صوته فحسب. وبدا السؤال المتعاظم لا يتعلَّق باحتماليَّـة أن يسجل فريق كوزنتسا هدفاً، وإنَّما متى سيسجِّل، ثمَّ كم مرَّة.

حدث كل ذلك ولم يكن حارس المرمى لوتِّي في الحسبان. وحين أخذ وقت الشوط الثَّاني بالانقضاء، دقيقةً فدقيقةً، والشَّمس تمضي على مهل جهة الغرب، صار حضورُ هذا الـ «پُورْتْييرِهْ portiere» (حارس المرمى) الاحتياط القادم من الفئة الثانية من دوري الدرجة الثالثة يزدادُ أكثرَ فأكثر، حتى قزَّمَ وجوده في منطقة المرمى أي شخص آخر على أرض الملعب. لم

يكُن يلعبُ كلاعب جديد في كاستل دي سانغرو، بل كأنَّه لاعب مخضرم في المنتخب الوطنيِّ.

اجتاحَ فريق كوزنتسا، مرَّة تلو أخرى، صفوفَ مدافعي كاستل دي سانغرو المتدافعين وقد هدَّهم التَّعب، أو اخترقَ صفوفهم أو دارَ حولهم، ولكنَّ لوتِّي، بقامته المنتصبة ستَّة أقدام وبوصتَيْن -الذي بدا للعالم أجمع، كأنَّه يستمتع مسترخياً بعد الظُّهر في المتنزَّه -قد صدَّ كل هجمة. لقد صدَّ الركلات الركنية، والركلات الحرَّة، والانفرادات، والركلات المقذوفة من على بُعْد عشرين ياردة بسرعة خمسة وستِّين ميلاً في الساعة- وأي ركلات أخرى توجَّب عليه أن يصدَّها، ولاسيَّما أنَّ الهجمات المضادَّة التي شنَّها فريق كوزنتسا ظلت متواصلة ولم تتوقَّف.

ثمَّ، في الدقيقة التِّسعين تماماً، منح الـ «آرْبِتْرُو arbitro» (الحكم)، الذي يتمتَّع بصلاحيَّات مطلقة في كرة القدم، فريقَ كوزنتسا ضربةً ركنيَّـة أخرى. وتعد هذه الضربة ركلة حرَّة مباشرة تُنفَّذ من إحدى زاويتَي الملعب الأقرب إلى مرمى الفريق المدافع. ويحصل الفريق المهاجم على حقٍّ تنفيذ مثل تلك الرَّكلات، إذا كان الفريق المدافع آخرَ من يلمس الكرة التي تجاوزت خط مرماه، دون أن تكون قد دخلت المرمى، بالطَّبع.

وقد يواجه الفريق صعوبةً بالغة في صدِّ الركلات الرُّكنية، التي لا تختلف عن الرَّكلات الحرَّة الأخرى التي يمنحها الحكم في أي مكان من الملعب حين يعتقد أنَّ لاعب الدِّفاع قد ارتكب مخالفة تستوجب ذلك.

ولا يسمح، من جهةٍ، لأي مدافع بالوقوف في نطاق عشر ياردات بعيداً عن اللاعب الذي ينفِّذ الرَّكلة. ويكون معظم المهاجمين، من جهةٍ أخرى، موجودين في منطقة الجزاء الدفاعيَّـة، فتنشأ احتماليَّـة كبيرة بأنْ

يتمكَّن أحد اللاعبين، برأسه أو قدمه، من تحويل الكرة المقذوفة إلى داخل المرمى.

تحمي القوانين عموماً حارس المرمى من الهجوم الجسديِّ المتعمَّد من طرف الخصوم. أما في الرَّكلات الركنيَّـة، على أي حال، والكرةُ تنحرف باتِّجاه المرمى بسرعة عالية، فيقفز صوبها ستَّة لاعبين أو ثمانية دفعةً واحدة، فإنَّ حقَّ حارس المرمى بالحماية من الأذى ينزلق، بلا ريبٍ، إلى وضع يصعب فيه تحديد الأمور على نحو واضح، فلا يقفز أعلى من نحو ستَّة لاعبين من الخصوم المندفعين، لينتزعَ الكرة من الجوِّ والقبض عليها بسلامة، إلا شخص ماهر وشجاع.

وبعد أن أظهر لوتِّي مُسبقاً مهاراته في صدِّ معظم الرَّكلات الأخرى، فقد أظهر نفسه، عند تنفيذ هذه الركلة الركنيَّـة في الدَّقيقة التِّسعين، شجاعاً وماهراً على حدٍّ سواء، وبصورة فاقت جميع التوقُّعات المنطقيَّـة. أدَّى إنقاذُه الكرةَ بطريقة استعراضيَّـة مدهشة إلى المحافظة على تقدُّمنا الذي قد ينهار في أي لحظة.

ثمَّ واصل كوزنتسا، طيلةَ أربع دقائق إضافية (خصَّصها الحكم، وفقَ اجتهاده الفرديِّ، لتعويض الوقت الضائع الناجم عن تعرُّض اللاعبين للإصابة أو توقُّف اللعب لأسباب أخرى) هجومَه السَّاحق بالرَّكل والتَّسديد المتواصلَيْن، فتحوَّل لوتِّي المجهول، في غضون ذلك، من حارس مرمى مغمور إلى لاعب خفَّةٍ وبهلوان وساحر من الطِّراز الأوَّل.

بدت تلك الدقائق الأربع الإضافية كأنَّها أربعون، ولكنَّ الصافرة انطلقت أخيراً. لقد انتهت المباراة. كاستل دي سانغرو 1، وكوزنتسا صفر. لم أتمالك نَفْسي. استدرت إلى غرافينيا وعانقته قائلاً: «برافو، غابرييل».

فتمتم قائلاً «غْرَاتْسيِه»، ثمَّ أشعل سيكارة أخرى ونهض.

أما أنا فقد صَعِدت فوق مقعدي وصرخت بأعلى صوتي: «برافو لوتِّي! برافو لوتِّي، برافو كاستل دي سانغرو»!

كنتُ أستطيعُ مشاهدةَ المئات من مشجعي كاستل دي سانغرو -أولئك القادرين على تحمُّل تذكرة المقاعد الباهظة الثَّمن الواقعة في منتصف المدرَّجات، كي لا يُجبَروا على مشاهدة المباراة من المدرَّجات المنحنية[54] البعيدة- وهم يحدِّقون بي. وحين سمعوا آخر عبارة «برافو» قلتها، وشاهدوا ذراعيَّ المرفوعتَيْن، راحوا، هم أنفسهم، يصيحون ويهتفون ملوِّحين إلـيَّ، تتهلَّل وجوههم بابتسامات عريضة.

طار قلبي من الفرح، فلقد تمكَّنت، أخيراً، وأنا في الثالثة والخمسين، من أن أكون في معيَّـة ناسي.

7
نزيل الغرفة 8

ساعدني جُوزبِّه، بحلول الساعة 10 صباحاً يومَ الإثنين، في الانتقال إلى فندق كوراديتِّي. بدا المالك الأصلع الضخم الجثَّة، كالحَ الوجه على الشاكلة التي كان عليها يوم السَّبت، رغم فوز كاستل دي سانغرو.

سأنزل في الغرفة رقم 8، الواقعة في الطابق الرَّابع الذي لا بُدَّ أن أصعدَ السَّلالمَ كي أصل إليه. فليس ثمَّة مصعد، بالطَّبع، ذلك أنَّ هذا الفندق غير مُصنَّف ولا حتى بنجمة واحدة. (وكان حرياً بالمالك -حين لم يكُن هناك نزلاء آخرون غيري- أن يمنحني حجرة لا يحتاج الوصول إليها إلا صعود طابق واحد من السَّلالم، ولكنَّ شعار فندق كوراديتِّي بدا كأنَّه «**أنت تستحقُّ الأسوأ**»).

عاد المالك، بعد أن سلَّمني المفتاح، إلى طاولة فورمايكا صغيرة كان ينظر إلى «إلْ كُرِّيْره دِيلُّو سپورت» فوقها، وهي صحيفةِ الكالتشيو التي يفضِّلها سكَّان بولونيا ومناطق الجنوب، لأنَّها منشورة في روما، ولهذا فهي أكثر مصداقيَّـة من الناحية الافتراضيَّـة (لدى الجنوبيِّين) من «إلْ غَازِيتَّا دِيلُّو سپورت»، المنشورة في ميلانو، التي لا ريب أنَّها مليئة في كل يوم بكل أنواع الافتراءات والأخبار المغلوطة ضدَّ الجنوبيِّين.

تمتم المالك بشيء إلى جوزبِّه.

فقال جوزبِّه: «آه، أجل». «لقد أخبرني أن أذكِّرك بأنَّ الفندق سوف يكون مغلقاً في « مِيرْكُلِدِيْ[55]».

وكنت أعرف أنَّ «مِيرْكُلِدِي» تعني يوم الأربعاء، ولكنني أخفقت في القبض على المعنى العميق لهذه الملاحظة.

«مغلقاً هذا الأربعاء؟ وإنْ يكُن. فلا يبدو أنَّه مفتوح الآن».

فقال جوزبِّه: «كلا، كلا، كلا. إنَّه[56] مفتوح في هذا اليوم. وإلا لما تمكَّنا من الدخول، أليس كذلك؟ فعندما يكون[57] مغلقاً، كما يحدث في يوم الأربعاء[58]، فلن تستطيع الدُّخول».

«ولكنَّني في الداخل أصلاً».

«نعم، نعم، بالتأكيد. ولكنَّك سوف تخرج في يوم الأربعاء، ولن يكون من السهل عليك العودة».

«ماذا تقصد بقولك إنَّني إذا خرجت في يوم الأربعاء، هذا، فلن أكون قادراً على العودة إلى الفندق».

«كلا، كلا، كلا. لن يحدث ذلك في هذا[59] الأربعاء، ولكنَّه سيغلق في كل يوم أربعاء. مِيركُلِدِي. أُونِي فُولْتَا. كْيُوزُو، إكُّو فاتُّو»[60]! ثمَّ لوَّح بذراعه بحركة أفقيَّـة رشيقة. نصحني بالتحدُّث إلى باربرا لمزيد من «التوضيح» حول هذه المسألة، وغادر معتذراً قائلاً إنَّ لديه «الكثير من الأشغال» التي ينبغي عليه فعلها في الوقت الرَّاهن، ولاسيَّما أنَّ كاستل دي سانغرو لا يلعب في دوري الدرجة الثانية فحسب، وإنَّما قد تعادل مع فريق آخر في عدد النِّقاط التي تؤهله للفوز بالمركز الأوَّل، حتى لو كان ذلك بصورة مؤقَّتة.

ولقد كان جوزبِّه، مثلما سوف أعرف، رجلاً يرتدي قبَّعات كثيرة[61]. فهو لم يكن مسؤولاً عن «العلاقات الخارجيَّـة» لدى «لا سوتشيتا» فحسب، وإنما مراسل الكالتشيو أيضاً، في كاستل دي سانغرو، لصحيفة

«إلْ تِشنْتْرُو Il Centro»، الصحيفة اليومية في إقليم أبروتسو، ولصحيفة «لا غَازِيتّا ديلُّو سپورت»، وصحيفة «غُورِينْ سپورتيڤو»، علاوة على تقديمه برنامجاً تلفزيونياً أسبوعياً مكرَّساً للحديث عن إنجازات الفريق.

وهذا يعني أنَّ أي مسألةٍ تتعلَّق، في المقام الأوَّل، بفريق كاستل دي سانغرو، لن تتمَّ إلا حين يقول جوزبِّه ذلك، وهو لن يقول ذلك إلا حين يخبره غراڤينيا بذلك. وقد ينُظر إلى هذه المسألة، في أمريكا، على أنَّها تضارب مصالح، ولكنَّ الفنادق في أمريكا لا تغلق أبوابها كل يوم أربعاء أيضاً.

ولقد ملأتْ كتلةُ أمتعتي في الواقع حجرةَ الانتظار الصغيرة التي كانت بمثابة الرُّدهة والبار على حدٍّ سواء بفندق كوراديتِّي. حاولتُ أن أحسب: 800 باوند ضرب 4 طوابق صعوداً على السَّلالم يساوي 3200 باوند[62].

ثم أشرتُ إلى أمتعتي، وقلت إلى المالك: «إِكُّولِهْ Eccole» (هَا هِي ذي هناك).

فهزَّ رأسه دون أن ينبس ببنت شفة، ودون أن يُشيحَ ناظريه عن الصَّحيفة أو يكاد، وهكذا بدأتُ. لم أحمل، في البداية، إلا حقيبتَيَّ الصُّغرييْن، يحدوني يقينٌ بأنَّ المالك حال يلحظ المهمَّة الجسيمة التي تجابهني، فسوف يقفز من فوق الطَّاولة، وابتسامة مرحة تعلو محيَّاه، مصراً لا على مد يد العون لي فقط، وإنَّما على حمل الأمتعة بنفسه، في حين أحظى، أنا النَّزيل، بمقعد في الرُّدهة، وألقي نظرة على الصحيفة، وربَّما أحظى وأنا مازلت أتصفحها بفنجان قهوة أيضاً!

ولكن الرِّياح جرت بما لا تشتهي سُفني، فبعد نصف ساعة، وقد هدَّني التَّعب وتقطَّعت أنفاسي ونقع العرق قميصي، عدتُ أدراجي متعثراً إلى

حجرة الانتظار، ثم ارتميتُ بعد أن خارت قواي على أحد الكراسي، ثمَّ قلتُ بصوت مقطوع الأنفاس للمالك، وأنا أشير جهة البار الصغير، في أحد أركانها، حيث تنتصبُ خلفَهُ ماكينة إسبرسُّو وزجاجات من مختلف أنواع المشروبات: «زجاجة كوكا كولا، من فضلك».

فهزَّ رأسه على الجانبَيْن سريعاً، ثم استأنف تفحُّص صحيفة «إلْ كُرِّيرِه دِيلُّو سپورت». تنبَّهتُ، بفظاظة، إلى أنَّه لايزال في الصفحة ذاتها التي كان يقرأ فيها قبل نصف ساعة.

قلتُ، غيرَ مُصدِّقٍ: «كلا؟ لا كوكا كولا؟ لم لا؟ فاليوم ليس الأربعاء».

فهزَّ رأسه ثانية، وقد بدا واضحاً عليه الغضب جرَّاء هذا الهيجان الفجائيِّ بلسانٍ أجنبيٍّ[63].

فقلتُ: «سْكُوزِي» -أرجو المعذرة- مذكِّراً نفسي بأنَّ هذا الفندق ليس، بعد كل شيء، فندق «الفور سيزنز» في بڤرلي هيلز. «لا كوكا كولا. حسناً. مياه معدنيَّـة، من فضلك». لا بُدَّ أنْ يتوافر كأس من المياه المعدنيَّـة، دون شكٍّ.

فانحنى المالك إلى الأمام، حينئذٍ، وكانت هذه هي المرَّة الأولى التي يحرِّك فيها أي شيء سوى رأسه.

«كْيُوزُو»[64]!

«عفواً»؟

فأشار جهةَ البار، الذي كان على مقربة بالغة منه، إلى درجة أنه لو مال بكرسيِّه إلى الوراء فسوف يريح يده عليه.

أعاد قائلاً: «كْيُوزُو!». كنت قد شرعت بإدراك حقيقة أنَّ هذه الكلمة تعني «مغلق». ثمَّ نهض، حينئذ، وقد أبدى امتعاضاً شديداً، جمع أوراق

الصحيفة، ثمَّ غادر حجرة الانتظار، ودخل فيما قد قيل لي في السَّابق إنه مسكن العائلة -المحظور على النُّزلاء- حيث أستطيع أن أسمع تلفازاً يدوياً.

انتظرت نحوَ ثلاثين ثانية، ثم تبعته. إن لم أحظَ بشيء بارد أشربه في غضون ثلاثين ثانية أخرى، فسوف يغدو موسمي مهدَّداً بأن يكون قصيراً.

كان يجلس إلى طاولة، ومازال يحدِّق: بالصحيفة ذاتها، والصفحة ذاتها. وكانت امرأة بدينة ذات مهابة واقفة خلف طاولة كيٍّ الثياب، وعلى الأرض يستلقي طفلان بدينان في سنِّ المدرسة الابتدائيَّـة، وعيونهما البرَّاقة تحدِّق في التلفاز دون أن ترمش.

رفع ناظريه. وضعت المرأة المكواة وحدَّقت بي غاضبةً، وظل الطِّفلان متسمِّرين في مكانهما قرب التلفاز. قيَّمت الموقف بسرعة البرق، كعادتي في مثل هذه الظروف، وبدلاً من الاستفسار مجدَّداً عن إمكانيَّـة الحصول على زجاجة كوكا كولا، قلتُ بكل بساطة: «سْكُوزِي»، وغادرت.

ثمَّ صَعِدت سلالم الطوابق الأربعة إلى غرفتي مترنِّحاً ورأسي يدور. فتحتُ حنفيَّـة المياه الباردة، فسال الماء فاتراً. كانت درجة حرارته مثل درجة حرارة الماء الذي ينزل من حنفيَّـة المياه السَّاخنة تماماً: ليس بارداً بما يكفي للشرب، ولكنَّه ليس حاراً بما يكفي للاستحمام. يا له من رجل، هذا المالك، لا يتفوَّه إلا بكلمات قليلة، ولكنَّه يملك دهاءَ الشَّياطين.

فتجرَّعتُ ثماني كؤوس أو عشراً، على أي حالٍ، ثمَّ ارتميت على سرير التَّخييم الضيِّق[65]، الذي كان سريري، حتى هدأ خفق قلبي، واستقرت أنفاسي إلى حَدٍّ يشبه الوتيرة الطبيعيَّـة. بدلت قميصي بواحد جاف، وخرجت لاستكشاف هذه القرية الجبليَّـة السَّاحرة التي اخترت أنْ أسمِّيها وطني، طيلة الأشهر التِّسعة القادمة.

كانت محطَّتي الأولى كشك بيع الجرائد، على بُعْد ثلاث وحدات سكنيَّـة في السَّاحة المركزيَّـة. ولأنَّ اليوم الإثنين، فقد كان اللاعبون في إجازة، كما يفعلون دوماً في اليوم الذي يعقب أي مباراة. لمحتُ غراڤينيا واقفاً عبر الشَّارع مقابل الكشك. كان لايزال مرتدياً نظَّارة داكنة، وسترة جلد غزال مدبوغة وسروال جينز وحذاء جلدياً، ولايزال يدخِّن سيكارة، ويتحدَّث في هاتفه الخلويِّ حتى حين واصل حديثه في الوقت ذاته مع شخص يقف أمامه مباشرة. ناداني، فعبرتُ الشَّارع.

قال على سبيل التَّرحاب: «لا پُوتِنْتسَا دِلَّا سْپِرَانْتسَا»: قوة الأمل. بدا واضحاً أنَّ هذا الشِّعار سيغدو شعار هذا العام، ولقد تبسَّم فعلياً حين لفظ العبارة. واصلتُ المسير إلى المقهى، وقد شعرتُ بالرَّاحة، إذ يبدو أنَّه قد غفر لي الفظائع التي ارتكبتها عصرَ الأمس، فاحتسيت، علاوة على فنجان قهوة إسپرسُّو، ستَّ كؤوس من المياه المعدنيَّـة.

لم أشترِ «إِلْ كُرِّيِره دِيلُّو سپورت» فحسب، وإنَّما «إِلْ تِشِنْتْرُو»، الصحيفةَ المحليَّـة، و«لا غَازِيْتَّا دِيلُّو سپورت» انطلاقاً من ولاء عنيد. أكَّدتْ الصحف الثلاث جميعاً الطَّبيعةَ التاريخية للنَّصر، الذي حقَّقه كاستل دي سانغرو، تأكيداً شديداً (فلقد كنَّا في الوقت الرَّاهن، وربَّما إلى الأبد، الفريقَ الوحيد القادم من أصغر قرية، الذي يفوز إطلاقاً بإحدى مباريات دوري الدرجة الثانية) والإلهامَ الدراماتيكيَّ الذي تجلَّى في شخص حارس المرمى ماسيمو لوتِّي.

ولقد جرت العادة، في إيطاليا، أن تقيِّم الصحف أداء اللاعبين عقب كل مباراة بالأرقام، ضمن مقياس من واحد إلى عشرة. ولا يكاد المرء يرى، في الواقع العمليِّ، تقييمات أقل من 4 وأعلى من 8، إذ يتراوح المعدَّل

المتوسط لغالبيَّـة التقييمات بين 5,5 -5- 6,5، آخذين بعين الاعتبار أنَّ 6 تعني أنَّ الأداء كان «مُرضياً».

وسبق للوتّي أن حصل ذات مرَّة على 7 وعلى 7,5 مرَّتين. ولسوف يغدو هذا الأمر رائعاً بالنِّسبة إلى أي لاعب في ظلِّ أي ظرف من الظروف، ولكنَّه كان مبهراً دون أدنى شكٍّ، بالنسبة إلى حارس مرمى بديل يخوض أولى تجاربه في مثل هذا المستوى الأعلى. أما دي ڤِنْتِشنْسُو الذي سجَّل الهدف بركلة الجزاء، فقد نال تقييماً بحدود 6- 6,5، وهو تقييم يُعَدُّ مُشرِّفاً بالنِّسبة إلى أي لاعب، وأكثر من ذلك بالنسبة إلى لاعب آخر صاعد من الفئة الثانية لدوري الدرجة الثالثة.

وحصل مدافعٌ ولاعب خطٍّ وسط على التَّقييمَيْن الأدنى، فتحتم أن يجلسا على دكَّة الاحتياط بعودة المدافع فوسكو ولاعب خطِّ الوسط بونومي. نال پستلَّا، المهاجم الجديد الباهظ الثَّمن، علامات متدنية، ولكن خُيِّل إلـيَّ أنَّه قضى الشوط الأوَّل وهو يوازن نفسه للتكيف مع الفريق، ولعلَّه لم يحظَ بفرصة الظهور في الملعب بالشوط الثاني، فقد كان تركيز ياكوني منحصراً حينئذ على الدِّفاع.

ولكنَّ الفوز كان هو الشيء المهمَّ. تُضاف ثلاث نقاط إلى الفريق الفائز، ولا نقطة إلى الخاسر، في كل أسبوع. وحين يحصل التَّعادل، ينال كل فريق نقطة واحدة. ولقد كانت هذه النِّقاط هي الأهم، فهي التي تحدِّد مركز الفريق في «لا كْلَاسِفِكَا la classifica»، أو جدول الترتيب الأسبوعي، وفي نهاية الموسم، بمبارياته الثماني والثَّلاثين، يهبط إلى الفئة الأولى من دوري الدرجة الثالثة الأفرقة الأربعة التي تحصل على النِّقاط الأقل. ولكنَّ الصحف أجمعت، على أي حال، زاعمةً أنَّ «لا فَاڤُلَا la vavola»،

أو الحكاية الخرافيَّـة، تتواصل. ولاحَظَتْ أيضاً وصولَ ألكس غِينيس «الكاتب الأمريكي الذَّائع الصِّيت».

ألقيتُ في عصر ذلك اليوم أوَّل نظرة على الاستاد، أو ما كان من المفترض أنَّه سيغدو، ذات يوم، الاستاد. كانت هناك، في مكان ما وسط بحار الوحل والأنقاض، أطلال ستاد قديم ماثلةً، بَيْد أنَّ الفوضى قد دبَّت في كل شيء آخر. وكانت جرَّافات، ورافعات، وشاحنات مسطَّحة، وخلَّاطات إسمنت، ودعامات فولاذ، وألواح خرسانة ضخمة ربَّما نُقلتْ جواً من سْتُونْهِنْج [أنصاب صخرية في إنكلترا]، قد احتشدت في حلقة دائريَّـة بحفرة كبيرة؛ كأنَّها تتشاور حول خطوتها القادمة.

وبصرف النَّظر عن ماهيَّـة الخطوة القادمة، فمن غير المحتمل أن تُنفذ قريباً. تأكَّدتُ من عدم إقامة أي مباراة هنا في غضون أسبوعين، أو حتى بعد أسبوعين لاحقين لهما، بصرف النظر عن عديد التَّطمينات المتعارضة مع هذه الحقيقة التي قدَّمها غراقينيا إلى الصحافة.

ولأنَّ الأشياء كانت في الحقيقة تراوح مكانها تماماً، فلن تُعقَد هُنَا أي مباراة، ربما على الإطلاق. وعلى الرَّغم من أنَّ الوقت كان رائقاً في عصر يوم الإثنين ذاك، والشمس ساطعة والسماء مازالت زرقاء صافية، فإنَّ ستةً من الرِّجال والصِّبية المتكاسلين كانوا يستندون إلى المعدَّات الثقيلة ويدخِّنون السجائر، في حين احتشد قرابة 100 من سكَّان القرية -من المفترض أنَّهم من بين الكثيرين العاطلين عن العمل- خارجَ السياج المغلق، يتحدَّثون بهدوء فيما بينهم، محدِّقين بموقع البناء المتعطِّل.

●●●

ولم تكد الشَّمس تغرب، في ذلك المساء، خلف حرف الجبل العالي، حتى هبَّت ريح باردة.. ثمَّ هبَّت.. وهبَّت. رفعت درجة الحرارة بغرفتي في كوراديتِّي. أو، بالأحرى، حاولت فعل ذلك.

احتوت الغرفة على ثرموستات عتيق ومُشعَّات أيضاً، ولكن من الواضح ألا شيء يعمل. لم يحدث شيء، بصرف النَّظر عن القرص الذي أدرتُه أو الصمَّام الذي برمته، إلا أنَّ درجة الحرارة واصلت الانخفاض بفعل الرِّيح الباردة، ثمَّ لاحظت وجود بطَّانيَّتَيْن رفيعتَيْن على سريري. كلا، كلا، هذا لن يجدي نفعاً.

فنزلتُ السَّلالمَ أربعَة طوابق إلى حجرة الانتظار التي كانت فارغة، بالطَّبع. استطعت أن أسمع مرَّة أخرى دويَّ التلفاز من خلف درفتَي الباب الدوَّارتَيْن، واستطعت أيضاً شمَّ رائحة الطَّعام، ورأيت الضَّوء عبر الشقِّ الذي يفصل الدَّرفتَيْن، وأقسمُ أنَّني قد شعرتُ بالحرارة.

طرقتُ الباب. دفع المالك الباب بسرعة بالغة، فخبطني قبل أن أتمكَّن من الابتعاد عن الطريق. لم يكن يرتدي إلا فانلَّة وسروالاً غامقاً، في حين كنت ألبس سروالاً تحتياً طويلاً، وقميصاً صوفياً، وسترة جبليَّـة من الفراء ذات قلنسوة ماركة «نُورث فِيس سْتِيپ تِكْ North Face Steep Tech».

حدَّق بي دون أن يتكلم.

فقلت، مُشيراً إلى أعلى السَّلالم: «مُولْتُو فْرِيدُّو molto freddo» (بردٌ شديد).

فهزَّ كتفيه.

سألته: «إلْ كَالْدُو il caldo» (التَّدفئة؟). بهذه الطريقة يتعلَّم المرء لغةً جديدة: فقد يتجمَّد من البرد أو يتضوَّر جوعاً إن لم يفعل.

فهزَّ المالك رأسه الثقيل. «أُتُّوبْرِه Ottobre».

لم أحتج إلى باربرا، ولا حتى إلى جوزبِّه، ليساعدني على فهم تلك الكلمة. إنه «أكتوبر». فبصرف النظر عن مدى برودة الجوِّ، فإنَّ التدفئة لن تكون متاحة في كوراديتِّي إلا بحلول شهر أكتوبر. ولكنَّ مسكن العائلة مُستثنَى، بالطَّبع. أومأت برأسي، ثمَّ عدت أدراجي صاعداً السَّلالم، مُتعباً، إلى الطابق الرَّابع، مُذعناً لقضاء الليل ملتفاً بسترتي الفرو.

قد يكون لديَّ كل «الأمل speranza»، ولكن «القوة potenza» تنتمي إلى المالك؛ إليه وحده.

8
الكرسي الفارغ والفِتية المُدلَّلون

عاد أُزڤالدو ياكوني ولاعبوه إلى البلدة، عصرَ يوم الثلاثاء، لبدء عمل الأسبوع الثاني من الموسم. سيبلغ هذا العمل أوجه يوم الأحد، في فوجيا، في الاستاد ذاته الذي حدثت فيه المعجزة. ولكنَّ المكان لن يكون محايداً هذه المرَّة: فالخصوم هم فريق فوجيا، الذي خسر 2-صفر في اليوم الافتتاحي، لكنَّ الفرقة سبق وأن خاضت منافسات دوري الدرجة الأولى قبل سنتين فحسب.

وكان الملعب الذي تدرَّب فيه فريق كاستل دي سانغرو، مجاوراً للفوضى التي قد تغدو ذات يوم الاستاد الجديد، ولكنَّه منفصل عنها، ونابض بالحياة على نحو غير مألوف. وعلى الرَّغم من أنَّ الملعب قد امتصَّ دفء شمس منتصف شهر سبتمبر، فإن الجبال المغطَّاة بالثلوج قد ارتفعت فوقه من كلا الجانبَيْن.

وعلى الرَّغم من افتقار مباني البلدة إلى سحر عراقة العصور الغابرة، فإنَّ بيئتها الطبيعية التي تحيط بها الجبال جهة الغرب وتمتدُّ واضحةً على نطاق أعلى جهة الشِّمال، تعوِّض [الافتقار إلى هذه العراقة] على نحو أكبر. ولقد كانت هذه البيئةُ مثاليَّة لأحداث حكاية خرافيَّة؛ مشهد طبيعي قد يغري المُعجِزَ والعجائبيَّ، إغراءً شديداً، كي يتحقق.

ذهبتُ إلى الحصَّة التدريبية آملاً في مقابلة بعض اللاعبين، ولكنَّني كنت عازماً في المقام الأوَّل على تقديم نفسي إلى ياكوني، ومعرفة إن كان

سيأخذني بحلمه ويسمح لي بالحضور؛ فآخر ما أرغب فيه هو أن أُخلَّ ببرنامجه التدريبيِّ.

ولكنَّ الصحافيِّين وأطقم قنوات التَّلفزة احتشدوا -لسوء الحظِّ- من حولي في اللحظة التي وطأت فيها قدماي حافَّة الملعب. الأمريكي كان هُنَا؛ كان ذلك صحيحاً. ولقد كنتُ «أُونَا كُورْيُوزِيتَا una curiosita» -عنصراً جديداً مثيراً للفضول- ليوم واحد على الأقل. وكان لا بُدَّ من التحدث إلـيَّ حتى لو أنَّ التواصل الحقيقي غير ممكن. ولقد أكَّد جوزبِّه أنْ لا فرقَ إنْ لم أتمكَّن من فهم الأسئلة التي توجَّه إليَّ، وحتى إنْ تمكَّنتُ من فهمها، فلن أكون قادراً على الإجابة: «لا مشكلة»، أكَّد قائلاً لي، «لا مشكلة».

وهكذا، تناوب الصحافيُّون ومراسلو قنوات التَّلفزة، واحداً تلو الآخر، على طرح الأسئلة. قلة منهم تكلموا بعض الإنكليزيَّـة، فتمكَّنوا من إجراء مقابلة أولية على الأقل. سألوني عن سبب قدومي، وكانت إجابتي بسيطة وصادقة: لقد كنتُ، بِقدْر ما تبدو المسألة بعيدة الاحتمال، مهووساً بالكالتشيو، وجئت لأقضي الموسم في كاستل دي سانغرو لأرى شكل الحياة في أعقاب حدوث المعجزة.

بَيْدَ أنَّني كنتُ أصغي إلى الأسئلة الأخرى، وعلى محيَّاي ترتسم تعابير فارغة من أي معنى ولكنها مؤدبة، ثم أبتسم بعد أن ينهوا الكلام، وأهزُّ رأسي، وأقول بصوت عال دون أن أفكر: «لا پُوتِنْتسَا دِلَّا سْپِرَانْتسَا. سِي، سِي، غْرَاتْسِيهْ آلِيي. تشاوْ، تشاوْ، تشاوْ، تشاوْ»[66].

برهنت هذه العبارة على أنَّني مثقَّف لأرى النتائج في تلك الليلة وفي اليوم التَّالي. بالنسبة إلى التلفزة، فقد حلَّ على وجه السرعة صوتٌ آخر

موثوق محلَّ غمغماتي المبهمة، ملخِّصاً ما قَد قِيلَ إنَّها تعليقاتي وانطباعاتي، فظهرتُ على الشَّاشة وأنا أحدِّق بالكاميرا لا حول لي ولا قوة.

ولكنَّ السِّحر الحقيقي حدث على صفحات الجرائد، فلقد تحوَّلت النُّتفة أو النُّتفتان اللتان تفوَّهت بهما بإيطاليَّـة مكسَّرة على نحو رديء إلى فقرتَيْن كاملتَيْن بين قوسَي اقتباسٍ حتى بدتا ليس بلا أخطاء نحويَّـة فحسب، وإنَّما بمثابة الدَّليل على حصيلة لغويَّـة واسعة النِّطاق وأسلوب كلام جزل.

وحين علَّقت لجوزبِّه على ذلك، قال: «بكل تأكيد، ولكن بما أنَّك لا تستطيع التحدث بلغتنا، فلا بُدَّ أن يكتبوا ما يرغبون في أن تقوله لو استطعت».

«ولكنَّهم اختلقوا شيئاً من لا شيء».

«نعم، ولكن لا ضيرَ، فهو جيد».

«كان بإمكانهم البقاء في مكاتبهم. لو كانوا سيختلقونه على أي حال، فلا حاجة حتى إلى الحديث معي».

بدا جوزبِّه في هذه اللحظة مشوَّشاً، فهزَّ رأسه. «كلا. ليس ممكناً. لا بُدَّ أن تجري المقابلة أولاً ومن ثمَّ تختلق».

أما ياكوني، الذي أحسست على الفور أنه ليس رجلاً صبوراً، فقد تبسَّم لي ابتسامات عذبة طيلة عصر ذلك اليوم الذي قضيته أوَّل مرة هناك. ولأنَّ جوزبِّه هو المترجم، فقد رحَّب بي في الواقع ترحاباً حاراً، أكثر مما كنت أتأمَّل. أكَّد لي أنَّه يعد وجودي هديَّـةً بالنسبة إلى الفريق، ولستُ أشكِّل أي مصدر إزعاج له، ويتوجب علـيَّ أن أشعر بالحريَّـة

للذهاب إلى أي مكان أريده، وفي أي وقت أشاء- كأنَّني ياكوني ذاته- وبأنَّه لا بُدَّ أن أشعر بالحرية في الحديث إليه أو إلى أي لاعب في أي وقت، إلا في أثناء الحصص التدريبية الفعليَّة. (ولم يكن أي من اللاعبين، لسوء الحظّ، يتكلم الإنكليزيَّة، في حين كانت إنكليزيَّته هو مقصورةً على «أنا بلدوزر»، ولذلك فإنَّ هذه المحادثات سوف تظلُّ، حين تكون ضروريَّة، محادثات قصيرة، إلى أن يحين الوقت الذي أتعلَّم فيه أساسيَّات اللغة الإيطاليَّة على الأقل).

ولكنَّني سوف ألقى التَّرحاب في مكتب ياكوني، وفي شقَّته (التي كانت على بُعْد ثلاثة بيوت من فندق كوراديتِّي) وفي غرفة تبديل الثياب الخاصَّة باللاعبين. علاوة على أنَّه قد حجز لي مقعداً قربه عند رأس الطاولة، لتناول وجبات الطَّعام رفقة اللاعبين العزَّاب الذين كانوا يلتهمونها في مجموعة بمطعم مارتشيلَّا. وفي حين كان اللاعبون يتوقَّعون أن أناديه بـ «السيِّد»، وهو لقبٌ قديم، انتقل إلى إيطاليا، منذ أن أدخل الإنكليز اللعبةَ إليها، فإنا كنَّا نتخاطب باسمَيْنَا الأوَّلَيْن.

فقال لي: «أنا، أُزڤالدو»، «وأنت، جُو».

فأجبت: «من دون سيِّد»، «أنت البلدوزر وأنا جُو».

فرجع بظهره إلى الخلف وراح يضحك عالياً، ثم أشار وهو يضرب كفَّه على كتفي، ملوِّحاً جهة ملعب التَّدريب بذراعه الأخرى، إلى ضرورة أن أشعر بالحريَّة في التَّجوال على سجيتي كيفما أشاء.

لا يوجد مساعدون لياكوني سوى سپينوزا الذي رُقِّيَ حديثاً -الذي لولا «معجزته» التي أنقذت ركلة الجزاء لما كان لأي شيء من هذا أن يكون ممكناً- لذا فهو يقوم بكل شيء بنفسه، مِن وضع التَّكتيكات إلى

الإشراف على تمارين المهارات الأساسيَّة حتى جر أكياس كرات القدم جيئة وذهاباً بين غرفة تبديل الثياب والملعب. وقد يكون هذا الدوري هو دوري الدَّرجة الثانية، على بُعْد درجةٍ واحدة من بداية السلَّم، لكنَّه بدا بعيداً جداً عن [الدوري الذي يلعب فيه] إيه. سي. ميلان.

ذهبت إلى ملعب التَّدريب، فتبادلت التَّلويح بالأيدي والابتسامات وكلمات «تشاوْ» مع مجموعة صغيرة من اللاعبين الذين كانوا يمارسون تمارين الإحماء. ومن الواضح أنَّ مهمتي الأولى سوف تنحصر في مطابقة وجوه اللاعبين مع أسمائهم. كانت الفرقة تتكوَّن من واحد وعشرين لاعباً، ولم أتمكَّن في عصر ذلك اليوم الأوَّل لي من معرفة أحد إلا ثلاثة: لوتِّي، حارس المرمى البديل الذي لعب ببراعة فائقة، وغالِّي، لأنه يمشي على عكَّازين، ودي فِنْتِشِنْسُو الذي سجل الهدف، وصاحب التَّكشيرة الجاهزة التي لا تخطئها العين.

وكان جميع اللاعبين طليانا؛ فاستقدام المواهب الأجنبيَّة باهظة الأثمان يكاد يقتصر على فرق دوري الدرجة الأولى، وعلى بضع فرق المراكز العليا في دوري الدرجة الثانية، كتورينو وجنوا وباري التي تكون قادرة على اقتحام عالم هؤلاء الغرباء.

تراوحت أعمار فرقة كاستل دي سانغرو بين الثامنة عشرة والخامسة والثلاثين، في حين تراوحت أطوالهم بين خمس أقدام وستِّ بوصات إلى ست أقدام وبوصتَيْن. وكان الجميع يتمتَّع بلياقة بدنيَّة ملائمة، على الرغم من حقيقة أنَّ أكثر من نصفهم كانوا يدخِّنون (وهي عادة قال ياكوني إنَّه قد شجَّعهم عليها لاعتقاده أنَّها كانت «تهدِّئهم»)، وبدا أغلبهم مرحين واجتماعيِّين.

ثم أحسست على الفور بأنَّ وجودي يكاد يكون أمراً مُسلَّماً به إلى حدٍّ كبير، فقد بدا وجود أميركي يبلغ من العمر ثلاثة وخمسين عاماً حلَّ فجأةً بينهم معلناً نيَّته تأليف كتاب عنهم، مسألةً ليست بعيدة الاحتمال أكثر من أي شيء آخر وقع منذ شهر يونيو، أو خلال السنوات الثلاث المنصرمة.

وكان أوَّل من اقترب منِّي رجل طويل وقويٌّ فائق الوسامة، عرَّف نفسه على أنَّه قائد الفريق. كان هذا اللاعب هو دَافِدِهْ تِشيي، القادم من مدينة پيزا، الذي مازال يلعب في فريق كاستل دي سانغرو منذ ثماني سنين، قاطعاً مع الفريق المشوار كله انطلاقاً من الفئة الثانية بدوري الدرجة الثالثة حتى هذه اللحظة. ولقد وجد تِشيي نفسه فجأة، وهو على مشارف نهاية مسيرته الكرويَّـة، حجرَ الزَّاوية الأساس في الدِّفاع عن فريق يلعب في دوري الدرجة الثانية، وهو شيء لم يكن ليخطر بباله قطُّ.

اعتقدتُ بضرورة أن أتعلم بالإيطاليَّـة قولَ عبارة «المدُّ العالي يحمل جميع القوارب»[67]، لأنَّني وجدتها تنطبق على نصف لاعبي فريق كاستل دي سانغرو على الأقل. فهم يلعبون في الفئة الثانية بدوري الدرجة الثالثة، ولم يكونوا على الصعيد الفرديِّ واعدين بما يكفي لجذب انتباه أي فريق يلعب في الفئة الأولى من الدوريِّ ذاته -ناهيك عن دوري الدرجة الثانية- ولكنَّهم قد فازوا مجتمعين بتلك المكانة المنشودة، بعيدة الاحتمال، سواء لأنفسهم أو لكل واحد منهم.

وبات واضحاً بالنسبة إلـيَّ على الفور أنَّهم فخورون، أيَّما فخر، بإنجازهم الذي دفع كاستل دي سانغرو، القرية الأصغر في عموم إيطاليا على الإطلاق، نحو الصُّعود إلى دوري الدرجة الثانية، وأنَّهم سوف يقاتلون حتى الموت لإبقاء الفريق هناك.

ولم يبح تِشيي بأي شيء من هذا الكلام لي في لقائنا الأوَّل، بالطَّبع. فهو لم يتفوَّه، أو بدا كأنَّه يقول، بإيطاليَّـةٍ كنتُ متأكِّداً، وفق معدَّل الكلمات المنطوقة في كل ثانية -إذ كان يُبطِّئ القَوْلَ لمنفعتي- أنَّه راغبٌ في التَّرحيب بي نيابة عن الفريق، وليخبرني بضرورة أن أَعُدَّ نفسي منذ البداية كـ «أُونُو دِي نُويْ uno di noi»، وهي عبارة تمكَّنت من فهم أنَّها تعني «واحد منَّا»، فحاولت أن أشكره على دماثته بطريقة ملائمة.

اعتذرَ حينئذ عن عدم مقدرته والفريق على تحدُّث الإنكليزيَّـة (على الرَّغم من أنَّهم قضوا عطلاتهم الصيفيَّـة في تعلُّمها من أجلي!) ثم بيَّن لي، بإشارات كثيرة -من ضمنها واحدة تجاه خاتم عرسه الذي في يده اليسرى، وأخرى تُفيد بأنَّه يعاني من نفخة في البطن- أنَّه لن يتناول وجباته في مطعم مارتشلَّا، ولكنَّنا لا شكَّ سوف نلتقي من حين إلى آخر، في أثناء تجواله بالبلدة، وسيكون على الأرجح رفقة زوجته التي كانت حبلى.

وكم من المدهش، حقاً، ذلك القَدْر الكبير من المعلومات التي يمكن نقلها عبر الحواجز اللغوية الصمَّاء، حين يرغب النَّاقل في ذلك، ويمتلك الصَّبر والمهارة على الاستمرار في المحاولة، مهما بدا المستمع بليداً. عَددتُ نفسي، منذ البداية، محظوظاً لعثوري على فريق كان مديره وقائده راغبين على حدٍّ سواء في بذل هذا الجهد الإضافيِّ وغير المطلوب من حيث المبدأ نيابةً عنِّي.

واكتشفت، في غضون وقت قصير، أنَّ جميع اللاعبين الآخرين كانوا متحمِّسين تماماً للقيام بالشيء ذاته، وأنَّهم قد فعلوا ذلك بدماثة غير متكلفة وفطريَّـة -بصرف النَّظر عن المكان الذي جاؤوا منه أو مقدار التَّعليم القليل أو الكثير الذي تلقَّوه- فشعرت بأنَّ إيطاليا ليست كأي

بلد آخر على وجه الأرض، بهذا الصَّدد، ولا بُدَّ أن تكون فرقة كاستل دي سانغرو كذلك ليست كأي فريق كالتشيو محترف آخر في أنحاء إيطاليا كافة.

ثم تمكَّنت بمرور الوقت، وبناء على توجيهات مُعلِّمَيْن موهوبَيْن، من التّواصل اللّغوي مع اللاعبين إلى حدٍّ لا بأس به، مما حداني إلى تسليتهم، من حين إلى آخر، متلمِّساً طريقي نحو فهم لغتهم بطريقة هيِّنةٍ إلى حدٍّ بعيد.

أنهى تِشيي «دردشتنا» الأولى- إذا كان من الممكن أن تدعى كذلك- بمناداة لاعب يمرُّ بالجوار. كان اللاعب هو دانيلو دي ڤِنْتِشِنْسُو، المولود بروما، والبالغ من العمر ثمانية وعشرين عاماً، والرجل الذي سجَّل أوَّل أهدافنا في دوري الدرجة الثانية. بدا الأمر أنَّ تِشيي راغب في التأكد من أنَّني قد تعرَّفت كما ينبغي على شخصيَّةٍ مثل هذه.

ولقد كان لڤنتشنسو عينان صافيتان وابتسامة عريضة مشرقة بدت جاهزة لترتسم على محيَّاه عند أدنى إثارة. فقال «جُو العظيم» متجاوزاً الشكليَّات، «كيف الحال»؟ «أنت تجلبُ لنا الحظَّ السَّعيد».

فأجبته: «سْبِيرْيَامُو speriamo» (فلنأمل ذلك).

وكان استخدامي الفوريُّ لواحدة من الاستجابات التخاطبيَّة القليلة، التي تعلَّمتها لغاية الآن، قد ترك عند ڤنتشنسو، لسوء الحظ، انطباعاً خاطئاً بأنني أتكلم الإيطالية وأفهمها، ولأنَّه من روما، فقد تلفَّظ بخمس جُمَل أو ستٍّ من ملاحظاته التَّالية، قبل أن يستطيع تِشيي التَّلويح له بالتَّوقف وإبلاغه أنَّ ردي السَّريع كان مجرَّد ضربة حظٍّ ليس إلا. ولكنَّني شعرت، على الرَّغم من ذلك، بأنَّ آصرةً أوَّليَّةً قد بدأت تتشكَّل مع هذا الـ «أَتَّاكانْتِهْ attaccante» -أو المهاجم- الجديد، صاحب الهمَّة العالية.

لعب دي ڤنتشنسو، قبل سبع سنين، نصفَ موسم في دوري الدرجة الثانية -ويا للغرابة!- لصالح فريق كوزنتسا. وبعد أن أخفق في تسجيل هدف واحد، عاد للَّعب في المستويات الكرويَّة الأدنى، كأنَّ مسيرته المهنيَّة قد خطَّ مسارها سكِّيرٌ يرمي السِّهام المُريَّشة على الخريطة[68]: لوديجياني، وتِشيڤِتَڤِيْكْيَا [69]، وأَريتسو، وكَرَّارِيزِه، وبَاڤِيَّا[70]، وبِسْتُيِّسِهْ، ولاكْولَا، وجوليانوڤا. وهي رحلة لن يصادف فيها المرء الكثير من السيَّاح الأمريكان.

كان، وهو في الثامنة والعشرين من عمره، قد تجاوز إلى حدٍّ بعيدٍ العُمرَ الذي عادةً ما يحدث فيه تحسُّنٌ دراماتيكيٌّ، ولكنَّه سجَّل في الموسم السَّابق ثمانية عشر هدفاً، وهي الحصيلة الأعلى في مسيرته، فاختير «لاعبَ العام» في الفئة الثانية من دوري الدرجة الثالثة. فمن يعرف، إذاً؟ فقد يجد دانيلو، صاحب العينين البرَّاقتين، مكاناً له في «الحكاية الخرافيَّة».

أما اللاعب الذي أشرتُ إلى أنَّني كنت أبحث عنه هو لوتِّي. كانت له عينان زرقاوان، وشعر أجعد بلون الرَّمل؛ يبلغ طوله ستَّ أقدام وبوصتين، وعُمره نصف عمري ويتمتَّع بلياقة بدنيَّة بطريقة لم أبلغها منذ سنين، أو -بصراحة- لم أبلغها في حياتي قطُّ.

قال «پْيَاتِشْيرِه piacere»، وهو يصافحني. عرفتُ معنى تلك الكلمة: سعدتُ برؤيتك. سأقضي الصَّباحَ بطوله أحفظ بعض العبارات.

فقلت، وأنا أشير إليه: «مُولْتُو بْرَاڤُو دُومِينِكَا»[71]. «مُولْتُو بْرَاڤُو». كنت آمل أن يحمل قولي هذا في طيَّاته فكرة اعتقادي أنَّه قد خاض مباراة قويَّة يوم الأحد. لقد كان، بالطَّبع، أكثر من «بْرَاڤُو»، ولكنَّني لم أكُن لأجازف إبان هذه المرحلة المبكرة في استخدام صيغة التَّفضيل العليا.

فقال: «غْرَاتْسِيه آلِيبي» (شكراً) مخاطباً إياي بطريقة رسميَّـة. فلقد ولد على ساحل المتوسط، جنوب روما ولكن شمال نابولي، وهذا يعني أنَّ هاتَيْن الـ «تُو tu» والـ «ليبي Lei»، اللتَيْن يستخدمهما المرء في التَّخاطب غير الرَّسميِّ والرَّسمي حين يودُّ أن يقول «أنت»، ترتبطان بالأسلوب الشَّخصي أكثر من كونهما تتعلَّقان بالجغرافيا التي تقتضي أعرافها بأنَّ أهل الشَّمال أكثر رسميَّـة من أهل الجنوب.

ولقد وددتُ في إخبار لوتِّي بأنَّني أملت في أن نستطيع بمرور الوقت إقامةَ علاقةِ أُلفةٍ لا تكلفَ فيها من نوع الـ «تُو tu»[72] هذه، ولكنني لم أعرف كيف. فنهض، ناظراً إلـيَّ بأدب على نحو متوقَّع، متلهفاً بشكل واضح إلى مواصلة التَّدريب ولكنَّه لم يرغب في جرح مشاعري.

احتدمت الأفكار في رأسي، أردتُ أن أُؤكِّد له على نحو لا لبس فيه أنَّه قد خاض مباراة مدهشة يوم الأحد. ولكن كيف سأقول ذلك، كيف سأقوله؟ آه، تذكَّرت في تلك الأثناء عبارة جوهريَّـة.

فقلتُ: «پِيْر تِي Per te»، مستخدماً النَّمط غير الرَّسميِّ لقول «لك»، «لقد كانت، كانتَ -أعرف أنَّ هذه الصِّيغة إنكليزيَّـة، ولكنني لم أستطع تجنُّب استخدامها- «أُونْ بِل پَسْتِيتْشُّو»[73] مباراة جميلة.

فنظر إلـيَّ لوتِّي بغرابة، وأشاح وجهه، قائلاً: «سي، دَفِّيرُو»[74]. «پِرْكِيِيه؟»[75] نعم، حقاً. لماذا؟ فأدركت متأخراً جداً أنني قدَ أخطأتُ. «آه، سْكُوزِي، سْكوزِي، پِرْ فَاڤُوْرِه. بِلُّوْ. بِلَّا. لِيبي إِي مُولتُوْ جِنْتِيلِهْ إِي بْرَاڤُو. بْرَاڤُو! بْرَاڤُو! تشاوْ!».

ثمَّ استدرتُ ومشيت مبتعداً عن حارس المرمى الجديد المبهوت، باحثاً عن مكان خاصٍّ أستطيع فيه النَّظر في كتابي الخاصِّ بالعبارات الإيطالية لأرى فقط أي غلطة قد ارتكبتها.

اللعنة! لقد كانت غلطةً فادحة. فلقد استخدمت الكلمة الخطأ لـ «مباراة». كان عليَّ أن أقول «أُونَا بِلَّا پَرْتِيتَا» مباراة جميلة. ولكنَّني، للأسف، قلتُ «أُونْ بِل پَسْتِيتْشُّو» التي تعني «فوضى بديعة».

ولم تكد تمضي بضع ساعات حتى صادفت روبيرتو دي يوليس، حارس المرمى صاحب الرَّقم واحد، في مطعم مارتشيلَّا الذي سوف يغدو، طيلة تسعة الشهور القادمة، المكانَ الذي أقضي فيه ساعات يقظتي أكثر من أي مكان آخر في إيطاليا، بما في ذلك شقَّتي التي استأجرتها في الآونة الأخيرة.

لقد كان في الرابعة والعشرين من عمره، قادماً من تيرامو، وهي مدينة في شمال أبروتسو، يبلغ تعداد سكَّانها 50000 نسمة. لم يسبق له أن لعب على الصعيد الاحترافيٍّ لأي نادٍ ما عدا كاستل دي سانغرو، فغدا لاعب الفرقة الأوَّل (يرتدي حارس المرمى الأوَّل، حرفياً، القميص الرياضيَّ الذي يحمل الرقم 1 على ظهره) في الموسم السَّابق، لاعباً كل دقيقة من كل مباراة حتى أخلى مكانه لصالح سپينوزا في الثواني الأخيرة من المباراة الأخيرة.

ولم يخطر ببالي التَّفكير في الشَّخص الذي قد أجلس مكانه حين أخذت المقعد الفارغ المرغوب يسارَ ياكوني مباشرة، ثمَّ ما لبثت أن عرفت، على أي حال، أنَّ المقعد يخصُّ دي يوليس الذي كان قد زاح مقعداً واحداً ليفسح لي المجال.

ولم ألبث أن عرفت أيضاً أنَّ نظامَ الجلوس على طاولة الفريق بمطعم مارتشيلَّا، يمكن أن يُعَدَّ بمثابة دراسةٍ «للسياسات الدَّاخلية للفريق» في آخر النَّهار، حيث يمكن للمرء أن يتقرَّى المغزى (سواء أكان ذلك صحيحاً أم لا) من جلوس هذا اللاعب في المقعد الأقرب إلى ياكوني وجلوس آخر

في المقعد الأقصى. لم يكُن ثمَّة مخطط مكتوب، ولكنَّ نمط الجلوس لم يتغيَّر قطُّ، فكان «الفتية المُدلَّلون golden boys»، الذين يقدِّرهم ياكوني أيَّما تقدير (لولائهم الشخصيِّ، في الغالب، أكثر من موهبتهم) ينالون شرف الجلوس في المقاعدة المرغوبة الأقرب إلى المُعلِّم.

وهكذا، فقد جلس بجانب ياكوني، جهة اليسار، دي يوليس وجياكومو غالِّي، حارس المرمى الذي يحمل الرَّقم واحد، وهدَّاف الفريق في السنة السابقة، في حين جلس إلى يمينه لاعب خط الوسط تونينو مارتينو والمدافع النَّابوليُّ المشاكس بيترو فوسكو، وهما صديقان حميمان انضمَّا إلى الفريق معاً في بداية موسم 1992، حتى قبل ياكوني نفسه. أما اللاعبون الجدد، فقد شغلوا المقاعد الأبعد على الطاولة.

أما قدامى اللاعبين الآخرين المشاركين في تحقيق المعجزة -الذين كانوا، في حالات كثيرة، هم قدامى اللاعبين ممن خاضوا عدَّة مواسم بائسة مع كاستل دي سانغرو- فقد كانوا متزوِّجين، ولم يتناولوا الطَّعام بانتظام في مطعم مارتشيلَّا.

ضمَّ هؤلاء، بالإضافة إلى تِشيي، المدافعَيْن بريتِهْ وألتامورا، ولاعبَي خطِّ الوسط، بونومي، وألبيرتي، وميكليني، وسبينوزا بالطَّبع، الذي كان يعيش مع زوجته وابنه الفتيِّ في منزل حجريٍّ قديم على بُعْد رمية حجر من الكنيسة المشيَّدة في القرن الثالث عشر التي نجت من الدمار في الحرب العالمية الثانية. ولقد كان من المناسب أن يعيش الرَّجل الذي حقَّق المعجزة في الواقع بالقرب من كنيسة.

ولكنَّ حضوري أخلَّ بالكون المنظَّم في مطعم مارتشيلَّا. فلو عرفت منذ البدء ما عرفته لاحقاً، لشكرت ياكوني على عرضه الجلوس إلى جانبه،

وأضفتُ قائلاً بضرورة أن أجلس -أنا الوافد الجديد أيضاً- في الطرف الأقصى مع الآخرين.

بيد أنَّني انتهزت فرصة العرض الذي قدَّمه، وفق ما ينطوي عليه ظاهرياً، من دون تفكير بالتشويس النَّفسي الذي قد تسبِّبه، ليس فقط لدى دي يوليس، الذي ساورته الشكوك فجأةً، بعد مباراة لوتِّي الأولى، حول استمراره بالاحتفاظ بموقعه كحامل للرقم واحد، وإنَّما أيضاً بين أصدقائه وزملائه اللاعبين في ترتيب هذه السَّنة.

احتللت بكل بساطة ذلك الكرسيَّ الفارغ، في تلك الليلة، كأنَّه من حقِّي الطبيعيِّ، وحين لم يتمتم دي يوليس، الذي جلس على يساري مباشرة سوى بتلك التحيَّـة الجافَّة المكتومة، فقد وضعت في حسباني أنَّه فظٌّ وصعب المراس.

يا لغطرسة الجاهل التي لا حدَّ لها! ولكن لا أحد (ولا حتى دي يوليس على الأقل) قد نبس ببنت شفة عما حدث البتَّة، ولم أعرف إلا بعد نحو أسبوعين كم كنت سمجاً وأفتقد إلى اللياقة. ومبكِّراً، ذات ليلة، جلست على المقعد الذي في منتصف الطاولة. وحين دخل دي يوليس، أشرت له إلى الكرسيِّ الذي كنت أشغله، ولم أقل إلا «پِرْ تِهْ Per te»: لكَ. فقال «غْرَاتْسيِه»، ثمَّ أومأ برأسه إلـيَّ، فانتهى كل شيء وطويت المسألة برمَّتها. كان ذلك أوَّل درس تعلَّمته -بيد أنَّه كان لايزال بعيداً عن الدرس الأخير- حول الكياسة الإيطالية الفطريَّـة، التي لا بُدَّ أن أعترف أنني لم أستوعب الكثير منها بالقَدْر ذاته من المعروف والتفهُّم.

أما مارتشلَّا، فهي امرأة شقراء بدينة في نحو الأربعين من عمرها، انتقلت قبل خمس عشرة سنة، هي وزوجها وأطفالها الثلاثة الصِّغار، إلى

كاستل دي سانغرو قادمين من قرية نائية. عملت هي وزوجها، في بداية الأمر، بوَّابَيْن في المدرسة، ولكنَّهما سرعان ما فتحا مطعماً للبيتزا. ولقد غدا معطم مارتشيلَّا، على مدى السَّنوات العشر الماضية، المَعلم الحقيقي الوحيد في كاستل دي سانغرو. وليس لذلك علاقة بجودة الطَّعام، في المقام الأوَّل، وإنَّما بخلُق مارتشيلَّا وطباعها.

ولقد تعاقدت، خلال السنوات العديدة الماضية، مع غرافينيا لتقديم الغداء والعشاء إلى اللاعبين العزَّاب، وإلى ياكوني الذي ظلَّت زوجته وأبناؤه في تْشِيتَانُوفَا طيلة الموسم. وكان ذلك يعني أنَّ الرجال الثَّلاثة عشر أو الأربعة عشر ذاتهم سوف يجتمعون مرَّتين في اليوم، خمسة أيام في الأسبوع، على الطاولة المستطيلة الطويلة نفسها بجوار المطبخ، يأكلون الطعام ذاته ويسمعون صوت ياكوني الأجشّ، أسبوعاً بعد آخر، من شهر سپتمبر حتى يونيو. كتب أحد الصحافيِّين، ذات مرَّة، واصفاً طريقة تناول الطَّعام هذه أنَّها «مدرسيَّة الطَّابع»، ولولا فؤاد مارتشيلَّا الطافح بالبهجة والرِّضا، لكانت تجربةً مرهقة وكئيبة.

وبسبب مارتشيلَّا -عفويَّتها، وقدرتها على التَّعاطف، ومودتها الفطريَّة- كان حتى اللاعبون المتزوِّجون يُحضرون زوجاتهم وأطفالهم لتناول الغداء كل أسبوع. وكان غرافينيا يقيم في المطعم بصورة منتظمة حفلات كبيرة للعائلة وشركائه التجاريِّين والأصدقاء. وكان المطعم أيضاً نقطة استلام وتسليم للثياب التي تذهب إلى المغسلة، والمكان الذي يرسل إليه بريد اللاعبين، وتُشاهد فيه المباريات الدوليَّة على شاشة التلفاز. وكانت المراهنات تُرسل بالهاتف (قانونياً) إلى وكلاء المراهنات الخارجيِّين [في سباق الخيول] من مطعم مارتشيلَّا. وكانت الغراميَّات قد تفتَّحت، وذبلت، وماتت، ثمَّ ولدت

من جديد على سمّاعة هاتفها العموميِّ الذي يعمل بالعملة المعدنيَّـة، ناهيك عن دزينة أو نحو ذلك من الهواتف الخلويَّـة التي كانت تستخدم في المبنى في أي وقت، ليلاً أو نهاراً.

ولقد قامت مارتشيلَّا، رفقةَ زوجها وابنَيْها كريستيان وجيوڤاني، اللذين باتا كبيرَيْن في تلك الأثناء، وابنتها روزيتا (التي تقسِّم وقتها بين مطعم البيتزا والجامعة في بيروجيا، حيث تتخصَّص بدراسة علم الصيدلة) وابنها جيان ماركو، البالغ من العمر خمسة أعوام -الذي ربما يكون أكثر شخص مُحبَّب، بصرف النَّظر عن العُمْر، في أنحاء إيطاليا كافة- بتقديم ما هو أكثر من الطَّعام والشَّراب إلى الفريق.

لقد كانت أماً رؤوماً للجميع، تشعُّ مودةً وبهجةً حتى في أحلك الأيام، وتمنح قدراً من الدَّعم العاطفيِّ طيلة الموسم، الذي لولاه ما كان بالإمكان الصمود دون أي سُوءٍ، في ظلِّ البؤس والحرمان اللذَيْن فرضتهما طبيعة الحياة بكاستل دي سانغرو. كانت مارتشيلَّا، المُحبّة وشديدة الإخلاص دائماً، غير راغبة حتى في سماع أي نقد موجَّهٍ إلى «فتيانها»، ناهيك عن الانهماك فيه بنفسها.

جُملة القول إنَّ مطعم مارتشيلَّا، الذي تدبُّ فيه الحيوية بحضورها الطاغي وتخيِّم عليه هالة العظمة، كان عنوانَ تجربةِ كاستل دي سانغرو. فلقد كان، منذ الليلة الأولى، بالنسبة إلى ياكوني واللاعبين أنفسهم، وإلـيَّ أيضاً، بمثابة البيتِ أكثر من ذاك الذي ننام فيه.

ثمَّ سرعان ما لاحظتُ، وأنا جالس بين قدامى اللاعبين، أنَّ دي يوليس رغم تجريده من مقعده الأثير، فإنه يتمتَّع بمكانة متميِّزة، فلقد أخذ على عاتقه، في الواقع، عدَّة واجبات متخصِّصة، على رأسها مهمة تَنَشُّقِ الجُبنة.

كانت مارتشيلَّا تقلق قلقاً بالغاً، نظراً إلى انشغالاتها التي لا تحصى، من أن تظلَّ جبنة البارميزان فترة طويلة في أوعية غير محكمة الإغلاق في بوفيه المُقبِّلات بجوار الطَّاولة. ولذلك، فقد كان دي يوليس، قبل كل وجبة، يحمل الأوعية إلى الطَّاولة، حريصاً على إلا يلمس شعره الطويل الأجعد المحتويات، ثمَّ يتنشَّق الجبنة التي داخلها، على شاكلة السَّاقي الخبير الذي يشتمُّ فلِّينة زجاجة النَّبيذ المفتوحة للتوِّ.

وكانت ثمَّة أوقات يهزُّ فيها رأسه، ويكشِّر، ثم ينادي على مارتشيلَّا أو أحد أبنائها لإبعاد الوعاء الفاسد من أمامه والعودة إلى المطبخ لتدارك الأمر وتقطيع جنبة طازجة.

وشغل المقعد إلى يساره، جياكومو غالِّي، البالغ من العمر خمسة وعشرين عاماً، الذي يطلق عليه المشجِّعون لقب «بُوومْ بُوومْ Boom Boom»، تكريماً لأهدافه التِّسعة التي وضعت الفريق في الصدارة بالموسم السابق، علاوة على شخصيَّة الحماسيَّـة. وكان غالِّي، على شاكلة دي ڤنتشنسو، قادماً من روما، والأنا لديه متضخِّمة بما يكفي لتقزيم الضوء المنبعث من أشدِّ الشموع الروميَّـة سطوعاً، ويمتلك فماً لا يكفُّ عن مجاراة تلك الأنا بشتَّى السُّبل. وعلى الرَّغم من أنَّ غالِّي قضى، على شاكلة دي ڤنتشنسو، عدَّة مواسم متنقلاً بين الفئة الأولى من دوري الدرجة الثالثة والفئة الثانية من الدوريِّ ذاته، دون إنجازات تُذكَر، فإنَّ الثقة بالنَّفس تفوح منه، مؤكِّداً لي في لقائنا الأوَّل أنَّني سوف أشهد، حين يُشفَى كاحله، ألعاباً هجوميةً نارية بصورة لم تكن لتخطر ببالي قطُّ.

وكان غالِّي الوسيم، المزهوُّ بنفسه كطاووس مثلما يليق بأعرق تقاليد روما، يعاني من رعشة في رأسه عصيَّـة على السيطرة، وهي اختلاجة

دفعتني -حين تقترن بلزوم عدم الكفِّ عن تحريك يديه في شعره البنيِّ الكثيف، وعجزه عن الجلوس ساكناً، أو التوقُّف عن الكلام أكثر من نحو ثلاثين ثانية في كل مرَّة- إلى الشَّك في أنَّ أيام صباه في المدرسة لا بُدَّ كانت أقل من هادئة.

وجلس قبالتي اللاعبان اللذان قد يكونان -فضلاً عن كلاوديو بونومي، لاعب خطٍّ وسط الفريق الذي يرتدي جهاز تقويم على أسنانه، والمتزوِّج من إحدى نساء كاستل دي سانغرو، لذلك فهو نادراً ما يأكل في مطعم مارتشيلَّا- الأثيرين عند ياكوني، وهو أمر لم يبذل المدير الفنيُّ أي جُهد لإخفائه.

ولقد لعب فوسكو ومارتينو معاً لفترة طويلة، على الرغم من شخصيَّتَيْهما المختلفتَيْن، اختلافاً واضحاً (سنة لدى فرقة لانْتشْيَانُو بالفئة الثانية في دوري الدرجة الثالثة قبل أن ينضما معاً إلى كاستل دي سانغرو قبل خمس سنين) حتى بَدَيَا، في عالم الكالتشيو بالدوري الثانويِّ الصَّاخب سريع التغيُّر، كأنَّهما توأمان سياميَّان.

كان پيترو فوسكو قصيراً بيد أنه مدافع مفتول العضلات في الخامسة والعشرين من عمره، ولد بناپولي وترعرع فيها، ولكن ليس في إحدى مناطقها الثريَّـة. إنَّه شابٌّ وجيز الكلام، ذو عينين متعبتَيْن تشيان في العادة عن إحساس بأنَّهما قد رأتَا أكثر مما ينبغي، وهو يوضح ضرورة أن يقبله المرء كيفما هُوَ وإلا فلا، وليس ثمَّة سبب للاعتقاد حينئذ بأنَّه سيقبلك على كل الأحوال مهما كانت على الإطلاق.

ولم يكن مارتينو على النَّقيض من ذلك كثيراً. كان لديه شعر قصير أجعد مصبوغ باللون الأشقر، ويرتدي حلقة ذهبيَّـة في أذنه اليسرى،

ويحتسى النَّبيذ الأحمر عند الغداء والعشاء على حدٍّ سواء، ولكنَّه يصرُّ على أن يمذقه بشراب «سپرايت» الغازيِّ. ولقد كان، بالإضافة إلى دي يوليس والمدافع الجديد لوقا دانجيلو، من سكَّان أبروتسو الأصليِّين، ومولوداً بقرية صغيرة قرب پسكارا.

أما تونينو، الذي لم يتوانَ البتَّة عن تحيَّتي مُترنِّماً باسم بطله الرياضيِّ المفضَّل «كرَّررييييم آاابددُل جببباارررررر»[76]! بأجمل تدويرة لحرف الرَّاء الأخير سمعتها في إيطاليا قطُّ، فقد كان بلا شكٍّ الأكثر انفتاحاً وطيبةً ونزوعاً نحو المخالطة الاجتماعيَّة من بين أعضاء فريق اجتماعيٍّ ومنفتح على نحو لافت للنَّظر، ولكن لم يسبق لأحد أن عدَّه مثقَّفاً.

وذات ليلة، بعد أن تحسَّنت مهاراتي اللغويَّة إلى حدٍّ بعيد، صادفته وقد أمعن النظر في لعبة «نينتيدو» استأجرها للتوِّ. فسألته: «أثمَّة خطبٌ، يا تونينو؟» فنظر إليَّ بقلق حقيقيٍّ. «أوه، يا جُو، ستكون هذه اللعبة الأصعب، ولكنني لا أستطيع حتى أن أفهم التَّعليمات»! ثم أسلمني العلبةَ، ليريني ما الذي كان على وشك أن يجابهه. فنظرت إليها سريعاً، وأعدتها إليه، قائلاً: « التَّعليمات بالإسپانيَّة، يا تونينو».

ثمَّ كان ياكوني، بالطَّبع. أدركت، في غضون خمس دقائق، أنَّه قد منحني المقعد الذي على يساره مباشرة، ليس على سبيل المجاملة فحسب، وإنَّما كي يتمكَّن بسهولة من أن يعيد عليَّ شرح فلسفته عن الكالتشيو والحياة، دون أن يسمح لأي شيء في غاية الهشاشة، كالحاجز اللغويِّ، أن يحول دون ذلك.

وكانت أولى المسائل التي سوف يُبدي رأيه فيها هو الثَّوم الذي كان ممنوعاً من الوجود بصورة مطلقة على مائدته، فلقد ظنَّ أنَّ الثوم غير

صحيٌّ بالمطلق، ولا سيما بالنسبة إلى جهاز الرِّياضيِّين الهضميِّ، فلا يُسمح بالثوم في حدِّ ذاته، ولا الأطعمة المُنكَّهة بذرَّة واحدة منه، في أي لحظة خلال الموسم. وكان من المرجوِّ -كما يُرجَى من الغربيِّ أن يخلع نعليه قبل تناول الغداء على مائدة يابانيَّـة- أن أنظر إلى هذا البروتوكول، بأي طريقة، بوصفه فرضاً دينياً مثلما هو بالنسبة إلى اللاعبين.

علاوة على أنَّه كان يعارض وجود الفلفل الحارِّ، على الرغم من أنَّه ليس ممنوعاً تماماً. فياكوني لم يكن يحبُّه، ولا يرى فائدة مرجوة من استهلاكه، ولم تكن مارتشيلَّا تستخدمه في الطَّهي، وعلى الرَّغم من وجود طبق من قرون الفلفل المتبَّلة بزيت الزيتون في بوفيه المُقبِّلات، فإنَّ ياكوني أشاع أنَّ أكلها يُعَدُّ إساءةً له.

ومن جهةٍ أخرى، كان المصباح الذي يشير إلى أنَّ التَّدخين مسموح به مضاءً دائماً. كان بإمكان اللاعبين التَّدخين قبل الوجبات وفي أثنائها وبعد الانتهاء منها، وفي الأوقات الأخرى أيضاً خلال النَّهار والليل. وكانت فكرةُ أنَّ مثل هذه الممارسة قد تكون مضرَّة بصحة اللاعبين -ناهيك عن قدرتهم على التحمُّل- شيئاً أصرَّ ياكوني على أنَّه ليس أكثر من مجرَّد هراء مستوحى من الأمريكيين، شبيهٍ بالاعتقاد المُحَال القائل إنَّ استهلاك الدهن الحيواني بكميات كبيرة قد يكون ضاراً.

تطرَّق ياكوني مباشرة، في الليلة الأولى، للحديث عن «الكالتشيو» الذي كان، رغم كل شيء، سبب وجودنا نحن الاثنين هنا. «كلا، كلا، كلا، كلا، كلا!»، لم يرغب في سماع أي هراء يتعلَّق بـ «لا يُوتِنْتسَا دِلَّا سْبِرَانْتسَا». فليبلِّغ غراڤينيا الصِّحافةَ بذلك، ومن المحزن القول إنَّ الحقيقة كانت مختلفة اختلافاً شديداً.

ثمَّ حدَّق بعينيَّ مباشرة من مسافة أقل من ثلاث أقدام، قائلاً: «في دوري الدرجة الثانية، لَا سْتَاجْيُونِهْ إِي لُونْغَا إِي دُورَا»[77]، الموسم طويل وشاقٌّ. قال ذلك مرَّة، ثم أخرى، ثم مرَّة ثالثة. «لَا سْتَاجْيُونِهْ إِي لُونْغَا إِي دُورَا»، ونقر على دفتر ملحوظاتي بأصابع يده اليمنى الغليظة، فظننت لوهلة أنَّه يودُّ إخباري بالانتقال إلى طاولة منفصلة كي أكتب فيها تلك الجملة مئة مرَّة قبل أن أعود إلى غدائي.

نعم، لقد فازوا بمباراتهم الأولى. ولكنَّ ذلك لا شيء؛ «نْيِينْتِهْ!»[78]. ما الذي تعنيه مباراة واحدة من ثمانٍ وثلاثين؟ لقد نالوا ثلاث نقاط. ولكنها ربما تكون النِّقاط الوحيدة التي قد يحصلون عليها طيلة السَّنة. فما نفع الحكاية الخرافيَّـة حينئذ؟ وماذا لو كانت المعجزة مجرد أكذوبة قاسية فحسب؟ لا بُدَّ أن أفهم: لقد كان هذا الدوَّري هو دوري الدَّرجة الثانية! وهم كانوا فريق كاستل دي سانغرو فحسب! ليسوا تورينو، ولا باليرمو، ولا پادوڤا أو جنوا أو باري أو بريشَّا أو البندقيَّـة، ولا حتى فوجيا؛ الفريق الذي واجهوه في مباراتهم الافتتاحية يوم الأحد. إنَّه ليس لعبة أطفال، وليس مزحة. اللعنة، لقد كان هذا الدوري هو دوري الدَّرجة الثانية، ولم يسبق لأزڤالدو ياكوني، طيلة السَّنوات الخمس عشرة التي قضاها مديراً فنياً لأندية كرة القدم المحترفة، أن وصل إلى هذه المرحلة، وبصرف النَّظر عما حدث -أياً كان!- فلا أحد قادرٌ على اتِّهامه بالاستخفاف بالصِّعاب والتقليل من شأنها.

كانت هذه المحاورة الذاتيَّـة قد جرت بالإيطالية. ومع ذلك، فقد كانت إيماءاته في غاية الوضوح ولا يُساء فهمها، وانحناءاته جليةً جلاءً لا لُبس فيه، وصوته مجلجلاً فلم أفهم إلا نحو 10٪ من كلماته التي لا شكَّ أنني قد استوعبت معناها الكامل.

لم يكن لديَّ ما أردُّ به، ولكنَّ ياكوني لم يكن يبحث عن ردٍّ. فنادراً ما كان ياكوني يتكلم، مثلما سوف أعرف لاحقاً، وفي نيته انتزاع ردٍّ من أحد. كانت كلماته هي الكلمات المهمة. لقد كان من يعرف، ويفهم، ويتحكَّم. ولذلك، قلَّما كان في الحسبان أي ردٍّ، إلا حين تتعلَّق المسألة بالثوم والانتقال من تشكيلة 4-5-1 إلى 4-4-2.

وكانت مجادلته -سواء حول الكالتشيو، أو الطعام، أو الموسيقى، أو السيَّارات، أو النِّساء، أو علم النفس، أو التاريخ، أو ميكانيكا الكمِّ- أشبه ما تكون بقذف الحصى على بلدوزر. وقد تكون المسألة مسلية على المدى القصير، فإذا قذفت بما يكفي في الوقت ذاته وسقط الحصى بالعَدْل على النَّافذة، فربما يدير السَّائق رأسه لحظةً، ولكنَّ ذلك سوف يكون كل شيء: سيواصل البلدوزر السَّير في طريقه المرسومة، دون تغيير السرعة أو الاتجاه، بصرف النَّظر عن أحوال الطَّقس، وبصرف النَّظر عن المنطقة، وبصرف النَّظر عن عديد الأجساد التي قفزت أو أُلقيت في دربه.

أصغيت مذهولاً، يعتريني شيء من الخوف هو إلى الفزع أقرب، على الرَّغم من أنَّني لم أكن حتى أحد اللاعبين. ولقد كان هذا الشُّعور، بالطَّبع، هو بالضَّبط ردَّة الفعل التي أمل ياكوني في استثارتها. وحين رأى أنَّه قد نجح، مال إلى الخلف، وصفقني على كتفي، ثم نادى على مارتشيلَّا لتحضر شراب ليمون لا يُحتسى إلا في المناسبات الخاصَّة.

ثم قال: «بنْفِنُوتُو أَ كاستل دي سانغرو!». «أَ كَازَا مِيَا تُو سِيْي سِمْپِره إلْ بِنْفِنُوتُو. سَارُو لْيْتُو دِي پُورْتِرْتِه إِسِّره أُوتِلهْ إن كْوَالْسِيَسِي كُوزَا، إِيَانْكِي إِي پْرِسِنْتِه سُونُوْ إِنْفِتَاتِه أَ رِسْپُنْدِرِه سِمْپِرِه أَلَّهْ تُوِيْيه دُومَانْدِه!»[79].

تطلَّبت هذه الصَّيحة المعبرة عن الصُّحبة الجيدة من مارتشيلَّا أن تحضر ابنها كريستيان، الذي كان يتكلم إنكليزيَّـة قابلة للفهم، إن لم تكن بدائيَّـة، من المطبخ مباشرة.

فقال كريستيان: «يقول لك السيِّد ياكوني إنَّك موضع ترحيب، أليس كذلك؟ ولكن ثمَّة المزيد، إنَّه يقول إنَّك موضع ترحيب في منزله دائماً. وهو لن يتوانى عن تقديم أي مساعدة لك، وسيكون مسروراً للإجابة عن أي سؤال تطرحه عليه بشأن أي شيء، وسوف يساعدك على أن تتعلَّم»[80].

فقلت: «أرجوك، يا كريستيان، أنْ تخبر السيِّد ياكوني إنَّني في غاية الامتنان على حسن ضيافته إلى درجة أنَّ إنكليزيَّتي تعجز عن قول ذلك. إنَّه في غاية، في غاية اللطف ويجلعني أشعر بسعادة غامرة، غامرة، وإنَّني أتمنى له وللفريق تحقيق نجاح كثير، كثير، وسأكون الدَّاعم الأوَّل إلى حدٍّ بعيد، بعيد. وإنَّه لشرف عظيم بالنسبة إلـيَّ أن يغمرني بهذا التَّرحاب، ولسوف أجد، ذات يوم، الطريقة الملائمة لأجازيه على كرمه الاستثنائيِّ».

كان كريستيان يومئ برأسه وأنا أتحدَّث، ولكن بدا لي، بلا شكٍّ، أنَّني قد استرسلت كثيراً في التَّعبير عن عرفاني.

وقبل أن يبدأ كريستيان في الترجمة، تحدَّث ياكوني مرَّة أخرى، ثم انفجر ضاحكاً بصوت عالٍ، وصفقني على ظهري أشدَّ من المرة السابقة.

«يقول السيِّد إنَّ كل شيء سيكون على ما يرام، إنَّه يقول إنَّك تهذر. لا تقلق. إنَّه سعيد لأنَّك هنا. ويقول، وفِّر الباقي حتى تتعلَّم الهذر بالإيطالية».

9
في فم الذِّئب

هبطْتُ في صبيحة اليوم التَّالي سلالم الطوابق الأربعة بفندق كوراديتِّي، فلاحظتُ على الفور وجود شيء مختلف في الأسفل. كان الباب المفضي إلى الحجرة الصغيرة حيث يوجد مكتب الاستقبال موصداً. ليس ذلك فحسب، وإنَّما كان مُقفَلاً أيضاً.

فحدَّثت نفسي: «مما مِيَا»[81]. كان اليوم الأربعاء. «كْيُوزُو!»[82] كانت باربرا تعمل في روما حتى الخميس، ولم تسنح لي الفرصة أن أسألها ماذا كان جوزبِّه والمالك يحاولان أن يخبراني بشأن «مِيركُلِدِي» (الأربعاء)، ولكنني تذكَّرت الآن. مغلق.

حسناً، لم يَبْدُ كوراديتِّي في الواقع مفتوحاً على أي حال قطُّ، ولم يكن لديَّ ما أفعله في مكتب الاستقبال، فخطوت بكل بساطة إلى الباب الزجاجيِّ الذي يفضي مباشرة من بيت السلَّم إلى الشارع.

ولكن الباب لم يفتح. لقد كان مقفلاً، ولن يُفتَح حتى من الدَّاخل. لم أستطع الاتصال بمكتب الاستقبال لأشكو، فلا أحد هناك ولا هاتفَ في غرفتي.

ولم تكد تمرُّ لحظة حتى أدركت أنني قد حُبست. فخطوت إلى الباب المقفل الذي يفضي إلى حجرة الانتظار، ورحت أخبط عليه وأصرخ. لم يكن ثمَّة ردٌّ، فصرخت وخبطت لعشر دقائق دون أن أسمع كلمة تذمُّر واحدة في المقابل.

ماذا لو حدث حريق؟ مِيركُلِدِي. كْيُوزُو. بدأت الكلمتان تكتسبان معنى جديداً يُنذر بالسُّوء. كنت محبوساً في داخل هذا الفندق الحقير، البائس كأكواخ الأسكيمو، ولا بُدَّ أن يكون ابن السافلة، ذلك المالك البدين، وعائلته الكئيبة قد خرجوا للتنزُّه. بالله عليكم، لن أكون قادراً على الخروج من هنا إلا غداً! آه، كم تمنيت لو أنَّني كنت قد تعلَّمت بعضَ شتائم بالإيطالية جديرة بالموقف، بدلاً من أن أطلق العنان لسلسلة طويلة وعالية الصوت من الشَّتائم البذئية الفاحشة بالإنكليزية.

كان لذلك أثر ما. فتشدُّقاتي لم تكدِّر الصَّمت الهاجع خلف حجرة الانتظار، ولكنَّ الضَّجيج قد تسرَّب عبر الباب الزجاجيِّ إلى الشَّارع فجذب انتباه بضعة مراهقين كانوا يعبرون بالجوار، في طريقهم إلى دروسهم الصباحية بثانويَّـة كاستل دي سانغرو.

فصرخت عليهم «أيوتُو!»، متذكِّراً بعض الشَّيء أنَّ هذه هي الكلمة التي تعني «النَّجدة!» ثم خبطت على الباب الزُّجاجيِّ، صارخاً «فْيُورِهِ! فْيُورِهِ!»، متذكِّراً أنَّها الكلمة التي تعني «أخرجوني».

ولكنَّ أبناء السَّافلات -وبنات السَّافلات، بالطَّبع، لوجود صبيَّتين أو ثلاث، ضمن المجموعة- انفجروا ضاحكين. اللعنة، هل يعتقدون أنَّ الأمريكي قد قطع كل تلك المسافة إلى كاستل دي سانغرو لتقديم عرض كوميديٍّ مرتجل ثنائيِّ اللغة؟

فصرخت: «إيُو سُونُو إلْ فَمُوزُو سْكرِتُوره أمريكانو[83]، اللعنة!»، ثم تذكَّرت أنَّ معي القاموس الإنكليزيَّ-الإيطاليَّ الذي أحمله في كل مكان.

فصرخت على الأولاد «انتظروا لحظة! انتظروا لحظة!»، رافعاً إصبعي. ولكنَّهم بدوا، لسوء الحظِّ، مستمتعين بالعرض، وليسوا في عجلة من أمرهم للَّحاق بالمدرسة.

فقلَّبت صفحات الكتاب وقد ثارت ثائرتي، باحثاً عن كلمة «محبوس».
ابن السَّافلة! لقد كانت كلمة صعبة: إمْ-بْرِ-يُو-نَا-رِه. وكانت تلك هي صيغة المصدر. وأنا أحتاج بوضوح في هذه اللحظة إلى الصيغة الانعكاسيَّـة. «مما مِيَا»، لماذا لم أتعلَّم اللغة قبل قدومي؟ لقد تخلَّوا عنِّي، على أي حال. كان أي شيء أفضل من إلا يعيرني الأولاد اهتمامهم ويديروا ظهورهم مبتعدين.

فصرخت «سُونُو إِمْبرِيُونَاتُو إنْ كْوِيِسْتُو أَلْبِيرْغُو!»[84]، آملاً أن تعني «أنا محبوس في هذا الفندق» أو شيء من هذا القبيل، ثمَّ هززت مقبض الباب لأوضِّح ما أعنيه.

ولكنَّ هؤلاء الأولاد الملاعين أحبُّوا ذلك! كنت أستطيع سماع ضحكهم يهدر عبر الزُّجاج الذي كنتُ سأهشِّمه على الفور لو كانت لديَّ الأداة المناسبة. حسناً، ربما أختم بحركة شبه مسرحيَّة: جثوت على ركبة واحدة، وفردت يديَّ، متوسِّلاً.

«أيوتُو! أيوتُو! پِير پْيَاتِشْيرِه!»[85].

ولكنَّهم وقفوا هناك ضاحكين.

ثم أعدت النظر في قاموسي، الذي مازال مفتوحاً على الصفحة التي تحتوي على كلمة «محبوس». وقعت عيناي هذه المرَّة على كلمة قد تحرِّض على القيام بفعل ما، فوقفت فارداً طولي كله محاولاً إظهار غضبي الحقيقي.

ثم صرخت «أيوتُو! سُوبِتُو»[86]، ناظراً إلى الفتاة الطُّولَى في عينيها مباشرة، مشيراً إليها دون غيرها. «أُبُّورِه تِي إِنْغرَاقِيدُو!». أنجديني الآن! وإلا سوف أحبسك! فإنْ لم تتسبَّب عبارتي هذه بإحضار المالك، فقد تحضر الشرطة. ولكنَّني، في تلك اللحظة، لم أكترث.

ضحكت بقيّـة المجموعة على الفتاة الطويلة حتى إنَّها راحت تبتسم، ثم واصلوا مسيرهم في الاتِّجاه الصحيح على ما يبدو، فلقد سمعت بعد مدة لا تتجاوز خمس دقائق وقع خطوات قادمة من حجرة الانتظار ثم انتفح الباب على مصراعيه ليظهر المالك، مرتدياً ما أقسم أنَّها بيجامة حرير لا دخل لها البتَّة بما تشي به شخصيَّته.

اعتقدت في البداية أنَّه سيصفعني، ولكنَّه رمقني بشراسة بالغة، وقذف في يدي مفتاحاً صغيراً لا يزيد طوله على بوصة ونصف ولا يكاد سُمكه يتجاوز سُمك شفرة حلاقة، ثمَّ لوَّح بيده المُشعَّرة تجاه الباب الزجاجيِّ الذي يفضي إلى الشَّارع.

رأيتُ وأنا أتقدَّم نحوه منحنياً إلى الأمام شقاً رفيعاً تحت مقبض الباب تماماً. لعلَّه ثقب المفتاح؟ «مَنَّاجَّهْ»[87]، أجل! اللعنة، إنَّني على وشك الخروج! انزلق المفتاح الصغير في الشق، ثم أدرت يدي ببطء قَدْرَ بوصةٍ ذات اليمين، فسمعتُ تكَّةً. كان مقبض الباب قد تحرَّك بحريَّـة، فانفتح الباب الزجاجيُّ على مصراعيه من تلقاء نفسه.

حافياً، مشى المالك متثاقلاً أمامي، إلى الشَّارع، وهـو المكـان الـذي كان واضحاً أنَّه لم يرغب أن يراه فيه أحدٌ وهو يرتدي البيجاما الحرير، ثمَّ شخرَ وأشار إلى شقٍّ شبيهٍ تحت مقبض البابِ الخارجيِّ، وأشار إلى المفتاح.

أومأت برأسي، وابتسامة عرفانٍ وتفهُّم عريضة ترتسم على محيَّاي. سأكون قادراً، باستخدام المفتاح الصغير، على مغادرة الفندق والرُّجوع إليه، وقتما أشاء، حتى أيام الأربعاء!

وكي لا أنسى، فقد صرخ علـيَّ: «مِيركُلِدِي! كْيُوزُو!»

حضرت باربرا إلى فندق كوراديتي في صبيحة الجمعة، عائدةً للتوِّ من روما لتتأكد، مثلما قالت، إن كنت تسلَّمتُ رسالتها.

«ولكن، لم يمض على وجودي هُنَا سوى أربع ليال، يا باربرا. وأنا النَّزيل الوحيد في هذا الفندق، ما عدا العائلة، حتى إنَّني لست راغباً في الحديث عن يوم الأربعاء. بيد أنَّني كلما مشيت عبر الباب الأماميِّ، فإنَّ «روح عيد الميلاد المجيد» المخيِّم هناك يسألني ماذا أريد. فأخبره أنَّني أريد مفتاح غرفتي. فيسألني في أي غرفة أقيم. فأخبره أنَّها الغرفة الثَّامنة. فينظر إلـيَّ كما لو أنَّني قد أهنتُ أُمَّه للتوِّ، ثمَّ يحدِّق بي ويعطيني المفتاح في نهاية المطاف. فهل تعتقدين أنَّك قد أرسلت رسالةً إلـيَّ»؟

فقالت باربرا: «لهذا قدمت بنفسي، فالمسألة غاية في الأهميَّـة. يرغب السيِّد ريتسا في مقابلتك بمكتبه عند الظهيرة».

«أووه، لأي سبب. أقسم بالله أنَّني قد التهمت كل سلطعون قدَّموه إلـيَّ؛ الأصداف وكل شيء».

«كلا، كلا، ليس شيئاً من هذا القبيل. يرغب السيِّد ريتسا بكل بساطة في أن يرحِّب بك رسمياً في كاستل دي سانغرو، وسوف أكون هناك لأترجم. سألتقيك في مكتب «لا سُوتِشْتَا» بالطابق الثالث قبيل الظهيرة بعشر دقائق».

وقبيل الظهيرة بخمس دقائق تماماً، حضر أحد مساعدي السيِّد ريتسا وأشار إلى باربرا وإلـيَّ كي نتبعه. صعدنا طابقَيْن من السلالم المعتمة والضيِّقة ثمَّ توقَّفنا خارج باب ضخم من خشب الماهوغوني لا يقدِّم أي دليل على ماهيَّـة مَن قد يشغل المساحة الداخليَّـة لهذه المنشأة، أو أي نوع من المنشآت هي، ولقد كان الباب مواربًا قليلاً.

طرق المساعد، الذي كان يرتدي نظَّارة داكنة، بقوة، وصاح «پِرْمِسُّو؟»[88].

لم يتلقَّ جواباً، ولكنَّه فتح الباب على أي حال، ثمَّ خطا عبر غرفة كبيرة مفروشة بالسَّجاجيد على بكرة أبيها، ولكنها مهجورة، رغم احتوائها على مكاتب وكراسي وحواسيب وجميع أنواع المعدَّات الأخرى التي قد يتوقَّع المرء وجودها في مكتب حديث. وكان ثمَّة باب آخر، في الطرف الأقصى، مواربٌ قليلاً هو الآخر ولكن بما يكفي لتنبعث رائحة دخان السيكار.

ثم سأل المساعد ثانية: «پِرْمِسُّوْ؟».

سمعتُ همهمة أتتْ من وراء الباب.

ففتح المساعد الباب على مصراعيه، مشيراً إلى باربرا وإلـيَّ أنْ ندلف إلى الدَّاخل، ثم أوصده خلفنا وغاب عن الأنظار.

كان السيِّد ريتسا جالساً خلف مكتب ضخم، لا شيء على سطحه البتَّة. بدت عيناه، بالنسبة إلـيَّ، كأنَّ بهما بعض القذى، عبر سحابة دخان السيكار التي غشيتهما.

وهمهم ثانيةً.

فقالت باربرا: «بُنْجُورْنُو، سِنيُورْ ريتسا».

فلقتُ: «بُنْجُورْنُو».

سحب نفساً عميقاً من سيكاره، دون أن ترفَّ البتَّةَ رموش عينيه المبحلقتَيْن فينا. كان كل شيء صامتاً، ولم يكن حارساه الشخصيَّان ظاهرَيْن للعيان، ولكنَّني أراهن بسنة من حياتي على وجود زرٍّ بمكان ما في متناول يده، يمكِّنه من دعوتهما على الفور.

ثم همهم من جديد؛ كانت هذه المرَّة أطول من سابقتَيْها.

وحين توقَّف، قالت لي باربرا: «يرغب السيِّد ريتسا في معرفة سبب إقامتك في فندق غير مريح كفندق كوراديتِّي».

«أخبريه أنَّه لم يكن لديَّ متَّسع من الوقت؛ إقامة مؤقَّتة فحسب. سأبدأ في الأسبوع القادم بالبحث عن شقَّة».

أعادت ما قلته عليه، فهمهم مرَّة أخرى. «يقول السيِّد ريتسا إنَّه لا يتوجب عليك البحث، فلديه واحدة من أجلك».

«آه! حسناً، هذا، آه.. مناسب. ولكن يغلب عليَّ الظنُّ بضرورة أن أبحث في الجوار قليلاً لأقارن الأسعار، كما تعلم، والمواقع و-»

فراحت باربرا تتكلم قبل أن أكمل. وبصرف النَّظر عما قالته فقد تسبَّب بإحداث همهمة لا تختلف عن الأخريات كثيراً.

«ماذا قلتِ؟»

«أخبرته بعظيم امتنانك على حسن ضيافته، وأنَّك جاهز للانتقال إلى الشقَّة حالما تعود من أمريكا».

«ولكن انتظري دقيقة، يا باربرا»، ثمَّ قاطعتني على أي حال همهمة أخرى.

«يقول السيِّد ريتسا إنَّ الشقة سوف تكون، من أجل راحتك، بجوار تلك التي يقطن فيها السيِّد ياكوني».

«حقاً؟ يا للرَّوعة، ذلك سيكون مناسباً. أخبريه عظيم شكري حقاً. ولكن هل هي شاغرة؟ وكم قيمة الأجرة حسب ما تعتقدين»؟

«تلك مجرَّد تفاصيل، لا نودُّ إزعاج السيِّد ريتسا بها شخصياً، لديه مساعدون لهذه التَّفاصيل، وليس مهماً أن تكون الشقَّة شاغرة، فحينما ترغب في الانتقال إليها، سوف تكون».

ثمَّ تحدَّث ريتسا ثانيةً، وبكلمات فعلـيَّـة قابلة للتَّمييز، هذه المرَّة، على الرَّغم من أنَّني لم أستطع، بالطَّبع، أن أفهمها.

«يسأل السيِّد ريتسا إنْ كنتَ راغباً في القيام بجولة، صبيحة الإثنين، في ضيعته على قمَّة الجبل، ثم يتبعها غداء يعدُّه طاقم طبَّاخيه الخاص، ولسوف يكون جوابك نعم بالطَّبع، لذا سأسأله بكل بساطة عن الوقت الذي يريدنا أن نصل فيه».

«نحن، يا باربرا. نحن!» لقد سمعت مسبقاً عن الاجراءات الأمنيَّـة التي يتَّخذها السيِّد ريتسا، ولا أريد أن أعبر بوَّاباته الفولاذيَّـة التي ترتفع عشر أقدام، دون رفقةٍ.

«نعم، لقد دعاني السيِّد ريتسا الآن أيضاً، لعلَّه يكون مُحباً للعِشرة أكثر. يقول بضرورة أن نصل إلى البوابة في الساعة التاسعة صباح الإثنين، ونعلن عن وجودنا عبر مكبِّر الصَّوت. حتى، أوه، انتظر لحظة، من فضلك».

قفزت همهمة إضافية عبر الدخان تجاهنا.

«أوه، أجل. يُشدِّد السيِّد ريتسا على ألا تحضر معك، تحت أي ظرف من الظروف، أي كاميرا أو أي نوعٍ من أجهزة التَّسجيل. ولسوف أؤكد له أنَّك لم تفكِّر في أن تفعل ذلك قطُّ».

فقلت «من دون شكٍّ»، مرتعباً من صورة فجائيَّـة قفزت إلى مخيِّلتي تظهر الحارس الشخصيَّ النَّحيف وهو يطرحني أرضاً، بعد أن اكتشف كاميراتي الصغيرة، ماركة كانون Canon، التي أثق بها، ثمَّ يأتي برونو، الحارس الضَّخم، ويأخذ الكاميرا منِّي ويبتلعها بأكملها.

ثم صدرت عن السيِّد ريتسا همهمة فهمت أنَّها همهمة الانصراف.

«أجل، يقول السيِّد ريتسا إنَّنا نستطيع المغادرة الآن، إلا إن كانت لديك بعض الأسئلة، ولسوف أؤكِّد له ألا سؤال لديك».

«ولكن انتظري لحظة، يا باربرا. لديَّ سؤال».

«جُو! من الأفضل ألا يكون له علاقة البتَّة بالاستاد الجديد».

«أرجوك، يا باربرا، قد أكون مجنوناً ولكنني لست انتحارياً. لا أريد سؤاله سوى إن كان سيذهب لمشاهدة المباراة في فوجيا يوم الأحد».

ورداً على استفسار باربرا، أخرج ريتسا سيكاره فعلياً من فمه، ثم همهم بالنَّبرة الأشدِّ غموضاً، ولوَّح لنا كي ننصرف.

«كلا، لن يحضر. يقول السيِّد ريتسا إنَّه لا يسافر لحضور أي مباراة حين يتوقَّع نتيجة غير سارَّة».

ركبتُ صبيحةَ الأحد مع جوزبِّه، على الرَّغم من النتيجة المتوقَّعة، إلى الفندق القريب من فوجيا حيث قضى الفريق ليلة الأمس. كان اللاعبون على وشك الانتهاء من طعام الغداء حين وصلنا. كانت مهمَّتي الأولى تتعلَّق بالحاجز اللغويِّ المخيف، ولكنَّني أعرف ضرورة أن أحاول وإلا سأغدو أحمقَ مما بدوت عليه.

فلقد شعرت كالأحمق في كل مرَّة شاهدت فيها لوتِّي، طيلة الأسبوع. كان يتبسَّم لي، ويحرص على أن يقطع الطريق نحوي ليصافحني. بدا واضحاً من سلوكه هذا -ليس معي فحسب، وإنما من طريقة تعامله مع الجميع- أنَّه كان نبيلاً بالإضافة إلى كونه حارس مرمى استثنائياً. ولم يكن إيقاع الحصص التدريبية يسمح، على أي حال، بأكثر من إلقاء التحيَّة. والآن لا بُدَّ أن أشرح له غلطتي.

وجدته في المرجة خارج الفندق، يمشي على مهله، جيئة وذهاباً، تحت شجرة مظلَّلة، ويتحدَّث، بالطَّبع، بهاتفه الخلويِّ. لقد توجب على اللاعبين، عند

السَّفر، ارتداء بذلات رماديَّـة متطابقة، وقمصان زرقاء، وربطات عنق حمراء- زرقاء. وكان لوتِّي في عصر هذا اليوم الحارِّ عند مستوى البحر بجنوب إيطاليا، قد ألقى سترته على أحد كتفيه وهو يتمشَّى.

وما إن انتهى من محادثته الهاتفيَّـة حتى اقتربتُ منه. فتبسَّم لي، كعادته، وتقدَّم ليصافحني مصافحة حارَّة. كنت قد بدأت ألاحظ، على شاكلة أغلب اللاعبين، أنَّ أهم ما يميِّزه هو عيناه. لقد كانتا عيني وعل لا تكفَّان عن التحرُّك بهذه الطريقة أو تلك، ملاحظتَيْن كل شيء يدخل مجال الرؤية، ومتأهِّبتَيْن على الدَّوام ضدَّ أي خطر محتمل. ولم يسبق للوتِّي أن أظهر، في تصرُّف آخر، أي علامة على العصبيَّـة البتَّة. ولكنَّ عينيه تخبرانك بأنَّه لا بُدَّ أن يكون أحد شخصَيْن: حارس مرمى محترفاً أو شرطياً.

«المعذرةَ، يا ماسيمو».

«نعم، يا جُو. تْشَاوْ. كُومِهْ فَا؟ بْينِهْ؟»[89] تْشَاوْ، كيف الحال، بخير؟

«نعم، يا ماسيمو، غْرَاتْسِيه. بِييْرُو أُونْ أَمُّو، بِييْر بيَاتِشْيْرِهْ»[90]. دقيقة، من فضلك، على أي حال.

«تِشيْرتُو، جُو، تِشْيرْتُوْ»[91] [بالطَّبع، يا جُو، بالطَّبع].

«لأُولْتِمَا سِتِّمَانَا...»[92]، لقد بدأتُ. في الأسبوع الفائت...

«نعم؟». نظر إلـيَّ على نحوٍ مشجِّع، كأنَّه يمهد لي الطَّريق كي أنجح في تدبُّر أمري بالإيطالية.

قلتُ «هُو دِتُّو[93]... إليك!»... ولكنَّني لم أستطع استخدام الضمير بالإيطالية، فأشرت بكل بساطة إلى صدره. لقد قلتُ «هُو دِتُّو، أُونْ بِلْ پاسْتِيْشُّو»[94].

فضحك ووضع ذراعه على كتفي. «نعم، يا جُو، نعم. رِيكُورْدُو[95]». لقد تذكَّر.

«كْوِيلُّو إِيرَا أُونَ إِرُّورِهْ»[96]. تلك كانت غلطة.

فقال «نعم، يا جُو»، وهو مازال يضحك. «لُو سُو» [أعرف]. لقد عرف أنَّها كانت غلطة.

«ڤُولِيڤُوْ دِيبْرِه...[97]» كنت آمل أن تعني هذه العبارة ما ظننت أنَّها قد عنته: أردت أن أَقول «أُوْنَا بِلَّا پَارْتِيتَا» [مباراة جميلة].

فتوقَّف عن الضَّحك، ولكنَّه كان لايزال مبتسماً ويهزُّ رأسه. «لُو سُو، جُو. لُو سُو». [أعرف، يا جُو. أعرف]، ثمَّ أشار إلى جبهته بسبَّابته. لقد فطن إليها في ذلك الوقت. حسناً، بالطَّبع، فو لم يكن غبياً، ولكنَّني أنا الذي بدوت كالغبيِّ.

●●●

وعلى الرَّغم من أنَّ ياكوني كان لايزال يتصرَّف بحذر وتكتُّم مع الصِّحافة، فإنَّه قد أخبر لوتِّي ودي يوليس يوم الجمعة على حدٍّ سواء -ولقد أخبرني أيضاً ليلةَ الجمعة- أنَّ لوتِّي سوف يلعب ضدَّ فوجيا. أكَّد ياكوني أنَّ دي يوليس لايزال حارس المرمى الأوَّل، ولكنَّ لوتِّي قد أبلى بلاءً حسناً في المباراة الأولى، ولا مبرِّر لإجراء أي تغيير في القريب العاجل.

سلَّمتُ لوتِّي، بعد أن عرفتُ ذلك، ملحوظة قضيت ساعتَيْن في كتابتها صبيحة ذلك اليوم، ولفظتُ أيضاً عبارة جديدة كنت قد تعلَّمتها. كانت العبارة «إنْ بُكَّا أَلُوپُو! In bocca al lupo!». كانت الترجمة الحرفيَّـة «في فم الذئب»، ولكن، لسبب ما، فإنَّ هذه هي الطريقة الإيطالية الحقَّة في تمنِّي التَّوفيقَ والحظَ السَّعيد لأي شخصٍ قبل أي منافسة من أي نوع.

فردَّ لوتِّي «كْرِيبِيهْ إِلُوپُو! Crepi il lupo!»، كما يقتضي المثل («الموت للذِّئب!»)، ثم شدَّ على كتفي بقوة، وابتسامة عريضة ترتسم على محيَّاه.

وقال «غْرَانْدِه جُو» [جُو العظيم]. «تَانْتِهْ غْرَاتْسِيهْ» [شكراً جزيلاً]، ثمَّ لوَّح جيئةً وذهاباً بين نفسه وبيني. «نُوْيْ سِيَامُو أَمِيتْشِي، نُو؟»[98]. نحن أصدقاء، ألسنا كذلك؟ ونظر إلى الأسفل نحو الملاحظة. «إِيُو لا لِغُو»[99]. سأقرؤها.

ولم تكن الملحوظة، وفق أفضل إيطاليَّـة استطعت إجادتها، تقول أكثر من «أعرف كيف يشعر المرء حين يكون غريباً. وأعرف شعورك بأنَّك غريب على الفريق والسيِّد ياكوني، حتى بعد مباراتك العظيمة ضدَّ كوزنتسا. ولا بُدَّ أن يضع هذا الأمر ضغطاً إضافياً عليك، لذا أرجو أن يكون في معلومك أنَّني سوف أساندك اليوم مساندةً شديدةً، وبصرف النظر عما سيحدث، فإنَّني أعرف، مما شاهدته الأسبوعَ الفائت، أنَّك حارس مرمى يحمل في أعماقه عظمةً كامنة».

عدت أدراجي إلى الفندق سيراً على الأقدام، يعتريني شعور بالرِّضى عن نفسي إلى حدٍّ بعيد. ولكنَّ دي يوليس، كان واقفاً على السُّلَّمة الأولى، محدِّقاً بي.

فقلت: «تْشَاوْ، يا روبرت». ولأسباب تتعلَّق بلهجة أهالي أبروتسو، فإنَّهم لا يلفظون حرف الـ «الواو» الواقعة في نهاية الاسم الأوَّل.

فأومأ برأسه ولم ينبس ببنت شفة.

فقلت: «إنْ بُكَّا ألُوپُو».

فقال: «أَ لُوِيْ»[100]، مُلمِّحاً إلى لوتِّي. «إِيُو سُونُو إنْ بَنْكِينَا»[101]. حظَّاً سعيداً للوتِّي، بالتأكيد. أما بالنسبة إلـيَّ، فسوف أكون على دكَّة الاحتياط.

دعاني ياكوني إلى الركوب في حافلة الفريق للذهاب إلى الاستاد. وصلنا قُبَيل الثالثة مساء، قبل ساعة من المباراة، فمشينا سريعاً عبر نفق قصير،

شديد الرطوبة، إلى غرفة تبديل الثياب تحت منصة المدرَّجات الرئيسة. وما إنْ ألقى اللاعبون حقائبهم التي تحوي زيَّهم الموحَّد، حتى انطلقوا متوجهين نحو رواق معتم، ثم استداروا جهة اليمين، وصَعِدوا طابقاً من السَّلالم، وخطوا خارجين إلى أشعة الشَّمس السَّاطعة التي تغمر الملعب.

انضممت إلى ياكوني على وجه السرعة، فلقد مثَّل هذا الملعب في نهاية المطاف -ولاسيما لأولئك الذين لعبوا للفريق في الموسم السَّابق- «**ملعبَ أحلامهم**». فهنا، قبل ثلاثة شهور وحسب، حدثت «إلْ مِيرَاكُلُو» [المعجزة].

ولقد قضيت وقتاً صعباً محاولاً تخيُّلها، وأنا أنظر حولي إلى المقاعد الـ 25000 الفارغة والمباني الكئيبة المتهالكة التي تحيط بها. لم تكن فوجيا مدينة مزدهرة، ولم يكن الاستاد، الذي يبدو أنَّه قد نجا من كل حرب إيطالية منذ غاريبالدي، موجوداً في مقاطعة المساكن ذات الإيجارات المرتفعة.

ومما لا شكَّ فيه أنَّ معجزات كثيرة قد وقعت، على مرِّ القرون، وسط الخراب، بيد أنَّني لم أستطع تخيُّل أن يكون فريق فوجيا قد تغلَّب على يوڤنتوس، هنا، في هذا الملعب، قبل سنتَيْن، إلى الحدِّ الذي فاق قدراتي الذهنيَّة تماماً، ولكنَّ الأمر قد وقع. وقبل سنة من ذلك فحسب، وفريق كاستل دي سانغرو يكافح باللعب في الفئة الثانية من دوري الدرجة الثالثة، حلَّ فريق فوجيا في النصف العلوي top half [من جدول ترتيب الفرق] بدوري الدرجة الأولى. ثمَّ، وكما يحدث في العادة، جاءت إدارة تفتقر إلى التبصُّر وبُعْد النَّظر، فاستعجَلَتْ قطف الثِّمار، وباعت جميع اللاعبين الموهوبين دفعة واحدة، وها هو ذا الآن فريق فوجيا على وشك أن يواجهنا، وقد هبط في السنة السابقة إلى المرتبة الثانية عشرة في دوري الدرجة الثانية.

لاحظتُ دي يوليس وهو يمشي في الملعب الوعر والمغبرِّ وحيداً، ثم يتوقَّف بين حين وآخر ليقرفص ويفرك يده عبر رقع العشب الرفيعة. اقتربتُ منه خائفاً بعض الشَّيء أن يكون قد استاء من الأُلفة التي سرت فجأة بيني وبين لوتِّي.

«كِهْ فَايْ؟»[102]. ماذا تفعل؟

فنظر إلى الأعلى، ثمَّ تبسَّم لي ابتسامةً ظننتها تعبيراً عن شيء من الحرج.

«سْتُو تِشركَانْدو إي كْوَادْرِيفُولِي»[103].

فهززت رأسي عاجزاً؛ إذ لم أفهم. ثم إنه وقف ونفض ركبتي سرواله، وكرَّر «كْوَادْرِيفُولِي».

«سْكُوزَا، نُونْ كَاپِيسْكُو»[104]. معذرةً، لا أفهم.

فرفع إصبعه، «أَسْپِيتَا، جُو»[105]. انتظر لحظة. وانحنى ثانية وقطف زهرة برسيم من العشب رفعها إلـيَّ، ثم راح يعدُّ، قائلاً: «أُونُو، دُوِيهْ، تْرِه» [واحد، اثنين، ثلاثة]. «نْيِينْتِهْ»[106] [لا شيء]، ورفع أربع أصابع وتبسَّم.

آه، بالطَّبع: أُونْ كْوَادْرِيفُولْيُو» - زهرة برسيم رباعيَّـة الأوراق!

فقال: «إِ كْوَارْدِيفُولْيُو پُورْتَانُو بِيْنِهْ، نُو؟»[107]. إنَّها تجلب الحظَّ السَّعيد، أليست كذلك؟

فقلتُ مبتسماً: «بلى، بلى».

«آنْكِهْ إنْ أمريكا[108]؟» وكذلك في بلدي؟

«سي، تِشْيِرْتُو. إنْ تُوتُّو إِلْمُونْدُو»[109]. نعم، بالتأكيد، في أنحاء العالم كافة. لَقد بدأت الأوقات التي قضيتها لساعة متأخرة من الليل مع كتاب العبارات الإيطالية تؤتي أكلها.

الآن، وقد شرعنا في شبه محادثة، فقد رغبتُ في سؤاله عن شيء ما.

فقلت: «كْوِيسْتُو كَامْبُو. بِرْ تِي إِي سْبِتْشَالِهْ، نُو؟ أُو مِيرَاكُلُو؟»[110]. لهذا الملعب مكانة خاصَّة لديك، أليس كذلك؟ بسبب شهر يونيو الفائت الذي وقعت فيه المعجزة؟

فقال: «آه»، مدركاً فجأةً أنَّني أريده أن يتذكَّر. «بلى، بلى، مكانة خاصَّة جداً»، ثم وضع يده على كتفي، موجِّهاً عينيَّ نحو دكَّة الاحتياط في طرف الملعب. «كنتُ أبكي، وحين رأيت سپينوزا، قلتُ «كلا، كلا، كلا!». ولكن، ها نحن ذا. فلنأمل الأفضل»[111].

وصلت الحافلات جالبةً المئات (لا الآلاف) من مشجِّعي كاستل دي سانغرو، كما حدث في شهر يونيو. فغرافينيا لم يدفع لقاء استئجار الحافلات، هذه المرَّة، بالطَّبع. وكان مشجعو الفريق، هذه المرَّة أيضاً، منعزلين في طرف الملعب خلف المرمى، «تحرسهم» كتائب مسلَّحة من الشرطة. فمن المفترض أنَّ هذا الإجراء المعياريَّ المتَّبع في المباريات بإيطاليا، قد هدف إلى منع مشجِّعي الفريق المضيف، الذين يفوقون مشجعي الضيوف عدداً إلى حدٍّ بعيد، من الاعتداء عليهم وتشتيت صفوفهم. وعلى الرَّغم من أنَّ عدد الحضور قد انخفض بملعب فوجيا انخفاضاً شديداً، منذ هبوط الفريق من دوري الدرجة الأولى، فإنَّني قدَّرت أنَّ مشجعيهم يفوقون مشجعينا بعشرة أضعاف على الأقل.

وظهر منذ البداية أنَّ عدد لاعبيهم يفوق عدد لاعبينا أيضاً، فلقد انصاعَ ياكوني إلى ما بدا أنَّه الإغواء الأعظم بالنسبة إلى جميع «المدرِّبين allenatori» في إيطاليا: أن يخوض مباراةً «خارج أرضه fuori casa» بحذر شديد، إنْ لم يكُن بخوف مُطلَق. واختار في هذه الحالة أن يُبقي دي ڤِنْتِشِنْسُو على

دكَّة الاحتياط، لصالح الاستعانة بلاعب خطِّ وسط إضافيٍّ، آملاً أن يؤدِّي وجوده إلى تخفيف الضَّغط على الدِّفاع.

أثبت هذا التَّكتيك عُقمَه منذ البداية، فقد شنَّ فريق فوجيا في غضون الدقائق الثلاث الأولى، ثلاثَ هجمات، دافعاً لوتِّي إلى صدِّ ركلة خطرة في كل هجمة. وبعد ثماني دقائق فحسب سجل فوجيا. عَبَرَ أحدُ المهاجمين برشاقة، بعد أن تخطَّى تِشيي المتعثِّر والمتراجع، ودفع الكرة بكل بساطة وراء لوتِّي الذي كان منبطحاً على الأرض بعد أن انقضَّ مُهتاجاً لالتقاط الكرة مبكراً جداً.

ثم اشتدت الأمور سوءاً منذ تلك اللحظة فصاعداً. فبعد عشر دقائق فحسب، دوَّنْتُ في مفكِّرتي أنَّ كاستل دي سانغرو كان قد «تُفوِّق عليه وانتهى الأمر»، ولا شيء حدث لاحقاً غيَّر قناعتي، ولم يكُن إلا الجَهْد الخرافي الآخر الذي بذله لوتِّي هو ما أبقى النتيجة النهائيَّـة 2- صفر، وحال دون تفاقمها.

●●●

وكان العنوان الرئيس الذي تصدَّر صحيفة «إلْ تِشنْترُو» في صبيحة اليوم التالي: «لقد تحطَّمت القلعة»، في حين قالت صحيفة «إلْ مِسَّاجِيرُو» في طبعتها التي تصدر بإقليم أبروتسو: «الدِّفاع غير موجود، أخطاء كثيرة، وخطَّة لعب رديئة».

أما ياكوني، الذي لم يستطع حجب الحقيقة بالكلمات، فقد أخبر الصِحافيِّين، قائلاً: «ليست إلا محطَّة واحدة على طول الطَّريق. سوف نواصل بهدوء، ونفكِّر سلفاً بمباراتنا مع كْرِمُونِيِيْسِهْ»، الذي سيكون الخصم يوم الأحد القادم.

أعجبتني محاولته الحفاظ على التَّوازن، ولاسيَّما في ضوء النَّزعة الإيطالية المستفحلة في التَّعبير بهستيريا مفرطة عن المشاعر -ربحاً أو خسارةً- في كل أسبوع.

ولكنَّني خشيتُ في الوقت ذاته، في لحظات هستيريَّتي الخاصَّة، أن يكون الموسم «أطول وأكثر مشقَّةً lunga e dura» مما قد يظنُّ المرء. لم تُسفر هجماتنا إلا عن تحقيق هدف واحد في مباراتَيْن (وحتى هذا الهدف كان من ركلة جزاء)، وبدا دفاعنا في جوهره لا يتكوَّن إلا من لوتّي، المُحصَّن [بالحظِّ السَّعيد الذي قد تجلبه] أي زهرة برسيم رباعيَّـة الأوراق يعثر عليها دي يوليس.

10

عرين القائد

وصلت باربرا، كعادتها في الوقت تماماً، وكنَّا قد وصلنا إلى البوَّابات الفولاذيَّـة الموصدة خارج كاستل دي سانغرو بنحو خمسة عشرَ كيلومتراً، وعلى ارتفاع أعلى منها كثيراً، في تمام الساعة 8:55 دقيقة، صبيحةَ الإثنين.

تركتْ السيارة لتضغط على أحد الأزرار وتتحدَّث في مكبِّر الصوت الملحق بالبوَّابة. لاحظتُ كاميرتَي ڤيديو صغيرتَيْن تعلوان جانبَي البوَّابة موجَّهتَيْن نحونا، من مدى عشر الأقدام [المسموح بها قانونياً]. وبعد الطلب من سائق السيارة الترجُّل كي يطلب الإذن بالدُّخول، سمح النظام الأمنيُّ للموجودين في الدَّاخل برؤية من يرغب في الدُّخول وسماع ما يقوله أيضاً.

كانت الطريق الخاصَّة، طيلة صعودنا فيها، ضيِّقةً ومنحدرة بمنعطفات كثيرة، والغابات الكثيفة تحدُّها من الجانبَيْن. وفي حين انتهت البوَّابة الفولاذيَّـة، استمرَّ السياج العالي، الذي تعلوه الأسلاك الشائكة، في امتداده عبر الغابات. وليس ثمَّة من بقعة مغرية لممارسة «خدعةٍ أمْ حلوى»[112] في عيد الهالوين.

وبما أنَّهم كانوا يتوقَّعون قدومنا، أنا وباربرا، فسرعان ما انزلق لوحا الفولاذ الهائلان مفتوحَيْن على مصراعيهما. ويتوجب على الزَّائر، بعدَ أن يخطو إلى الداخل، قطعُ ميلَيْن آخرَيْن، صاعداً في طريق أكثر انحداراً

وتعرُّجاً، وأضيق من الطَّريق الأولى. الشيء الوحيد الذي بدا أكيداً: لو تمكَّن شخص من اختراق الطبقة الخارجيَّة من نظام ريتسا الأمنيِّ، فسوف يقترب بأدنى سرعة.

كان الصباح صافياً، والهواء جافاً، والشَّمس قد ارتفعت، من نقطة المراقبة لبيت ريتسا، إلى قدر لا بأس به في السَّماء. لم توفِّر هذه المنطقة زاوية رؤية بمقدار 270 درجة لكل ما يقع عدَّة أميالٍ في البعيد والأسفل فحسب، وإنما كانت في حدِّ ذاتها خالية من أي شيء ينمو لما فوق الرُّكبة، فلم يَحُل شيء دون المشاهدة من واجهة [البيت].

وهذا يعني، بالطَّبع، أنَّ أي شخص يقترب من منزل ريتسا، من أي اتِّجاه، سوف يُرى بوضوح من مسافة لا تقلُّ عن نصف ميل، فلا يمكن أن تكون ثمَّة مفاجآت غير سارَّة على ما يبدو للرَّجل الذي دعاه ياكوني بـ «القائد»[113]، دون أي إشارة واضحة إلى موتسارت.

اقترب منَّا، بعد لحظات من ركن السيارة أمام المنزل الرئيس، شابٌّ مليح يرتدي سترة خضراء ذات شاراتٍ مختلفة جعلته أشبه بحارس جوَّال في إدراة المتنزَّهات القوميَّة، لو كنَّا في أمريكا. كان هذا الشابُّ هو ڤيتو، ابن أخت السيِّد ريتسا، الذي سوف يكون دليلنا في هذا الصباح.

ثمَّ ظهرت في غضون لحظة سيارة لاند كروزر، فصعد ڤيتو على الفور إلى مقعد السَّائق، آخذاً مطرح الشَّخص الذي أحضر السيارة، وملوِّحاً إلى باربرا وإليَّ كي نصعد، وانطلقنا.

كانت السَّاعات الثلاث القادمة كأنَّها من أحد أفلام ستيڤن سپيلبيرغ تماماً. لا أعرف عدد الأفدنة التي قامت عليها الضَّيعة، فلعلَّها بالآلاف أو عشرات الآلاف، ولكنَّ رحابتها ليست بيت القصيد، فخلف بوابتها

الفولاذية وسياج الأسلاك الشائكة الذي يحدُّها من كل حدب وصوب، أوجد السيد ريتسا لنفسه عالماً مكتفياً بذاته.

فالمياه تأتي من جداول الجبال، وثمَّة ثلاثة مولِّدات منفصلة للتزوُّد بالكهرباء في حال تعطَّلت خطوط الطاقة الرئيسة لأيِّ سبب كان. ولم يكن المنزل الرئيس يتزوَّد بالتَّدفئة من الحطب فحسب، وإنَّما من الغاز الطبيعيِّ والطاقة الشمسيَّة أيضاً، وحوى محطَّة وقود خاصَّة لتزويد أسطول سيَّارات [السيد ريتسا] بالوقود، ناهيك عن أنَّه قد شيَّد بيوتاً زجاجيَّة لزراعة الثمار الاستوائيَّة حتى في الظروف الشتويَّة التي تقرب من الأجواء شبه القطبيَّة. ولديه نساء لا يفعلن سوى الاعتناء بأفدنة من حدائق الخضروات، ورجال يفعلون الشيء ذاته مع أشجار الفاكهة. ويمتلك بركاً طافحة بأسماك السَّلمون المرقَّط. والأهم من ذلك كله، الحيوانات التي كانت لديه.

فلقد كانت الأنواع المختلفة محاطة بأسيجة لتفصل بعضها عن بعض على شاكلة «الحديقة الجوراسيَّة»؛ وكان بعضها عجيباً جداً على شاكلة «الحديقة الجوراسيَّة» أيضاً، إلى الحدِّ الذي غدت فيه ضيعة ريتسا على الأرجح المكان الوحيد في إيطاليا الذي قد يرى فيه المرء هذه النَّوعية من الحيوانات. كان ثمَّة ظباء شمواه، وأيائل، وغزلانٌ طويلة الأذنين، وخيول، وماعز، وقطيع كبير من فصيلة بدتْ بالنسبة إلـيَّ كأنَّها مُهجَّنة من ظبي الإِلْكَه ووعل الكَارِيبُو، ولكنَّ المرء لا يستطيع تحديد نوعها بالضَّبط.

لماذا؟ كان أوَّل سؤال خطر ببالي على الفور. فلم يَبْدُ ريتسا من طينة الرِّجال الذين يستيقظون في الصَّباح، ثمَّ يطلب من ڤيتو أن يوصله بالسيارة

إلى البقعة التي توجد فيها حيوانات اللَّاما ليُطعم بضعاً منها بيديه.

ولكنَّ الإجابة، بعد كثير من الإحراج الواضح الذي تبدَّى على ڤيتو باستفسار باربرا المتواصل، جاءت في نهاية المطاف أنَّ المسألة مرتبطة بـ «الإعفاء الضَّريبي». فبتوفير موطن مكتفٍ بذاته لأنواع حيوانات مختلفة، تَعُدُّها الحكومة الإيطالية عُرضةً للانقراض، فإنَّ ريتسا سيكون مؤهلاً للحصول على تخفيضات ضريبيَّـة كبيرة جداً إلى الحدِّ الذي بدا فيه كأنَّ أهل إيطاليا هم من شيَّدوا ضيعتَه وصانوها من أجله، وقد فعلوا ذلك في الحقيقة بطريقة أو أخرى. فما على المرء سوى أن يحضر بضع مئات من وحيد القرن من المتنزَّه القوميِّ المجاور، ثمَّ يحوِّطها بسياج فتقوم الحكومة بإرسال صكٍّ ببلايين الليرات إليه؛ لم يكن ذلك بأسوأ المشاريع التجاريَّـة!

بَيْدَ أنَّ الأروع من تلك الحيوانات كان ما فعله ريتسا بالجبال ذاتها، فحين استولى على هذه الأراضي قبل بضع سنين، حرص على اختيار موقع المنزل الذي تاق إليه، ففحص حينئذ جميع خطوط الرؤية في الاتجاهات كافة. إنَّ الأرض تنحدر، جهة الجنوب، إلى الوادي الذي تقع فيه كاستل دي سانغرو. ولكنَّ الجبال في الاتجاهات الأخرى تصعد في المسافة فوق المكان الذي سيشيِّد عليه البيت، وكانت بعض تشكيلات هذه الجبال مكوَّنةً بطريقة سُرَّ بها ريتسا، لكنَّه لم يُسرَّ ببعضها الآخر.

وهكذا، غير تضاريس المنطقة في بضع سنين، مستخدماً الدِّيناميت والجرَّافات، ناهيك عن أنَّه قد دبَّر إحداثَ هزَّة أرضيَّـة اصطناعيَّـة محليَّـة صغيرة أو هزَّتَيْن، فصعد إلى قممٍ لم يطأها أحد من قبله، مزيلاً تلك التي شوَّهت المنظور الجماليَّ الذي يسعى إليه. ولقد بدا مدى العمليَّـة، كما

فصَّلها ڤيتو، لا فوق الوصف فحسب، وإنما أبعد من الاستيعاب أيضاً. وكان الشيء الأهم، على أي حال، أنْ يبدو كل شيء في نهاية المطاف طبيعياً، على الأقل من جهة المنزل.

أجل، فلو قُدِّرَ للمرء أن يصعد بسيَّارته إلى المكان الذي كُنَّا نصعد فيه بسيارة اللاند كروزر في هذه الأثناء (ولا سيارة أقل منها تُجدى نفعاً لهذا الغرض) لاستطاع أن يرى الغروز والفجوات. فقد أُزيلتْ عشرات آلاف أطنان الجلاميد لعمق ثلاث مائة ياردة ثم أعيد تنسيقها في كِفاف وجد ريتسا أنَّها أكثر مواءمة. أُعيدت هذه العمليَّـة عشرات المرَّات عبر جميع مناطق الضَّيعة، وجُرِّفت عشرات آلاف الأطنان من التربة، ثم نُقلت وأُلقيت لتتكدس بارتفاعات عالية في عشرات المناطق الأخرى.

لقد أوجد ريتسا جبالاً بكل ما في الكلمة من معنى، وكان قد دمَّر حرفياً في غضون بضع سنين فحسب جبالاً شكَّلتها القوى الجيولوجيَّـة، التي تبدو أقل قوة منه، على مدى آلاف السِّنين.

قال ڤيتو إنَّ الشيء الجوهريَّ تمثَّل في جلب المجموعة الصحيحة من الأعشاب؛ تلك الأنواع التي تنمو بسرعة لتغطية النُّدوب، وتكون قادرة بما يكفي على تحمُّل أحوال الطَّقس، ولا يمكن تمييزها عن الأعشاب الطبيعية التي تغطِّي المنحدرات السُّفلى والتي ظلَّت على حالها لم يمسسها سوء.

ما أراده ريتسا أنْ يبدو كل شيء كما لو أنَّه كان موجوداً دائماً، فلقد غُيِّرَ كل شيء ليبدو ألا شيءَ قد تغيَّرَ البتَّة، إلا شيء وحيد: منظر الصُّخور، لا تشكيلات الصُّخور التي كانت ضروريَّـة لبناء الجبال، وإنَّما الصُّخور العاديَّـة فحسب؛ تلك التي تكدِّر صفوه حين ينظر إليها من مرجة المنزل الأماميَّـة. لم يحبَّ أن تكون مجرَّد صخور عاديَّـة ماثلة هناك.

ولذلك، فقد اشتمل الجزء الأخير من تشييد «عالَم ريتسا» على استخراج ما تبيَّن أنَّها آلاف الصُّخور التي تتراوح أحجامها من حجم كرة قدم إلى أقمار كوكب المشتري، ونقلها إلى موقع آخر في الأراضي التي يملكها لا يكون مرئياً من واجهة منزله.

قال ڤيتو إنَّ ثمَّة خطراً حتى تلك اللحظة، فقد كان ريتسا يذهب إلى الساحة الأماميَّة كي يتشمَّس وينظر إلى الأسفل نحو كاستل دي سانغرو -جزيرة لِيلِيپُتْ [الخيالية] الخاصة به- ثم يظن، حينها، بعد خمس دقائق أحياناً، أو عشر في أحايين أخرى، ولأقل من ساعة في بعض الأوقات، لكن يومياً، أنَّه قد رأى صخرةً.

أين؟ هناك في الأعلى. هناك؟ كلا، بل هناك. هناك قرب أشجار التُّوب؟ كلا، اللعنة، هناك، حيث أشير، ألا تراها؟ إنَّها صخرة. أخرِجْها من هناك، أخرجها من هناك الآن! فوراً!

ثمَّ ينطلق طاقم من ستَّة رجال إلى ثمانية في سيَّارات لاند كروزر وشاحنات (كانوا يُبقون عدَّة إزالة التُّراب داخل سقائف في أعلى طرف الجبل لمثل هذه الحالات)، ويظلون على اتصال دائم باللَّاسكي مع حرَّاس ريتسا الشخصيِّين في الأسفل -والرجل العجوز جالس على كرسيِّه في المرجة، يراقب العمليَّة بالمنظار- يفتشون لا عما يمكن أنْ يكون صخرة سَهَوا عنها، وإنَّما على ما يبدو على الأرجح أنَّه من صنع مخيِّلة ريتسا، أو صورة خاطئة كوَّنتها عيناه اللتان تبلغان من العمر سبعة وسبعين عاماً.

وكانوا يقضون، في كل مرَّة، ساعةً أو ساعتَيْن، يقودون مركباتهم عبر تضاريس المنطقة، ثم يخرجون منها ويستدعون جرَّافة، مُبلِّغين معسكر القيادة باللاسلكي في نهاية المطاف أنَّهم قد عيَّنوا مكانها هذه المرَّة دون

شكٍّ، وأنَّ هذه الصَّخرة اللَّعينة كانت موجودة هناك طيلة الوقت ولكنها لن تظلَّ كذلك لفترة أطول لأنَّ أوبيرتو أو تيتو، أو أياً كان، قادم الآن بالجرَّافة. وحين يهبطون، يكون ريتسا قد ذهب لِيَقِيل. سينتهي الأمر عند هذا الحدِّ، حتى المرَّة القادمة.

سألت ڤيتو بسذاجة عن الشيء الذي قد يُحفِّز رجلاً لا يُحبُّ الصُّخور على أنْ يبنيَ ضيعةً في الجبال.

ولكنَّ ڤيتو الدَّمث قد بذل كل ما في وسعه للإجابة، مستخدماً القياس هذه المرَّة. أعلمتني بابرا بعد الاستماع إلى تفسير طويل أنَّ «السيِّد ريتسا يمتلك ضيْعة مثل هذه، لكنها تطلُّ على بحيرة لوغانو في سويسرا. أحياناً لا يُدخل لونُ البحيرة المسرَّة إلى قلبه، ولأنَّها ليست بحيرته، فإنَّه لا يستطيع أن يفعل شيئاً ليغيِّر لونها. ويمتلك ضيْعة بمثل هذا الحجم فوق المحيط، في پسكارا، بيد أنَّه يستشيط غضباً في الأوقات التي يحدث فيها المدُّ والجزر. ولكنَّني سأقول مرَّة أخرى إنَّه لم يجد طريقة قَطُّ لتغيير ذلك. ولكن كل شيء هنا ينتمي إليه، وهذا هو المكان الوحيد على وجه الأرض الذي يستطيع جعله مثالياً وفقَ تصوُّره للكمال».

عُدنا في وقت الغداء. كان السيِّد ريتسا ينتظر عند الباب، وبدا واضحاً أنَّه قد أنهى للتوِّ اجتماع عمل من نوع ما، لوجود ثلاثة رجال أو أربعة يرتدون بذلات رسميَّة وربطات عنق داكنة يتذلَّلون إليه بوضوح، واقفين في شبه حلقة وراءه تماماً، يهزُّون حقائبهم بعصبيَّة، كأنَّهم يتوقون إلى إطلاق سراحهم.

وحال دخولي سألني ريتسا السؤال المعتاد إنْ كنتُ قد استمتعت بالجولة. ربما كان الارتفاع، وربما معدتي الخاوية، وربما المشهد برمَّته، ما

جعلني أمد يدي وأوقف باربرا، دون تحسُّب، حين شرعت في إجابتها الطقوسيَّـة المُمتنَّة.

ورحت أتكلم بنفسـي مخرجاً، فـي الوقت ذاتـه، دفتر صكوك من الجيب الداخلي لسترتي الرياضيَّـة، وقلت: «إنها ما أبحث عنه بالضبط، سأشتريها، كم تريد»؟ ثم دفعت دفتر الصكوك وقلماً تجاه السيِّد ريتسا. قفز التَّابعون في هذه اللَّحظة كحبَّات الفاصوليا النطَّاطة؛ بعضهم إلى جانب ريتسا للتأكُّد من أنَّه لن يسمع ترجمة باربرا، وكي يؤكِّدوا له أنَّ إبرازي دفتر الصُّكوك مجرَّد مزحة بائخة، وقفز بعضُهم الآخر إلى جانب باربرا، للتأكد من أنَّها لن تترجم، ومازال نفرٌ منهم موجودين أمامي لتوبيخي على قلَّة احترامي، موضِّحين بأعنف العبارات اللفظيَّـة الممكنة أنَّ ضيعة السيِّد ريتسا ليست للبيع ولن تكون كذلك أبداً، وما ظننتُ أنَّه نكتة كان في الواقع إهانةً بالغة. كان مدهشاً رؤية عديد هؤلاء الذين يبدو أنَّهم لم يتمكَّنوا حتى الآن من فهم كلمة إنكليزيَّـة واحدة قد فهموا ما قلته للتوِّ بالضَّبط.

وكان ريتسا، في خضم هذا الضَّجيج، قد أمسك سيكاره بإحدى يديه ومدَّ يده الأخرى وأخذ باربرا من ذراعها برفق.

وكان ما قالته لي باربرا، على لسانه، لاحقاً: «اِنسِ هؤلاء الحمقى. أخبريني الكلمات التي قالها الأمريكيُّ».

ففعلت ذلك، موضِّحة أنَّني كنت أمزح بالطَّبع، مع إدراكي الأكيد أنَّ الضَّيعة التي تمثِّل ذروة الأعمال التي أنجزها السيِّد ريتسا في حياته ليست للبيع، ولن تكون كذلك أبداً. وقفتُ دون أن أحرِّك ساكناً، ويدي التي تحمل دفتر الصُّكوك نزلت إلى جانبي، وكفُّها قد بدأت تتعرَّق.

ولكنَّ ريتسا لم يُعِد سيكاره إلى فمه إلا لماماً في الأثناء التي كانت تترجم فيها باربرا. ثمَّ قال، عبر أسنانه المطبوقة وهو ينظر إلـيَّ مباشرة، بضع كلمات ترجمتها باربرا على هذه الشَّاكلة: «وما يدريك؟ الأمر يعتمد، كما هي الحال مع أي شيء آخر، على قيمة الصكّ».

أُعدَّت المائدة لأربعة أشخاص: باربرا، وإيلانا ابنة أخت السيِّد ريتسا التي لا اهتمام لها بكرة القدم، والسيِّد ريتسا الذي يرتدي سترة رياضيَّـة زرقاء تشبه سترتي إلى حدٍّ بعيد، وأنا. كنت قد توتَّرت فجأةً. أستطيع الشعور بأنَّني قد بدأت أتعرَّق.

قُدِّمت ثماني وجبات: مُقبِّلات إيطالية باردة فـي الأوَّل، ثمَّ حارَّة؛ طبقا معكرونة؛ طبقا سمك؛ طبق رئيس ثانٍ، يتكوَّن هذه المرَّة من حَمَل لحمه قاس ولا يمكن مضغه بسهولة، قُتِلَ في ذلك الصَّباح -أكَّدوا لي أنَّ الرَّصاص لم يُطلق عليه، فذلك يخرِّب الطَّعم، ولكنَّه خُنِقَ باليدَيْن- ثمَّ، وبعد طبق من الحلوى المثلَّجة، قُدِّمت حلوى غنيَّـة بالشوكولاته على نحو لا يُوصف، وكاسترد، ومعجَّنات كثيرة.

اِزدردتُ محاولاً البلع، فغصصتُ. حشوتُ وجنتيَّ كسنجاب أمريكيٍّ. استمتُّ في البحث عن حيوان أليف أعطيه بعض طعامي، ولكنَّ كلبَي الحراسة، الدوبرمان والرَّاعي الألماني، أُبقيا في الخارج، يلتهمان القليل من الطَّعام، حتى إنَّني فكَّرت في لحظة ما، بالنُّهوض والذهاب إلى موقد الحطب لأبدي إعجابي بلهيبه المتوهِّج، ثمَّ أقذف، في الوقت ذاته، مِلءَ منديلٍ من الطَّعام نصف الممضوغ في جوفه. واستقرَّ رأيي، في نهاية المطاف، على مجرَّد الاستئذان للذهاب إلى الحمَّام وإلقاء أكبر كميَّـة ممكنة من الطَّعام في المرحاض ثم سحب السِّيفون.

لم يكُن ثمَّة ما يعيب الطَّعام، بل كان على العكس أفضل من ذلك الذي قُدِّم في «سي رِفَرْ كْلَبْ». ولكنَّه قُدِّم، أيضاً، بكميَّات أكبر مما قُدِّم في ذلك المطعم إلى حدٍّ بعيد، وهو شيء لم يكُن ليخطر ببالي أنَّه قابل للحدوث. علاوة على صعوبة المضغ والبلع حين تكون العصارة الهضميَّة للمرء قد جفَّت بمقدار ما شعر بالرعب.

حدثت هاتان العمليَّتان لي قبل الغداء، حين اختلست النظر إلى عرين السيِّد ريتسا، فرأيت، وسط الصُّحف المكدَّسة ليقرأها، كتاباً وحيداً مُجلَّداً على نحو فنيٍّ. علمتُ أنَّ السيد ريتسا لا يستطيع القراءة بنفسه، ولكنَّهم أخبروني أنَّ ابن أخته يقرأ له في كل مساء.

دلفت إلى العرين، ثم ملت جانباً، علَّني أستطيع استبيان العنوان المطبوع على كعب الكتاب.

ولقد تمكَّنت من ذلك فعلاً. كان العنوان بالإيطالية، ولكنَّني ترجمته بسهولة على الفور. كان «حياة سام وتشكْ جيانكانا وزمانَيْهما: بطلان أمريكيَّان».

اختتُمَتْ المأدبة بزجاجة شمپانيا باردة من ماركة «دُونْ بِرِنْيُونْ». وتزامن ذلك، لا من قبيل الصدفة بالطَّبع، مع إعلان وصول غراڤينيا، الذي سحب كرسياً خامساً إلى المائدة، وكرع نصف كأسه جرعةً واحدة، وأشعل سيكارة، ثم راح يحدِّق فيَّ.

أمر ريتسا، بعد إبعاد الزجاجة الفارغة، بإحضار زجاجة براندي الـ «غْرَاپَا»، المُعتَّقة منذ ثمانين عاماً. لم تُصب الكؤوس إلا له ولي فحسب. بدا أنَّ الوقت قد حان للتحدث في العمل، على الرَّغم من أنني لم أستطع تخيُّل أي نوع سيكون. مالت باربرا إلى الأمام، ثم أصغت بانتباه.

بدأ ريتسا بالسُّؤال عن رأيي ليس في الطَّعام أو الأنبذة أو الضَّيعة، وإنما في الفريق.

فقلتُ «حسناً»، محاولاً أن أكون حصيفاً، «لقد حقَّقوا الكثير في وقت قصير، ولن يكون واقعياً توقُّع المزيد على الفور».

«مَهِ!» لوَّح بسيكاره، وراح يتحدَّث بأسرع ما تستطيع فيه باربرا أن تترجم. قال إنَّ المرء يتوقَّع المزيد دائماً، وإلا فما نفع الحياة؟ أنت «كاتب أمريكي»، ومن المفترض أنَّك تمتلك بعض الذكاء على الأقل. ولو كان الفريق ملكي لا ملكه- وهنا لكز سيكاره الذي يبلغ طوله تسع بوصات قرب قميص غراڤينيا الحرير على نحو ينبئ بالخطر- فما عساي أن أفعل لجعل الفريق أفضل؟

نظرتُ عبر المائدة إلى غراڤينيا، الذي بدا من الواضح أنَّ هذا هو مجال اختصاصه، ولكنَّه كان حينئذ لا يتأمَّل الفقاعات في كأسه ذات السَّاق الرفيعة على نحو مثاليّ، فحسب، وإنَّما كان يعدُّها أيضاً. من الواضح أنَّه لن يعينني البتَّة.

فأخذت نفساً عميقاً وقلت: «المال». قلتُ إنَّ الأمر كان واضحاً منذ المباراتَيْن الأولين ضد فريقَيْن متوسطَي المستوى أنَّ فريق كاستل دي سانغرو، بتشكيلته الحاليَّة، لن يكون لديه أي أمل في البقاء بدوري الدرجة الثانية.

ثم قلت: «المال من أجل خطِّ الوسط. من أجل الدِّفاع. من أجل الهجوم. لا بُد أن ينفق النادي المال الضروريَّ لاستمالة لاعبين أفضل. وحده لوتِّي يبدو جديراً بدوري الدرجة الثانية».

كان ريتسا يصغي باهتمام إلى ترجمة باربرا، ثمَّ نطق كلمة واحدة بإيطالية حقَّة: «إيزَاتمِينْتِهْ!»[114] بالضَّبط! ولكن من أي مصدر سوف تؤمِّن «لا سوتشيتا» الأموال الضروريَّـة؟

فقلت: «بحسب ما أفهم»، راغباً في المواصلة بحذر، «فإنَّ الأموال لديك. أُخبرتُ بأنَّ «لا سوتشيتا» قد استلمت مكافأةَ الصعود؛ مبلغاً لا يقلُّ عن ثمانية ملايين ليرة من الاتِّحاد».

حدق ريتسا وغرافينيا بي، في حين كانت باربرا تترجم. وعلى الرَّغم من أنَّه ليس سراً على وجه التحديد، فإنَّ مكافأة الصُّعود لم تكن شيئاً شجَّع غرافينيا الصَّحافةَ أن تركِّز عليه، ولم يَبْدُ الرَّجل مسروراً لأنَّني عرفت بالأمر.

ثم واصلتُ الحديث، وقد شحذ الدُّونْ برِنيُونْ والغْرَابَا همَّتي، قائلاً: «ولكنَّك لن تنفق هذا المال على الفريق». «لقد اشتريت لاعباً واحداً باهظ الثّمن: پستلَّا. وعلى الرَّغم من أنني لم أشاهد سوى مباراتَيْن فحسب، فإنَّني أستطيع القول إنَّ مَن نصحك بإنفاق كل هذه الأموال لشراء پستلَّا، إما أنَّه لا يعرف أي شيء عن الكالتشيو وإما أنَّه لا يريد لكم الخير».

ثمَّ سكتُّ. كان السيِّد ريتسا قد وضع سيكارة في المرمدة، واستدار وهو في كرسيِّه، وزنَّر عينيه إلى غرافينيا بطريقة لن تجعل «الرئيس» مرتاحاً، ثم همهم بشيء إلى باربرا حين لوَّح غرافينيا إلى النَّادلة لتحضر مزيداً من الشمپانيا.

يقول السيِّد ريتسا إنَّ غابرييل أصرَّ على شراء پستلَّا. وكان السيِّد ريتسا قد عارض الأمر منذ البداية، وهو مهتم للغاية في وجهة النظر التي أفصحتَ عنها للتو».

ثم أضفتُ، وقد شدَّ هذا الكلام عزيمتي: «حتى إنَّك لن تنفق المال لبناء الاستاد الجديد بالسرعة الكافية. فمن المخجل أن يضطر الفريق إلى خوض مباريات الإياب في تِشيتِّي. وبالمناسبة، أتسمح لي بأن أطرح عليك سؤالاً آخر، متى سيكتمل الاستاد؟».

زنَّرت باربرا عينيها إلـيَّ، ولكنها كانت محترفة؛ لقد ترجمت. بيد أنَّ ريتسا لوَّح بسيكاره، ردَّاً علـيَّ، وهمهم. تحدَّث غراڤينيا: «سيكون الاستاد جاهزاً لخوض المباراة ضدَّ راڤينا في الثالث عشر من أكتوبر بحسب الجدول».

«ولكنَّه لن يكون جاهزاً للمباراة ضدَّ كرِمُونِيِسِهْ الأسبوع المقبل».

فهز رأسه وكرَّر، «راڤينا». كان يزنِّر عينيه إلـيَّ على النَّحو الذي زنَّر فيه ريتسا عينيه إليه قبل لحظةٍ.

ثم همهم ريتسا إلى باربرا، فقالت، وقد بدا صوتها مُجهداً قليلاً في هذه الأثناء: «يقول السيِّد ريتسا، على الرَّغم من أنَّ تفاؤل غراڤينيا موضع إعجاب، فإنَّه لا يستند دائماً إلى الواقع. أما بالنسبة إلى راڤينا، فهو يقول ربما وربما لا. ولكن من المؤكد أنَّه سيكون جاهزاً لخوض المباراة ضدَّ پادوڤا بعد ذلك بأسبوعين».

ثم استأنفتُ، قائلاً: «هلَّا أخبرتِ السيِّد ريتسا أنَّني كنتُ أمرُّ بموقع الإنشاءات في كل يوم ولم أشاهد البتَّة أي علامات على التقدُّم في البناء؟»

فتنهدتْ، ولكنها فعلت.

فقال ريتسا، وعيناه لم تبدوا وكأنَّ بهما قذىً في هذه اللحظة، بل كأنَّ بؤبؤيهما حبَّتا خُردق: «أخبري الأمريكيَّ ألا يُضيِّع الكثير من وقته في البحث، إنْ كان ما يستحقُّ المشاهدة قليل جداً».

فأومأتُ برأسي جواباً.

ثمَّ واصل ريتسا حديثه، ناظراً إلـيَّ ومشيراً بسيكاره نحوي على حدٍّ سواء. ترجمت باربرا، قائلةً: «يقول السيد ريتسا بضرورة أن تنسى أمر المكافأة الواردة من الاتِّحاد. يتوجب أن تتظاهر بأنَّها غير موجودة إطلاقاً. فلقد رُصدتْ لغايات أخرى، ليس من شأنك أن تعرفها، ولكنها ليست متاحة لشراء اللاعبين الجدد الذين ترغب في شرائهم، فمن أين يحصل السيد ريتسا على الأموال لشرائهم؟»

فقلت: «ربما مِن بيع لاعب أو لاعبَيْن من الذين يلعبون بالفريق الآن».

فانفجر راطناً لبعض الوقت، وهو يلوِّح سيكاره بقوة، بلهجة أبروتسوتيَّـة بدت في غاية الفجاجة، فاحمرَّت أذنا باربرا. ولكنها لم تقل سوى: «لقد استخدم السيِّد ريتسا عاميَّـةً صريحة للتَّعبير عن وجهة نظره أنَّ لاعبينا ليسوا من النَّوعية الكافية لاجتذاب أي شارٍ يرغب في إنفاق المال الذي يريد».

ثمَّ همهم ريتسا ثانيةً، مشيراً إلى باربرا بسيكاره، مما يعني أنَّه راغب في أن يُترجم تعليقُه الإضافيُّ أيضاً.

فقالت: «راقصات باليه». «يشعر السيِّد ريتسا بأنَّ غابرييل قد جمَّع فرقة من راقصات الباليه. والسيِّد ريتسا ليس من عشَّاق الباليه».

مزيد من الدُّخان والهمهمات من طرف السيِّد ريتسا الذي بدا يحملق فيَّ صراحةً في تلك الأثناء.

«أتؤلِّف كتاباً عن فريقي»؟

«نعم».

«وهل ستحصل على المال لتأليف هذا الكتاب»؟

«أجل، ولكن الأمر معقد على نحو ما».

هزَّ رأسه منزعجاً، فهو لم يرغب، حين سأل عن المال، في سماع أي شيء حول التَّعقيدات.

«نعم أم لا!». وكان قد وجَّه إلـيَّ هذا الاستيضاح بالإيطالية مباشرة، دون الحاجة إلى باربرا هذه المرَّة. «نعم».

أخذ نفساً عميقاً ونفث دخان سيكاره نفثةً طويلة، ثمَّ عاد إلى باربرا بمتوالية من الأسئلة: كم من المال؟ وهل كله دفعة واحدة أم على دفعات؟ مبلغ محدَّد، أم يعتمد ذلك على عدد النُّسخ المباعة؟ وهل سينشر الكتاب في إيطاليا؟ فإن كان كذلك، فأي دار نشر؟ وكم سيدفعون لك؟ وماذا عن إنكلترا؟ والبلدان الأوروبيَّـة الأخرى؟ وهل من المحتمل ألا يكون ثمَّة سوق كبيرة للكتاب في أمريكا الشماليَّـة؟ ومن المؤكَّد أن الكتاب سيحوَّل إلى فيلم في يوم من الأيام.

لقد كان ريتسا، بالنظر إلى أنه شخص غير متعلِّم من أبروتسو ولا يتكلم إلا اللهجة المحليَّـة، يطرح جميع الأسئلة المناسبة، دون شكٍّ. شعرت كأنَّنا في اجتماع بدار «سايمن آند شوستر» للنشر.

قال ريتسا: «إنَّه فريقي. الأمريكيُّ يؤلِّف الكتاب. الأمريكي يجني المال. وأنا لا أجني شيئاً. إنَّ هذا...»، فصمتتْ باربرا لفترة طويلة قبل أن تترجم الكلمة التالية بـ «لا يليق».

ومالت بالقرب منِّي، ولكنها بدت في الوقت ذاته كأنَّها جالسة في مكان بعيد، وقالت «يقول السيِّد ريتسا إنَّه فريقي، ولا بُدَّ أن أحصل على المال من الكتاب، الأمر في غاية البساطة، وفي غاية الإنصاف. ومما لا شكَّ فيه

أنَّ الأمريكي، كضيف على مائدتي، لن يكون فظاً إلى الحدِّ الذي سيعارض فيه منطقي هذا».

كان صوت باربرا قد خانه جفاف الرِّيق الجديد الذي طغى على فمها حين ترجمت هذه الملاحظات. ولم تكد تنتهي، حتى بدت آثار صغيرة من اللعاب الأبيض على طرفَي فمها، فمدت يديها مسرعة إلى كأس من الماء.

ثم إنني قلتُ، وأنا أميل إلى الأمام، «لعلَّ مساعديك، يا سيِّد ريتسا، لم يحيطوك علماً أنَّني قد فرَّطت في مبلغ مليون دولار أمريكي، كنتُ سأقبضه لقاء تأليف كتاب عن السيِّد أو. جيه. سِمْسِنْ، لأحظى بشرف الكتابة عن فريق الكالتشيو الذي أوجدته أنت من أجل القرية التي تقع أسفل منَّا في الوادي.

«ولقد وضعت نفسي، لسوء الحظِّ، حين فعلت ذلك في موقف غدت فيه أي مدفوعات، باستثناء الإيجار ونفقات المعيشة الأساسيَّة بالطَّبع، غير واردة بالمرَّة. وفي حين أتَّفق تماماً مع روح ملاحظاتك، فإنَّه لمن بالغ سروري أن أشارك رجلاً كريماً من أمثالك أيَّ عوائد قد أجنيها نتيجة تأليف هذا الكتاب، إلا أنَّ الأمر ليس ممكناً، بكل بساطة.

«فإن كنتَ، حقاً، تَعُدُّ تلك المدفوعات ضروريَّـة، فلا بُدَّ أن أعود إلى أمريكا دون أن أحظى البتَّة بفرصة الكتابة عن شهامتك وكرمك، ولا حتى عن «معجزة كاستل دي سانغرو» التي لم تكن لتتحقَّق لولا كثير فضلك. ولكنَّني أشعر، من ناحية أخرى، أنَّ ذلك سوف يكون خسارة فادحة».

لا بُدَّ أن ترجمة باربرا كانت ترجمةً مبدعة. فما كادت تنتهي، حتى راح غرافينيا يحدِّق بي فاغراً فاه، في حين كان ريتسا ينظر بكل بساطة إلى عينيَّ

مباشرة، ثم أومأ بطريقته المألوفة التي لا تكاد تُلحَظ، ومدَّ كأس الغرَابَا حتى لمست كأسي.

وقال: «نخبك!». بصحَّتك.

فأجبته: «بُوركت».

وبعد خمس دقائق، أقلتني باربرا بالسيارة إلى البلدة. لم نكد ننبس ببنت شفة، ولكنَّني لاحظتُ أنَّها كانت تتصبَّب عرقاً أكثر منِّي، وأنَّ يديها ترتعشان وهي تقبض على عجلة القيادة.

11
فناجين قهوة في المقهى الصَّاخب

لم يكد ياكوني يصل إلى ملعب التَّدريب يوم الثلاثاء حتى استدعاني إلى مكتبه. خشيتُ، في البدء، أن يكون هو أيضاً راغباً في حصَّة من عائدات الكتاب، ولكنَّ الذي اتضح أنَّ مخاوفه أكثر آنيَّـةً.

فقال بجلافة: «يفتقر الفريق إلى التَّواضع»[115]، وهو يشير إلى مفكِّرتي، كأنَّه يريدني أن أدوِّن قوله.

لا بُدَّ أنَّني قد أسأت الفهم. ربما كانت ثمَّة كلمة بدت كـ «تواضع umilta»، ولكنها تعني شيئاً في السِّياق أشبه بكلمة موهبة، على سبيل المثال. ربما كلمة من قبيل «الكفاءة capacita». لا بُد أنَّ هذا ما كان يقصده.

فوافقته قائلاً «نعم. يا للخسارة! لا أحد يتمتَّع بكفاءة عالية. ربما لوتِّي فحسب»[116].

ولكـنَّ ياكـوني خبـط المكتـب بقبضتـه صارخـاً «التَّواضع!». «ليـس الكفاءة. لقد قلتُ التَّواضع!»[117].

حسناً، لقد كنتُ على حقٍّ في المرة الأولى: لقد قال «تواضع umilta».

«بالتأكيد، لا أحد لديه الكفاءة! هذه ليست المشكلة! إنَّهم يفتقرون إلى التَّواضع!»[118]. بالطَّبع، لا أحد يتمتَّع بالكفاءة! وليس من المفترض أن تكون لديهم الكفاءة. فلو كانت لديهم الكفاءة، لما كانوا هنا، ثم كرَّر قائلاً إنَّ التواضع هو ما كان يتوجب عليهم أن يتعلَّموه، قبل أن يأملوا في النَّجاح.

ما يدعو إلى الغرابة، واعتماداً على مشاهداتي القصيرة، فلو توجَّب عليَّ اختيار كلمة لوصف معظم اللاعبين على نحو ملائم، لكان من المحتمل أن كلمة «متواضع humble» هي ما سأختاره. صحيح أنَّ بعض اللاعبين، من أمثال غالِّي (الذي لم يَبْدُ على الأرجح أنَّه سيلعب لأسبوعين آخرين على الأقل) قد تبدو عليهم أمارات التبجُّح والتَّباهي، ولكنَّ ذلك كان على قَدْر الإحساس، الذي بثَّه بقوة مدرِّب كاستل دي سانغرو، بألا يعدُّوا أنفسهم متفوِّقين بالمعنى العميق على غيرهم ممَّن يعيشون في محيط حيواتهم اليوميَّة، على الرَّغم من مكانتهم الرَّفيعة في المجتمع الإيطاليِّ (وإنْ اعتقد أي شخص بأنَّه لا يُنظَر إلى لاعبي كرة القدم في الدوري الثانوي بإيطاليا، بوصفهم مخلوقات شبه أسطوريَّة، فما عليه إلا أن يرى زوجاتهم ومحبوباتهم لتصحيح هذا المفهوم الخاطئ).

وسواء أكان ذلك تُجاه أحد أبناء مارتشيلا الذي يعمل نادلاً في مطعم البيتزا، أم تُجاه الغرباء الذين يوقفونهم في الشَّارع لتقديم نصيحة غير مطلوبة أصلاً، أم تُجاه رجل عجوز يعلن أنَّه «كاتبٌ أمريكيٌّ»، فإنَّ لاعبي كاستل دي سانغرو قد أبدوا مودَّة عفويَّةً عارمةً، في الوقت الذي حافظوا فيه على هيبتهم واحترموا الهيبة المفترضة للآخرين. ولقد بدا هذا التصرُّف، بالنسبة إليَّ، هو جوهر «التواضع humility»، ولكنَّني لم أستطع، حينئذ أو في هذه الأثناء، إدراك المعنى الذي يقصده ياكوني.

وبخلاف رؤيتهم في التَّدريب، أو عند مشاركة العزَّاب منهم وجبات الطَّعام بمطعم مارتشيلَّا، فإنَّ لقاءاتي المتكرِّرة مع هؤلاء «الفتية ragazzi» (كما يدعونهم، جميعاً، بصرف النظر عن أعمارهم الفرديَّة) في هذه الأيام المبكرة قد حدثت بمحض الصدفة في البلدة. إذ يتكرَّر حدوث تلك

اللقاءات، في بلدة، مثل كاستل دي سانغرو، لا تشتمل إلا على ثلاثة شوارع رئيسة وساحة واحدة فقط.

فربما أصادف أندريا پستلّا، وأنا في الطريق إلى إحضار الصحف الصباحية، يتمشّى مع زوجته الشابّة وهما يدفعان طفلهما في عربة أطفال. كان سيُحيِّيني بمودَّة عارمة، وكنت سأودُّ أن آخذه بالأحضان كما لو أنَّني لم أشاهده منذ أسابيع، على الرَّغم من أنني في الحقيقة قد شاهدته في التَّدريب عصرَ اليوم السَّابق، وسوف أراه هناك مرَّة أخرى في غضون بضع ساعات. سأصافح زوجته، مهمهماً بعبارات إيطالية أملتُ في أن تجدي نفعاً، ثم أنحني لأناغي طفلهما. وكان پستلا يمرُّ في الملعب بفترة صعبة من التكيُّف أعقبت انتقاله السَّريع من فريق لوتشيزي، ولكنَّ ذلك لم يُثنِه قطُّ عن إبداء لطفه تجاه وافد جديد آخر.

وقد أصادف فوسكو بعد دقائق لاحقة وهو يتمشى وحيداً، مُطرقاً رأسه على نحوٍ يشي بكل وضوحٍ أنَّه راغب في أن يُترَك وحده. وهكذا، سوف أفعل. ولكنَّ إخفاقي في تحيَّته سوف يدفعه إلى صيحة سُخط فوريَّـة، متبوعة بإصراره على أن أسمح له، حتى قبل أن أشترى الصحف، بأن يدعوني إلى احتساء فنجان من القهوة.

وقد يكون تِشيْي في المقهى الصَّاخب والمكتظّ واقفاً إلى طاولة دائريَّـة، وناظراً إلى الصحف، ومتجاذباً أطراف الحديث ربما مع جيجي پرييتِهْ، الظَّهير الأيسر، أو لعلَّه مع أحد المعجبين. سأطلب فنجاناً كبيراً من قهوة الإسبرسُّو، فنكهة الإسبرسُّو الأصليَّـة لا يضاهيها شيء، ولكنَّ نصف أونصة مصفَّاة في كوب إيطإلـيَّ نموذجي، كما علمتُ من لالاس في بادوڤا قبل سنتين، لا تكاد تكفي لتغطية اللسان، ولهذا طلبت فنجاناً كبيراً.

ولكنَّني حسوتُ ذلك الفنجان دفعةً واحدةً، فهزَّ فوسكو الذي كان بجانبي رأسَهُ. لم يكن ذلك التصرُّف اختباراً من نوع ما -بل مجرَّد قبول دعوة لاحتساء قهوة الصَّباح- ومع ذلك شعرت بعض الشَّيء أنَّه قد بخسني ولم يقدرني حقَّ قدري.

ثمَّ سيغادر تِشيي وپرييته، مودِّعين أولئك الذين ظلُّوا، فلقد عقدا العزم على الذهاب في رحلة إلى شمال إفريقيا عوضاً عن العودة إلى الدِّيار بكل بساطة.

ثم سينضمُّ فوسكو إلى طاولة اللاعبين المُتبقِّين، ملوّحاً إلـيَّ لأتبعه، حيث تكون جميع الصحف مفتوحة على الصفحات المتعلقة بدوري الدرجة الثانية. سيقرأ بصمت لدقيقة أو اثنتين، ثم يتنهَّد هازَّاً رأسه، كأنَّه يعبِّر عن حزن لا يوصف، ويقول إنَّ وقت المغادرة قد حان.

وقد يصل سپينُوزا، في الوقت الذي نهمُّ فيه بالمغادرة، فأقرِّر البقاء لتجاذب أطراف الحديث معه. توجَّب علـيَّ، كي أقف بطريقة لائقة مع سپينوزا -وهو رجل قويٌّ وألمعيٌّ كشفت كياسته الفطريَّـة نفسها قبل وقت طويل من ظهور خفَّة الظلِّ، السِّمة الأخرى الموازية التي يتمتَّع بها- أن أطلب فنجان قهوة آخر وفطيرة صغيرة حين ألحَّ.

كان سپينوزا يحضر جرائده معه فنتصفحها. (ثمَّة مقاعد عند هذه الطاولات الصغيرة العالية، ولكن لم يسبق لأحد أن جلس عليها، لأنَّه يتوجب على المرء النُّهوض على الفور عند قدوم زبون جديد، ليعرض عليه الجلوس في مطرحه. ولم يكن الأمر ذا شأن حين يُرفض العرض بالطَّبع. فليس من اللاَّئق أن يظلَّ المرء جالساً وغيره واقفاً، فكان لا بُد أن يتخلَّى المرء عن الجلوس في أحد الكراسي على أي حال، ونظراً إلى هذه الضرورة فإنَّ البديل المنطقيَّ بكل بساطة هو عدم الجلوس في المقام الأوَّل).

وكان طقسنا يمتدُّ فترة طويلة عندما لا يكون ثمَّة لاعب آخر يحتسي القهوة في المكان. فقد نحدِّق في العناوين الرئيسة، واقفَيْن، لفترة لا تقلُّ عن عشر دقائق، وربما نتمتم، بين حين وآخر، حول الظلم المتأصِّل في حقيقة أنَّ باجيو قد بدأ يُلام على جميع مشاكل إيه. سي. ميلان الجديدة (وكدت أتمتم، بكلام محبوك، منذ اليوم الأوَّل، حين كان الموضوع المطروق يتعلَّق بالظلم تُجاه باجيو).

وحين نهمُّ بدفع الفاتورة -متجادلَيْن مَن سيدفع تلك الليرات القليلة- نكتشف أنَّ فاسكو، دون أن يعرف ما كنَّا سنطلبه، قد دفع عنا سلفاً.

ولقد غدا هذا الشَّيء -ليس في المقهى فحسب، وإنَّما في كل مكان- دَيْدَنَ الجميع طيلة الموسم: محاولة أن يدفع المرء لقاء كل ما يستهلكه الشَّخص الذي ينضمُّ إليه. وأنا على يقين، في النهاية، أنَّ المسألة بدت كأنَّ كل شخص قد أصرَّ على أن يحاسب عن نفسه، ولكنها كانت، على ذلك النَّحو، أكثر تسليةً وتركت الجميع يشعرون بشيء من الرَّفاهية، عوضاً عن تلك التشنجات الروحية التي تصيب المرء جرَّاء العدِّ الدَّقيق لفُراطة النُّقود التي يعيدها إلى جيبه.

بدا اللاعبون، على الرغم من الهزيمة الساحقة أمام فوجيا، غير منزعجين وهم مندفعون إلى التَّدريب عصر ذلك اليوم، والطَّقس مشمس ولطيف كالعادة. ولا شكَّ أنَّ إدراكهم بقاء ست وثلاثين مباراة فقط قد ساعدهم على ألا يهوِّلوا من إخفاقات بداية الموسم ونجاحاته وألا يقلِّلوا من شأنها أيضاً، أو ربما كانوا يفتقرون إلى التَّواضع.

وتجلَّى الحدث الأبرز، بالنسبة إلى كثير من اللاعبين، في فرصة قذف رمياتٍ حرَّة (بكرة قدم) على سلَّة بساحة صغيرة تقع بين الغرفة التي

يبدِّلون فيها ثيابهم وملعب التَّدريب. وكان تونينو مارتينو، لاعب الوسط صاحب الشَّعر الأشقر الأجعد، الذي أذهلني سابقاً بوصفه أحد أكثر لاعبي الفرقة كفاءة، هو أكثر لاعبي «السلَّة» حماسة دون شكٍّ. سُمح له بترويض الكرة بيديه مرةً واحدة بدلاً من قدميه، ثمَّ الانطلاق تجاه الحلقة، رامياً الكرة بأبسط الرَّميات والهتاف، بكل ما يُكنُّ من حُبٍّ للحياة ونفسه، «كرررييم آبدُل جبَّاررررررررررر!»، وينظر إلـيَّ ليرى إن كنتُ قد استحسنتُ ذلك.

كانت حقيقة أنَّني أحد مواطني البلد الذي ينتمي إليه كريم عبدالجبَّار، بالنسبة إلى تونينو، الاعتمادَ الوحيد الذي أحتاجه، فكانت مودَّته، منذ البداية، لا حدَّ لها. وكانت كرة السلَّة سرعان ما تجعله يترنَّم بحماسة لفترة قد تمتدُّ من خمس دقائق إلى نصف ساعة، ثم حين يتعب من ترنيم اسم «جبَّارررررر!»، يهتف إلـيَّ بأسماء اللاعبين الذين كانوا ضمن الفريق الأمريكي الذي خاض بطولة كأس العالم عامَ 1994. لم تكن لديه أي مشكلة حين وصل إلى اسم «توني ميولا!»، ولكنَّه سرعان ما ارتبك بعد ذلك. كان يعرف بوجود لاعب اسمه «لالاش»، ولكنَّه حتى لم يحاول لفظ الاسم الأوَّل. وانتقل من هناك إلى ترنيم اسمي «كوبيييي را-موش!» و«تاب-با كاليغوررررري»، واسم لاعبي المفضَّل «ورريك رينالداا!».

وسرعان ما سينضم إليه اللاعبون «الجادُّون» الذين كانوا يلعبون كرة السلَّة، على رأسهم فوسكو وغويدو دي فابيو، لاعب خطِّ الوسط القديم، الذي انضم إليهم حديثاً. كانت هذه اللحظة، بالنسبة إليهم، لحظةَ جدٍّ لا مزاح فيها. لم يهتفوا باسم أحد من نجوم دوري كرة السلَّة الأمريكي للمحترفين. لقد كانت هذه اللحظة نشاطاً رياضياً -بصرف النظر عن ارتباطه بحيواتهم المهنيَّـة- فقاربوه بحماسة بالغة.

ولم يعرف فوسكو، قبل سنِّ البلوغ، أنَّ كرة مستديرة مملوءة بالهواء يمكن أن تُلعَب بالأيدي فضلاً عن الأقدام. لقد كان «صبيَّ شوارع، حقيقياً، شديد البأس»، من نابولي، كبر وهو يركلُ، بكل ما في الكلمة من معنى، إنْ لم يكُن يصرخ. ولكنَّه سوف يركِّز، رغم ذلك، على الطَّارة باهتمام بالغ، قبل أن يقذف الكرة بكلتا يديه، عدَّة مرَّاتٍ، بارتفاع عشرة أقدام مثلما تخيَّلتُه سيفعل لو كان يُنفِّذ ركلة جزاء تحسم نتيجة المباراة.

أما دي فابيو، فقد بدا غضبه حين أخطأ تسديدةً [على السلَّة] بكرة قدم، من منطقة الضَّربات الحُرَّة، ليسَ أقل من الغضب الذي سوف يتملَّكه حين سيهدر، بعد ساعةٍ، هدفاً صريحاً من المسافة ذاتها؛ فلقد كان يركل الكرة، في الحالة الثَّانية، ويكافح من أجل لقمة العيش [وليس من أجل المتعة الشخصيَّة حين يلعب كرة السلَّة].

ولد دي فابيو، الذي يبلغ من العمر إحدى وثلاثين سنة، في قرية صيَّادي أسماك صغيرة على السَّاحل الأدرياتيكيِّ، تبعدُ ستِّين كيلومتراً شمالَ بسكارا. مسيرتة المهنيَّة غير عاديَّة، فقد كان يذهب إلى العمل في الغالب مشياً على الأقدام، طيلة المواسم الستَّة الأولى التي خاضها لاعباً محترفاً (أربعة منها في دروي الدرجة الثانية)، وكان الناديان اللذان يلعب لهما يقعان في محيط عشرين كيلومتراً من المنزل الذي ترعرع فيه.

ولكنَّه توجَّه بعد ذلك إلى صقلية، ومن ثمَّ إلى الشَّمال حيث بسكارا وسيينا، قبل العودة إلى أصوله الأدرياتيكيَّة والانضمام إلى فريق فيرمانا، بالفئة الثانية من دوري الدرجة الثالثة، الذي سبق أن لعب معه في الموسم السَّابق. وعلى الرَّغم من أنَّه يحتفظ في رصيده بأكثر من 200 مباراة خاضها في دوري الدرجة الثانية، فإنَّ آخرها كان قبل أكثر من خمس سنين، مدركاً أنَّ هذه المرَّة هي فرصته الأخيرة.

ثمَّ يتَّضح أنَّ فابيو يُعَدُّ من بين أفضل أعضاء الفرقة تعليماً وأكثرهم قراءةً على نطاق واسع، علاوة على كونه الأكثر تديُّناً (فهو لا يحضر قدَّاس الأحد بانتظام فحسب، وإنَّما يذهب أيضاً إلى قدَّاس التُّساعيَّـة، رفقة زوجته وطفليه، خلال الأسبوع)، ولكن تكاد تبدو عليه، للوهلة الأولى، أمارات تنذر بالويل والثُّبور.

وكان له شعر أسود طويل وأشعث، ولا يحلق ذقنة إلا لماماً، ولا تفصح طبيعة ملامحه عن الأُلفة البتَّة، وصوته أعمق من صوت أي لاعب آخر وأعلى نبرة. ليس من النَّوع الذي يمكن للمرء أن يتوجَّه إليه ليسأله عن الاتِّجاهات، في شارع خالٍ، آخرَ الليل، ولكنَّ مظهره الخدَّاع لم يستطع، كما بدا، أن يحجب كثيراً قلبَهُ الطَّافح بالعطف، ودماثتَهُ التي تبدو مُجاملةً بالطَّبع في بعض الأحيان.

أما في الملعب؟ فحسناً، لقد كان يلعب في النهاية بفريق كاستل دي سانغرو. ولعلَّه امتلك أقوى تسديدة في الفريق، لكنَّه لم يسجِّل أكثر من هدف في المواسم الثمانية السابقة التي خاضها بدوري الدرجة الثانية، إلا في موسم واحد، مما يشي بافتقاره إلى دقَّة معيَّنة في التَّصويب. ولكنَّه قدَّم -عوضاً عن الذَّوق أو السرعة أو المخيِّلة- الثَّباتَ والعزيمة وقَدْراً من الخبرة التي غالباً ما بدت كأنَّها تضعه في المكان المناسب في الوقت المناسب تماماً.

وقد يلمح أحدهم، بعد خمس عشرة دقيقة من لعب كرة السلَّة، ياكوني الضَّخم وهو يقترب، فيندفع اللاعبون مسرعين إلى ملعب التَّدريب. لم يسبق أن تغيَّر سلوك ياكوني بتاتاً: كان يمشي بخطوات واسعة، والصافرة

تتدلَّى حول عنقه، واللوح في يده، والتكشيرة تعلو وجهه بصرف النظر عن النتيجة الأخيرة [التي يحقِّقها الفريق]، تُجاه الملعب كأنَّه المكان الذي سينهمك فيه، عصرَ ذلك اليوم، في صراع تكون فيه حياته على المحكِّ. وحتى حين يتجاذب ياكوني أطراف الحديث مع الآخرين بأُلفةٍ، فإنَّه يفعل ذلك بصوت صارم وخشن، بيد أنه لم يكن يتجاذب أطراف الحديث بأُلفة مع اللاعبين قطُّ في أوقات التدريب.

تُفتتح كل حصَّة تدريبيَّة بخطبة حماسيَّة، بعد أن تكون الفرقة قد احتشدت حوله في حلقة نصف دائريَّة، مطأطئي الرُّؤوس، في انتظار أن يفرغ، ثم ما يلبث الصراخ أن يتوقَّف، ليبدأ الرَّكل.

سأمشي على مهلي خلال السَّاعتَيْن القادمتَيْن في محيط الملعب، أو أجلس على الدَّكة لخربشة بعض الملحوظات. وجدت نفسي، وأنا أتشمَّس تحت شمس الخريف الدافئة التي أضاءت قمم الجبال المغطَّاة بالثُّلوج في البعيد، وقد غمرتني فجأة حالة لا يمكن إلا أن تكون أقرب إلى السَّعادة.

استغرقت أكثر من خمسين عاماً للوصول إلى تلك الحالة -ولم تكُن الوجْهَةُ متوقَّعةً إطلاقاً- لكنَّني كنت آخرَ المطاف في المكان الذي شعرت بأنني أنتمي إليه.

بَيْدَ أنَّ صنيع عددٍ من اللاعبين في الملعب وَشَى، لسوء الحظِّ، بخلاف ذلك؛ فقد بدا أداء الفرقة طيلة الأسبوع يتردى. وكانت صيحات ياكوني تزداد ارتفاعاً، في كل يوم، ونوبات غضبه تطول. ولم يَبْدُ التَّدريب إلا كشفاً عن نقاط ضعف جديدة بدلاً من تحقيق التحسينات المطلوبة، في حين كان فريق كرِمُونِيْسِهْ، الخصم الذي سيواجهونه يوم الأحد، قد لعب

في دوري الدرجة الأولى قبل موسم، ليس إلا، وتشكيلته مزدحمة بأنواع المواهب التي لا يستطيع كاستل دي سانغرو سوى أنْ يحلم بها.

لم أشعر بأنَّني أستطيع الجلوس مكتوف اليدين، فسرعان ما سوف أغدو في نهاية المطاف جار ياكوني. ولقد شاهدت تباشير خير آتية من المدافع الجديد لوقا دانجليو ومن لاعب خطِّ الوسط النَّحيف، ذي العشرين عاماً، الذي يدعى كريستيانو. خُيِّل إلـيَّ ضرورة أن يبدأ الاثنان اللعب منذ يوم الأحد. وينبغي، فوق ذلك كله، أن يظلَّ لوتِّي في حراسة المرمى.

حاولت عرض رؤاي واقتراحاتي على ياكوني في أثناء وجبة ليلة الخميس، مستخدماً كريستيان، ابن مارتشيلا، وسيطاً.

فقلت: «هلَّا تفضَّلت بإخبار السيِّد أنَّني أودُّ الحديث إليه على انفراد بعد مغاردة اللاعبين الليلة»؟

«بالطَّبع يا جُو. لا مشكلة. ولكن ما الخطب؟ ما حاجتك؟»

فلوَّحت بيديَّ جيئة وذهاباً في إشارة أملتُ في ألا تشجِّع على مزيد من الأسئلة، ثم قلت: «إنها مسألة في غاية الخصوصيَّـة يا كريستيان». «ولكنها تخصُّ الفريق، وكيف أستطيع أن أساعد. أعتقد أنَّ اللياقة تقتضي مناقشة الأمر مع السيِّد أوَّلاً».

«لا مشكلة يا جُو، لا مشكلة، لن أسأل المزيد»، ثم مال كريستيان وتحدث بصوت خفيض في أُذن ياكوني، على افتراض أنَّه يعرض طلبي.

ولكنَّ ردَّة فعل ياكوني لم تكُن الشيء الذي توقَّعته. نظر إلـيَّ على وجه السرعة، وقد احمرَّ وجهه، وانفجر ضاحكاً بأعلى صوته، ثم انحنى إلى الأمام وصفعني على ظهري.

قال: «الأمريكي، الكاتب الأمريكي الشَّهير»، واهتزَّ ضاحكاً مرَّة أخرى. «الأمريكي المجنون، المجنون!»، ثم قبض كفَّه وخبط الطَّاولة وهو يضحك.

فقلت: «ماذا أخبرته بالضَّبط، يا كريستيان»؟

«ما قد قلتَه، يا جُو؛ أنَّك تحتاج إلى التَّحدث إليه على انفراد بشأن إمكانيَّـة أن تلعبَ مع الفريق».

«أن ألعب مع الفريق؟!! لم أقل بتاتاً يا كريستيان شيئاً حول لعبي مع الفريق».

«لقد قلت إنَّك تودُّ المساعدة يا جُو، فاعتقدتُ أنَّك لا بُد تقصد اللعب. فلا سبيل آخر إلى المساعدة».

«اللعنة يا كريستيان فلا نيَّـة لديَّ أن أسأل السيِّد السَّماحَ لي باللعب مع الفريق! ماذا تظنُّني، مجنوناً؟ أرجو أن تخبره على الفور أنَّ ذلك ليس ما قلته».

«حسناً، يا جو- اهدأ، أرجوك. الجميع منبسطون، وتستطيع مساعدة الفريق بأنْ تكون ظريفاً خفيفَ الظِّل!»

فدفنت رأسي بين يديَّ، وبما أنَّه قد ذكر ذلك الآن، فإنَّني أستطيع سماع ضحك اللاعبين يكتسح الطَّاولة.

ثم نهض ياكوني ومرَّ بيده على الموضع الأصلع في رأسي. تسبَّب هذا الأمر في أن ينفجر ضاحكاً من جديد، ثم ارتدى معطفه وغادر مطعم مارتشيلَّا من باب المطبخ الجانبيِّ المحجوز لاستخدامه الشخصيِّ.

فقال كريستيان: «حسناً، يا جُو. لقد أخبرته أنَّك لن تلعب. وأنَّك تحتاج إلى التَّحدث إليه حول أشياء أخرى تتعلق بالفريق. فقال، حسناً،

حسناً، في الغد. فلا بُدَّ أن يلتقي الآن السيِّد غرافينيا ليناقشه في التَّشكيلة وتكتكيك اللعب أمام كرِمُونِييْسِهْ».

«ولكنَّ ذلك كان مجرَّد..»

«أرجو المعذرة، يا جُو، هلَّا أعدت؟»

«آه، لا عليك، يا كريستيان. لا تشغل بالك».

ثم نهضتُ وارتديت معطفي. كان اللاعبون قد طرقوا بالملاعق على الطَّاولة مترنِّمين باسمي: ظانِّين أنَّني قد عرضتُ أن أنضمَّ إليهم، أو أن أكون قد تظاهرت بأنَّني أعرض الانضمام إليهم كي أجعل ياكوني يضحك.

ولكنَّهم شعروا، في كلتا الحالتَيْن، أن وجود الأمريكيِّ في الجوار لم يكن شيئاً سيئاً. بل إنَّ وجوده قد يكون مسلياً بين حين وآخر. حسناً، لقد كان ذلك مسلياً. ولن أتردَّد في فعل أي شيء قد يرفع من معنويِّات فِتْيَتِي.

12
تسديدة على الطَّاير

اقتربتُ من ياكوني مباشرة وقتَ الغداء في اليوم التَّالي. أردتُ إخباره أنَّ تشكيلة 5-3-2 ستكون مناسبة للغاية، حسب ما ظننت، فيلعب بونومي ومارتينو في الجناحَيْن، يساندان كريستيانو الذي سيحاول الهجوم كلما كان ذلك ممكناً. ويتوجب أن يلعب في الهجوم مع دي فِنْتِشِنْسُو وبِستلَّا. ونستطيع بهذه الطريقة أن نأخذ زمام المبادرة منذ البداية، واثقين من قدرة لوتِّي وخط الدِّفاع المكوَّن من خمسة لاعبين، على إحباط الهجمات المرتدَّة التي لا مفرَّ منها. واعتقدتُّ أيضاً باحتماليَّـة أن يكون راغباً في التفكير باستخدام دانجيلو، اللاعب الجديد، كظهير قشَّاش، نظراً إلى سرعته ومهارته الواضحة في التعامل مع الكرة.

فقلتُ «أُزڤالدو»، ورائحة السَّمك المقلـيِّ الذي يُقدم كطبق رئيس في أيام الجُمع بمطعم مارتشيلَّا قد انبعثت من الباب الدوَّار للمطبخ القريب، «لا بُدَّ أن نتكلم على الفور. المسألة في غاية، غاية الأهميَّـة».

ولكنَّ ردَّة فعل ياكوني أفزعتني مرَّة أخرى. طوَّح رأسه إلى الوراء، مصدراً صوتاً سريعاً يشبه الغرغرة، ثمَّ خبط كفَّه المفتوحة على الطاولة، وقفز من كرسيِّه على الفور.

وقال بأعلى صوته، مشيراً إلـيَّ لأتبعه «نعم، لقد كدت أنسى! الآن! الآن! هيَّا، يا جُو. أسرِع! أسرع!». ثم اندفع، بعد قوله هذا، عبر الباب الدوَّار، وهرول عبر المطبخ نحو المخرج صائحاً على مارتشيلَّا بأنَّنا- أنا وهو- لن نتناول أي سمك في ذلك الوقت.

لم يَبْدُ ياكوني رجلاً يمكن أن يجلس بهدوء ويسألني عن رؤاي حول مشاكل الفرقة وأفكاري بشأن أي حلول محتملة، بل بدا كمن تذكَّر للتوِّ أنَّه قد نسي إطفاء شعلة الغاز في موقده.

وتعزَّز هذا الشُّعور حين هُرعنا مباشرة إلى البناية التي تضمُّ شقته، وهي بناية من ثلاثة طوابق من ملاط الجصِّ الأبيض، تقع أسفلَ الشَّارع الذي فيه فندق كوراديتي. اندفع نحو المدخل الرئيس، ثم صَعِد السلالم ثلاثَ درجات في كل خطوة، وتوقَّف بعد أن تقطَّعت أنفاسه قليلاً، خارج شقَّته الواقعة في الطابق الثاني.

اعتقدتُ لوهلة أنَّه على وشك أن يدعوني إلى الدُّخول، في نهاية المطاف، لعقد جلسة استراتيجيَّة. ولكنَّه، عوضاً عن ذلك، أخرج مفتاحاً مختلفاً من جيبه وفتح باب الشقَّة التي بجانب شقَّته.

ثم قال: «هذه لك. إنَّها شقَّتك. من السيِّد ريتسا»، دافعاً الباب، ليدخلني إلى شقَّة تقع في زاوية البناية، يتناثر فيها الأثاث، وتتكوَّن من غرفة معيشة ومطبخ وغرفة نوم وحمَّام.

ثم سكت، بعد أن ضاقت أنفاسه. وراح يتكلم بالإنكليزية هذه المرَّة، قائلاً: «هل.. أعجبتك»؟

«نعم، يا أزڤالدو. إنها جميلة. ولكن».

فأمسك يدي، وقال بالإنكليزيَّة بصوت عالٍ «كلا، كلا! من دون ولكن». «يقول السيِّد ريتسا إنَّك، حين تعود من أمريكا، سوف تسكن هنا جاراً لي»، ثمَّ سلَّمني المفتاح.

وهكذا، سوف تغدو هذه الشقَّة منزلي الجديد في كاستل دي سانغرو. شقة بجوار شقة ياكوني تماماً، كما وعد السيِّد ريتسا. وأستطيع أن أرى

تلك الجلسات الاستراتيجيَّة تلوح، بعد كل شيء، في الأفق؛ وسوف تبدو، في استعادة للأحداث الماضويَّـة، مؤشِّراً قوياً على أنَّ هوسي قد بدأ، حينئذ، ينجرف نحو الجنون.

بدا ياكوني، بالنسبة إلى هذه الجزئيَّـة، مسروراً. فتمشَّى في أنحاء الشقة، وقد ارتسمت على محيَّاه ابتسامة عريضة، يطرق على الجدران، ويسحب سيفون المرحاض، ثم يفتح أدراج الخزائن ويغلقها، ويجلس على الأريكة ليثبت أنَّها متينة، كما لو أنَّه وكيل عقارات.

ثم علمت بأنَّ ڤيتو، الذي كان دليلي في ضيعة ريتسا، يعيش في شقة أسفل شقَّتي، إذ إنه يعمل مشرفاً على شؤون البناية. ويسكن في الطابق العلويِّ ألتامورا، رفقة زوجه وابنه الفتيِّ. كان رأسي قد دار جرَّاء هذه الانعطافة الفجائيَّـة في مسار حظوظي وأحوالي -فسوف انتقل، في غضون أسبوعين، من حالة الغريب تماماً (والأجنبيِّ، في ذلك الوقت) إلى العيش في المسكن الملاصق لغرفة التحكُّم الافتراضيَّـة لكالتشيو كاستل دي سانغرو- فقررت، في طريق عودتي إلى مطعم مارتشلَّا، أن أمازح ياكوني.

سألته: «هل تحب الهيپ هوپ»؟

فنظر إلـيَّ مندهشاً.

فقلت: «راپ العصابات»[119]؟

فقال: «لا أفهم عليك».

فرفعتُ إحدى أصابعي، ثم قلتُ: «انتظر».

كنت قد بحثت في المطعم عن كريستيان لأطلب إليه أن يترجم سؤالي حول الموسيقى المفضَّلة لديه.

وحين فهم ياكوني ما أقصد، زنَّر عينيه إلـيَّ وهزَّ رأسه.

فقال كريستيان: «يقول السيِّد إنَّه لا يحبُّ الموسيقى، وبخاصَّة هذا النَّوع».

فقلت: «أووه. هلَّا تفضَّلت يا كريستيان وأخبرته أنَّ هذه المسألة سوف تغدو مشكلة ما. فأنا أُدير موسيقى الهيپ هوپ طيلة الليل وراپ العصابات بأعلى صوت. بأعلى صوت».

والآن جاء دور كريستيان ليبدو فزعاً. «ولكنَّك لا تستطيع يا جُو أن تفعل ذلك. فالسيِّد لا يُحبُّ ذلك. إنَّه يحبُّ النوم كثيراً جداً».

«لا تقلق يا كريستيان. إنَّها دعابة، ليس إلا».

«آه!»، أشرقت عينا كريستيان وارتسمت على محيَّاه ابتسامة عريضة. ولكنَّه، حين استدار نحو ياكوني لتوضيح المسألة، لم تَبْدُ عليه أمارةُ مَن يشرحُ أنَّها دعابة.

إنَّ إحدى أكثر المزايا المقنعة، التي يتمتَّع بها ياكوني، كامنة في تعابير وجهه. فصوته يمتلك طبقتَيْن فحسب: بحَّة صوت بيل كلنتن التي كان يستخدمها في المحادثة العاديَّـة إبَّان انتهاء فترة حملته الانتخابيَّـة؛ والطبقة العالية التي كأنَّها صوت بوق الضباب foghorn، المستخدمة لكل شيء آخر، ولكنَّه يستطيع بتعابير وجهه وحدها أن يعزف سيمفونيَّـة كاملة من المشاعر الإنسانيَّـة.

أما بالنسبة إلى هذه الحالة. فقد كانت، في البدء، صدمةً، ثمَّ لمعةَ فزع، ثمَّ انتقالاً إلى الرفض العنيد لتصديق ذلك، ثمَّ حَذَراً، ثمَّ، في النهاية، إدراكاً بأنَّ كل ذلك لم يكُن سوى محاولة صغيرة للدَّعابة. ولم يستغرق هذا التسلسل، منذ البداية حتى النهاية، أكثر من ثلاث ثوان، وانفجر ضاحكاً، ضحكةَ إعجابٍ طويلة بأعلى صوته، دَهِشاً: «هيپ-هوپ!». «بأعلى صوتٍ!»، «طيلة الليل!».

ألقى ذراعه البدينة على كتفيَّ، وهو لايزال يضحك، وعيناه قد تجعَّدتا حتى بدتا كثقبين صغيرين، ثمَّ أشار بيده الأخرى إلـيَّ، وقد تلفَّظ بعدَّة جُمَلٍ مخاطباً كريستيان ومارتشيلَّا وأولئك اللاعبين القلائل الذين لم يغادروا المطعم بعد.

فسألت: «ما الذي يقوله السيِّد، يا كريستيان»؟

«يقول إنَّك تتمتَّع بِـ.. بِـ.. حسِّ الفكاهة، وهذا شيء جيد للغاية، لأنَّنا سنحتاج في أوقات كثيرة من هذا الموسم إلى الضَّحك. ولذا، فالسيِّد سعيد لوجودك في الشقة التي بجوار شقَّته».

«وأنا سعيد، يا كريستيان. أخبره. وأنا أيضاً».

لم تسنح لي الفرصة بأنْ أحدِّثه عمَّن ينبغي أن يلعب، وكيف يتوجب أن نلعب، ضدَّ كرِمُونِيِيْسِهْ، ولكنَّ ذلك كان لا بأس به. أستطيع أن أرى -أو ظننت أنَّني أستطيع- حال عودتي من أمريكا، أنَّ العمل مع ياكوني كفريق واحد سيكون رائعاً إلى حدٍّ بعيد. وعلى الرَّغم من أنَّ الفريق لم يخُض سوى مبارتَيْن من الموسم في تلك الأثناء، فإن معرفتي بصواب الأمور قد بدأت تتراخى.

كانت الغيوم قد أخذت تحتشد، عصرَ يوم الأحد 22 سبتمبر، في تشييتي الواقعة عند مستوى البحر، ثم غدا الطَّقس، بحلول الساعة الرابعة مساءً، حاراً وشديد الرُّطوبة. وعلى الرَّغم من أنَّ عجلة استئناف البناء في الاستاد الجديد بكاستل دي سانغرو لم تَدُر بعد، فإنَّ غرافينيا مازال يؤكِّد لي أنَّه سيكون جاهزاً لعقد المباراة ضدَّ رافينيا في 13 أكتوبر.

ولم يكد الفريق يدخل إلى أرض الملعب، حتى تقوقعت فيما بدأت أدرك أنَّها شرنقة البؤس الحتميَّـة التي سوف تلازمني قبل أي مباراة. كنت أعاني

من توتُّر لا يكاد يحتمل. فلا أمل لديَّ. لم أشعر سوى بالخوف، وغمرني إحساس رهاب الأماكن المغلقة، كأنَّني أنتظر حكم قاضٍ أو هيئة محلَّفين، وأعرف أنَّه سيكون ضدِّي.

بدت لحظة فوزنا على كُوزِنْتسَا كأنَّها وقعت منذ سنين خلت. لم أستطع التَّفكير إلا في الكيفيَّـة المُقيَّدة التي سوف نبدو عليها في فوجيا، واحتماليَّـة القوة العظيمة التي سوف يكون عليها الخصوم. لا شكَّ أنَّ فريق كرمونييسه (القادم من مدينة كريمونا الواقعة بإقليم لومبارديا) لم يكُن بتاتاً من عيار الفرق التي تستحقُّ أن تلعب في دوري الدرجة الأولى، ولكنَّ وجودهم هناك في الموسم السابق قد أضفى عليهم مسحة من القوة وأنَّهم فريق لن يُغلَب.

ولكنَّ خوفي لم يكُن نابعاً، إلى حدٍّ بعيد، من تاريخهم الحديث، بمقدار ما كان ناجماً عن تشكيلة لاعبيهم الحاليَّـة. ويكفيني التَّذكير باسم لاعب واحد فحسب؛ ماسپيرو، لاعب خطِّ الوسط، الذي سجَّل عشرين هدفاً في دوري الدرجة الأولى. فبعد خسارتهم المباراة الأولى «خارج أرضهم»، فاز كريمونييسه على فريق جنوا القويِّ 2-1، الأحد الماضي، بعد أن سجَّل ماسپيرو الهدفين. لقد كانت تشكيلتهم برمَّتها مجهَّزة بلاعبين موهبين، أصحاب صيت وخبرة.

ولم يقم ياكوني، كي يجابه ذلك، إلا بتغيير واحد في تشكيلة اللاعبين الذِين لعبوا في الأسبوع الفائت، معيداً دي ڤِنْتِشنْسُو إلى موقعه في الهجوم عوضاً عن مكانه كلاعب خطٍّ وسط خامس. هكذا، كنا نلعب ضمن التشكيلة التقليدية 4-4-2 من دون دانجيلو أو كريستيانو، النَّجم الصَّاعد،

ولكنَّ لوتّي ظلَّ في حراسة المرمى، الأمر الذي أراحني كثيراً.

المسألة الوحيدة الأخرى تتعلّق بأسلوب اللعب. فمازلت أعتقد بضرورة أن نأخذ زمام المبادرة، سواء لعبنا على أرضنا، أو على أقرب أرض، مثلما سوف نفعل على الأرجح لبعض الوقت. ولقد حدث ذلك، حمداً لله، منذ بداية المباراة، حين أخذ كاستل دي سانغرو بالتَّقدم الضاغط وفرض السيطرة على منتصف الملعب.

ولكنَّ لاعبينا لم يكونوا، لسوء الحظِّ، بالكفاءة المطلوبة. فلقد ارتدُّوا، بعد انقضاء عشر دقائق فحسب، إلى حالتهم السابقة من الاضطراب، فتفاقمت أخطاؤهم. وكان لوتّي يلعب، هذه المرَّة أيضاً، كما لو كان اسمه الحقيقي هوراشيو[120]، ولكنَّه لم يستطع مجابهة ذلك النوع من الضغط المتواصل على المرمى، طيلة الخمس والسبعين دقيقة المتبقية. وسنفقد السيطرة على الكرة، مرَّة بعد أخرى، حتى قبل أن نتمكَّن من العبور بها إلى خطِّ الوسط، ثم بدأنا نرتكب مخالفات قانونيَّـة: وهي إشارة دائمة إلى أنَّ الفريق إما متعب وإما في ورطة.

وتُفاقم المخالفاتُ القانونيَّـة الأمرَ سوءاً، كما هي العادة دوماً، مانحة كريمونييسه ضربات حرَّة من أمكنة خطرة. ارتكب ألبيرتي مخالفة. أضاع تِشيي الكرة قاذفاً إياها إلى خارج خطِّ التَّماس. وارتكب بريبيته مخالفة، وهو في حالة من اليأس لإحساسه بأنَّه مغلوب. نفذ ماسپيرو ركلة حرَّة خبيثة صوب الزاوية اليسرى العليا من المرمى، ولم يتمكَّن لوتّي، إلا في النَّانوثانية الأخيرة، من القفز على قَدْر طوله، وصدِّ الكرة بطرف قفَّازه.

لعبنا، بعد هذه الرَّكلة، كما لو نعرف بأنَّنا ملعونون، متخلِّين عن الكرة في أرجاء الملعب كافة، دون حتى أن نتعرض إلى الضغط من كريمونييسه.

وبدا دي ڤنتشنسو فتىً ضائعاً لا يسهم في شيء. وبعد ثلاثين دقيقة، نفَّذ تِشيي، مرَّة أخرى، ركلةً طويلة إلى لا أحد بالضَّبط، فصرخت بأعلى ما أستطيع، خارقاً البروتوكول بطريقة سافرة (نظراً إلى وضعي كضيف شرف على إدارة النادي) «دانجلو! دانجلو! أخرجوا دانجلو!»، فهمهم غراڤينيا، الذي كان يجلس، مرَّة أخرى، إلى يميني مباشرة، بشيءٍ ما، ثمَّ أبدى امتعاضه بأنْ أشاح ناظريه بعيداً.

ولم نسدد ضربتنا الأولى على المرمى إلا في الدقيقة السابعة والثلاثين. وعلى الرَّغم من أنَّ هذه الركلة التي نفذها كلاوديو بونومي، لاعب خط الوسط، صاحب الوجه الطافح بالبثور، الذي يرتدي طقم تقويم أسنان، كانت ركلةً عالية جداً، فإنَّها كانت تسديدة على الأقل. وعلى الرَّغم من أنَّنا قد تخلَّفنا، ووقت الشَّوط يقترب من نهايته، فإنَّنا لم نُفرِّط في شيء بعد. رغبنا، بكل بساطة، في البقاء صامدين طيلة الثماني دقائق المتبقية على انطلاق الصَّافرة، كملاكم تمكَّن، على نحو ما، قرب نهاية جولة تلقَّى فيها ضربات مبرحة، من الوقوف على قدميه. ولقد كان.

وحدث ما هو أفضل من ذلك، فقد خرج اللاعبون لخوض الشوط الثَّاني، وقد دبَّ النَّشاط في عروقهم وارتفعت معنوياتهم على نحو واضح، فلا بُدَّ أن ياكوني قد بثَّ الحماسة فيهم خلال فترة الاستراحة. حتى إنَّنا قد نجحنا في تنفيذ أوَّل هجمة حقيقيَّة جيدة خلال الموسم، حين اخترق بونومي الصفوف في بداية الملعب ومرَّر الكرة إلى بريبته المشتبك الذي ركض إلى زاوية مفتوحة ثمَّ سدَّد تمريرة عرضيَّة جميلة إلى پستلَّا المنفرد أمام الشِّباك.

ولكنَّ پستلَّا ركل الكرة على الفور فطارت صوب المنصَّة الرئيسة.

ولكنَّنا عدنا ثانية خلال دقائق، وهذه المرَّة وجد تونينو مارتينو في نفسه مخزوناً من الطَّاقة مكَّنته من الوصول جهةَ المرمى مرَّة، ومرَّتين، ثمَّ بعد ضربة ركنيَّـة، مرَّة ثالثة.

في تلك اللحظة، وفي الدقيقة التاسعة والخمسين، مرَّرَ الكرة إلى بونوميٍ، وبعد أن سدَّد على الطَّاير وهو يركض، سجل بونومي هدفاً! لقد تمكَّنا، في النهاية، وبعد 237 دقيقة من اللعب [منذ بداية الموسم]، من تسجيل هدف حقيقيٍّ، دون أن يكون جراء ضربة جزاء. والأهمُّ من ذلك كله هو تقدُّمنا على كريمونييسه 1- صفر.

ضغط الشماليّون هاجمين بقوة لم نشهدها من قبل. وكان لوتِّي هو الذي أنقذنا، في المقام الأول، مرَّة أخرى. وكانت ثمَّة لحظات، في العشرين دقيقة الأخيرة، تلك، بدا فيها كأنَّ لاعباً واحداً يلعب ضدَّ أحدَ عشر، حين تُرك لوتِّي مكشوفاً بلا دفاع على نحو لا يرحم.

ولكنَّ الدقيقة التِّسعين قد حلَّت أخيراً. لم تبق سوى الدقيقة أو الدَّقيقتَيْن اللّتَيْن سوف يحتسبهما الحكم بدل الوقت الضائع نتيجة توقُّف اللعب، كمثل ما حدث حين سجَّلنا الهدف، أو حين تلقَّى أحد اللاعبين المصابين إصابةً خفيفةً العلاجَ في أرض الملعب.

فرفع الحكم المساعد لافتة إلكترونيَّـة عند خط التَّماس. ثماني دقائق من الوقت الإضافيٍّ. عمَّ السُّخط صفوف كريمونييسه! فمن الواضح أنَّهم توقَّعوا تحقيق فوز سهل، وبما أنَّ الحكم قد قرَّر بوضوح منح الفريق الأكبر والأشهر، القادم من الشَّمال، بضع دقائق إضافية غير مبرَّرة، فقد يتمكَّنون خلالها من تحقيق التَّعادل على الأقل.

ألقيتُ مفكّرتي على الأرض ودفنت وجهي بين يديَّ، مقسماً ألا أنظر إلا إلى عقرب الثواني في ساعتي حتى يدور ثماني دورات كاملة. ولو لم يعلن ذلك الحكم الوغد، الذي كان يُدعى لانا والقادم، بالطَّبع، من مدينة تورينو الشماليَّـة، انتهاءَ اللعب، لما عرفت ما الذي قد أفعله.

ولم أستطع، حال انتهاء المباراة، إلا أن أقول، شكراً لله لأنَّ لوتِّي كان في حراسة المرمى. فكلما جُنَّ جنون جميع الذين من حوله -ياكوني، وزملائه اللاعبين، ولاعبي كريمونييسه، والمشجعين- بدا لوتِّي أهدأ. ولأنَّ جهوده في إنقاذ الكرات في السَّابق كانت مذهلة، فإنَّها بدت في الوقت الإضافيِّ، غير المرغوب فيه وغير المستحقِّ، عفويَّـةً هيِّنة.

وكي يبرهن على وجود قدر من العدالة إلى حدٍّ ما، حين تقدَّم فريق كريمونييسه على نحو متهوِّرٍ في هجمتهم الأخيرة، خطف بونومي الكرة، مقتحماً الملعب وراكضاً دون خوف، لا يصحبه في الحقيقة سوى ڤيرولينو، الذي يُعَدُّ الأدنى منزلة في صفوف المهاجمين البدلاء، وهو شابٌّ لم يدخل الملعب إلا بسبب إخفاق پستلَّا الذي تكرَّر أكثر من اللزوم.

وحين تقدَّم حارس مرمى كريمونييسه في محاولة لمنع ما هو مستحيل فعلـيّاً -إيقاف أن تتحوَّل النتيجة إلى 2- صفر- قام بونومي، بدلاً من تسجيل الهدف الثاني بنفسه، مثلما يستطيع ذلك بكل سهولة، بزلق الكرة عرضيَّـةً إلى ڤيرولينو حتى يتمكَّن هذا اللاعب الذي طال جلوسه في دكَّة الاِحتياط (والذي سوف يهبط عما قريب للَّعب في الفئة الأولى من دوري الدرجة الثالثة) من التنعُّم بلحظة من المجد.

وكان تقديري لبونومي كلاعب قد زاد خلال المباراة، ولكنَّ تقديري

له الآن كرجل قد ازداد بالقدر ذاته. لقد جاء هدفنا الثَّاني في الدقيقة الثامنة والتِّسعين في المباراة التي من المفترض أن تستمرَّ تسعين دقيقة. وكان تحقيق ذلك، بعد تلك الفترة الطويلة، بمثابة فضيحة. ولكنها كانت فضحية ذات نهاية سعيدة.

ولم تكد تسديدة ڤيرولينو تعبر خطَّ المرمى، حتى أطلق الحكم صافرة نهاية المباراة، ثمَّ ركض في النَّفق الذي سوف يقوده إلى غرفة تبديل الثياب الخاصة به، وإلى الباب الخارجيِّ، مغادراً تشيتي، قبل أنْ يلحق به أحد ويسأله، ربما بطريقة غير مهذَّبة، لماذا منح كريمونييسه ثماني دقائق غير مبرَّرة، بصورة واضحة، لتحقيق التَّعادل.

استغرقت دقيقتَيْن أو ثلاث دقائق حتى سكن غضبي وعاد إلى النقطة التي كنت قادراً فيها على إدراك ما قد حدث: لقد هزمنا كريمونييسه! يا إلهي! يا إلهي!

أثبت لوتِّي مرَّة أخرى في عصر ذلك اليوم أنَّه منيع ضدَّ الهجمات المتواصلة. لقد كان، دون أدنى شكٍّ، قلعتنا العظيمة، ولقد تمكَّنا في هذه الأوقات من هزيمة فريق لعب بدوري الدرجة الأولى في السنة الفائتة بفضل ما استلهمناه منه.

فهل من الممكن أن تحدث معجزة أخرى، معجزة أعظم؟

13
العناصر الثَّلاثة

بكلمة واحدة، لا. توجب علـيَّ العودة إلى الولايات المتَّحدة لأمور عائلية سوف تستغرق أكثر من أسبوعين. لا شيء خارجٌ عن المألوف، ولكنَّ ابني كان في سنته الأخيرة بالمدرسة الثانويَّـة، وقد بدأ بزيارة بعض الحُرُم الجامعيَّـة تمهيداً لاستكمال دراسته، وابنتي على وشك أن تضع مولودها الأوَّل في شهر ديسمبر، وبعض التفاصيل البيتيَّـة الكثيرة التي ينبغي بحثها مع نانسي وتذليل صعابها، لأستطيع انطلاقاً من تلك النقطة فصاعداً، البقاءَ في إيطاليا بقيَّـة الموسم، ما عدا عطلة أعياد الميلاد المجيدة.

لعبت الفرقة، في أثناء ذلك الوقت، ثلاث مباريات خسرتها جميعاً من دون تسجيل أي هدف.

باليرمو 3، كاستل دي سانغرو صفر
تشيڤو ڤيرونا 2، كاستل دي سانغرو صفر
كاستل دي سانغرو صفر، راڤينا 2 (أجريت المباراة في تشيتي)

وكنَّا قد هبطنا حين عدتُ، في 15 أكتوبر، من المركز الرَّابع إلى الرَّابع عشر.

خطَّطت الوصولَ إلى روما صبيحةَ الثلاثاء، عارفاً أنَّ الإثنين يوم عطلة لدى اللاعبين وأنَّهم سوف يرجعون إلى كاستل دي سانغرو للتدريب. فلقد أكَّد لي ياكوني على الهاتف أنه سيجعل أحد «الرُّوميِّيْن romanisti»[121]

يلاقيني في المطار، ولم أستغرب حين أنيطت المهمة بكريستيانو الصَّغير، الملقَّب بـ «ميمو»، وهو أصغر اللاعبين سناً وأقلهم خبرةً، لذلك فهو يحتل المرتبة الأخيرة في هرميَّـة التشكيل.

وكان كريستيانو، الذي ظلَّ واقفاً يبتسم ملوِّحاً عند بوَّابة الجمارك، بطول خمس أقدام وثماني بوصات فحسب [نحو 172 سم]، ويزن 135 باونداً [61 كيلوغراماً]. ولو قضيت بقيَّـة النهار واقفاً في مدخل المطار، وسألت ألف مواطن إيطاليٍّ أن يحزر مهنة هذا الفتى الذي يبلغ من العمر عشرين عاماً، فأشك أنْ يقول أحدٌ: «لاعب كرة قدم calciatore».

ولكنَّ ميمو كان لاعباً قديماً، لعب في فريق لاتسيو للشباب، ثمَّ انضمَّ وهو في السابعة عشرة إلى فريق لاتسيو للكبار؛ فظهر، بدايةً، على دكَّة الاحتياط، ثمَّ في المباراة النهائيَّـة لموسم 1995-96، إلى جانب لاعبين من أمثال بِبِّهْ سينيوري، هداف دوري الدرجة الأولى لثلاثة مواسم على التوالي؛ وپيرلوجي كازيراغي الذي لعب، على شاكلة سينيوري، في المنتخب الوطني؛ واللاعب الدولي الهولنديِّ آرون ڤنتر؛ والنجم الكرواتيِّ ألين بوكشيتش.

هذا بصراحة شيءٌ مذهلٌ، فقد كان هؤلاء اللاعبون من بين أولئك المفضَّلين لديَّ. كانوا يشكلون عصب فرقة لاتسيو القويَّـة في أوَّل مباراة لا تُنسَى، شاهدناها أنا ونانسي، في تصفيات دوري الدرجة الأولى بسان سيرو. وكان ميمو الصغير هذا قد لعب مع الفرقة ضدَّ سامپدوريا قبل أربعة أشهر من تلك المباراة!

ولم يكُن مُقدَّراً له بتاتاً الانتقال مباشرة من فريق الشَّباب إلى اللعب في دوري الدرجة الأولى، ولكنَّ حقيقة أنَّه حظي بشرف الظهور مرَّتين [ضمن تشكيلة فريق الكبار] قد أظهرت التَّقدير العالي الذي ناله. انضمَّ

في السنة الفائتة كلاعب احتياط إلى فريق البندقيَّـة بدوري الدرجة الثانية وكان أداؤه متواضعاً، ثمَّ جعله فريق لاتسيو، الذي كان لايزال يتحكَّم بعقده، متاحاً لفريق كاستل دي سانغرو، على أمل أن يلعب بانتظام ويكتسب بعض الخبرة التي مازال بحاجة إليها.

ولم يعرف، بالطَّبع، أنَّني قد سعيت إلى حثِّ ياكوني على السماح له باللعب ضدَّ كريمونييسه، ولكنَّه حلَّ مكان دي فابيو آخرَ ثلاثين دقيقة في پاليرمو في الأسبوع التالي، وعلى الرَّغم من سرعته في الدخول، فإنَّه لم يلعب جيداً. لقد كان فتى سريعاً وعدوانياً وعصبيَّ المزاج، يجنح إلى اللعب الطائش الذي غالباً ما يتجسَّد في شكل مخالفات خرقاء ومتهوِّرة تؤدِّي بدورها إلى تراكم سريع للبطاقات الصفراء، التي تؤدِّي بدورها إلى حرمانه من اللعب لفترات وجيزة ولكنها متكرِّرة جداً.

لكنَّه كان، خارج الملعب، ربما أمرحَ وأعذبَ شابٍّ في العشرين من عمره عرفته، مذ كنتُ في العشرين من عمري، على الرغم من أنَّني لم أستطع فهم سوى نحو 20٪ مما قاله. مازال ميمو يعيش في منزل والديه في روما، وكان والده، في الحقيقة، مَن أوصله بالسيارة في هذا الثلاثاء الماطر إلى كاستل دي سانغرو، رفقةَ جروٍ استجلبه معه كي يؤنسه.

وكان في السيارة أيضاً مدافع شابٌّ جديدٌ يدعى فابيو ريميديو، في العشرين من عمره أيضاً، لعب مع فريق روما للشَّباب خلال السنتين الماضيتين، ولكنَّه رفض أن يلتحق بفرقة تلعب بالفئة الثانية في دوري الدرجة الثالثة، كان فريق روما قد انتدبه إليها. بيد أنَّه قضى أوائل الخريف، عوضاً عن ذلك، في إجراء اختبارات تجريبيَّـة مع عدَّة فرق من ضمنها كاستل دي سانغرو.

ولقد شاهدته يلعب مباراة «وديَّـةً»، في منتصف الأسبوع، ضدَّ فريق ديليتانته المجاور، بعد بضعة أيام من مباراة فوجيا، فأثار إعجابي لذكائه، وصلابته، ورباطة جأشه، إلى الحدِّ الذي دفعني، حين سألني مدير الموارد البشريَّـة بفريق كاستل دي سانغرو -على سبيل المجاملة وليس انطلاقاً من اهتمام حقيقيٍّ- عن رأيي بالشبَّان الجدد الذين كانوا يختبرونهم في ذلك اليوم، إلى القول «لم يكُن المهاجم جيداً كثيراً، ولكنَّ ذلك الفتى المدافع قد أعجبني. إنَّه قوي وسريع، ومن الواضح أنَّه صاحب فكر جيد في هذه اللعبة، ويتمتَّع بشخصيَّـة مميَّزة؛ أستطيع أن أشمَّ ذلك من الدَّكة هُنَا».

فهزَّ مدير الشؤون الإداريَّـة رأسه. «نعم، حسناً، إن كان قد أعجبك إلى هذا الحدِّ، فيمكنك أن تدفع له، ثم أستطيع، حينئذ، أن أقدِّم له عقداً»، فضحكت قائلاً: «تحدَّث إلى السيِّد ريتسا عما أستطيع أن أدفعه وما لا أستطيع، ولكنني لو كنت مكانك لوقعت عقداً مع هذا الفتى غداً».

لقد كان هذا أوَّل تقرير اكتشاف مواهب جديدة لي، وآخر تقرير، كما يبدو. ولكنَّ «لا سُوتِشتَا» وقعت، بعد ثلاثة أيام، عقداً مع ريميديو، وعلى الرَّغم من أنَّني لم أعلمه بشأن حماستي المبكِّرة تجاهه، فإنَّني قد أبديت اهتماماً به منذ البداية.

أما هو، فقد أثبت على الفور أنَّه ربما أفضل أعضاء الفريق ثقافةً وأكثرهم موهبة على الصَّعيد الفكريِّ، على الرغم من أنه ليس أفضل لاعب. علاوة على أنَّ مظهره الأنيق الذي يشبه، إلى حدٍّ ما، مظهر الأمريكان ذوي الثياب الفاخرة، ما يجعله يبدو في زيِّه الجينز «ماركة سوڤيت» كأنَّه موجود بين أقرانه في حرم جامعة برنستن.

لقد انتقل مع كريستانو وبيوندي البالغ من العمر تسعة عشر عاماً، فكانوا بمثابة «الفرسان الثلاثة» داخل إطار الفرقة الأوسع. وكان هؤلاء الثلاثة جميعاً سريعي البديهة، يحترمون اللاعبين الأقدم، ومثابرين، تملؤهم تلك الرغبة الواضحة بالاستمتاع المرح بمباهج الحياة لكونهم متحرِّرين، يفعلون ما يحلو لهم بالضَّبط، ويؤمنون (ليس دون سبب تماماً) أنَّهم على أعتاب مسيرة مهنيَّـة ناجحة.

وبمجرَّد أن وضعنا أمتعتي في السيارة وتعرَّفت إلى الجرو وناور والد كريستيانو لإخراجنا من معمعة مطار فيوميتشينو، لم أضيِّع وقتاً في السؤال عما حدث [بشأن خسارة الفريق].

فقال كريستيانو «كل شيء».

أما ريميديو، الذي يتكلم إنكليزيَّـة بدائيَّـة، فقد كان أكثر احتراساً. قال: «أنا جديد هنا»، وعيناه الزرقاوان الصافيتان تعكسان صدقه. «لا أفكِّر الآن إلا في أن ألعب بشكل جيد أثناء التَّدريب كي أبقى. حتى إنَّني لم أكن على دكَّة الاحتياط في تلك المباريات الثلاث».

«والاستاد»؟

نظر اللاعبان بسرعة، بعضهما إلى بعض، ثم هزَّا رأسيهما.

فقلتُ: «لا شك أنَّه سيكون جاهزاً لمباراة پادوڤا في غضون أسبوعين».

ثم هزَّا رأسيهما، مرَّة أخرى، دون أن ينبسا ببنت شفة. وأخيراً قال ريميديو «نذهب لرؤية الاستاد في كل يوم. ليس ممكناً».

«ألم يبدأ العمل بعد»؟

«أوه، نعم. بدأ العمل. ولكنَّه ليس كبيراً، أو سريعاً. يحضر السيِّد ريتسا في كل يوم وينظر، ويحضر السيِّد غراڤينيا وينظر، ثمَّ يدخِّنان ولا يتكلمان وينصرفان».

كان مطرٌ باردٌ ينهمر حين وصلنا كاستل دي سانغرو. انتقلت إلى شقَّتي الجديدة بمساعدة كريستيانو وريميديو في غضون دقائق.

وكي أضفي على غرفة المعيشة أجواء عائلية، أحضرت معي جزءاً كبيراً من مجموعة أوشحة الفرق من جميع أنحاء العالم. سأبدو غير مخلص حين أعلِّق أوشحة فرق أخرى تلعب في دوري الدرجة الثانية، ولكن حتى دون تلك الأوشحة، سيكون لديَّ ما يكفي لملء كل بوصة فارغة على الجدران. بروسيا دورتموند، وريال سرقسطة، ونوتس كاونتي، وبايرن ميونخ، وأولمبيك مارسيليا، وريال مدريد، ونابولي، وفيورنتينا، والأرسنال، وبرشلونة، وسان إتيان، وساو باولو، إلخ.. إلخ.

بدأتُ عملية تعليقها بعد وقت قصير عقب عودتي من تناول الغداء بمطعم مارتشيلَّا، عارفاً أنَّها لن تستغرق أكثر من ساعتين أو ثلاث، ولكنَّني حِرت حين سمعت في اليوم التالي أنَّ ياكوني كان يتذمَّر من أنَّ جاره الجديد قد أبقاه سهران طيلة الليل بطرقه ودقِّه المتواصل على الجدران.

لكنني اكتشفت أنَّ الأمر صحيح حين ذهبت لتناول العشاء.

فلم تكد قدماي تطآن مطعم مارتشيلَّا، حتى صرخ عليَّ «بووم!.. بووم!.. بووم!»

«أنا آسفٌ، يا أزڤالدو، ولكن-»

«بووم!.. بووم!.. بووم! لا هيپ هوپ. لا راپا. بووم! بووم! بووم!»

جلست في مقعدي المعتاد على الطاولة، «أنا آسف، يا أزڤالدو، ولكن-

«كفى!» لوَّح بذراعه نحوي. لا تفعلها ثانية أبداً! هل تفهم؟

نعم، ولكن»

«كفى!» ثم أشار إلى طبق السباغيتي الذي وُضع أمامي.

«كُل».

نظرتُ إلى الطبق، ثم نظرت حول الطاولة إلى اللاعبين الذين كانت ترتسم على وجه كل واحد منهم ابتسامة عريضة، محاولين كبت ضحكاتهم.

تكلم دانجلو في آخر المطاف، قائلاً: «لا بأس يا جُو! لقد صاح السيِّد أخيراً على أحد غيرنا».

فانفجر بالضحك جميع الجالسين على الطاولة، حين قال ذلك. وانضمَّ إلينا ياكوني قائلاً، وهو يبتسم ويميل نحوي ويشدُّ على كتفي: «لا مشكلة، لست غاضباً، ولكن ماذا كنت تفعل بحقِّ الجحيم»؟

فقلت: «لديَّ أوشحة عديدة لفرق مختلفة». وكنت قد استخدمت، هذه المرَّة أيضاً، أقصى قدراتي اللغويَّـة، ربما كنت مفهوماً، ولكنني لم أستطع أن أشرح بالإيطالية أنَّني كنت أعلقها في كل مكان على الجدران. ولقد أنقذني كريستيان، كالعادة، إلى الحدِّ الذي جعل ياكوني يصرُّ على أن أريها له بعد الغداء مباشرة.

دلف ياكوني إلى غرفة المعيشة، ونظر إلى صخب الألوان واللغات المعلقة عامودياً من خطِّ السقف تقريباً، ثم ذرع زوايا الغرفة الأربع على مهله، كأنَّه في متحف. ونظر إلـيَّ، صافراً بنعومة، وهزَّ رأسه رويداً من جانب إلى آخر، ثم خرج دون أن ينبس ببنت شفة.

لم أعرف إن كان قد تأثر أم بدأ يخشى احتماليَّةَ أن أكون غير متوازن على نحو خطر. فهو لم يعرف أمريكياً قَطُّ من قبل، ومما لا شك فيه أنَّني لم أُوافق الصورة النمطيَّة التي في باله.

واصل المطر الانهمارَ، فانخفضت درجة الحرارة إلى الأربعينيَّات[122]. كان ملعب التدريب مستنقعاً. عُلِّقت جميع تدريبات كرة السلَّة[123] حتى يتحسن الطقس. ولكن لديَّ تدفئة على الأقل، بوركت التدفئة! (على الرَّغم من أنَّني سألاحظ، حين اشتدَّت برودة الجو، أنَّ الحرارة تصل في تمام الساعة الثامنة صباحاً لخمس عشرة دقيقة، ثم تصل ثانية في تمام الساعة الثامنة مساءً وللمدَّة الزمنيَّة ذاتها. أما قبل ذلك، وفي غضون ذلك، وبعد ذلك، فلا فرق بين هذه الشقة وفندق كوراديتي. وحين علَّقت على الأمر أمام ياكوني، قال: «أجل، لقد كان رائعاً: يا له من تحسُّن فاق ما كان في السنة الفائتة!».

وبِتُّ أكتشف، كلما طال مكوثي في الشقة، حاجتي إلى شراء المزيد من الحاجيَّات. يمكن إحضار معظم هذه الحاجيَّات من سوق «آكْوَا & سَبُونِهْ» [ماء وصابون] القريب (وهو واحد من سلسلة متاجر محليَّة تبيع جميع السِّلع المتعلقة بالصابون والماء). لديهم مجموعة كاملة من مستحضرات التجميل، ومعجون الأسنان، والشَّامبو، وكريم الحلاقة، ولكن لا شيء مما يُفترض أن يُبلَع. هكذا، وحين أدركت أنني قد نسيتُ أن أحضر من أمريكا مؤونتي العاديَّة من دواء «المالوكس»، ذهبت إلى صيدليَّة قريبة بدلاً من هذه السُّوق.

دخلت بعد ساعة مطعم مارتشيلّا لتناول الغداء. وما كادت تراني حتى أشارت إلـيَّ بإصبعها متَّهمةً، ثم قالت: «مالوكس!» «مالوكس!». سيظنُّ جميع سكَّان كاستل دي سانغرو الآن أنَّ طعامها كان يسبِّب لي حرقة في المعدة.

حاولت أن أؤكِّد لها أنَّها ليست الملامة بأي حال من الأحوال، فأنا أشرب المالكوس حتى في أمريكا كأنَّه عصير برتقال، وأفعل ذلك منذ سنين؛ إنَّه جزء من كوني «كاتباً»، ثم تساءلتُ، حينئذ، كيف عرفتْ بشأن المالوكس؟

حسناً، ما الذي خطر ببالي حينئذ؟ لقد هاتفتها الصيدليَّـة حال مغادرتي. «لقد كان الأمريكي هنا لشراء المالوكس يا مارتشيلّا. لا بُدَّ أن تنتبهي لما يأكله على نحو أكثر!»

وأخبرتني، متسامحةً، بوجود صيدليَّتَيْن في البلدة. الصيدليَّـة التي ذهبتُ إليها تخبر الجميع بما اشتراه كل زبون بالضَّبط، أما الصيدلة الأخرى فلا تفعل، ثم قالت بضرورة أن أذهب إلى الصيدلية الأخرى لو احتجت إلى شيء «خاصٍّ»، على الرغم من أنَّ صوتها قد حذَّر بأنَّها سوف تتكدَّر بالفعل إن تبيَّن أنَّني أحتاج إلى خصوصيةٍ صيدلانيَّـة لأي سبب كان.

دعاني ياكوني، بعد عشاء تلك الليلة، إلى شقته. لقد كنت غائباً لثلاث مباريات، وتدهورت الأحوال واشتدت سوءاً، فكان من المهمِّ -كما قال- أنْ أفهم بعض الحقائق.

حافظ على بساطة مفرداته، وكنت قادراً على فهم النقاط الرئيسة التي أثارها. وبدت المسألة الأهم، من بين تلك النقاط، تتمحور حول أنَّه لن ينجح في كاستل دي سانغرو إلا اللاعبون الذين يتمتَّعون بقَدْر فائق من

العزيمة والالتزام؛ فالبلدة ذاقت أوجهاً عدَّة من الفاقة والحرمان ولم تشهد الفرح واللهو. ولا بُدَّ أن تكون الكالتشيو، في كاستل دي سانغرو، حياتَك لا مهنتك فحسب. تقدِّم المدن الأخرى طعاماً أفضل، ومزيداً من النساء، والحكايات، ودور السينما، وطُرقاً أفضل للوصول إلى مناطق أخرى من البلد. أما كاستل دي سانغرو، فليس لديها سوى الشتاءات الباردة الطويلة، ومطعم مارتشيلّا، والأجور المتدنيَّـة.

وربما تزداد الأمور سوءاً لو كنت متزوِّجاً، فمن الصعب العثور على مسكن جيد، وستكون زوجتك معزولة لفترات طويلة رفقة بضع أصدقاء يؤنسون وحدتها، وسوف يقضي أطفالك الكثير من الوقت داخل البيت بسبب الأمطار، والثلج، والبرد.

بيد أنَّك لو اخترت القدوم، فمن الأفضل أن تتعلَّم كيف تحبُّها بسرعة. فلا وقت لدى ياكوني من أجل اللاعبين التُّعساء. فيكفي لاعب واحد كي ينشر مرضه كالإنفلونزا، ثمَّ سرعان ما يبدأ الفريق برمَّته بالتذمُّر حول أمر واحد، ثم آخر، وهكذا دواليك.

ولا يمكن السَّماح بذلك بتاتاً، بصرف النظر عن الموهبة التي قد يتمتَّع بها اللاعب. فالموهبة تُعَدُّ، بالنسبة إلى ياكوني، العنصرَ الأقل أهميَّـة من بين عدَّة عناصر أخرى. فلا بُدَّ أن تتوافر «الشخصيَّـة il carattere»، أوَّلاً، ثمَّ «الذَّكاء la mentalita».

قال ياكوني إنَّ لاعباً نجماً، موهوباً في تسجيل الأهداف، قد يلحق الضَّرر بالفريق بدلاً من أن يساعده. ففجأة، يغدو هذا اللاعب بعينه أهم من الآخرين. ولا بُدَّ من إعادة ترتيب كل شيء وفقَ هواه: التَّكتيكات، وإجراءات التدريب، وحتى أوقات وجبات الطعام.

ولن يسمح ياكوني بهذا الأمر، فلا يمكن إلا أن يكون شخص واحد مهمٌّ؛ قائد واحد، صوت واحد تُنفَّذ أوامره بلا تردد أو نقاش. ولا بُد لهذا الشَّخص أن يكون «المدرِّب allenatore».

لقد كان اللاعبون الموهبون يميلون إلى الاعتقاد أنَّهم إذ يمتلكون مهارات بدنيَّـة، فهم بالضرورة أذكياء. وكان من الخطر أن يعتقد اللاعب أنَّه ذكيٌّ، فسرعان ما سوف يعتقد أنَّه أذكى من المدير الفنيِّ. فتوجيه سؤال إلى ياكوني، من قبيل: «لِمَ نفعل هذا الأمر بهذه الطريقة، وليس بتلك؟» كان كفيلاً بأن يطرد اللاعب إلى خارج البلدة دون رجعة. فمن الواضح أنَّ «الذَّكاء» [بالنسبة إلى ياكوني] يعني أن تكون ذكياً بما يكفي لتعرف أنَّك غبيٌّ.

وكي تلعب لدى ياكوني، فلا بُدَّ أن تمتلك «الجسارة il cuore»، و«الشجاعة il coraggio»، و«العزيمة la grinta». ولن تتمكَّن من الفوز لأنَّك الأفضل، بل تستطيع الفوز حين تكافح بعزم، ولأنَّ ياكوني مديرك. فالفريق يأتي قبل الفرد، ولكنَّ الفريق لم يكن في كاستل دي سانغرو مجرَّد فريق، بل عائلة. ولهذا تأكل العائلة بعضها مع بعض في كل نهار وفي كل ليلة. وهكذا، لا بُدَّ أن تكون العائلة قريبة على الدَّوام ومستعدَّة دائماً كي تنصت إلى الأب. ولا بُد للمتزوِّجين أن يفهموا ذلك، أيضاً. لهم زوجاتهم، ولهم أطفالهم، ولكنَّ عائلتهم الحقيقية كانت كالتشيو كاستل دي سانغرو.

ولقد سمعني وأنا أتحدَّث بإعجاب عن باجيو، فظنَّ أنَّ من الأفضل أن يصارحني بالحقيقة: لو أنَّ المهارة الفنيَّـة، أو الألمعيَّـة، أو الذَّوق، هو ما أبحث عنه، فلا بُدَّ أن أذهب على الفور إلى مكان آخر. سيكون الموسم

في كاستل دي سانغرو تسعة أشهر من حرب الخنادق. لقد كانت الطريقة الوحيدة التي يعرفها ياكوني والطريقة الوحيدة التي رغب في أن يعرفها. فكاستل دي سانغرو، بالنسبة إلى أولئك الذين تجذبهم الأناقة وأولئك الذين يحتاجون إلى الفُرجة، هي بكل بساطة العنوان الخطأ.

وهكذا، غدت آصرة الجيرة متبادلة حين بدأت بالتساؤل، مثلما فعل هو معي، إنْ كان عبقرياً غريب الأطوار أم مجرَّد رجل مجنون مطلق السَّراح.

ولم يكد الهاتف يركب -كان وقت الانتظار الطبيعيِّ يتراوح بين ستة أسابيع إلى ثمانية، بَيْدَ أنَّ الهاتف قد وصل في اليوم الذي تلا وصولي، فالشقة يمتلكها السيِّد ريتسا- حتى تلقيتُ مكالمة من باربرا صبيحةَ يوم الجمعة.

قالت: «لا يكفُّ أصدقائي عن قول شيء واحد أعتقد ضرورة أن أخبرك به، فهو ربما، لو كان صحيحاً - ولا أعرف إن كان كذلك- يفسِّر ما يجري بشأن الاستاد الجديد».

«ما هو»؟

«يقول أصدقائي إنَّ السيد ريتسا لا يرغب في أن يوجد في دوري الدرجة الثانية، فالأمر مكلف جداً، ويجذب كثيراً من الانتباه إلى الأعمال التي تقوم بها «لا سوتشتا». فهو، كما أعرف، لا يحبُّ جلب الانتباه إلى أعماله. لقد كان أكثر ارتياحاً بالخصوصيَّة التي وفرها اللعب في دوري الدرجة الثانية، إذ لم يعرف الغرباء أي شيء، ولم يكترثوا لمعرفة أي شيء».

«وماذا بعد»؟

«هو يظنُّ أنَّ الفريق ليس بالمهارة الكافية للَّعب في دوري الدرجة الثانية. وإن كان ليس راغباً في صرف الأموال على شراء لاعبين جيدين،

فَلِمَ يصرفها أصلاً على تشييد ستاد ضمن معايير دوري الدرجة الثانية؟ وهو بلا ريب لن يقوم بالأمرين على حدٍّ سواء».

«أتقصدين أنَّه لا يخطِّط للانتهاء البتَّة من تشييد الاستاد»؟

«كلا، يا جو. ما أقوله مجرَّد إشاعة. ولا أقول لك إنَّها الحقيقة. ولكنَّ أصدقائي يقولون ربما كانت هذه خطَّته حتى وصلت أنت بكل أسئلتك، وخططك لهذا الكتاب الذي ربما سوف ينشر في عدَّة بلدان، حيث سيقرأ النَّاس حول كاستل دي سانغرو.

فهذه المسألة تشكل معضلة، بالنسبة إلى السيِّد ريتسا؛ ففي حين لا يرغب في صرف الأموال، وربما لا يرغب في البقاء بدوري الدرجة الثانية، فإنَّه راغب في الحصول على «رقم جميل bella figura» من مبيعات كتابك، ولذلك لن يقول النَّاس: «أوه، لقد كان ذلك العجوز ريتسا في غاية الجشع لدرجة أنَّه لم يبن استاداً لفريقه».

«ولهذا سوف يعمل على الانتهاء منه»؟

«لا أحد يعرف، ولكنَّ الأمر محتمل الآن. ولكنَّك قد أثرت مشاكل أخرى. ما الذي قد تضعه في كتابك، على سبيل المثال؟ فلقد كان السيِّد ريتسا مستاءً من غابرييل حين سمح لك بالقدوم إلى كاستل دي سانغرو دون استشارته مسبقاً».

«يسمح؟ ولكنَّه لم يكن قادراً على منعي».

«لو قال السيِّد ريتسا، في هذه البلدة الصغيرة، يا جُو، إنَّك لست موضع ترحيب، فإنَّ حياتك ستكون في غاية الصعوبة وغير سارَّة، وسرعان ما سوف تقرر العودة إلى وطنك».

«ولكن ذلك لا يحدث»؟

فصحَّحتني قائلة: «لم يحدث ذلك بعد»، «ولكن تذكَّر: الموسم طويل وشاقٌّ. يكمن التعقيد الآن في أنَّ السيد ريتسا يجدك مُسلياً. هو يعتقد أنَّك تمتلك -ما هي الكلمة- الجرأة لتقول ما تعتقد به، حتى له، وهو أمر لم يفعله غيرك قطّ».

«نعم، والفضل يعود إلى شراب الغراپا الذي قدَّمه».

«ويقال إنَّ غراڤينيا، في المقابل، ندم على كل شيء، وإنَّه آسف لأنَّك هنا. هكذا تقول الإشاعة. لم يقل غابرييل ذلك لي. فما الذي سيحدث تالياً؟ من يعرف؟ لو أشيع في كاستل دي سانغرو أنَّك تروق للسيِّد ريتسا، فسوف تحظى بكثير من الحرية لفعل أشياء عديدة. إنَّك- كيف يمكن قول ذلك؟ إنَّك تحت حمايته».

«ولكن إن غيَّر رأيه...»

«آه! سوف يحصل السيِّد ياكوني عما قريب على جار جديد. ولكن في الوقت الحالي فإنَّ الكرة تدور لصالحك. أليس كذلك؟ استعارة رياضيَّـة؟».

«حسناً، ليس الأمر عظيماً، لكنَّني أعرف ماذا تقصدين».

«يكفى في المرحلة الحاليَّـة أن يبتسم لك السيد ريتسا. دعنا نأمل أن يستمرَّ في ذلك».

«نأمل؟ أودُّ، في هذه الحالة، يا باربرا، أن أقول: دعينا نُصلِّ».

14
اللاَّعب الثَّاني عشر

لم تُؤثِّر الأصوات التي تعالت خلف أبواب «لا سوتشتا» الموصدة في موقف ياكوني تجاهي، ولا حتى في موقف اللاعبين. بدا كأنَّ اعتقاداً ساد، في أثناء غيابي، أنَّني قد أكون تميمة تجلب الحظَّ السَّعيد. ولعلَّ ياكوني، لهذا السَّبب وليس على سبيل المجاملة فحسب، قد دعاني إلى الركوب في حافلة الفريق المتوجِّهة شمالاً لخوض مباراة إمپولي.

ولقد تعزَّز هذا الانطباع حين شاهدت حكاية جوزبِّه في صحيفة «إل تِشنْترُو» صبيحة السَّبت. بنى مقالته، تحت عنوان أبدى اهتماماً بعودتي، حول حقيقة أنَّ الفريق قد فاز بمباراتَيْن حين كنت موجوداً، في حين خسر المباريات الثلاث التي خاضها، عندما كنت غائباً. كتب قائلاً: «ولذلك، سيكون لدى ياكوني، في إمپولي، لاعبٌ إضافيٌّ».

غالباً ما قرأت حول وصف الجماهير المحليَّة المحتشدة بـ «اللاعب الثاني عشر»، بسبب التأثير الذي تمارسه حماسة الجماهير على الفريق (بالإضافة إلى طرائق الترهيب التي تمارسها على الحكم والفريق الخصم على حدٍّ سواء)، ولكنني لم أشاهد من قبل فرداً تُضفَى عليه مثل تلك القوة. فحين يبدأ الناس بالإيمان بالمعجزات، لا نعرف المدى الذي يمكن أن يذهبوا إليه.

كانت الحافلة ستغادر في الساعة 9 صباحاً. فخرجْتُ الساعة 8:45، عازماً على مشي المسافة التي تستغرق ثماني دقائق من شقَّتي إلى نقطة

المغادرة التي كانت موقف السيَّارات خارج الاستاد الجديد الذي لم يكتمل بعد. ولم أكد أبدأ، حتى ظهرت سيارة قديمة وبالية ثم أبطأتْ سرعتها حتى توقَّفت، فلوَّح لي سائقها، فوسكو، كي أصعد.

كان هواء الصباح مُنعشاً، والسَّماء زرقاء صافية إلى حدٍّ بعيد، بعد أسبوع من البرد والمطر. صعدت إلى المقعد الأماميِّ بسيارة فوسكو، ملاحظاً أنَّه قد فتح صحيفة «إل تِشنْترُو» على الصَّفحة التي توجد فيها حكاية جوزبّه.

وقال: «لم تَعُدِ الكاتبَ الأمريكيَّ فحسب، وإنما اللاعب الثاني عشر، أليس كذلك»؟ وكي يتواءم مع نفسيَّته في الصباح، لم يتبسم.

فقلت: «يبدو ذلك»، ثم تبسمت قائلاً: «ولكن، أين سألعب»؟

فقال فوسكو، وهو يتظاهر -وقد أملت على الأقل في أنَّه كان يتظاهر- برزانة بالغة: «يمكنك أن تلعب مكاني إن شئت»، ثم تنهَّد عميقاً، ونحن ندخل موقف السيَّارات، وهزَّ رأسه، وتعابير فمه تفصح عما أدركت للتوِّ أنَّها طريقته النابوليَّـة النموذجيَّـة في التعبير عن الشَّك وعدم الثِّقة.

ثم قال: «الأمر يزداد سوءاً على سوء»، ولكنَّني شكرته بكل بساطة على التَّوصيلة، دون أن أدري إن كان يشير إلى «تقرير» جوزبِّه في «إل تِشنترو»، أم أنَّ الأمر يتعلَّق بمسائل على نطاق أوسع تخصُّ الفريق، أو ربما خصت حياته ذاتها، وقلتُ إنَّني سوف أراه في الحافلة.

شدَّ على كتفي وأنا أهمُّ بالخروج من السيارة، وهي لفتة ملتُ إلى تأويل أنَّها تعبير عن التَّضامن. ولأنني لم أكن حاضراً خلال الهزائم الثلاث المتتالية، الخالية من الأهداف، فإنَّني لم أكن متأكداً تماماً من الحدِّ الذي تدنَّت إليه معنويَّات الفريق.

كان موقف السيَّارات مزدحماً بالزَّوجات، والخليلات، والأصدقاء الآخرين، وجموع المودِّعين الذين قدموا للتَّعبير عن تمنياتهم بالتَّوفيق والخير. لم يحلق أغلب اللاعبين ذقونهم، مرتدين نظَّارات شمسيَّـة وثياباً عاديَّـة غير رسميَّـة أو بدلات رياضيَّـة، وحاملين الصحف والمجلات وزجاجات المياه أو العصير. ركبوا الحافلة بسرعة، وبعضهم يثرثر إلى بعض، مُعلِّقين -مما استطعت استنباطه من نبرة الصوت وردود الأفعال- بطائفة من الأقوال المبهجة المتحذلقة، ثم أسرع المسؤولون عن المعدَّات في رصِّ حقاب السفر الثقيلة تحت الرفِّ، الذي يضمُّ البدلات الرسميَّـة الرماديَّـة والقمصان الزرقاء وربطات العنق المقلَّمة التي سوف يرتديها الجميع حال وصولنا إلى الوجهة المقصودة، وفي المساحة التي بجوار الرفِّ أيضاً.

لم يعرف جميع اللاعبين مسبقاً أنَّني سوف أنضمُّ إليهم، ولكنَّ الذين تفاجأوا بدوا مسرورين لذلك، ما عدا لاعب خطِّ الوسط روبيرتو ألبيرتي، اللاعب الوحيد الذي أوضح منذ البداية أنَّه كان يتمنَّى لو أنَّني لم أسمع بكاستل دي سانغرو قَطُّ.

كان ألبيرتي، الذي يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً، أقدم أعضاء الفريق، وأقصرهم أيضاً، على الرَّغم من أنَّ فوسكو وميكليني يكادون يضاهونه في الطُّول إلى حدٍّ ما. وكان، بوزنه البالغ 140 باونداً [نحو 63 كيلوغراماً]، الأخفَّ وزناً، في حال استثناء كريستيانو. وبدت تقاسيم وجهه محيِّرة على الدَّوام؛ فهو لم يرفع صوته قط، لا في الملعب أو خارجه؛ ومثلما لا يستطيع واحد من أصل ألف أن يحزر بأنَّ كريستيانو لاعب كرة قدم، فإنَّني أراهن أنَّ واحداً من أصل عشرة آلاف لا يستطيع أن يخمِّن أنَّ

ألبيرتي كان على وشك أن يخوض موسمه الثامن عشر في هذه اللعبة.

لقد قضى معظم مسيرته المهنيَّة في الفئة الأولى بدوري الدرجة الثالثة، وكان الكثيرون، ومن ضمنهم أنا، قد تساءلوا إن كان يستطيع، وهو في الخامسة والثلاثين، تحقيق معايير اللياقة البدنيَّة لدوري الدرجة الثانية. ولكنَّ ياكوني كان من بين أهمِّ داعميه، مفسِّراً الآراء الأخرى على أنَّها جدليَّةٌ ومحلُّ أخذ وردٍّ. فلقد أكَّد لي ياكوني عشر مرَّات على الأقل منذ وصولي أنَّ مفهوم «الذكاء» متجسِّد في ألبيرتي القصير.

ولقد وُلد، مثل كثير من أعضاء الفريق، قرب الساحل الإدرياتيكي في إقليم ماركي. ولم يُسجِّل في الـ261 مباراة التي خاضها بالفئة الأولى في دوري الدرجة الثالثة سوى سبعة أهداف، ولذلك فلا بُدَّ أنَّ قوته الذهنيَّة هي التي مكَّنته من البقاء في المقام الأول. ومن غير المدهش أنْ يستطيع اللعب تسعين دقيقة كاملةً دون أن يلحظ أحدٌ وجوده في أرض الملعب، ثم يتبيَّن -خلال مشاهدة شريط المباراة لاحقاً- أنَّه اللاعب الوحيد، في كلا الجانبَيْن، الذي لم يرتكب ولا حتى خطأً واحداً.

لم يكن ضخماً، لقد كان قوياً وسريعاً، ولكنَّه لم يشاهد خارج موقعه بتاتاً، وحين تكون الكرة في حوزته -بصرف النظر عن الضغط الذي يكون رازحاً تحته- لا يفزع إطلاقاً. لديه قدره مذهلة على التحليل العقلانيِّ لخياراته المتاحة، لاختيار الأفضل دائماً، كلاعب شطرنج جهبذٍ. ناهيك عن أنَّ ألبيرتي كان، في أكثر الأحيان التي لا يتوقَّعها المرء، هو من سينتزع الكرة من الخصم المهاجم دون أن يرتكب مخالفة.

وبما أنَّ أسلوب مقاربته العقلانيِّ للُّعبة قد غدا محطَّ تقديري، فإنَّني قد هيأت نفسي تماماً لأغدو من مشجعيه الشخصيين المتحمِّسين، ولكنَّ جميع

المحاولات التي بذلتها للتحدث معه انتهت بالرَّفض. لم يكن في حاجة إلـيَّ، إذ فضَّل أن أكون في مطرح آخر، وكان يواصل شأنه اليوميَّ وهو لا يكاد يومئ نحوي إيماءة تقدير إلا بشقٍّ الأنفس.

وحين وجدني في الحافلة جالساً بالجهة المقابلة له، تفرَّسني بعينيه الزرقاوين الشاحبتين، ثم أشاحهما مركِّزا اهتمامه على صحيفة «إل كُرِّيره دِلَّا سِيرَا»، الصحيفة القوميَّـة التي تُنشر في ميلانو، والتي غالباً ما تُعَد، رفقةَ صحيفة «لا ريبوبليكا» التي تصدر في روما، أفضل صحف إيطاليا.

وكان ألبيرتي حين يحظى بصحيفة حيقيقيَّـة بين يديه، فإنَّه بخلاف زملائه في الفريق لا يقلب الصفحات مباشرة على القسم الرياضيِّ، بل يقرأ الصحيفة بمنهجيَّـة من الصفحة الأولى حتى الأخيرة، مكرِّساً وقتاً كثيراً واهتماماً بالغاً بالأحداث التي وقعت في اليوم السَّابق في مداولات البرلمان والبورصة، على الشاكلة التي يفعلها مع التقارير المتعلقة بالأزمات الجديدة التي يتعرَّض لها نادي إيه. سي. ميلان.

انطلقت الحافلة سريعاً، لم يكُن ياكوني من طينة الرجال الذين يقصدون 9:05 حين يقول الساعة 9 صباحاً. إنَّ مغادرةَ كاستل دي سانغرو، بالتضاريس المذهلة التي تحيط بها، في صبيحة يوم خريفيٍّ وأشعة الشمس السَّاطعة تنهمر سيَّالة من أشدِّ السماوات زرقةً وصفاءً شاهدتها في حياتي قطُّ، تذكرني للوهلة الأولى بالمناظر الخلابة في ألاسكا التي قضيت فيها سنة ذات مرَّة، ثمَّ بجبال روكي الكنديَّـة.

لم يغب هذا المشهد عن بالي طيلة الموسم بتاتاً، ولم يكفَّ قَطُّ عن إثارة شجوني، مبهوتاً على الدَّوام بعدم تصديق ألا يكون ثمَّة دليل سياحيٌّ في

أي مكان قد ذكر جبال أبروتسو بوصفها مكاناً خلّاباً لا يقلُّ في فتنته عن جبال دولوميت الذائعة الصِّيت في الشمال الشرقيِّ.

ولقد شاهد اللاعبون كل ذلك مِن قَبْلُ، بالطَّبع، مع احتماليَّـة استثناء الشاب ريميديو الذي كان يحدِّق من النافذة، ويبدو مصعوقاً مثلما كنت أنا. كانت الرحلةُ بالحافلة، بالنسبة إليهم، مجرَّد رحلةِ حافلة؛ جزءاً ضرورياً من العمل حتى لو لم تكُن ممتعةً على وجه الخصوص.

وسرعان ما انهمكوا في أشياء تُسلِّيهم على الأرجح، أهمُّها لعب الورق وقراءة كتب الحكايات المصوَّرة ذات المفاهيم العالية التي تصور مغامرات الشَّخصيَّتَيْن الإيطاليَّتَيْن المعادلتين لسوبرمان وباتمان: ديلان دوغ (الذي لم يكُن كلباً بل رجلاً) وديابوليك (الذي عملَ، حصرياً، لدى قوى الخير، على الرَّغم من اسمه المشؤوم).

ولا بُدَّ من القول إنَّني أيضاً بدأت في الاستمتاع بهذه الحكايات، لأنَّني وجدت مفرداتها قابلة للفهم في المقام الأوَّل، ولاسيَّما حين تصاحبها الصور علـى الأقل. فلولاها لما عرفت، على سبيل المثال، أنَّ عبارة: «فيُورِي كُن لِي مَانِهْ آلْتْسَاتِهْ» تعني: «اخرج ويداك مرفوعتان في الهواء!»، ولكنني حين شاهدت العبارة مصحوبة برسمة تضمُّ ستة رجال يصوِّبون رشَّاشاتهم على سيارة واقفة يحيط بها أربعة آخرون، فهمت المغزى.

مضى علينا نصف ساعة فـي الطريق حين نهض جياكومو غالي من المقعد الذي يجلس فيه أمامي، ورأسه يرتعش، ومشى إلى مقدمة الحافلة. لقد شفي كاحل غالي، وأعيد إلى تشكيلة الفريق قبل أسبوعين، محلَّ بستلَّا صاحب الإنجازات المتدنية، ولكنَّه لم يقدح شرارة اللعب بعد.

بيد أنه كان المسؤول في الحافلة عن أكثر الأشياء أهميَّة في الرِّحلة: أشرطة الڤيديو. فعلى شاكلة دي يوليس في استنشاق الجبنة بمطعم مارتشيلا، كان غالي يفرز أشرطة الڤيديو المتوافرة حالياً في الذاكرة المؤقَّتة المخزَّنة بالحافلة ويعد برنامج اليوم الترفيهي.

أُصدرتْ الأوامر بإسدال جميع ستائر النَّوافذ، ثم دوَّى صوت أعلى مما بدا ممكناً عبر السَّماعات التي ظهر أنَّها موجودة مباشرة فوق كل مقعد.

وكان خيار غالي فيلم «كونغو»، مُدبلجاً إلى الإيطالية، بالطَّبع. واصل اللاعبون في مؤخرة الحافلة لعب الورق، كأنَّهم محصَّنون على نحو ما ضدَّ دويِّ الصَّوت المنبعث من السَّماعات وغير مُهتمِّين على وجه الخصوص بتهريج غوريلات متحوِّلة جينياً.

انصبَّ اهتمام الموجودين في منتصف الحافلة حتى المقدمة، باستثناء ياكوني، على الشاشات الصغيرة المثبَّته أمامهم، التي عرضتْ صورةً في غاية الرداءة، إلى درجةٍ جعلت التَّمييز بين الغوريلَّا والفتاة أمراً صعباً. أما ياكوني؛ المسافر القديم بالحافلات النهاريَّة والليليَّة قبل وقت طويل من اختراع أشرطة الڤيديو، فقد أصرَّ طيلة الوقت على إبقاء عينيه مغمضتَيْن، وذراعيه مطويتَيْن على صدره، وفمه مفغوراً قليلاً، كأنَّه بخير وغارق في النَّوم حقاً.

كانت وجهتنا ضواحي فلورنسا، وهي رحلة تستغرق خمس ساعات في سيارة تسير بسرعة أقل من انتحاريَّة (السرعة التي يقود بها الإيطاليون، على سبيل المثال). ولكنها تستغرق في الحافلة تسع ساعات، لأنَّ جميع الحافلات في إيطاليا قد جُهِّزت -في خطوة حكوميَّة من الواضح أنَّها الأولى والوحيدة التي اتُّخذتْ في اتِّجاه السلامة على الطرق السريعة- بأجهزة تحدِّد السرعة القصوى، فلا تتجاوز 100 كيلومتر في الساعة (60 ميلاً في الساعة).

هكذا، كان غالي قادراً على عرض شريطَيْن كاملين قبل أن نتوقف لتناول الغداء. وكان فيلم «الكونغو» قد أعقبه فيلم إيطاليٌّ أصليٌّ بدا أنَّه يدين بالكثير من الفضل إلى الشركة الأمريكية المنتجة على «الحبكة» التي تكوَّنت من مشاهد انفجارات كبيرة وعشوائيَّـة، تحدث كل خمس دقائق، ثم تتبعها مشاهد النَّاجييْن -الرجل ذاته والمرأة ذاتها على الدَّوام- يتعانقان بعاطفة مشبوبة، ويتعاهدان على النجاة من الانفجار القادم، إنْ لم يحولا دون وقوعه. ولا يتضح بتاتاً من كان وراء تلك الانفجارات، أو أين تحدث، وما سببها. كانت الانفجارات محور الفيلم: الباقي مجرَّد تفاصيل ثانويَّـة.

وبعد الغداء، اختار غالي -الذي سُرَّ باللَّقب الجديد الذي خلعتُه عليه، «جياكومو إمْبِرسَارْيُو»[124]- فيلمَ «نشيد الجلَّاد» أوَّلاً، ثمَّ سرعان ما أُبعد عن الشاشة بعد استهجان الجميع، لكونه كثير الكلام ويخلو من الإثارة [الأكشن]. استُبدل بفيلم إيطالي أصليٍّ آخر، يصوِّر مجموعة من الشابَّات ذوات الصدور الكبيرة إلى حدٍّ لا يُصدَّق، يعملن في مصبغة ضخمة، ويتبيَّن أنَّ مالكها رجل ساديٌّ، يشبع لذَّة خاصَّة لديه بالمراقبة عبر كاميرات ڤيديو مخفيَّـة، حين تنقضُّ إحدى آلاته الكبيرة (إذ يستطيع الانتقال إلى وضعيَّـة «اقبض، مزِّق، افتك» بمجرَّد النَّقر على مفتاح معيَّن) على إحدى الغسَّالات الغافلات من قدميها وتلتهمها.

وفي كل حالة [من تلك الحالات]، تقوم إحدى زميلاتها المذعورات بالضغط على مفتاح إطفاء الآلة في اللحظة الأخيرة الممكنة قبل الموت، سامحةً للمالك السَّاديِّ بأن يهرع من مكتبه متظاهراً بالهلع حين كانت الفتاة الجميلة تُفصَل بأناةٍ عن الآلة في حالة من الفوضى الملطَّخة بالدَّم، التي من الواضح أنَّ ربَّ عملها قد وجد فيها ما يثير رغباته.

وبخلاف بعض التنويعات الثانويَّـة (استبدال فتاة بأخرى، على سبيل المثال) فإنَّ هذا المشهد يتكرَّر ربما عشرات المرَّات قبل وصول الشرطة -لسبب لم أستطع فهمه- واعتقال المالك، فتحتفل الفتيات المتبقيَّات بتمزيق زيِّ عملهنَّ والاحتشاد في غرفة الاستحمام الجماعيَّة لغسل أنفسهنَّ (وبعضهنَّ) من جميع آثار الصدمة التي تعرَّضن لها.

ولمَّا انتهى هذا الأمر -وحالة عملهنَّ المستقبليِّ مازالت، وفق ما أستطيع القول، غير مبتوت فيها- كان الوقت يدنو من الغسق، وكنَّا على مقربة من ضواحي فلورنسا على طريق أوتوستراد مزدحم. أخرج غالي المسرور الشَّريط من جهاز الفيديو، عائداً به إلى مقعده، فهذا الفيلم جيد بما يكفي كي لا يتركه خلفه؛ لقد كان يأخذ هذا الشَّريط إلى المنزل من أجل مشاهدته الخاصَّة.

وعرفت، مندهشاً، أننا لن نقضي الليلة في فندق وإنَّما في «كُفِرْتشَانُو Coverciano»، الحَرَم الرياضيِّ المهيب عند «جادة غابرييله دَنُّونْسيُو»، في الطرف الغربيِّ من فلورنسا الذي يُستخدم، من ضمن أشياء أخرى، بوصفه ملعب التدريب الرسميِّ للمنتخب القومي الإيطالي.

ولقد كان هذا المكان، بالنسبة إلى واحد من عشَّاق الكالتشيو، بمثابة قدس الأقداس، ولكنَّ تاريخه الثقافيَّ يمتدُّ أبعد من رياضة كرة القدم. ففي «قلعة هضبة غيراردو»، التي تلوح عالياً فوق الملاعب المُشذَّبة بعناية فائِقة، دارت أحداث «ديكامرون» بوكاتشيو. وبعد ذلك بنحو مئة عام، وقف ليوناردو دافنشي على جدران «مُونْتِهْ تِشيتِشْرِي» فوق «كفرتشانو» تماماً، وأطلق آلته الطَّائرة التي ثبت أنَّها قد سبقت مثيلاتها بنحو أربعمئة

عام. وفي السنوات الأولى من القرن العشرين، عاش غابرييله دنُّونسيو، الذي ربما يُعَدُّ في إيطاليا الشَّاعر والناشط السياسيَّ المثاليَّ، في ڤيلا مشيَّدة على أرض هذا المكان، وعمل فيها أيضاً.

ولم يكن هذا المكان موقعاً مفتوحاً للعامَّة؛ فليس ممكناً حجز غرفة هنا لليلة واحدة، أو تناول الطعام في أحد مطاعم مرافقه. لا يدخله المرء إلا بدعوة شخصيَّة فحسب، على شاكلة قصر بكنغهام، ولم تكن الدَّعوات تُوزَّع مجاناً.

وكان ياكوني على أي حال قد التحق بمعهد إعداد المدرِّبين الذي كان يَعقد [دوراته] هنا بـ «تِشنْترُو تِكْنِكُو» [المركز الفنيِّ]، كلَّ عام. فلا يحصل المدربون الإيطاليون على رخصة لإدارة الأندية في دوري الدرجة الأولى أو الثانية دون حضور دورة تدريبيَّة تعقد بـ «كڤرتشانو» لمدَّة ستَّة عشر أسبوعاً (النتيجة للأسف أنَّ جميع المدراء المحليِّين يَدرسون المساقات ذاتها في التَّكتيك وعلم النفس والتَّدريب، وجميع الخرِّيجين يتخصَّصون في «الخوف La paura»، بوصفهم مناصرين مُحلَّفين لفلسفة «إل كَاتِنَاتْشيُو il Catenaccio»؛ المقاربة الدفاعيَّة الأولى للكالتشيو -وكلمة «كاتناتشيو» تعني حرفياً «التِّرباس» الموجود في القفل- التي كانت دين الدولة من الناحية العمليَّة لأكثر من نصف قرن).

ولم يكن من المدهش أن يحقِّق ياكوني شعبيَّة في المعهد، نظراً إلى شخصيَّته الاجتماعيَّة ونزعته المحافظة الفطريَّة. وبما أنَّه الآن يقود فرقة بدوري الدرجة الثانية سوف تخوض مباراة بالجوار في اليوم التالي، فقد وُضعت المرافق تحت تصرُّفه.

ثمَّة بعض الأمريكيِّين -كما نعرف- يتوقون إلى قضاء ليلة في غرفة نوم لِنْكِنْ. ولا شك أنَّ كثيراً من كرادلة الڤاتيكان سيُسرُّون لو قال لهم البابا، وهو في مهجعه الخاصِّ: «يمكن لتلك الأريكه هناك أن تُفتَح لتغدو سريراً. فلم لا تقضي الليلة هنا، وفي الغد قد تظهر معي على الشُّرفة».

ولكنَّني أستطيع القول صادقاً إنَّني لم أتمنَّ قضاء تلك الليلة من شهر أكتوبر لسنة 1996 في أي مكان آخر على وجه الأرض سوى في «كڤرتشانو». لم أجرؤ بتاتاً على الحلم بمثل هذا الامتياز، ولكنَّني هأنذا! لقد كانت «المعجزة والحكاية الخرافيَّة» تتواصلان، بالنسبة إليَّ على الأقل، أكثر فتنةً من ذي قبل.

كان رقم غرفتي 308، ولا يمكن معرفة من أقام بها قبلي؛ باريزي، أو دينو زوف، أو جيجي ريڤا، أو تارديلي، أو جنتيلي، أو بيتيغا، أو فاكيتي، أو تِشيزَرِهْ مالديني، أو پاولو مالديني، أو ربما (ولم تكن تلك استحالةً حسابيَّة) باجيو. فتحت الخزانة المضمَّخة برائحة الأَرْز: صف كامل من علَّاقات الثِّياب ماركة أرماني، ثم في الحمَّام: ثلاثة أنواع مختلفة من مجفِّفات الشَّعر. لا شك في ذلك؛ لقد كان هذا الأمر حقيقياً.

نزلْتُ إلى ردهة كان يجلس فيها اللاعبون، ينتظرون حلول موعد الغداء. كان كل واحد منهم يشعر بالإثارة مثلي؛ فلم يسبق لأحد أن كان هنا قَطُّ، ومما لا شك فيه ألا أحد من هؤلاء اللاعبين سوف يعود أبداً إلى هذا المكان بوصفه عضواً في المنتخب القوميِّ، لذا فهذه الليلة، بالنسبة إليهم أيضاً، ليلة للذكرى.

جلس معظم أعضاء الفرقة بعد الوجبة في الرُّدهة لمشاهدة مباراة ليلة السَّبت بدوري الدرجة الثانية التي تذاع على شاشة التلفاز. كانت المباراة

بين فريقَيْن لم أشاهدهما من قبل: ساليرنيتانا الذي في رصيده سبع نقاط، وتشيزينا الذي لديه مثلنا ستُّ نقاط. كانت النتيجة ماتزال صفر-صفر، ولم يبق على انتهاء المباراة سوى عشرين دقيقة، حين دخل يلعب لصالح ساليرنيتانا اللاعب المستقدم حديثاً فيليمون ماسنغا، عضو منتخب جنوب إفريقيا واللاعب السَّابق في فريق «ليدز يونايتد» بدوري الدرجة الأولى الإنكليزيِّ.

أخبرتُ اللاعبين، متحدِّثاً بثقة الخبير الذي شاهده يلعب مباراة واحدة على شاشة التلفاز قبل موسمين، أنَّهم سيستمتعون الآن لوجود شخص سوف يتفنَّن في اللعب حقاً.

بدا فوسكو، على وجه الخصوص، متشككاً، وازدادت شكوكه بعد عشرين دقيقة، حين كان ماسينغا يضيِّع الكرة في كل مرَّة تقترب منه. فاز ساليرنيتانا على أي حال، ولكنَّ الهدف سجَّله أحد اللاعبين الإيطاليين المخضرمين.

فقال فوسكو عن ماسينغا، وهو يهزُّ رأسه: «ليس لدوري الدرجة الثانية».

فأجبته: «من المبكِّر قول ذلك».

فقال: «كلا، يا جُو»، وهو يشعل سيكارة، ويهيِّئ نفسه للذهاب إلى غرفته. «ماسينغا لا ينفع في دوري الدرجة الثانية، فأسلوبه غير ذي جدوى؛ إنه في غاية الأنانيَّـة».

حسناً، ها هي ذي المسألة ذاتها مرَّة أخرى. أقصد فكرة أنَّ مَن يلعب الكرة بأسلوب مختلف، بقليل من الاندفاع أو السرعة -ولاسيما إن كان أجنبياً، وربما أجنبياً أسود على وجه أكثر تخصيصاً- لا يمكن أن يكون

مناسباً، إلى حدٍّ ما، كي ينضمَّ إلى عالم دوري الدرجة الثانية المُملِّ مللاً شديداً بتكوينه غير المرن.

شديد الأنانيَّـة؟ منحْتُ فوسكو عبر تساؤلي هذا حول رأيه فرصةَ الشك اللغويِّ، فلقد ظننت في الحقيقة أنَّه راغب في قول شيء من قبيل «شديد الرَّوعة» ولكنَّه اختار، عوضاً عن ذلك، كلمةً أستطيع على الأرجح فهمها.

ولكنَّ هذا الحوار المقتضب كان كافياً لإثارة أشجان ياكوني، إذ ناقشنا مسألةً بدت إلى حدٍّ بعيد -على الأقل من محادثاته معي- موضوعه الأثير.

فوضَّح ياكوني: «دوري الدرجة الثانية بطولة شديدة الغرابة يا جُو؛ إنها شديدة الصُّعوبة على الأجانب. الموهبة وحدها لا تكفي».

«نعم، نعم، الشخصيَّـة، والذَّكاء. أعرف». لقد كانت مقاطعة ياكوني، ولاسيَّما حين يكون الموضوع متعلقاً بطبيعة دوري الدرجة الثانية، تصرُّفاً خطراً إنْ لم يكُن فجاً من الأساس. ولكنَّني كنت قد حفظت ما قاله بالضَّبط: دوري الدرجة الثانية شديد الغرابة، شديد الصعوبة على الغرباء، فالموهبة ليست كافية. الشخصيَّـة والذَّكاء هما كل ما يحتاجه المرء.

ولكنَّ ذلك يمكن أن يقال عن أي رياضة في أي مستوى احترافيٍّ. ولكنْ، خُيِّل إلـيَّ أنَّ ياكوني يكاد يكون مولعاً بدوري الدرجة الثانية ولعاً شديداً، كأنَّه داخل دائرة خاصَّة من دوائر جحيم دانتي، فُسِّرتْ فيها جميع قوانين الفيزياء والحركة والفطرة السليمة تفسيراً غير قابل للتَّطبيق.

ِلا بأس، فلا بُدَّ أن ألوم نفسي على فتح هذا الباب. ولكن سرعان ما اتَّضح أنَّني وجميع اللاعبين الموجودين في الردهة لن نتمكَّن من الذهاب الى النوم قبل أن يلقي ياكوني مرَّة أخرى محاضرته عن الأجانب.

نعم، فلقد أقرَّ أنَّ كثيراً من الأجانب يستطيعون أن يبلوا بلاءً حسناً في دوري الدرجة الأولى، وقد فعلوا ذلك حقاً، ولكن لأنَّ هؤلاء الأجانب يمتلكون مهارات استثنائيَّة قد تتألَّق حتى دون الشخصيَّة والذكاء الضروريَّين.

ولكنَّك لم تشاهد نوعية الأجانب في دوري الدرجة الثانية. لم يتمتَّع الأجانب الذين كانوا يلعبون في دوري الدرجة الثانية، من ناحية التَّوصيف، بمثل تلك الموهبة المتألِّقة؛ وإلا لحصلوا، بخلاف ذلك، على عقود للالتحاق بدوري الدرجة الأولى. ولأنَّهم يفتقرون إلى ذلك المستوى المتفوِّق من الموهبة، فقد تُرِكوا كي يُجرِّبوا حظَّهم في تجاوز عديد الإيطاليين الأصليِّين الذين كانوا، بصراحةٍ، أمكر وأكثر حنكة وأفطن بطريقة لم يقدر أي أجنبيٍّ على أن يضاهيهم فيها بتاتاً، ناهيك عن أنَّهم يمتلكون مزيداً من العزم والجسارة والشخصيَّة والذكاء.

فسألته: «وماذا بشأن غوسينس، لاعب جنوا؟ أو أنغيسون، لاعب تورينو؟ أو مانفريد بنز، مدافع بريشًا الجديد الذي لعب عدَّة سنوات في ألمانيا؟ وعلى ذكر الألمان، ألم يلعب أوليڤر بيرهوف ثلاثَ سنوات مع أسكولي في دوري الدرجة الثانية قبل انتقاله إلى أودينيزي، ليغدو على الفور من أقوى المهاجمين في جميع أندية دوري الدرجة الأولى»؟

أنصت ياكوني دَهِشاً، ثم قال: «المشكلة فيك يا جُو. والآن تستطيع الإجابة عن جميع الأسئلة، حتى لو لم تعرف أي شيء عنها»، ثم نهض وغادر الحجرة ذاهباً إلى النَّوم، والحيرة تتملَّكني بشأن طبيعة جوابه السَّريع الأخير. كان ريميديو لسوء الحظِّ في الحجرة.

فقلت: «لا أعتقد يا فابيو أنَّني قد فهمت السيِّد. ما الشيء الأخير الذي قاله»؟

فأجاب ريميديو على مهله راغباً في أن يكون دقيقاً: «إنَّه يقول يا جو: مشكلتك أنَّك تعرف كل شيء، ولكنَّك لا تعرف شيئاً في الوقت ذاته عن الموضوع الذي تتحدَّث عنه».

«بكلمات أخرى»

«بكلمات أخرى يا جُو لا تُجادل السيِّد، فهو دائماً على حقٍّ وأنت على خطأ».

آه، ولكنَّه صباح الأحد؛ إنَّه «يوم المباريات» في عموم إيطاليا. مازلت أحاول التكيُّف مع حقيقة أنَّني سوف أبلغ ذروة النشوة وذروة العذاب في كل أسبوع. بيْد أنَّه لم يهلَّ البتَّةَ يومٌ، في هذا المكان الذي هو بمثابة جنَّة عَدْن الكالتشيو، كمثل هذا اليوم. كاد الطَّقس يكون مثالياً مثلما ينبغي. والأفضل من ذلك كله، أنَّ ياكوني كان في مزاج عالٍ، ولا يحمل أيَّ ضغينة تجاهي من الليلة السابقة، فصحبني في جولة سيراً على الأقدام في المرافق جميعها، ثم قدَّمني إلى عدد من كبار المسؤولين باتِّحاد الكالتشيو. وحين أَخَذَتْ أشعَّة شمس آخر النَّهار بالتسرُّب عبر الأشجار المهيبة العالية التي تصطفُّ على جوانب الممرَّات الشاقة طريقها عبر الحَرَم، رحتُ أحاول استحضار طرائق قد أحصل فيها على وظيفة دائمة هنا، على شاكلة «الأمريكيِّ المُقيم» أو شيء من هذا القبيل. كنت في تلك اللحظة مستعداً لقبول وظيفة تمشيط أوراق الأشجار السَّاقطة.

ولكن يتوجب علينا أن نغادر حتماً من أجل خوض المباراة.

كان فريق إمپولي فريقاً آخر معتاداً على اللعب في الفئة الأولى بدوري الدرجة الثالثة أكثر من اللعب في دوري الدرجة الثانية. فلقد صعد الفريق

في الحقيقة من القسم الشمالي بالفئة الأولى، حين فاز بالمباراة النهائيَّة التي عقدت في شهر يونيو، كما فعل كاستل دي سانغرو في القسم الجنوبي. وكان ظهورهم السَّابق في دوري الدرجة الثانية، قبل هذه الفترة، يعود إلى 1988-89، عندما صمدوا في هذا الموسم بعينه قبل هبوطهم ثانيةً. كان لديهم مهاجم قدير يدعى إسبوسيتو، وما عدا ذلك، فإنَّ الفريق، على شاكلة فريقنا، مُجرَّدٌ من طينة اللاعبين النُّجوم.

أما بلدة إمپولي (عدد السكان: 40000 نسمة) الواقعة على بُعْد مسافة نصف ساعةٍ بالحافلة غربَ فلورنسا، فهي بلدةٌ مغمورة وعصريَّة تماماً بخلاف فلورنسا، ولكنَّ الاستاد كان صغيراً وجميلاً ومفتوحاً وخالياً تماماً من حرس الشرطة والأسلاك الشائكة، ولا تسوده أجواء الخوف من الألتراس (عصابات من «المشجعين» المتطرِّفين، تطرُّفاً شديداً، إلى درجة أنَّهم يثيرون أعمال الشَّغب والعنف غالباً) التي ضربت كثيراً من الملاعب الإيطالية كالطَّاعون.

وقد تكون إمپولي بكل بساطة هادئة على نحو غير طبيعيٍّ، إلا أنَّ المشجعين المتعصبين لفيورنتينا، فريق فلورنسا بدوري الدرجة الأولى، كانوا معروفين في الشمال والجنوب، على حد سواء، أنَّهم عدائيُّون، على وجه الخصوص، وميَّالون إلى إثارة أعمال العنف التي ليست كلها موجَّهة ضدَّ الخصوم. فلقد أُشعلت النّيران في سيَّارات لاعبي فيورنتينا، ورُجمت حافلة الفريق بالحجارة من طرف مشجِّعيهم أنفسهم بعد هزيمة نكراء تعرَّض لها الفريق قبل سنتين.

أظنُّ أنَّ أجواء الاسترخاء التي سادت إمپولي متعلِّقة، إلى حدٍّ بعيد، بحقيقة ألا أحدَ قد أخذ كاستل دي سانغرو على محمل الجِدِّ. إذ كنَّا فريق

حكاية خرافيَّـة؛ اللاپوتانيِّين. سنكون هنا لسنة ثمَّ نختفي إلى الأبد، ولسنا فرقة تستحقُّ أن يستعدَّ من أجلها أحد.

يكوِّن المرء الأعداء، في الكالتشيو، بصورة أساسيَّـة، حين يذهب إلى مكان لا ينتمي إليه (كاستاد فريق آخر، على سبيل المثال، حتى لو كان من المقرَّر رسمياً أن يلعب هناك) وحين يفعل شيئاً لا يتوجب عليه القيام به (كالفوز). ولكنَّ فريق كاستل دي سانغرو، بالنسبة إلى مشجِّعي الأندية الأخرى في دوري الدرجة الثانية، لم يذهب إلى أي مكان قط، ولم يفعل أي شيء. لقد كنَّا أطفالاً وكانوا بالغين، ولذلك فإنَّ الاستهزاء بنا، أو إثارة العنف ضدَّ بضع مئات من مشجِّعينا الأوفياء الذين قاموا بالرِّحلة، لا يُعَدُّ انتقاصاً من كرامتهم فحسب، وإنَّما يكاد يكون ضدَّ طبائعهم أيضاً.

ولذلك، فقد بدت الأجواء لطيفةً، كحال الطَّقس الذي ساد عصرَ ذلك اليوم الخريفيِّ في توسكانا، والذي تبيَّن أنه بهيج على نحو خاصٍّ. إذ ظهر نحو 5000 متفرِّج، تاركين الاستاد فارغاً بنحو الثُّلثَيْن، وهو المعدل الطبيعيُّ في بداية الموسم بدوري الدرجة الثانية، ولاسيَّما أنَّ كثيراً من مباريات دوري الدرجة الأولى تُبثُّ على شاشات التلفزة.

ولقد سُررت، حين دخلت الفرقة إلى أرض الملعب، برؤية أنَّ كريستيانو قد أضيف إلى خطِّ الوسط، ولكنَّ سروري كان أقل حين تبنَّى ياكوني تشكيلة 4-5-1، حيث غالي هو المهاجم الوحيد. بدا ذلك، بالنسبة إلـيَّ، بمثابة إعلان صريح بمكبِّرات الصَّوت أنَّ طموحه الأقصى التَّعادل صِفر-صفر.

ولكن ماذا حدث؟ أظهر الكالتشيو مرَّة أخرى قدرته المطلقة على الإدهاش. فبعد انقضاء ثماني دقائق، وكلا الفريقين لم يفكِّر بعد باحتماليَّـة

شنَّ هجوم منذر بالخطر، تفاجأ غالي -الذي كان يجول منفرداً في منطقة دفاع إمپولي، كأنَّه في مهمة حسن نوايا فرديَّـة- بأنَّ الكرةَ تتدحرج بحريَّـة في نطاق يمكن لقدمه اليمنى الوصول إليه بكل سهولة.

ولكنَّ مدافع إمپولي، الذي أدخلته الأُبَّهة الخريفيَّـة في حالة قريبة من الخَدَر، كان قد ركل الكرة على رسله إلى حارس مرماه، حين ظهر غالي في الطريق التي تسير فيها الكرة.

فانقضَّ غالي على الكرة، التي تبيَّن أنها تمريرة مثالية إليه، دون حتى أن يضطر إلى تعديل سرعة خطوه. كانت الكرة قد استقرَّت في شباك إمپولي خلف حارس المرمى المشدوه، قبل أن تسنح لهذا المسكين فرصة البدء في شتم مدافعه.

وكنت أنا أيضاً قد ذُهلت، لوهلة، فلم أنبس ببنت شفة. ليس معقولاً أن يحدث ذلك. لم يكن باستطاعة كاستل دي سانغرو إحراز مثل هذا الهدف السَّهل، سهولة تثير الضَّحك. ولكنَّه دوري الدرجة الثانية الكلاسيكيُّ على أي حال؛ هدف ناجم عن خطأ دفاعيٍّ جسيم بدلاً من هجوم ألمعيٍّ. ولهذا لا بُدَّ أن الأمر قد حدث بالفعل.

هنا، رحتُ أصرخ. رفقةَ جميع لاعبي كاستل دي سانغرو الموجودين في أرض الملعب وعلى دكَّة الاحتياط، بالإضافة إلى بضع مئات من مشجعينا الذين قطعوا الرحلة الطويلة للجلوس في هذه المقاعد الرخيصة.

لقد كان أوَّل أهدافنا في أربع مباريات، وأوَّل أهدافنا في دوري الدرجة الثانية خارج أرضنا على الإطلاق، وأوَّل أهداف غالي في الموسم، وأوَّل أهدافه في دوري الدرجة الثانية طُرّاً. وَضَعَنا هذا الهدف أيضاً في ذلك المركز المُستبعد وغير المتوقَّع بتاتاً: الصدارة في مباراة ببداية الموسم. لم تَبْدُ

تلال توسكانا التي شكلت خلفيَّـة الاستاد أكثر بهاءً من أي وقت آخر من أوقات الخريف في أي سنة.

وبدت كأنَّها سوف تزداد بهاءً طيلة الدقائق العشرين القادمة. كان كريستيانو إعصاراً[125]، يستحوذ على الكرة، فيمرِّرها، ثم يركض مسرعاً، ينقضُّ من طرف خط الوسط إلى الطرف الآخر، فيحدث في أثناء هذه العمليَّـة إرباكاً دفع إمپولي إلى ارتكاب خطأ دفاعيٍّ صاعق آخر أدَّى إلى تمرير الكرة سهواً إلى مارتينو الذي يبعد عشر ياردات عن المرمى فحسب. ولكن استجابة تونينو المفاجئة لم تكن، لسوء الحظِّ، بمثل دقَّة استجابة غالي، فركل الكرة فوق عارضة المرمى العليا.

وبات المرء يحسُّ تغيُّراً في مجرى الأحداث. بدا فوسكو أكثر تزعزعاً من المعتاد في الدِّفاع، فكان إمپولي يشقُّ طريقاً للكرة من الطرف الأيسر من الملعب، إلى داخل منطقته. خطأ جرَّ خطأ فجرَّ خطأ آخر، وتسبَّبت جميعها بمنح إمپولي ركلات حرَّة في مواضع أخذت تقترب شيئاً فشيئاً من حافَّة منطقة الجزاء.

وبعد الرَّكلات الحرَّة، جاءت ضربة ركنيَّـة في الدقيقة الرابعة والثلاثين. بدا الموقع خطيراً، ولكنَّ الكرة انطلقت ضعيفة، لم تُضرَب بقوة كبيرة، ولم يكن ثمَّة لاعبون من فريق إمپولي في موضع يمكِّنهم من لعبها. في الواقع، لو كان منفِّذ الضربة الركنيَّـة من فريق إمپولي يقصد منذ البداية تسديد الكرة إلى الجزء العلويِّ من رأس فوسكو، لعُدَّت هذه الركلة ضربةً أصابت نقطة الهدف مباشرة، لأنَّ الكرة أصابت هذا الجزء خاصة.

ولكنَّ فوسكو بدلاً من أن يسدد الكرة إلى خارج منطقة الخطر، قذف الكرة مباشرةً بصورة غير مفهومة نحو إسپوسيتو المندفع، الذي اقتنص

الفرصة فسدَّدها، على شاكلة غالي، في المرمى دون حتى أن يخفف من سرعة خطوته.

وجاء الآن دور لوتّي كي يبدو مبهوراً غير مصدِّق، على الأقل حين بدأ فوسكو بالصراخ عليه قائلاً إنَّه كان يتوجب عليه الخروج من المرمى لالتقاط الكرة قبل وصول لاعب إمپولي إليها.

لم أحتج إلى مترجم لأفهم ردَّة فعل لوتّي العنيفة، التي كانت تقول بصورة أساسيَّة: لا يمكن لأي لاعب، قادر على ربط قيطان حذائه بنفسه، أن يرتكب ذلك الخطأ الغبيَّ الذي ارتكبه فوسكو.

ولكن ما كان يهمُّ على أي حال هو الهدف الذي سجَّله فريق إمپولي. وبخاصَّة عندما غدت النتيجة النهائيَّة، بعد ساعة، 1-1. ويستطيع المرء القول إنَّ ما افترُض أن يكون فوزاً قد غدا تعادلاً فحسب. أو يمكن للمرء أن يقول إنَّنا قد فزنا في النهاية بنقطةٍ في بداية الموسم. بيد أنَّ المرء لو كان يأمل في قول شيء ما، فلا بُدَّ له أن يقول على وجه السرعة، سوف يُعرَضُ فيلم «مُت شجاعاً» في الحافلة، في غضون خمس عشرة دقيقة من مغادرتنا، بأعلى صوت.

لم نصل إلى كاستل دي سانغرو إلا في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، ولكنَّ مارتشيلّا انتظرت. لقد أصرَّت على أن تصحبنا، ياكوني وأنا، لاحتساء كأس بإحدى الحانات التي تظلُّ مفتوحة حتى ساعة متأخِّرة من الليل، حيث يمكن لثلاثتنا الجلوس وتقييم المباراة، وهي مسألة ليس لأحد الرَّغبة في الحديث عنها سواها. ولكنَّ مارتشيلّا كانت من العائلة، وعرف ياكوني أنَّ المرء لا يمكن أن يكون فظاً مع فرد من العائلة يحاول أن

يكون كريماً، بصرف النظر عن التَّعب الشديد الذي قد يعتري المرء، أو خيبة الأمل التي قد يشعر بها، أو لكليهما معاً.

وهكذا، كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل، حين عبرنا، أنا وهو، الساحة المركزيَّـة الرطبة وشديدة البرودة نحو شقَّتَيْنَا. وحين وصلنا، قال: «عندي لك أخبارٌ جيدة».

أخبار جيدة من أجلي؟ ما عساها تكون؟

فقال: «سيحضر لاعب جديد، يوم الثلاثاء».

«مَن؟ سيأتي من أين؟ في أي موقع سيلعب»؟ أردتُ أن أعرف كل شيء دفعة واحدة.

وعوضاً عن الإجابة، تنهَّد ياكوني عميقاً، زافراً أنفاسه الحرَّى في هواء الليل البارد، ثم هزَّ رأسه.

فقلتُ: «لا تبدو سعيداً».

فأبدى إيماءة الاستهجان الياكونيَّـة النموذجيَّـة، مطوِّحاً برأسه إلى الوراء حتى تستطيع عيناه النظر إلى السماء، رافعاً يديه المفتوحتين، وباطن كفيهما إلى أعلى، على مستوى الكتفين.

وقال: «أجنبيٌّ». أووه، إنَّها الكلمة الأقذر في معجم أزڤالدو الشخصيِّ: أجنبيٌّ، أو لعلها ثاني أقذر كلمة، فلقد لفظ بعدها مباشرة وصف «إفريقي».

«حقاً؟ من أي جنسيَّـة»؟

فقال، بنبرةٍ أوحتْ بأنَّه يريد البوح لي بسرٍّ دفين من ماضيه: «من غانا. من المنتخب القوميِّ الغانيِّ».

«هذه السَّنة؟ أين كان يلعب»؟

«فرانكفورت، في البوندسليغا». كان هذا اللاعب قادماً من نادي آينتراخت فرانكفورت، الذي يلعب في دوري الدرجة الأولى الألمانيِّ. بدا هذا الخبر جيداً جداً إلى درجة لا تصدَّق. أن يأتي إلى كاستل دي سانغرو؟ يا إلهي! لم أقدِّر غراڤينيا حقَّ قدره. ولا بُدَّ أنَّ هذا الغانيَّ يكره ألمانيا أو لديه وكيل أعمال في غاية الرداءة.

«ما اسمه»؟

فقال ياكوني: «جو-زيف».

«مثل اسمي».

«جو-زيف آد-دُو».

«وما موقعه»؟

فقال ياكوني، وهو لا يبدو كمدير فنيٍّ فاز فريقه للتوِّ بنقطة في بداية الموسم: «لا أعرف. مدافع، خط وسط، لا أعرف، لا أعرف، لا أعرف شيئاً».

ولم يَبْدُ، حين قال تصبح على خير، كأنَّه راغب في أن يعرف.

15
رجل السِّتة ملايين دولار

لا أستطيع، في الصباحات حين يكون الطقس مؤاتياً وأكون قد استلقيت على ظهري في السرير ناظراً خارج النافذة المطلة جهةَ الغرب، أن أرى سوى جبل بلون النَّبيذ تحت سماء صافية لا تشوبها شائبة. كان خط الحرف العلويِّ من الجبل، الذي لعلَّه يرتفع 2000 قدم فوقي، مخدَّداً ووعراً، على شاكلة ما يراه المرء في الغرب الأمريكيِّ. وكان شلَّال اللون الذهبيِّ لأبروتسو قد راح يهبط أسفل خاصرة الجبل كجيش، متراجعاً في كل يوم بضعة أمتار أبعد من القوى الخضراء المنكوبة التي حكمت المكان طيلة الصَّيف.

ولكنَّني حين نهضت، كانت المقدِّمةُ موقفَ سيَّارات يمتدُّ فارغاً، ما عدا أيام الخميس، حين يغدو موقعاً للسوق التي تعقد في الهواء الطلق، والتي تُعَدُّ، بعد مباراة يوم الأحد، الحدثَ الأمتعَ في كاستل دي سانغرو طيلة الأسبوع.

وثمَّة، بعد موقف السيَّارات، مبنى شقق سكنيَّـة غير متين من ثمانية طوابق، بلون الباستيل (يبدو أنَّه قد شُيِّد في وقت أقل مما يتوجب أن يستغرقه من أجل توسعة الاستاد) وفَّر مساكن تقضي فيها الطبقة المتوسطة النَّابوليَّـة عطلة نهاية الأسبوع.

وهكذا، فإنَّني أستطيع، حتى قبل أن أنهض من السرير في كل يوم، رؤيةَ أفضل ما في كاستل دي سانغرو وأسوأ ما فيها. أستطيع، وقد تحرَّرت من زنزانتي بفندق كوراديتِّي، تقديرَ مباهج البلدة ومفاتنها على نحو أفضل.

ومن المتعارف عليه أنَّ الأُبَّهَة المعمارية لم تكُن بين أفضل ما في كاستل دي سانغرو، ولكن ثمَّة ما يرتبط بالحياة أكثر من سحر المباني القديمة.

فشقَّتي، على سبيل المثال، تطلُّ على نهر سانغرو -الذي كان، وهو يتدفق عبر البلدة، أقرب إلى جدول متعرِّج- وكنت أستيقظ في كل صباح على صياح الأوزِّ. ولا مرَّة على صوت زامور سيارة. الأمر الذي جعلني أفكِّر في أنَّني، منذ وصولي في شهر سبتمبر، لم أسمع عويل صافرة سيارة شرطة أو إسعاف أو إطفائيَّـة.

كان ثمَّة إحساس بالسَّكينة والرَّاحة بشأن البلدة وأهلها. لا أحد لديه تطلُّعات عظيمة: لا تجاه الفريق ولا حتى تجاه أنفسهم. آمال: نعم؛ ولكن ليست تطلُّعات، وأدَّى هذا إلى غياب الإحباط على نحو مخاتل. فالدماثة والتعاطف وحتى الإحسان تغدو طبائعَ فطريَّـة لدى أولئك الذين لا يسخطون على الدَّوام جرَّاء تعرُّضهم للخداع وحرمانهم من جائزة كبرى كانوا يشعرون بأنَّ الحياة تدين بها لهم.

وكنا مانزال بالطبع في شهر أكتوبر، وأكوام الحطب التي أراها من نافذتي تزداد في موقف السيارات عبر النَّهر، بالإضافة إلى حقيقة أنَّ معظم ڤاترينات الحوانيت -سواء أكانت لمتجر ملابس، أم دكَّان جزارة، أم صيدليَّـة- تعرض للبيع مدافئ كهربائيَّـة أو مدافئ تعمل بالكاز، وتَشْخَص بمثابة لافتة تذكيرٍ بأنَّ أيام المعجزات والعجائب لو استمرَّت، فسوف تكون أياماً باردة.

وكان ثمَّة قلق محدق يتعلَّق بأنَّ الفرقة لم تُظهِر بالوسائل كافة أنَّها جديرة حقاً باللعب في دوري الدرجة الثانية، وقد انقضى قرابة 20٪ من

وقت الموسم. فلقد احتللنا في الوقت الرَّاهن المركز الرابع عشر؛ الأمر الذي سوف يكون مدعاة إلى الاحتفال لو أننا في نهاية الموسم، ولكنَّ الطريق أمامنا مازالت طويلة، وليس لدينا إلا بضعة لاعبين بدوا قادرين على أن يأخذونا نحو المكان الذي نحتاج إلى الذهاب إليه.

ومن الواضح أنَّ لوتِّي كان أكثر لاعبي الفريق قيمةً. وعلى الرَّغم من أنَّ شعبيَّـة دي يوليس ظلَّت طاغية بسبب انطوائيَّة لوتِّي وتحفُّظه، فإنَّه لم يكن ثمَّة سبيل كي يقوم ياكوني في هذه الأثناء بتغيير حراسة المرمى، وكان ماسيمو بكل بساطة قد بذل الكثير لينقذ الفريق.

بدا الوضع أمام ناظريه أكثر إشكالية، فلوقا دانجلو، الشابُّ الشيوعيُّ، الذي أدخله ياكوني آخر المطاف، ولو متردِّداً، في التشكيلة الافتتاحية مطرحَ تشيي، كان أكثرَ المدافعين موهبةً ورشاقة إلى حدٍّ بعيد. وعلى الرَّغم من أنَّ ألتامورا، جاري الجديد، يفتقر إلى السرعة والبراعة، فإنَّه يستطيع الاندفاع بقوة عند الحاجة واللعب بشراسة إلى حدٍّ ما.

وبدا فوسكو، وجيجي بريبته الذي تنقَّل كثيراً، اللاعبيْن الأكثر إثارة للقلق. وعلى الرغم من الجهد الذي بذلاه، فإنَّهما لم يظهرا قادرين على إنجاز المهمة التي أنيطت بهما على أكمل وجه. ولكنني لاحظت، دون الخوض في التفاصيل الوصفيَّة، أنَّ هذا الرأي قد دعمته «تقارير الأداء»، إذ حصل كلاهما، بعد سبع مباريات، على تقييم أدنى بكثير من 6؛ الحد الأدنى المقبول عموماً.

ولم يبد لاعبو خط الوسط أقدر فحسب، وإنما قدَّموا لياكوني فرصاً أكثر لمروَنة [الفرقة]. وفي حين كان الجناحان، بونومي ومارتينو، مضطربين ويتمتَّعان بموهبة ضئيلة، فإنَّ بونومي بدا، على وجه الخصوص، أنَّه يتحسَّن بسرعة.

وضمَّ خطُّ الوسط المخضرمين المُجرِّبين: ألبيرتي ودي فابيو (العقل والمادَّة، كما يتبادران إلى ذهني)، بالإضافة إلى كريستيانو المندفع وغير المُجرَّب. علاوة على أنَّ المخضرم ميكليني، الذي مضت على وجوده في فريق كاستل دي سانغرو تسع سنين، قد بدأ يحظى ببعض الوقت من اللعب، فلم يشارك في مباراة إمپولي فحسب، وإنما كان ربما أكثر لاعبينا فاعليَّة في تلك المباراة.

أما الإحراج الحقيقي، فيكمن في الهجوم. فبعد ثلاث مباريات، وعلى الرغم من هدفه العابر، لم يَبْدُ غالي بالمهاجم الجدير بدوري الدرجة الثانية. لقد كان كثيراً ما يقوم بالأخطاء الغبيَّة ذاتها، كمثل أن يستلم الكرة من خط الوسط، ويبعث بها إلى الأمام، على الرغم من معرفته ألا أحدَ ينتظر الكرة هناك سوى الخصوم، علاوة على افتقاره إلى السرعة، والقدرة على المحاورة بالكرة، والتسديدات القويَّة أو الدقيقة، وأي براعة على الإطلاق في إيجاد مساحة لنفسه باللعب متحرِّراً من المدافعين.

أما دي ڤِنْتِشِنْسُو، وبقدر ما أحببته على الصعيد الشخصيِّ، فإنَّه أخفق أيضاً في إثبات أنَّه يستطيع اللعب في هذا المستوى [بدوري الدرجة الثانية]. كانت ثمَّة أوقات تستمرُّ عشرين، بل حتى ثلاثين دقيقة، يبدو فيها كأنَّه قد اختفى من ساحة النِّزال. والأسوأ من ذلك، أنَّه قد بدأ يضعف بانتظام، بعد بدايته الواعدة، إلى درجة أنَّ ياكوني أبقاه في مباراة إمپولي على مقاعد الاحتياط طيلة المباراة.

ولم يبق إلا رجل الستَّة ملايين دولار[126]، المعروف باسم أندريا پستلَّا، الذي يُعَدُّ الدَّليل الأوَّل في دفاع غراڤينيا ضدَّ إنفاق الأموال (افتراضياً) على شراء لاعبين مجرَّبين. أما المسكين پستلَّا، فأعرف أنَّه كان مهتماً، وأعرف أنَّه قد حاول، وأعرف أنَّ بدايته البائسة كانت تمزِّقه. وعلى الرَّغم

من ذلك، ولأنَّ لوتِّي (صفقة اللحظة الأخيرة، بثمن رخيص) قد أثبت حتى الآن أنَّه أفضل لاعبينا فاعليَّـة، فمن الواضح أنَّ بِستلَّا، المُغالَى في ثمنه، كان الأسوأ.

أجل، كان بمثابة ثقب أسود في الطرف الأماميِّ من الملعب: فأي كرة تسقط في داخل مجال جاذبيَّه تختفي ببساطة حتى يراها المرء مرَّة أخرى على قدم أحد لاعبي الفريق الخصم، وهو يشنُّ هجمة مرتدَّة. ولقد أضاع الكثير من الفرص الواضحة لتسجيل أهداف، أكثر من تلك التي سنحت لبعض اللاعبين طيلة عام بأكمله، وعلى شاكلة لاعب البيسبول الذي لم ينجح في ضرب أي كرة، فإنَّ أي شيء آخر يفعله يبدو أنَّه يزيد الأمور سوءاً فحسب.

ضُمَّ إلى التشكيلة ريميديو، الذي يبلغ من العمر عشرين عاماً، وفيلِپُّو بيوندي، البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً، حيث بدا الموسم، بالنسبة إلى كليهما، في المقام الأوَّل، تجربةً تعليميَّـة. لم يلعب ريميديو البتَّة، أما بيوندي فلعب ثماني عشرة دقيقة متواضعة ضدَّ راڤينيا.

لم تكن التشكيلة صورة جماعيَّـة توحي بالثقة، على الرَّغم من «قوة الأمل La potenza della speranza»، ثمَّ بدا الوصول الوشيك للسيِّد جوزيف آدو -لاعب المنتخب القومي الغانيِّ ونادي فرانكفورت- من نقطة رصدي بـ « 10 ڤِيَا پِسْكِيرَا» (عنواني الجديد)، بمثابة مَن أُنزل من السَّماء، بصرف النظر عن الموقع الذي سيلعب فيه.

ولم يكن مطعم مارتشيلَّا مفتوحاً بشكل رسميٍّ لتناول وجبة الغداء في أيام الإثنين، ولكنَّ تونينو مارتينو هاتفها في ذلك الصباح ليقول إنَّه كان في غاية الإحباط ليسوق السيارة عائداً إلى منزله الذي يبعد ربما تسعين دقيقة بالسيارة، ويطلب إليها إن كانت تستطيع أن تقدِّم له شيئاً يأكله.

حسناً! لو كان لديها الوقت الكافي، لذبحت من أجل تونينو خنزيراً، أو عجلاً، أو حملاً، أو ثوراً، أو حتى الأربعة جميعها. وبما أنَّها لن تفعل، فسوف يكتفي بالسباغيتي والنبيذ الأحمر وشراب السپرايت: وجبته العاديَّـة في الظهيرة.

شاهدتني مارتشيلَّا وأنا أعبر الشَّارع قبل وقت الغداء، فأصرت على أن آتي إلى مطعم البيتزا أيضاً، ثم قالت إنَّ تونينو لا يحتاج الطعام بقدر ما يحتاج إلى «كتف يبكي عليه»، وكتفان أفضل من واحدة، وبخاصَّة لو لم تكن الكتفان كتفيها.

كان تونينو حزيناً لأنَّه لعب لَعِباً في غاية الرداءة في اليوم السابق، فلو استغلَّ فرصته الذهبيَّـة من مسافة عشر الياردات، على شاكلة غالي، لارتفعت النتيجة إلى 2–صفر، ولفزنا بالمباراة دون شك.

لقد كان أفضل لاعبي الفريق محاورة بالكرة إلى حدٍّ بعيد، ولكن لو أراد المرء أن يكون فظاً، لقال إنَّ عقله يبدو في قدميه. لم يكن الذكاء خصلته المتأصِّلة، فغالباً ما بدا في الواقع كأنَّه لا يتمتَّع بأي مزايا بتاتاً. كانت تنتابه دفقات من الطاقة فيلعب على نحو يثير الدهشة في كثير من الأحيان، ولكنَّ محاورته للكرة غالباً ما كانت تحشره في زاوية، فيفقد الكرة في نهاية المطاف، بعد أن يكون قد أحاط به ثلاثة مدافعين أو أربعة.

لم يكن يتمتَّع بتسديدة قويَّـة أو دقيقة، ولكنَّ ذلك لم يثبط عزيمته على استخدامها، في الأوقات غير المناسبة غالباً. وعلى الرَّغم من أنَّه المكلف بإرسال الكرة من خطِّ التماس، على مدار 90 بالمئة من الوقت، فإنه لم يتعلَّم قط كيف يقذفها على أكمل وجه. لقد كان يقذف الكرة في كثير من الأحيان، إما إلى أحد الخصوم مباشرةً، وإما إلى زميل يحيط به لاعبو

الفريق الخصم، فتضيع على الفور. ولقد سألت ياكوني لماذا مازال يسمح لمارتينو القيام بهذا العمل الروتينيِّ، ولاسيَّما أنَّه، كما يبدو على نحو شديد الوضوح، غير مناسب لذلك.

فكان ردُّ ياكوني: «إنَّه يحبُّ ذلك. إن لم أسمح له، فسوف تتأذى مشاعره. وحين تتأذى مشاعره، لا يستطيع اللعب». كان تونينو هذا: صاحب الشَّعر الأشقر الفاتح، الذي يرتدي بعض المجوهرات، والمُترنِّم باسم كريم عبدالجبَّارررررررر، أطيب قلب في أبروتسو، فهو يمتلك عاطفة طفل في الخامسة من عمره.

كان يحدِّق الآن بكآبة غامرة في كأس نبيذه المذوق بشراب السپرايت، هازاً رأسه من طرف إلى آخر، وقائلاً مرَّات ومرَّات: «آاه يا جُو.. أووه يا جُو.. أخ يا جو.. آآآآآاه لا أدري».

كانت مارتشيلَّا على وشك أن تنفجر بالدموع في هذه الأثناء، على الرَّغم من أنَّها قد تابعت أحداث المباراة على المذياع، وأنَّ تونينو ليس اللاعب الوحيد الذي كان أداؤه رديئاً في مباراة إمپولي (فلقد كان أداء بونومي وفوسكو، على سبيل المثال، أداءً رديئاً، ولكنَّ تونينو الوحيد الذي كان موجوداً هنا، فلم تشعر مارتشيلَّا إلا بألمه هو).

قالت مارتشيلَّا: «ليس ذنبه يا جُو، فلم يسبق له أن أحسن اللعب بعيداً عن الدِّيار».

لم تؤثِّر فيَّ هذه الكلمات بوصفها أفضل كلمات تشجيع قد تنتقيها، فسألتُ تونينو إن كان يظنُّ أنَّ ذلك صحيح.

«نعم، للأسف. دائماً».

فسألته: «ولماذا»؟

لكن مارتشيلَّا هي التي أجابت: «لأنَّه يشعر بالحنين إلى الدِّيار».

الحنين؟ كان هذا مستحيلاً.

«هل تخبريني يا مارتشيلَّا أنَّ لاعب كرة القدم هذا، البالغ من العمر سبعة وعشرين عاماً، والذي يلعب باحتراف منذ -نحو، خمس سنين أو ست- لا يحسن اللعب بعيداً عن الدِّيار، لإحساسه الدَّائم بالحنين»؟

فقالت مارتشيلَّا: «نعم يا جُو. هذه حقيقة».

«ولكنَّنا عدنا إلى الدِّيار بعد المباراة مباشرة»!

وفي هذ اللحظة، انضمَّ إلينا ابن مارتشيلا، كريستيانو، لسبب ما، فحاول التوضيح بإنكليزيَّته البسيطة التي تنفع كثيراً. في حين كان تونينو يجلس، طيلة الوقت، مطأطأ الرأس، ومُرخياً ناظريه على كفَّيه المقبوضَتيْن.

«لا بُدَّ أن تفهم يا جو، فتونينو يعيش قرب تيرامو في بيت والدته، ولا تبعد تيرامو سوى ساعة بالسيارة، أو ساعة ونصف من هنا. حسناً، أتفهم. هنا، يكون تونينو قريباً من الدِّيار. قريباً من أمِّه. ولكنَّ إمپبولي؟ ساعات كثيرة، كيلومترات كثيرة. إنَّ ذلك يجعله حزيناً. إنَّه الحنين إلى الدِّيار، مثلما قلت».

فقلت: «أصحيح هذا، يا تونينو»؟

فتنهَّد عميقاً: «لا أعرف، يا جو. لا أعرف. أليس ذلك مدعاة للأسف»؟

ثمَّ استأذن وخرج، دون أن يأكل طبق السباغيتي ويشرب كأس نبيذه المذوق بالسِّپرايت. قال إنه عائد إلى شقته للعب النتندو.

كان المشهد برمَّته في غاية الغرابة إلى درجة أنني نسيت تماماً إخبار مارتشيلَّا بأنَّني سوف أتناول طعام العشاء في منزل جيجي بريبته في تلك الليلة، ولهذا يتوجب علـيَّ أن أمرَّ على المطعم ثانية في المساء.

فلو علمت مارتشيلَّا بأنك موجود في البلدة ولم تظهر لتناول الطَّعام، فسوف تقلق. ولن يكون قلقها نابعاً من احتماليَّـة أن تكون تمارس عادتك اليوميَّـة في مكان آخر، ولكن من احتماليَّـة أن تكون مستلقياً في السرير، وقد تقرَّح حلقك، واستبدَّت بك حمًّى شديدة، إلى درجة تجعلك غير قادر حتى على إجراء مكالمة هاتفيَّـة. كان اهتمامها البالغ والصادق تجاه كل شخص مرتبط بالفريق -ولاسيَّما تجاهنا نحن الذين كنَّا زبائن المطعم الدَّائمين- شيئاً مدهشاً، فلم أرغب في جعلها تهرع بلا داعٍ إلى شقَّتي حاملة طبقاً من حساء الدَّجاج.

وحين دخلت إلى المطعم، لم أر أثراً لتونينو، ولكنَّني شاهدت پاولو ميكليني وزوجته. أصرَّا على أن أنضمَّ إليهما، ولو لوقت قصير. فبعد بقائه على دكَّة الاحتياط في المباريات الأربع الأولى، لعب ميكليني الذي يبلغ من العمر اثنين وثلاثين عاماً -وهو لاعب آخر في ما بدت أنَّها قائمتنا اللانهائيَّـة لِمَن لا تزيد أطوالهم على خمس أقدام وست بوصات أو خمس أقدام وسبع بوصات- المباريات الثلاث الأخيرة، فكان، بالنسبة إلينا، الرَّجل الأكثر تماسكاً في أرض الملعب بإمپولي.

وكان ميكليني يتمتَّع بمنظور فريد اكتسبه من لعب ثمانية مواسم متتالية في فريق كاستل دي سانغرو، وخاض الموسم الأوَّل حين كان الفريق يلعب في دوري الهواة. ولم يكن يتوقَّع البتَّة الوصول إلى دوري الدرجة الثانية، فهو يعرف حدوده جيداً -فلقد كان قصيراً، وليس شديد السرعة، ولا يمرِّر الكرة بدقَّة، ولم يُرزَق تسديدة قويَّـة بصورة خاصَّة- ويعرف أنَّه لم يكن يستطيع تحقيق ذلك وحده.

ولقد أخبرني في هذه الأثناء بأنَّه حتى لو لم يلعب بتاتاً دقيقة أخرى طيلة الموسم، فسوف يحظى على الأقل بشرف ارتداء زيِّه الرياضيِّ داخل تلك

الاستادات الأسطوريَّـة، كاستاد «دِيلّه آلْبِي» في تورينو، الذي شُيِّد من أجل بطولة كأس العالم سنة 1990، ويتَّسع لأكثر من 70000 متفرِّج؛ واستاد «لويجي فرّاسيس» في جنوا، الذي يتَّسع لأكثر من 40000 متفرّج، والذي يُعَدُّ على نطاق واسع أجمل الاستادات في أنحاء إيطاليا كافة؛ واستاد «سان نيقولا» المستقبلـيِّ في باري (السِّعة: 60000)، الذي شُيِّد أيضاً لبطولة كأس العالم على وجه الخصوص، والذي تعدُّه غالبيَّـةُ الفرق الزائرة المضمارَ الأكثر رهبة في البلاد.

ثم قال بالإنكليزيَّـة، وابتسامة عريضـة ترتسم على محيَّاه سعادةً: «هكذا.. سوف.. أكون.. محظوظاً»[127]!

فقلت: «نعم، يا پاولو. لو كنت محظوظاً حقاً، فقد تتمكَّن ذات يوم من رؤية الاستاد الجديد بكاستل دي سانغرو»!

وكانت دعوة بريبته لتناول العشاء مفاجأةً بالنسبة إلـيَّ، فاتِّصالي به، حتى وقت توجيه الدَّعوة، كان في حدوده الدُّنيا. كان يصل من أجل التَّدريب، ويتدرَّب بجدٍّ، ثمَّ يستحمُّ ويذهب إلى بيته.

ولكنَّه يبدو متحرِّراً من القيود الاجتماعيَّـة والأعراف التقليدية، إلى حدٍّ ما، وهي سمة لم تتأتَّ لكثير من «فتية» البلدات الصغيرة الذين لم يرتحلوا كثيراً، ولهذا ربما لم يكُن من المستغرب كثيراً أن يكون أوَّل لاعب يدعو الأمريكيَّ إلى بيته.

ولعلَّ الدعوة كانـت علـى الأرجح نزولاً عند رغبة زوجته، وهي تشيليَّـة مثيرة جداً تدعى ڤانيسَّا دياس تجاذبت معها أطراف الحديث بمطعم مارتشيلَّا، وقد أعربت للتوِّ عن سعادتها بقدومي إلى كاستل

دي سانغرو، لأنَّ الحديث على مدار العام مع لاعبي كرة القدم فحسب يضجرها إلى درجة الغضب.

كان جيجي وڤانيسًا يعيشان في شقة تبعد خمس دقائق عن مركز المدينة، وهو أمر يمكن أن يُقَال عن ثلاثة أرباع أعضاء الفريق. كانت المفاجأة الوحيدة وجود مدبِّرة منزل تشيليَّـة لديها، تحضِّر لهما وجبات الطَّعام أيضاً، على الرَّغم من أنَّهما لم يرزقا بأطفال بعد. أوضحت ڤانيسًا أنَّها لا تحبُّ الطَّهي، وأنَّ سأم الأعمال الروتينيَّـة، كالغسيل وتنظيف الشقة، يستنفد طاقتها التي تفضِّل الاحتفاظ بها لزوجها، علَّها تكون «زوجة صالحة».

ولكنَّ ڤانيسًا، التي كانت تمسِّد بيدها كتفي جيجي العريضتين وشعره البنيَّ الكثيف بيدها الأخرى، حين قالت ذلك، وترتدي تنُّورة قصيرة، قصيرة جداً، وسترة ضيِّقة، ضيِّقةً جداً، لم تترك الكثير مما يمكن أن تستحضره المخيِّلة.

كان بريبته في التاسعة والعشرين، ولد قرب روما، وسلك طريقاً مهنيَّـة شبيهة بمثيلاتها لدى لاعبي كاستل دي سانغرو الأكثر خبرة منه: خطوتين إلى الأمام، وخطوة إلى الوراء. قضى سنتين مع الفريق ذاته في الفئة الثانية بدوري الدرجة الثالثة، ثمَّ أربعاً في الفئة الأولى من الدوريِّ ذاته، متنقِّلاً بين ثلاثة فرق مختلفة. الراتب السنويُّ. ربما 25000 دولار. ثمَّ إنه قضى سنة في دوري الدرجة الثانية مع فريق هبط في نهاية الموسم إلى دوري الدرجة الثالثة؛ ثم سنة أخرى في الفئتين الأولى والثانية مع فريقين مختلفين. ولقد لعب مع فريق لوتِّي في الفئة الثانية من دوري الدرجة الثالثة، فريق آلبانوڤا، عند الحدود الشمالية لنابولي، حين اشتراه فريق كاستل دي سانغرو في السَّنة الفائتة.

كانت سيرته الذاتيَّـة سيرة مخضرم مثالية: تسعة أفرقة في أحدَ عشر موسماً، من بينها موسم وحيد، قبل كاستل دي سانغرو، في دوري الدرجة الثانية. لا يحتمل لاعب البيسبول في أمريكا تكريس سنين كثيرة لما يبدو من الواضح أنَّها لن تكون البتَّة أكثر من مجرَّد مهنة في دوري ثانويٍّ. أما إيطاليا، فإنَّ الأجر الذي يناله لاعب كرة القدم المحترف فيها، والمكانة الاجتماعيَّـة التي يحظى بها، يكفيان لإبقاء معظم الرِّجال يمارسون اللعبة طالما أقدامهم قادرة على ذلك. علاوة على أنَّ هذه المهنةَ، في إيطاليا، مهنةٌ بدوام كامل، ويبدأ التدريب للموسم القادم في غضون مدَّة لا تتجاوز الشهر بعد انتهاء الموسم السَّابق.

ولم يكن بريبته قد اكتسب أي كلمة إنكليزيَّـة طيلة رحلته [الطويلة في عالم الكالتشيو]، ولكنَّه كان سريع البديهة ويتمتَّع بما شعرتُ أنَّه موقف تهكميٌّ غير مألوف تجاه مهنته. احتسينا نبيذاً أحمر، حين بدأت مدبِّرة المنزل العجوز تضع أحجاماً وأشكالاً مختلفة من اللحوم على الأسياخ. كانت النار تشتعل مكشوفة في الموقد، فأشار بريبته إلى أنَّ اللحوم سوف تطهى على النار، جرياً على العادة الشائعة في تشيلي.

سألته كيف استطاع أن يتكيَّف، سنةً بعد سنة، مع زملاء جدد، وأسلوب لعبٍ جديد، وجمهور جديد، ونادٍ جديد، ومأكولات جديدة، ولهجات إقليميَّـة جديدة، ومناخ جديد، وظروف معيشة مختلفة إلى حدٍّ بعيد.

فقال، مبتسماً: «إنَّني قادر على التكيُّف».

ولكنَّ زوجته لم تكن ميَّالة إلى ترك السؤال يمرُّ مرور الكرام. فقالت ڤانيسَّا، وعيناها تعكسان وهج النَّار: «ليست المسألة هيِّنةً، فهذا النادي يُسيء المعاملة، على سبيل المثال».

فسألت: «كيف»؟

قال بربيته لزوجته، وهو يهزُّ سبَّابته ورأسه محذِّراً: «كفى».

«كلا، يا جيجي»! ثم انفجرت في زوبعة لفظيَّة غلبت فيها الإسپانيَّة في نهاية المطاف على الإيطالية، ذاكرة له كل الأسباب التي تفرض عليها ألا تصمت، ولماذا يتوجب عليها أن تقول الأشياء التي ترغب في قولها، وأنَّه لا يملك حق أن يخبرها بما تقول وما لا تقول، مثلما لم يمتلك الحق في إخبارها بضرورة ألا تبيت في روما حين ذهبت إلى هناك لحضور دروسٍ من المفترض أنَّها ستعلِّمها الإقلاعَ عن التدخين.

وحين أنهت كلامها، نظر جيجي إلـيَّ وقد امتقع وجهه استهجاناً. لقد تزوَّجتْه قبل ست سنين، حين كانت في التاسعة عشرة من عمرها، أيامَ لعبه في كالابريا، ومن الواضح أنَّها قد تخطَّت المرحلة التي رضيت فيها بأن تكون مجرَّد زينة.

قالت غاضبة، مشيرة إلى جيجي: «إنَّه غيور جداً. أترك البيت ليوم واحد، فيظنُّ أنَّني سأخونه»!

«من فضلك، يا ڤانًّا»!

«صحيح أم خطأ، يا جيجي؟ نعم أم لا»؟

«كلا، كلا، ولكن -»

«اخرسي!»

ولحسن الحظِّ، في تلك اللحظة تماماً، كما لو أنَّها كانت تعرف فانتظرت، دخلت «الطَّاهية-مدبرة المنزل» حاملةً أسياخ اللَّحمة إلى ڤانيسَّا لأخذ موافقتها قبل شيِّها على النار.

أومأت ڤانيسَّا دون أن تنبس ببنت شفة، ثم أشعلت سيكارة. اغتنمتُ

فرصة الصَّمت العابر، فسألت جيجي عما كانت تقصد حول سوء معاملة «لا سوتشتا»، متصوِّراً أنَّه سوف يفضِّل الحديث عن هذه المسألة بدلاً من شكوكه بشأن خيانة زوجته.

فقال: «لم يكونوا أمناء، فهم -على سبيل المثال- لم يدفعوا مكافأة اللاعبين، التي هي من حقِّ كل لاعب، وفق شروط التعاقد، بعد موسم أدَّى إلى صعود الفريق إلى دوري الدرجة الثانية. إنَّ مثل هذه الترتيبات المتعلقة بالمكافأة شرط أساسيٌّ في عقود جميع اللاعبين، ويمكن أن تكون مثمرة، حين تعدل في بعض الأحيان أجر سنة بأكملها. ولن تكون الفرقة راضية، بعد أن منع غراڤينيا المكافآت، حتى بعد حصول «لا سوتشتا» على مكافأتها الخاصَّة بمبلغ يزيد على خمسة ملايين دولار.

أكَّد برييته مقولته هذه بلا تردُّد، قائلاً: «نعم. لم نستلم شيئاً. لا شيء سوى كلام كثير من طرف غراڤينيا، ولا نقود أبداً».

فقالت ڤانيسَّا: «هراء كثير جداً، من ذلك الخنزير غراڤينيا»!

قال جيجي، وهو يكاد يتوسَّل: «[بالله عليك يا] ڤانَّا». لم تكن هذه الأمسية من النَّوع الذي تصوره زوجها، ولكنها عبَّرت في هذه اللحظة عن وجهة نظرها. قُدِّمت اللحوم، والسلطة، والخبز الشهيُّ. أَسَغْنَا الطَّعام بالكثير من النبيذ الأحمر، وتجاذبنا لأوَّل مرَّة أطراف حديثٍ مُهذَّبٍ عن عائلتي ومهنتي واهتمامي بالكالتشيو، وضحكنا على بعض الزلَّات جرَّاء الحاجز اللغوي. شعرت بالراحة، عند انتهاء المأدبة، كأنَّني في بيتي.

بدا جيجي أكثر راحة إلى حدٍّ بعيد حين أشعل سيكارة ما بعد العشاء. «تقول ڤانيسَّا إنَّني شديد الغيرة؟ لديَّ أسبابي، وذلك السَّافل غراڤينيا السَّبب الأوَّل»!

ولكنَّ ڤانيسا هي التي أرادت إغلاق الموضوع في ذلك الوقت، فقالت لي: «لا يوجد أحد آخر: لا رجلَ آخر، وحده جيجي»، ثم جلست في حضنه وراحت تقبِّله طويلاً وبشدَّة إلى درجة أنَّ سيكارته قد احترقت من تلقاء نفسها على بكرة أبيها، منسيَّـةً. خُيِّل إلـيَّ أنَّ الأمر قد حان كي أقول تصبحان على خير.

كانت تمطر بغزارة، فأصرَّ جيجي على أن يوصلني بالسيارة إلى شقتي. وفي الطريق، شكرته على العشاء. لم أعرف كيف أسأله، بأدب، إن كان رئيس النادي يجامع زوجته حقاً، ولكنني فكَّرت بضرورة أن أُلمِّح بعض الشيء إلى ڤانيسَّا، فسألته كيف تعرَّف عليها وتزوَّجها.

بدت ابتسامة جيجي كأنَّها تتجمَّد في وجهه، واحتدَّت نظرته كثيراً، وباغتني بالسُّؤال: «لم تريد أن تعرف»؟

«ليس لسبب بعينه. جميع اللاعبين المتزوِّجين الآخرين متزوِّجون من إيطاليات. فتساءلت كيف التقيت بامرأة من أمريكا الجنوبيَّـة وكيف تعرَّفت إليك».

نظر جيجي إلـيَّ مديداً حين جلستُ، بعضي في داخل السيارة وبعضي الآخر في خارجها. كانت تعابيره جادَّة، والتجهُّم يكاد يرتسم على محيَّاه، ثم قال: «ليس مهماً. إنَّه واحد من تلك الأشياء فحسب، فلنقُل إنَّني حظيت بضربة حظٍّ سعيد».

لم يزعجني جوابه، ولكن لا بُدَّ من القول إنَّه لم يَبْدُ سعيداً أكثر من ياكوني حين أخبرني في الليلة الفائتة أنَّ جوزيف آدو كان قادماً إلى البلدة.

16
الوافد الجديد

وصل جوزيف آدو، الذي لم يكن عضواً في المنتخب القومي الغانيِّ فحسب، وإنَّما قائده أيضاً، يوم الخميس. وقف لالتقاط الصور الفوتوغرافيَّـة، وأجرى عدداً من المقابلات الصحافيَّـة والتلفزيونيَّـة، حال وطأت قدماه أرض ملعب التدريب. استمتعت بالإنصات إلى تلك المقابلات، لأنَّني فهمت إنكليزيَّته التي لا عيب فيها، ولكنني شعرت بالأسى تجاه جوزبِّه الذي كانت محاولاته في الترجمة شيئاً أقل من أن تكون ذكيَّـة وبارعة.

سؤال: دَا دُوڤِهْ سِيِيْي ڤِنُوتُو؟[128]
جوزبِّه: من أين أتيت؟[129]

آدو:	حسناً، يمكنني الإدلاء بإجابات كثيرة، معتمداً على ما تقصده بالضَّبط. لقد ولدت في غانا، ولكنني ذهبت إلى الجامعة في الولايات المتحدة الأمريكية. ولكن إن كنتَ تقصد الأماكن التي احترفت اللعب فيها، فإنني أظنُّ بأنَّ شتوغارت وفرانكفورت سيكونان أبرز مكانين، بالطَّبع، ولا بُدَّ أن تضع في الحسبان الألعاب الأولمبيَّة التي أقيمت في أطلانطا الصيفَ الفائت، حيث لعبتُ مع المنتخب القوميِّ الغانيِّ.
جوزبِّه (بعد صمت طويل):	مِن روما، هذا الصَّباح، مع السيِّد غراڤينيا.

ثمَّ بدأ التَّدريب. ولكنَّني، بعد ساعتَيْن، كنتُ أطيرُ من الفرح، حين غادرت ملعب التدريب، رفقةَ المئات الآخرين من مشجِّعي كاستل دي

سانغرو الذين حضروا لرؤية الوافد الجديد. فآدو يمتلك لمسة فطريَّـة في التعامل مع الكرة، لن يستطيع محاكاتها أحد من لاعبينا ولو حاول طيلة الوقت الذي تبقَّى من حياته. ولقد أظهر أيضاً، في اشتباك قصير بين أعضاء الفرقة، أنَّه يعرف بالفطرة مكانه الأفضل وهو يراقب اللعب ينفتح ويتدفق من حوله ونحوه.

ولقد كان ينتزع الكرة بسهولة، حين يلعب في الدِّفاع، من أي مهاجم أو لاعب خطٍّ وسط يقترب منه. ثم يمرِّر الكرةَ -بالحركة ذاتها- بدقَّة لا يمكن أن تخطىء، إلى أحد أعضاء الفريق الذين يلمحهم على بُعْد ثلاثين ياردة أو أربعين.

وكان أسرع من أي لاعب آخر في الفريق، وأظهر على وجه السرعة أنَّ براعته في ضرب الكرة برأسه، سواء في الهجوم أو الدِّفاع، تفوق إلى حدٍّ بعيد براعةَ أي لاعب سبق له أن لعب في كاستل دي سانغرو.

ولم يكن مغروراً البتَّة، فلقد أحجم آدو عشرات المرَّات خلال الموسم على الأقل عن لعب الكرة بتلك المهارة الفطريَّـة، حين شعر بأنَّ ذلك سوف يُحرج خصمه. لقد امتلك ما يكفي من الثقة بالنَّفس يجلعه يأنف من التَّباهي على حساب لاعب آخر قد يزامله في المستقبل.

يا إلهي! كان من الصَّعب تصديق أن هذا الرَّجل قد جاء إلى كاستل دي سانغرو، ورغب لسبب ما في اللعب لصالح فريقنا. وأظنُّ أنَّ أجوبته في المقابلات على أسئلة لماذا؟ لم تحمل الكثير من المعلومات على نحو مقصود. لم أستطع الانتظار كي أسمع حكايته الحقيقية بمطعم مارتشيلا، وبما أنَّني سأكون الشخص الوحيد الذي يمكن أن يخبره بالإنكليزيَّـة، فقد عرفت أنَّني سوف أتمكَّن من ذلك.

ولكنَّ لوقا دانجلو هرع إلـيَّ، قبل أن أتمكَّن من مغادرة ملعب التَّدريب، وهزَّ كتفيَّ، بكل ما في الكلمة من معنى، معبِّراً عن دهشته. ثم قال، وهو على وشك أن يحقِّق أولى محاولاته النَّادرة بالإنكليزيَّـة: «إنَّه جيد جداًا! إنَّه أفضل من أي واحد منَّا»!

كان مطعم مارتشيلَّا في ذلك المساء أكثر صخباً من المعتاد، وجميع الموجودين على طاولة الفريق يرغبون في الحديث إلى آدو دفعة واحدة، بأي لغة كانت. أراد كل واحد أن يُريه شيئاً ما، أن يخبره بشيء ما، أن يسأله شيئاً ما، أن يتأكَّد أنَّه يعرف كم هم سعداء لوجوده بينهم.

أما هو، فقد تبيَّن أنَّه آسر، وظريف، وذكيٌّ، رجل مسَّتْ شخصيَّته شغافَ قلوب أعضاء فريقه بقَدْرِ ما خلبت ألبابهم مهارته في الملعب، منذ الحصَّة التدريبية الأولى فحسب.

درس أربع سنين بجامعة جورج ميسن في ڤرجينيا بمنحة تمنح للاعبي كرة القدم. وكانت إنكليزيَّته بمثل طلاقة إنكليزيَّتي، وخفَّة ظلِّه ثاقبة. وفي غانا، قاد منتخبَي الشباب تحت سنِّ 17 وسنّ 21، بالإضافة إلى المنتخب القوميِّ، وكان أحد ثلاثة لاعبين، فوق سنِّ الثالثة والعشرين، اختيروا للالتحاق بالفرقة الأولمپيَّـة التي لعبت بأطلانطا في شهر يونيو. كان آدو حجر الزَّاوية في دفاع قاد غانا إلى الدَّور نصف النِّهائي، ثم لعب سنتين، بعد ذلك، لصالح نادي شتوتغارت، قبل انتقاله إلى آينتراخت فرانكفورت في الموسم الصيفيِّ.

قـال: «ولكنَّني لا أحبُّ ألمانيـا. أنا تعـس فـي ألمانيا. ليـس السبب العنصريَّـة فحسب، على الرَّغم من أنها فظيعة. الألمان باردون حتى تجاه

بعضهم. لذا، فقد قال لي أحد الأصدقاء إنَّ إيطاليا ليست على ذلك النَّحو، فجئتُ إلى إيطاليا، الطقس دافئ والنَّاس أكثر دفئاً، ويلعبون كرة القدم على نحو جيد. أعتقد أنَّني أستطيع لعب سنة في هذا المستوى [دوري الدرجة الثانية] كي أعتاد على أجواء إيطاليا، ثمَّ أنتقل في السنة التالية إلى دوري الدرجة الأولى.

ولكن، لماذا كاستل دي سانغرو؟

«حسناً، في البدء كان فريق بادوفا. ولكنني حين وصلت إلى هناك، تحدَّثت مع بعض النَّاس -من السُّود- الذين يعرفون بعض الأشياء. فأخبروني أنَّ «العنصريَّـة razzismo» ضدَّ السُّود شنيعة جداً في بادوفا. أخبروني أنَّني سوف أشاهد، في كل أسبوع، الموزَ يُلقَى على الملعب والنَّاسَ يرتدون بزَّات على شاكلة الغوريلَّا. مهلاً! أستطيع، لهذا السَّبب، البقاء في ألمانيا وتحمُّل كل شيء لسنة أخرى».

«ولكنَّ صديقي الذي في بادوفا قال لي حينئذ إنَّه يعرف فريقاً صغيراً جداً، في بلدة صغيرة جداً، جديدة على دوري الدرجة الثانية، لن أواجه فيها البتَّة أي مشاكل مرتبطة بالعنصريَّـة. وكان السيِّد غرافينيا قد اتصل بي ودعاني إلى هنا، وصحبني هذا الصباح إلى هذه الطريق الجميلة التي تفضي إلى قصر، يرتقي عالياً في الجبال، ليقدِّمني إلى رجل عجوز، إلى السيِّد ريتسا، الذي من الواضح أنَّه صاحب المال والسُّلطة».

فضحكتُ، «آه، نعم. إنَّه يمتلك المال والسُّلطة».

«على رسلك! عرَّاب صغير أستطيع العيش معه. ولكن لا بأس بهذه البلدة غالباً»؟

فقلت له: «غالباً، إنها عظيمة. أستطيع أن أضمن أنَّك لن تسمع كلمة عنصريَّـة واحدة من أي شخص. لا تجري الأمور هنا على ذلك النَّحو،

فالنَّاس هنا مميَّزون حقاً. ولاعبو الفريق، دون استثناء، أناس من الطِّراز الأوَّل، أرقى النَّاس جميعاً، على الرَّغم من أنَّهم ليسوا أقوى اللاعبين في إيطاليا».

فقال آدو: «نعم، فلم أشاهد عصر هذا اليوم كثيراً من أولئك القادرين على اعتراض الكرة على شاكلة لاعبي فرانكفورت، ولكن لا بأس، سأقوم بواجبي. لا أدَّعي بأنَّني سأكون مهاجماً [لا يشقُّ له غبار]. ولكنَّني لم آت إلى هنا لأقوم بتسديد عشر ضربات في المباراة الواحدة فحسب. ولكن، إذا كان جزء من المشكلة كامن، مثلما أخبروني، في حاجتهم إلى مزيد من التَّنظيم في الخلف وخطِّ الوسط، فأعتقد جاداً أنني أستطيع المساعدة».

كانت صحف اليوم التالي مليئة، طبعاً، بأخبار وصول آدو، وكيف سيحوِّل وجودُه كاستل دي سانغرو من فريق سيحلُّ في ذيل ترتيب الفرق بدوري الدرجة الثانية بالتأكيد، إلى فريق قد يحظى بفرصة ليكافح من أجل «الخلاص».

كان العنوان الرئيس لمقالة جوزبِّه التي أفردت لها صحيفة «إل تِشنْترُو» صفحةً كاملة على هذا النَّحو: «إفريقيٌّ ينضمُّ إلى القلعة Un africano per il Costello». وتحت العنوان صورة آدو، وهو يبتسم، واقفاً بجوار ياكوني المتجهم.

لسوء الحظِّ أنَّ الأعمال الكتابيَّـة لانضمام آدو رسمياً إلى الفريق لن تكون جاهزةً في الوقت [المناسب] الذي يسمح له باللعب ضدَّ پادوڤا، ولكنَّ غراڤينيا عيَّن باربرا مترجمةً لآدو خلال مفاوضات الوصول إلى العقد النِّهائيِّ. ولقد أخبرتني صبيحة السَّبت أنَّ خلافاً في وجهات النظر

قد ساد، ولكن بنبرة هادئة، حول ما يُعَدُّ راتباً منصفاً، ولكنَّ «لا سوتشتا» توصلَّت في النهاية إلى حلٍّ وسط، فوقَّع آدو.

وهكذا، اقتربتُ من ياكوني، تغمرني المسرَّة، بعد غداء يوم السَّبت بمطعم مارتشيلَّا. ففي غضون ساعة سوف يغادر الفريق -بعد انضمام آدو (على الرغم من أنَّه لن يتمكَّن من اللعب بعد)- متوجِّهاً إلى الفندق الذي سوف يقيم فيه في پسكارا، جرياً وراء عادة الفريق حين يخوض مباراةً خارج أرضه.

وقف ياكوني على الدَّرابزين، يقسم قطعاً من رغيف خبز بائت أخذه من مطعم مارتشيلَّا، ويطعمها للبطِّ في النهر الذي في الأسفل.

فأفصحتُ له: «عظيم، يا أُزڤالدو»!

فعبسَ، ثم قال: «ربما، ربما، ربما، وربما ليس كذلك».

خمَّنتُ في هذه اللحظة أنني قد عرفت شيئاً لم يعرفه هو بعد، فأخبرته أنَّ «ربما» لم تَعُد تنطبق على الوضع بعد الآن، فلقد وقَّع آدو العقد للتوِّ.

فقال ياكوني: «نعم»، ملقياً ما تبقَّى من رغيف الخبز البائت في النَّهر دفعة واحدة. «أجل، لقد وقَّع آدو العقد، ولكنَّ «لا سوتشتا» لم تفعل بعد»، ثم بدا مضطرباً بمقولته تلك، كالبطِّ الذي في الأسفل وهو يتقاتل على كتل الخبز الأخيرة، فتركني مبتعداً بسرعة.

كان غريباً أن أشاهد كاستل دي سانغرو يدخل إلى أرض الملعب ضدَّ پادوڤا. فقبل سنتَيْن، حين اختير ألكسي لالاس واحداً من أفضل خمسة لاعِبين أجانب جدد في دوري الدرجة الأولى، هزم پادوڤا فريق جنوا في مباراة فاصلة، أُجريت بعد انتهاء الموسم النِّظاميِّ، للمحافظة على المرتبة الأولى التي يحتلُّونها.

ولكنَّ فريق پادوڤا، حين غادره لالاس في منتصف الموسم للمساعدة في إطلاق دوري الدرجة الأولى بكرة القدم في أمريكا، حلَّ في المركز الأخير، فهبط إلى دوري الدرجة الثانية، رفقةَ باري وتورينو وكريمونييسه.

ولقد سبق لنا ملاقاة كريمونييسه، وفزنا عليه، وسط دهشة الجميع. ولكنَّ پادوڤا بدا فريقاً أصلبَ عُوداً، كُتبَ عليه أن يعود سريعاً إلى دوري الدرجة الأولى. وكان للتوِّ قد جمع أربع عشرة نقطةً، مقابل سبع لنا، وهو مجموع أهَّلهم لاحتلال المرتبة الثالثة في الدوريِّ. لقد وقَّعوا للتوِّ عقداً مع واحد من أكثر أساطير الكالتشيو صموداً في الملاعب؛ حارس المرمى ڤالتر زينغا.

لعب زينغا، طيلة أحد عشر عاماً، منذ 1983 حتى 1994، حارس مرمى إنتر ميلان، وظهر خلال تلك الفترة ثماني وخمسين مرَّة حارساً لمرمى المنتخب القوميِّ. وبعد أن ترك الإنتر عامَ 1994، وهو في الرابعة والثلاثين من عمره، لعب زينغا -الذي كان بارعاً في الاستعراض، ومنغمساً في الملذَّات لا يأسف على شيء- موسمَيْن لصالح سامپدوريا الجَنَوِيِّ، على الرَّغم من أنَّه لم يكمل الموسم الأخير بسبب الإصابة.

من الواضح أنَّ زينغا الذي كان في سنوات مجده الأخيرة، ولكنَّه مازال يتمتَّع بتأثير كبير -وعُدَّ منذ سنين طويلة، من جانب سكَّان أبروتسو، شخصيَّـة غير عاديَّـة- سيتولَّى حراسة المرمى ضدَّ كاستل دي سانغرو. وكان حضوره، في حدِّ ذاته، قد جعل هذه المباراة أهم المباريات لنا حتى اليوم.

وكانت المباراة ستغدو الأنسب لتدشين الاستاد الجديد، على نحو لم يكُن ليخطر ببال أحد، ولكنَّ غراڤينيا أعلن مرَّة أخرى أنَّ الافتتاح، نظراً

«إلى نقص الموادّ ومشاكل التسليم والتأخيرات ذات الطبيعة الفنيَّـة غير المتوقَّعة»، سوف يتأجَّل أسبوعين آخرَيْن، حتى مباراتنا ضدَّ بريشًا.

تساءلتُ، وأنا أرى الرجال العشرة أو الاثني عشر ذاتهم يستندون كسالى إلى المعدات ذاتها يوماً بعد يوم ولا أعمال تشييد تُنجَز بتاتاً، إنْ كانت «التأخيرات ذات الطبيعة الفنيَّـة» ليست إلا مجرَّد كلمات ترمز إلى رفض السيِّد ريتسا المتواصل إنفاقَ الأموال المطلوبة كي يحضر العمالة الضروريَّـة للانتهاء من العمل.

ولكنَّنا كنَّا قد حضرنا إلى تشيتي مرَّة أخرى على أي حال. وقبل عشر دقائق من بدء المباراة، كان جوزيف آدو موجوداً في المقعد الفارغ إلى يميني. (كنتُ قد انتقلتُ إلى الخلف بضعَةَ صفوف وقسماً بأكمله إلى يمين «الرئيس»، منسجماً مع ما قالته لي باربرا بخصوص أنَّ غراڤينيا أبدى أسفه على وجودي في كاستل دي سانغرو. وهكذا، فإنَّه لن يكون مضطراً إلى تحمُّل مزيد من لكزات الفرح التي أسدِّدها إلى ذراعه في كل مرَّة نسجل فيها هدفاً- مفترضاً أنَّنا سنسجل ثانية).

شرعت في الحديث إلى آدو مخبراً إياه أنَّني كنت سأشعر بالرَّاحة أكثر لو وُجد في الملعب اليوم بدلاً من الجلوس إلى جانبي، حين رفع يده وكآبة عميقة تنتشر على وجهه الوسيم، قائلاً: «لن يحدث ذلك أبداً».

«ماذا تعني»؟

«لقد أخبرني ياكوني ليلة الأمس في الفندق أنَّه لا يريدني».

«ماذا تقصد»؟

فهزَّ آدو رأسه متبرِّماً، ثم قال: «لقد أخبرني ياكوني -وأنت تعرف أنَّ إنكليزيَّته المكسَّرة ليست بذلك السُّوء الذي يحول دون أن يخبرك بخداعه

لك- أنَّ النادي لن يوقِّع العقد البتَّة. لقد أرادوا التوقيع معي حتى لا يحظى بتوقيعي أي ناد آخر في إيطاليا، وأتمكَّن من اللعب ضدَّهم. يقول ياكوني إنَّني لا أستطيع اللعب لصالحه، فسأستغرق وقتاً طويلاً لأتعلَّم تكتيكاته».

فصرختُ: «تكتيكاته»! كنت في الحقيقة قد نهضت من مقعدي قليلاً. «هذا أكثر شيء مثير للضَّحك سمعته طيلة العام. تنطوي «تكتيكات» ياكوني على ركل الكرة أبعد قدر ممكن عن مرماه كلما سنحت الفرصة لذلك، آملاً أن تنتهي كل المباراة بالتَّعادل دون أهداف».

فقال آدو بهدوء، وقد أمسك بذراعي: «أجل، ولكن يا جو، يتوجب أن تجلس. فذلك الرَّجل العجوز الذي يسكن في الجبل يحدِّق فيك، علاوة على أنَّه لا يوجد أحد يمكنه تغيير قناعة ياكوني».

وحين تفوَّه بتلك الملحوظة النَّافرة، بدأت المباراة. أثبت كريستيانو في خط الوسط، مرَّة أخرى، أنَّه قادر على إثارة الدهشة، في حين بدا دي ڤنتشنسو، الذي شرع في هجمة، كأنَّ الطَّاقة قد دبَّت فيه مجدَّداً، فركض بوتيرة وعزيمة لم نشهدهما منذ مباراة الموسم الأولى. وكان المدافع لوقا دانجلو، في هذه الأثناء، يلعب عن أربعة لاعبين، محبِطاً بشكل شخصيٍّ كل هجمة يشنُّها پادوڤا تجاه المرمى، ومانحاً لوتِّي، في المُجريات الأولى للمباراة على الأقل، أهنأ فترةِ عصرٍ استمتع بها طيلة الخريف.

ومما لا شك فيه أنَّ توقُّعات پادوڤا أخذت، بعد نصف الساعة الأولى، تتضاءل على نحو دراماتيكيٍّ. بدا الأمر كأنَّهم قد أجمعوا على مسألة واحدة: إذا كانت هذه المباراة لن تمرَّ بسهولة، فلتذهب إلى الجحيم. أخفق پادوڤا في التقدُّم الهجوميِّ، نظراً إلى الإحباط المستمرِّ الذي أصابهم بسبب سرعة دانجلو وقراءته الفطريَّـة لمجريات المباراة. وبدا مدرِّبهم، على الرغم

من فائض المواهب التي يتمتَّع بها الفريق، من أنصار المدرسة التي ينادي بها ياكوني: «تعادل في بداية الموسم لا يقلُّ بهاءً عن الفوز».

وكنَّا نحن، كاستل دي سانغرو، قد تخلَّصنا، حين أشرف الشوط الأوَّل على النهاية، من عقدة افتقارنا إلى ضربة قويَّـة نسددها بين حين وآخر؛ حين سدَّد دي ڤنتشنسو، على وجه الخصوص، تسديدةً قويَّـةً أجبرت زينغا على صدِّها ببراعة. أما «التَّكتيكات» التي قد لا يكون جوزيف آدو قادراً على استيعابها، فذاك أمر مناف للعقل!

أخبرني آدو، في الشوط الأوَّل، أنَّ «الأطفال يركلون الكرة في ساحات المدارس ثم يركضون على أمل أن يتمكَّن أحدهم من ركلها مرَّة أخرى. هذه ليست تكتيكات، إنَّما عشرة لاعبين يلعب كل واحد بمفرده، ولو تمكَّن اثنان من التَّضافر لفعل شيء مفيد، فمن قبيل الصدفة فحسب، وليس وفقَ خطَّة. وحين أخبرني ياكوني، ليلة الأمس، أنني لن أكون مناسباً للَّعب، شعرت بالصَّدمة وبخيبة أمل عظيمة. ولكن الآن، بعد أن شاهدت طريقة اللعب هذه، فإنني أشعر بالإهانة».

وحين نهض لشراء بوظة، صفَّق له مئات من مشجِّعي كاستل دي سانغرو الموجودين في المنطقة والجاهلينَ بالأمر، بحرارةٍ، هاتفين بعبارات التَّشجيع التي مفادها أنَّه ما إن يدخل إلى أرض الملعب حتى يتغيَّر كل شيء.

ولكنَّ آدو أخبرني وهو يعود إلى مقعده: «ولكن الآن، فكل ما قلته لك سرٌّ. يقول ياكوني إنَّ «لا سوتشيتا» ترغب في «تبنِّي» وجهة نظر مختلفة. حسناً، كما تعلم، هو لم يقل ذلك حرفياً، ولكنَّه أفصح عن الفحوى بكل وضوح. ولو عرفوا أنَّني أتذمَّر علانيةً بشأن معاملتهم لي، فسوف يجعلون

الأمر في غاية الصعوبة إلى درجة أنَّني لن أتمكن من اللعب في إيطاليا ثانيةً، وربما لن أتمكَّن أبداً من إيجاد عمل في بلد آخر أيضاً».

لم أُطِق إلا أن أنهض ثانية، مُزنِّراً عينيَّ جهة ريتسا وغرافينيا، قائلاً: «هذان الوغدان البائسان»!

«نعم، ولكنَّك تعرف كيف يُدار العالَم. أرجوك أن تجلس يا جُو. لا أريد أن أثير بلبلةً حقاً. أريد أن أخرج من هنا فحسب. لذا، أرجوك، لهذا اليوم، وغداً، والأسبوع القادم، الحقيقة لديك وحدك. أنا آسف لأننا لن نتمكَّن من التعرُّف إلى بعضنا، وآسف لأننا لن نتمكن من أن نغدو صديقَيْن. فبعد أن أحضروني إلى هنا، ها هم أولاء يرسلونني بعيداً، بسبب ياكوني، ولا بُدَّ لي الآن أن أواصل مسيرتي المهنيَّة. سأحاول أن أرسل بطاقة معايدة من هولندا، فلديَّ عرض من نادي سپارتا روتردام».

دخل لاعبو بادوڤا لخوض الشوط الثَّاني كأنَّ أحداً أخبرهم بأنَّ حافلة النادي قد غادرت دونهم. بدوا فجأة منحوسين وعاجزين ويائسين. لقد أحكمنا السيطرة على مجريات المباراة تماماً، ولوقا دانجلو يواصل تأكيد نفسه في الدِّفاع كما لم يفعل أحد قبله طيلة العام قطُّ.

وها هو ذا مارتينو، الذي بدا كأنَّه يلعب في أرضه ولا يشعر بالحنين إلى الدِّيار، يسدِّد في الدقيقة الستين ضربةً رأسيَّة قويَّة تطلَّبت براعة استثنائيَّة من زينغا لينقذها، ثم واصلنا التقدم هاجمين، طيلة عشر الدقائق التالية، غير خائفين من اسم فريق خصومنا الكبير، وشاعرين بفرصة مواتية لتحقيق فوز ثالث في تشيتي.

ثم بدا الأمر، وفقاً لمجريات اللعب، أكثرَ حتميَّةً من كونه مثيراً للدهشة، حين كاد دي ڤنتشنسو يسجل هدفاً في الدقيقة الرابعة والسَّبعين؛

فلقد مرر مارتينو كرة عرضية، قبل ثانية، من الزاوية، فسدَّدها دي ڤنتشنسو إلى المرمى مباشرة، ولكنَّ زينغا حال دون تسجيل الهدف ببراعة لم تشهدها المباراة من قبل.

ولدى تنفيذ الضربة الركنيَّة التي نجمت جرَّاء ذلك، وقف مدافعو پادوڤا بلا حراك، سامحين لدي ڤنتشنسو بقذف الكرة، لتنطلق في حركة قوسيَّة وتخبطَ عشب الملعب، ثم تدكَّ المرمى متجاوزةً زينغا، في تسديدة قويَّة لا يمكن لأي حارس مرمى أن يصدَّها.

عمَّ الهوس، عقب ذلك، والفوضى العارمة. ورغم غضبي من المعاملة التي تلقَّاها آدو، فإنني قد انضممت إليهم. ولو استمرَّ الوضع على هذا النَّحو طيلة الخمس عشرة دقيقة الباقية، فسوف يكون هذا الفوز أكبر فوز في تاريخ كاستل دي سانغرو. ولم يساورنا أي شك، ولا لمرَّة واحدة، أنَّ تقدُّمنا لن يتواصل. فلغة أجساد لاعبي پادوڤا في الملعب تشي بأنَّهم قد استسلموا للهزيمة، وانتهت المباراة حتى دون أي موجة من الإثارة الإضافية.

تصافحنا أنا وجُو آدو لآخر مرَّة، ثم غادر الاستاد نحو سيارة استأجرها غراڤينيا لتقلَّه إلى روما، كي يستقلَّ الطائرة الذاهبة إلى فرانكفورت من دون رجعة. كنتُ مصدوماً، وكنتُ غاضباً، وكنت مذعوراً.

لكنَّنا، من ناحية أخرى، تغلَّبنا على پادوڤا.

17
مباراة كارثيَّة

في شهر نوفمبر، أحدهم غيَّر مسرح الأحداث بلمح البصر. لفَّت الجبالَ فجأة غيومٌ واطئة، ولم تعد درجة الحرارة تتجاوز أدنى الدرجات المسجلة في الصباح. ظلت النَّهارات كئيبة ذات طقس بارد ورطب على نحو فظيع، وحين أزف وقت التدريب عصراً، كان الضباب الهابط قد حجب التلال القريبة.

ولم يكن التغيُّر الذي طرأ على الأمزجة أقل دراماتيكيَّـة، فالنشوة التي أعقبت فوزنا على پادوڤا دامت يومَيْن بالضَّبط: إذ لم يعرف اللاعبون أنَّ جوزيف آدو لن ينضمَّ إليهم في نهاية المطاف، إلا بعد عودتهم يوم الثلاثاء.

أصابتهم الحيرة، في البدء، ثمَّ عمَّهم الغضب. همس جيجي بريبته إلـيَّ: «لا سوتشتا». ألم يخبرني؟ لم يكن غراڤينيا غير شريف فحسب، وإنَّما بخيل أيضاً. لقد غادر آدو، لأنَّ «لا سوتشتا» رفضت أن تدفع له ما يستحقُّ.

أعرف أن هذا ليس صحيحاً، ولكنها كانت الحكاية التي أشاعها غراڤينيا، ولكن بصورة مختلفة. روى جوزبِّه في صحيفة «إل تِشنْترُو» أنَّهم قد توصَّلوا إلى اتفافيَّـة، ولكنَّ آدو أصرَّ فجأةً، وفي اللحظة الأخيرة، على مضاعفة راتبه.

أذاع أحد مساعدي غراڤينيا على الفرقة: «لقد كان ابتزازاً صريحاً! ولن تخضع «لا سوتشتا» إلى مثل ذلك الابتزار، فهي تتمتَّع بكرامة كبيرة،

وأخلاقيّات عالية». لم أستطع تحديد إن كان استخدام كلمة «ابتزاز» تورية عرضيَّةً أم توريةً مخادعة مقصودة، ولكنني أعرف أنَّ التَّوضيح برمَّته كان كذبةً.

أعتقد أنَّني كنت سأعرف بالغريزة حين قابلت آدو، أو حتى من لقائي المقتضب مع ياكوني حين كان يقذف خبزه فوق المياه (أو، على نحو أقل حذلقة، حين كان يطعم البطَّ خلف مطعم مارتشيلَّا).

ولكن كان علـيَّ في هذه الحالة أن أعتمد على رواية آدو، وكانت باربرا قد أكَّدت لي ذلك أيضاً.

قالت لي: «لقد وقَّع العقد. كنت أجلس إلى جانبه حين فعل ذلك. حتى إنه قد استخدم قلماً سلَّمْته إياه. لم يكن سعيداً بالمبلغ المعروض، ولكنَّه أحبَّ اللاعبين الآخرين كثيراً، وترحابَهم الذي بدا أصيلاً، وجميعَ الأشياء الجيدة التي أخبرتَه عنها بخصوص البلدة».

«أتذكَّر ما قاله عن السيِّد ريتسا، «ذلك العجوز الوغد البخيل»، ولكنَّه تبسَّم حينئذ؛ لم يكن غاضباً، ثم قال: حسناً، أظن أنَّني قد أستطيع تحقيق الفَرْق السَّنة القادمة في دوري الدرجة الأولى».

«وهل وقَّع أحد نيابةً عن لا سوتشتا»؟

«لم أشاهد ذلك يا جُو. لا أعرف. ولكنني أعرف أنَّ آدو حين غادر المكاتب صباح السَّبت، شعر أنَّه قد أصبح فرداً من الفريق. كان الحديث الوحيد في النهاية عن كيفيَّـة إحضار ما تبقَّى من حوائجه في فرانكفورت».

كان غضبي جرَّاء المعاملة الدَّنيئة التي تلقَّاها آدو قد تغلَّب على أي مشاعر سلبيَّـة غمرتني حتى تلك اللحظة، فلقد شدَدْنا «نحن» من أزر

بعضنا، منذ البداية، حين انطلقنا في طريقنا الطويل نحو «الخلاص»، ثم غدت المسألة تتعلَّق بـ «نحن» و«هم»، حين بدأت أفهم الأمور بالتَّدريج، متبنِّياً وجهة نظر اللاعبين بخصوص «لا سوتشتا». الآن، وقد بدأت تلك الحقبة من الموسم التي أخذت أفكِّر فيها على أنَّها حقبة «ما- بعد- آدو»، أصبحت المسألة تتعلَّق بـ «نحن» و«هم» و«هو». ولم تؤدِّ حقيقة أنَّه، «هُوَ»، كان جاري القريب إلى تحسين الوضع، بل لعلَّها قد زادته سوءاً؛ فلدى ياكوني الكثير مما ينبغي الإجابة عنه: ليس لي، وإنما لفريقه.

وبينما أنا ذاهب إلى التدريب عصرَ يوم أربعاء بارد ورطب، كانت السماء فيه رماديَّـة، صادفْتُ السيد ريتسا، بسيكاره وحرَّاسه الشخصيِّين، واقفين عند طرف موقع البناء الذي دبَّت فيه آخرَ المطاف بعض علامات النَّشاط والعمل، على الرغم من أنَّها ليست كافية، من وجهة نظري، ليكون الاستاد جاهزاً للمباراة ضدَّ بريشَّا.

لاحظتُ، عند اقترابي من السيِّد ريتسا، أنَّ ابنة اخته ماريا تريزا كانت معه أيضاً.

فقلت «بُونَا سِيرَا» [عمتم مساءً]، لكون هذه التَّحية قد حلَّت محلَّ عبارة «بونجورنو» في هذا الجزء من إيطاليا، إقليم أبروتسو، ذات لحظة مبهمة في بداية فترة العصر، بخلاف الشَّمال، حيث ظلَّ استخدام «بونجورنو» سارياً إلى بدء فترة خروج النَّاس للتنزُّه سيراً على الأقدام في المساء.

فردَّ السيِّد ريتسا ناخراً: «سَالْڤِهْ»، وهي تحيَّـة من قبيل «مرحباً»، لا توحي بالمودَّة ولا حتى بغيابها.

وقفتُ عند طرف المجموعة للحظة، ولكنَّ أحداً لم ينبس ببنت شفة ولم ينظر إلـيَّ أحد. ظلَّ دخان السيكار منتشراً بكثافة في هواء نوفمبر البارد.

وأخيراً، أخرج السيد ريتسا السيكار من فمه، ونظر إلـيَّ، قائلاً: «أنت بخير. التكلفة مستمرَّة».

أخيراً! الرجل العجوز يستطيع التكلم، ولقد آمن بسحري أيضاً، ثم قال: أنتَ تجلبُ الحظَّ السَّعيد، حافظ على ذلك. ثلاثة انتصارات وتعادل واحد من المباريات الخمس التي حضرتها؛ وثلاث هزائم، بلا أهداف، من تلك التي لم أحضرها. سرعان ما سوف أُصدِّق نفسي.

فأجبته: «حسناً، سأحاول. ولكنَّ الأمر مؤسف بخصوص آدو». فسمعت، إلى يميني، نفساً عميقاً زفرته ماريا تريزا. لعلَّ إثارة هذا الموضوع قد غدت للتوِّ من المحرَّمات.

فردَّ ريتسا على الفور، قائلاً: «اسمع Senti»، وهو يدفع بقوة يدهَ التي تمسك السِّيكار، عدَّة مرَّات. «اسمع: أنت أتخبرني؟ لِمَ لا تتكلم مع جارك»؟

ثم لوَّح بالسِّيكار في حركة قوسيَّـة واسعة بدت على نحو واضح كأنَّها إشارة للانصراف.

وكنت، بالطَّبع، قد تحدَّثت إلى ياكوني بخصوص آدو عدَّة مرَّات. لم تفلح طريقتي برمي الحصى على البلدوزر في تحسين الصورة.

قال، في البداية: «اذهب واقرأ الصحف، القصة هناك». وحين أخبرته بأنَّني أعرف أنَّ الحكايات المنشورة في الصحف مزيَّفة -مذكِّراً إياه بإقراره عصر السَّبت أنَّ آدو قد وقَّع العقد- أنهى الحديث، رافضاً الكلام بشأن ذلك، ثم مضى في طريقه مبتعداً.

وأخبرني لاحقاً أنَّ آدو كان سيستغرق وقتاً طويلاً جداً ليتعلَّم الأشياء بالطريقة التي رغب فيها هو.

فسألته، بطريقة غير مهذَّبة البتَّة، «لماذا؟ أَلِأَنَّهُ أجنبيٌّ، أم لأنَّه زنجيٌّ»؟ أعرف أنَّ ياكوني لم يسبق أن حظي بلاعب أسود في أي من الفرق التي درَّبها، وخامرني شعور قويٌّ بأنَّه لا يرغب في وجود واحد.

«احترس يا جُو»!

فأجبته غاضباً: «أرسلته بعيداً دون سبب»!

«لديَّ جميع الأسباب الموجبة في العالم أجمع، ولكنَّني لن أجيبك».

«ثمَّة سبب واحد: العنصريَّـة». أدركت هنا أنَّني قد ذهبت أبعد من رمي الحصى على البلدوزر إلى وخز ذيل التنِّين.

فصاح ياكوني: «أمسك عليك لسانك! لا تتفوَّه بكلمة أخرى»!

ولكنَّني، في تلك اللحظة، لم أفعل.

بدا ياكوني، طيلة الأسبوع البارد والرَّطب، مُكدَّراً على نحو غير طبيعيٍّ، وليس فقط عندما يتكلم معي. لقد طرد فريق كُوزِنْتسَا مديره للتوِّ، سائراً على خطى تشيزينا والبندقيَّـة، على الرَّغم من مضيِّ ثماني مباريات فقط على بداية الموسم. وبصرف النظر عن التأكيدات اللَّفظية العديدة التي قد حصل عليها من أنَّ عقده مع كاستل دي سانغرو سيكون عقداً مدى الحياة، فإنَّ تسبُّبه بإحراج «لا سوتشتا»، على نحو بالغ السُّوء، بإبعاده آدو، قد لا يقوِّي موقفه أمام السيِّد ريتسا الذي استقبل آدو بشكل شخصيٍّ.

ولم يكن وجود غرافينيا الدائم على نحو مفاجئ في ملعب التدريب ذا تأثير مهدِّئ. لم يكن رئيس النادي، بالطَّبع، غريباً على الحصص التدريبية، ولكنَّه كان يظهر في معظم الأسابيع، مرَّتَيْن أو ثلاث مرَّات، ودائماً ما يبدو

منشغلاً بالحديث على هاتفه الخلويِّ بصرف النظر عما يحدث في الملعب، ثم يغادر في غضون عشرين أو ثلاثين دقيقة.

ولكنَّ «الرئيس» الذي يبدو الآن متوتِّراً ومهموماً قد بدأ يوجد بصورة دائمة في دكَّة الاحتياط بملعب التدريب. كان يجلس هناك وحيداً لفترات طويلة، يداه في جيبيه، مطأطئ الرأس، ولا يتكلم مع أحد. كان شاحباً ونحيلاً، وتحوَّلت حيويَّته إلى نكَد، كأنَّه كان، من الناحية الذهنيَّـة، يتلفَّت من حوله مرتاباً، متوقعاً الأسوأ، أياً يكن. لم يسعني ذلك إلا أن أُحسَّ بأنَّ شيئاً ما، أبعد من المعركة الشرسة مع ياكوني جرَّاء التخلُّص من جوزيف آدو، تنوء بحمله الأجواء الكئيبة الملبَّدة بالغيوم الرماديَّـة.

طرحتُ عليه، عصرَ أحد الأيام، سؤالي المعتاد إنْ كان الاستاد الجديد سيكون جاهزاً للمباراة القادمة، مثلما كان يَعِد علانيةً. ولكنَّه، بدلاً من ترديد «طبعاً»، أو «دون شك»، نظر إلـيَّ على نحو كئيب، وأجاب: «وأنا أيضاً لا أعرف الجواب».

بدا جوابه، هذا، غريباً على وجه الخصوص، فوتيرة أعمال البناء قد تسارعت على نحو ملحوظ، وغدا السيِّد ريتسا يقوم بزيارات تفقُّدية بنفسه في كل يوم. كانت ماريا تريزا تقف إلى جانب خالها، ولكنها لم تكن تتردَّد في أن تتقدَّم من تلقاء نفسها وتسأل أحد مراقبي العمال عن بعض الأشياء أو تعطيه بعض التَّعليمات.

وكانت في ذلك الأسبوع قد قامت بمشوارها القصير مرَّتَيْن لزيارة ملعب التَّدريب. وهي، حين تصل، تجلس وحدها في دكَّة الاحتياط، على الطَرف المقابل لزوجها، ولا ينطق كلاهما بأي كلمة.

دهشتُ، ذات مرَّة، لأنَّها بدأت تتجاذب أطراف الحديث معي. قالت: «لا بُدَّ أن تفهم بأنَّ غابرييل والسيِّد ريتسا، على حدٍّ سواء، قد رغبا كثيراً،

كثيراً جداً، في أن يلعب آدو لصالح فريقنا. فلقد عمل غابرييل بجدٍّ للعثور عليه وإقناعه بالقدوم إلى هنا. ولكنَّ ياكوني هو الذي رفض، من تلقاء نفسه تماماً».

ثمَّ قالت، وقد قطَّبت هذه المرأة القصيرة المكتنزة جبينها، هازَّة كتفيها، تعبيراً عن رفضها لذلك: «لم نعرف ماذا نفعل». ونظرت إلى غابرييل، الجالس على بُعْد عشر أقدام، متحدِّثاً في هاتفه الخلويِّ، ولم تظهر في نظرتها أي علامة على الاحترام أو المحبَّة.

ثم فجأةً قالت «تشاو»، متبسِّمةً غصباً وهي تبتعد مسرعة.

هاتفتُ باربرا ذات ليلة في ذلك الأسبوع لأسألها إن كانت تستطيع أن تُبصِّرني ببعض المعلومات، فلقد قدَّمت لي عوناً دائماً بصورة استثنائيَّة فيما يتعلَّق باللغة الإيطالية، وبدا أنَّها قد انخرطت في معمعان الدراما الدائرة التي تحيط بمحاولة الفريق البقاء في دوري الدرجة الثانية. ولطالما وجدتها أيضاً مستعدَّة للحديث بصراحة واضحة، وثبت أنَّ صراحتها لم تستثن هذه المسألة بتاتاً.

أخبرتني أنَّ النساء الأخريات كُنَّ مصدر التوتر الدائر بين غراڤينيا وماريا تريزا، ولكنَّ غراڤينيا قد بدأ في الأونة الأخيرة يتصرَّف على هواه، جهاراً نهاراً، بعنجهيَّة عمياء. أشارت باربرا إلى أنَّ المرء يستطيع أن يخون زوجته، حتى لو كانت ابنة الزَّعيم، ولكنَّه لا يستطيع أن يتباهي بذلك على نحو يهين الابنة أو الزعيم. ويبدو أن ثمَّة شواهد متزايدة، منذ بداية الموسم، تدلُّ على أنَّ غراڤينيا قد اقترف ذلك، بعد أن جرفته الأجواء الحماسيَّة التي سادت عقب النجاح الذي حققه فريقه في الكالتشيو، أو ربما جرفته أشياء أخرى، مَن يدري؟

قالت باربرا: «هُنَّ المشكلة، فتعاسة ماريا تريزا تزداد، والسيِّد ريتسا يرى ذلك بأمِّ عينيه، فيخبر غابرييل: «لا مزيد من النساء، كُفَّ عن جرح مشاعر ماريا تريزا. قُضي الأمر».

«لو أخبرني السيِّد ريتسا بذلك، فسوف أسمع الكلام».

«نعم، ولكنَّ غابرييل لا يفعل. أظنُّه يشعر بأنَّه لو استمرَّ في قيادة السيارة بسرعة والتحدُّث في هاتفه والحصول على دعاية جيدة، فإنَّ السيد ريتسا لن يتحرَّك ضدَّه. ولكن، مَن يدري؟ فحياة العائلة معقَّدة، والغرباء لا يعرفون البتَّة كثيراً من الحقائق».

أخبرني آخرون تحدَّثت إليهم بأنَّ مشاريع غابرييل التجاريَّـة المتكرِّرة، خارج البلدة، تحتِّم عليه أن يكون موجوداً، في ساعة العشاء، بأحد النُّجوع الصغيرة والمنعزلة، كپاتشنترو، بأعالي سولمونا، الذي يصدف أنَّه يحتوي على مطعم رائع بصورة خاصَّة، وكبير ندلاء كتوم على وجه التَّحديد. وكانت مسألة أنَّه لا يتعشَّى وحيداً، وإنَّما برفقة مجموعة من النِّساء الرَّائعات اللواتي يتبدَّلن باستمرار -ثمَّة وشوشات تقول إنَّ من ضمنهنَّ زوجات بعض اللاعبين- حقيقةً مقبولة لدى النَّاس الذين وجدتهم جديرين بالتَّصديق.

وكأنه قد أراد تسليط الضَّوء على أجواء الخلاف -وليزيد الضغط، بالطَّبع، على جميع المعنيِّين- وصل السيِّد ريتسا بجلال قدره، رفقةَ حرَّاسه الشخصيِّين، حاملاً سيكاراً جديداً، لحضور النزال الكرويِّ، الذي يقام بانتظام عصرَ يوم الخميس، بين لاعبي الفرقة أنفسهم.

أُفسِحَ له على الفور مكانٌ واسعٌ في دكَّة الاحتياط. كان اللاعبون قد أخذوا أماكنهم على أرض الملعب للتوِّ، ولكنَّ قدامى اللاعبين الموجودينَ

هناك الذين يعرفون الكثير من الحقيقة مثلما هي على أرض الواقع، أكثرَ من الوافدين الجدد، أوقفوا حركات الإحماء لدى وصوله، ثمَّ هرولوا صوب خطِّ التَّماس، يقودهم بريته، وتقدَّموا خطوة إلى الأمام، واحداً تلو الآخر، وانحنوا نصف انحناءة، قبل أن يتقدَّموا لمصافحة ريتسا، أو يكتفوا بنصف تلويحةٍ يلقيها عليهم مِنَّةً. ولو صدف أنَّه يرتدي خاتماً، لهُرعوا إلى تقبيله.

وها قد بدأ النِّزال الذي كان كارثياً بكل المقاييس، كأنَّ الفرقة كلَّها قد تآمرت مسبقاً على أن يحرص كل لاعب على تقديم أسوأ أداءٍ عنده.

وقبل أن يدخِّن نصف سيكاره، وقف السيِّد ريتسا ممتعضاً، ثمَّ لوَّح إلى حرَّاسه الشَّخصيين، ومشى مبتعداً دون أن يودِّع أحداً ودون أن يكلف نفسه بإلقاء نظرة إلى ياكوني. ولكنَّه سُمِع على أي حال وهو يتمتم: «إنَّهم في غاية السُّوء، ولا يستطيعون تسجيل الأهداف ضدَّ بعضهم».

وكانت هناك مشكلة دي يوليس، فلقد عانى طيلة الموسم من إصابة في الرُّكبة لم تكن تجعله يعرج، ولكنها أثَّرت فيه، فازدادت الأمور سوءاً. ولكنَّ دي يوليس فضَّل في نهاية المطاف الخضوع للعملية الجراحيَّـة التنظيريَّـة اللازمة، ولاسيما أنَّ لوتِّي وطَّد مكانته في تلك الأثناء، بكل أريحيَّـة، بوصفه حارس المرمى الأوَّل.

ولم يكن ثمَّة تأثير عمليٌّ لذلك، فلقد كان سبينوزا أكثر من قادر على الدخول إلى منطقة المرمى خلال التدريب، بيْدَ أنَّ غياب دي يوليس القصير عن مطعم مارتشيلا بدأ يكدِّر صفو ياكوني بدرجة أكبر، مما يؤكِّد حقيقة أنْ ليس جميع حرَّاس المرمى (يُعَد لوتِّي المثال الأوَّل) يجلُّون مدرِّبهم، أو يتصرَّفون كأنَّهم يفعلون ذلك.

علاوة على أنَّنا سوف نرتحل شمالاً في عطلة نهاية الأسبوع لمواجهة تشيزينا، أحد الفرق السِّتة التي تأتي بعدنا في التَّرتيب. أقلقت هذه المسألة ياكوني على نحو يفوق المعتاد. فلقد كانت أي مباراة تُخاض خارج أرضنا تثير الهلع، ولكنَّ الارتحال بعيداً عن الدِّيار لملاقاة فريق من المفترض أنَّه أشدُّ سوءاً منك، بدا أمراً مفزعاً على نحو يكاد يصيب المرء بالشَّلل.

فحين تخسر مباراة خارج أرضك أمام فريق جيد فذلك متوقَّع؛ ولا يستحق إثارة الجلبة. ولكنَّ ملاقاة تشيزينا، الذي كان يتخلَّف عنَّا بثلاث نقاط، لن تسفر بحسب توقُّعاتنا عن أقل من تعادل في أسوأ الظروف. وقاد هذا العبء الإضافيُّ ياكوني إلى حافَّة الجنون، ولاسيَّما أنَّه عرف (بحسب ما شعرتُ) -حتى لو لم يعترف بذلك إلى أحد- أنَّ بالإمكان أن يكون جوزيف آدو معنا، وأنَّنا سنغدو معه فريقاً أقوى.

وبالطَّبع، لم يدرك هذه المسألة ياكوني فحسب؛ إذ افتقد اللاعبون غياب آدو الفادح، بعد أن ظلَّت الإدارة تمنِّيهم الآمال بتلك الإمكانيَّة العظيمة أنْ يكون آدو أمام أعينهم. ولقد شعرتُ، بالنيابة عنهم، بفداحة ذلك الغياب إلى حدٍّ بعيد. فأي نوع من الرجال كانه ياكوني؟ ناهيك عن أي نوع من المدراء هو؟ إنه لم يرفض البحث عن المواهب فحسب، وإنَّما ترفَّع عنها حين قُدِّمت إليه على طبق من فضَّة. بدأت المسألة تبدو -لا بالنسبة إلـيَّ فحسب، وإنَّما لدى عدد من اللاعبين أيضاً- أنَّ ياكوني لن يتمكَّن من البقاء [مدرِّباً للفريق]، إن لم يستطع الفوز «بالخلاص» وفق شروطه.

ظهرت فرقة تشزينا في دوري الدرجة الأولى على نحو عابر، ولكنها بالضرورة فرقة تليق بدوري الدرجة الثانية؛ إذ حلَّت في المرتبة العاشرة في

الموسم السابق. أما المدينة، التي يبلغ تعداد سكَّانها 90000 نسمة، فقد بلغت ذروة روعتها في القرن الرابع عشر، ولكنها تقع على نحو أخَّاذ في إقليم إميليا-رومانيا، فتمكَّنا من قضاء ليلة السَّبت في المصيف السَّاحليِّ، مدينة ريميني، الأثيرة لدى المخرج السينمائيِّ فدريكو فلِّليني، التي شهدت أحداث فيلمه «أماركورد» من بين مواقع أخرى دارت فيها أفلامه.

وصلنا إلى ريميني عند هبوط الغسق تماماً، فسارت بنا الحافلة على طول جادَّات واسعة، مارِّين بـ «غراند أوتيل» الذي استخدم في تصوير فيلم فلِّليني. كنَّا نقيم على بُعْد بضع مبانٍ في أحد فنادق الأربعة نجوم العديدة التي تكون شبه فارغة (أو مغلقة تماماً) في الخريف والشتاء، ولكنها تمتلئ بروَّاد الشواطئ على بكرة أبيها من شهر مايو إلى شهر سپتمبر. عمَّ الضباب حين وصلنا، فتعالى صوت صافرات الضباب أعلى من أي ضجيج منبعث من السيارات، بخلاف أشهر الصَّيف تماماً.

أحسستُ، طيلة المساء، بشيء من اللَّاواقعيَّة يغمرني. شعرت، وأنا أنساق إلى النوم في بلدة ترعرع فيها فلِّليني، بأنَّ مشكلة ياكوني الكبرى تكمن في أنَّ تفكيره كان نمطياً، ولذلك فهو محدود. يتوجب عليه، على شاكلة فلليني، أن يفتح ذهنه على احتماليَّات غير مألوفة، وأن يتحرَّر من التقليديِّ، ويستكشف عالِم الفنتازيا (أو يحاول على الأقل توقيع عقد مع صانع ألعاب). كمن الحلُّ في أن يكون أقل نمطيَّةً، وأكثر جرية. ربما يتوجب علينا، أنا وياكوني، مشاهدة بضعة أفلام لفلليني سويَّةً، فالشتاء سيكون طويلاً في نهاية المطاف.

ولكنَّ السماء «تطربقت» فوق رؤوسنا في اليوم التالي. لا قطعة واحدة منها أو قطعتين، وإنَّما الأمر اللعين كله دفعة واحدة. فاز فريق تشيزينا

بالمباراة، 1- صفر، بَيْدَ أنَّ الكارثة الحقيقية تمثَّلت في إصابة كوع لوتّي، ومن المتوقَّع أن تمنعه من اللعب ثلاثة شهور.

تبنَّى ياكوني الخوَّاف الذي مال منذ البداية إلى الدِّفاع على نحو مبالغ فيه (فالخوف قد تسلَّل مع الضَّباب) تشيكلةَ 4-5-1 مرَّة أخرى، حيث غالي هو المهاجم الوحيد. لقد بدا أُزڤالدو ملتزماً بهذا النَّهج، بصرف النظر عن عدد المرَّات التي أخفق فيها، مصرَّاً على أنَّ النَّجاح الذي حقَّقه هذا النَّهج في الفئة الأولى بدوري الدرجة الثالثة لا بُدَّ أن ينجح أيضاً في دوري الدرجة الثانية.

ورغم ضغط فريق تشيزينا علينا باستمرار في الشوط الأول، فإنَّه لم يسجِّل إلا بعد مرور ثلاث دقائق على بداية الشوط الثاني. وحده كلاوديو بونومي (الذي بدا عازماً على إثبات خطئي حين اعتقدت أنَّه قادر على التحسُّن بسرعة) كان يتجرَّع الذل عصرَ ذلك اليوم في منطقة الجناح، في حين أخفق مارتينو، المشتاق إلى الدِّيار، في التَّهديد على الطرف الآخر. وحين لم يتبق إلا نصف ساعة، أرسل ياكوني دي ڤنتشنسو ليلعب مطرح دي فابيو، فمنح الفريق في نهاية المطاف مهاجمَيْن اثنَيْن، على الرَّغم من أنَّه قد لا يكون لدينا، في هذه الحال، أي مهاجم البتَّة، إذ لم نشهد أياً منهما يلمس الكرة إلا لماماً.

أُطفئ وميض الأمل الأخير في آخر المباراة، عندما أقدم ياكوني، لأسباب غير معروفة، على إخراج كريستيانو، اللاعب الأخطر، وإرسال روبيرتو أليبرتي بدلاً منه. لم يكن الوقت، من وجهة نظري، مناسباً لإخراج لاعبك الأكثر حيويَّة وفاعليَّة الذي لا يمكن التنبُّؤ بما يمكن أن يفعله؛ فهم يتقدّمون علينا بهدف، ولم تتبق إلا عشر دقائق، ويبدو أنَّ مهاجمَيْك لا يمكن

الوصول إليهما إلا عبر الهاتف الخلويِّ[130]، وأنَّ رئتَي نجمك، لاعب الجناح، تنهاران تحت وطأة الكثير من النِّيكوتين.

كان لديَّ قليل من الوقت كي أتفكَّر ملياً، فبعد ثلاث دقائق، خبط كوع لوتِّي الأيسر بالقائم المعدنيِّ بكامل قوَّته، بعد أن قفز لينقذ كرة سُدِّدت إلى شماله. تمدَّد يتلوى من الألم، لبضع دقائق، قبل وصول الطاقم الطبيِّ إليه، فتبادر إلى ذهن ياكوني الآن أنَّه حين جاءت أخيراً فرصة إشراك دي يوليس في المباراة، لم يكن موجوداً؛ فروبرت في الدِّيار يتعافى من العملية الجراحية التي أجريت في ركبته.

نُقل لوتِّي في نهاية المطاف على حمَّالة، ووجهه يُعتصر من الألم، ثم أُخذ إلى مستشفى قريب. وفي هذه الأثناء، كان سپينوسا الذي اعتزل اللعب وهو في قمَّة مجده في شهر يونيو السَّابق، قد أُجبرَ على أن يأخذ مكانه في حراسة المرمى.

لم يكن الأمر ذا أهميَّـة حينئذ. فبينما لم يُبْدِ تشيزينا رغبةً في رشِّ الملح على الجرح[131]، واصل كاستل دي سانغرو، خلال عشر الدقائق المتبقيَّـة، انهيارَه الذَّاتي. كنَّا في فوضى عارمة، دون أي مظهر قيادة في أرض الملعب أو من الدكة، ودون تركيز واتِّزان، أو أي إدارك بأنَّنا مهزومون بهدف واحد، وقد نتمكن -بمعجزة «صغيرة»- من تحقيق التَّعادل.

لم يتمكن لوتِّي في تلك الليلة من العودة بالحافلة، فلقد تضرَّر كوعه على نحو بالغ وظلَّ في المستشفى بتشزينا.

وانتهى بي المطاف متمنياً لو أنَّني أيضاً قد بقيت هناك في تشيزينا. فخلال رحلة العودة، راح المدافع الشيوعي دانجلو يسلقني بلسانه الحادِّ حول دور أمريكا في ڤيتنام.

أوضحت منذ البداية، بصرف النظر عن النتيجة، أنَّني كنت في أمريكا من أنصار اليسار، ولكنني شعرت بأنَّ من غير اللَّائق أن أعبر عن آرائي (كمثل أنَّ برلسكوني كان خنزيراً فاشياً، فاسداً، وجشعاً) حول القضايا السياسيَّـة في إيطاليا.

ولذلك قرَّر دانجلو في رحلة العودة من تشيزينا أنَّ الوقت قد حان لمزيد من النِّقاش المستفيض حول دور أمريكا في فيتنام. لقد ذهبت إلى ڤيتنام، أليس كذلك؟ ليس مرَّة واحدة، بل مرَّتين؟

بلى، يا لوقا، وضَّحت للمرَّة الخامسة على الأقل منذ منتصف سپتمبر، ولكنَّني كنت صحافياً، لا جندياً، وعُدَّت الأخبار التي أرسلتها، في الحقيقة، مثيرة للجدل ومهيِّجة للغضب وحتى غير وطنيَّـة في ذلك الوقت، لأنَّها أوضحت بشكل جليٍّ إيماني بأنَّ تورُّط أمريكا لم يكن مصيره الإخفاق من النَّاحيتَيْن السياسية والعسكريَّـة فحسب، وإنَّما لأنَّه، في الأوَّل والأخير، لا أخلاقيٌّ تماماً.

«هل اعترضت على الحرب، يا جُو»؟

«كانت مقالاتي أسلوب احتجاجي».

فقال: «ليس كافياً».

«من السَّهل الحديث، ولكنَّني ظننت أنَّك قد أدركت الأمور على نحو أفضل. لقد بذلت قصارى جهدي».

فنظر إلـيَّ عبر الممشى المعتم ثم هزَّ إحدى أصابعه من جهة إلى أخرى. «كلا، كان يتوجب عليك أن تعمل على إيقافها، لا أن تكتب حولها فحسب».

«ربما، يا لوقا، ولكن كان يتوجب عليك أن تعمل اليوم لتوقف المهاجمين، وليس الكلام فقط».

فجأة، في هذه اللحظة، قفز غالي الذي كان رأسه يرتعش أمامي منذ ساعة، على قدميه.

ثم قال: «براڤو، يا جُو»، ثم أشار بإحدى أصابعه متِّهماً: «القنبلة النووية ضد هيروشيما في اليابان؟ هل حاربت ضدَّها»؟

«أرجوك، جياكومو! كنت أبلغ من العمر سنتَيْن»!

فقال غالي: «حقاً»؟ بدت تلميحته الأولى تشير إلى أنَّ الحرب العالميَّة الثانية وحرب ڤيتنام قد خيضتا في السنة ذاتها.

فأخذ دانجلو يترنَّم قائلاً: «هُو-هُو-هُو شي مِنَّهْ!... هُو-هُو-هُو شي مِنَّهْ»! «مرحباً، مرحباً، يا إلْ. بِي. جيه، كم من الأطفال قتلت اليوم»[132]؟

فقال غالي: «كفى»! ثم، وبما أنَّه كان واقفاً، مشى إلى مقدِّمة الحافلة لوضع شريط ڤيديو جديد.

هكذا، وفَّر عليَّ مزيداً من النقاش السياسيِّ، ولكن على حساب مشاهدة «كيك بوكسر 4: المعتدي».

عادت الحافلة إلى المدينة الصغيرة الباردة والمنعزلة بعد منتصف الليل. ارتميت على السرير، وشعرت بالكآبة تجتاحني طيلة يوم الإثنين إلى درجة أنَّني لم أستحم وأبدِّل ثيابي إلا بشقِّ الأنفس. وعلى الرَّغم من أنَّني قد اتصلت بپارتشيلا لأخبرها بأنني على ما يرام، فإنني لم أستطع الذهاب إلى المطعم ليلةَ الإثنين. لقد غادر آدو، ولوتِّي سيغيب لبضعة أسابيع، ولا أحد يستطيع تسجيل أهداف، ومازلنا نفتقر إلى وجود استاد.

فيا لها من حكاية خرافيَّة. ولا يمكن إغراء، حتى فلليني، بمحاولة تحويل حكايتنا البائسة إلى فنٍّ [سينمائيٍّ].

18
مسرح عبث الماركيز دو ساد

أعلن غرافينيا، عبر جوزبِّه في صحيفة «إل تِشْنْتْرُو»، أنَّ الاستاد، نظراً لـ «التأخير في تسليم المواد وسوء الأحوال الجويَّـة»، لن يكون جاهزاً لمباراة يوم الأحد ضدَّ بريشًّا. ومثلما أخبرني أحد السكان عن السيِّد ريتسا: «لقد أثرى لأنه لا يدفع أجور ساعات العمل الإضافية».

كان من الواضح، على أي حال، أنَّ تقدُّماً سريعاً قد حدث في الاستاد، فغدا اكتمال البناء ليس بعيداً. وجدت من الصَّعب تقدير وجهة نظر باربرا بأنَّ وصولي -واهتمام ريتسا بالصورة التي قد يظهر عليها في الكتاب (أفضل من سام ولكنَّه أسوأ من تشك Chuck؟)- كان عاملاً مساعداً.

وشعرت علـى نحو أوضح برغبة غرافينيا المعلنة، أغلبَ الأحيان، في توظيف نجاح كاستل دي سانغرو، وما أعقبـه من لحظات شهرة، كنقطة انطلاق لطموحاته الشخصيَّـة الأكبر. كان غرافينيا، نصير اليمين ورئيس الوزراء الأسبق بيرلسكوني (مالك إيه. سـي. ميلان، ومعظـم محطَّات التلفزة الإيطالية الخاصَّة، بالإضافة إلى صحف عديدة)، قد أحيا الأمل، بالنسبة إلى أولئك الذين ادَّعوا أنَّهم يعرفونه حقَّ المعرفة، وأنَّه قد يحصـل على منصب وزاريٍّ حين يُعيد بيرلسكونـي تشكيل الحكومة.

هكذا، في أعين الذين تحرَّق لإثارة إعجابهم، فإنَّ إخفاقه في تشييد مأوى ملائم لفريقه (لأنَّ «عمَّه»[133] لن يمنحه المال) قد جعله يبدو عاجزاً، وربما مسخرة.

ثم أضحت المعادلة، في نهاية المطاف، بسيطة على هذا النَّحو: عدم وجود استاد يعني عدم وجود مستقبل سياسيٍّ لغابرييل. لذا، فإن تشييد الملعب الجديد والستَّة آلاف مقعد الإضافية، كانت المستحقَّات التي توجَّب عليه دفعها للدُّخول في زمرة الطَّامحين المقبولين.

وقد يكون السيِّد ريتسا فضَّل، بالطَّبع، تمزيق غابرييل إرباً إرباً، ولكنَّ العائلة تأتي أوَّلاً في إيطاليا، ولذلك فقد أعطى الأولويَّـة، في نهاية المطاف، وإن على مضض، لمصلحة ماريا تريزا وأطفالها، فتخلَّى عما يكفي من المكافأة التي حصل عليها من اتِّحاد الكرة، بملايين الدولارات، لإكمال البناء. (ولكنَّ اللاعبين لم يحصلوا على المكافآت التي يستحقُّونها بعد).

وفي هذه الأثناء، سوف يتوجَّه الفريق للمرَّة الخامسة إلى تشيتي لخوض مباراة «إياب». ومن دون لوتي ودي يوليس، هذه المرَّة. وسيلعب سبينوزا، الذي عاد عن اعتزاله فجأة، في حراسة المرمى، ثانيةً، طيلة تسعين دقيقة كاملة لأوَّل مرَّة منذ أن كان يلعب في الفئة الثانية بدوري الدرجة الثالثة، ولأوَّل مرَّة في حياته بدوري الدرجة الثانية.

ولكنَّ سبينوزا رجل يفتخر بقدراته فخراً شديداً، وإن كان لا يُصرِّح بذلك، فأشاع الثِّقةَ في صفوف الآخرين. بدا الوضع الجديد كأنَّه يمدُّه بالطَّاقة، ومتلهِّفاً لمواجهة التحدِّي، حتى لو جاء من فريق بريشَّا القويِّ.

وكانت كاستل دي سانغرو، في الوقت ذاته، قد استعادت حيويّتها على بكرة أبيها، بسبب التغيُّر المفاجئ في الطَّقس. فدرجة الحرارة، التي تشبه حرارة الطقس في شهر سبتمبر، دفعت الأهالي إلى الخروج بأطفالهم الذين بلغوا تسعة أشهر أو أقل، في نزهات بالعربات في الهواء الطَّلق؛ فلم

تكن السَّماء أشد زرقةً مما بدت عليه، ولم تَبْدُ الجبال، القريبة والبعيدة على حدٍّ سواء، أكثر فتنة مما كانت عليه، ولم تَبْدُ الشَّمس، التي كانت واطئة في السماء وتغرب مبكِّراً، أبهى مما بدت عليه.

هكذا، مستلهماً هذي الهِبَة التي حلَّت قبل أوانها، وأمثولة سپينوزا، استسلمتُ مرَّة أخرى إلى قوة الأمل.

اقترب منِّي في مطعم مارتشيلَّا، ليلةَ الأربعاء، الفرسانُ الثلاثة -كريستيانو، وريميديو، وبيوندي- فأخبروني أنَّهم يودُّون زيارة أمريكا بعد انتهاء الموسم.

أجبتهم على الفور أنهم سيكونون موضع ترحاب، وكيف أنَّني سوف أقلهم بسيَّارتي من مطار بوسطن ونذهب إلى البيت، حيث يمكنهم المكوث بقدر ما يشاؤون، وكم تبدو جميلة المناظر التي ستحيط بالبيت في الصَّيف.

فتبسَّموا بلباقة، ثمَّ ذهب بيوندي مباشرة إلى بيت القصيد. «وأين ستكون النِّساء»؟

فدهشت قائلاً لَسْنَ كثيرات في بلدتي الصغيرة، ولكننا نبعد ثلاث ساعات بالسيارة عن بوسطن، وثلاث ساعات عن نيويورك فحسب، وهناك سوف تجد مزيداً من النسوة أكثر مما شاهدته طيلة حياتك في إيطاليا.

فسأل بيوندي، وشفتاه الرَّفيعتان ترسمان ابتسامةً متهكِّمة: «وهل هُنَّ جميلات»؟

فقلت «لسن جميلات فحسب، يا پيُّو[134]، ولكنَّني أعرف، حقيقةً، وجودَ الآلاف منهنَّ -الآلاف- لا رغبةَ حقَّةً لهنَّ في الحياة سوى مقابلة لاعب كرة قدم إيطالي حقيقيٍّ».

فسـأل ريميديو: «ألا يخجلن كثيراً؟ حتـى لو كنَّا لا نتكلم الإنكليزيَّـة بطلاقة»؟

«يخجلن؟ أنصتْ، في كل يوم تكون الصحف في نيويورك طافحة بقصص صبايا جميلات يُصرِّحنَ بأنَّ أقصى ما يشتهينه هو فكُّ قيطان حذاء لاعب كرة قدم إيطالي حقيقيٍّ وتقبيل قدميه».

فقال ريميديو «أصحيح!»، وقد خلبت لبَّه الصُّورة على الفور.

ولكنَّ بيوندي كان زبوناً أهدأ، فقال «أهذا أقصى ما يشتهين؟ فإن كان كذلك، فربما نُبلي في ساردينيا بلاءً أحسن من ذلك».

«كلا، كلا»، أكَّدتُ له. «أعرف شبَّاناً في كلا المدينتَيْن، وفي مدن أخرى بالطَّبع. لديَّ أولاد في مثل عمرك، ولقد درَّستُ في الجامعة، ويمكنني إخبارك بأنَّك لن تندم على لحظة واحدة من رحلتك. وحين تكل من النِّساء، ستكون موضع ترحابنا، نانسي وأنا، في المنزل مرَّة أخرى، لتنام وتحظى بطعام جيد وتستمتع بأشعة الشَّمس الرَّائعة».

وفي نهاية الأمسية قُضي الأمر: سيأتي پِپُّو وميمُّو وفابيو إلى أمريكا في نهاية شهر يونيو، وسوف يمكثون أسبوعين أو ثلاثة أسابيع. سأضع خطَّة سير رحلتهم، وأحرص على أن تتضمَّن أوقاتاً كثيرة يقضونها مع «النِّساء». ولكن كيف سأحضر جحافل النِّساء الجميلات المتلهِّفات على فكِّ قيطان أحذيتهم الرياضيَّـة، لا فكرة لديَّ بتاتاً، ولكنَّ شهر يونيو مازال بعيداً جداً.

قام غراڤينيا، فـي محاولة لإصلاح الضَّرر الذي أحدثـه إقصاء آدو، باستقدام لاعب يلعب فـي الفئة الأولى بدوري الدرجة الثالثة، يدعى

لوقا ألبيري، كان متأكِّداً من أنَّ ياكوني لن يوافق عليه، على الرَّغم من أنَّه مولود فـي إيطاليا، لأنَّه لا يرقى إلى المعايير الضروريَّـة التي يشدِّد عليها.

لم يكن ألبيري صاحب خبرة، فعمره لا يتجاوز الواحدة والعشرين، ولم يلعب سوى ستٍّ مباريات أو نحوها طيلة مسيرته المهنيَّـة، موزَّعة بالتَّساوي بين الفئة الأولى والفئة الثانية في دوري الدرجة الثالثة. ولم يسجِّل في عشرين مباراة خاضها مع كاستل دي سانغرو، في السنة السابقة، إلا هدفاً وحيداً، وعُدَّ في شهر سپتمبر غير لائق ليلعب في دوري الدرجة الثانية. ولذلك، فهو لم يلعب هذه السَّنة إلا ثلاث مباريات في الفئة الأولى بدوري الدرجة الثالثة.

فما الذي جعله مرغوباً فجأةً؟ لقد كان متاحاً بثمن بخس، وكانت مؤهلاته وإمكاناته معروفة (بصرف النظر عن ضآلتها)، ومن المفترض أن يشجِّع وصوله أهل البلدة، مذكِّراً إياهم بالأوقات السَّعيدة حتى وهم يترقَّبون وجلين الوصول الوشيك لفريق بريشَّا.

مثل فريق بريشَّا إحدى المدن الأقل جاذبيَّـة في إيطاليا. لقد كانت «برُوتِّزيما bruttissima»، وهـي الكلمة الإيطالية التـي تعني «فـي غاية البشاعة»، لا تخص الجانب المعماريَّ فحسب؛ إذ قيل إنَّ بريشَّا تضمُّ النسبة الأعلى من التُّعساء، وحتى ذوي النُّفوس الوضيعة، أكثر من أي مدينة أخرى في الشَّمال. لقد كانت مستنقعاً صناعياً يحوي 200000 نسمة، وترتسم على وجوه الغالبية العظمى منهم جميع الأمارات التي تشير إلى أنَّهم يتمنَّون لو عاشوا في مكان آخر.

كان نادي بريشَّا من النَّوادي الثابتة في دوري الدرجة الثانية، حظي ببعض المغامرات العَرَضيَّة والكارثيَّة في دوري الدرجة الأولى، ولكنَّه لم يحقِّق أي إنجازات تذكر في هذا الموسم، حاصلاً فقط على أربع عشرة نقطة مقابل العشر التي في جعبتنا.

وكان من الأسهل، بكل بساطة، عدم الحديث عن السؤال المتعلِّق بسپينوزا الرَّائع، على الرَّغم من أنَّ هذا السؤال يلوح كبيراً في الأفق، إلى درجة أنَّه يغطِّي على كل شيء آخر: هل يمكن أن يرتقي في أدائه، ولو ليوم واحد، إلى مصاف الجديرين باللعب في دوري الدرجة الثانية؟ فليس في سجلات تقييم أدائه، معظم العشرين سنة التي قضاها في الملاعب، أي إشارة، لغاية يوم أحدٍ منتصفِ شهر نوفمبر سنةَ 1996، إلى أنَّه قد طُلب منه حتى محاولة ذلك؟

كانت رحلة الذَّهاب إلى تشيتي يوم الأحد، وهو يوم آخر من تلك الأيام التي غدت جميلة في غير موعدها إبان هذا الوقت من السَّنة، قد أبطأتها زحمة السَّير على الطريق السريعة بسبب حادث مروِّع. وحين تمكَّنت المركبة التي تقلِّني من العبور على تخوم المشهد، رأيت جثَّة قد سُحبت، ثم وضعت على طرف الطريق، مغطَّاةً بملاءة. أمعن أحد الركَّاب النظر، ثم قال: «واحد فقط»، هازاً رأسه بامتعاض واضح. واحد فقط؛ ليس سيئاً جداً. بدت المسألة، مثل أي شيء آخر في إيطاليا، مجرَّد وجهة نظر.

ولقد تبيَّن، في نهاية المطاف، حتى لياكوني نفسه، أنَّ وجود غالي وحده في الهجوم لن يجدي نفعاً، كأنَّه عمود رسومٍ طوطميَّة totem pole،

وربما ليس بارعاً بما يكفي. وهكذا، أرسل دي ڤنتشنسو، مرَّة أخرى، لمؤازرته.

واستبعد الكابتن تِشيي من الدِّفاع للمباراة الخامسة على التَّوالي، ولم يستطع ياكوني أن يحجب عينيه بعد الآن عن الموهبة المتنامية التي أظهرها لوقا دانجلو، بصرف النظر عن نفوره الشديد من هذا الشيوعيِّ الشابِّ ذي الشَّعر الطويل. أما فوسكو وألتمارا وبرييته، فقد تمركزوا في أماكنهم الدِّفاعيَّـة.

واختار ياكوني في خطِّ الوسط كريستيانو وميكليني المشاكس، ليلعبا جنباً إلى جنب للأسبوع الرابع على التَّوالي، واستبعد دي فابيو لإفساح المجال كي يلعب دي ڤنتشنسو في المقدِّمة، في حين بقي في الجناحَيْن بونومي السَّريع، صاحب الأداء المتدنِّي، ومارتينو المضطرب (ولكنه هذه المرَّة يلعب قريباً من الدِّيار على الأقل).

ومع ذلك، فقد بدوا متفوِّقين علينا تفوُّقاً عظيماً، منذ البداية. فها هو ذا پريته، ودي ڤنتشنسو، ومارتينو، ومارتينو مرَّة أخرى، ودانجلو، ودي ڤنتشنسو مرَّة أخرى، وميكليني، وپريته مرَّة أخرى، ثمَّ كريستيانو، يضيِّعون الكرة جميعاً، في الدقائق الخمس الأولى، دون حتى أن نتمكَّن من التقدُّم إلى منتصف الملعب. بالإضافة إلى حصول فوسكو على بطاقة صفراء. (تُشهَر البطاقة الصفراء دلالةً على شجب الحكم لمخالفة عنيفة على وجه الخصوص، وتعادل بطاقتان صفراوان في المباراة ذاتها بطاقةً حمراء، مما يؤدي إلى طرد اللاعب على الفور).

وكان اللاعبون الذين ضيَّعوا الكرة، خلال خمس الدقائق التالية، هم غالي، وغالي، ومارتينو، وغالي، وغالي، وكريستيانو، وپريته، وغالي،

وميكليني. أي أنّنا قد ضيّعنا الكرة ثماني عشرة مرّة في غضون الدقائق العشر الأولى. مَن يقول إنَّ كرة القدم لعبة من دون إحصائيّات؟

وتعرَّض دي فُنتشنسو إلى عرقلة داخل منطقة الجزاء في الدقيقة السابعة عشرة، ولكنَّ الحكم، وهو رجل يدعى روسّي، قدم من بلدة تشامپينو قرب مطار فيوميتشينو بروما، قد قدَّر، وهو الذي كان يطلق صافرته جرَّاء أخطاء طفيفة كل دقيقة على الأقل، أنَّ هذه العرقلة ليست جديرة بالاهتمام؛ لا ضربةَ جزاء.

كان فريق بريشَّا يلعب، على شاكلة فريق بادوڤا في الأسبوع الفائت، كأنَّهم قد أُجبروا على استنشاق الكلوروفورم في غرفة تبديل ثيابهم. أزاح هذا الأمرُ الضَّغطَ عن سپينوزا على الأقل، حتى لو لم يكن ذلك بالضَّبط محفِّزاً للجماهير. (لم تكن المباراة عند هذا الحدِّ، بالنسبة إلـيَّ، إلا مباراة مملَّة مللاً شديداً، ففي أي لحظة قد تحلُّ الكارثة بكاستل دي سانغرو. ولهذا، فقد كانت كلُّ مباراة على تلك الشاكلة تسعين دقيقة من مشاعر يتزامن فيها الألم والفزع، وتتخلَّلها لحظات تنتفخ فيها أوداجنا من الغضب والقرف، فإما اليأس، في نهاية المطاف، وإما نشوة فجائيَّـة لا تعدلها نشوة على الإطلاق).

مرَّت نحو نصف ساعة، دون أن يُبدي فريق بريشَّا أدنى وعي بأنَّ غاية المباراة هو تسجيل الأهداف. لم يتبقَّ على نهاية المباراة سوى خمس عشرة دقيقة، والنتيجة لاتزال صفر-صفر، مما يعني، وفقَ وجهة نظري الغريبة مؤخراً، أنَّ ثلاثين دقيقة عظيمة من كرة القدم قد انقضت.

وكان الاستثناء الوحيد الذي واصل إيقاعه خارج هذه الرَّتابة هو الحكم روسِّي، فلقد بدا كطفل في الثالثة من عمره أُعطِي للتوِّ صافرة

في عيد ميلاده. لم تنقطع صافرات المخالفات، دون أن يعدَّ الاحتكاك الجسديَّ أو الاقتراب من الخصم شرطاً أساسياً لذلك.

ونتيجةً لإحدى صافراته التي انطلقت تقديراً منه لمخالفة ارتكبت على الرَّغم من عدم حدوثها فعلياً، اضطر فريق بريشًّا أخيراً إلى تسديد ضربة: ركلة حرَّة من مسافة عشرين ياردة، تخطَّت حائط مدافعينا على نحو ينذر بالخطر، ثم ارتطمت بالقائم الأيسر مرتدَّةً، بعد أن كان سپينوزا -الذي بدا، فجأة، متناهي الصِّغر في تلك المساحة الكبيرة- قد انقضَّ عليها بعد فوات الأوان.

وبعد أن أهدر بريشًّا تلك الفرصة، عاد إلى وضعيَّته الدفاعيَّـة البليدة التي تقتصر على الوقوف بلا حراك تماماً، في حين واصل لاعبو كاستل دي سانغرو -الذين حاول بعضهم ظاهرياً تمرير الكرة إلى بعضهم الآخر- تسديدَ الكرة على مرمى بريشًّا دون جدوى.

تطلَّب الأمر من سپينوزا، بعد وقت قصير، إنقاذ الكرة بطريقة سهلة، ثمَّ حدثت «معجزة المعجزات»، في الدقيقة الخامسة والأربعين تماماً، حين استغلَّ مارتينو كرة سائبة، فمرَّرها مباشرة إلى غالي الذي كان واقفاً بلا مراقبة؛ فمن الواضح أنَّ أحداً لم يلحظ وجوده على بُعْد أقل من عشر ياردات أمام مرمى بريشًّا.

أما حارس المرمى، الذي شَلَّت قواه صدمةُ هذا الحدث غير المتوقَّع، فقد وقف ساكناً كالصَّنم، حين استدار غالي وسدَّد. كان جياكومو، متحدِّياً جميع قوانين فيزياء الاتِّجاهات، قد ركل الكرة بقوة شديدة، على بُعْد عشر ياردات على الأقل، يسارَ الحارس. وكان هذا كل ما في الشَّوط الأول، فتنفَّستُ الصُّعداء.

وكي يبدأ الشوط الثاني، أرسل ياكوني الوافد الجديد، ألبيري، مطرحَ دي ڤنتشنسو الذي لم يكن فاعلاً في هذه المباراة أيضاً، دون شك. ولم يكد ألبيري يلعب، حتى استحوذ مباشرة على الكرة في خطِّ الوسط، وشقَّ طريقه عبر مجموعة من مدافعي بريشَّا، راكضاً في منطقة الجزاء بأقصى ما يستطيع، ومسيطراً على الكرة تماماً، إلى أن تعرَّض إلى عرقلة عنيفة من طرف أحد المدافعين.

وعلى الرَّغم من أنَّ ألبيري كان على الأرض يتلوَّى من الألم، فإنَّ مشجِّعي كاستل دي سانغرو وقفوا على أقدامهم يهتفون. لا شك أنَّ ألبيري سيتعافى. كُنَّا مبتهجين لأنَّ ضربة الجزاء، لو أُحرزَتْ، سوف تمنحنا التقدُّم 1–صفر.

ولكنَّ اللعب لم يتوقَّف! كانت الكرة –وألبيري مكوَّم على نفسه، على شاكلة الجنين في بطن أمِّه، عند طرف مرمى بريشَّا– في طريقها إلى منطقة مرمى كاستل دي سانغرو، والسيِّد روسِّي يهرول مبتهجاً بجوارها، كما لو أنَّ واحدة من أبشع العرقلات، وأشدِّها مدعاة للتهكُّم، لم تُرتكب للتوِّ في منطقة جزاء بريشَّا.

من المؤكَّد أنَّه كان على وشك أن يخرج من جيبه بطاقة صفراء إضافية، لمعاقبة بريشَّا عل مواصلة اللعب بعد إعلانه ضربة الجزاء. ولكن، كلا... ولكن، كلا... أكان ذلك ممكناً؟

مستحيل. هذا لا يُوصَف. إنه مسرح عبث يديره الماركيز دو ساد. ولكن، يا إله السَّماوات، كان الأمر حقيقيةً! لا مخالفة. لا ضربة جزاء. لا هدفَ. ولا تقدُّمَ بـ 1–صفر. فليس إلا ألبيري الذي يعرج في مشيته.

حسناً، لقد غدت المسألة برمَّتها في تلك الأثناء مسألةً مختلفة تماماً. كُنَّا سنقنع قناعةً بالغة بتعادل دون أهداف، بائس وجدير بالازدراء، لو كانت الأمور تجري على نحو طبيعيٍّ عصرَ ذلك اليوم. ولكنَّ روسِّي، هذا، قد غدا محطَّ الأنظار في ذلك الوقت أكثر من أي لاعب في كلا الجانبَيْن؛ إذ كان، على نحوٍ منقطع النَّظير، أسوأ حكم شاهدته في حياتي يدير مباراة كرة قدم، في البلدان الأربعة التي شاهدت فيها مباريات لغاية هذه اللحظة.

وفي الدقيقة السِّتين، كان ألبيري مرَّة أخرى ضحيَّـةَ عرقلة فظيعة، وهذه المرَّة عند حافَّة منطقة الجزاء تماماً، ولكنَّ صافرة الحكم لم تنطلق، مرَّة أخرى. كان روسِّي قد استدار، بدلاً من أن يمنحنا ضربةً حُرَّة، منطلقاً إلى خطِّ الوسط، معلناً استئناف اللعب كأن شيئاً لم يحدث.

وهدَّدنا، مرَّة أخرى، في الدقيقة الخامسة والستين. ثلاث تمريرات رائعة (للمرَّة الأولى!) جلعت غالي ينفرد مرَّة أخرى بالمرمى تماماً. ولكنَّ غالي، الذي كان أمامه الوقت الكافي ليختار وتيرة تسديدته ومكانها، قد أخفق مرَّة أخرى ولم يُسجِّل. ولم يدفعني إلى أمل قدرتنا على انتزاع تعادلٍ دون أهداف، بعد كل شيء، إلا هذا القَدْرَ المهين من اللامبالاة الذي تمتَّع به لاعبو بريشَّا تجاه هذه الأحداث.

ثمَّ، ومن دون سبب واضح، إلا أنَّه كان قد وضع بطاقته الصفراء في غير مكانها المعهود، ها هو ذا الآن يهرع للتَّعويض عن الوقت الذي ضيَّعه في عدم إشهارها، بدأ روسِّي التَّلويحَ ببطاقته كمن يحاول إيقاف قطار. بطاقة إلى بريشَّا، بطاقتان إلى بريشَّا، ثم بطاقة إلى كريستيانو (الرابعة في

أربع مباريات، مما يعني أنَّه سيحرم من اللعب) وبطاقة إلى بونومي.. بَيْدَ ألا أحد منهم قد ارتكب مخالفة تُذكَر!

بدأتُ أتساءل، دون طيشٍ: مَن (إن كان ثمَّة أحد) يمتلك القدرة على إيقاف مباراة، عانى الحكم في منتصفها من انهيار عصبيٍّ، ويجب ألا يسمح له بالاستمرار. فلم تعد هذه المباراة مباراةً من أي نوع. لقد حوَّلها روسِّي إلى ميدان رماية؛ بطاقاته الذَّخيرة، ولاعبو كاستل دي سانغرو هم أهدافه الرئيسة على نحو متزايد.

يا للهول! ففي الدقيقة السَّبعين، تُمنَح بطاقة لألتامورا، ليست بطاقة صفراء، وإنما حمراء. ضربة حرَّة لفريق بريشًّا عند حافَّة منطقة الجزاء. حُوِّلت هذه الضربة سريعاً إلى هدف، مما يعني نهايتنا؛ فليست لدينا القدرة (من بين نقاط ضعفنا الكثيرة) على تحقيق الفوز بعد الخسارة البتَّة.

وتعني أيضاً نهاية ألتامورا الذي سوف يحرم الآن من اللعب في المباراتين التاليتَيْن. كان قد احتك بلاعب بريشًّا في أثناء اندفاعهما تجاه الكرة، ولكنَّ هذه الممارسة هي جوهر اللعب الدفاعي ذاته. فلو كانت ثمَّة مخالفة قد ارتكبت أصلاً، فلا بُدَّ أن يكون لاعب بريشًّا قد ارتكبها هو أيضاً بكل بساطة، وليس ألتامورا فحسب. ولكنَّه كان ذلك النَّوع من اللعب الذي لم يستوجب منح بطاقة لأي منهما، وليس بالطَّبع بطاقة حمراء.

لقد صعقني ذلك جداً، لدرجة أنَّني لم أكد أُعير الكرة الانتباه حين نقلناها إلى منطقة بريشًّا. لم أبتهج حين رأيت غالي يتقدم بحرية، ثم يمرِّر إليه مارتينو ضربة أفقيَّـة. كنت قد ركَّزت انتباهي تماماً على المشهد، حين خيَّب غالي توقُّعات مدافع بريشًّا المندفع، ثمَّ سدَّد بقوة ودقَّة لأول مرَّة، فَـ... سجَّل!

أجل، أجل، أجل، لقد فعلها! لقد سجَّل غالي هدفاً بالفعل! لم يضيِّع الفرصة، لأوَّل مرَّة. آه، يا إلهي. آه، يا إلهي. مَن يصدِّق ذلك؟ نظرت إلى الأسفل قليلاً، فرأيت كأنَّ جدار صدري قد تحطَّم جرَّاء خفق قلبي العنيف الذي لا يلين.

ولكن انتظروا. كان روسِّي يهرول مسرعاً من وسط الملعب، حيث لم يكن في المكان المناسب تماماً، ملوِّحاً بذراعيه على نحو يشير إلى أنَّ هدف غالي لن يُحسَب.

وفي غمرة فورات الغضب التي اعترت جميع لاعبي كاستل دي سانغرو في أرض الملعب -ناهيك عن الاندفاعة، التي تشي بشرٍّ مستطير، صوب الأسيجة، من طرف الآلاف من مشجعي الفريق الموجودين في المدرَّجات- أعلن روسِّي أنَّ غالي قد ارتكب مخالفة «عنيفة» في أثناء حرصه، حين مُرِّرت الكرة إليه، على عدم السَّماح لها أن تنحرف، وينتهي بها المطاف تحت سيطرة مدافع بريشَّا.

شاهدتُ الشرطة تهرع لتأخذ أماكنها عند أطراف الملعب، تحسُّباً لقيام مشجعينا بتسلُّق السياج الشائك أو تمكُّن بضع مئات من العبور من خلاله، مثلما كانوا يحاولون.

حسناً، لا بُد لأحد القيام بشيء ما ضدَّ هذا الرجل بأسرع ما يمكن. أقصدُ: أذيَّته؛ أن يؤذيه جسدياً. وكم تمنَّيت لو كان في جيبي شيء معدنيٌّ ثقيل، لطوَّحت به عالياً من مكاني في «منصَّة الشرف» إلى حافة الملعب. سأصِوبها إلى الرأس، داعياً الله أن تصيبه مباشرة. ولن يكون أي شيء يحدث لي بعدها، مهما كان، ذا قيمة تذكر، فسأجعل ذلك الوغد يدفع الثَّمن على الأقل.

ثمَّ منح روسِّي غالي بطاقةً صفراء على «مخالفته». كنت متأكداً من أنَّ هذا «الحكم» قد حظـي ببعض ثقوب جديدة حُفرت فـي بنك ذاكرته اللفظية، بناء على معرفتي بلسان جياكومو، وبأنَّه هو وروسِّي ربما يتكلمان لهجة أهل روما بالإضافة إلى الإيطالية القاعديَّـة. ولكنَّ الكلمات، مهما كانت جارحة، لا تكفي وحدها.

ولأنَّ المباراة قد انتهت بصورة أساسيَّـة. فبعد إلغاء هدف غالي، تقهقرنا بكل بساطة إلـى الدِّفاع، مذهولين، محبطين، ماقتين، فـي انتظار صافرة النهاية، ثم فجأة شنَّ بريشَّا هجمة حماسيَّـة، بعد أن أدركوا في تلك الأوقات أنَّهم يستطيعون فعل ما يريدون من غير أن ينالوا جزاءً يُذكَر.

اقتحم أحد مهاجمي بريشَّا منطقة جزاء كاستل دي سانغرو وهو يحاور بالكرة. انزلق كريستيانو عند قدميه، راكلاً الكرة بعيداً على نحو لا شائبة فيه. انطلقت الصافرة. ضربة جزاء. من الواضح أنَّ روسِّي قد قرَّر ضرورةَ مكافأةِ بريشَّا على جهدهم الهجوميِّ الأوَّل، بمنحهم ضربة جزاء، فنفَّذوها، جاعلين النتجية تقفز إلى 2- صفر.

فقد فوسكو السيطرة على أعصابه، فانقضَّ على روسِّي حين هزَّت الكرة الشِّباك، يرغي ويزبد ويطلق الشَّتائم النابوليَّـة على حدٍّ سواء. أمسكه زملاؤه قبل أن يحصل أي احتكاك جسديٍّ، ولكنَّ فوسكو نال بطاقة حمراء، فغادر الملعب.

وفي الدقيقة التِّسعين، منح روسِّي بريشَّا ضربة جزاء أخرى، على سبيل متعة العناد، فيما يبدو، فحسب. لا أحد في المدرجات، ولا أي لاعب في فريق بريشَّا، ولا مدير فريق بريشَّا، ولا حتى روسِّي نفسه، كانت لديه أدنى فكرة لماذا فعل ذلك. بدت المسألة كأنَّها نزوة جنون محض.

سُجِّلت ركلة الجزاء، فارتفعت النتيجة إلى 3- صفر، وما إن أخرجت الكرة من الشِّباك واستقرَّت في يدي روسِّي حتى أطلق صافرة النهاية، ثم ركض مسرعاً على قدر استطاعته إلى النفق الذي سوف يأخذه إلى خارج الاستاد، قبل أن يقع في أيدي طُغمة ساخطة من بضع مئات من مشجِّعي كاستل دي سانغرو.

ولأنَّني كنت جالساً في مقاعد الأخيار، لم أكن من أوائل الذين وصلوا السياج الشائك كي يتسلَّقوه، ولكنني رأيت حين اقتربت منه أنَّ أحد مشجِّعي كاستل دي سانغرو، الذي استبدَّ بهم الغضب أكثر منِّي، قد تمكَّن من الصعود إلى قمَّة السياج، وموازنة نفسه هناك، قابضاً بيده على الشبكة التي على جانبي الأسلاك الشائكة، في حين صَعِد رجال الشرطة في كلا الجانبَيْن ليقبضوا عليه، داكِّين السياج بهراواتهم كي يزحزحوه، ثم رأيت مَن كان: إنَّه كريستيان!

●●●

لم يهدأ كريستيان، ولا حتى أنا، إلا بعد ساعات بمطعم مارتشيلَّا، إلى الحدِّ الذي تمكنا فيه من الحديث بلغة متماسكة (آثر رجال الشرطة، الذين كانت أعدادهم تقلُّ إلى حدٍّ كبير عن تعداد مشجِّعي كاستل دي سانغرو، ألا ينهالوا بالهراوات على كريستيان، حين أنزلته من فوق السِّياج، منعاً لتفشِّي أحداث الشَّغب).

ولم نكد نبدأ الحديث، حتى تركز كلامنا على نحو غير مستغرب على الحكَّام، وعلى أسوأ أمثلة هذه السُّلالة.

قال رجل لا أعرف اسمه، ولكنَّه لعب لصالح فريق كاستل دي سانغرو في ستينيَّات القرن العشرين: «هذا في غاية السُّوء. في غاية السُّوء. ربما الأسوأ منذ مباراة تشيلانو».

لقد شاهدتُ لافتات الطريق إلى تشيلانو، وهي بلدة أبروتسيَّـة غربَ سولمونا، خارج الطريق السريعة المؤدية إلى روما.

فسألته: «تشيلانو؟ متى حدث ذلك؟ متى لعب كاستل دي سانغرو ضدَّ فريق تشيلانو»؟

«أوه، كلا، حدث ذلك منذ سنين عديدة. ربما سنة 1978، أو 1979. ولم يلعب فريق كاستل دي سانغرو. ولكنَّ مشجِّعي تشيلانو اعتقدو في ذلك اليوم أنَّ الحكم كان سيِّئاً، بل أسوأ من روسِّي اليوم».

فقلت: «مستحيل».

فأومأ برأسه قائلاً: «أجل، لقد حدث. لذا... فقد أقدموا على... لا أعرف الكلمة بالإنكليزيَّـة... «لِنْتَشَاجُو linciaggio».

ناديت كريستيانو للمساعدة. «ما معنى كلمة «لنتشاجو»... عند الإشارة إلى حكم سيِّئ»؟

«أوه، أنت تقصد ما حدث في تشيلانو؟ ربما قبل عشرين سنة»؟

«أجل، ماذا حدث»؟

«إلى الحكم؟ أجل، حدث «لنتشاجو». كما تعرف، الشَّجرة والحبل حول العنق. الشَّنق. كما فعلتم في أمريكا مع السُّود في الجنوب».

«هل تقصد أنَّهم قد أعدموه شنقاً lynched»؟ [على الفور، دون محاكمة].

«أظنُّ ذلك، نعم. أنا لا أعرف هذه الكلمة «لِنْتْش lynch»، ولكنني أعرف «لنتشاجو». أجل، أجل، لقد وضعوا الحبل على الشَّجرة، ثم وضعوا عنقه في الحبل ثم، أجل، قد مات. ربما هذا خطأ، ولكنني سمعت الحكايات التي تروى، وهي ليست في غاية السُّوء، فـ «شنقه» يجعلهم

متأكِّدين من أنَّه لن يُقدم مرَّة أخرى على فعل ما فعله معهم تجاه فريق آخر. لذا، فالأمر كان -كيف أقول ذلك- من أجل المصلحة».

«المصلحة العامَّة»؟

«حسناً، بالنسبة إلى جماهير تشيلانو، أجل. ولكنها شيء آخر».

«مصلحة الرياضة»؟

«أجل، هي كذلك. بالضَّبط. في مصلحة الرياضة. فحين يقتلونه، لن يغدو حكماً سيِّئاً مرَّة أخرى».

«حسناً.. حسناً.. وماذا حدث للمشجِّعين؟ هل اعتقل أحد؟ هل حُوكم أحد؟ هل ذهب أحد إلى السجن»؟

فقال كريستيانو: « لا أعرف».

ولكنَّ الرجل الذي قصَّ علـيَّ الحكاية في الأصل قد تذكَّر بكل وضوح، فقال: «أوه، كلا. لا يمكن أن يحدث ذلك. فالجميع، الشرطة والقاضي القادم من روما، كانوا يعرفون أنَّ الحكم قد أخطأ».

19
بطاقة حمراء

تُصدِر الصحف الإيطالية اليوميَّـة، في كل صباح، بوسترات كبيرة، يمكن للموزِّع لصقها خارج حانوته، تسلِّط الضوء بأحرف سوداء كبيرة على الحكاية الأبرز لذلك اليوم.

زعم بوستر صحيفة «إل تشنترو» في يوم الإثنين: «حَكَمٌ مُشين ARBITRO SCANDOLISO».

ولم يعارض هذه العبارة أحد، ليس في كاستل دي سانغرو على الأقل. لقد كانت مباراة بريشًّا هزيمة بالنسبة إلينا، ولكنها كانت هزيمة للَّعب العادل والنَّزاهة. لم يكن لهذه «التَّقارير الصحافيَّـة» أي تأثير بعد مثل تلك المباراة: وجده التَّقييم الممنوح للحكم هو المهمُّ. ولقد منحت صحيفة «لا غازيتا ديلُّو سبورت» -الصحيفة الوحيدة التي يُعتدُّ بتقييمها في هذه الحالة- روسِّي «ثلاثَ نقاط». ثلاث نقاط! لم يسبق لي أن شاهدت لاعباً، أو مديراً، أوحكَماً، يحصل على أقل من أربع نقاط، وهذا في حدِّ ذاته فضحية.

حسناً، لقد بدا الوقت سانحاً لأعرف إنْ كان ألتامورا، جاري الذي يسكن في الطابق العلويِّ، يتمتَّع بخفَّة الظلِّ أم لا. وكان ولدي جيمز قد أهداني، في أعياد الميلاد المجيدة في السنة الماضية، وهو لم يجاوز الثانية عشرة من عمره بعد، عدَّة حكم أصليَّـة، تتكوَّن من بطاقة حمراء، وبطاقة صفراء، ولوحة يستطيع المسؤول التسجيل عليها اسم اللاعب المخالف، وطبيعة المخالفة، وهكذا دواليك.

ولقد كنت أحمل معي البطاقتَيْن، الحمراء والصَّفراء، داخل محفظة بلاستيكية مطويَّـة، أينما حللت، حتى إنَّني استخدمتها بدلاً من المحفظة العاديَّــة، حاشيـاً فيهـا بطاقـات الائتمــان، والليـرات المجعَّـدة، وأرقام الهواتف، وأشياء من هذا القبيل.

نهضتُ مبكِّراً صبيحة الإثنين، ثم خرجت إلى سيارة ألتامورا المركونة عند حافَّة الرصيف. وضعت البطاقة الحمراء تحت المسَّاحة الأماميَّـة، وخربشتُ عليها العبارة التالية بالإيطالية: «كنت أنوي أن أعطيك هذه البطاقة يوم أمس، رفقةَ البطاقة الأولى. أطيب التمنيات، السيِّد روسِّي التَّشَامْبِينُونِي».

عدتُّ إلى شقَّتي، بعد شراء الصحف اليوميَّـة، حين سمعت ألتامورا يودِّع زوجته، صابرينا، متوجِّهاً لنزول السلالم رفقةَ نيكولو، ابنهمها الذي يبلغ من العمر أربعة أعوام، الذي كان يصحبه إلى الحضانة.

سمعته ينزل من الطابق الثالث إلى الثَّاني (حيث أسكن)، ثم إلى الطابق الأوَّل، مناغياً نيكولو طيلة الطريق بنبرة هادئة وأبويَّـة، في حين يهمهم الطفل الصغير بالكلام الذي يهذر به الأطفال في صباحات أيام الإثنين قبل ذهابهم إلى الحضانة.

سمعتهما يخرجان عبر الرواق الصغير، متوجِّهَيْن إلى السيارة، ثم سمعت، بعد هنيهة، باب الرواق ينخبط مفتوحاً، وصوت أنطونِلُّو وهو يرعد في أعلى السلالم. (لا بُدَّ أنه قد ترك نيكولو، آمناً، في مقعده بالسيارة).

كان على بُعْد طابق واحد، حين راح يصيح: «صابرينا»! سمعت صوتها القلق وهي تُجيبه، حين فتحت باب شقَّتها، ثم أُغلق الباب بقوة مرَّة أخرى، ولكنَّ صوت أنطونلُّو لم يهدأ، فلقد كان يجأر كثور يحتضر.

سمعت قبضة يده تخبط الجدار، ثم علا صوته بالشتائم، وحين فكَّرت بنيكولو، مربوطاً بحزام الأمان في مقعده بالسيارة وحيداً، آثرتُ أن أعترف.

صعدتُ السلالم، وطرقت على الباب، قائلاً بالإيطالية: «أنا روسِّي التَّشَامْپِينُونِي. سمعت بأنَّك تبحث عنِّي».

فانفتح الباب على مصراعيه. وما كاد أنطونلُّو وصابرينا يَرَيَانِي، حتى أدركا أنَّني وراء تلك المزحة. كان من الصَّعب معرفة مَن انفجر منهما ضاحكاً بصوت أعلى من الآخر، ولكنَّني أستطيع القول، من الطريقة التي جذباني فيها ليعانقاني، إنَّ صوت أنطونلُّو كان الأقوى. اللعنة! يا للأمريكي المجنون الذي يسكن بجوارهما. الذي لا يعرف الكالتشيو فحسب، وإنَّما يعرف أيضاً كيف يجعلهما يضحكان، حتى في صبيحة يوم إثنين في غاية السُّوء.

ولأنَّ كاستل دي سانغرو كان محطَّ تركيزي الأساسيِّ طيلة الوقت، فلم يكن من الممكن العيش بإيطاليا في خريف 1996، دون أن أكون قد وعيت المحن التي كابدها باجيو.

لم تسر صفقة الانتقال إلى ميلان على نحو جيد، فلقد بدا مدرِّبهم الأوروغوانيُّ الجديد قادراً على إيجاد عذر جديد في كل أسبوع لإبقاء «صاحب ذيل الحصان الإلهيِّ»[135] في دكَّة الاحتياط. في حين كان سَاكِي -مدير المنتخب القوميُّ، المتغطرس، المزهوُّ بنفسه، الساديُّ، المصاب بجنون العظمة، العاجز تماماً- قد استبعد باجيو من تشكيلة «الأزرق azzurri»، المنتخب الوطنيِّ، على نحو بارد واعتباطيٍّ.

ولقد تمكَّنت إيطاليا، في المباريات التأهيليَّـة المبكرة لبطولة كأس العالم في العام 1998، من تجاوز خصوم مثيرين للشفقة، كمولدوفيا وجورجيا، بصعوبة بالغة. ولكنها لعبت، يا إلهي، على نحو رديء.

خاض المنتخب الإيطالي في 6 نوفمبر مباراةً «استعراضيَّـة» ضدَّ البوسنة في سراييفو. لم يكن ليخطر ببال المرء أنَّ لدى البوسنة أحد عشر رجلاً يتمتَّعون بأجساد قويَّـة، وقادرين على اللعب كفريق، ولا أنَّ «الملعب» الذي في سراييفو يمكن أن يكون آمناً للَّعب، ولكنَّ المباراة مضت قُدماً على الرَّغم من ذلك.

أذيعت المباراة في إيطاليا بدايةَ العصر، نظراً إلى الفارق الزمنيِّ، فشاهدتها قبل ذهابي إلى الحصة التدريبية التي تعقد يوم الثلاثاء. وأمام فزع الجميع - إلايَ- ودهشتهم، هزمت البوسنة الإيطاليين 2-1؛ شعرتُ بأنَّ ذلك سوف يكون القشَّة الأخيرة التي ستقصم ظهر ساكي، الأمر الذي سوف يمنح حياة جديدة لمسيرة باجيو المهنيَّـة على الصعيد العالميِّ.

تجاوزت طريقي إلى ملعب التدريب، مترنِّماً مع نفسي: «دينغ-دونغ! ماتت السَّاحرة!»[136]. أجل، كنت ماأزال غاضباً بشأن روسِّي التَّشامبينوني، وحزيناً بشأن إصابة لوتِّي، ولكنني عرفت أنَّ لوتي سوف يتعافى، في حين ساورتني الشكوك أنَّ ساكي لن يقدر أبداً.

كان دانجلو أوَّل لاعب رأيته في الملعب.

فِصحت إليه: «لوقا، لوقا! اثنان إلى واحد!».

فهرول صوبي، وقد بدا متحيِّراً. أراد أن يعرف من أين حصلت على الرَّقم. قال إنَّ نتيجة استطلاعات الرأي، التي أجريت بعد الانتهاء من

عمليَّـة الاقتراع، أشارت إلى أنَّ كلنتن قد فاز على [بوب] دول بسهولة، ولكن ليس بفارق اثنين إلى واحد.

إنَّه يوم الانتخابات في أمريكا، لقد نسيت تماماً. وهأنذا، الأمريكي، مسرورٌ لهزيمة إيطاليا في البوسنة، لأنَّها سوف تصبُّ على المدى الطويل في مصلحة لاعب كرة القدم الإيطالي الذي أُجلُّه، في حين كان أمامي لاعب كرة قدم إيطالي آخر يعبِّر عن سروره وارتياحه للهزيمة النَّكراء التي تجرَّعها اليمين الأمريكي وفق الاستطلاعات. لقد كان يشاهد إعادة الانتخابات على شاشة محطَّة السِّي. إن. إن. أما أنا، فكنتُ أشاهدُ الكالتشيو مبثوثة من البوسنة.

أضحى العمل في الاستاد يتقدَّم الآن بصورة محمومة، جارياً على مدار الساعة. وكان السيِّد ريتسا دائماً ما يوجد في الموقع بنفسه. كنتُ سأدهش بعض الشيء لرؤيته وقد اعتمر خوذة واقية. المسألة حاسمة هذه المرَّة: سيفتتح الاستاد الجديد رسمياً في الأول من ديسمبر، اليوم الذي سنلعب فيه ضدَّ جنوا.

ولكنَّ صحيفة «إل تِشنْترُوْ» نشرت، يوم الأربعاء، تصريح غراڤينيا المفاجئ أنَّ الأبواب ستفتح حتى قبل ذلك الوقت. في الحقيقة، شهد الملعب في اليوم التالي مباراة استعراضيَّـة لتقديم اللاعب الذي اشتراه غراڤينيا بمبلغ كبير من فريق «ليستر سيتي»، في الدوري الإنكليزيِّ الممتاز، النَّيجيري روبرت راكو پونيك، إلى فريق كاستل دي سانغرو.

كان وقع الخبر على البلدة صاعقاً، لا كشيء آخر من قَبْل. مهاجم نيجيريٌّ من الدوري الممتاز، المعادل الإنكليزي لدوري الدرجة الأولى؟

تُعدُّ هذه الخطوة أجرأ خطوة اتَّخذتها «لا سوتشتا» على الإطلاق، وتعتري المرء قشعريرة حين يفكِّر بالكلفة. ولكن لا بُدَّ أن غرافينيا قد بات مدركاً، هو أيضاً، أنَّ «قوة الأمل» لم تكن كافية لخوض غمار دوري الدرجة الثانية؛ فالفريق بحاجة إلى هداف.

كتب جوزبِّه في صحيفة «إل تشنترو» أنَّ الحقائق الأخرى والمعلومات الإحصائيَّة المتعلقة ببونيك، كالعمر، والأهداف المسجلة، والأندية السَّابقة التي لعب فيها.. إلخ، كان من الصعب الحصول عليها في وقت قصير، ولكنَّ بونيك سوف يُقدَّم في مؤتمر صحافيٍّ، يُبثُّ حياً على الهواء مباشرة، من بريشَّا ليلةَ الأربعاء، ولسوف يلعب في المباراة الاستعراضيَّة التي ستقام في اليوم التالي.

أُذيعت الحكاية في نشرات الأخبار الوطنيَّة عند الظهيرة. لقد هزَّ فريق كاستل دي سانغرو الصغير، فريق «المعجزة» و«الحكاية الخرافيَّة»، العالمَ مرَّة أخرى. أرسلت وكالة الأنباء الوطنية الإيطالية خبر العقد الذي أبرمه بونيك إلى العالم أجمع. انهالت المكالمات الهاتفيَّة على مكتب «لا سوتشتا» من الصحف والمجلات القوميَّة، تطلب جميعها حجز مقاعد خاصَّة كي يشهد ممثِّلوها مباراة بونيك الأولى.

ومما لا شك فيه أنَّ «ليستر سيتي» لم يكن أحد أقوى الفرق في الدوري الممتاز؛ إذ صعد إليه هذا الموسم فحسب، ولكنَّ فحصاً سريعاً للسجلات أظهر أنَّ بونيك سوف يكون أوَّل لاعب يذهب إلى إيطاليا، قادماً من الدوري الممتاز، منذ أن اشترى فريق لاتسيو بول غاسكوين في العام 1992، وسيغدو أوَّل لاعب يلعب في دوري الدرجة الثانية على الإطلاق.

لم يكن ثمَّة متَّسع بمطعم مارتشيلَّا إلا وقوفاً لمشاهدة المؤتمر الصحافيِّ في الساعة السابعة مساءً. ومما لا شك فيه أنَّ روبرت راكو پونيك كان جالساً، بالطَّبع، بين غراڤينيا وليوپولدو غاسارو، الصحافيِّ المحلـيِّ ثنائيِّ اللغة.

كان پونيك، الذي ارتدى قميصَ جينز، ماركة «سوڤيت»، طويلاً ونحيفاً وحليقَ الرأس تماماً، وهي موضة أصبحت تزداد رواجاً بين اللاعبين. وكان، على شاكلة آدو، يتكلم إنكليزيَّـة سليمةً، فحظيتُ بميزة نادرة.

وهناك شيء جيد أيضاً؛ فلو كان ثمَّة من يترجم لي، لكنت على يقين من أنني قد أسيءُ فهم ما يقال. لم ينتظر پونيك الأسئلة، أو حتى تقديماً من طرف غراڤينيا. بدأ بالكلام، في حين كان ليوپولدو يترجم إلى الإيطالية بأسرع ما يستطيع. لم أكد أصدِّق ما قد سمعته.

بدأ قوله: «أعرف أنَّني قد التحقت بالموسم متأخِّراً، ولكنني سوف أسجِّل العدد الأكبر من الأهداف في الدوري؛ هذه مسألة بسيطة. لقد شاهدت دوري الدرجة الثانية هذا، وأنا متفوِّق جداً على الجميع، سيكون الأمر مجرَّد مسخرة. سأحرز العدد الأكبر من الأهداف أكثر مما سجَّله أي لاعب في دوري الدرجة الثانية قطُّ. لا أعرف كم سيكون العدد، ولكنَّ الأمر لا يهمُّ. سألعب على نحو أفضل من الجميع».

وحينئذ سأل ليوپولدو پونيك إن كان يعتقد أنَّ وجوده سوف يضمن لكاستل دي سانغرو «الخلاص».

«تقصد البقاء في هذا الدوري التَّافه؟ اللعنة. اِنسَ ذلك، يا عزيزي. هذا تفكير سلبيٌّ. سنصعد إلى دوري الدرجة الأولى! أعدك بذلك. هذه السَّنة. لا مجال للشك. وبما أنَّني الآن هنا، فكاستل دي سانغرو فريق بدوري

الدرجة الأولى؛ لا أحد يمكنه إيقافي. وإذا لم يمرِّر فريقي الكرة إلـيَّ، فإنني سوف أذهب وأحصل عليها بنفسي. يمكنني المحاورة، وأستطيع التَّسديد بكلتا قدميَّ، وأتمتَّع بضربة رأسيَّـة عظيمة».

نظر پونيك شزراً حين ألقى توريتَهُ هذه، التي لم يدرك معناها جمهوره الإيطالي، ولكن ليس أنا. يا إلهي! ماذا سيحصل حين يُفحص دم هذا الرجل فحصَ العقاقير المنشِّطة؟ ثم شرع فيما بدا كأنَّه مونولوج راپ، تاركاً ليوپولدو في حيص بيص غير قادر على مجاراته، فطلب منِّي جميع الموجودين بمطعم مارتشيلَّا أن أترجم على الفور.

«لا بُدَّ أن أحذِّر سكَّان هذه القلعة، أيّاً كانوا. إن كنتم تُجِلُّون نساءكم، فأبقوهنَّ في بيوتهنَّ. لأنّني سوف أعابثهنَّ لو كُنَّ جميلات، ولن أبالي مَن يكُنَّ. لا يهمُّني ابنة مَن، ولا زوجة مَن. فلا بُد أن أغازل إحداهن لأتمكَّن من تسجيل الأهداف. وأقول لكم الآن: أنا الأكثر فحولة في إيطاليا. فتهيَّأنَ، أيتها السيِّدات، تهيَّأن. فلقد أزفت لحظتكُنَّ الفاتنة، وها قد وصل الرَّجل الفتَّان. سوف يُقلِّبُ روبرت راكو پونيك عليكُنَّ المواجعَ ويُسلِّيكُنَّ تسليةً لَمْ تَعْهَدْنَها مِن قَبْل. أقصد داخلَ الملعب وخارجه».

فقلت في نفسي: «كلا، مستحيل». لا يمكن أن يحدث هذا. ظلَّ غراڤينيا، الذي لا يفهم كلمة إنكليزيَّـة واحدة، غافلاً عما حدث. ولكنَّ ليپولدو بدا مصعوقاً كأنَّ أحداً قد أخذ بتلابيبه، ومن الواضح أنَّ شخصاً من الاستوديو قد عرف كفايةً مما قاله پونيك، فأرسل الفنيَّ راكضاً ليمنعه من قَول المزيد.

فصاح پونيك: «ماذا دهاك، يا رجل»! والفنيُّ يحاول سحب الميكرفون الصغير المُثبَّت على صدر قميصه الرياضيِّ. نظر غراڤينيا مبهوتاً، ثم قُطع

الصَّوت تماماً، واسودَّت الشاشة. عمَّ الصخب مطعم مارتشيلَّا، فولَّيتُ مدبراً، صاماً أذنيَّ بيديَّ، مُتذرِّعاً أنَّني «لم أفهم»! وهارباً بأسرع ما أستطيع.

تفاقمت الفوضى عصر اليوم التالي. احتشد 5000 شخص، قبل ساعة على بدء المباراة الاستعراضيَّـة، أمام بوَّابات الاستاد الجديد البرَّاقة. وعربات البثِّ التلفزيونيِّ الكبيرة، التي ترتفع فوقها لواقط الأقمار الصناعيَّـة، سدَّت موقف السيارات الجديد.

ذهبتُ، كالعادة، عبر مدخل اللاعبين، ولكنني حين مضيت عبر الرُّواق إلى غرفة تبديل الثياب، وجدت ياكوني يعترض طريقي، وقال معتذراً: «لهذا اليوم فحسب، يا جُو. لن يُسمح لأحد. لا نريد لپونيك أن يتوتَّر». كان يتصبب عرقاً وهو يتحدَّث على نحو لم أره من قبل؛ فشعرت، لأول مرَّة منذ أن قابلته، أنَّه لم يكن مرتاحاً بتاتاً، فلم أُجادل.

كان ثمَّة مشهد غوغاء في المنصَّة. ولأنَّ الدُّخول كان مجانياً لحضور مباراة پونيك الأولى، فقد قام أحدهم بكل بساطة، وفي لحظة ما، بفتح البوَّابات على مصارعها، فاندفع 5000 شخص إلى منطقة لا تحتوي إلا على 3000 مقعد. ولم يحل دون اندلاع أعمال شغب سوى حقيقة أنَّ هؤلاء كانوا جميعَ سكَّان البلدة -الأصدقاء والجيران- أو كادوا.

استعرضتُ الغوغاء بحثاً عن وجوه مألوفة، فلمحت جياكومو غالي، على نحو غير متوقَّع، مرتدياً بذلة في غاية الأناقة، تبزُّ أرقى ثياب «سوڤيت جينز»، وقميصاً بزرَّين معدنيَّين في الكمَّين مُوقَّعَيْن بحرفَي اسمه الأولين، وربطة عنق حريرية باهظة الثَّمن.

كان ذلك غريباً جداً، فمن المفترض أن يكون مستعدّاً لدخول أرض الملعب في غضون خمس عشرة دقيقة، ولكنَّ الدموع أخذت، على نحو أشدَّ غرابةً، تنهمر على هواها فوق وجهه العريض الوسيم.

وحين شاهدني، هُرع إلـيَّ وعانقني، ناشجاً على كتفي.

قال: «تشاوْ يا جُو»، ثم قال بالإنكليزيَّـة: «وداعاً». لمحتُ، حين عانقته، كريستيان يقف بالجوار، فسألته عما جرى.

فقال كريتسان، تعتصره الكآبة: «لا سوتشتا. كان لا بُدَّ عليهم، كي يدفعوا ثمن پونيك، بيعَ أحد اللاعبين، فوقع اختيارهم على جياكومو. ولأنَّ پونيك سوف يسجِّل الآن الأهداف، فسيذهب جياكومو غداً ليلعب في الفئة الأولى بدوري الدرجة الثالثة؛ لم يَعُد عضواً في الفريق».

من الواضح أنَّ ياكوني قد ذهب إلى غالي وأخبره، قبل ساعة فحسب، بضرورة أن يُخلي أغراضه من خزانته، وألا يرتدي ثيابه الرياضيَّـة استعداداً لخوض المباراة. لقد بِيع إلى فريق يلعب في الفئة الأولى بدوري الدرجة الثالثة، ولن يُفصَح عن هويَّـة هذا النادي إلا في المساء، ولكنَّ الأمر كان رسمياً: تناول جياكومو آخر وجبة له بمطعم مارتشيلّا. سيأخذ مكانه روبرت راكو پونيك.

كان الحزن قد عصف بغالي. وعلى الرَّغم من جميع عيوبه كلاعب، فإنَّ قسوة القلب لم تكن إحدى عيوبه إطلاقاً. لقد بذل كل ما لديه -على الرَّغم من أنَّه قد يبدو غير كاف- في سبيل كاستل دي سانغرو، وها هو ذا الآن يخبرَ كريستيان بأنَّه لا يستطيع تخيُّل الحياة في مكان آخر.

وإذ قرَّرنا، كريستيانو وأنا، ملازمة جياكومو في ساعة عذابه، فقد حشرنا نفسينا في مقعدين إلى جانبه في انتظار أن تبدأ المباراة. أردت أن

أعرف من يكون فريق الهواة الذي سنلعب ضدَّه، ولكن لم يبدُ أنَّ أحداً لديه أي جواب. كان الأمر غريباً، فالمباريات الاستعراضيَّـة، التي لا يُعتدُّ بنتيجتها في أي تصنيفات، تكون مُجدْولة مسبقاً، وهويَّـة فريق الهواة الزَّائر معروفة دائماً. لكنَّ هؤلاء بدوا أغراباً.

لم يكن ذلك مهماً، فكل ما يهمُّ هو روبرت باكو پونيك. ولم يكد اللاعبون يدخلون إلى أرض الملعب، حتى اندفع پونيك، راكضاً وحده، ملوِّحاً للجماهير الذين بادلوه التحيَّـة بالتصفيق الحارِّ واقفين.

وحين بدأت المباراة، ركَّزت الجماهير أنظارها عليه، وعليه وحده. كان يتمتَّع بخطوات طويلة قادته إلى أنحاء الملعب كافة، بصرف النظر عن المكان الذي توجد فيه الكرة. لم يرق ذلك لياكوني. بدا پونيك مفتقراً إلى التَّكتيك. كان قد تعثَّر مرَّتَيْن أو ثلاثاً، فسقط مكوَّماً على نفسه، تتداخل أطرافه بعضها في بعض، ثمَّ أشار إلى الملعب، وهو ينهض، كأنَّه غير مناسب للَّعب. وكان، في لحظة ما، يتجاهل اللعب الدائر من حوله، فينحني ليلتقط حفنة من العشب، ثم يرفعها على طول ذراعيه، هازاً رأسه قبل أن يطرحها أرضاً باشمئزاز.

ولكنَّه قرَّر حينئذ أن ينخرط في الحدث. بدا واضحاً على الفور أنَّ كل ما يريده هو الحصول على الكرة، وأنَّه، كما قال ليلة الأمس، ليس عازماً على انتظار تمريرة ما. ركض صوب ميكليني وركل الكرة من تحت قدميه، دافعاً ميكليني بقوة في أثناء ذلك. انطلقت الصَّافرة. هُرع الحكم ملوِّحاً ببطاقة صفراء إلى روبرت پونيك، لأنَّه قد عرقل ميكليني!

فقلتُ: «أيمكن أن تحصل، يا كريستيان، على بطاقة صفراء جرَّاء عرقلة زميلك في الفريق؟»

فقال كريستيان، وقد بدا قلقاً: «لا أعرف».

كان غالي، الجالس إلى جانبه، قد دفن رأسه بين يديه؛ فذلك أكثر من أن يحتمل مشاهدته.

وحين استؤنف اللعب، ركل مارتينو الكرة إلى پونيك الذي انطلق على الفور صوب مرمى الخصوم، يتبعه كظلِّه مدافعان، ولكن لا يعيقان تقدَّمه، ثم أطلق تسديدة عن بُعْد نحو ثلاثين ياردة، ابتعدت عن المرمى أكثر من ثلاثين ياردة.

بدأ المشجِّعون، من حولنا، ينظر بعضهم إلى بعض، ويهزُّون رؤوسهم. بدا فريق الهواة أسوأ من فرق الهواة المعتادة، محوِّلين الكرة على الفور إلى كاستل دي سانغرو. مرَّر مارتينو الكرة إلى پونيك الذي كان واقفاً عند المرمى، في منتصف منطقة الجزاء. خبطت الكرة بركبة پونيك، فسقط دون أن يلمسه أحد من الخصوم.

صافرة أخرى، ثمَّ ركض الحكم إلى الأمام مشيراً إلى ضربة جزاء. كان قراره هذا بمثل سوء تلك التي اتُّخذت في مباراة بريشَّا، ولكن من الواضح أنَّ التعليمات قد وُجِّهت إلى هذا الحكم لمنح پونيك كل فرصة ممكنة كي يتباهي بها لديه.

تقدَّم دي ڤنتشنسو لتنفيذ ضربة الجزاء، كما جرت العادة مع الفريق، ولكنَّ پونيك لم يعطه الكره، بل قام هذا النَّيجيريُّ بالإشارة إليه على نحو غاضب كي يبتعد، وحين لم يتراجع دانيلو، ألقى پونيك الكرة أرضاً، وانقضَّ عليه، فبدأ الاشتباك بينهما. هُرع نصف لاعبي كاستل دي سانغرو

وفصلوا بينهما. كان تِشيي، قائد الفريق، ينظر إلى الدكَّة يائساً في انتظار التعليمات. فصاح ياكوني ولوَّح في إشارة إلى أنَّه راغب، حقيقةً، في أنَّ ينفذ يونيك ضربة الجزاء.

فتراجع دي ڤنتشنسو، وهو يكيل الشتائم واللعنات، واحدة تلو الأخرى، ويركل العشب، ثمَّ انضمَّ إلى زملائه في الفريق. وضع الحكم الكرة في البقعة المحددة لتنفيذ الضربة. وقف يونيك فوقها. ولكنَّه، بدلاً من أن يتراجع خطوة أو خطوتين ثم يتقدَّم لركلها، انحنى هذا النيجيريُّ الطويل وحرَّكها ستَّ بوصات جهةَ اليسار.

لم يكن ذلك مسموحاً. كانت ثمَّة بقعة واحدة، وليس إلا بقعة واحدة، تُركَل منها ضربة الجزاء. هُرع الحكم، وأشار بإصبعه إلى يونيك محذِّراً، وأعاد الكرة إلى موضعها في البقعة المخصَّصة، ثم تراجع إلى الخلف على مهله، مبقياً عينيه على الكرة ليتأكد من أنَّ يونيك لن يحرِّكها مرَّة أخرى، وصفَّر لتنفيذ الضَّربة.

ولكنَّ يونيك قبض فجأة على شقِّه الأيمن، وانحنى كأنَّ ألماً فظيعاً يعتصره، وترنَّح ثلاث خطوات إلى الوراء، ووقع على الأرض. ثم سرعان ما ركض المدرِّب وطبيب الفريق إلى أرض الملعب، فيما تحلَّق حوله بعض لاعبي كاستل دي سانغرو وفريق الهواة ليروا ماذا أصابه. حتى إنَّ حارس مرمى الخصوم قد تقدَّم هو أيضاً، قلقاً من أن يكون يونيك قد تعرَّض إلى هجوم خطير، أو أصابه شيء أُلقي من المدرَّجات.

وما إن رأى يونيك المرمى خالياً، حتى وثب، ثم خطا خطوتين طويلتين نحو الكرة، وركلها في المرمى، وراح يهرول على الفور حول

الملعب، يصك بأسنانه ويلوِّح بذراعيه فرحاً، داعياً المشجعين إلى الانضمام إليه، ولكنَّ أحداً لم يفعل ذلك ولا حتى رفاقه المبهوتين.

ليس هدفاً، ليس هدفاً، لم يكن هدفاً بالطَّبع! ثم قرَّر الحكم أنَّ پونيك قد أضاع فرصته في تنفيذ الرَّكلة. ركض النَّيجيريُّ غاضباً عبر الملعب نحو المسؤول، ولم يتمكن إلا ألتامورا ودانجلو من ردعه.

ثم بان وهو يبصق في وجه ألتامورا. تراجع ألتامورا خطوةً، وقد زنَّر عينيه. دفع دانجلو پونيك بعيداً. تقدَّم ألتامورا خطوة إلى الأمام، مشيراً إلى وجهه بإحدى يديه، ملوِّحاً بقبضة يده الأخرى إلى پونيك. دبَّت الفوضى حينئذ في صفوف الفرقة بأكملها؛ إذ بدأ لاعبو الاحتياط بالركض إلى أرض الملعب، يتبعهم ياكوني مباشرة.

حاول الحكم، الغائص في معمعان هذه الكتلة من الأجساد الشتَّامة الهائجة، أن يفرض شكلاً من النِّظام. ولكنَّ پونيك اندفع نحوه وسحب من جيبه الكراس الأسود الصغير الذي يحتوي على البطاقات الصفراء والحمراء على حدٍّ سواء. ألقى الكرَّاس على الأرض، وأشهرَ بطاقةً حمراء في وجه ألتامورا.

عندئذ، انفجر ألتامورا، فسدَّد لكمة بيده اليمنى، أصابت فكَّ پونيك مباشرة، فطرحته أرضاً. اندفع ياكوني محاولاً مساعدة النَّيجيريِّ للوقوف على قدميه، فكوفئ بدفعة فظيعة، ثم تمكَّن پونيك من شقٍّ طريقه عبر اللاعبين المتحلِّقين من حوله، وراح يمشي نحو خطِّ التَّماس.

وفي هذه الأثناء، لحق الحكم بپونيك، بعد أن استعاد بطاقته الحمراء، ثمَّ شَهرها في وجهه، مما يعني على نحو واضح أنَّ الطَّرد قد وقع.

ولكنَّ پونيك بدا غير مكترث تماماً. مشى نحو خط تماس كاستل دي سانغور، ولم يكد يقترب، حتى بدأ آلاف الذين احتشدوا، كي يهتفوا له

أصلاً، يصفِّرون له استهجاناً. لقد كان هذا الرَّجل مَعَرَّةً ما بعدها معرَّة! لقد كان مخبولاً! رفع پونيك إصبعه الوسطى، مشيراً بها تجاه جميع قطاعات المدرَّجات. بدأ المشجِّعون، الذين سخر منهم، برمي زجاجات الصُّودا والماء، ولكنَّ پونيك قد تلاشى هارباً إلى غرفة تبديل الثِّياب.

اندفع غالي، الشَّاحب الذي كان يرتعش، وتجاوزني أنا وكريستيان، ثم ركض إلى أقرب مخرج. بيد أنَّ فرقة الهواة تقدَّمت بأكملها، في الوقت ذاته، صوب منتصف الملعب، يداً بيد. وانتشروا في خطٍّ مستقيم وراحوا يصفقون، مواجهين جمهورنا. ثم لاح روبرت پونيك، وهو يهرول صوبهم، على نحو لا ريب فيه. صافح جميع اللاعبين، ثمَّ استدار وراح يلوِّح للجماهير. طلب المذيع عبر مكبِّرات الصَّوت توجيه تحيَّـة حارَّة لـ «فرقة التَّمثيل الاحترافيَّـة، هادمي اللذات ومفسدي البهجات، وفنَّانهم النَّجم روبرت راكو پونيك»!

لقد كانت المباراة برمَّتها مجرَّد تمثيليَّـة مصطنعة. وبلغت الذروة مداها، كما يبدو، حين ركض الحكم المزيف أيضاً إلى أرض الملعب، وخلع سرواله القصير، وكشف عن مؤخِّرته أمام أهالي كاستل دي سانغرو المذهولين والمبهوتين.

استغرق الأمر بضع ساعات كي تهدأ الأمور، ولكنَّني عرفت أخيراً، في تلك الليلة بمطعم مارتشيلَّا، ما الذي قد حدث. قيل لجميع اللاعبين، ما عدا غالي، حين همُّوا بالدخول إلى غرفة تبديل الثِّياب، أنَّ پونيك ليس إلا مجرَّد ممثِّل، وأنَّ غراڤينيا رتَّب المسرحيَّـة الهزليَّـة برمَّتها، علَّه يحظى بفقرة، من ثلاث دقائق أو أربع، في برامج الكالتشيو الأسبوعيَّة التي تذاع

في أنحاء إيطاليا كافة. («صاحب الخيال لا يخشى الأحلام!» كان العنوان الذي اقترحه بنفسه عنواناً لتلك الفقرة).

كان اللاعبون ساخطين وفي بعض الأحيان غاضبين، ولكنَّ ياكوني أوضح منذ البداية ألا خيار أمامهم إلا المجاراة وتنفيذ ذلك. لقد عَدَّ غابرييل المسألة خطوة أخرى نحو جذب الاهتمام على مستوى الوطن، وبوصفهم موظفين لدى «لا سوتشتا»، فلا خيار أمامهم سوى مدِّ يد العون.

كان كل منحى من حكاية پونيك مفبركاً. فليس ثمَّة، ولم يكن ثمَّة على الإطلاق، لاعب يدعى روبرت پونيك في فريق «ليستر سيتي»، ناهيك عن شراء كاستل دي سانغرو واحداً بهذا الاسم. ومما لا شك فيه أنَّ پونيك لم يكن حتى نيجيرياً، وإنَّما ممثِّل ولد في لندن وترعرع فيها. أجل، لقد كان الأمر في غاية السُّوء، أن يُضحَك على غالي، ولكنَّ المسألة كانت مؤقَّتة ولصالح القضية الأساسيَّة في كل الأحوال، أو هكذا تذرَّع غابرييل.

ولكنَّ الأمر برمَّته قد انفجر في وجهه صبيحةَ اليوم التالي. فالصحافة، التي غالباً ما تجعل من نفسها أضحوكة، لا تحسن التفاعل حين يخدعها الآخرون. لم تكن وكالة الأنباء الإيطالية القوميَّة مسرورة، على وجه الخصوص، لتعرُّضها للخداع.

أجمعت ردود الأفعال التي تدفَّقت من الأوساط كافة: لم يجعل غراڤينيا من نفسه أضحوكةً فحسب، ولكنَّه جلب العار أيضاً إلى «لا سوتشتا» وإلى لعبة كرة القدم ذاتها، وهي مسألة لم تكُن لِتُأخذَ في إيطاليا على سبيل المزاح بتاتاً.

قالت صحيفة «لا غازيتًا ديلو سپورت» (في مقالة لم يكتبها جوزبِّه) لقد أظهر غراڤينيا عجزه عن إدارة شؤون «لا سوتشتا»، بالتصرف وفق أنَّها «دميته» الشخصيَّة. وأضافت صحف أخرى أنَّه قد أهان لاعبي فريقه ومشجِّعيهم الذين كانوا يردُّون على نحو مُبرَّر بكلمات «ناقمة»؛ وأنَّه قد بدَّد كثيراً من الأموال الضروريَّة على «سقطةٍ فجَّة ومبتذلة errore grossolano»، وارتكب «خطأً فادحاً» ارتدَّ إلى نحره un autentico boomerang، مثبتاً أنَّه صاحب «ذوق سيئ» بالجرم المشهود.

حاول غراڤينيا في البدء، حين شاهد ردَّة فعل الجماهير، انكار تورُّطه بالأمر أو حتى درايته به، فقال: «لا أعرف شيئاً»، ثم أمر جوزبِّه بإصدار بيان صحافيٍّ يقول فيه إنَّه، أيْ جوزبِّه، مدير العلاقات العامَّة البائس، هو المسؤول الوحيد عن الفضيحة برمَّتها؛ وإنَّه، أيْ جوزبِّه، يأسف أسفاً شديداً لأي إزعاج أو إهانة قد تسبَّبت بهما كلماته أو أفعاله؛ وإنَّه، أيْ جوزبِّه، يرغب في الاعتذار على وجه الخصوص إلى السيِّد غراڤينيا، رئيس فريق كاستل دي سانغرو، وإلى جميع جماهير فريق كاستل دي سانغرو ولاعبيه.

لم يصدق تلك الحكاية أحد، بالطَّبع، ولا للحظة واحدة، فأجبر غراڤينيا بحلول نهاية الأسبوع على الاعتراف بأنَّه من كان وراء تلك الخيبة منذ البداية.

لم يتوقَّف عن الإصرار، على نحو غاضب، أنَّها كانت فكرة ذكيَّة في غاية الرَّوعة، ولكنَّ الصحافة وأهل البلدة ولاعبي الفريق كذلك، لم يتمتَّعوا بذلك القدر من الحنكة لتقديرها.

كان من المفترض ألا أقارب المسألة على نحو شخصيٍّ جداً، ولكن لا ينبغي للكالتشيو أن يدفع المرء إلى الحدود القصوى. وكلما قلَّبتُ الأمر

متمعناً فيه طيلة يوم الجمعة، وليلة الجمعة، حين أخذت رياح نوفمبر الباردة بالعويل هابطة من الجبال، ازددتُ قرفاً من بهرجة پونيك الزائفة كلها.

لقد قام غراڤينيا، في الجوهر، بعيداً عن العنصريَّـة السَّافرة (مسخرة «الوجه الأسود»[137] لجعل الناس ينسون حقيقة جوزيف آدو)، بالتغوُّط على «المعجزة» بأكملها، محاولاً في الوقت ذاته استخدامها للترويج لنفسه بوصفه الرجل الذي يستحق أن يحظى باهتمام جديٍّ على الصعيد الوطنيِّ.

نهضْتُ مبكِّراً يوم السَّبت، ثم قصصت من صحيفة «إل تشنترو»، عدد اليوم السَّابق، الصورة الكبيرة لروبرت راكو پونيك، وهو يرتدي قميصاً رياضيّاً، ماركة «سوڤيت جينز»، منطلقاً بعجرفة خارج عشب الاستاد الجديد، ورافعاً إصبعه الوسطى عالياً تجاه ثلاثة أرباع سكَّان كاستل دي سانغرو البالغين.x

تمكَّـنت، باستخـدام زر النَّسـخ بآلـة الفاكـس الخاصَّـة بي والطـابعـة الموصولة بحاسوبي، من تكوين سلسلة بوسترات، بحجم 8×11، ليست مبدعة من الناحية الفنيَّـة ولكنها واضحة، أعدت فيها استخدام صورة «اصبع» پونيك في الأعلى، ثم أعلنتُ تحتها بأحرف سوداء كبيرة «أهلاً وسهلاً في كاستل دي سانغرو».

حشوت ستَّة بوسترات فـي مظاريف، ثم عنونتها بأشكال مختلفة لإرسالها إلى عمدة البلدة (وهو رجل يشغل منصبه منذ زمن طويل ولكنَّه يبدو مرتعباً من فعل أي شيء قد يضايق غراڤينيا، أو، على نحو أسوأ، السيِّد ريتسا)، وإلى مكاتب السياحة المحليَّة والإقليميَّـة، وإلى بضع صحف ومجلَّات قوميَّـة.

وألحقتُ بكل مظروف صيغة رسالة قالت بالإيطالية:

أنا الأمريكي الذي يكتب قصَّة «الحكاية الخرافيَّـة لكالتشيو» كاستل دي سانغرو. وعلى الرَّغم من أنَّني أُكنُّ الاحترام الأعظم والإعجاب والمودَّة للَّاعبين، فإنَّ مالكي هذا الفريق وإدارته قد أثاروا اشمئزازي. يبدو أنَّ الرئيس، السيِّد غابرييل غرافينيا، سوف يفعل أي شيء كي يُروِّج لنفسه علانيةً، بصرف النظر عن مدى الإهانة التي سوف تلحق بلاعبيه أو المشجعين الأوفياء، أبناء هذه البلدة الرائعة، التي وقعت في غرامها. ربما هذا ليس من شأني، ولكنَّ أشياء من هذا القَبيل تثير سخطي، فتحتم علـيَّ أن أخبر النَّاس الآن، وليس في كتابي لاحقاً فحسب. أشكركم على التَّفكير في وجهات نظر زائرٍ يحبُّ الكالتشيو وإيطاليا حباً جماً على حدٍّ سواء.

غادرْتُ شقَّتي مع بزوغ الفجر، وسرت إلى مكتب البريد، في المطر الذي انهمر غزيراً طيلة الليل؛ المطر الذي يكاد يتجمَّد الآن، لإيداع خطاباتي في صندوق البريد الذي بشَّر بتوزيع سريع.

وسرت إلى مركز البلدة لاصقاً أحد البوسترات على الباب المفضي إلى مكاتب «لا سوتشتا». وحين عدتُ إلى شقَّتي، لصقت بوستراً على بابها، وعلى باب شقة ياكوني. وفي الحصة التدريبية الصباحية القصيرة، وزَّعت دزينة أو نحو ذلك على لاعبين مختلفين.

ولم تتأخَّر ردود الأفعال طويلاً؛ فلم أكد أدخل إلى مطعم مارتشيلَّا، حتى أخبرتني بصوت طافح بالقلق ضرورةَ أن أهاتف «لا سوتشتا» على الفور. وحين فعلت، أخبرني أحد مساعدي غرافينيا بأنَّه لن يسمح

لي بركوب الطائرة مع الفريق الذاهب جنوباً في ذلك المساء، لملاقاة فريق ريجيو كالابريا في مباراة اليوم التالي. ومما لا شك فيه أنَّه لن يسمح لي بالسَّفر معهم ثانية أبداً.

فقلت: «بِلُّو Bello»، إذ تعلَّمت أنَّ هذه الكلمة يمكن أن تُحمَل، تهكُّماً، محمل كلمة «لا بأس fine» الإنكليزيَّـة. ولكنَّني أوضحت بأنَّني سوف أذهب إلى ريجيو كالابريا وحدي.

صرختُ في سمَّاعة الهاتف: «سأسافر إلى ريجيو كالابريا متطفِّلاً على سيَّارات الآخرين، وأعود منها كذلك». وسوف أفعل ذلك، إن تطلَّب الأمر، في جميع مباريات الموسم التي تعقد في أماكن بعيدة.

كان ذلك سخيفاً، بالطَّبع، ولاسيَّما أنَّ ريجيو كالابريا، الواقعة على طرف إصبع الجزمة[138] التي سمِّيت إيطاليا، مدينة بعيدة جداً إلى درجة أنَّ قسماً من صقلية يقع إلى الشَّمال منها فعلياً. إنَّها، في الواقع، بعيدة جداً إلى درجة أنَّ «لا سوتشتا» كانت تخطِّط لاستئجار طائرة من روما عوضاً عن جعل اللاعبين يركبون الحافلة، ولكنَّني لم أكترث. بدا شرف «فِتْيَتِي ragazzi» على المحكِّ، وليس رخيصاً غضب مشجِّع مخلص يشعر أنَّ فريقه قد أسيء إليه (انظر «تشيلانو، 1978، الإعدام»[139]).

ولم تكد تمضي بعض دقائق على عودتي إلى شقتي، على أي حال، حتى هاتفتني مارتشيلًا. قالت إنَّ غرافينيا وماريا تريزا قد وصلا، ويتوقان إلى التكلم معي. خرجت عائداً إلى مطعم البيتزا. دخل غرافينيا في صلب الموضوع مباشرة: لقد بالغ مساعده في ردَّة فعله، وأخطأ التَّعبير. سأكون موضع ترحاب بالسَّفر مع الفريق عصرَ ذلك اليوم، مثلما كنتُ دائماً، وستظلُّ الحال على هذا المنوال طيلة ما تبقَّى من الموسم.

فشكرته، بالطَّبع، وبطريقة آمل في أن تكون قد بدت دمثة. ولكنني نظرت إلى موقفه هذا، على الرَّغم من شكري له، لا أكثر من كونه مجرَّد موقف براغماتيٍّ. لقد كانت الحقيقة، ونحن نتَّجه إلى أحلك أيام السَّنة، كامنةً في أنَّ وجودي في كاستل دي سانغرو، ليس إلا وسيلة لمواصلة جلب الدِّعاية الطيِّبة التي طالما تعطَّش إليها غراڤينيا والفريق.

أقول إنَّ هذه هي الحقيقة بكل بساطة. ولكنَّني كنت أشعر بالحرج، على الرَّغم من افتخاري بذلك. فلم أكن أتهالك في سبيل الدِّعاية، وإنَّما أحاول أن أكون متعاوناً ليس إلا. كان ممثِّل «لا سوتشتا» يخبرني، مرَّة أو مرَّتين في الأسبوع، بعد أن بدأت إيطاليتي في التَّحسُّن، أنَّ مقابلة جديدة قد جرى ترتيبها.

وكنتُ، سواء في المقابلات الشخصيَّة أو تلك التي تتمُّ عبر الهاتف مع الصحف ومحطَّات التلفزة والمجلَّات، أمتدحُ البلدة وأهلها الودودين العطوفين، وأعضاء الفريق الذين لم يكونوا رياضيِّين متفانين فحسب، وإنَّما نبلاء من الطِّراز الرَّفيع؛ وياكوني، الذي كان أفضل جار يطمح المرء إليه -مثلما برهن سجله السَّابق على ذلك دون شك- مدير جيد، أيضاً؛ وحتى غراڤينيا، الذي كانت رؤيته وإيمانه بالمستحيل قد أوجدا هذه الحالة الغنيَّـة المثمرة.

كنتُ حريصاً على ألا أقول سوى الأشياء الحميدة. أعتقد أنَّ المرء يمكن أن يعدَّ ذلك نفاقاً، ولكنني شعرت بأنَّ ردود أفعالي الأعقد، كي لا أقول السَّلبيَّـة، كانت أعمالاً في طور النُّمو، وأنَّها تخصُّني وحدي، إلى أن يحين وقت تأليف كتابي. كان كافياً في تلك اللحظة أن أخبر الناس ما أرادوا

سماعه: أنَّني قدمت إلى أبروتسو لكتابة قصَّة جميلة حول أناس متواضعين ورائعين، تجرأوا على الحلم، فشاهدوا حلمهم يغدو حقيقة.

كان ذلك للاستهلاك الإعلاميّ، ولقد صُوِّرت وأجريت معي مقابلات في معظم الأماكن التي وفَّرتها كاستل دي سانغرو: جالساً في مقعد بالمتنزَّه؛ وماشياً في السوق المنعقدة صبيحةَ الخميس، أمازح التجَّار؛ متجاذباً أطراف الحديث مع اللاعبين، وواثباً معهم في ملعب التدريب؛ ومعانقاً مارتشيلَّا التي أثَّرت فيَّ روحها الأموميَّـة الحانية على الجميع، بوصفها العنصر الأكثر أصالة في معمعان هذا الأمر المجنون كله.

هكذا، استمرَّ غراڤينيا في استغلالي، على الرَّغم من تعاظم بغضه لي. ولقد سايرته عن طيب خاطر، تحدوني البهجة أيضاً، لا أشارك مكنون مشاعري الحقيقية إلا مع اللاعبين الذين شعرت باقترابي منهم، فرادى وجماعة، ورياح نوفمبر الباردة والعاصفة تهبط هادرة من الجبال، مُطيلةً أيامنا.

20
جيمز بوند في دوري الدَّرجة الثَّانية

لم أكن متأكِّداً أنَّ غرافينيا قد أسدى إلـيَّ معروفاً بخصوص ريجيو كالابريا.

فلقد عَدَّ الأجانب، وحتى سكَّان شمال إيطاليا، إقليمَ أبروتسو غير جذَّاب. لكنَّ الحكومة الإيطالية، عبر مسح أجرته في الآونة الأخيرة تحت عنوان «جودة الحياة» وشمل 125 مدينة، صنَّفت ريجيو كالابريا في المرتبة الأخيرة. إنَّها مدينة ضربها الفقر، ومازالت ترزح تحت وطأة حكم الجريمة المنظَّمة (المافيا)، وتنتشر فيها الرذيلة والفساد انتشاراً فظيعاً إلى حدٍّ لا يوصف.

والأسوأ من ذلك كله أنْ يتوجب على العاملين لدى «سوتشتا»، في أثناء الرحلة من روما، السَّيرُ في رواق الطائرة الممتلئة على بكرة أبيها، وتوزيعُ نسخ من كتاب مُصوَّر جديد وضعه غرافينيا. كان العنوان «فرقة خاصَّة: عمليَّـة التَّعاطُف، مغامرة في دوري الدرجة الثانية»[140].

أظهر الغلاف رسمة لغرافينيا على هيئة جيمز بوند؛ العميل السريِّ 007. ورُكِّبت فوق هذه الرسمة (دون أن تحجب ملامح وجهه) صورة امرأة شقراء نحيلة، ذات صدر كبير، في وضعيَّـة مغرية، بدت بالنسبة إلـيَّ كأنَّها تشبه ڤانيسَّا دياس؛ زوجة جيجي بريته، إلى درجة بعيدة. وإذا كانت غاية العمليَّـة استدرار العطف لفرقة كاستل دي سانغرو، فقد بدا الكتاب المصوَّر طريقةً غريبة جداً

-بل غير مألوفة- للتَّعبير عن ذلك. لقد بدت، في أعقاب الخيبة التي تسبَّبت بها حادثة راكو يونيك، مُبتذلةً حدَّ السخافة.

ولكنَّ غراڤينيا بدا مأخوذاً تماماً بصورته كمغامر يطمح، على الرَّغم من إخفاقه في الحصول على حقيبة وزاريَّـة، إلى أنْ يذيع صيته ذات يوم على شاكلة ديلن دوغ أو ديابوليك.

وصدف أنَّني كنت جالساً بجوار شابٍّ لطيف من راڤينّا اسمه أُتَّاڤيو بيريتَّه، وقد أخبرني أنَّه مسافر إلى كالابريا كي يُحكِّم في اليوم التالي مباراة كرم قدم احترافيَّـة بين فريقَي ريجيو كالابريا وكاستل دي سانغرو.

فسألته: «أيهما تُفضِّل»؟

كنتُ على وشك الحصول على معلومات ثمينة تتعلَّق بـ «الفرقة الخاصَّة»، بطريقتي الاستخباراتيَّـة، حين وصل في تلك اللحظة إلى الصفِّ الذي نوجد فيه موظف «سوتشتا» الذي كان يوزِّع نسخ الكتاب المصوَّر في جهتنا بالطَّائرة.

قال، وهو يناديني باسمي: «حسناً، لا أعتقد أنَّك تحتاج إلى نسخة»، حتى وهو يقحم واحدة في يدي السيِّد بيريته.

غنيٌّ عن البيان أنَّ هذا الأمر قد قطع حواري مع «الحكم» الذي كان حريصاً على اتِّباع تعليمات الاتِّحاد بألا يتحدث الحكَّام مع الجهات المعنيَّـة، من كلا الطرفَيْن، بعد الإعلان عن تكليفهم بإدارة مباراة معيَّنة. لاحظتُ، على أي حال، وبعد أن رمقني بنظرات قصيرة، أنَّ السيِّد بيريته قد نبذ الكتاب المصوَّر ولم يأخذه معه حين غادر.

وُزِّعَتْ، في اليوم التالي، عند الاستاد القديم المتداعي، آلاف النُّسخ الأخرى من الكتاب المصوَّر على مشجِّعي فريق ريجينا الذين نبذوه على

الفور، بعد أن مزَّقه بعضهم إلى نصفين، في حين بصق عليه آخرون. لم يَبْدُ لي أنَّ الذي يقدم المشورة إلى غرافينيا، خلال هذا الشَّطر من حملة علاقاته العامَّة الشخصيَّـة على وجه الخصوص، كان يؤدِّي دوره على أكمل ما يجب.

انتابتني، كالعادة يوم الأحد، بعض المخاوف الفوريَّـة. جلست في مقعدي بالمنصَّة، وغيوم داكنة تحتشد في السَّماء. بدأ المطر ينهمر قبل المباراة، فانخفضت في أثناء انهماره درجة الحرارة. وتعالت من مكبِّرات الصوت الرخيصة موسيقى روك صاخبة، عفا عليها الزَّمن، فتردَّدت أصداء الصوت بين صفوف المقاعد الخرسانية الخاوية في المنصة الرئيسة. (فثمَّة خرسانة مكشوفة كثيرة حتى في استاد نصف ممتلئ يتَّسع إلى 12000 مقعد).

جاء دور المباراة: دُرَّة الدقائق التِّسعين [المخبوءة] في قلب المحارة. وكنت قد فزعت، على نحو تعجز الكلمات عن وصفه، حين دخل الفريقان إلى أرض الملعب، حين رأيت من ياكوني ما رأيت. فعلى الرَّغم من أنَّه يلعب ضدَّ خصم لم يفز بأي من المباريات العشرة التي خاضها، وافتقار فرقته، لا إلى مدافعَيْن مندفعَيْن فحسب، وإنَّما إلى القدير كريستيانو في منتصف الملعب، ودي يوليس، بصرف النظر عن مكانته، يأخذ مكانه في حراسة المرمى، لأوَّل مرة، بدوري الدرجة الثانية -وهي ظروف كافية على الأقل لتكون ذريعة لخوض المباراة بتشكيلة هجوميَّـة (إن ليس من أجل تسجيل الأهداف، فلإبقاء الكرة في منطقة فريق ريجينا، طيلة وقت معتبر من المباراة، على الأقل)- فإنه لم يتردَّد البتَّة في اللعب بتشكيلته المعتادة، 4-5-1، الأمر الذي تطلَّب، في هذه الحالة، الاعتماد على أبطأ ثلاثيٍّ في خطِّ الوسط بدوري الدرجة الثانية دون منازع -ألبيرتي وميكليني ودي فابيو- عرَّابي «الفرسان الثلاثة».

ومما لا شك فيه أنَّ ذلك قد منح غالي، الذي تعرَّض إلى صدمة مؤخَّراً، تسعينَ دقيقةً كاملة لاستعادة توازنه ورباطة جأشه في خلوته، بعيداً عن أي قلق قد تسببه أي كرة تعترض سبيله، وعنى هذا أيضاً أنَّنا لن نسجل أهدافاً، وأنَّ أي هدف يدخل مرمانا قد يغدو هدفاً قاتلاً يعدل عشرة أهداف.

الحكاية الخرافية. المعجزة. قوة الأمل. يا له من كلام فارغ يا إلهي. أضف إلى ياكوني الأحد عشر لاعباً الذين اختارهم، ومن المحتمل أن تكون لديك أبلد زمرة من الكادحين في تاريخ الكالتشيو الاحترافي على الإطلاق. وكان أن ربطتُ مصيري بهذه المجموعة، وتأخر الوقت الآن كثيراً، بالطَّبع، لفعل أي شيء آخر. لقد كنت ملتزماً حينها بهدف تحقيق «الخلاص»، كأي واحد منهم. ولكن لا شيء يمكنني فعله لأمدَّ يد العون. لا يمكنني إلا أن أعاني.

كانت ثمَّة مؤشِّرات قليلة، بعد مضي الدقائق الخمس عشرة الأولى، على أنَّ المباراة تسير كما ينبغي. فلقد تناوب خطُّ الوسط المكتظُّ والمضطرب، لدى كلا الطرفَيْن، على إبعاد الكرة وركلها خارج منطقة التَّماس. وبعد انقضاء عشرين دقيقة، دوَّنتُ في مفكِّرتي: «ريجينا فريق فظيع! أسوأ فريق في الموسم! ولكنَّ فرصة أن يسجِّل فريق كاستل دي سانغرو هدفاً اليوم كاحتماليَّـة الإعلان عن وجود حياة على المريخ».

فحين يشعر المرء، كما تعلمون، في أعماق نفسه -عميقاً، حيث لا يبوح بذلك إلا في مفكِّرته اليوميَّـة- أنَّ فرصة فريقه في تسجيل هدف في مباراة لم يبق منها سوى سبعين دقيقة، هو على الأرجح مثل اكتشاف الحياة على

المريخ؛ إذ يغدو الأمر في غاية الألم والإحباط، وأنا أعني ذلك من صميم قلبي.

ولاحظت، في الدقيقة الخامسة والثلاثين، أنَّ فريق كاستل دي سانغرو قد ساء أداؤه على نحو لم أشهده منذ بداية الموسم، ولقد كانوا كذلك فعلاً: لم نحاول التَّسديد على المرمى مرَّة واحدة، وبتنا نعدُّ ركل الكرة عبر خطِّ الوسط إنجازاً جيداً. وحده بونومي كان يركض. ولكنَّ ذلك، في حالته هذه، لم يصبَّ في صالحنا.

«المشكلة تتعلَّق بكلاوديو»، أخبرني أحدهم ذات مرَّة بذلك، «إنَّه أعذب شخص في العالم، ولكنَّ المرء، مع كلاوديو، لا يتوقَّع الكثير». فعلى الرغم من موهبته الفطرية، فإنَّه يبدو مع كل أسبوع يمرُّ كفأر في متاهة، إلى حدٍّ بعيد. كم سيستمرُّ الفأر ذاته بالركض في الزُّقاق غير النَّافذ ذاته، قبل أن يدرك أنَّ ذلك لن يمكِّنه من الوصول إلى الجبنة؟ الجواب: كم عدد المباريات في الموسم الواحد؟

وهكذا، دوَّنت في ملخَّصي اليوميِّ: أسوأ شوط شاهدته في حياتي!.. لا بُدَّ أنَّها أشدُّ مباراة كرة قدم بؤساً على كوكب الأرض! أسوأ من أمريكا!

ثم حلَّ الشوط الثاني، ولم يُجر ياكوني، بالطَّبع، أي تغييرات. التَّغيير الوحيد الذي طرأ كان على الطَّقس البادئ بالتحسن. توقَّف المطر، وراحت شمس نوفمبر الشاحبة تشرق، ثمَّ هبَّ نسيم خفيف من الجنوب.

ويبدو أنَّ النَّسيم قد هبَّ عليلاً على جِلد داقده تِشيي، فأدار وجهه جهةَ هبوبه، منذ اللحظة التي استؤنف فيها اللعب، وأغمض عينيه، تاركاً لنفسه التوحد مع الطبيعة... في حين انطلق أحد مهاجمي رجينا الملاعين،

متجاوزاً إياه، قبل أن يتمكن حتى من نقل ثقل جسده من ساق إلى أخرى! تسديدةٌ. هل أنقذها دي يوليس؟ لا أمل البتَّة. ريجينا 1، كاستل دي سانغرو صفر. وهذا يعني، طبعاً، أنَّ نتيجة المباراة قد حسمت لصالح ريجينا. لأنَّ 1- صفر، بالنسبة إلينا، لا تختلف عن 10- صفر. الصفر سيكون دائماً هو الصِّفر. وكانت «تكتيكات» ياكوني تحرص على ذلك.

وفي المطار، أدرك فجأةً تونينو المسكين، الذي نال بطاقة صفراء في الشوط الثاني، أنَّه لن يتمكن من اللعب في مباراتنا الأولى بالاستاد الجديد ضدَّ جنوا في الأسبوع القادم. فشرع في البكاء، لأنَّ أمَّه ستحضر، وكانت تودُّ كثيراً رؤية ابنها يلعب.

واستمرَّ في البكاء، حتى حضر السيد بيريته، الحكم (الذي كان على وشك اختبار متعة الطيران عائداً معنا إلى روما، حاصلاً على نسخة أخرى من الكتاب المصوَّر) وتحدَّث إليه قائلاً إنه لو عرف أنَّ ذلك سوف يعني حرمانه من لعب المباراة الافتتاحية التاريخية، فلربما ما كان سيمنحه البطاقة الصفراء أصلاً، ثم عرض أن يدعو تونينو إلى كأس شراب على حسابه، مبرهناً أنَّ جميع الحكَّام ليسوا حثالة أوغاداً مثل روسِّي التَّشاميوني. جلس في رحلة العودة بجوار لوقا أليبري. لقد حلَّ هذا الشَّاب الجديد، الذي كان يجلس على مقاعد الاحتياط، مطرح مارتينو في العشرين دقيقة الأخيرة، كما فعل في المباراة ضدَّ بريشَّا، لاعباً بأناقة وأصالة جعلتني أتمنَّى لو أنَّه خاض المباراة منذ البداية.

لِاحظتُ أنَّه لم يشدَّ حزام الأمان في مقعده. وحين بدأت الطائرة في السير على المدرج استعداداً للإقلاع، نبَّهته على ذلك. ولكنَّ أليبري هزَّ رأسه على نحو محذِّر فحسب، وتعبير في غاية الجدَّة يرتسم على محيَّاه، ثم

أوضح لي بالتفصيل المملّ كيف أنَّه لم يسبق له أن شدَّ حزام أمان مقعده على متن أي طائرة لأنَّ ذلك يجلب النَّحس.

وأخبرني لاحقاً أنَّ أكثر ما يثير سخطه على متن الطائرات هو سماع الإعلان عن ضرورة عدم استخدام الهواتف الخلوية خلال الإقلاع والهبوط، لأنَّها ستؤثّر على نظام الملاحة في الطائرة. كيف يمكن لشيء صغير كالهاتف، غير مرتبط بأي شيء، أن يغدو مشكلة بالنسبة إلى شيء ضخم كالطَّائرة. قال إنَّ المسألة برمتها هراء. مجرَّد مزيد من الأشياء التي تقولها الحكومة للنَّاس كي تبقيهم كالعبيد. ولسوف يثبت ذلك، هنا، على متن هذه الرحلة.

اعتقدت أنَّه يمزح، ولكن توجَّب علـيَّ أن أعرفه على نحو أفضل. أخرج ألبيري هاتفه الخلوي من جيبه، ولم يبق على هبوطنا في مطار فيوميتشيو سوى نحو ستِّين ثانيةً، واتَّصل برقم ما. مالت الطائرة بشدَّة جهةَ اليسار، قبل أن تخبط بالأرض، ثم ارتطمت بقوة، وارتطمت ثانية، قبل أن تستقرَّ في نهاية المطاف على الأرض.

غطَّى ألبيري فمه بيده، كأنَّه يقول «يا ويحي»! ولكنَّه تأخَّر في إعادة هاتفه الخلوي إلى جيبه. كانت المضيفة الجالسة قبالتنا عبر الممشى، استعداداً للهبوط، قد قفزت حال استقرار الطائرة سالمة على الأرض، ثم راحت تصرخ «أنت رهن الاعتقال»! ثم حاولت الاندفاع، متجاوزة إياي، لتقبض على ألبيري.

حللت حزام الأمان، واندفعت متجاوزاً المضيفة، مسرعاً إلى مقدمة الطائرة حيث ياكوني، وأخبرته «مصيبة. لوقا ألبيري. اذهب. فوراً»!

نجح ياكوني في إبقاء الشرطة بعيداً عما جرى، وفي إخراج ألبيري من الطائرة دون اعتقال، ولكنَّ صوابي قد طار قليلاً ونحن في انتظار الأمتعة،

حين قلت لياكوني: «أخبرني مرَّة أخرى؟ ليست الموهبة مهمة؟ الشخصيَّة والذكاء فقط؟ نعم، نعم، على شاكلة ألبيري. براڤو»!

نظر إلـيَّ فحسب. لقد كان منهكاً ومحبطاً حتى ليقول لي اذهب إلى الجحيم، ثم هزَّ رأسه أخيراً، رافعاً ناظريه إلى السماء، وقال حين بدأ شريط الأمتعة الدوَّار بالتحرُّك: «النَّجدة! ساعدني، من فضلك! الآن»! وشبك يديه كأنَّه يُصلِّي، ولقد كان كذلك بالفعل حين صاح منادياً: «النَّجدة! ساعدني، من فضلك! الآن»!

أعتقد أنَّ الأمور كان يمكن أن تكون أسوأ. ومثلما قال كيركيغارد ذات مرَّة: «تكمن طبيعة اليأس في ألا يعرف المرء بالضَّبط أنَّه يائس» (ومن الواضح أنَّ اليأس قد أصابه، حين لم يمض وقت طويل على إخفاقه في صدِّ هدف الفوز الذي أحرزه في مرماه فريق برونديي المتواضع، إبَّان فترة لعبه القصيرة كحارس مرمى لصالح فريق كوبنهاجن).

بَيْدَ أنَّني وياكوني كنَّا نعرف.

وبما أنَّنا لم نحقق سوى عشر نقاط حتى اللحظة، فقد هبطنا في منطقة الإبعاد [إلى دوري الدرجة الثالثة] المرعبة. ومجموع أهدافنا الخمسة المسجلة الذي لم يتغيَّر -بعد إحدى عشرة مباراة خضناها لغاية هذه اللحظة- هو الأسوأ في دوري الدرجة الثانية إلى حدٍّ بعيد. وقد يعمد ياكوني في المستقبل، عوضاً عن إرسال پستلَّا وغالِّي كماجَمَيْن، إلى الدخول إلى أرض الملعب حامِلاً معولاً ويحفر بكل بساطة حفرتَيْن في الأرض.

لم أستطع، في رحلة عودتنا الطويلة بالحافلة عبر الجبال الباردة، تجنُّبَ التَّفكير في المفارقة الناجمة عن حالتي. فلقد ألزمتُ نفسي، في أثناء

محاولتي الانغماس أعمقَ في الفخامة والجلال والعظمة التي اكتشفتها في عالم الكالتشيو، بقضاءِ سنةٍ، لا في سان سيرو مشاهداً باجيو وهو يرقص ويندفع ويُبهر، وإنَّما في موسم بدوري الدرجة الثانية، وهو عالم كما وصفه مؤرِّخ كرة القدم پيتر أليجي: «تسود فيه اليوم بلا هوادة أكثرُ التَّأويلات تهكُّماً، وقسوة، وإرهاقاً، وابتذالاً، وتدميراً، وكآبةً، وبلادة، وإحصاءً، وتزمُّتاً، وقباحة، ومأسويَّـةً مضحكة، لكرة القدم».

ولقد كتب ذلك دون أن يكون قد رأى غالي وپستلَّا بتاتاً.

وبحلول الأسبوع الجديد، استحكم الأمل مرَّة أخرى.

ففي ممارسة دبلوماسيَّـة غير مسبوقة ومفاجئة تماماً، استقبل البابا يوحنّا بولص، يوم الثلاثاء، فيدل كاسترو في الڤاتيكان. لم يستطع لوقا دانجلو كبح جماح غبطته.

فظل يردِّد: «فيدل.. فيدل. إنَّنا نعيش، يا جُو، في عالم كل شيء فيه ممكن. هيَّا يا كاسترو، تستطيع فعل ذلك! هيَّا، أيتها الشيوعيَّـة، تستطيعين فعل ذلك[141]! سأكرِّس موسمي هذا لشعب كوبا الشجاع!»[142].

وأعلن غراڤينيا أخيراً، يوم الثلاثاء أيضاً، أنَّ الاستاد الجديد سيُفتتح رسمياً يوم الأحد القادم، الأول من ديسمبر.

صحيح، ديسمبر لم يكن سپتمبر، وأشهر التأخير الطويلة قد أضرَّت الجميع، ولكنَّنا سنتمكن أخيراً، على شاكلة الفرق الحقيقية، من امتلاك استادنا الخاصِّ الذي سنخوض فيه مباريات الإياب.

علاوة على أنَّه قد وعد بأن يكون الافتتاح أعظم حدث تشهده كاستل دي سانغرو أبداً. سيتوافد مئات الوجهاء من أنحاء البلد كافة، يتبعهم

الصحافيُّون إلى أبروتسو، لهذه المناسبة. والأهمُّ من ذلك كله، سيزيل الافتتاح الإحساس بالمرارة الذي ساد معظم الأيام الأولى، وسيغدو لحظة نصر شخصيٍّ عظيم بالنسبة إلى غرافينيا.

ويا لها من صدمة؛ أن تنهض بعد يومين، لتعرف أنَّ غرافينيا قد استقال.

21
الرَّاعي الجديد

وحين خرجْتُ لإحضار الصحف صبيحةَ الخميس، وجدت أنَّ المنطقة المحيطة بكشك بيع الصحف تعجُّ بأهل البلدة الذين يثرثرون بطريقة لم أشاهدها من قبل.

ولاحظت، عبر الشَّارع، أنَّ عدد الكهول الذين يتشمَّسون في الصباح، متَّكئين على واجهة بنك نابولي، حيث تقع مكاتب «لا سوتشتا»، قد تضاعفت أعدادهم ثلاث مرَّات في غضون أربع وعشرين ساعة، وأنَّ أحاديثهم العادية العابرة قد تحوَّلت إلى أحاديث حماسيَّة وإشارات بالأيدي مفعمة بالحيوية.

وأنا أشق طريقي عبر الحشد على مهلي، التقت عيني بعين پيرلوبجي، بائع الصحف، وهو رجل قليل الكلام في العادة، إلى درجة أنَّني غالباً ما تساءلت إنْ كان يتعاطى المهدِّئات قبل دخوله إلى كشكه الضيِّق والمغبرِّ، في ذلك اليوم.

ليس هذا الصباح، على أي حال. فحين جمَّع الصحف الخمس التي أشتريها عادةً في كل صباح، قال لي بصوت مفعم بالإثارة: «صدمة حقيقيَّة»!

فقلت له: «نعم، نعم»، على سبيل الموافقة، على الرَّغم من أنَّني لا أمتلك أدنى فكرة عما يتحدث.

لم يستغرق الأمر طويلاً حتى عرفت؛ فنظرة خاطفة إلى الصفحة الأولى لصحيفة «إل تشنترو» فسَّرت الحيوية الاستثنائيَّة التي تدبُّ من حولي: لقد استقال غرافينيا من رئاسة «لا سوتشتا».

مستحيل! لا يُصدَّق! لا يمكن تصوُّره! لم أكن لأُدهش على هذا النَّحو حتى لو أعلن البابا اعتناقه البوذيَّـة. ولكنَّ الشك خامرني على الفور باحتماليَّـة أن يكون الأمر مجرَّد خدعة أخرى. لم يكن مغزى الخبر واضحاً بالنسبة إلـيَّ، سوى أنَّه محاولة من طرف غرافينيا لتحقيق مزيد من الدعاية في الأيام التي تسبق افتتاح الاستاد الذي طال انتظاره، ولكن من الواضح أنَّه لم يقرِّر «الاستقالة» بكل بساطة.

لم تسهم الرواية الرسميَّـة، التي قدَّمها جوزبِّه في صحيفة «إل تشنترو»، في إضفاء مزيد من المصداقيَّـة على الخبر أكثر مما فعله الخبر ذاته. كتب جوزبِّه قائلاً إنَّ هذا التحوُّل كان تحوُّلاً مخططاً له منذ أمد طويل، ومُوقَّتاً له بعناية فائقة، ولم يكن الإعلان عنه، قبل ثلاثة أيام من الافتتاح الكبير فحسب، إلا مجرَّد مثال آخر على المقدرة السَّديدة، لمن سوف يكون الرئيس السَّابق، على اختيار اللحظة المناسبة لمثل هذه الخطوة الجريئة والدراماتيكيَّـة.

ونقلت الصحيفة عن غرافينيا قوله إنَّ الاستقالة كانت «الذروة الطبيعية للتقدم الذي حقَّقْتُه على مدار السنوات العديدة الماضية»، ثم قال: إنَّه يتطلَّع عما قريب إلى الحصول على منصب أعلى في هرم السلطة بالاتِّحاد القوميِّ لكرة القدم، ولذا فقد شعر بضرورة الاستقالة في اللحظة المناسبة الأبكر، لتفادي ظهور تضارب في المصالح. لقد كان الشَّيءَ «الأخلاقيَّ الصحيح» الوحيد الذي يتوجب فعله، بحسب قوله.

ولقد شدَّد على أنَّ اكتمال الاستاد يعني بالضرورة انتهاء عمله مع كاستل دي سانغرو الذي امتدَّ عقداً من الزَّمان. وفي حين سيظلُّ منهمكاً في شؤون الفريق، وفقَ لقبه الجديد، «الرَّاعي il patron»، فإنَّ خلفه في الرئاسة سيكون رجلاً يدعى لوتشيانو روسِّي، يشغل منصب رئيس

جامعة تيرامو، حيث كان غرافينيا يدرِّس من وقت لآخر مساقاً بعنوان «الإدارة الماليَّـة السليمةُ لمؤسسةِ كالتشيو احترافيَّـةٍ».

لأوَّل مرة يفصح غرافيينا، في الصحافة المطبوعة، عن إمكانيَّـة اتِّحاد عالمَي الأكاديميا وكرة القدم، وهي مسألة كانت من بين أهدافة سنينَ عديدة. فاندماج «الثقافة الرفيعة» للأكاديميَّـة مع «الثقافة الشعبيَّـة» لعالم كرة القدم، سينتج استاطيقا جديدة كليَّـةً، عضليَّـة، ولكنها راقية: استطيقا «آلتو كالتشيو»، أو كرة القدم «الرَّفيعة» أو «الباذخة»، التي سوف تعمل بدورها على توحيد إيطاليا، كما لم يفعل أي شيء آخر، منذ جيوش غاريبالدي.

ولضرب مثال على ذلك، قال إنَّ رباعيَّـةً وتريَّـةً قد انهمكت في التدرُّب على عزف كونشيرتو «الفصول الأربعة» لفيفالدي، عقب انتهاء المباراة ضدَّ جنوا.

تواصلت الضحكات المبطَّنة، المشوبة بتخمينات خبيثة، بشأن القصَّة الحقيقية طيلة نهار الخميس وليلة الخميس. وفي صحيفة «إل تمبو»، عدد صباح الجمعة، كان لويجي ليبيراتوره، أفضل الصحافيِّين الذين يغطُّون أعمال «لا سوتشتا» وأكثرهم استقلاليَّـةً، يذكر بصراحة شديدة أنَّ السيد ريتسا قد أزاح غرافينيا ضدَّ إرادته. فليس ثمَّة غموض في معنى كلمة «استقالة dimissioni»، وكلمة «أُقيل dimesso»، الأقرب إليها من الناحية اللفظيَّـة، اللتين استخدمهما ليبيراتوره في الحكاية التي رواها.

كتب ليبيراتوره قائلاً: إنَّ الأسباب كانت كثيرة. ذكر، بدايةً، إخفاق الفريق في الملعب، وإخفاق ياكوني في التَّكتيك واختيار التَّشكيلة المناسبة. «إنَّه يلفُّ، ويلفُّ،

ويدور، ويدور، ثمَّ لا يثق في النهاية إلا بقدامى اللاعبين الذين انكشفت حدود قدراتهم مرة أخرى ضدَّ فريق ريجينا على نحو لا يرحم.

كانت ثقة غراڤينيا بياكوني أحد العوامل، وهي ثقة في غير موضعها. أما العامل الآخر، فتمثَّل في عجزه عن وضع تقييم مناسب للَّاعبين المُشتَرين من الفرق الأخرى (پستلَّا، على سبيل المثال)، ثم إحجامه المفاجئ في أعقاب ذلك الاستحواذ الكارثيِّ عن إنفاق مزيد من الأموال على شراء لاعبين جدد آخرين: أو «رغبته الصغيرة في الامتناع عن إنفاق المزيد»، بحسب التعبير الذي استخدمه ليبيراتوره. كتب ليبيراتوره قائلاً إنَّ ذلك كان «مزيجاً قاتلاً»، في الوقت الذي بيَّنت فيه «لائحة التَّصنيف» الأمر كله على نحو واضح للغاية، أسبوعاً بعد أسبوع، ثم تابع قوله: «وفي حين تقتضي الفطرة السليمة العودة إلى السُّوق، كان الحديث في هذا الموضوع، لدى «لا سوتشتا»، لايزال محرَّماً».

رأى ليبيراتوره رئيسَ الجامعة روسِّي شخصاً أُحضرَ لغايات تجميليَّـة فحسب. حتى إنَّه لم يُجلَب للعيش في البلدة حقاً، فلقد سارع روسِّي إلى التوضيح أنَّ لديه جامعة يديرها ولسوف يواصل العيش في تيرامو التي تبعد نحو ساعتين بالسيارة شمالاً. هكذا، لن يتمكن حتى من أن يكون رئيساً صورياً مُقنعاً.

ولكنَّ ذلك كله لم يكن سوى القشرة الخارجيَّـة لحبَّة البصل. ففي إيطاليا (وليس في عالم الكالتشيو فحسب) لا تُجابَه الحقيقة، أو حتى أي حقيقة -مثلما هي الحال مع النكهة الحقيقية لحبَّة البصل- على نحو مثالي، إلا بعد أن تُزال بضع طبقات على الأقل.

ففي إيطاليا، وفـي عالم الكالتشيو على وجه الخصوص، تُعَدُّ حالة الأزمة هـي القاعدة، وذلك إلـى الحدِّ الذي يمكن فيه العثور على كلمة «أزمة crisi»، حين تنطبق على لاعب أو فريق، في كل يوم تقريباً بصحيفة «لا غازيتّا»، أو فـي إحدى الصحف الرياضية الأخـرى. فلقد غدا النَّاس، في بلد سقطت فيه ستٌّ وخمسون حكومة منذ نهاية الحرب العالميَّـة الثانية، متعوِّدين على «الأزمات»؛ ولا تُسفر أي أزمة على شاكلة الشَّائعة، في نهاية المطاف، عن شيء محدّد، إلا بنسبة واحد في المئة. بل إنَّ 90 في المئة من الأحداث المحدقة أو المفترضة، التي يُشَار إليها أنَّها «شِبْه حقائق quasi fatti» (وهي عبارة رائعة، يمكن أن تثري اللغة الإنكليزية بعبارة معادلة لها) تُخفق في أن تتحقَّق. ولا يمكن للمرء أن يبدأ في التفكير في احتماليَّـة أن يكون الشيء حقيقةً، إلا حين يُعَدُّ «حقيقةً un fatto» بالفعل، حتى إنَّه من الأفضل حينئذ أن يشرع المرء في تكوين حُكم على مهله، آخذاً في الحسبان أنَّ الصِّيغة الوصفيَّـة لكلمة «فتِّيبِلهْ fattibile»، يمكن ترجمتها بـ«ممكن feasible» أو «محتمَل possible» فحسب.

روى بعض اللاعبين، وحتى بعض سكَّان البلدة، أنَّ السبب الحقيقي لإقصاء غرافينيا عائد إلى خيانته العلنية المتواصلة لزوجته، على الرغم من تحذيرات السيد ريتسا المتكرِّرة.

ولقد قُصَّت علـيَّ، لأوَّل مرَّة، وقائع حادثة دنيئة بعينها، وقعت في أكتوبر. ولأنَّها تخصُّ إحدى عشيقات غرافينيا المشهورات، فلا بُدَّ أنَّ الحادثة قد جذبت بلا شك انتباه السيِّد ريتسا على الفور.

بدا أنَّ عدداً من أعضاء الفريق -ليسوا كلهم غير متزوِّجين- قد سافروا إلى قرية غير بعيدة جداً، لإقامة علاقة جنسيَّة مع صبيَّة ألمانيَّة متزوِّجة.

وكان توفُّر المرأة لمثل هذا النَّوع من الترفيه نابعاً من حقيقة أنَّ زوجها يقضي عقوبة طويلة في السِّجن لتهريبه الكوكايين.

كان غراڤينيا يقابلها بصورة متكرِّرة، ولا بُدَّ أنَّه قد جنَّ جنونه، حين علم بـ «خيانتها» مع خمسة أعضاء من فريقه، وانتابه الفزع في الوقت ذاته، فهذا وضع لن يمكِّنه من السيطرة على شؤون «لا سوتشتا» على نحو فعَّال. وكانت قصَّة روبرت راكو پونيك إحدى نتائج ذلك؛ وتمثَّلت النتيجة الأخرى في الكتاب المصوَّر الذي ربما كانت كلفة طباعته كافية لاستجلاب مهاجم قادر على تسجيل عشرين هدفاً.

علاوة على أنَّه لا يتوجب تجاوز بعض الحدود، وفقَ ذهنيَّة السيِّد ريتسا المحافظة بعض الشيء، على الأقل. فلا بُدَّ أن غراڤينيا قد تجاوز تلك الحدود، حين مارس الجنس مع المرأة ذاتها التي كانت تقيم علاقات جنسيَّة مع خمسة لاعبين على الأقل -امرأة ذات صلات معروفة بتهريب المخدَّرات- ليس بإضافة طبقة جديدة من الإذلال إلى تلك الطبقات العديدة التي ترزح تحتها وطأتها ماريا تريزا وابناه فحسب، وإنَّما أيضاً عبر تعريض السمعة الحسنة التي تتمتَّع بها «لا سوتشتا» إلى الخطر.

وكانت ثمة المشكلة المختلفة، المنفصلة كليَّةً عن كل ذلك، والمتعلقة بأرضيَّة الملعب. فبصرف النظر عن الصورة الرائعة التي قد تبدو عليها من المنصة حيث يجلس الوجهاء، فإنَّ الملعب الجديد كان في الأساس

كارثياً كهاوية سحيقة لا قرار لها، ولا يصلح للَّعب، ويشكل خطراً على أي لاعب قد يحاول ذلك.

يبدو أنَّ غرافينيا -الذي ركز اهتمامه، كالعادة، على خلق انطباع جيد- قد ارتكب غلطة كارثيَّـة. لقد أراد لهذا الملعب الجديد أن يكون الملعب العشبيَّ الأخضر، ليس في دوري الدرجة الثانية فحسب، وإنَّما في عموم ملاعب الكالتشيو قاطبة. لقد أخبر حرَّاس الأرض، على الرغم من الطقس القاسي في كاستل دي سانغرو، برغبته في أن يكون العشب في مثل خضرة عشب المقابر. فمثل هذا النوع من العشب سوف يترك انطباعاً جيداً لدى جميع الشخصيات المرموقة التي ستحضر حفل الافتتاح، ولا بُدَّ أنَّه سوف يثير إعجاب الرجال الأقوياء الذي يحكمون الاتِّحاد.

علم من أحد المستشارين بوجود سماد كيماويٍّ يعمل -في حالة رشِّه تحت طبقة التربة العليا- على تمكين العشب الذي فوقها من البقاء أخضرَ زاهياً في كافة الأحوال الجويَّـة. فأمر على الفور برشِّ السماد، ثم سرعان ما ركَّز اهتمامه، كالعادة، على أمور أخرى. كان في عجلته قد نسي، لسوء الحظ، طرح السؤال الجوهريِّ: كيف يعمل هذا السماد؟

فلو سأل لأخبروه أنَّ ميزته الرئيسة تكمن في أنَّه حين يلامس أي مصدر رطوبة -كماء المطر الذي يتسرَّب عبر طبقة التربة التي فوقه- فسوف يتحوَّل قوامه إلى شيء يشبه البلاستيك من حيث اللَّانفاذيَّـة. بكلمات أخرى، لا يمكن لأي ماء النَّفاذ تحت الحاجز الذي سوف تصنعه هذه المادة الكيميائيَّـة على بُعْد بضع بوصات تحت سطح الملعب. ومما لا شك فيه أنَّ العشب الذي فوق السَّطح سيكون أخضرَ، غارقاً، مثلما كان، في بركة دائمة من الرطوبة، ولكنَّ التربة التي تحت العشب ستتحوَّل، عند

أوَّل زخة مطر، إلى قوام حلوى البودينغ، فلا مكان يذهب إليه أي ماء يسقط عليها.

ولم يدرك غرافينيا الحقيقة المرَّة، إلا بعد انتهاء العمل في أرض الملعب بأكمله، وبعد أيام من المطر: كان الملعب غير صالح للَّعب وربما لن يكون كذلك أبداً. لم يكن «كَامْپُو» [ملعباً]، وإنَّما «پَانْتَانُو»، أو مستنقعاً أخضرَ برَّاقاً، ولا بُدَّ من إزالة كل شيء لإنشاء سطح جديد ومَدِّ طبقة باطنيَّـة جديدة.

ولكنَّ بطاقات الدعوة قد أرسلت بالبريد لحضور الافتتاح في الأوَّل من ديسمبر، ولا يمكن للصُّورة التي يودُّ غرافينيا أن يزرعها في أذهان النَّاس عن نفسه أن تتحمَّل مزيداً من التَّأخير. ولكنَّ أقل ما يمكن قوله هو أنَّ السيد ريتسا كان مستاءً. كان أوَّل تقدير تلقَّاه يشير إلى أنَّ الأمر قد يستغرق ثلاثة شهور، وأنَّ الكلفة لن تقلَّ عن 500000 دولار لإصلاح الضرر الذي تسبَّب به غرافينيا. وهكذا، كان ذلك سبباً إضافياً للاستقالة المفاجئة. قيل إنَّ السيد ريتسا شعر أنَّ غرافينيا عاجز، ولا يمكن السَّماح له بحمل لقب «الرئيس il presidente» في يوم الافتتاح الكبير.

●●●

لم تكن «لا سوتشتا» راغبة، بالطَّبع، في أن يعرف العامَّة أمر هذه المشكلة، وهكذا كان. ولكنَّ اللاعبين كانوا يعرفون، وحرصوا -بخلاف عربدة شهر أكتوبر- على أن أعرف أيضاً.

وَما كدت أصل إلى الحصة التدريبية عصرَ الخميس حتى أمسكني ميكليني من ذراعي، وطلب منِّي السير برفقته في أرض الملعب. لقد بدت جميلة. لا بُدَّ في الحقيقة أن أعترف أنَّني، على الرغم من شكوكي المتعاظمة

حول قدرة «لا سوتشتا» على إنجاز المهام المطلوبة منها للصعود إلى دوري الدرجة الثانية، فإن الملعب قد بدا ظاهرياً أجمل من أي ملعب آخر شاهدته في أي مكان، وأفضل بكثير من أي ملعب شاهدته لغاية هذه اللحظة في هذا الموسم.

كان العشب جديداً، أخضرَ زاهياً، مُقلَّماً بعناية فائقة، ولأنَّه لم يتعرَّض للجزِّ والتمزيق والنَّقر في مباراة حقيقيَّـة (ما عدا مسخرة پونيك) فإنَّه بدا كأنَّه ممرٌّ سالك، إن لم يكن يشبه المنطقة الخضراء المحيطة بحفرة في ملعب غولف عالميِّ الطِّراز.

وحين مشيت أنا وميكليني عبر الملعب، أشار إلى منطقة تلو أخرى، حيث كانت القاعدة الأساسيَّـة أسفل ذلك العشب الذي يبدو مظهره مثالياً أقل من المستوى المطلوب في أفضل الأحوال، وغدَّاراً في بقع كثيرة. لقد كانت القاعدة، على الرغم من أنَّنا لم نشهد فترة طويلة من الأحوال الجويَّـة السيِّئة مؤخَّراً، موحلةً وفيها فجوات تشبه الكؤوس، والتراب يعلق بحذائينا كأنَّه طين مبتلٌّ، والماء ينزُّ من تحت مستوى السَّطح في كل خطوة نخطوها. فقال ميكليني: «إسفنجة للماء. هذا الملعب ليس جيداً، وهو في غاية الخطورة على اللاعبين».

كان واضحاً -وبخاصَّة بعد أن خطوتُ، فغاصت قدمي اليمنى أكثر من ستِّ بوصات في الوحل، ففقدت حذائي مؤقَّتاً- أنَّ مشكلة عويصة قد نشأت.

وقف ميكليني ساكناً وهزَّ رأسه، ثم قال: «كارثة»، وأشار إلى السَّماء جهةَ الغرب، وقال: «طقس سيِّئٌ على وشك القدوم، ليزيد المشكلة سوءاً».

فأومتُ برأسي: «نعم».

ولكنَّ ذلك لم يكن من الواضح أنَّه ردٌّ كافٍ. فلقد أمسكني من ذراعي، ثانية، ثم قال «أُونْ دِيلُوفْيُو [طوفان]، يا جُو!». فهززت رأسي. فهذه كلمة لم أكن أعرف معناها، ثم قال: «سينهمر المطر بغزارة يومَي السَّبت والأحد! رياح عاتية! عاصفة! إعصار! برد شديد. سيهطل الثَّلج! ويحدث جليد كثير!».

لم يسبق لي أن شاهدت ميكليني ثائراً إلى هذا الحدِّ. ولقد مضى بعض الوقت مذ أصابني الذهول [آخر مرة] إزاء ما يحاول أحدهم إخباري به[143]، فعجزت عن التحدث. من الواضح أنَّ الأمر يتعلَّق بالطَّقس، ومن الواضح أنَّه لم يكن طقساً جيداً. لقد بدا ذلك الكلام حول «الماء الكثير» كأنَّ مطراً غزيراً سينهمر، ولكنَّ حدَّة كلامه -ومفرداته- أشارت فيما ظهر إلى ما هو أكثر.

وفي تلك اللحظة، لحسن الحظِّ، هلَّ الفتى پيُّو بيوندي وهو يعرج في مشيته. ستحول الإصابة في ركبة هذا المراهق من اللعب يوم الأحد، بل وفي الحدث بعيد الاحتمال الذي يودُّ ياكوني الاستعانة به عليه، ولكنه كان مهتماً رغم ذلك في فحص حالة الملعب لنفسه هو.

لم تكن ابتسامة تهكُّمه المعتادة بادية عليه، وأستطيع أن أعرف لماذا. ولو كنت لاعب كرة قدم، فإنَّ كل خطوة تنافسيَّة تقوم بها في ملعب كهذا ستكون تهديداً بأنَّها الأخيرة، بكل ما في الكلمة من معنى. ثمَّة فرق بين أن يكون المرء سائراً على مهله فتغوص قدمه في الأرض، وبين أن يكون راكضاً بأسرع ما يستطيع، ثمَّ يخوض فجأة ببقعة. لقد غاصت قدمه ستَّ بوصات في الوحل، في حين ماتزال بقيَّة أعضاء جسده مندفعة، وسيعني هذا نهاية الأربطة الموجودة في تلك الرُّكبة. أراك في السنة القادمة ربما، أو لن أراك، إن كانت إصابة الركبة بليغة.

ناديتُ پيُّو ثمَّ سألت ميكليني أن يكرِّر تحذيراته. فقام لاعب خط الوسط الأشقر القصير بإعادة كلامه، مشيراً بيديه هذه المرَّة على نحو أكثر مما كان حين أخبرني. أومأ بيوندي برأسه، ثم قال لي: «عاصفة عظيمة قادمة. رياح عاتية. بُرَّاسْكَا Burrasca– على شاكلة إعصار urricane' [بالإنكليزيَّـة[144]]- أليس كذلك»؟ ستتجمد المياه– فتصنع الجليد il ghiaccio. شيء في غاية السُّوء. يقول پاولو: «إنَّ ذلك سوف يقضي على الملعب. وربما لن نتمكَّن من اللعب أبداً».

فنظرنا إلى السَّماء معاً، پيُّو وميكليني وأنا. كانت سماءً تُنذر بالسُّوء، وتدلهمُّ مسرعة حين هبَّت الرِّيح عاصفةً واشتدت برودتها.

فقال پيُّو: «سننتظر لنرى، أليس كذلك؟ مازالت أمامنا ثلاثة أيام».

كانت الرِّيح يوم الجمعة على أي حال قد اشتدت عاصفةً، ثم كأنَّ الجو استجاب إلى ما أشار إليه ميكليني، فراح أبرد مطر شهدناه طيلة الموسم ينهمر. انسحبت عائداً إلى شقَّتي على الفور، بعد عشاء هادئ بمطعم مارتشيلَّا، شاعراً بالوحدة على نحو غير معهود.

ولقد شعرت بالبرد على نحو أكثر مما شعرت به في فندق كوراديتي. كانت نفحات التدفئة تأتي كالعادة كلَّ صباح ومساء، ولكنَّ رياح الشمال جعلت المُشعَّات تبدو في هذه الليلة وكأنَّ الحرارة لم تدبَّ فيها بعد. نظرتُ، وليس للمرَّة الأولى، إلى الموقد الصغير الذي في غرفة المعيشة، يعتريني القنوط. لقد كان موقداً صالحاً لا عيب فيه، بحسب ما أكَّد لي ڤيتو، ولكنَّه لا يستوعب قطعَ الحطب التي تزيد أطوالها على اثنتي عشرة بوصة، ولا تسمح تهويته الرديئة لشعلة النار أن تضطرم أكثر

من بقائها مجرَّد شعلة، وهي مسألة لم تكن لتروق لي، بسبب افتقاري بعد النظر.

وفجأة رنَّ جرس الباب. كان أنطونلُّو ألتمورا واقفاً هناك، يحمل ثلاثة أكياس كبيرة من الحطب المقطوع بالحجم المخصوص الصغير الذي يناسب موقدي. لم يسبق لي أن ذكرت له أو حتى لصابرينا أنَّ شقَّتي، التي تقع في طرف العمارة بنوافذها الممتدَّة من الأرض حتى السقف، لا تطاق حين تعصف الريح الباردة.

ولكن، لا بُدَّ أنَّه قد عرف، فعزم من تلقاء نفسه على فعل شيء يحدُّ من مستوى عدم الرَّاحة الذي أشعر به. فقلتُ: كلا، يا أنطونلُّو، لا يمكن أن تفعل هذا، ولكنَّه قال: نعم، نعم، لا بُدَّ، ناهيك عن أنَّ لديَّ المزيد من الأكياس في الطابق العلويِّ، ومدفأة كاز إضافية، فقلتُ: ولكن، يا أنطونلُّو، لم يكن صائباً، هنا، دعني على الأقل أدفع لك.

ولكنَّ صوت خبط قد تعالى!!! ها هي ذي أكياس الحطب الثلاثة قد أُسقطَت على أرضيَّة شقَّتي. بدا ألتماورا غاضباً حقاً. لقد قلت الكلمة الخطأ: أدفع. أمرني قائلاً: «اجلس، يا جُو! أرجووووك!».

فجلست على الأريكة ورحت أضحك، وأنا لاأزال أحمل في يدي ورقة النُّقود الأولى التي جذبتها من فوق الطاولة، والتي بدا أنَّها ورقة من فئة 10000 ليرة، ما يعادل نحو خمسة دولارات.

أخذ الورقة منِّي، ثمَّ أخرج علبة ثقاب من جيبه، وقدح عود ثقاب وأشعل النَّار في الـ 10000 ليرة، ثم قال «قُضي الأمر. لقد دفعتَ، يا جُو، هل تفهم»؟

«نعم، يا أنطون. لقد فهمت. لقد دفعت. شكراً لك».

ثم قال: «هذا لا شيء»، وأشار إلى الطابق الأعلى. أرادني أن أذهب إلى شقَّته. قال إنَّها دافئة. يمكننا احتساء كأس من الشَّراب.

«كلا، يا أنطونلُّو، لا أستطيع التطفُّل على صابرينا دون أن تعلم».

فقال: «لن يكون تطفُّلاً، فليست صابرينا موجودة ولا حتى نيكولو». لقد غادرت إلى منزل عائلتها في فانو، على بُعْد ثلاث ساعات في السيارة شمالاً، في إقليم ماركي، آخذة نيكولو معها. ولم يكد ينتهي من كلامه هذا حتى تلاشت الابتسامة العريضة من على وجهه سريعاً.

قال إنَّها عادت إلى مسقط رأسها، فلقد كانت «أبَّاتُوتَا abbattuta»، وهي كلمة تعني محبطاً أو يائساً. وبما أنَّها كانت على وشك أن تشهد بداية فصل الشتاء الخامس لها على التَّوالي في كاستل دي سانغرو، والفريق يتقهقر وأحواله تزداد سوءاً يوماً بعد يوم، وياكوني قد أضحى متعسِّفاً مع جميع الذين من حوله، فقد عرفتُ السَّبب.

ولكن كلا، لقد كان الأمر أشدَّ سوءاً من ذلك كله. فلم نكد ندخل إلى شقته، حتى بادر إلى القول إنَّه قد هاتف والدي صابرينا للتوِّ، فأخبروه أنَّها أُدخلت إلى المستشفى بعد أن اجتاحتها نوبة بكاء عارمة لم تنقطع عقب وصولها، وستخضع الآن إلى فحوصات وعلاج ضدَّ «ترُوبُّو سترِس، ترُبُّو آنْسيَا. أُونْ دِسْتُورْبُو دَا سْترِس، كُولْبَا دِلَّانْسيَا. كَاپِيتُو، جُو»[145]؟ هل تفهم يا جُو؟

نعم، لقد فهمت: التوتُّر، والقلق، وما بدا من المحتمل أنَّه كآبة. فدائماً ما كانت صابرينا نزقةً ومنفعلة، ويبدو أنَّها الآن -مؤقَّتاً على الأقل- قد سقطت من فوق حافَّة. قال إنَّه لا يعرف متى ستعود؛ ليس قبل أعياد الميلاد المجيدة بكل تأكيد. وبما أنَّه، على أي حال، موقوف عن اللعب طيلة

الأسبوعين القادمين -بسبب حصوله على بطاقة حمراء cartellino rosso- فسوف يذهب لرؤيتها.

ثمَّ قال هذا المدافع الأعنف والأقل جاذبية من بين مدافعي كاستل دي سانغرو -وهو رجل متأهِّب وفخور بأن يكشف عن كلب البُلدوغ الموشوم على عضلات ذراعه- شاعراً بإحراج بالغ: إنَّ السبب الحقيقي وراء دعوته لي (ولكنَّه أكَّد أنَّه ليس السبب وراء جلبه الحطب) سؤالي إذا ما كنت راغباً في مشاهدة شريط الڤيديو الذي سُجِّل يوم زفافه إلى صابرينا.

قال إنَّه أراد مشاهدته، ليذكِّر نفسه كم كانت جميلة، وإن كنتُ سأشرفه بمشاهدة الشريط معه.

وهكذا شاهدنا الشريط. دار لساعة ونصف. كانت المدَّة ستكون ساعةً، فعلـيّاً، لو تركه يدور إلى الآخر بلا توقُّف. ففي كل مرَّة ظهر فيها على الشاشة أحد المدعوين من أبناء عمومته من الدرجة الثانية، يوقف أنطونلُّو الشريط، ليشرح لي العلاقة المحدَّدة التي تربط هذا المدعوَّ ببقيَّـة أولئك الذين مرُّوا من قبل أمام الكاميرا.

«أتفهم يا جو»؟

«نعم، نعم، أفهم، أفهم: إنَّه العمُّ، نعم، وإنَّه أيضاً حمو الأخت غير الشَّقيقة لابن أخيه الأكبر بالمعموديَّـة».

«أتفهم يا جُو»؟

«طبعاً يا أنطونلُّو. بكل تأكيد».

وحين ظهرت صابرينا، بالطَّبع -كانت خارقة الجمال، على الرغم من كونها حبلى خمسة شهور- أدار الشريط بالعرض البطيء، ثمَّ أعاد اللقطة على الفور، ثمَّ جمَّد الصُّورة على الشَّاشة، وقام بكل الحيل الكثيرة الموجودة في كتيِّب جهاز الڤيديو. وكان يبكي، كلما رآها.

ثم قال: «لقد كان ذلك منذ أربع سنين فقط، والآن...».

حاولتُ مواساته، فقلتُ إنَّني كنت متأكِّداً من أنَّها ستكون بخير، على الرَّغم من أنَّني مازلت لا أمتلك سوى فكرة غامضة عن شدَّة مرضها. ومع ذلك، فقد حاولت تعزيز فكرة التَّداوي بالعقاقير المضادَّة للاكتئاب التي لم تكن كما يبدو وصفة معروفة على نطاق واسع في إيطاليا. وعدني بأنَّه سيهاتف طبيبها في الصَّباح. ولكن دعنا، في هذه اللحظة، في هذه اللحظة، ننظر إليها فحسب، انظر كم هي جميلة يا جُو.

«بالتَّأكيد، إنَّها جميلة».

ثم قال: «والآن، يا لها من فوضى»!

عانقني باكياً حين انتهى الشَّريط. حاولتُ طمأنته مُهمهماً ببعض الكلمات، ثم نزلت السلالم عائداً إلى شقَّتي الباردة، برداً شديداً، أكثر وعياً من ذي قَبْل أنَّ التِّسعين دقيقة من الكالتشيو، التي تُلعَب كل يوم أحد، لم تكن ذات صلة كبيرة بتجربتي الشخصيَّة في كاستل دي سانغرو، وأنَّ هذه الصِّلة قد باتت تتضاءل في كل يوم.

لا بُدَّ أنَّني كنت نائماً، فمازلتُ واعياً بذهابي إلى فوق. أدركت أيضاً أنَّ أذنيَّ وأنفي وأصابع قدميَّ كانت على وشك أن تتثلَّج من شدَّة البرد. لم يفلح الدفء القليل المنبعث من موقد غرفة الجلوس في الوصول إلى غرفة النَّوم. ولكنَّ الريَّح القارسة قد فعلت. وراح صرير الرِّيح يتعالى في هذه الأثناء، وهي تعصف عبر فتحات مصارع النَّوافذ، كأنَّه صوت اثنتي عشرة قطَّة خُنقت دفعةً واحدة.

فتحت مصراع النَّافذة، في بضع ثوانٍ معدودات، وأنا بحالة الهلوسة؛ تلك التي تفصل في بعض الأحيان النَّومَ عن اليقظة الكاملة، فخلتُ نفسي

على متن تلك السَّفينة التي ارتحلتُ فيها ذات مرَّة من طرف الأرجنتين الجنوبيِّ إلى ساحل القطب الجنوبي. كان العالم قد ابيضَّ من حولي تماماً. لم أستطع أن أرى أبعد من قدم خارج النَّافذة، فالمطر الثلجيُّ قد انهمر عاتياً وعلى نحو كثيف.

ولكنَّني أستطيع أن أسمع. سمعتُ أصوات عاصفة شتويَّـة عاتية، وأستطيع أن أشعر أيضاً بالرِّيح، التي تُجمِّد الدم في العروق لشدَّة بردها، وهي تهبُّ عبر الجدران غير المعزولة. كنتُ قد ارتعدتُ حتى سقطت نظَّارتي، فلبست ثيابي على عجل، بقدر ما أستطيع، معتمداً على تجاربي التي قضيتها في القطبَيْن الشمالي والجنوبي التي علَّمتني مهارة التنضيد layering: أن يرتدي المرء أكبر عدد ممكن من طبقات الثِّياب دون تقييد حركته؛ القطن أوَّلاً، ثمَّ الصُّوف، فمادَّة مقاومة للرياح، فمزيد من القطن، ومزيد من الصُّوف، ورداء وبريٌّ خارجيٌّ سميك، وفوقه طبقة مقاومة للمياه.

خطوت متأرجحاً خارح باب الشقة، ووزني أثقل ثلاثينَ پاونداً من المعتاد، ونزلت السَّلالم. وحين فتحت الباب الأماميَّ، خبطتني الرِّيح العاصفة والأمطار الثلجيَّـة بكامل قوَّتها، دافعةً إيايَ إلى الوراء، صوب الجدار الخلفيِّ لردهة العمارة. جثمت في مكاني ثمَّ زحفت على جانبي، ساحباً قلنسوة سترة الفرو إلى الأمام، لحماية عينيَّ من سهام المطر الثلجيِّ الحادَّة، فاستطعت الخروج من الباب.

لا عجب.. خطر ببالي.. لا عجب أنَّ البرازيلـيِّين هم أفضل من يمارس هذه اللعبة في العالم. إنَّهم يلعبون بإيقاع أشعة الشَّمس والسَّامبا والبطون السَّمراء العارية المتموِّجة لأبهى نساء العالم. ربما لم يسبق لهم أن شاهدوا نشرات إخباريَّـة عن أحوال جويَّـة مثل هذه.

شققت طريقي على مهل في الشارع المؤدِّي إلى كشك الصحف. توقَّعتُ، بحكم العادة المطلقة، أن يكون مفتوحاً. ولكنَّه كان، عوضاً عن ذلك، على شفير السُّقوط. فلقد أسقطت الرِّيح أغصان الأشجار وأسلاك الكهرباء وجرفت صفائح القمامة بعيداً، وأسلاكَ الإنارة المعلَّقة فوق أبواب البيوت احتفاءً بأعياد الميلاد المجيدة، وجميع رايات كاستل دي سانغرو المعلَّقة خارج البنايات.

نظرتُ، لأوَّل مرَّة، إلى ساعتي. ليست لديَّ أدنى فكرة لماذا لم أفعل ذلك من قبل. دهشتُ لرؤية أنَّ الساعة كانت العاشرة صباحاً. ومن المفترض لاحتفالات الافتتاح أن تبدأ في الاستاد الساعة الحادية عشرة. ولكن من الواضح أنَّه لن تقام أي احتفالات، ولن تقام وليمة غداء احتفاليَّـة، ولن تُعقد أي مباراة، ولن تُعزَف أي موسيقى لفيڤالدي.

أدركتُ أنَّني إن تمكَّنت من إشعال نار صغيرة في غرفة المعيشة، وسحب فرشة من غرفة النَّوم والاستلقاء قرب الموقد، مُبقياً معظم طبقات الثِّياب علـيَّ كما هي، فسوف أكون قادراً على قضاء بضع ساعات دون أن أشعر إلا بالحد الأدنى من انعدام الرَّاحة. فاستدرت سريعاً على قدم واحدة مجابهاً العاصفة الهوجاء، وانحرفت على مهل عائداً أدراجي من حيث أتيت.

كان من المقرَّر أن يأكل الفريق، قبل المباراة، وجبةَ سباغيتي، تجمع الفطور والغداء معاً، بمطعم مارتشيلَّا في الساعة 10:30 صباحاً. ولا بُدَّ أن ذلك قد أُلغي من دون شك، ولكنَّني، بحكم العادة إلى حدٍّ ما، ورغبة منِّي في التخلُّص من الرِّيح والمطر الثلجيِّ، انزلقت عبر الممرِّ الجليديِّ الخاص بالمركبات الذي يفضي إلى مطعم البيتزا. من المحتمل أن تكون

مارتشيلّا قد شقت طريقها، مكافحةً، للوصول إلى هناك، كي تتأكد إن كانت العاصفة ألحقت ضرراً مستديماً بالمطعم.

كان الباب مفتوحاً، فدفعته ثم وقعت في الداخل. ويا لدهشتي، كان الفريق في الداخل يأكل السباغيتي. فاقتربت على الفور من ياكوني وسألته لماذا، بعد أن بات واضحاً أنَّ المباراة لن تُعقد.

فقال: «ولم لا؟ ستمنحنا هذه الأحوال الجويَّـة السيِّئة فرصة أفضل للحصول على ثلاث نقاط أو حتى واحدة، أليس كذلك»؟

وصل فريق جنوا إلى نُزل رُكَّاراسو في الليلة السابقة. ولن يتمكن أعضاؤه من العودة إلى ديارهم حتى تهدأ العاصفة، لذا فقد قالوا إنَّهم راغبون في اللعب. ويبدو أنَّ فرقة كاستل دي سانغرو قد أجمعت رأيها: لنفعل ذلك! وعلى الرغم من معرفة كم سيكون مؤلماً وخطراً من الناحية الجسديَّـة لعب كرة القدم لتسعين دقيقة متواصلة، في ظروف قد تدفع إلى تأجيل سباق «إيديتارود» لتزلُّج الكلاب على الجليد في ولاية ألاسكا، فإنَّ أحداً لم يتحفَّظ قطُّ.

وكان التَّبرير بسيطاً: إذا صارت الأحوال الجويَّـة جيدة، وخضنا المباراة على ملعب مناسب، فلن تكون أمامنا سوى فرصة ضئيلة للتغلُّب على جنوا، أو حتى إحراز التَّعادل. أما اليوم، وفي هذه الظُّروف، فالفريق صاحب الجوارب الأدفأ سيفوز. وفي حين أنَّ عاصفة المطر الثلجيِّ ستجعل المباراة مسخرة، فإنَّها سوف توفِّر لنا فرصة غير متوقعة لحصد نقطة ثمينة، أو حتى ثلاث نقاط إن حالفنا الحظُّ.

اعترتني دهشة عارمة حين شاهدت أنَّ صيغة مختصرة من احتفالات التَّدشين كانت دائرة في الاستاد. استُبدل الكاردينال بأُسْقُف، وحلَّ

كولونيل مطرح الجنرال، وهكذا دواليك، ولكنَّ ذلك -أو حتى غياب الجمهور- لم يحل دون أن تُلقَى الخطابات المقرَّرة جميعها.

بَيْدَ أنَّ الجماهير المُبتهجة المتوقَّعة من سكَّان البلدة ظلت في بيوتها قرب المواقد. لم يكن [الناس] مستعدِّين لتحمُّل مخاطرة التعرُّض لقرصة صقيع، أو الإصابة بالإنفلونزا، منصتين إلى سياسيِّين يهنِّئون أنفسهم وبعضهم، في مناسبة لم يسهموا بشيء في تحقيقها، ولم يعلموا بوجودها إلا حين وصلتهم تعليمات اللحظة الأخيرة بالتوجُّه إلى هذا المكان الذي يُعَدُّ واحداً من أكثر الأماكن المقفرة بؤساً.

ولطالما اعتقدتُّ أنَّ أصحاب السُّلطة، الذين لا يمكن خلعهم بسهولة، سيرغبون -هم والمختلُّون عقلياً- بالتحدُّث لنصف ساعة أو يزيد، حين يكون من الواضح للجميع ألا أحدَ ينصت إليهم سوى أنفسهم. لم أرغب في إطلاق أحكام مسبقة على تشكيلة المدعوِّين الذين جمَّعهم غراڤينيا، ولكنَّنا، على الرغم من حقيقة عدم وجود أي جماهير، ورغم حقيقة أنَّ جميع الكلام الذي سوف يُلقَى سيذهب أدراج النِّسيان جرَّاء العاصفة، فإنَّ المهرجان الخطابيَّ تواصل لفترة طويلة، فتأخَّرنا خمساً وأربعين دقيقة على مأدبة غداء «الاحتفال الكبير» المقامة في الساحة الرياضيَّة الداخليَّة في الجهة المقابلة من الشَّارع التي نادراً ما تشهد أي فعاليَّات.

•••

كان المشهد فوضى عارمة، ونصف ضيوف الشَّرف المدعوِّين قد انزلقت أقدامهم فسقطوا على الأرض وهم يحاولون شقَّ طريقهم عبر ساحة موقف السيارات. أما غراڤينيا، فقد كان يحاول في هذه الأثناء التَّظاهر بأنَّ كل شيء قد سار على خير ما يرام. لا بُدَّ أنَّه قد بدَّل ملابسه في

حمَّام الرِّجال؛ ففي الوقت الذي احتشد فيه الجميع طلباً للدفء، ومحاولة العثور على مصدر تدفئة قريب يمكِّنهم من إذابة الجليد العالق بأرديتهم الخارجيَّة، إن لم يمكِّنهم من تجفيفها في المقام الأوَّل، كان الرئيس السابق لنادي كاستل دي سانغرو يبدو ككبير النُّدلاء بمطعم أربعة نجوم على الريفيرا الفرنسيَّة.

وقُبيل انتهاء المأدبة، دخل ثلاثة رجال أنيقين وعابسين قاعة الطَّعام، وتوجَّهوا مباشرة صوب غرافينيا. كانت ثمَّة إشارات بالأيدي كثيرة، ثمَّ علا أكثر من صوت. عرفت أنَّ هؤلاء كانوا الحكمَ ومساعدَيْه. كانوا يشرحون إلى غرافينيا أنَّهم قد انتهوا من إجراء فحص دقيق للملعب، وخلصوا إلى قناعة استحالة أن تُجرى أي مباراة في هذا اليوم، نظراً إلى الرِّياح العاتية والمطر الثلجيِّ الذي لا يحتمل، بالإضافة إلى الحالة السيئة التي أصابت أرضيَّة الملعب ذاتها.

لم أتمكَّن قطُّ من معرفة ما الذي حدث بعد. ولكن مما لا شك فيه أنَّ أحداً لم يتمكن من إقناعه بذلك. وبعد أن اختلوا بأنفسهم، ليس مع غرافينيا فحسب، وإنَّما رفقةَ السيِّد ريتسا أيضاً، غيَّر الحكم رأيه تماماً وسريعاً على نحو مفاجئ، ثم أعلن غرافينيا على الفور أنَّ الوقت قد حان لإخلاء قاعة الطَّعام، فالمباراة على وشك أن تبدأ.

وفي تمام الساعة الثانية ظهراً، نزل الفريقان إلى أرض الملعب. هرول الجنويُّون، بمقمصانهم البيضاء، تملؤهم الثقة، خارجين من النَّفق الذي يقود من غرفة تبديل الثياب إلى خطِّ التَّماس، ولكنَّهم ما إن تخطَّوا منطقة النَّفق المسقوفة بغطاء وقائي، حتى بدأوا في الانزلاق والتزحلق والسقوط كأنَّهم جزء من فقرة في سيرك.

ولكنَّ لاعبينا الأحد عشر، الذين سيفتتحون المباراة، دخلوا على رؤوس أصابعهم، بكل حرص وعناية، آخذين مواقعهم في أرض الملعب. وبعد دقيقة انضمَّ إليهم الحكم الذي بدت الريبة واضحة على ملامحه، وضوحاً شديداً، رغم إقناع السيِّد ريتسا له بتغيير رأيه.

ولم لا؟ فلا الرِّيحُ هدأت بتاتاً ولا المطر الثلجيُّ. ولقد تناهى إلى مسمعي وقتَ الغداء أنَّ فريق جنوا لم يتمكن من الوصول إلى هنا، قادماً من فندق رُكَّاراسو، على بُعْد بضعة كيلومترات، إلا بشقِّ الأنفس، فالمطر الثلجيُّ كان قد هطل بغزارة، ومن ثمَّ الثَّلج الخالص، فغرزت فيه حافلتهم حتى طاسات العجلات. وحين نظرت إلى لاعبيهم البؤساء، المرتعشين من البرد، الذين لم يصدِّقوا أنَّ دوري الدرجة الثانية يمكن أن يفرض عليهم خوض مثل هذي الصِّعاب، بدا واضحاً أنَّهم تمنوا لو أنَّ الحافلة لم تتمكن من الخروج من البقعة التي غرزت فيها.

أما لاعبونا، فقد عرفوا ما هو أفضل من القفز للمحافظة على دفء أجسادهم؛ أدركوا أنَّ حركتهم في الملعب سوف تجعلهم يغوصون في الوحل المتجمِّد إلى منتصف سيقانهم، فظلُّوا يرتعشون في أماكنهم، شاعرين أنَّهم لو تمكَّنوا من تحمُّل هذا البرد الشديد، فلن يُغلَبوا على أرض هذا الملعب في هذا اليوم.

تبنَّى ياكوني خُطَّةً عُدَّت مقامرة بالنسبة إليه: 4-4-2. وكان فوسكو ودانجلو وتِشيي وبرييته بالنسبة إليه لاعبي دفاع ذوي خبرة -ولعلَّهم العنصر الأهمُّ في ظلِّ الظروف الرَّاهنة- في حين أرسل إلى الأمام لاعبي خطِّ الوسط الأكثر خبرة بالنسبة إليه: بونومي، وميكليني، ودي فابيو، وألبيرتي. وكانت «المقامرة» كامنة في استخدام مهاجمَيْن: غالي وبِستلَّا.

كان يأمل في أن تتمكَّن الكرة، في ظلِّ الظروف الحاليَّـة، من الوصول إلى قدم أحد المهاجمَيْن، عبر تمريرة طويلة من الدِّفاع، فلا يقدر مدافعو جنوا على اعتراضها وهم يحاولون التمترس في مواقعهم، فتغوص أقدامهم في الوحل أو يسقطوا عائمين في الماء، فيتمكن أحد المهاجمَيْن من تسديد ركلة دقيقة على المرمى، في الوقت الذي قد يسقط فيه حارس المرمى، إما إلى الأمام وإما إلى الخلف، في أوَّل مرَّة يحاول فيها التَّحرك عبر منطقة المرمى التي غطَّاها الجليد.

ولكن لا شيء من هذا كله قد تحقّق. بل إنَّ الملعب لم يشهد في ذلك اليوم أي شيء يشبه كرة القدم. ولولا حظر استخدام اليدَيْن، لخطر ببال المرء أنَّها كانت شكلاً غريباً من رياضة پولو الماء. وأخيراً، بعد خمس وعشرين دقيقة، ولون اللاعبين في كلا الطرفين قد استحال أزرقَ [من شدَّة البرد]، حتى وهم يشاهدون أوصالهم وقد تيبَّست، أخذ الحكم الكرة لإجراء الاختبار التقليديَّ لأرض الملعب.

فرفع الكرة أمامه على طول ذراعيه، ثم أسقطها من ارتفاع كتفيه. كانت القاعدة العامَّة تنصُّ على أنَّ الكرة إذا ارتدَّت، فأرض الملعب صالحة للَّعب. أما إذا ظلَّت حيث سقطت، فسوف تُلغَى المباراة.

ولكنَّ الكرة، في هذه الحالة، على وجه التَّحديد، لم ترتدَّ ولم تبقَ في مكانها أيضاً، بل غرق نصفها ولم يَعُدْ يُرى، غائصاً تحت عدَّة بوصات من الماء المتجمِّد الذي تجمَّع حينها فوق العشب، مستقراً على نحو راسخ تحت الوَحل في الأسفل.

هُرع اللاعبون من كلا الفريقَيْن إلى غرفتَي تبديل الثياب، كأنَّ حياتهم على المحكِّ. ستخاض المباراة من جديد في وقت ما بعد الأوَّل من يناير.

تحوَّلت أولى محاولات غراڤينيا العنيدة ليكون راعياً بدلاً من رئيس إلى إخفاق سخيف آخر.

استدعي أحد الخبراء يوم الإثنين من الشمال، وما إن حلَّ صباح الثلاثاء حتى كان هو وطاقمه يقدِّرون الضرر الذي لحق بالملعب وينظرون في الخيارات المتاحة للإصلاح. قيل إنَّ هذا الخبير كان أفضل رجل في عموم إيطاليا في المسائل المتعلقة بتشييد ملاعب كرة القدم وصيانتها وإصلاحها. لقد استأجره السيِّد ريتسا شخصياً، دون استشارة غراڤينيا. ولأوَّل مرة قيل إنَّ النُّقود ليست المسألة: بل أسرع ترميم ممكن لأرضيَّة الملعب. وحيث لن يكون ثمَّة إجابة، فإنَّ سؤال: «أين كان هذا الخبير في شهر يوليو؟» لم يُطرَح قط.

عاد اللاعبون إلى التدريب عصر يوم الثلاثاء، تحت أشعة شمس دافئة بدت كأنَّها تسخر منهم لتزيد من وطأة تعاستهم. تجمَّعوا في مجموعات صامتة صغيرة، يحدِّقون في المساحة المشبعة بالماء، المغمورة بالوحل، التي توقّعوا أن تغدو ملعبهم الجديد؛ ملعب الأمل، على الأقل.

قال دي ڤنتشنسو، حين جلست إلى جانبه على المقعد الطويل بغرفة تبديل الثِّياب، ووجه المُعبِّر يفصح عن حزن عميق: «تلاشت المعجزة. انتهى الحلم».

ارتدى اللاعبون ثيابهم على مهلهم، يغمرهم الحزن، في غرفة تبديل الثّياب الجديدة المكسوّة بالسجّاد، وهم يشعرون بأنَّهم خارج المكان، استعداداً للتَّدريب. سيتوجب عليهم كلما أرادوا الوصول، في كل يوم، إلى ملعب التَّدريب المكشوف والوعر، أن يخرجوا من هذه الغرفة الجديدة

ليحدِّقوا في الملعب الذي ربما لن يلعبوا فيه مباراة واحدة البتَّة، تغمرهم مشاعر أنَّهم قد تعرَّضوا للخيانة نتيجة إهمال أولئك الذين من المفترض أن يصدروا الأحكام عليهم.

قال فوسكو، وهو يمرُّ بجواري: «لم تكن حكاية خرافيَّـة يا جُو؛ إنَّها كذبة فحسب».

22
حَكَمٌ بالصُّدفة

وصل بائعو السُّوق التي تُعقد صباحَ الخميس، قبل بزوغ الفجر -وصل معظمهم قادمين بمركباتهم من نابولي، ثمَّ ركن الجميع شاحناتهم في موقف السيارات الواقع مباشرة تحت نافذتي، ثمَّ راحوا يفرغون بضائعهم، صاخبين، مرحين، ويرتِّبونها على المناضد التي سوف يبيعون عليها كل شيء؛ من الخنازير الكاملة إلى السُّجق، والدجاج المشكوك على الأسياخ، ومئات الأصناف المختلفة من الجبن، بالإضافة إلى الفواكه والخضار والأسماك الطازجة- الأمر الذي ضمن أن أستيقظ، هذا اليوم، في برد سريري المنعزل، قبل أن تكون الصحف الصباحية متاحة بوقت طويل.

ولكنَّني استبشرت خيراً بالجلبة. كانت الأصوات مفعمة بالحيوية والجرأة، ونداءات البائعين -بعضهم لبعض، ومن ثم، لاحقاً، للوافدين المُبكِّرين الذين تنافسوا على شراء البضائع- قد غدت، بالنسبة إلـيَّ، جزءاً متأصِّلا، على نحو عميق، من تجربتي الإيطالية، أكثر مما فعلت الزيارات التي قمت بها إلى الكنائس والمتاحف. لم يكن الأمر متعلِّقاً بالفنِّ، وإنَّما بشيء ذي قيمة أعظم: الحياة في حدِّ ذاتها.

ولأنَّني لا أطهو إلا نادراً، فلم أكد أشتري شيئاً من السُّوق، ولكنَّني استمتعت بالسير بين الحشود في ذلك الصَّباح، مومئاً برأسي أو متجاذباً أطراف الحديث على عجل مع بعض المعارف، متوقِّفاً لتناول عيِّنة مجانيَّـة من هذا الصنف أو ذاك، ثمَّ أحياناً لشراء شيء قد أمنحه لاحقاً لشخص

ما، مستغرقاً في نسيج هذه الجزئيَّـة الصغيرة من إقليم أبروتسو، وكل ما يحيط بها ويتغلغل فيها؛ هذا الجزء من إيطاليا الذي بدأت أحبُّه أكثر من أي مكان آخر.

وكانت ثمَّة مشاهد أُعدِّت قُبيل الفجر وأصوات قد تعالت، في أوَّل خميس شديد البرودة من شهر ديسمبر: النيران التي أشعلها الباعة الذين استخدموا صناديق التعبئة حطباً، ثمَّ تحلَّقوا قريباً من ألسنة اللهب، منتظرين بزوغ أول خيوط أشعَّة الشَّمس الصباحية الدافئة. نظرتُ إلى الأسفل، في الساعة الثامنة صباحاً، حين كنت أهمُّ بالخروج كعادتي لإحضار الصحف اليوميَّـة، فرأيت شيئاً مختلفاً جديداً: كانت أشجار أعياد الميلاد المجيدة معروضة للبيع لأوَّل مرَّة.

بدا شهر سبتمبر الآن كأنَّه قد ضاع في سُدُم التَّاريخ، ولكنَّ فريق كاستل دي سانغرو لم يخض حتى الآن مباراة إيابٍ حقيقيَّـة واحدة، ولن يتمكن من ذلك حتى الخامس عشر من شهر ديسمبر على الأقل، بصرف النظر عن السرعة التي قد يشتغل بها الخبير القادم من الشمال ومدى النَّجاح الذي سوف يحقِّقه، لأنَّنا سوف نرتحل يوم الأحد إلى البندقيَّـة.

وما عساي أقول عن البندقيَّـة؟ فلقد هام الرسَّامون والموسيقيُّون والشُّعراء والنَّاثرون، على مرِّ مئات السِّنين، بهذا العالم السِّحريِّ من القنوات والبحيرات، باذلين أفضل ما يستطيعون في محاولة القبض على جوهره. ولقد انضمَّ المصوِّرون الفوتوغرافيُّون وصنَّاع الأفلام في القرن المنصرم إلى هذا الموكب. ولكن لم ينجح أحدٌ، بأي شكل من الأشكال، في نقل طبيعة التجربة البندقانيَّـة venetian إلا جزئياً.

ولقد زرتها من قبل: وحدي في سنة 1994(تبعد المدينة مسافة رحلة قصيرة بالقطار عن پادوڤا)، ثمَّ في شهر يناير سنة 1996 مع نانسي. وسأعود إليها يوم السَّبت مع «فِتْيَتي»، وهذه المرَّة في رحلة عمل محض. القنوات، والبحيرات، والكاتدرائيَّات، وأعمال الفن العظيمة؟ كلا، شكراً. سنكون قادمين بحثاً عن النِّقاط [التي سوف نحصِّلها من المباراة].

ولكنَّ عملاً جديداً قد أُوكلَ إلـيَّ قبل الرحلة، ولقد علَّمني، عن قناعة، كم هو غير مرئيٍّ -وسهل العبور- ذلك الحدُّ الفاصل بين ذائعي الصِّيت والمذمومين، وبين المُعظَّمين والمُحتقرين في الكالتشيو.

كان ياكوني قد حدَّد عصرَ الجمعة لإجراء تدريب خفيف فحسب. وكان اللاعبون الأحد عشر الذين سيفتتحون المباراة في البندقيَّـة قد استبعدوا حتى من ذلك. ولهذا فقد اقتصر التَّدريب بصورة أساسيَّـة على مباراة خُماسيَّـة، فوجدتُ نفسي فجأة الحكم، حين ألقى إلـيَّ ياكوني ساعة التَّوقيت وصافرته. قال لي إنَّه يرغب في الجلوس والمشاهدة؛ في التَّركيز على نقاط القوة والضَّعف الفرديَّـة بين هؤلاء العشرة الذين يأتون في أدنى سلَّم ترتيب لاعبي الفريق، ولهذا فقد احتاجني لأقوم بدور الحكم.

لا بُدَّ أنَّه كان يفعل ذلك من أجلي أكثر من أجله هو، ربما كي أرى اللعبة من منظور مختلف وأصعب؛ أن أُقرِّر في التوِّ واللحظة ما يُعَدُّ مخالفةً، ومتى أمنحُ ضربة جزاء، ومتى أحكم على اللاعب بأنَّه قد وقع على الأرض متعمِّداً، متظاهراً بتعرُّضه للعرقلة.

ستنقسم هذه المباراة إلى شوطَيْن، خمس عشرة دقيقة لكل شوط، مع حرية احتساب الوقت الإضافيِّ وفق تقديري الشخصيِّ. لن تحتسب

التسلُّلات، ولكن يتوجب علـيَّ أن أحكم على كل ركلة تذهب خارج منطقة التَّماس، ومتى أمنح ضربة ركنيَّـة أو ضربة حرَّة، ومتى أقرِّر أنَّ الفريق المهاجم قد ارتكب مخالفة، وأنَّ عليه إعادة الكرة إلى المدافعين.

كنتُ أنا وجميع اللاعبين أصدقاء؛ لم تكن إلا مباراة خُماسيَّـة في أواخر عصر يوم جمعة معتدل الطَّقس؛ فسوف نرتحل معاً في اليوم التالي بالحافلة، ومن ثمَّ بالطائرة إلى البندقيَّـة، إلا أنَّني اعتقدت أنَّ هذه المباراة سوف تكون ممتعة.

ولكن يبدو أنَّ اللاعبين نسوا، منذ اللحظة التي أطلقت فيها صافرتي لبدء هذه المباراة المصغَّرة، أنَّهم التقوا بي البتَّة من قبل، فلقد كنت بكل بساطة الحكم، وبما أنَّني كذلك، فأنا عدوُّهم، لأنَّني أمتلك، في نطاق سلطتي، القدرةَ على حرمانهم من الجزاء العادل، ومنح خصومهم الفرص التي لا يستحقونها.

تسبَّب كريستيانو بمعضلتي الأولى؛ إذ عرقل ألبيري «صانع الألعاب الوهميّ» هذا الذي اندفع محاوراً بالكرة صوب المرمى الذي كانت تدافع عنه فرقة كريستيانو الخماسيَّـة. أطلقتُ صفَّارتي مشيراً إلى ركلة حرَّة تُنفَّذ من البقعة التي جرت فيها العرقلة.

ولكنَّ كريستيانو صرخ علـيَّ بأنها لم تكن مخالفة، وأنَّ ألبيري قد تظاهر بذلك وخدعني. مشيت مبتعداً عنه، هازاً رأسي، ولكنَّه لحق بي، وهو لايزال يحتجُّ، وبلغة أعرف جيداً بما يكفي أنَّها لم تكن لائقة.

اِستدرت لأواجهه: «كفى، يا ميمو! سأطردك لهذه المعارضة!».

فأجابني: «تباً لك!»، وهي شتيمة منحتني السبب الكافي لطرده، ولكنَّه مشى مبتعداً حين قالها، فأسقطت المسألة من حسابي. وبتُّ مدركاً الغضب

الذي انتابني تجاهه، لأنَّه كان يجادل على نحو عنيف، ثمَّ خطر ببالي: «انتظر يا كريستيانو، انتظر حتى المرَّة القادمة، وسنرى كيف ينتهي الأمر».

ويحي! لا ينبغي للحكَّام أن يفكِّروا على هذا النَّحو. يتوجب أن يظلُّوا متجرِّدين طيلة المباراة وألا يسمحوا للعواطف أن تتحكَّم بهم؛ أن يفرضوا العقوبة المناسبة عند ارتكاب مخالفة ما، ولكن عليهم ألا يحملوا في قلوبهم ضغينة تجاه أي لاعب طيلة المباراة.

بيد أنَّ ألتامورا، جاري العزيز، كان أسوأ من ميمو. لقد مُنح فرصة أن يلعب مهاجماً في هذه المباراة الوديَّـة القصيرة الجارية بين لاعبي الفريق ذاته، ولكن، يا إلهي، هل تبدَّلت أحواله، فكل احتاك، أو حتى التهديد باحتكاك ضدَّه وهو يندفع صوب الكرة أو يتقدَّم محاوراً بها تجاه المرمى، كان يعدُّه مخالفةً.

كان يصرخ: «مخالفة! مخالفة!»، وهو يستدير نحوي، رافعاً ذراعيه وكفيه، مستعطفاً. ولكنني كنت أهزُّ رأسي بكل بساطة، دون أن أنظر إليه، مواصلاً تقدُّمي مع إيقاع اللعب.

قرَّرتُ أنَّ احتساب دقيقتين وقتاً إضافياً سيكون مناسباً للشَّوط الأوَّل. كنت على وشك أن أصفِّر منهياً الشَّوط الأوَّل حين شاهدت ألتامورا يركض نحو المرمى الذي يحرسه لوتِّي محاولاً العودة إلى لياقته المعتادة قبل الوقت المحدَّد [لرجوعه من الإصابة]. كان الوقت قد انتهى، ولا بُدَّ أن أصفِّر، ولكنني لم أفعل. المسكين أنطونلُّو، كان يعاني كثيراً من المرض ومن غياب صابرينا. ربما يتوجب علـيَّ أن أنتظر لأرى ماذا يحدث.

مرَّت عشر ثوانٍ كاملات على الوقت المفترض أن ينتهي فيه الشَّوط الأوَّل، فوثب إلى الأمام، ثم تلقَّى تمريرة رائعة من ريميديو، فسدَّد الكرة

في المرمى، متجاوزةً لوتّي. صفَّرت على الفور معلناً انتهاء الشوط الأوَّل. كانت النتيجة 1-صفر، بناء على هدف كان من المفترض ألا يُحتسَب. سمحت لذلك أن يحدث بدافع ما رغبتُ في الاعتقاد أنَّه التعاطُف، ولكنَّه ربما كان في الحقيقة أقرب إلى الجُبْن.

مرَّ لوتّي بجواري صامتاً، عند تبديل موقع حراسة المرمى بين الفريقَيْن، حاملاً الكرة التي قد دخلت للتوِّ في شباك مرماه. لم تكن إشارته الوحيدة سوى النَّقر على رسغه، في الموضع الذي يلبس فيه ساعة يده، شاخصاً بعينيه إلـيَّ، متسائلاً. نظرت إليه بكل بساطة، ثم هززت كتفيَّ. ولكنَّه هزَّ رأسه بكل بساطة، ثمَّ نظر إلـيَّ مرَّة أخرى كمن خاب رجاؤه؛ لقد عرف الحقيقة مثلما عرفتها أنا.

كانت ثمَّة استراحة من خمس دقائق بين الشَّوطَيْن، فاقترب كريستيانو منِّي لمزيد من التذمُّر، فلقد سجَّلت مخالفتَيْن ضدَّه. قلت له: «ليس ذنبي، يا ميمو، إذا كنت لا تعرف كيف تلعب مباراة دون ارتكاب مخالفات عديدة. وهذا يحدث معك كل يوم أحد، أيضاً»!

حسناً، ذلك شيء ما كان ينبغي علـيَّ قوله، فلا يمكن تبرير انتقادي لأدائه في المباريات الحقيقية على أساس جداله معي هنا. ولقد عرف ميمو ذلك. قفز أمام وجهي، أو في حدود أقرب مسافة يستطيع الوصول إليها، نظراً إلى فارق البوصات التِّسع بين طولَيْنا، ثم تبعني، وهو يقبض على ذراعي، حين استدرتُ مرَّة أخرى مبتعداً.

وأخيراً، حضر صديقاه، ريميديو وبيوندي، فهدَّآه، ولكنَّ بيوندي هزَّ في وجهي إصبعه محذراً، ثم قال لميمو: «اهدأ، اهدأ. فالحكم قد سلك الطريق الخاطئة». لقد خرج عن الخطِّ، أو، حرفياً: «لقد حادَ عن الطريق».

وفي الشوط الثاني، حاول ألبيري الذي فريقه مهزوم، 1-صفر، اغتنام أي فرصة للمحاورة بالكرة ومِن ثمَّ الوقوع على الأرض والتظاهر بأنَّه قد تعرَّض إلى عرقلة كلما احتك به أحد اللاعبين، ولكنني رفضت بكل حزم عَدَّ ذلك مخالفةً لصالحه، مخبراً إياه أن ينهض ويواصل اللعب كأنَّ شيئاً لم يحدث.

ولكنَّه تلقَّى حينئذ تمريرةً جميلة، فحاور بالكرة خطوتَيْن في منطقة الجزاء، ولمَّا هيَّأ نفسه للتسديد، تلقَّى عرقلةً عنيفة من ريميديو، ولكنني اعتقدت أنَّها عرقلة عادلة. كان ألبيري يصرخ ضدَّ هذه القسوة، بصوت أعلى من الصوت الذي صرخ به كريستيانو، طالباً تسجيل مخالفة لصالحه. غير أني هززت رأسي، قائلاً: «أكمل اللعب»، واجداً نفسي وقد انساقت من شدَّة التوتُّر إلى التحدث بالإنكليزيَّـة. اعتقدت أنَّني على صواب، بيد أني لم أكن متأكداً.

ولكن لا أحدَ أراد مواصلةَ اللعب. أرادوا جميعاً الرَّكض تجاهي، ملوِّحين بأذرعهم، طالبين الحصول على ضربة جزاء جرَّاء المخالفة التي ارتكبت ضدَّ ألبيري، في حين طالب الخصوم بطرد ألبيري لخداعه وتظاهره بأنَّه قد تعرَّض للعرقلة. ولكنَّني هرولت مبتعداً بكل بساطة، مشيراً بذراعي إلى أنَّ اللعب مازال دائراً.

فاغتنم ألتامورا فرصةَ لحظة الفوضى هذه، فتقدَّم بالكرة، ثمَّ هيَّأ نفسه، ولا أحد غير بيوندي في منطقة الدِّفاع، لتسديد ركلة قويَّـة من مسافة قريبة على مرمى لوتِّي مباشرة. ولكنَّ بيوندي اندفع تجاهه، فوكزه بكوعيه أوَّلاً، ثمَّ خبط ركبتيه بفخذي ألتامورا. تلك الآن ضربة جزاء، فأشرت إلى ذلك، مطلقاً صافرتي، مشيراً إلى البقعة التي تُنفَّذ منها ضربة الجزاء.

جاء الآن دور بيوندي كي يعترض علـيَّ، فلوَّح بذراعيه وقد انتفخت عيناه. كلا، كلا، كلا، لن أسمع أي شيء مما سيقوله. هذه ضربة جزاء، ثم أشرت إلى ساعتي، مومئاً أنَّ هذه المباراة المصغَّرة على وشك الانتهاء، ولن أحتسب وقتاً إضافياً لتعويض الوقت الذي ضاع في أثناء هذه المشاحنة.

نفَّذ ألتامورا الضربة فأنقذها لوتّي. بقيت النتيجة 1-صفر. ولكنَّ ألتامورا كان يصرخ مرَّة أخرى في هذه اللحظة، متَّهماً لوتّي بأنَّه قد تحرَّك على نحو غير قانونيٍّ قبل أن تلمس قدمُه هو الكرة. تجاهلت باختصار هذه الشَّكوى، ثم صفَّرت مرَّة أخرى لاستئناف اللعب.

كان كل لاعب في كلا الفريقين غاضباً منِّي في هذه اللحظة. وحين أوشك الشوط الثاني على نهايته، قلتُ «دقيقتان»، رافعاً إصبعين، في إشارة إلى احتساب دقيقتَيْن وقتاً إضافياً.

ولا بُدَّ أن صرخات الغضب رداً على ذلك قد سمعها السيِّد ريتسا في أعلى الجبل الذي يقيم فيه. لقد صاح جميع لاعبي الفريق المهزوم، 1-صفر، «دقيقتان فقط! مستحيل»!

«كفى! Basta»، سرعان ما غدت هذه الكلمة كلمتي الإيطالية المفضَّلة.

كان ياكوني يشاهد بصمت من المدرَّجات. ولكنَّه تقدَّم إلى طرف الملعب للتفرُّج على هاتين الدقيقتين الأخيرتين. كانت ساعتي تدقُّ الثَّواني الخمس عشرة الأخيرة، حين اندفع دي ڤنتشنسو بشراسة من طرف منطقة الجزاء، ثم، وفي أثناء محاولته الوصول إلى تمريرة حطَّت أمامه على مسافة ليست بعيدة، دفع ألتامورا، مُبعداً إياه عن الطريق.

صاح ياكوني وهو يقف خلفي تماماً: «مخالفة»، في حين استعاد ألتامورا توازنه ووقف ساكناً في مكانه، منتظراً اللعب أن يتوقَّف، بعد صيحة

ياكوني تلك. ولكنَّ دي ڤنتشنسو استمرَّ في اللعب، قاذفاً الكرة في مرمى دي يوليس، محرزاً هدف التَّعادل.

أطلقت صفَّارتي، معلناً انتهاء المباراة. هدف لهدف. ولكن، يا للهول، تعالى البكاء والعويل والصرُّ على الأسنان! ناهيك عن الشتم والدَّفع بالأيدي والبصق. ليس هدفاً! ليس هدفاً! لا يمكن أن يكون هدفاً! فلقد صاح ياكوني معلناً أنَّها «مخالفة»! ولكنَّ اللعب لم يتوقَّف.

فقلت: «معذرةً، ليس السيِّد حكم هذه المباراة الصغيرة في هذا اليوم. أنا الحكم. ولا يوقف اللعب سوى الحكم».

فاستشاط ألتامورا غضباً حتى ظننت للحظة بأنَّه سيضربني. جاري العزيز! أما دي يوليس، الذي لم يكن على وشك أن يهاجمني جسدياً، فقد وقف على بُعْد ست بوصات من وجهي، مُغمغماً بشتائم بذيئة بلهجة أبروتسوتيَّـة صرفة، فلم أستطع فهم أي منها.

فتراجعت خطوة إلى الوراء، رافعاً كلتا ذراعيَّ، صارخاً في وجه ألتامورا: «اخرس! يا أنطون. لا يتوجب عليك التوقُّف عن اللعب إلا حين تسمع الصَّافرة».

ولكنَّ أنطونلُّو مزَّق قميصه الخارجيَّ المنقوع بالعرق، رداً على ذلك، ثم رماه علـيَّ. تفاديته، وتركته في المكان الذي سقط فيه.

«أليس هذا صحيحاً، أيها السيِّد؟ صحيح أم لا؟ لا تتوقَّف إلا حين تسمع الصَّافرة».

فقال ياكوني: «طبعاً، ولكنها كانت مخالفة، على أي حال».

فقلت: «لا أعتقد ذلك».

«هذا لأنَّك كاتب، ولست حكماً».

«ولكنَّك لستَ حكماً، أيضاً».

فقال ياكوني وهو يضحك فجأة: «الحمد لله».

كسر ذلك حدَّة التوتُّر إلى حدٍّ كبير. فتقدَّم دي ڤنتشنسو بهدوء إلـيَّ وقال: «أنت محقٌّ. والسيِّد على خطأ. لم تكن مخالفةً». أما لوتِّي، الذي تعامل مع هذا المباراة كأنَّها قد خِيضت أمام 20000 متفرِّج في عصر يوم أحد، فقد تصرف مثلما يتصرَّف مع الحكم بعد انتهاء كل مباراة، بصرف النظر عن مدى اعتقاده بصواب المخالفات التي احتسبها أو خطئها. قال: «شكراً أيها الحكم»، ثم صافحني بصورة رسميَّـة، كأنَّا لم نلتق من قبل. هكذا كان لوتِّي راقياً في جميع الأحوال.

تُعدُّ البندقيَّـة المدينة الأقل ارتباطاً بالكالتشيو، إلى حدٍّ كبير، من بين المدن الكبيرة في إيطاليا. ولقد كنت مدركاً حقيقة أنَّ كثيراً من الأمريكيِّين -بل الغالبية دون شك- يأتون إلى إيطاليا، يزورنها، ثمَّ يغادرون؛ أو يأتون إلى إيطاليا، يعيشون فيها بضعة شهور أو حتى سنين، ويغادرون دون أن يربطوا أياً من مدنها الكبيرة بالكالتشيو.

لا يمكن أن يقضوا وقتاً طويلاً في البلد دون أن يعوا وجوده في حدِّ ذاته، ولكنَّ المسألة كانت بالنسبة إلى الكثيرين مجرَّد سمة أخرى من سمات إيطاليا العصيَّـة على التفسير التي تبدو في بعض الأحيان غريبة ولكنها مزعجة، كأوقات إغلاق الحوانيت، ووقاحة الموظفين العموميِّين، وانتشار تدخين السَّجائر، وكثرة حالات النَّشل، أو تلوُّث الجوِّ الذي لا يخضع لأي رقابة.

كان من الممكن، بالنسبة إليهم، تجاهل الكالتشيو على الأقل. يستطيع المرء أن ينأى بنفسه عن الاستادات التي تجرى فيها المباريات، وأن يقفز عن

صفحات الأقسام الرياضيَّة في الصحف (وألا يشتري، بالطَّبع، تلك الصحف المكرَّسة تماماً لهذه الرياضة)، وأن يبرِّر عدم مشاهدته التلفاز عصرَ أيام الآحاد، وأن يتقصَّد البقاء جاهلاً بأهداف اليانصيبيَيْن الوطنيَّيْن: الـ «تُوْتُوْكَالْتْشِيُوْ» والـ «تُوْتُوْغُوْلْ»، ويظلَّ طيلة إقامته على صلة بالأمريكيِّين الآخرين فحسب، أو بتلك القشرة الخارجيَّة التي تخنق النَّفْس للتسلسل الهرمي الاجتماعيِّ الإيطالي الذي يَعدُّ الكالتشيو مقصوراً على الهمج.

ولكنَّ الكالتشيو يتمتَّع بحضور ملموس في روما ونابولي وميلانو وفلورنسا؛ وهي المدن التي (بخلاف البندقيَّة) يُكثر السياح زيارتَها من مختلف بلدان العالم. كانت فرق هذه المدن تقليدياً من بين أقوى الفرق في العالم، ولو قُيِّض للمرء أن يقضي وقتاً طويلاً في أيها، فإنَّ جُهداً واعياً لا بُدَّ أن يُبذَل كي يتظاهر المرء بأنَّ هذه الفرق غير موجودة.

كنت مُدركاً حقيقة أنَّ كثيراً من الأمريكيين -ولاسيَّما النساء والأكاديمون- قد قاموا بمثل ذلك الجُهد، معتقدين أنَّهم سيخاطرون بحيواتهم بحضور إحدى المباريات، مقتنعين بأنَّهم حتى لو تمكَّنوا من النَّجاة، فسوف يدنِّسهم، بطريقة أو بأخرى، شغفُ الطبقات الاجتماعيَّة الدُّنيا، ثمَّ سيغدون إلى الأبد أقل جدارة بالتَّحديق، مُنتشين، في سقف كنيسة سيستينا أو ما شابهها.

كانت البندقيَّة، بالنسبة إليهم، ملاذاً آمنا بالفعل. فالمرء يستطيع قضاء أسابيعَ في البندقيَّة، ويغادر المدينة، دون أن يدرك تماماً أنَّها موطن فريق كرة قدم محترف، وهذه مسألة غير ممكنة على نحو ما في روما أو نابولي أو فلورنسا.

ولهذه المسألة في جزء منها بُعْدٌ تاريخيٌّ: لم يكن فريق البندقيَّة قوة قوميَّة على الإطلاق، فهو لم يلعب في دوري الدرجة الأولى سوى 15٪ من المباريات التي خاضها طيلة سنوات وجوده التِّسعين، ولا مباراة واحدة خلال الثلاثين سنة المنصرمة. ولقد سبق لصنوف المدن الغربية كافة، غير المعروفة تماماً لدى السيَّاح الأمريكيِّين -كترنانا وڤاريزي وأسكولي وكاتنزارو وپسكارا وأڤيلينو وكاتانيا- أن تمتَّعت بمجد دوري الدرجة الأولى لفترة وجيزة منذ هبوط البندقيَّة إلى دوري الدرجة الثانية.

ولكنَّ للمسألة في شقِّها الآخر بُعداً جغرافياً. فالمرء يستطيع قضاء سنة كاملة في البندقية دون العثور على دليل واحد يدلُّ على وجود استاد لعب فيه فريق كرة قدم، أو أين يمكن أن يكون، في حال وجوده، بين هذه البحيرات والقنوات التي لا تحصى. وإذا سأل المرء، ولقد علمت بأن أمراً كهذا سيحدث، فمن المرجَّح أن يُوجَّه، بكل تأكيد، إلى مدينة ميستري على اليابسة، وأن يُخبَرَ بأنَّه يستطيع العثور على استاد كرة القدم الاحترافيَّة هناك. (ولسوف يكون هناك من دون شك، ففريق ميستري يلعب في دوري الدرجة الثالثة منذ خمس وعشرين سنة).

وثمَّة، أخيراً، لهذه المسألة في شقِّها الثالث بعد ثقافيٌّ؛ وهو بالنسبة إليَّ أهم، بطريقة أو أخرى، من البُعدَيْن الآخرين: ليس الخيلاء العاديُّ الذي قد يجده المرء في روما أو فلورنسا، وإنَّما الإحساس الأشد رهافة ورُقياً أن ليس للبندقيَّة تاريخٌ فحسب وإنَّما هويَّة معاصرة فريدة ومنفصلة عن بقيَّة إيطاليا، وأنَّ الكالتشيو، ذلك النشاط الرياضيُّ الإيطالي المثالي، لا ينتمي إليها، وهذا صحيح إلى حدٍّ ما. وهكذا، فقد غضَّت البندقية الطَّرف

عن وجود الكالتشيو طالما لا يسبِّب لها إزعاجاً، وأبعدته إلى أقصى حدود الحياة فيها: وهذا ليس سراً بالنسبة إلى السياح فحسب، وإنما غير معروف أيضاً لدى غالبيَّـة مواطني البندقية أنفسهم.

ظللنا في ليدو، المنطقة الشاطئيَّـة التي تقدِّم الفنادق المقامة فيها أسعاراً أقل إلى حدٍّ بعيد من تلك التي في حدود المدينة، وحيث نستطيع الوصول إلى الاستاد بكل سهولة في اليوم التالي.

كان صباح الأحد معتماً وبارداً ورطباً، والرِّيح تهبُّ عاصفة من الشرق على نحو لا يرحِّب بقدوم أحد، وهو الطقس السَّائد في شهر سپتمبر بالبندقية. وكان الاستاد الذي سنعلب فيه فريداً من نوعه في عموم إيطاليا، فالوصول إليه لا يكون إلا بالقوارب.

وضعنا معدَّاتنا في المركب بعد الغداء مباشرة. سيعيدنا المركب ذاته من الاستاد إلى المطار مباشرة، حيث نستقلُّ الطائرة عائدين إلى روما، ثمَّ نركب الحافلة القديمة الموثوقة عائدين إلى كاستل دي سانغرو في رحلة بطيئة وشاقَّة في أواخر الليل. بعضنا، على الأقل. فلقد سعى أكثر من لاعب إلى الذهاب بقيادة سيَّارته من كاستل دي سانغرو إلى فيوميتشينو كي تكون لديه وسيلة نقل مستقلِّة سواء للذهاب إلى روما أو أي وجهة أخرى يختارها في أواخر ليلة الأحد.

ولقد كانت السيارات، على أي حال، آخر شيء يخطر في بالنا حين احتشدنا على متن الحافلة المائيَّـة water taxi التي استأجرناها لعبور القناة المضطربة. بدا بعض اللاعبين غير مرتاحين بصورة لافتة للنظر حين كانت الحافلة تدور وتنحرف خلال الرحلة التي استغرقت عشرين دقيقة. غمغم

دي ڤنتشنسو، الذي بدا شاحباً كأنَّه مصاب بالغثيان، على وجه الخصوص: «تخيَّلوا ألا أقدر على اللعب بسبب دوار البحر»!

قصَّ علينا ياكوني، الذي كان بحَّاراً قديماً old salt، حكاية كيف أنَّه لعب ذات مرَّة في هذا الاستاد وفاز 2-صفر، وكيف أنَّ فريقه قد أُجبر على المراوغة في البحيرة لتجنُّب عديد القوارب الصغيرة المملوءة بمشجِّعي البندقية السَّاخطين الذين كانوا عازمين على دكِّ مركب الفريق.

فسألتُ ياكوني إن كانت تكتيكاته لمباراة اليوم قد اشتملت على طريق هروب بحرية. فقال ضاحكاً إنَّه مستعدٌّ لإدارة الدفَّة بنفسه إن لزم الأمر، ثم نستطيع، عندما تزداد الأمور سوءاً، طرح الحاجيَّات غير الضرورية في البحر، والتخلُّص من شخص قد يبدو أسير حرب قيِّم. وكان لوقا ألبيري اقتراحه الأوَّل، ولكنَّ ألبيري قال بذعر حقيقيٍّ إنَّه لا يستطيع السِّباحة. فقال ياكوني: هذا أفضل، فالمركب المُطارِد سيتوقَّف بحثاً عن الجثَّة؛ إنَّه قانون البحر.

لقد كان هذا جوهر دوري الدرجة الثانية المكنون: الصداقة المتينة، والمزاح، وسرعة الخاطر. ومثلما قالي لي دانجلو ذات مرَّة: «لا توجد لحظة ملل واحدة في دوري الدرجة الثانية سوى في التِّسعين دقيقة التي تستغرقها المباراة»!

وقد يصيب دوار الثَّامن من ديسمبر بعضَهم، فيشعرون أنَّهم خارج المكان، آخذين في الحسبان أنَّ كاستل دي سانغرو والبندقية يحتلَّان المرتبة قبل الأخيرة. ولكنَّ الذهاب إلى مباراة كرة قدم بواسطة مركب بخاري يضفي هالة من اللاواقعيَّـة على الأحداث. فانطلقت بالطبع النِّكات التي لا بُدَّ منها عن مدى التشابه اللصيق بين البحيرة التي كنا نعبرها والملعب

الذي سوف نخوض فيه مباراة الأسبوع القادم ضدَّ لوكيزي، ما لم نُجبر، كما يبدو، على العودة إلى تشيتي عوضاً عن ذلك.

علاوة على أنَّ شعوراً حقيقياً كان يعتمل في قلوب الكثيرين منا وفي عقولهم -على الرغم من أنَّني لم أسمع شيئاً من ياكوني يؤشِّر إلى إدراكه الشخصيِّ لذلك- بأنَّ كاستل دي سانغرو سوف يفوز، في هذا اليوم، وهذا المكان، وفي مباراة الذَّهاب هذه. ولسوف نعود إلى الدِّيار، بصرف النظر عن السَّاعات التي مرَّت بعد انتصاف الليل، بثلاث نقاط مستحقَّة (وفي غاية الأهميَّـة) ستمكِّننا أخيراً من النُّهوضَ من أعماق اليأس الذي دفعتنا إليه الأسابيعُ القليلة الماضية.

فالبندقية فرقة بائسة، يرثى لها. لم تفز إلا في ثلاث مباريات من الستِّ التي خاضتها على أرضها، ولم تسجِّل فيها سوى سبعة أهداف، وبدا اللاعبون طوال الموسم مجموعةً فاترة الهمَّة على نحو غير عاديٍّ، إن كان للمرء أن يحكم من التغطيات التفلزيونيَّـة والأخبار الصحافيَّـة على الأقل. كانوا قد تعاقدوا مع مدرِّبهم الثاني، ولكنَّه لم يحقِّق نتائج أفضل من الأوَّل.

وكان النَّهار في حدِّ ذاته ينذر بهزيمة البندقية: غيوم داكنة تندفع واطئةً عبر المياه المضطربة، وموقف صادر عن جميع أولئك الذين صادفناهم عند وصولنا - من الموجودين في غرفة تبديل الثياب إلى لاعبي البندقية أنفسهم- بأنَّ غايتهم الأساسيَّـة تتمثل بكل بساطة في الانتهاء من المباراة كي يتمكنوا من العودة إلى مناطق المدينة الأبهج؛ فإما تدفئة أنفسهم قرب مواقدهم، وإما متابعة الكثير من الأمور العالقة التي مازالت أمامهم قبل عطلة أعياد الميلاد المجيد.

لم نكن في كامل قوَّتنا، بسبب حرمان ألتامورا ومارتينو، ولأنَّني قد غدوت عضواً مُحلَّفاً في رابطة «لا يستطيع مارتينو اللعب خارج الدِّيار»،

فإنَّ غيابه لم يزعجني. ناهيك عن أنَّ الأربعة الذي يلعبون في الخلف، فوسكو ودانجلو وتِشيي وبرييته، بدوا مناسبين، حتى ودي يوليس في حراسة المرمى.

ولكنَّ ياكوني تراجع، لسوء الحظِّ، في اللحظة الأخيرة، فعاد مجدَّداً إلى [تشكيلة] «أسلاف الفرسان الثلاثة»، بعد أن أبقى كريستيانو وألبيري ودي ڤنتشنسو على دكَّة الاحتياط -يمكن لأي واحد منهم أن يُنهي المباراة بنفسه- واضعاً بطيئي الحركة ميكليني وألبيرتي ودي فابيو معاً في خطِّ الوسط، بالإضافة إلى بونومي؛ لاعبه المدلَّل. وعلى الرَّغم من أنَّه على الأقل قد وضع بستلَّا وغالي معاً في المقدِّمة عوضاً عن ترك جياكومو المسكين يهيم وحيداً في القناة، فإنَّ هذه التشكيلة مازالت تشير إلى رغبة ياكوني القويَّة في التَّعادل بلا أهداف، وأنَّه كان يضحِّي بفرصة الحصول على النِّقاط الثَّلاث المصيرية.

هكذا، كما حدث في كثير من الأحيان بالماضي القريب، جلستُ في مقعدي وقد تعرَّقت للتوِّ وخاب رجائي، على الرَّغم من المشهد الرائع للقوارب الشراعيَّة التي تلوح واضحة خلف المدرجات البعيدة، وصواريها تهتزُّ في الرياح الشتائيَّة الباردة والرَّطبة. كان ثمَّة تسعة عشر خصماً في دوري الدرجة الثانية، ولكن لا أحد قد أغرانا بالفوز خارج أرضنا مثل فريق البندقية الذي لعب في استاد محاط بناقلات النِّفط، بقي فيه 12000 مقعد، من أصل 15000، فارغة بلا جماهير.

لم تبقَ المباراة، طيلة التِّسعين دقيقة، دون أهداف فحسب، وإنَّما بلا تسديدات أيضاً. كان اللعب، في الحقيقة، مثيراً للشَّفقة من كلا الطرفَيْن،

إلى درجة أنَّ دي يوليس وحارس مرمى البندقية لم يحصلا بعد انتهاء المباراة على أي تقييم يُسجل في تقرير أدائهما، لأنَّ إيقاع المباراة لم يفرض على أي منهما القيام بأي شيء.

وفي النهاية، رفع الحكم المساعد لافتة تقول إنَّ وقت اللعب الإضافيَّ أربع دقائق. لم يعرف أحد لماذا، ولم يَبْدُ أنَّ أحداً -بما في ذلك اللاعبون- متحمِّس لتحمُّل حتى دقيقة واحدة أخرى من هذه المباراة التي يمكنني القول إنَّها أسوأ مباراة كرة قدم شاهدتها في حياتي قطُّ.

شعرتُ، ولم يبقَ سوى دقيقتَيْن، كأنَّني قد قضيت عصرَ يوم في مدينة بيرث أمبوي، في نيوجيرزي، فنهضتُ وسرت إلى غرفة الثِّياب، في محاولة لإعادة الدورة الدمويَّـة إلى قدميَّ.

رُكلت الكرة ذهاباً وإياباً، ومن هذا الطَّرف إلى ذاك، واللاعبون في كلا الجانبَيْن ينظرون إلى الحكم مرتقبين، في انتظار الصَّافرة. كانت العتمة قد حلَّت في تلك اللحظة، فبات من المستحيل على نحو ما رؤية الملعب، ولم يَبْدُ نادي البندقية راغباً في إهدار المال على مباراة في مثل بؤس هذه المباراة، بإشعال أي من الأضواء.

كنت قد وصلتُ إلى الطابق الأرضيِّ، ناظراً في ساعة يدي، متسائلاً كم الوقت الذي يمكن أن تستغرقه أربع دقائق، حين حاول غالي توجيه تسديدة عقيمة، ارتطمت بساق مدافع البندقية الذي ركل الكرة عالياً في الهواء إلى الطرف الآخر من الملعب.

لا بُدَّ أن الحكم سوف يطلق صافرته في هذه اللحظة. ولكنَّه لم يفعل. ارتطمت الكرة، وهي محلِّقة، برأس مدافع آخر من البندقية، فانطلق صوب مرمانا حتى قبل أن تنتهي المباراة، إما لتدفئة قدميه وإما لأنَّ المرمى كان في الجهة التي توجد فيها غرفة تبديل الثياب.

جفل من الكرة، فجرى صوبها، وفي حين وقف مدافعونا بلا حراك، متفرِّجين، مدَّ رجله جاهداً كي يسيطر عليها. تطلَّب الأمر ارتدادة مراوغة على أرض غير مستوية، ولكنها ارتطمت على الرغم من ذلك بمقدمة ساقه، أسفل الرُّكبة تماماً، ثم اندفعت بزاوية منحرفة مباشرة إلى داخل الشِّباك. أطلق الحكم في هذه اللحظة صافرته، معلناً انتهاء المباراة. البندقية 1، كاستل دي سانغرو صفر، على الرَّغم من أنَّ دي يوليس يبدو بأنَّه لم يدرك بعد وجود الكرة في المنطقة الخلفيَّة من المرمى الذي يحرسه.

سرت إلى رصيف الميناء، بدلاً من الذهاب إلى غرفة تبديل الثِّياب، ووقفت هناك في عزلة حين خيَّم الغسق البارد والرَّطب. كانت ثمَّة خسارات. وكانت ثمَّة خسارات تُعزَى إلى الحكم. وكان ثمَّة مزيد من الخسارات تُعزى إلى تكتيكات ياكوني البائسة واختياراته لتشكيلة الفريق والأداء الرديء لأولئك اللاعبين الذين اختارهم، بَيْدَ ألا وجود لخسارةٍ غير مبرَّرة، وغبيَّة إلى حدٍّ يقطع الأنفاس، وغير ضروريَّة، أكثر من هذه الخسارة.

كان قاربنا في نهاية رصيف الميناء، منتظراً كي يقلَّنا إلى المطار، وأي مخاوف من احتماليَّة لجوء المركب إلى المراوغة في رحلة العودة هذه، تُعَدُّ مخاوف قد عفا عليها الزَّمن، على شاكلة الموسم كله، الذي بدا كأنَّ الزمن قد عفا عليه فجأة. وعلى شاكلة الحياة ذاتها التي بدت غير جديرة بالعيش إلا بشقِّ الأنفس، لو كانت هذه هي الظروف.

كان دي ڤنتشنسو -الذي لم يلعب، فلم يتوجب عليه الاستحمام- أوَّلَ الخارجين من غرفة تبديل الثِّياب. شاهدني واقفاً عند طرف رصيف الميناء، فسار نحوي، ألقى حقيبة أغراضه الرياضيَّة على ظهر القارب، وجذب ذراعيَّ بكلتا يديه.

ثم قال: «ساعدني، يا جُو! لا نستطيع الاستمرار على هذا الشَّكل بعد اليوم». بدا مقهوراً تماماً وكئيباً، وأستطيع معرفة السَّبب: فنادراً ما لا تتحطَّم معنويَّات اللاعب الذي يضطر إلى الجلوس عاجزاً في دكَّة الاحتياط، طيلة مباراة بمثل السُّوء الذي لُعبَتْ فيه هذه المباراة، ويكون شاهداً على مثل هذه النهاية المأسويَّـة الهزليَّـة فحسب.

لم أدر ماذا أقول، فلجأتُ إلى تشجيعه بطريقتي المعهودة الغامضة التي تكاد تفتقر إلى المصداقيَّـة.

«لايزال ثمَّة أمل أنْ تتغيَّر الأمور».

فتبسَّم دي ڤنتشنسو ابتسامةً مرَّة، ثمَّ عانقني سريعاً، وقال: «آه، يا جُو، نعم، وقد تطير الخنازير»[146].

ثم تراجع إلى زاوية الرَّصيف، حين بدأ الآخرون بالخروج من غرفة تبديل الثياب، ليتمكن من إرسال تقريره الشخصيِّ، بالهاتف الخلويِّ، إلى خطيبته الجميلة التي تعيش في فلورنسا.

وصل دي يوليس إلى رصيف الميناء، يدخِّن ويتحدَّث بهاتفه الخلويِّ، كأنَّه ينصح سمساره في البورصة أن يبيع كاستل دي سانغرو على المكشوف في الصَّباح. ولقد شاهدت ما يكفي من صفاته لأعرف بأنَّه لم يكن على نحو وثيق حارسَ المرمى الذي كانه لوتِّي، ولن يكون أبداً، بيد أنَّ من المُحال ألا أشعر بالأسى على لاعب طيِّب القلب، تنافسيٍّ، يحظى بشعبيَّـة جارفة بين زملائه، لم يدخل مرماه سوى هدفين خلال 211 دقيقة من اللعب [منذ بداية الموسم] -ولا يمكن أن يُلام عليهما- ولم تسفر الجهود التي بذلها سوى عن خسارة مباراتَيْن وإلغاء واحدة؛ إذ أخفق الرجال العشرة الذين يلعبون أمامه في تسجيل هدف واحد.

ولم يسجِّل الفريق، في الواقع، منذ أن تغلَّب دي ڤنتشنسو على الأسطورة والتر زينغا بمباراة پادوڤا في 27 أكتوبر. لقد لعبنا نحو 400 دقيقة -أكثر من ستِّ ساعات ونصف!- بما في ذلك مباراة جنوا الملغاة، ولم نسجِّل هدفاً قَط.

ويبدو أنَّ دانيلو دي ڤنتشنسو، الرجل الذي سجَّل أوَّل أهدافنا في الموسم، وأحدث أهدافنا أيضاً -على الرَّغم من أنَّ ذلك كان منذ ستَّة أسابيع- قد أضحى في هذه الأثناء يجلس بصورة دائمة في مقاعد الاحتياط، لأسباب لا يعرفها إلا ياكوني الذي اختار تشكيلة تصلح للعبة «دفع الأقراص shuffleboard» لا لخوض مباراة كرة قدم.

كانت هذه المسألة، بالنسبة إلـيَّ، قانوناً جديداً. ومن الواضح أنَّني لم أكُن الوحيد، فأكثر من نصف أعضاء الفرقة قد انسحبوا بمطار فيوميتشينو، سواء أكانت لديهم وجهات محدَّدة أم لا. لم يستطيعوا تحمُّل المرحلة الطويلة الأخيرة من رحلة العودة إلى كاستل دي سانغرو الصغيرة، المتجمِّدة من البرد، التي لم يفعلوا شيئاً من أجلها في ذلك اليوم، في حين لم يقدِّم النادي، طيلة الموسم، أي شيء من أجلهم هم.

وحين حصلنا على أمتعتنا في روما، صادفت دي ڤنتشنسو ثانيةً؛ فهو من أولئك الذين فضَّلوا عدم الصعود إلى الحافلة. سيركب إلى فلورنسا مع بيوندي الذي كانت عائلته تعيش هنا، من أجل أن يرى خطيبته.

وجدت نفسي أقول مرَّة أخرى ما معناه إنَّ هذا الحضيض لن يفضي في النهاية إلا إلى حالة أفضل.

فقال، وهو يحاول الابتسام: «لا أحد يدري»، ثم قال تصبح على خير، وأنَّه سوف يراني يوم الثلاثاء.

23
الحادث المأساوي

هطل المطر صباح الثلاثاء، وحين دلف دَاڤِدِه تِشيي إلى مطعم مارتشيلَّا قبيل الظهيرة، ليجدني وقد احتشدت مبكِّراً رفقةَ ستَّة لاعبين من أجل وجبة الغداء، ظننتُ للوهلة الأولى أنَّ المطر كان يسيل على وجنتيه.

ثم أدركتُ أنَّها الدموع.

توقف في وسط الغرفة، ثم أشار بذراعه إلى التلفاز، الذي كان دائراً بأعلى صوت كما هي العادة دوماً. التقط فوسكو جهاز التحكُّم عن بُعْد وأطفأ التلفاز. عمَّ الصمت الغرفة، إلا من نشيج تِشيي الذي لم يُسمَع شيء سواه.

قال بضع كلمات بسرعة كبيرة. لم أستطع فهمها، ولكنَّ الجميع فهموا. بدا الأمر، بالرغم من غياب الدَّم، كأنَّ رصاصاً قد أُطلق على كل لاعب وُجد في الغرفة. علت وجوههم على الفور ملامح متباينة من الصدمة والألم والحزن، وظلُّوا مُسمَّرين في أماكنهم، كأن على رؤوسهم الطَّير، في حين لايزال تِشيي، قائدهم، واقفاً ينشج وحيداً.

أخبرته، وقد تملَّكني هلع شديد، أنَّني لم أفهم ما قاله.

فأومأ برأسه، ثمَّ أعاد كلامه على مهل، بلباقة متناهية.

لقد مات دي ڤنتشنسو وبيوندي.

لقيا مصرعهما في حادثة سيارة قبل ساعة فحسب، على الطريق السريع جنوبيَّ فلورنسا، في طريق عودتهما، مسرعَيْن إلى كاستل دي سانغرو بسيارة

بيوندي الـ «فولكسفاجن غولف»، كي لا يتأخرا على التَّدريب.

كان دي ڤنتشنسو يقود السيارة. توقَّف بيوندي عند منزل خطيبة دي فنتشنسو ليصحبه، فقال له دانيلو، ضاحكاً: «لقد تأخَّر الوقت، ولا بُدَّ أن نسرع، فدعني أقود، فأنا أكثر خبرة بقيادة السيارات بسرعة فائقة».

ولقد كانا يقودان بسرعة فائقة، عبر المطر، ثم فقد دي ڤنتشنسو السيطرة على السيارة عند أحد المنعطفات، فانزلقت على الرصيف المبلَّل، وارتدت بعد أن ارتطمت بحاجز حماية في المنتصف، ودوَّمت عبر ثلاثة مسارب، مستقرَّةً في منطقة استراحة ضحلة على قارعة الطريق، حيث رُكِنَتْ مقطورة جرَّارة. مات اللاعبان على الفور حين ارتطمت السيارة الصغيرة بفولاذ المقطورة الصلب فتحطَّمت. لم يقل تِشيي كل هذا بالطَّبع. ظهرت التفاصيل لاحقاً.

لم أستطع، لسبب ما، حتى أن أتذكَّر أي اللاعبين كان في المطعم. أذكر فوسكو بكل وضوح، ربما لأن وجهه قد أخذ، في مثل تلك الفاجعة، ملامحَ جندي مشاة بجيش قيصر، مجروح في حرب قديمة. وأذكر مارتشيلَّا، بالطَّبع، وكتفيها المُهتزَّين وهي تنتحب وتنتحب وتنتحب. وتِشيي الذي قام بهذه المهمة المُضنية، التي تُعَدُّ الأثقلَ من بين مهامِّه كقائد للفريق، بكرامةٍ لا تُنسى.

وأكادُ أجزم أنَّ كريستيانو كان هناك، وريميديو. ويبدو أنَّني أتذكَّر لوقا دانجلو. ودائماً ما كان تونينو مارتينو من بين الذين يصلون مبكِّراً إلى مأدبة الغداء. ولكنَّ الوجوه تخبو، ولا أذكر إلا هيئات الأجساد التي تتلوَّى ألماً والصمت الطويل الرّهيبَ الذي سبق أوَّل اللعنات والأسئلة والتأوُّهات.

انساق اللاعبون، بعضهم وراء بعض، خارجين من المطعم، ليختلوا

بأنفسهم، ولو كان كريستيانو هنا، لخرج هو وريميديو معاً. لم تغادر مارتشيلَّا، بالطَّبع، ولكنَّ صوت بكائها كان أعلى من صوت هطول المطر. تحرَّقتُ للخروج، ولكنني لم أرغب في تركها وحيدة. ثم، في لحظة ما، وصل كريستيان أو جيوڤاني، أو ربما كلاهما معاً. أتذكَّرُ قولَ أحدهما أنَّه قد جاء ليصحبها إلى البيت.

ثمَّ غادرْتُ. استلقيت طيلة عصر ذلك اليوم في السرير بشقَّتي، مُنصتاً إلى المطر ينهمر على نحو لا تفاوت فيه، ثمَّ إلى صياح أوزَّة كان يتعالى كل لحظة مديدة من النُهير الصغير في الأسفل.

وحين راحت العتمة تُرخي سدولها، تذكَّرت فجأةً يوم الجمعة ومهمَّتي القصيرة التي أدَّيت فيها دور الحكم. فاكتسح الحزن قلبي، في تلك اللحظة التي غامت فيها الذَّاكرة، بضراوة، على أشد ما يكون. لقد حكَّمتُ آخر مباراة لعب فيها پيُّو ودانيلو أبداً، وعندما تذكَّرت تلك اللحظة دمعت عيناي.

أُقيمت مراسم الجنازة، جرياً على العادة الإيطالية، في اليوم التالي. حمل اللاعبون، الذين كانوا يرتدون بذلات وربطات عنق ونظَّارات شمسيَّـة، النَّعشَيْن طيلة الكيلومترات الثلاثة من الاستاد إلى الكنيسة في منتصف السَّاحة. كان عصر ذلك اليوم -وكيف يمكن ألا يكون؟- معتماً وعاصفاً وشديد البرودة.

اصطف جميع الموجودين في البلدة على جانبي الرصيف أو وقفوا في الشرفات أو احتشدو في السَّاحة خارج الكنيسة. وحين عبر النَّعشان موضعاً محدَّداً، صفَّق الذين كانوا واقفين هناك، بأناةٍ، يغشاهم الوقار.

وحين تحرَّك اللاعبون، حاملين النَّعشَيْن على أكتافهم، صوب الزاوية التالية، عمَّ الصَّمت مرة أخرى، ثمَّ حلَّ محلَّه التَّصفيق المتقطِّع ذاته بعد مسافةٍ أبعد. وهكذا، تقدَّم الموكب على مهَلٍ إلى أعتاب الكنيسة، ثمَّ صعوداً إلى الممرِّ الجانبيِّ.

وبعد انتهاء قدَّاس الجنازة، أعيدت المراسم بشكل عكسيٍّ. لم يُسمَع أي صوتٍ خارج الكنيسة -بخلاف النَّشيج المكتوم، والنَّحيب الرهيب لخطيبة دي ڤنتشنسو وهي جاثية على ركبتيها منهارةً- سوى التَّصفيق الأشد حزناً والأكثر وقاراً الذي قد يتلقَّاه أي نجمٍ من نجوم الإبداع حياً أو ميتاً.

دُفن الجثمانان في الصَّباح التالي: پيُّو في فلورنسا ودانيلو في روما. استُؤنفَ التدريب عصر ذلك اليوم. خطَّ ياكوني رسالة -بالإنكليزيَّـة، لسببٍ ما- على سبُّورة غرفة تبديل الثِّياب.

لا بُدَّ أن
يستمرَّ العرض

لم أصححه. فلقد لعبنا مباراة ضدَّ لوكيزي، انتهت بالتَّعادل، صفر- صفر، وخسرنا، 1- صفر، في تورينو. ثم حان وقت أعياد الميلاد المجيدة، فعدتُ إلى الدِّيار.

II

24
دوري الأبد

توتَّرتُ في اللحظة الأولى التي وَطَأَتْ فيها قدماي أمريكا. فلقد هبط فريق كاستل دي سانغرو إلى المرتبة الأخيرة؛ خضنا ستَّ مباريات متتالية من دون تسجيل أهداف، ولم نتمكَّن من تسجيل سوى خمسة أهداف طيلة الموسم (في حين سجل فريق ليتشه، على النَّقيض من ذلك، ستَّة وعشرين)، وثمَّة هدفان من تلك الأهداف سجلها لاعب غدا ميتاً الآن. لم أسمع، حين ذهبتُ لأقصَّ شعري، سوى عبارة: «ماذا بشأن أولئك الوطنيِّين»!

كان الأمر وكأنَّني في نارنيا[147]، فالمغامرات التي خضتها هناك، في العالم «الحقيقي»، والحياة التي عشتها والأزمات التي قد أواجهها عند عودتي إلى أمريكا لا يمكن تفسيرها ببساطة. ولكنَّني شعرت، على الرغم من ذلك، أنَّ حياتي الحقيقية ستكون في الطرف القصيِّ من الباب.

لم تكن المسألة كأنَّني توقَّفت عن حُبِّ عائلتي؛ فلقد اشتقت إلى زوجتي وولديَّ، حين كنت في إيطاليا، اشتياقاً عارماً جعلني أشعر في بعض الأحيان بالإحباط والعجز، علاوة على أنَّني حظيت بحفيدي الأوَّل في هذه الأثناء. ولكنَّني بتُّ أفقد، شيئاً فشيئاً، تلك القواسم المشتركة التي كانت تجمع بيني وبين أولئك الذين كانوا أصدقائي الحميمين في السَّابق، وبتُّ غير مكترث بالحياة العموميَّـة في أمريكا إلى حدٍّ بعيد.

كان قلبي وعقلي مع فريقي. يكتب الروائيُّ الأوروغوانيُّ إدواردو غاليانو عن «كآبة الأنا التي كانت نحن»، حين تفرض نهايةُ المباراة على

المُشجِّع الانفصال [عن عالم كرة القدم] و«العودة إلى عزلته». بيد أنَّني لم أشعر، في كاستل دي سانغرو، بمثل ذلك الانفصال. لقد غدوتُ والفريق ذاتاً واحدةً طيلة الأسبوع، وغدا ذلك الاتِّحاد -مهما بدا الأمر سخيفاً ومثيراً للشَّفقة- ما يمنح الشَّغفَ والمعنى لحياتي.

قولوا إنَّني غير مسؤول. قولوا إنَّني غِرٌّ، وطائش، وأنانيّ، وأرعن، وعُصابيٌّ ربما. لا دفاعَ لديَّ. فليس لديَّ ما أقدِّمه. إنَّ عكسَ اتِّجاه المدِّ والجزر أخفُّ علـيَّ من محاولة السيطرة على هوسي بكرة القدم.

ويشير غاليانو، في وصف آخر لمتعصِّب الكالتشيو، إلى أنَّه «بقايا حطام السَّفينة التي ظنَّها ذات يوم عقلَه». بقيت الكلمات غير منطوقة، في معظم الحالات، ولكن بدا واضحاً أنَّ هذا الأمر هو كل ما شاهده أولئك الذين عرفوني حقَّ المعرفة حين نظروا في اتِّجاهي. كم يبدو ضئيلاً المعنى الذي وجدوه في ثراء الحياة التي عشتها غريباً في أرض غريبة.

ولكنَّ حضوري كان مطلوباً في أمريكا حتى منتصف شهر يناير، وهو الوقت الذي حدثت في غضونه «معجزة كاستل دي سانغرو» للمرَّة الثانية.

ففي 5 يناير هزمنا ليتشه؛ صاحب المركز الأوَّل: 2-1. سجَّل الهدفان غالي وبونومي.

وفي 12 يناير، هزمنا ساليميتانا بهدف من ضربة جزاء نفَّذها بونومي.

وفي 15 يناير، في المباراة التعويضيَّـة لتلك التي أُلغيت، هزمنا جنوا: 1-صفر، وسجَّل الهدف ألتامورا.

ألتامورا! حين سمعت ذلك، هُرعتُ عائداً بأسرع ما أستطيع.

حصلت الفرقة على تسع نقاط، جراء ثلاث مباريات خاضتها في غضون أحد عشر يوماً، بعد أن لم تُجمِّع قبل ذلك سوى إحدى عشرة نقطة في 111 يوماً. ومما لا شك فيه أنَّ الانتصارات الثلاثة قد حُقِّقت على أرضنا (خِيضَت المباريات على الملعب الجديد، الذي كان مفيداً على نحو مثالي طالما بقيت درجة الحرارة تحت درجة التجمُّد)، ولكنَّ النَّشاط المفاجئ قد رفعنا من المرتبة الأخيرة إلى المركز الثاني عشر، على قدم المساواة مع فريق فوجيا. وإذا كان ألتامورا يستطيع التسديد، فإنَّ إمكاناتنا لا حدَّ لها.

وصلت إلى روما يوم السَّبت، 18 يناير. استقبلني كريستيان في المطار، فكان سؤالي الأوَّل: «كيف»؟ كيف يمكن لهذه الفرقة اليائسة، التي يعتصرها الحزن، أن تحوِّل نفسها، دون لوتِّي وبمهارات لاعبيها المتوسِّطة، إلى فريق قادر على هزيمة ليتشه وساليميتانا وجنوا، في غضون أسبوعين؟

«پيُّو ودانيلو، يا جُو. إنَّهما السَّبب».

«ماذا تقصد»؟

«روحهما. لقد رفعت معنويَّاتنا جميعاً». يقول اللاعبون: «لدينا الآن ذكرى پيو ودانيلو، ولا بُدَّ أن نكرِّس جميع ما في قلوبنا من أجلها، أليس كذلك؟ لا يمكن أن نجلب لاسميهما العار».

«تقصد أنَّهم قد استلهموا ذكراهما؟»

«الإلهام، نعم. أتَذْكر حين كتب جوزبِّه: «لدينا الآن اللاعب الثاني عشر، فلقد عاد جُو»؟ حسناً، أتمنَّى ألا تشعر بالإهانة، ولكنَّ موت پيُّو ودانيلو هو الحقيقة، وليس هراء جوزبِّه فقط. ولدينا الآن ليس اللاعب الثاني عشر بل الثَّالث عشر- پيّو ودانيلو. فكل مباراة مكرَّسة لهما، ولهذا فإنَّنا نفوز، لأنَّهما يلهمانا من الفردوس».

انتظرتُ طرفة عين كريستيانو، وابتسامته العارفة المتهكِّمة، فهذا الشابُّ لم يكن ساذجاً، سريع التَّصديق. ولكن لا شيء من هذا القبيل كان على وشك الحدوث. قال بجدية: «نحن مثل لعازر i lazzarati يا جُو. فموت پيُّو ودانيلو بعثنا من الموت. هل تظنُّني أمزح؟ انتظر، يا جُو. سوف ترى غداً، في پسكارا».

ولأنَّني رحت أفكِّر في پسكارا أنَّها في المقام الأوَّل موطن النادي الذي أقام فيه السيِّد ريتسا مأدبة الغداء، والمكان الذي يصل إليه المرء إذا استمرَّ في الذهاب أبعد من الملعب الذي خضنا فيه مباريات «الذَّهاب» في تشيتي، فإنني لم أُعر فرقتها القدر الكافي من الاهتمام. ولكنها كانت فرقة قويَّـة على أي حال، تحتلُّ المركز الخامس في دوري الدرجة الثانية، وتفتخر بحارس مرمى مراهق يدعى مورغان دي سانكتس، وقد كان حارس المرمى الأوَّل في المنتخب القوميِّ الإيطالي تحت سنِّ 21.

علاوةً على أنَّ پسكارا تقع في إقليم أبروتسو، وهذا يعني أنَّ مباراتنا ضدَّهم سوف تكون مباراة «ديربي»، وهو الاسم الذي يطلق على أي مباراة تُقام بين فريقَيْن ينتميان إلى المدينة ذاتها، أو إلى المقاطعة ذاتها، إن تعذَّر ذلك، أو إلى الإقليم ذاته، إن تعذَّر ذلك.

وثمَّة مباريات «ديربي»، بعينها، ذات طبيعة شديدة الاحتدام، لعدَّة أسباب تاريخيَّـة وسياسيَّـة واجتماعيَّـة-اقتصاديَّـة. فلقد حشدت تلك المباراة التي جرت بين لاتسيو و إيه. إس. روما، على سبيل المثال، فريقَ الضواحي والطبقة المتوسطة العليا ضدَّ أولئك الذين يعدُّون أنفسهم الطبقة العاملة الحقَّة، ومن ثمَّ يمثِّلون العاصمة الإيطالية قلباً وقالباً. أما في

ميلانو، فقد تحوَّلت المباراة إلى أقيمت بين إنترناسيونالي وإيه. سي. ميلان، إلى معركة -كي نبالغ في التَّبسيط، ولكن ليس بصورة فظيعة- بين اليسار السياسي واليمينيِّين في البلاد.

وحدث في تورينو هياج شديد، حين لعب فريق تورينو، الذي يمثِّل الجماهير المضطهدة الذين استعبدتهم خطوط تجميع السيارات بشركة فيات المملوكة لعائلة أنيلِّي صاحبة البلايين، ضدَّ فريق يوڤنتوس الغنيِّ والقويِّ والمُدلَّل، حيث كان أنيلِّي العجوز يحصل للفريق على أي لاعب يرغب هو في شرائه بمجرَّد رفع أحد حاجبيه.

وكان، في جنوا، أولئك الذين مازالوا يتخيَّلون أنَّ المياه المالحة لأسلافهم البحَّارة تسري في عروقهم، وعمال الميناء الذين ذاقوا ملح عرق كدِّهم اليوميِّ، هم الذين آزروا فريق جنوا -أقدم فرق الكالتشيو، الذي تأسَّس في العام 1893 على يد البحَّارة البريطانيِّين الذين جلبوا اللعبة إلى إيطاليا- ضدَّ فريق سامپدوريا؛ حديث التأسيس، الذي كان بمثابة ملاذ لُمحدَثي النِّعمة، حتى إنَّ اسمه لم يكن اسماً حقيقياً، بل ناجمٌ عن دمج نادِيَيْن آخريْن في أربعينيات القرن العشرين (سامپيردارينيزي وأندريا دوريا).

ولقد همد أُوار الشَّغف تجاه «الدِّيربيَّيْن» الآخِرَيْن بسبب الهبوط غير المتوقَّع لتورينو وجنوا إلى دوري الدرجة الثانية على حدٍّ سواء، ولكنَّ جذورهما بقيت قويَّة مثلما كانت دائماً، ولم يشك أحدٌ قَط في أنَّ جذور هذَيْن «الدِّيربيَّيْن» كانت على وشك الإزهار من جديد.

وحين يخرج المرء من المدن إلى عالم مباريات الدِّيربي بين الفرق المناطقيَّة والإقليميَّة، فمن الطبيعي أن يجد المرء تعطُّشاً أقل إلى سفك الدماء (على الرغم

من أنَّه قد قِيل لي دائماً: لو فرض على فريق نابولي أن يجد نفسه في القسم ذاته مع فريق ساليميتانا، الذي ينتمي إلى مدينة ساليرنو الصغيرة المجاورة، فإنَّ عدد الموتى سيفوق عدد الأحياء في الاستاد بحلول نهاية المباراة).

أما مباراة الدِّيربي التي تخصُّنا فقد بدت متناسبةً مع هذه الفئة من الناحية الفنيَّـة فحسب. سنكون أوَّل فريق من إقليم أبروتسو يشارك في دوري الدرجة الثَّانية، ولهذا فإنَّ الأجواء كانت احتفاليَّـة أكثر من كونها حرباً أهليَّـة. كانت الحقيقة بكل بساطة ماثلة في عدم وجود أواصر دم وقرابة بين پسكارا (المنتجع الشاطئي وميناء صيد الأسماك الذي يبلغ تعداد سكَّانه 125000 نسمة) وكاستل دي سانغرو (القرية الصغيرة حيث مربو الخنازير ومتعقّبو الكمأة والتُّجار الصِّغار، المقذوفة عالياً في الجبال، على بُعد أكثر من 100 كيلومتر) يمكن أن تؤدي إلى نشوء آصرة من الكراهية بينهما.

وهكذا، خيَّمت أجواء احتفاليَّـة في ذلك الأحد المشمس والدافئ الذي أقيمت فيه المباراة، على نحو غير معتاد في مثل هذه الأيام من السَّنة. وتعزَّز إحساس الزمالة الطيِّبة حين أعلنت رابطة «نساء الأبيض والأزرق Le Donne Biancazsurre»، وهي رابطة مشجِّعات فريق پسكارا (إذ فسَّرت الاسمَ قمصانُ لاعبي الفريق البيضاء والزَّرقاء) عن تنظيم قدَّاس على شرف پپُّو ودانيلو، يُعقد قبل ساعتين من المباراة. لن تتمكَّن عائلة دي فنتشنسو من الحضور لأحزان حدادها العميقة، ولكنَّ والدة بيوندي وشقيقته سوف تكونان هناك.

زارت زوجتي نانسي كاستل دي سانغرو في شهر أكتوبر. ولكونها مصوِّرة فوتوغرافيَّـة محترفة، فقد التقطت صوراً كثيرةً، من ضمنها صورة

شخصيَّة لبيوندي. سأحضر هذه الصورة معي من أمريكا، وسوف أحملها إلى پسكارا في يوم مباراة الدِّيربي، رفقة ملحوظة قصيرة بأفضل إيطالية أُتقنها، لأعطيها إلى والدة پيُّو.

ركبت السيارة إلى الكنيسة رفقةَ غابرييل وماريا تريزا. لم يخطِّط غابرييل لحضور القدَّاس على أي حال. كان يرغب في الوصول عندما يشارف القدَّاس على الانتهاء، كي يستطيع القفز من سيَّارته، والاندفاع على درج الكنيسة، ومعانقة والدة بيوندي على وجه السرعة، كي يحصل على صورة مؤثِّرة عاطفياً، لنشرها في صحف اليوم التالي.

ولكن الأمر أنَّنا إما غادرنا مبكِّراً، وإما أنَّه قاد السيارة بسرعة فائقة، وإما أنَّ القُدَّاس قد استغرق وقتاً أطول من المتوقَّع. توجَّب علينا أن ندور حول الكنيسة خمسَ مرَّات أو ستّاً -توتَّر غابرييل وراح ينظر مراراً إلى ساعة يده في كل مرَّة وصلنا فيها إلى باب الكنيسة- قبل أن تنفتح الأبواب على مصارعها في النهاية ويخطو أولئك الذين حضروا القُدَّاس إلى شمس الظهيرة ثانيةً.

عانق والدة بيُّو، وحين انتهى، أعطيتها الصورة والملحوظة. لم يبد من اللائق معانقة والدة پيُّو، ولا شقيقته التي كانت تصغره بنحو سنة فحسب، ولكنَّني لم أستطع أن أدير ظهري مبتعداً. ولهذا، فقد بقيت واقفاً هناك، لا أدري ماذا أفعل، ثم اندفعت في نهاية المطاف قائلاً بالإيطالية: «شعرتُ، حين مات پيُّو، بأنني قد فقدتُ ابني».

ولم أكد أنتهي من ذلك، حتى انفجرتا في النَّشيج وعانقتاني، ثم وقف ثلاثتنا -أنا، الغريب بالنسبة إليهما تماماً في هذه اللحظة- على درج الكنيسة في الشَّمس السَّاطعة، وبكينا لوقت بدا أنَّه مديد.

بدت پسكارا عند انتصاف العصر، بالنسبة إلـيَّ، كأنَّها جنوب كاليفورنيا في شهر يونيو. فطفتُ الاستاد على مهلي في هذه البيئة البهيجة، مستمتعاً بالشَّمس وأجواء المودَّة غير العادية التي تعمُّ المكان. دهشتُ حين صادفتُ فوسكو، يرتدي قيمصاً رياضياً وصندلاً، يقف مع صبيَّـة جذَّابة.

فأوضح لي، قائلاً: «لم أتأهَّل»، قاصداً أنَّه قد أُقصيَ من اللعب في هذه المباراة بسبب تراكم البطاقات الصفراء لديه، ثمَّ قدَّم المرأة متفاخراً على أنَّها «خطيبته» الجديدة، بعد أن أضحت الخِطبة رسميَّـة في نابولي بأعياد الميلاد المجيدة.

لم يكن واقفاً بتكاسل تحت شجرة ظليلة خارج الاستاد على أمل أن أمرَّ بالجوار، وإنما كان في انتظار ألبيرتي، المُحنَّك، الذي لم يتأهَّل هو أيضاً لخوض المباراة.

واصلت مسيري، عند سماع هذا الخبر، فلا رغبةَ لديَّ في إفساد بهجة اليوم بتلقِّي إهانة أخرى من ألبيرتي. ولكنَّه وصل قبل أن أتمكّن من الذهاب إلى أي مكان آخر، مصحوباً بزوجته وابنه الذي يبلغ من العمر عشر سنوات.

تجاهلني ألبيرتي، كما هو متوقَّع، ولكنَّ الإشكال فرض نفسه على الفور. فمن الواضح أنَّ «لا سوتشتا» أخبرته بأنَّ فوسكو سوف يحضر له ثلاث تذاكر لحضور المباراة، ولم يكن ثمَّة إلا اثنتان. ولم يبق سوى أقل من نصف ساعة على بدء المباراة، وجماهير پسكارا تحتشد عند البوَّابات.

لا بُدَّ من القول إنَّني لم أفكِّر في ألبيرتي، ولكنَّني سرعان ما فكَّرت في الصَّبي ذي العشرة أعوام الواقف إلى جانبه. كان الصبيُّ يتطلَّع إلى الجلوس بجوار أبيه في تلك المباراة الكبيرة، ربما لأوَّل مرَّة في حياته. كانت

تذكرتي لمقعد في «منصَّة الشَّرف»، على شاكلة تذكرة فوسكو والتَّذكرتَيْن اللّتَيْن أعطاهما لي ألبيرتي. بدأ الصبيُّ يدرك أنَّ ثمَّة إشكالاً حين ضغطتُ تذكرتي في يده وتلاشيت بين الجماهير.

ما عساي أن أقول؟ كان يوم أعمالي الصَّالحات.

ولكن، كيف سأشاهدة المباراة الآن؟ فحين وصلت إلى بوَّابة المدرَّجات المنحنية، حيث بِيعَتْ آخر تذكرة لحضور المباراة وقوفاً، بدأت المباراة. وقبل أن أتمكَّن من شقِّ طريقي، بصعوبة بالغة، عبر المئات من مشجِّعي پسكارا، الذين كانوا يسدُّون السلالم المفضية إلى المنصَّة العليا، تفجَّر من حولي هدير فرح. سجَّلت پسكارا هدفاً!

تمكَّنت أخيراً، بعد جَهْدٍ جهيد، من الوصول إلى المنطقة المخصَّصة للمشاهدة وقوفاً، ثم صعِدت خطوتَيْن على برج إنارةٍ لأحظى بفُرجةٍ أفضل. كان أوَّل شيء شاهدته بونومي وهو يسدِّد ركلة قويَّـة عند منطقة العشرين ياردة، فلم يتمكن مورغان دي سانكتس من صدِّها. هدف! والله! لقد كان ذلك حقاً. لقد بُعثنا من الموت، مثل لعازر، ثم أطلقتُ صرخةً جامحة: «كلاوديو، كلاوديو، براڤو! رائع! هيا يا بونومي، تستطيع أن تفعل ذلك forza! هيا يا كاستل دي سانغرو، تستطيعون فعل ذلك»!

أدركتُ على الفور الصَّمتَ الذي دبَّ من حولي، ثم صمتَ التحديقات العدائيَّـة الواضحة؛ كانت حملقات في الواقع. يبدو أنَّ أجواء المودَّة السَّائدة قد تلاشت. فلقد كانت مباراة ديربي، بلا أدنى شك، وهذا يفسِّر كل شيء. لقد فعلت للتوِّ أكثر الأشياء إهانة (وطيشاً) يمكن لأي مشجِّع القيام به في أي مباراة: هتفتُ مشجِّعاً بسبب الهدف الذي سجَّله فريقي وأنا محاط بمناصري الفريق الخصم.

أظهرت الزمجرات الصادرة عن مجموعات من الشبَّان عاريي الصَّدور، الذين يرتدون أوشحة زرقاء وبيضاء حول أعناقهم، جديَّـة الخطر الذي يحدق بي، فلم تكن فرحتي الجارفة غير لائقة فحسب، وإنما مستفزة أيضاً.

فشققت طريقي منسلاً، عبر أسوأ حشد من المشجعين، متمتماً «أرجو السماح لي بالمرور... أنا آسف... أرجو السَّماح لي بالمرور... أنا آسف... من فضلكم...»، والزَّمجرات من خلفي تتعالى ومن فوق رأسي. سائراً على أطراف أصابعي، دون أن أتوقَّف بتاتاً، ودون أن أنظر ورائي -ولا لمرَّة واحدة- تمكَّنت من الوصول إلى أسفل الدَّرج، ثم إلى خارج الاستاد، خلال عشر دقائق.

وسرعان ما تلاشى شعوري بالرَّاحة، حين أدركت في تلك اللحظة أنني -على الرَّغم من الأمان الذي أشعر به- لن أشاهد المباراة. بل كنت، بدلاً من ذلك، عند طرف موقف سيَّارات، حاسراً تحت الشمس الحارقة، وبلا أي وسيلة أعود بها إلى الاستاد مرَّة أخرى، ولاسيَّما أنَّ أكشاك بيع التَّذاكر قد أُغلقت منذ فترة طويلة.

كانت نهاية الشَّوط الأوَّل. ولأنَّني لم أسمع مزيداً من صيحات الحسرة أو الفرح، فقد افترضت بأن النتيجة لاتزال 1-1، وسرعان ما سمعت ارتفاعَ صخب الحشود، ولكن بوتيرة ثابتة ومنضبطة، مما أشار إلى أنَّ الفريقَيْن عادا إلى أرض الملعب. أدركت في تلك اللحظة أنَّه سيتوجب علـيَّ الإنصات إلى ما تبقَّى من المباراة من طرف موقف السيارات المعفَّر بالتراب. ولكنَّ «الإنصات»، ليس عبر سحر المذياع، وإنَّما بالاعتماد فقط على تحليل مستوى صخب الجماهير ومدى حدَّته، أشبه ما يكون بكلب في الغابة ينصب أذنيه عندما يسمع طقطقة أحد الأغصان.

لـذا، فقـد جلسـتُ مُتنبِّهـاً على العشب بطرف موقـف السيـارات، حاسباً كل دقيقة من الدقائق الخمس والأربعين القادمة على ساعة يدي، ثم افترضتُ -بما تفطَّنتُ لاحقاً إلى أنَّها دقَّة فائقة- أنَّ فريق پسكارا قد اندفع مرَّات ومرَّات صوب مرمى كاستل دي سانغرو، ولكنَّه أخفق في التَّسجيل.

ومما لا شك فيه أنَّ بعض التَّفاصيل المعتبرة، قد فاتتني كطرد ألتمارا في وقت مبكِّر من الشوط الثَّاني، فاضطررنا إلى اللعب بعشرة لاعبين طيلة خمس وثلاثين دقيقة، ناهيك عن حقيقة أنَّ ما حافظ على التَّعادل هو المهارة الدفاعيَّـة المذهلة التي أبداها لوقا دانجلو وليست مهارة دي يوليس الاستعراضيَّـة في صدِّ الكرات، ولكنني عرفت النتيجة، بحلول نهاية المباراة، كأنَّني مازلت واقفاً على البرج.

عثر علـيَّ ألبيرتي وولده بسهولة ضمن المجموعة الصغيرة التي احتشدت خارج غرفة تبديل الثياب الخاصة بلاعبي كاستل دي سانغرو، بعد انتهاء المباراة. صافحني ألبيرتي بكل بساطة، قائلاً: «شكراً لك». ولكنَّ ابنه، الذي يبلغ من العمر عشرة أعوام، ويتكلم إنكليزيَّـة تكاد تخلو من الأغلاط، قال: «والدي صادق ولكنَّه خجول، وأنا أشكرك أيضاً. كان سينفطر قلبي لو لم أحضر المباراة مع والدي».

فقلت: «لا عليك. أعتقد أنَّنا كنا محظوظين بحصولنا على التَّعادل دون أن يلعب والدك، فهو عضو مهمٌّ في الفريق».

فقال الفتى: «نعم ولا. صحيح أنَّه ذكيٌّ ولديه خبرة طويلة. ولكن ثمَّة مهارات عديدة لم يَعُد يمتلكها مثل ذي قبل. وبالنسبة إلـيَّ، لقد لعب

ميكليني لعباً في غاية الرَّوعة اليوم كأنَّ أبي لم يغب عن المباراة. أليس هذا واضحاً أيضاً بالنسبة إليك»؟

«بلى، بالطَّبع. ولكنني أعتقد أنَّ الأفضل أن يستطيع والدك اللعب دائماً».

«بالنسبة إلى عائلتنا، بالطَّبع. ففي غضون سنة، لن يعود والدي قادراً على اللعب، بسبب كبر سنِّه. ولا أعرف في هذه الحال كيف ستكون حياتنا. تتحدث والدتي ووالدي كثيراً حول هذه المسألة، وأنا في غاية القلق».

«آه، أنا متأكِّد من أنَّك ستكون بخير. والدك رجل في غاية الذكاء. سيؤمِّن لك حياة طيِّبة حتى بعد انتهاء مسيرته كلاعب كرة قدم».

«أجل، إنَّه ذكيٌّ. ولكن ما أدراك بذلك؟ إنَّه لا يكفُّ عن الإشارة إلى أنَّه لا يتحدَّث إليك البتَّة، فهو يعتقد أنَّك كثيراً ما تتصرَّف مثل أحمق».

ولحسن الحظِّ أنَّ مارتشيلا وصلت إلى جواري في تلك اللحظة، عارضةً توصيلي بالسيارة إلى كاستل دي سانغرو. كان غرافينيا قد أخبرني مسبقاً بأنَّه سيبقى لحضور مأدبة غداء احتفاليَّـة في پسكارا، وأنَّ العودة مع مارتشيلَّا ستكون أسرع بكثير من ركوب حافلة الفريق، ناهيك عن أنَّني كنت في أمسِّ الحاجة إلى الابتعاد كي لا أسمع أي شيء آخر قاله ألبيرتي عنِّي.

امتلأت صحف الإثنين بالأخبار الطيِّبة. نَصَّ عنوانٌ رئيس في صحيفة «إل مِسَّاجِيرُو»، مثلاً، على: «**مَاكغينيسْ: صفحة أخرى لا تُنسَى لكتابي**». قرأت الخبر، فرأيتُ أنَّني قد قلت: «حين عدتُ إلى أمريكا، كانت كاستل دي سانغرو قد تملَّكت فؤادي. أرى الآن فرقةً صارمة من الناحية

التكتيكيَّـة ومستعدَّة على نحو جيد، وتتمتَّع بجسارة أكثر مما تخيَّلت. إنَّني في غاية السَّعادة، ولا بُدَّ أن أمسح الدموع من عينيَّ». كانت المعايير تتبدَّل بسرعة. لم يجروا معي مقابلة هذه المرَّة قبل أن يلفِّقوا الأمر كله.

ولكنَّ الصحف كانت مفيدة على الرغم من ذلك. عرفت، من قراءة خبر آخر، أنَّ صابرينا، زوجة أنطونلُّو، قد عادت. أُجريت معها مقابلة بالهاتف ليلةَ السَّبت، بعد ذهاب أنطونلُّو إلى پسكارا مع الفرقة. خشيتُ، حتى بعد السَّماح بإيراد اقتباسات مُختلقَة، من أن لا تكون صابرينا قد وجدت تركيبة الدَّواء المناسبة بعد.

لقد أخبرت الصحافيَّ بأنَّ دي ڤنتشنسو لم يظهر لها في أحلامها منذ وفاته فحسب، وإنَّما أخذ «يحدِّثني كالمسيح. أخبرني ألا أخاف. يقول إنَّ كاستل دي سانغرو سوف تحظى بالـ «خلاص la salvezza». يقول إنَّ الربَّ قد أخبره بذلك مباشرة»، ثم قالت إنَّ دانيلو قد طلب منها أن تؤكِّد لجميع أصدقائه أنَّه قد أبلى بلاء حسناً في «دوري الأبد Serie Infinita».

وفي صحيفة ثالثة، وظَّف ياكوني فكرة لعازر، ومنحها بُعداً آخر. «لا يذهب القدِّيسون وحدهم إلى الجنَّة، وإنَّما أصحاب النوايا الحسنة أيضاً». استنتجتُ أنَّه قد بات يعدُّ نفسه من بين أعضاء الفريق، بعد حصولهم على عشر نقاط من أربع مباريات.

حسناً، خِيضتْ مباراة پسكارا في عيد ميلاده الخمسين، ولهذا فقد سُمح له ببرهة تأمُّل في الأبديَّـة. والله يعرف أنَّ كاستل دي سانغرو، حتى بعد تحقيق ثلاث انتصارات وتعادل حتى هذه اللحظة في شهر يناير، لا ترتقي بالضَّبط إلى أن تُوصَف كحديقة مباهج أرضيَّـة.

25
الصَّفقة

سرعان ما عرفت أنْ ليس كل مَن في البلدة يؤيِّد نظريَّـة لعازر. في الواقع، دعمت طائفة كبيرة الرأي العلمانيَّ القائل إنَّ بالإمكان عزو الانتصارات الثلاثة التي حققها الفريق على أرضه، إلى عاملَيْن اثنَيْن لا دخل لأي منهما بالشفاعة الإلهية. كان العامل الأوَّل شهر يناير، والثَّاني كلاوديو بونومي.

وبدا عامل شهر يناير بكل بساطة على هذا النَّحو: كان البرد قارساً والريح تعصف بلا هوادة في كاستل دي سانغرو. لم يستطع فريقا ليتشه وساليرنيتانا، القادمان من أعماق الجنوب، التكيُّف مع الطَّقس. وحتى جنوا كانت تتمتَّع بمناخ بحريٍّ معتدل نسبياً، ناهيك عن الذكريات الأخيرة المخيفة المتعلقة بإقليم أبروتسو.

لا ينبغي التقليل من تأثير الطَّقس البتة. تدرَّبت فرقة كاستل دي سانغرو كل يوم في مثل تلك الظروف: على ارتفاع 3000 قدم؛ وهو ارتفاع ليس كارتفاع مدينة «لا پاس»[148]، لكنه ليس في مستوى سطح البحر أيضاً. ولا يمكن للمرء أن يغفل تأثير الشحنة العاطفيَّة التي وفَّرتها فكرة: «لا بُدَّ أن نفوز بهذه المباراة من أجل پيو ودانيلو»، ولكن إذا كان هذان الرياضيان، اللذان ماتا ميتةً مأسويَّـة، يُعدَّان اللاعبيْن الثاني عشر والثَّالث عشر، فيمكن عَدُّ البرد، والرِّيح، والحالة المُتجمِّدة لأرضية الملعب، اللاعب الرَّابع عشر والخامس عشر والسَّادس عشر.

وكان لدينا، زيادةً على ذلك، روبيرتو ألبيرتي وهو في أفضل حالاته. فلا ريب أنَّه كان يلعب بذكاء في جميع الأحوال الجويَّـة، ولكنَّ هذا الذكاء قد تضافر، في شهر يناير، مع بنيته الخفيفة، وخطواته القصيرة، وموازنه جسده على نحو دقيق. وفي حين كان الآخرون ينزلقون ويسقطون على الجليد، فإنَّه حافظ على رأسه مرفوعاً وعلى قدميه راسختين على الأرض. ومما لا شك فيه أنَّ ألبيرتي كان لاعبنا الذي حصل على أعلى تقييم، وفق التقارير التي أصدرتها مجلة «غورين سپورتيڤو»، خلال مرحلة الفوز، حاصلاً على 7 درجات في كل مباراة.

في الواقع، ووفق تلك التقييمات ذاتها، التي غطت جميع المباريات التي خِيضَتْ منذ بداية الموسم حتى فوزنا على جنوا في 15 يناير، فإنَّ أفضل ثلاثة لاعبين من أصل عشرة في دوري الدرجة الثانية كانوا من فريقنا. وكانت هذه النتيجة أغرب من الخيال، فنحن لم نفز بأي مباراة طيلة شهر نوفمبر وديسمبر فحسب، وإنَّما لم نسجِّل هدفاً واحداً أيضاً، ولكنَّ الأمر كان حقيقةً على الرَّغم من ذلك.

أما تونينو مارتينو، الذي كان أكثر اللاعبين استفادة من المباريات الثلاث التي خضناها على أرضنا (فـلقد همد «حنينه» على نحو مؤقَّت) فقد حلّ في المرتبة العاشرة. وحلَّ ألبيرتي في المرتبة الخامسة، في حين حصل بونومي، الذي تفجَّرت موهبته فجأة كزهرة تتفتَّح في غير أوانها، على تقييم ثاني أفضل لاعب في دوري الدرجة الثانية.

أما انطلاقة كلاوديو (الذي لم يحصل في المباراة، التي خسرناها مؤخَّراً في البندقيَّـة، سوى على تقييم 5 , 5) فقد كانت مفاجأةً بقدر ما كانت عصيَّـة على التَّفسير. فلطالما تمتَّع بالسرعة، ولكنَّ فعاليَّتها كانت في حدودها الدُّنيا،

نظراً إلى عامل «عدم توقُّع الكثير» الذي كان غالباً ما يتركه في وضع رائع، ولكن دون أن تكون لديه أدنى فكرة عما سيفعل بعدها.

ولكنَّه عرف في پسكارا على أي حال؛ فحين شاهدت المباراة مسجلةً على الڤيديو يوم الإثنين، رأيت الهدفَ الذي سجَّله على نحو واضح. سُجِّلَ بركلة متموِّجة ومنحرفة وسريعة جداً، سُدِّدتْ بخطوة واسعة من مسافة تزيد على عشرين ياردة، حين شقَّ طريقه عبر مدافعَي پسكارا. لقد كان هدفاً من ذلك النَّوع الذي لا يُشاهد إلا في دوري الدرجة الأولى.

لم يتمكن كلاوديو، في مواسمه الثلاثة الأولى التي لعبها مع كاستل دي سانغرو، وجميعها في الفئة الثانية من دوري الدرجة الثالثة، أن يسجل سوى هدف وحيد في ثمان وسبعين مباراة. غير أنَّه سجَّل أربعة أهداف، في السنة الماضية، في الفئة الأولى من دوري الدرجة الثالثة، ومجموع أهدافه تلك يضاهي ما سجله طيلة هذا الموسم، بعد أن سجَّل ثلاثة أهداف في هذا الشهر.

ولم تكن الأهداف فحسب. لا يُصنف كلاوديو، كلاعب خطٍّ وسط، بين متصدِّري قائمة الهدافين في أي دوري. ولكن المسألة مرتبطة بالمجموع الكليِّ للعلامات التي يحصل عليها في المباراة التي يخوضها: طريقته في الضَّغط على الدِّفاع، بسرعته ومحاورته بالكرة، وموهبته -التي يبدو أنَّه اكتشفها حديثاً- في استخدام تلك السرعة في الاندفاع بحرية، عبر مدافعي الخصم، حين لا تكون الكرة بحوزته، موجداً مساحة لنفسه وفرصاً للآخرين، بالإضافة إلى تسديدته القِويَّة التي يقذفها على نحو مباغت.

من الواضح أنَّ موت پيو ودانيلو قد ألهم كلاوديو -الذي كان أوَّل من قال بذلك- لإعادة تكريس نفسه لكرة القدم. أفضى هذا التَّركيز والشَّغف

الجديدان إلى درجة من التحسُّن في الأداء يمكن تقييمها على مدار الساعة. فبعد أن كانت حصيلة التقييم الذي حصل عليه كلاوديو، في اثنتي عشرة مباراة، سنة 1996، هي 6,04، فإنَّها قفزت إلى 6,87 في شهر يناير. (وقد يرغب القارئ الأمريكيُّ بمقارنة ذلك مع لاعب بيسبول كان معدَّل قذفه للكرة 0,304، ثم ارتفع فجأة إلى 0,387).

وكان كلاوديو قد بلغ الرابعة والعشرين للتوِّ. بدا مستقبله، نظراً إلى فورته الجديدة، يحمل في طيَّاته قَدْراً من الوعد لم يكن من الممكن تصوُّر أن يحدث مع أي لاعب آخر من لاعبي كاستل دي سانغرو في الماضي، ولا حتى بالنسبة إلى كلاوديو نفسه في شهر سبتمبر.

ولكنَّ كلاوديو ظلَّ نفسه، في الوقت ذاته، ولم يتغيَّر: سريعاً في المعانقة والابتسام، ولكنه ليس سريعاً بما يكفي في حلِّ المشاكل. ويستطيع المرء معرفة ماذا تناول كلاوديو على العشاء في الليلة الفائتة بالنظر في الصباح إلى جسر تقويم الأسنان الذي كان يرتديه (قبل أن يزيله). ولو أردنا تقسيم لاعبي الفريق إلى مجموعتين -أولئك الذين يخلعون قبّعاتهم قبل الجلوس إلى المائدة، وأولئك الذين لا يفعلون- لبدا كلاوديو عضواً مدى الحياة في المجموعة الثانية.

ثم بدا، بحلول الليلة التالية، أنَّ مستقبل كلاوديو قد جاء. لاحظتُ أولى بوادر ذلك في حفلة عيد ميلاد أزڤالدو ياكوني الخمسين التي أُقيمت، بالطَّبع، في مطعم مارتشيلَّا.

وبخصوص الحفلة ذاتها، فمن الأفضل عدم قول أيٍ شيء. ويمكن تلخيص الجوِّ العام في وصف هديَّة بعينها: تمثالٍ خزفيٍ عارٍ له منتفخ الأعضاء وعجيب تماماً.

راحت الفرقة تهتف «غالِّي!.. غالِّي!.. غالِّي!..» في الوقت الذي فُتح فيه الغطاء الذي يغلف الهديّة. نظر جياكومو إلى جسده ليتأكّد من أنَّ كل شيء في مكانه المعهود، ثم نظر إلى الأعلى مبتسماً، غير متأكِّد إن كان يتوجب عليه الشعور بالفخر أم بالإهانة.

وكان من الواضح أن الهدية التي قدَّمتها إلى أزڤالدو صديقة دي يوليس الشابّة (ربما على سبيل الامتنان، لأنَّه أبقى دي يوليس في حراسة المرمى -مرتدياً القميص الذي يحمل الرَّقم واحد- على الرَّغم من أنَّ كوع لوتِّي تبدو أنَّها شُفيت) عمل شخص فاقت مخيِّلته/ مخيِّلتها (أو حياته/ حياتها الفنتازيّة) مهارته/ مهارتها في الأشغال الخزفيّة.

صحبت الهديةَ بطاقةٌ، وقع عليها الجميع، كتب عليها «الموسم طويل وشديد»[149]، ولكنَّ السؤال بالنسبة إليك كم هو شديد وكم هو طويل؟

فعليك إما أن تكون هناك، أو يتوجب أن تُسَرَّ لأنَّك لم تكُن.

ولكنَّ باربرا كانت بين أولئك الذين ظهروا لفترة وجيزة لإلقاء التحيَّة والتعبير عن احترامهم. ولم تكد تدخل، حتى انتحت بي جانباً، وسألتني بصوت خفيض: «ما رأيك»؟

«حسناً، حضرت حفلات سيئة، وقد تزداد هذه الحفلة سوءاً لاحتسائهم براندي «الغرابا» كله، وها هو غالِّي يفتح الآن زجاجة تكيلا».

«ليس الحفلة. ولكن كلاوديو»؟

«أعتقد بأنَّه سيبلي في اللعب بلاء حسناً، مثلما يقول الجميع. ومما لا شك فيه أنَّه قد أحرز هدفاً مدهشاً في پسكارا».

«أقصدُ الخبر المتداول بشأن كلاوديو، يا جُو».

«ماذا، هل اشترى قبّعةً جديدة»؟

«أرجوك. لا أستطيع البقاء أطول. أقصد شراء كلاوديو من طرف فريق فيورنتينا».

«ماذا؟ أرجو المعذرة، يا باربرا، ولكنه أمر سخيف». نظرت عبر الغرفة حيث كان كلاوديو، مرتدياً قبّعة عيد ميلاد سخيفة، يكرع زجاجة البيرة العاشرة في هذه الليلة، ويمد يده بثبات إلى علبة سجائر.

«علمت بالخبر من أفضل مصدر موثوق يا جُو».

فقلت، ونغمة تعالٍ مؤسفة تزحف إلى صوتي: «أنتِ تعرفين، يا باربرا، كاستل دي سانغرو أفضل منّي، وأفضل مما قد أستطيعه على الإطلاق. ولكن، صدِّقيني، أنا أعرف دوري الدرجة الأولى. وأعرف فريق فيورنتينا وما يحتاجه جيداً. لا يملكون في خط الوسط روي كوستا وشڤارتش فحسب، وإنَّما كُويْس أيضاً. وثمَّة، من خلفهم، سيرينا وپياسنتيني وبيجيكا. ناهيك بالطَّبع عن روبياتي الذي يستطيع أن يلعب في الهجوم حيث يمتلكون، بالإضافة إلى العظيم باتيستوتا، كلاً من أوليڤيرا وبايانو، بالإضافة إلى مورفيو صانع الألعاب الواعد.

ولذلك، يا باربرا، ما يحتاجه فيورنتينا على الأقل -وهذا على افتراض أنَّ كلاوديو يستطيع اللعب في ذلك المستوى الاحترافيِّ، الذي أؤكِّد لك، بقدر ما أحبُّه، أنَّه لن يستطيع، ليس الآن على الأقل- هو لاعب وسط ذو نزعة هجومية. لذا، فإنني أخشى أنَّ الشخص الذي أخبرك بنية فيورنتينا تقديمَ عرض إلى كلاوديو، لا يعرف شيئاً عن الكالتشيو».

أومأت باربرا برأسها بصورة مؤدَّبة، ثم قالت: «شكراً على توضيح ذلك لي. فحين أخبرني غابرييل وماريا تريزا، قبل ساعة ونصف، أنَّ فيورنتينا يعرض أكثر من مليون دولار لقاء بونومي، لم أدرك حينئذ

وجوبَ أن يكونا مخطئَيْن، ولكنَّني أستطيع الآن إخبارهما أنَّ الأمر كان بكل بساطة مجرَّد سوء فهم، أو أنَّ السيِّد سيتشي غوري، رئيس نادي فيورنتينا، الذي اتصل بغابرييل شخصياً، كان- كيف يمكنني قول ذلك- يضحك عليه»؟

«ماذا؟! أخبرك غابرييل وماريا تريزا بهذا؟ سيتشي غوري اتَّصل بنفسه»؟!

«نعم، ولكن لا سببَ وجيهاً لحماستك الزائدة، فلقد أوضحت لي لماذا لن يتمَّ هذا الأمر بتاتاً. أعتقد أنَّه لا يتوجب عليَّ إخبارهما، على أي حال، فأنا متأكدة تماماً من اعتقادهما، بسبب الجهل بهذه الحقائق، أنَّ العرض حقيقيٌّ».

وفي تلك اللحظة تماماً، وصل غابرييل، بشحمه ولحمه، إلى الحفلة، مُتكدِّراً على نحو واضح، وعلى الفور أخذ أزڤالدو إلى المطبخ لمحادثته على انفراد. ولم يكد حديثهما يبدأ حتى قطعه صوت باب الحمَّام المضلَّع بفتحات للتهوية، وقد نزعه غالي من فصَّالاته وقذفه إلى منتصف الغرفة، بعد أن أسكرته التَّكيلا على الفور.

خطا غابرييل إلى خارج المطبخ في الوقت ذاته ليشاهد زوجة المدير التنفيذي الثاني لديه، بعد أن أسكرتها التَّكيلا سريعاً، قد سقطت على وجهها في كعكة عيد ميلاد أزڤالدو، البالغ حجمها أربع أقدام في أربع أقدام، وكانت قد جُمِّدت بدقَّة متناهية لتشبه استاد كالتشيو. لم تخرِّب الكعكة، حين فعلت ذلك، قبل تقديمها إلى أزڤالدو فحسب، وإنَّما جعلت الطبقة الخضراء الخارجيَّـة تتناثر على جميع أنحاء بذلة جلد الغزال الجديدة التي اشتراها غابرييل من أجل أعياد الميلاد المجيدة.

انسللت في تلك اللحظة خارجاً، متوجِّهاً إلى شقتي كي أنام، معتقداً أنَّ من الأفضل ألا أكون هناك حين يكتشف غابرييل أنَّني أنا الذي أحضرت التّكيلا إلى الحفلة. ولكن أن يلتحق كلاوديو بفيورنتينا؟ غير ممكن. مستحيل. لا بُد أنَّها مجرَّد خدعة أخرى.

ولكنَّ صحيفة «إل كُرِّيره ديلُّو سپورت» أشارت في الصباح التالي أنَّ فيورنتينا يرغب في بيع المخضرم بايانو واستبداله بكلاوديو. وحين وصلت إلى التدريب قبل نصف ساعة، شاهدت كلاوديو قد سبقني إلى هناك، منتظراً خارج مكتب أزڤالدو. وقبل أن أتمكَّن حتى من سؤاله، فتح أزڤالدو الباب وطلب من كلاوديو الدُّخول، مبدياً على نحو واضح عدم رغبته في أن أتبعه.

انهملت عينا كلاوديو فجأة، ثم قال «شكراً، يا جُو العظيم. سأفتقد الجميع».

لقد كان الخبر صحيحاً إذاً، ثم جاء غابرييل فجأة يخطو في الممر بأقصى سرعة. جذب كلاوديو من كوعه، بفظاظة، وأدخله إلى المكتب، ثم صفق الباب خلفهما على وجه السرعة.

انتظرتُ. وبعد عشرين دقيقة فُتح الباب. خرج كلاوديو أوَّلاً. توجَّه صوبي مباشرة وعانقني ثانية. «ولكن كيف! سأفعلها، بمشيئة الله». ثم توجه إلى غرفة تبديل الثياب، وخرجت أنا إلى أشعَّة الشمس. كان أوَّل شخص التقيته ماريا تريزا التي كانت تصدر أوامرها لطاقم العاملين على إصلاح أرضيَّـة الملعب.

فقلت وقد تبسَّمتُ مُتكلفاً: «خبر عظيم بشأن كلاوديو؛ بالنسبة إليه على الأقل. ربما ليس عظيماً بالنسبة إلى الفرقة».

حملقت فيَّ بعينين جامدتين كالحجر، ثم قالت: «ليس صحيحاً. لن يذهب إلى أي مكان»، وتركتني مسرعةً إلى الداخل عبر المدخل الذي خرجتُ منه للتوِّ.

ثم جاء جوزبِّه بعد دقيقتَيْن، وقال: «ليس صحيحاً. لن يُباع كلاوديو. لن يحدث ذلك مطلقاً. وسيكون الأمر في غاية السوء بالنسبة إلى إدارة النادي لو أخبرت النَّاس أنَّ الخبر صحيح».

«لماذا»؟

فأومأ إلـيَّ إيماءة بدت بين الرَّفض والتهكُّم، كأنَّني كنت شديد السذاجة لأطرح مثل ذلك السؤال في المقام الأوَّل. «لم يعرض فيورنتينا المبلغ الكافي. وكي نحصل على المزيد، سوف نتظاهر دائماً، كلا، كلا، كلا، كلاوديو ليس متاحاً».

فقلت: «آه، الخبر صحيح إذاً، لقد كان ثمَّة عرض. ولكنَّ غابرييل يماطل من أجل مزيد من المال».

«كلا، يا جُو! لن تفهم. انسَ الأمر فحسب. ليست مشكلتك. لا تقلق. سأروي الحكاية غداً في صحيفة «إل تشنترو». سيبقى كلاوديو هنا، حسناً؟ عليك أن تتذكَّر هذه المسألة على أنَّها الحقيقة. وبهذه الطريقة، لن يكون ثمَّة مشكلة».

وبناء على هذه التعليمات، تظاهرتُ بعدم ملاحظة وجود أي شيء غير عاديٍّ، حين لم يشارك كلاوديو في الحصة التدريبية، وإنَّما كان يعدو بأقصى سرعة لمسافة قصيرة جيئة وذهاباً في طرف الملعب، في حين كان ثلاثة رجال لم أشاهدهم من قبل يحسبون الزَّمن الذي يقطعه، مستخدمين ساعات توقيت.

وحين عرجت بعد ذلك على غرفة تبديل الثياب من أجل الحصول على قدح من الشمپانيا، مصبوبة في كوب كرتونيٍّ، على سبيل الاحتفال المتواصل بعيد ميلاد أزڤالدو الخمسين، تظاهرتُ أنني لم أفهم النُّكتة حين راح ميكليني يهتف «أَلِيي، فيورنتينا...»[150]؛ الهتاف المشهور لمشجعِّي فيورنتينا المتعصِّبين.

ولقد كان من الصعب علـيَّ، حين مشيت لتناول العشاء بمطعم مارتشلَّا في تلك الليلة، أن أتجاهل وجود سيارة الفيات الحمراء المركونة بزاوية طوليَّـة عند حافة الرصيف، بعكس اتِّجاه السير في الشارع ذي المسرب الواحد. وبخاصَّة أنني قد عرفت تلك السيارة التي أقلتني في جولات قصيرة، إلى الحصَّة التدريبية ومنها في الغالب، ولاسيَّما حين رأيت كلاوديو خلف عجلة القيادة، يتحدَّث بحماسة في هاتفه الخلويِّ.

طرقت على النافذة. فنظر إلـيَّ ثم تبسَّم ابتسامةً عريضة، ولكنَّه أشار إلـيَّ، واضعاً إصبعه عبر شفتيه[151]، فتركته وشأنه. ولكنني لاحظت أنَّ أزڤالدو لم يأت إلى مطعم مارتشيلا على العشاء في تلك الليلة، ولا حتى صديقا كلاوديو الحميمان، فوسكو ومارتينو، اللذان لم يسبق لهما أن فوَّتا قط وجبة واحدة بمطعم مارتشيلَّا.

ولذلك لم أُعر حكايةَ جوزبِّه، المنشورة في اليوم التالي، كثيراً من الاهتمام. بالطَّبع كلاوديو للبيع. فكل لاعب للبيع. ومثلما قال السيِّد ريتسا، حين دفعت إليه مازحاً دفتر صكوكي بعد جولتي في ضيعته: «وما يدريك. الأمر يعتمد على قيمة الصكِّ».

علمت، في هذه اللحظة، أنَّ غراڤينيا قد تلقَّى عرضاً بقيمة مليون دولار -ربما عشرة أضعاف أي مبلغ عرض عليه سابقاً لقاء أي لاعب

آخر- ولكنَّه أصرَّ على 1,5 مليون دولار، ثمَّ رفع فيورنتينا المبلغ إلى 1,2 مليون دولار، ولكنَّ غرافينيا لم يتزحزح عن موقفه.

أعلن فورنتينا، بحلول نهاية الأسبوع، استجلاب اللاعب الروسي الدولي أندري كانتشيلسكيس من إنكلترا لقاء مبلغ أعلى بكثير. فمن من الواضح أن سيتشي غوري، بعد إخفاقه في إتمام الصفقة الأساسيَّة الرخيصة، قرَّر إتمام واحدة غالية الثَّمن.

قلت لكلاوديو حين رأيته صباح السَّبت: «أتمنَّى ألا يكون رجاؤك قد خاب كثيراً».

فأجاب: «كلا، يا جُو. أعرف أنني سأصل إلى دوري الدرجة الأولى، وأعرف في أعماق قلبي أنَّ مكاني هناك. لقد خسرنا پيُّو ودانيلو، وأعتقد أنَّ الخسارة ستكون فادحة لو فرَّطوا فيَّ». كادت تلك الإشارة الأخيرة، التي تنطوي على خداع مُطلق [من طرف غرافينيا[152]]، تجعلني أبكي. يا لكلاوديو النقيِّ.

ولكنَّنا تعانقنا، على أي حال، عناقَ لمِّ الشَّمل، على الرَّغم من أنَّ الفراق لم يحدث بتاتاً، ثم مضيت في سبيلي شاعراً أنَّه مهما كان المعنى الذي انطوت عليه كلمة «شخصيَّة carattere»[153]، فإنَّه متجسِّد في شخصيَّة كلاوديو على نحو عميق.

لم تكُن «لا سوتشتا» غير نشطة بالمرَّة منذ وفاة پيُّو ودانيلو. وعلى الرَّغم من أنَّ ياكوني رفض مهاجماً لايبيرياً موهوباً يدعى روبرت زيزي، الذي كان قد أبهر الجميع بأدائه في الاختبار التجريبيِّ المعقود في أواخر شهر ديسمبر، فإنَّه قبل على مضض وصول الإيطاليَّيْن الشَّابَّيْن اللذين تمكَّن غرافينيا من استعارتهما.

كـان دانييله روسُّو لاعب خطٍّ وسـط طويلاً، ونحيفاً، وفـي الثالثة والعشرين، من مدينة روما، لعب مع فريق پيروجيا فـي دروي الدرجة الثانية السَّنةَ الفائتة. وحين صعِد بيروجيا إلى دوري الدرجة الأولى، شعروا أنَّ روسُّو ليس جاهزاً بما يكفي، فأرسلوه للَّعب في أحد أندية الفئة الأولى من دوري الدرجة الثالثة، لمزيد من الخبرة واللياقة. وهكذا، فقد قدم روسُّو من دوري الدرجة الثالثة، على الرغم من أن ملكيته لاتزال لنادي بيروجيا.

لم يلعب ضدَّ پسكارا، ولكنَّه شارك لوقت وجيز في المباريات الثلاث الأولى التي خضناها في شهر يناير، مطرحَ بونومي المرهق، خلال آخر خمس عشرة دقيقة ضدَّ ليتشه، ثمَّ بديلاً لدي فابيو، كمجهود للاحتفاظ بالكرة في اللحظات الأخيرة، خلال آخر دقيقتَيْن ضدَّ ساليرنيتانا، ثم أُدخلَ محلَّ پستلَّا، ولم يبق على نهاية المباراة ضدَّ جنوا، سوى عشرين دقيقة. أجمع زملاؤه في الفريق على أنَّه موهوب ولكنَّه بحاجة إلى وقت لعبٍ منتظم؛ وهو الوقت الذي يبدو أنَّ ياكوني لن يمنحه إياه على الأرجح، فروسُّو يميل من حين لآخر إلى اللعب بطريقة شبه مسرحيَّـة، وهو سلوك كاف كي يحمرَّ وجه المدير الفنيِّ غضباً.

أما الوافد الجديد الآخر فهو دانييله فرانكيتشيني، وهو من مدينة روما أيضاً، ولاعب خطٍّ وسط ذو نزعة دفاعيَّـة، احتفى بعيد ميلاده الحادي والعشرين قبل يومين من المباراة ضدَّ جنوا. وبدا ياكوني، لأسباب غير معروفة، أنَّه قد نفر من فرانكيتشيني، نفوراً شديداً، على نحو أسرع من نفوره من روسُّو وأشدَّ، على الرَّغم من أنَّ دانييله، هذا، لم يلعب بعد. وعلى شاكلة كريستيانو (الذي اختفى فجأة حين سيطر ألبيرتي على خط

وسط الملعب المتجمِّد) فإنَّ فرانكيتشيني كان نتاج منظومة الشَّبيبة بنادي لاتسيو، حيث كان أداؤه بديعاً بما يكفي لمكافأته باللعب الرمزيِّ ثلاث مرَّات في دوري الدرجة الأولى السنة الفائتة.

أدهشتني مثابرته الشديدة في التَّدريب، وبدا خارج الملعب، على شاكلة روسُّو، إضافة لطيفة إلى الفريق ويمكن استيعابها بسهولة، وبخاصَّة ما يتعلق بتناول الطعام بمطعم مارتشيلَّا. ولقد أجمع اللاعبون، بصورة مبكرة، على احتماليَّـة أن فرانكيتشيني أبرع من روسُّو، ولكنَّ نقاط قوَّته الكبرى كامنة في المكان الذي نمتلك القوة فيه، في خطِّ الوسط، ما يجعل الأمر في غاية السهولة على ياكوني أن يشطبه بوصفه حمولة زائدة.

في الحقيقة، نظراً إلى امتلاكنا ثلاثة لاعبي خطِّ وسط، يُصنَّفون من ضمن أفضل عشرة لاعبين في دوري الدرجة الثانية -بالإضافة إلى أنَّ دي فابيو وكريستيانو وميكليني قد أثبتوا جدراتهم باللعب في هذا الموقع- فقد استغربتُ أن يضيف غرافينيا لاعبَيْن آخرين إلى خطِّ الوسط، ويتجاهل الدِّفاع والهجوم.

أخبرني جيجي بريبته ذات ليلة، وهو يفرك إبهامه وسبابته معاً: «تَانْجِينْتِهْ Tangenti». كان يقصد الرَّشاوى. اعتقد جيجي أنَّ غرافينا قد تلقَّى دفعات شخصيَّـة من المال ليقبل اللاعبيْن، إذ كان فريقاهما الحقيقيان مُهتمَّيْن في المقام الأول بأن يلعبا في دوري الدرجة الثانية، ليتمكنا من صقل مهاراتهما على نحو أكثر فاعليَّـة».

- وهكذا، لو «استُؤجِرَ» كل لاعب بمبلغ 5000$ في الشَّهر، على سبيل المثال، فإنَّ نسبة من هذا المبلغ سوف تُعاد من تحت الطاولة، ليس إلى «لا سوتشتا»، وإنَّما إلى غرافينيا شخصياً.

لم يكن لديَّ طريقة للتأكُّد من صحة ما يقوله، ولكنَّ جيجي سخر من أي شكوك أبديتها كمثال آخر على السذاجة الأمريكيَّـة. فتلك الصَّفقات التي وصفها- وأسوأ منها- كانت ممارسة يوميَّـة، لا في كاستل دي سانغرو فحسب، وإنما في النَّوادي كافة، وفي جميع مستويات الكالتشيو. الفارق الوحيد الذي حدَّده كان بين الشمال والجنوب، قائلاً إنَّ الممارسات الفاسدة، على شاكلة أنواع الجريمة الأخرى، العنيفة وغير العنيفة على حدٍّ سواء، كانت أشيع في مناطق جنوب روما بدرجة كبيرة.

أدهشني أن يكون جيجي قد عرف الكثير خلال رحلاته عبر المناطق السفليَّـة لعالم الكالتشيو. ولكن ربما جميع اللاعبين، بعد قضاء عشر سنوات في هذه اللعبة، يعرفون الكثير، مع فارق أنَّ جيجي كان راغباً في الحديث عن ذلك.

ولكنَّنا حصلنا على مهاجم جديد في ذلك الأسبوع. وصل جوناثا سبينيسي -الذي يبلغ من العمر ثمانية عشرة عاماً، المولود في بيزا، والمملوك لإنتر ميلان- على سبيل الإعارة في الوقت المناسب لخوض المباراة ضدَّ باري التي سوف تختتم، بصرف النظر عن النتيجة، الشهر الأنجح في تاريخ كاستل دي سانغرو.

بدا واضحاً، منذ البداية، أنَّ سبينيسي عُدَّ لاعباً مميَّزاً، بالنسبة إلى نفسه على الأقل. وثمَّة أسبابٌ وجيهة لذلك. فلقد لعب مباراته الأولى لصالح بيزا، في المستوى الأعلى من دوري الهواة، وهو في السابعة عشرة من عمره. وسجل أربعة أهداف في عشر مباريات هناك، قبل أن يشتري عقده الإنتر ميلان. ولعب، منذ ذلك الحين، لصالح فريق الشَّباب لديهم، حيث لا يزال مؤهلاً لذلك وهو في سنِّ الثامنة عشرة.

ولكنَّ الإنتر عَدَّه مهاجماً واعداً لدرجة رغبتهم في منحه فرصته الأولى في اللعب الاحترافيِّ بأسرع وقت ممكن. أفاد مكتشفو المواهب لدى فريق الإنتر، بعد مشاهدتهم بضع مباريات خاضها غالِّي وبِستلَّا، أنَّ إعارة سبينيسي إلى كاستل دي سانغرو، سوف تمكِّنه بكل تأكيد من لعب كل دقيقة في كل مباراة.

بدأت ضجَّة سبينيسي قبل أن تخبو ضجَّة بونومي، ولكنَّ الشابَّ نفسه، كما يليق بلاعب من طراز اللاعبين النُّجوم، قد تجاوز أي شكليَّات، كالاختبار التجريبيِّ، وبقي في نادي ميلانو حتى اتَّفق غرافينيا ومسؤولي الإنتر على ثمن الإعارة.

خاض مباراته الأولى ضدَّ باري، ولم تظهر براعته كثيراً، ولكنَّ ذلك ينطبق على اللاعبين الآخرين أيضاً. ونظراً إلى حصولنا على عشر نقاط خلال الشَّهر، فلن نشعر بالسُّوء إذا فاز علينا باري؛ هذا الفريق الذي يعجُّ باللاعبين الموهوبين، الهابط من دوري الدرجة الأولى، والعازم بكل وضوحٍ على العودة إليه بأسرع وقت ممكن.

تمكَّنا من المحافظة على التَّعادل، صفر - صفر، خلال الشوط الأوَّل، ثم بعد مضي ست دقائق على بدء الشوط الثاني، سجَّل الألماني توماس دول، لاعب خط الوسط، هدفاً. اعتقدتُ أنَّه أمثولة مثالية للاعب الأجنبيِّ النَّاجح في دوري الدرجة الثانية، على شاكلة إنغيسون، لاعب خط الوسط السويدي لدى فريق باري، ناهيك عن غيرِّيرو، مهاجمهم الكولومبيِّ.

لم تُجدِ نفعاً الأسباب التي ارتكز إليها ياكوني لإبعاد اللاعبين الثلاثة، بوصفهم غير مناسبين لفريق كاستل دي سانغرو. تعرض كلاوديو للعرقلة في منطقة الجزاء، فنفَّذ الركلة لتصبح النتيجة التَّعادل 1-1 (وهذه

هي المباراة الخامسة على التوالي الذي يسجل فيها)، ولكنَّ فريق باري اندفع، على الرغم من أداء فوسكو الأروع في هذا الموسم، فاجتاز لاعبوه الدِّفاع بكل بساطة، وسجَّلوا هدفين آخرين قبل انتهاء المباراة.

وهكذا انتهى النِّصف الأوَّل l'andata من الموسم. وفي الأسبوع القادم، في كآبة فبراير الباردة، سيبدأ النّصف الثاني il ritorno، الذي سوف يأخذنا -في حالة من التوتُّر المتعاظم أو اليأس- إلى الحرِّ والرطوبة الجهنَّميَّيْن وشمس أواخر يونيو المُعذِّبة.

ولكنَّ قائمة ترتيب النِّقاط التي حصلت عليها الفرق في النصف الأول بدت على هذا النَّحو:

ليتشه	38
تورينو	34
پسكارا	31
بريشًا	31
باري	29
راڤينًا	27
إمپولي	27
جنوا	25
لوكيزي	24
كييفو ڤيرونا	24
فوجيا	24
بادوڤا	23.

البندقية	21
كوزنتسا	21
سالرينيتانا	21
كاستل دي سانغرو	21
باليرمو	20
ريجينا	20
كرمونييسه	18
تشيزينا	17

26
البيضة الشرقيَّة والبيضة الغربيَّة

كان النصف الثاني من الموسم ritorno [مرحلة الإياب] هو النِّصف الأوَّل andata [مرحلة الذَّهاب] مكرَّراً، عدا أنَّ كل مباراة خاضها الفريق على أرضه in casa، سوف تُجرى على أرض الخصم fuori، والعكس صحيح. وهكذا، بدأنا النصف الثاني برحلة في الحافلة استغرقت ثماني ساعات إلى كوزنتسا غير الساحلية، وسط كالابريا، في منتصف الطريق بين باري على ساحل الإدرياتيكي وريجيو كالابريا إلى الغرب.

وكانت كوزنتسا تعني، بالنسبة إلـيَّ، تلك الخطوات الأولى التي خطوتها في عالم جديد وعجيب؛ مأدبة الغداء في «سيْ رِفَرْ كلَبْ» [نادي النَّهر البحريِّ] رفقةَ السيِّد ريتسا، وهدف الفوز، المثير للنشوة، الذي سجَّله دي ڤنتشنسو. إلا أنَّه قد عنى، في شهر فبراير، عرضَيْن متتاليين في الحافلة لفيلم «يوم الاستقلال»، مدبلجاً إلى الإيطالية. (لم يفهم غاليٍّ حبكة الفيلم من أوَّل مرَّة، فأصرَّ على عرضه ثانيةً).

ولم تكن كوزنتسا مدينةً قد يرغب المرء -إيطالياً كان أم أمريكياً- بزيارتها بمحض اختياره على الأرجح. ينتاب المرء شعور جليٌّ أنَّ أولئك الذين يستطيعون مغادرة المدينة قد غادروها، وأنَّ الـ 80000 الذين تبقَّوا قد ظلّوا هناك بحكم الضرورة وليس باختيارهم المحض. وكان هذا هو دوري الدرجة الثانية في أسوأ حالاته: أن يقضي المرء سبعاً وثلاثين ساعة راكباً الحافلة، يأكل وينام، تحيط به أوحش البيئات وأشدُّها كآبة، ليلعب مباراة من تسعين دقيقة فقط.

ظلَّ ألتامورا محروماً من اللعب، في حين اضطر تِشيي إلى الإسراع بإدخال ابنته الرضيعة إلى مستشفى بيروجيا بعد أن تحوَّلت الإنفلونزا التي أصابتها إلى التهاب رئويٍّ. أدخلت الرَّضيعة إلى العناية المركَّزة، فبقي داڤده وزوجته بقربها. وكي تسوء الأمور أكثر مما هي عليه، قرَّر ياكوني حماية جائزتنا الجديدة، سبينيسي، من العنف المحتمل لمدافعي كوزنتسا، فأرسل عوضاً عنه غاليٍّ وبستلا، الأمر الذي كان، بالنسبة إلينا، كمن يخوض المباراة بتسعة لاعبين وحوضَيْن لاستحمام الطُّيور birdbaths. وبقي دي يوليس، بالطَّبع، في حراسة المرمى.

يبدو أنَّ حجر نردنا قد رُمي[154]–ناهيك عن أنَّ هلاكنا محتومٌ[155]– بعد خمس عشرة دقيقة على بدء المباراة فحسب، حين وجد برييته الغافل نفسه أنه قد تعرَّض للهجوم في منطقة الجزاء، فقام على نحو أخرق بعرقلة مهاجم كوزنتسا، مانحاً الفريق المضيف ضربة جزاء لم يكد دي يوليس يحرِّك ساكناً، حين تجاوزته الكرة إلى داخل المرمى. وهكذا غدت النتيجة 1–صفر، لصالح «بَادْرُوني دِي كَازَا Padroni di casa»، أو الفريق [المضيف] صاحب الأرض، كما يسمُّونه عادة في إيطاليا.

خضنا في النصف الأول تسع مباريات، بعيداً عن أرضنا، فخسرنا سبعاً، وتمكَّنا من التَّعادل في مباراتَيْن، ولم نقترب من تحقيق أي فوز قط. (لا غَرْوَ أنَّ يكتب غاليانو عن «هوس المشجعين المتعصِّبين بإنكار جميع الأدلَّة». فحين تغدو الهجرة والانتحار هما الخيارين المتاحين فحسب، فإنَّ تلك الآليَّـة في الإنكار تبدو جوهر الصحَّة العقليَّـة). أما بالنسبة إلينا، فإنَّ الأمر الذي قذف الرعب في نفوسنا، أكثر من علامة «0–7–2»، أننا لم نسجل في المباريات التِّسع سوى هدفَيْن؛ الهديَّـة التي قُدِّمت إلى غاليٍّ في

إمبولي، والتسديدة القويَّـة التي سدَّدها بونومي الأحد الفائت في مرمى پسكارا.

لم نبدُ، في أي لحظة خلال التسعين دقيقة في كوزنتسا، أنَّنا قادرون على التسجيل، حتى لو أدخل فريق كوزنتسا دمىً منفوخة لخوض المباراة. لم نتوغَّل في أعماق منطقة الخصوم إلا نادراً، عبر هجمات قادها فجأة بونومي الذي لا يكل ولا يمل، ودانييله روسُّو الطويل النَّحيف، الذي لعب لأوَّل مرَّة، مخفِّفاً قليلاً من شدَّة الضغط الممارس على دفاعنا. ولأنَّ مهاجمي كوزنتسا لم يكونوا أفضل من مهاجمينا البتة، فإنَّ الفارق في النتيجة لم يتسع. كان برييته، على وجه الخصوص، في حالة يرثى لها، منذ بداية المباراة حتى نهايتها. وحين أدخل أزڤالدو سپينيسي عوضاً عن پستلا في الشوط الثاني، لم يستطع هذا الشابُّ التكيُّف بكل بساطة مع إيقاع المباراة (ربما لعدم وجود إيقاع في الأصل على الأرجح) فكان من الأفضل لو ظلَّ في مقاعد الاحتياط ولم تُقلق راحته.

أضيفت ثلاث دقائق بدل وقت ضائع في نهاية المباراة. ومرَّت هذه الدقائق، أيضاً، دون أي حدث يذكر، فرحتُ أجمع شتات نفسي من أجل رحلتي البطيئة والحزينة صوب غرفة تبديل الثياب، حين مُنحنا ضربةً ركنيَّـة. نفَّذ بونومي الرَّكلة، فتفوَّق دانجلو على مدافعَيْن من فريق كوزنتسا ليحظى بالكرة ويقذفها برأسه صوب روسُّو الذي كان قد تمركز بعض الشَّيء إلى يمين المرمى، ثمَّ سدَّدها على الفور -كما يليق بلاعب كرة قدم محترف- فتخطت حارس المرمى ودخلت في الشِّباك لحظةَ أطلق الحكم صافرته.

احتج فريق كوزنتسا طويلاً وبصوت عال (مما جعلني أُشفق على الحكم، وهو شعور لم يكن لينتابني البتة، لو لم أكُن في الوضع ذاته تماماً في

شهر ديسمبر؛ ولا، بالطَّبع، لو كان الهدف الذي احتسبه قد سُجل ضدَّنا)، ولكنَّه تشبَّث برأيه، فخرجنا من ملعب كوزنتسا مذهولين بإنجازنا المفاجئ وتحقيق التَّعادل 1-1.

ولكنَّ رحلة العودة إلى الديار كانت لاتزال طويلة، ولا تُحتمَل. وما زاد من ذلك كله، بالنسبة إلـيَّ، حقيقة أنَّني كنت جالساً مباشرةً أمام روسُّو الخجول والهادئ الذي كان يتحدَّث مسروراً في هاتفه الخلوي، مخبراً والديه و«زملاءه السَّابقين» ورفاق صباه، الشَّيء ذاته، بصوتٍ خفيض، مرَّات ومرَّات: «لا أصدِّق ما حدث! لقد سجَّلت هدفاً ولم يبق على نهاية المباراة سوى ثانيتَيْن! إنَّه هدفي الأوَّل مع فريقي الجديد! إنَّني في غاية السَّعادة»!

لم يَبْدُ روسُّو ودانييلـه فرانكيتشيني لاعبَيْن موهبَيْن علـى حدٍّ سواء فحسب، وإنما شابَّان حسَّاسان ومحبوبان أيضاً. وعلى الرَّغم من أنَّهما لم يعرفا دي فنتشنسو أو بيوندي من قَبْل، فإنَّهما كانا مدركَيْن أنَّ سبب وجودهما في كاستل دي سانغرو عائد إلى أنَّ هذَيْن الأخيرَيْن قد ماتا، فحسب. فلم يدفعا تجاه الرِّضى عن وجودهما، شاعرَيْن على نحو فطريٍّ أنَّ زملاءهما الجدد مازالوا يتعافون من الصدمة الرهيبة التي أصابتهم مؤخَّراً. ولم يكن ذلك يعني أنَّهما تصرَّفا بحذر، طيلة الليل والنهار، خشيةَ الإساءة إلى أحد، ولكن من الواضح أنَّهما يحملان في داخلهما إحساساً أصيلاً بالحُزن على اللاعبين اللذين جاءا محلهما.

وثمَّة، على سبيل المثال، الحادثة التي تعلَّقت بكرسي دي فنتشنسو. ففي حين كان پيُّو يجلس في أحد جانبي الطاولة، بجوار كريستيانو وريميديو،

فإنَّ دانيلو اختار منذ بداية الموسم الجلوس في الطَّرف. تُرك الكرسيُّ بعد موته شاغراً، ثمَّ أزيل بكل بساطة ذات يوم. لم أسمع كلمة واحدةً قيلت بهذا الخصوص. بدا الأمر نابعاً، بصورة طبيعيَّة، من الشعور الجماعيِّ بالاحترام واللباقة الذي سيطر على اللاعبين. أعادت مارتشيلَّا بكل بساطة ترتيب نظام الجلوس على الطاولة، وذلك ما كان.

وحين وصل روسُّو وفرانكيتشيني، أخذا مكانيهما رفقة الجميع. لم يخطر ببالها سحب كرسيٍّ إلى المكان الذي كان يجلس فيه دانيلو عند طرف الطاولة، وإن صدف أن حدث ذلك، فلا بُدَّ أن يكون أحد قد فسَّر لهما الأمر بكل هدوء.

ولكنَّ سپينيسي كان مختلفاً. فلقد سأل، في الليلة الأولى التي تناول فيها الطعام مع الفريق، لماذا لم يُعَدَّ مكانٌ عند طرف الطاولة. أعتقد بأن لوقا دانجلو هو الذي قال إنَّ دي فنتشنسو كان يجلس هناك.

فقال سپينيسي «ليس بعد الآن»، وسحب كرسياً من طاولة مجاورة، ثم نادى على مارتشيلَّا كي تُعدَّ له المكان.

حسناً، لقد كان في الثامنة عشرة من عمره، ليس إلا، وقادماً من ميلانو، ويحمل على كاهليه ثِقَلَ آمال كبيرة. ويمكن لأي من هذه السِّمات أن تُعَدَّ ذريعةً لقلَّة الإحساس وبلادة المشاعر.

وبعد أن أجلس سپينيسي نفسه، نظر حول الطاولة، كمن يتحدَّى أن يعارضه أحد. ولكنَّ أحداً لم يفعل. ليس بداعي الخوف بالطَّبع، وليس لأنَّ أحزان فقدان دانيلو قد خفَّت. شعرتُ بكل بساطة -وأعتقد أنَّ الآخرين شعروا كذلك- بوجوب الاستمرار جميعاً في اللعب، وأنَّ حوادث من هذا القَبيل هي جزء من العمليَّة.

سينضج سپينيسي في الوقت المناسب، وسوف يسجِّل إذا حالفه الحظُّ مزيداً من الأهداف بما يكفي كي يستحقَّ المكان الذي استأثر به.

عاد أنطونلُّو مع صابرينا إلى المنزل لقاء عطلة نهاية الأسبوع. بدت، منذ عودتها في شهر يناير، هشَّة إلى حدٍّ ما. كانت قد أفرغت حقيبة يدها أكثر من مرَّة أمامي على الطاولة، مخرجةً زجاجات الأدوية المختلفة، شارحةً غاية كل زجاجة، وكيف أنَّ توليفة الدَّواء قد مكَّنتها من السيطرة على التوتُّر والقلق وآلام الصَّدر والكآبة والدَّوخة ووجع الرأس وعدم انتظام دقَّات القلب وخدر الأطراف والأرق ونوبات البكاء الطويلة.

رثيتُ لحالها، مثلما رثيتُ حال صديقي أنطونلُّو الذي كان متزوِّجاً من حالة مرضيَّـة قد تنفجر في أي لحظة[156]. وعلى الرغم من ذخيرة الأدوية التي لدى صابرينا، فسرعان ما سوف تشتكي من أحد الأعراض التي ذكرتها، أو أكثر من عَرَض، فتمسك بذراعي وتخبرني -أو تخبر مارتشيلَّا أو أي شخص متاح- أنَّها قد يئست حقاً من إمكانيَّـة أن تُردَّ إليها عافيتها ثانية.

هاتفني أنطونلُّو ليلة الإثنين. أخبرني أنَّه قد جرح نفسه في أثناء محاولته إصلاح علاقته بصابرينا في عطلة نهاية الأسبوع، ويعتقد أنَّه سيتلقَّى علاجاً جسدياً أفضل في ريميني، التي لم تكن تبعد كثيراً عن فانو، ولهذا لن يتمكن من العودة هذا الأسبوع من أجل التَّدريب.

فسألته إن كان قد أخبر أزڤالدو، فقال إنَّه قد فعل ولكنَّ ردَّ أزڤالدو كان تجديفياً ومُهيناً. لقد اتَّهمه بالبقاء في فانو لأنَّ «المجنونة صابرينا» قد أصرَّت على ذلك، ثم قال إنَّ صابرينا تدمِّر مسيرة أنطونلُّو المهنية كلاعب كرة قدم، أو أي مهنة أخرى قد يزاولها بعيداً عنها.

سألني أنطونلُّو ماذا ينبغي عليه أن يفعل، فنصحته العودة على الفور، وأن يلتحق بالتدريب غداً، ويضع نفسه تحت تصرُّف مدرب كاستل دي سانغرو والأطباء العاملين لديه. وبذلك لن يستطيع ياكوني اتِّهامه بالتَّمارُض على الأقل.

قال بالإنكليزيَّـة: «ولكن، ثمة مشكلة يا جُو»، ثم أخبرني بالإيطالية ما لم يقله لياكوني؛ أنَّ صابرينا قرَّرت أن لا فائد ترتجى من جميع أدويتها، وأنَّ شفاء عللها الوحيد يكمن في الوخز بالإبر. والله وحده يعرف من أي مجلة أو برنامج تلفزيونيٍّ أخذت تلك الفكرة، ولكنها تخطط للبدء في العلاج فوراً، وترغب في أن يظلَّ أنطونلُّو معها، خلال الأيام الأولى على الأقل.

«وخز بالإبر، يا أنطون؟ في فانو»؟

فأجاب: «مَن يدري!». إنَّه ما أرادته صابرينا، وسوف يكون. ويعتقد أبوها وأمُّها، اللذان عاشا معهما حين كانا في فانو، ضرورةَ أن يبقى أنطونلُّو (لَمَّح إلـيَّ أكثر من مرَّة بأنَّ أبويها لم يسامحاه بعد على جعلها تحبل قبل زواجهما).

فسألني: «ماذا علـيَّ أن أفعل»؟

فأجبته: «أنَّى لي أن أعرف بحقِّ الجحيم»؟

لم يكن ما قلته الشَّيءَ الأكثر تشجيعاً، ولكنني أحياناً حين أتحاور بالإيطالية، ولاسيَّما على الهاتف، أتلفَّظ بأول عبارة تعنُّ على بالي، قد تبدو مناسبة في العموم، بدلاً من الدخول في تلك العمليَّـة البطيئة المُرهقة من البحث عن الكلمات التي قد تعبِّر عما أردت قوله حقاً.

فقال لاعب كرة القدم الإيطالي، بدوري الدرجة الثانية، هذا، الذي يبلغ من العمر خمسة وعشرين عاماً: «آه، يا جُو. إنَّها محن الحياة وابتلاءاتُها».

فأجبته «إِنْفَاتِّهْ infatti»، التي تعني «أصبتَ»، إلى حدٍّ ما.
وكان الموسم الطويل والشَّاقُّ يمرُّ ببطء.

أدركت أنني لم أرَ السيِّد ريتسا منذ عودتي. فخطر ببالي، نظراً إلى عمره والطقس المتذبذب، أنَّ الرجل العجوز قد يكون طريح الفراش مريضاً.

ولكنَّ باربرا أكدت لي أنْ لا شيء من هذا القبيل قد حدث. لقد كان في إجازته الشتوية السنويَّـة، التي يقضيها كل سنة في المملكة العربيَّـة السعوديَّـة.

«العربيَّـة السعوديَّـة»؟

فقالت: «أجل، يبدو أنَّ رياضة الغطس تحت الماء بديعة هناك على وجه الخصوص في بقعة معيَّنة بالبحر الأحمر».

«أنت لا تقولين لي، يا باربرا، أنَّ السيد ريتسا يذهب لممارسة رياضة الغطس تحت الماء»! كنت متأكِّداً أنَّ ثقل خطاياه وحدها ستجعله يتردَّى إلى القاع كأنَّ إسمنتاً قد صُبَّ على قدميه.

فوضَّحت قائلة: «كلا، يا جُو. من الواضح أنَّ السيِّد ريتسا لا يذهب بنفسه تحت الماء، أو حتى يسبح فيه. ولكنَّ ابنة أخته الأخرى، إيلينا، غطَّاسة متحمِّسة، على شاكلة زوجها، طبيب الأسنان الجرَّاح».

«ولكن، لماذا في العربيَّـة السعودية؟»

فقالت باربرا: «هذا ما أفهمه. وهذه مسألة أخرى لن أسأل عنها لـو كنـت مكانـك، لدى السيِّد ريتسا اهتمامـات تجاريـة فـي العربيَّـة السعودية».

«ماذا يفعل، هل يبني مسجداً هناك»؟

«أتمنَّى، يا جُو، أن تفكِّر قبل أن تتكلم مع الآخرين مثلما تفعل معي الآن. فقد يعدُّ أحدهم بعضَ تعليقاتك غير لائقة. بالإضافة إلى أنَّه ربما يكون من دواعي سرور السيِّد ريتسا أن يستمرَّ تمتُّعك بتعاون «لا سوتشتا»».

«لا مشكلة، يا باربرا. لسبب واحد، فمازلت لا أعرف كيف أكون مُتهكِّماً بالإيطالية».

فقالت: «شكراً لله. ولكنني مازلت أشعر أنَّ الأمور كانت أسهل حين لم تستطع فهم كلام أحد ولم يستطع أحد فهم كلامك».

كانت ابنة تِشيي، حمداً لله، تتماثل للشِّفاء التَّام، ولكنَّ زوجته بقيت مع الرَّضيعة في المستشفى، فغدا قائد الفريق زبوناً دائماً لدى مطعم مارتشيلَّا.

لاحظتُ، ذات ليلة، وقد تباطأت في الخروج، أنَّه يجلس وحيداً، يقرأ باهتمام شديد. وحين مررت بالمقصورة التي يجلس فيها، توقَّفت لأرى عنوان الكتاب. دهشتُ حين كان العنوان «غاتسبي العظيم».

فتوقَّدت قريحتي على الفور، وسألته: «هل يروق لك»؟ وضع الكتاب، وقد شاعت ابتسامة في وجهه الصَّارم. لم يخطر ببالي أنَّه قد أدرك أنَّني مازلت في مطعم مارتشيلَّا، ولكنني كنت في هذه اللحظة الشَّخص الذي أراد أن يراه بالضَّبط.

فردَّ، وهو ينقر على غلاف الكتاب: «نعم، إنَّه في غاية الجمال، وينطوي على بصيرة تستبطن الطبيعة الإنسانيَّـة». بدا وصفه هذا، في رأيي، وصفاً جيداً من جملة واحدة لما يتمتَّع به غاتسبي.

ولكنَّ تِشيي كان لديه سؤال محدَّد. فأشار إلـيَّ كي أجلس، ثم راح يخطُّ سريعاً على محرمةٍ ورقيَّـة بقلم حبر.

وسأل: «هل تقع لونغ آيلند شرقَ مدينة نيويورك أم غربها»؟

فقلتُ بكل ثقة: «في الشَّرق». وطالما الموضوع يتعلَّق بالجغرافيا، فأنا في مأمن من الخطأ. ولقد كانت لونغ آيلند تقع شرقَ مدينة نيويورك بكل تأكيد.

زلق المنديل إلـيَّ، فأومأت برأسي. لقد رسم تِشيي تصويرة دقيقةً، على الرَّغم من أنَّها أوليَّـة، للعلاقة الجغرافيَّـة بين لونغ آيلند ومدينة نيويورك.

فقلت: «هذا صحيح».

ولكنَّ داڤده هزَّ رأسه.

ثمَّ سأل: « ثمَّة بيضتان في الكتاب، أليس كذلك»؟

«عفواً؟ لا أفهم، يا داڤده».

فكرَّر: «بيضتان. بيضة شرقيَّـة وبيضة غربيَّـة».

فقلت: «آه، بالطَّبع! إيست إغ East Egg وَوِست إغ West Egg. نعم، نعم».

فأجابني: «على أي حال، إنَّني في حيرة من أمري». فنظرت عن كثب إلى خريطته. لقد رسم شكلَيْن بيضاويَّين حيث يمكن أن تقع البلدتان الساحليَّتان، إيست إغ ووست إغ، لو كانتا حقيقيَّتين. قال إنَّه يفهم وجود «إيست إغ»، ولكن كيف يمكن لمكان أن يُدعى «غرب» ويكون في الوقت ذاته «شرق»؟ فلو كان «غرب»، فلا يمكن إذاً أن يكون شرقَ مدينة نيويورك، وبذلك لا يكون مجاوراً لـ «إيست إغ».

يا إلهي، كيف يمكن أن أفسِّر لرجل وُلد وترعرع، في نطاق 100 كيلِومتر من فلورنسا، أنَّ بالإمكان في أمريكا أن تدعى إحدى البلدات «غرب» لأنَّها موجودة بكل بساطة غربَ بلدة مجاورة تحمل الاسم ذاته، حتى لو كانت البلدتان تقعان شرقَ المدينة؟

حاولت، وأعتقد أنني لم أنجح، بسبب لغتي الفقيرة ومنطقه الحرفيّ، ثم قلتُ أخيراً: «خذها منّي يا داڤده. المسألة صحيحة».

فحدَّق لبرهة طويلة في خريطته ثم جعَّدها وأومأ برأسه إلـيَّ مبتسماً. حسناً. في هذه الحال، كلمتي تكفي. فأنا، رغم كل شيء، كاتب أمريكي وفتزجيرالد كان كاتباً أمريكياً، ولهذا من المفترض أنني مطَّلع على الأسرار الدفينة ذاتها، المتعلقة بالجغرافيا الأمريكية، التي اطَّلع عليها المؤلف ذاته.

قفزت أمريكا مرَّة أخرى في اليوم التالي، حين اقترب منّي لوتّي، قائلاً إنَّه يشعر بإحباط شديد لرفض ياكوني حتى التحدث إليه، ناهيك عن السماح له باللعب ثانيةً، وأنَّه مستعد لمغادرة الفريق، بل ومغادرة إيطاليا أيضاً، لو ضمن موقعاً لدى فريق من الدرجة الأولى في أي مكان آخر، ثم سألني عن دوري المحترفين الجديد في الولايات المتَّحدة.

وكان الفريق الوحيد الذي تربطني به علاقة ما هو: «نيو إنغلاند ريڤولوشن»، بيد أنَّ هذه الصلة ضعيفة إلى حدٍّ بعيد، لكونها مبنيَّـة في الأساس على معرفتي بلالاس الذي كان يلعب في هذه الأثناء هناك. وتبيَّن لي، على أي حال، أنَّ وكيل أعمال لالاس، الذي تناولت معه طعام العشاء عدَّة مرات، حين كنت في كاليفورنيا لتغطية محاكمة أو. جيه. سمسن، هو ذاته المدير الجديد لنادي «ريڤولوشن» [الثَّورة]. أخبرني أنَّ المدير الجديد، توماس رونغن، قال إنَّه في أمس الحاجة إلى حارس مرمى من الطراز الأوَّل.

وهكذا اقتحمتُ، لفترة وجيزة، عالم وكلاء الأعمال. أرسلت رسالة حماسيَّـة بالفاكس إلى رونغن بشأن لوتّي، فردَّ على الفور، حاثاً لوتّي على أن

يرسل إليه أشرطة ڤيديو لبعض المباريات. وفي خلال ثمانٍ وأربعين ساعة، استلم رونغن الأشرطة، واتصل بي هذه المرَّة بالهاتف بدلاً من الفاكس.

قال رونغن: «يبدو الرجل رائعاً. جيداً جداً لدرجة لا تصدَّق. ولكن أخبرني ثانية، لماذا يجلس في مقاعد الاحتياط على الرغم من أنَّه قد تعافى من الإصابة»؟

فقلت: «قد تجد صعوبة في تصديق ما سوف أقوله، أيها المدرِّب رونغن، ولكنه صحيح. السبب الوحيد لعدم لعب لوتّي، الذي هو السبب الوحيد لرغبته في اللعب لدى فريقك، هو أنَّ علاقة المدير الفني هنا بحارس المرمى الآخر، علاقة الأب بابنه، ولهذا فهو بكل بساطة لا يرغب في عودة لوتّي إلى موقعه السَّابق».

فقال رونغن: «هذا سخيف. أرجو المعذرة على فظاظتي، ولكن لا يوجد مدير محترف في أي مكان في العالم يمكن أن يكون غبياً بما يكفي لإبقاء حارس مرمى أفضل من الحارس الآخر، على مقاعد الاحتياط، لمجرَّد أنَّه يحبُّ الحارس الأسوأ. لقد مضى على وجودي في هذا المجال بضع سنين، فدعني أقول لك: إذا كان ينبغي عليَّ في كل عام أن أُعدَّ تشكيلة فريق من لاعبين تروق لي شخصيَّاتهم فحسب، لكنتُ ماأزال أبحث عن أحد عشر لاعباً لتشكيلتي الأولى».

«أفهم. ولكنَّ مديرنا هنا، السيِّد ياكوني، حسناً.. ليس من السهل تفسير قراراته دائماً».

فقال رونغن: «كلا، كلا، كلا. مع بالغ الاحترام، يا جيم».

«جُو».

«عفواً»؟

«اسمي الأوَّل جُو، وليس جيم».

«أوه، أنا آسف. ولكن كما ترى، هذا جزء من المشكلة. أحكامك موضع تقديرنا تماماً، فأنا لم ألتق بك في حانة متواضعة على قارعة الطريق، ولكنَّ شيئاً يتعلق بهذا الوضع لا يروق لي. فإذا كان الرجل جيداً كما يبدو، وإذا كان قد تعافى من إصابته حقاً، فإنَّني لا أفهم لماذا لا يلعب».

«ولا أنا، أيها المدرب رونغن. ولا أحد في الفريق يفهم أيضاً. ولا في البلدة. ولكن كما ترى، فإنَّ المدير وحارس المرمى الآخر، حسناً، لقد أعطت صديقته، على سبيل المثال، المديرَ تمثالاً خزفياً عاريا هديةً في عيد ميلاده».

«عفواً؟»

«أوه، لا عليك».

فقال رونغن: «انتظر لحظة. لقد أثرت اهتمامي. أي الحارسَيْن له تمثالٌ عارٍ»؟

«كلا، كلا، إنَّه المدير».

«اللعنة. تمثالٌ عارٍ، ومازال هذا الشخص يدرِّب في دوري الدرجة الثانية؟ لا بُدَّ أنَّه قد كرَّس نفسه لهذه اللعبة حقاً».

«كلا، كلا، إنَّها مزحة فحسب. في عيد ميلاده. لقد بلغ الخمسين».

«اسمع يا جُو، أعتقد أنَّنا نخرج عن الموضوع. سأقول لك زبدة الكلام الآن: حقيقة أنَّ لوتي لا يلعب تقلقني. إذا غادر مقاعد الاحتياط ولعب، أرسل إلـيَّ الشريط. أما إذا بقي بالجودة التي يبدو عليها، فلا بُدَّ من قدومه إلى هنا كي أرى أداءه، ولكن ليس قبل أن يتمكن من اللعب هناك».

غنيٌّ عن القول أنَّ لوتّي لم يكن مسروراً حين أخبرته بما جرى. شحب وجهه من شدَّة الغضب، ثم راح يقبض كفَّيه ويرخيهما. حاولت يائساً التفكير في شيء قد يجعله يشعر بالرَّاحة.

فسألته: «هل سبق أن سمعت بـ «كاتش-22»[157]؟ على الرغم من معرفتي أنَّ أذواقه في المطالعة تميل إلى الكتب المعنيَّة بسباق الخيول الإيطالية أكثر من تلك المعنيَّـة بالأدب.

فهزَّ رأسه.

«حسناً، لا يهمُّ. ولكنَّ المسألة تتلخَّص في أنَّك إن أردت اللعب في بوسطن، فيتوجب عليك أن تلعب هنا ثانيةً أوَّلاً».

«ولكنَّني إذا لعبتُ هنا، لن أحتاج إلى بوسطن».

فقلت: «هذا هو كاتش-22، يا ماسيمو».

27
مباراة على الماء

أيقظني صوت البطِّ مبكِّراً يوم السَّبت. كان النهار بديعاً مرَّة أخرى. وتحت سماء صافية ونسيم خفيف، ارتفعت درجة الحرارة إلى خمسين درجة فهرنهايت [10 درجات سيليزية] بحلول الساعة 9 صباحاً.

تمشيتُ إلى الحصَّة التدريبية، ثم سرت رفقة ميكليني وبونومي في الملعب الجديد. أدهشتنا حالته الجيدة. من الواضح أنَّ الطَّقس قد ساعد، ولكن لا شك أنَّ الخبير القادم من الشمال كان يعرف صنعته جيداً. سيكون الملعب بمثابة أرضيَّة مثالية إلى حدٍّ ما لخوض مباراة الغد ضدَّ فوجيا.

كان يوم الأحد يوماً رائقاً، حتى إنَّ الصباح كان منعشاً، ودرجة الحرارة تصعد إلى ستِّين درجة [فهرنهايت] ولا ريح بتاتاً. انضممت إلى الفرقة بمطعم مارتشيلَّا لتناول وجبة ما قبل المباراة، التي تجمع الإفطار والغداء معاً، والمكوَّنة من المعكرونة والكعك والفواكه، ثم سرت بتؤدة عبر ساحة البلدة المزدحمة. كانت الأجواء في غاية البهجة والحيوية، إلى درجة أنَّني لو امتلكت شَعراً غزيراً، لأغوتني بوضع وردةٍ فيه.

جاءت الصَّدمة حين دخلت عبر بوَّابات الاستاد ونظرت إلى الملعب. كان مغموراً بالماء على بكرة أبيه! لقد أضحى، بين عشيَّة وضحاها، تلك الفوضى المشبعة بالماء، التي جُلب الخبير من الشمال لمعالجتها، مهما كلف الأمر.

كان نصف أعضاء الفرقة هناك لتوهم، في حين توافد مزيد من اللاعبين في تلك اللحظة. وقفت وسطهم. في شهر ديسمبر، بعد اندحارنا

في جنوا، عمَّ الحزن بسبب حالة الملعب. ولكن لا شيء في هذا اليوم سوى الغضب حين علموا واحداً تلو الآخر، من العمال، ما الذي جرى. كان غرافينيا -الذي بدا، على الرغم من «استقالته»، أكثر انهماكاً في إدارة الأمور من أي وقت مضى- قد أرسل طاقم عمال، تحت جنح الظلام، لإغراق الملعب بالماء، خشيةَ أن تكون فوجيا تمتلك فريقاً أفضل وأقوى وأسرع. من الواضح أنَّه كان يأمل في أن تُبطل تلك الأرضيَّـة المبتلَّة، والطَّرية، والزلقة، تفوُّقَ فوجيا.

كانت هذه صفعة في وجه كل لاعب في الفريق. لقد كانت طريقته، طريقة غرافينيا، في إخبارهم -على الرَّغم من المعجزة، وعلى الرَّغم من أدائهم المدهش في شهر يناير، وعلى الرَّغم من حقيقة أنَّ الآصرة التي بينهم قد غدت في ذلك الوقت أقوى، إلى درجة كدتُ لا أشك معها البتة في أنَّ أي واحد منهم قد يضحِّي بحياته من أجل الآخر- بأنْ لا فرصةَ لديهم بالفوز في منافسة عادلة.

جعلت هذه الفعلة من النَّهار البديع، والشمس الدافئة، والمعنويَّات التي كانت ترتفع على نحو ساذج، تبدو كأنَّها مهزلة. وجعلت مثاليات الـ «آلْتُوْ كالتشيو» [كرة القدم الرفيعة أو الباذخة] -التي لطالما تبنَّاها غرافينيا في كل مرَّة تتاح له فرصة الوقوف أمام مايكرفون أو كاميرا تلفزيونيَّـة، في نطاق مسافة يُسمَع فيها صوتُه- تبدو كأنَّها مهزلة.

لقد غُمر الملعب طيلة الليل إلى درجة أنَّ الماء كان لايزال، في الساعة 1:30 ظِهراً، قبل بدء المباراة بساعة واحدة، يلمع على السَّطح. بُهت لاعبو فوجيا عند وصولهم. غاص أولئك الذين جازفوا بالدخول إلى أرض الملعب، وهم يرتدون بذلاتهم وأحذيتهم الرسميَّـة، في الوحل إلى أعقابهم.

وراحوا يجأرون بالاحتجاج والشَّكوى، إلى درجة أوجبت على أحد مساعدي غراڤينيا أن يتقدَّم ليخبرهم بأنَّ صقيعاً شديداً ومفاجئاً قد ضرب الملعب في الليلة الفائتة، وها هو يذوب سريعاً في هذه اللحظة ما كان جليداً بالأمس. لم ينجم عن كلامه هذا سوى حملقاتٍ مرتابة وعدائيَّـة. ولكنَّ لاعبي فوجيا كانوا محترفين. فلقد حضروا لإنجاز عمل ما، ولسوف ينجزونه، ولاسيَّما أنَّ هذه المحاولة الواضحة، التي دُبِّرت بليلٍ، للفوز عن طريق الخداع، قد زادت من حماستهم.

فاز فريق فوجيا، 3-1. لقد كانت أسوأ مباراة خضناها على أرضنا في مرحلة الإياب بهذا الموسم، ولم يكن ذلك مفاجئاً، نظراً إلى حالة الصَّدمة التي انتابت اللاعبين حين شاهدوا منظر أرضيَّـة الملعب. ولم يكن أدنى منَّا مرتبةً، حين انتهت مرحلة الإياب، سوى فريقَيْن.

وهكذا، يومَ الإثنين، شاعراً مرَّة أخرى بأنَّ كبريائي الشخصيَّ كان على المحكِّ، دبَّجتُ سجالاً، مثلما فعلتُ اعتراضاً على حادثة روبرت پونيك. ولكنَّ لهجة هذا السِّجال كانت أقل لباقة.

سجالي بخصوص غمر الملعب بالماء

يا للهراء! كانت هذه الفعلة رعناء!
فلا حدودَ بداهةً لحماقة بعض النَّاس.
يتحدَّثُ أُزڤالدو عن الشَّخصيَّـة وعن
الذكاء السويِّ. والأسفاهُ ألَّا تُنصتَ
«لا سوتشتا».

ولكنَّ ذكاءهم ذكاء الهواة.
يلجؤون إلى كل خديعةٍ. ولكنَّهم،
حين يفعلون ذلك، لا يخسرون كل مباراةٍ،
وإنَّما شرفَهم أيضاً.
«فكما تزرع، تحصد»!

وقَّعتُ باسمي طبعاً، وتركت نسخة لغراڤينيا (بمغلف مغلق) في مكتب «سوتشتا». ولزقت واحدةً على جدار مطعم مارتشيلَّا. وزلقت واحدة تحت باب أزڤالدو، ثم ذهبت، في عصر ذلك اليوم، قبل التدريب، إلى غرفة تبديل ثياب اللاعبين ولصقت نسختين أو ثلاثاً على الجدران هناك، على شاكلة اعتراضي على حادثة پونيك.

لم يَبْدُ ياكوني، حين وصل، أنَّ السِّجال قد استفزَّه على الأقل، بل تركه في مكانه ولم يعمد إلى إزالته. وبعد خمس عشرة دقيقة، على أي حال، دخل غراڤينيا غرفة تبديل الثياب، كي يُلقي على مسامع اللاعبين خطاباً أمل في أن يكون خطاباً مُلهماً. لمح على الفور مُلصقاتي الصغيرة، فأزالها بنفسه، طاوياً كل نسخة، واضعاً إياها في جيب سترته. لم نتبادل النظرات ولا الكلمات.

وبعد يومين، انتهى الربيع الزائف. كانت فترة ما بعد العصر عاصفة وباردة، وهبط الظلام مُرخياً سُدوله. كنتُ عائداً مسرعاً إلى شقَّتي بعد التَّدريب، حين صادفت طبيب الأسنان الجرَّاح، زوج ابنة أخت السيِّد ريتسا، الذي حيَّاني فاندهشت. كان يمتلك عيادة بـ «ڤِيَا بِسْكِيرَا»، على بعد بضعة أبواب من العمارة التي فيها شقتي، ولكننا لم نلتق في الشَّارع من قبل.

لعلَّه كان يغادر، بعد أن ينهي عمله، ولكن من المحتمل أيضاً أنَّه كان ينتظر في مدخل العمارة التي بها عيادته، عارفاً أنَّني سأمرُّ بالجوار في هذا الوقت على الأرجح. كان يمسك، على أي حال، بنسخة من «سجالي» في يده.

كان طبيب الأسنان الجرَّاح، الذي ربما في نحو الخمسين من عمره ولديه شارب داكن وشعر أسود مُلَّسٌ إلى الخلف، في غاية المودَّة. فحين سألته عن رحلة الغطس تحت الماء في البحر الأحمر، راح يتغنَّى لخمس دقائق بآيات الجمال الخاصَّة التي تتمتَّع بها تلك المياه. كان يدخِّن سيكاراً (على الرغم من أنَّه ليس بحجم سيكار السيِّد ريتسا) فعرض عليَّ واحداً، فاعتذرت. أخيراً، أمسك بتلك النسخة من «سجالي» التي لديه.

ثم قال، مبتسماً: «هذا مثير. أتعتقد حقاً أنَّ ذلك هو ما حصل»؟

فقلتُ: «أعرف أنَّه كذلك، وكذا اللاعبون أيضاً. ردَّة فعلي لا تهمُّ، ولكنَّ ردَّة فعلهم ليست كذلك».

فقال وابتسامة عريضة ترتسم على محيَّاه: «آه، يا صديقي، أنت مخطئ في هذا. ردَّة فعلك في غاية الأهميَّة، ولاسيَّما حين تعبِّر عنها بنبرة في غاية.. في غاية.. «سْترِيْدُولُو stridulo». أرجو المعذرة، لا أعرف المقابل الإنكليزيَّ لهذه الكلمة، ولكن لا شك أنَّك قد فهمت الفكرة». ولقد فهمت. كانت الكلمة تعني «العالي» أو «المجلجل».

«حسناً، شعرت بالسُّخط الشديد حيال ذلك. ومازلت لغاية الآن».

فقال هذا الرجل الذي لم أتبادل معه مئة كلمة طيلة الموسم، وهو ينظر عبر الشارع تجاه شقَّتي: «أجل، ولكن، يا جو، يا صديقي العزيز، ويا جاري المفترض. إنَّ تأليف وثيقة مثل هذه قد يدفع بعضهم إلى الاعتقاد أنَّك سوف تقسو على «لا سوتشتا» في كتابك».

فقلت: «قد أفعـل، أو ربما لا أكاد أذكر المسألة برمَّتها. الكثير يعتمد علـى ما سيحدث في المستقبل».

فتح طبيب الأسنان الجرَّاح ذراعيه على اتساعهما، ونظر إلى السَّماء، كأنَّ الله قد ألهمني قول تلك الكلمات: «الكثير يعتمد على المستقبل. إنَّك لتنطق بحكمة عظيمة. وآمل، كما تعرف، أن يشعر السيِّد ريتسا على هذا النَّحو. فلا أحد، ولا حتى هو، يستطيع التَّنبؤ بالمستقبل. ولهذا السبب، أعتقد أنَّ السيد ريتسا يهيِّئ نفسه لكل «إِڤِنِيتْسَا evenienza»، أعتقد أنَّك تستطيع القول: «احتمال eventuality».

لاحظـتُ، وقـد بدأت العَتَمَةُ تزحف على نور الشَّفق، أنَّه لـم يعد مبتسماً. وعصفة ريح سريعة جعلتني أرتعش من البرد.

ثم واصل طيب الأسنان الجرَّاح كلامه: «على فكرة، لقد طلب منِّي السيِّد ريستا أن أبلغك تحيَّاته. هل كلٍ شيء مريح في الشقة»؟

فقلت: «مريح جداً. راجياً أن تبلِّغ السيد ريتسا عظيم امتناني».

«مِن كل بُدَّ، يا صديقي. سيُسرُّ السيِّد ريتسا حين يعرف أنَّك لاتزال مدركاً مدى اهتمامه المتواصل بكتابك».

ثمَّ جعَّد نسخة «سجالي» في يده، ولمسها بطرف رماد سيكاره إلى أن بدأ يتصاعد منها الدُّخان. وشبَّ لهيب في غضون بضع ثوان، فألقى «السِّجال» سريعاً إلى الشَّارع. فحدَّقنا به في صمت وهو يحترق.

ثم قال: «لا بُدَّ أن أذهب. بيد أنَّني آمل في أن تتذكر لماذا جئت إلى هنا في المقام الأول. كان ذلك للكتابة عن معجزة فريق كرة القدم، بحسب ما أذكر. وسيكون من المؤسف لو غابت هذه المسألة عن بالك».

فقلت: «أشكرك. لن تغيب المسألة عن بالي بالطَّبع. وآمل كثيراً في ألا يكون قد وقع سوء فهم دفع السيِّد ريتسا أن يفكر بخلاف ذلك».

فنظر إلى ما تبقَّى من «سجالي»، الذي يتعالى منه الدخان محترقاً، وقال: «لا أحد يعرف».

ثم نظر إلـيَّ، كأنَّه قد تذكَّر حقيقةً غابت عن باله طويلاً، وقال، مبتسماً مرَّة أخرى: «كنت أنوي أن أخبرك، يُا جُو، إذا واجهتك أي مشكلة بخصوص أسنانك -أي مشكلة- فيشرِّفني أن تنشد العلاج لديَّ أوَّلاً. لا تدع كُنيتي الوظيفيَّـة تفزعك. فالجراحة ستكون، بالنسبة إليك، الملاذ الأخير، ولن تُجرَى إلا عند الضرورة القصوى».

فتح باب سيَّارته وصعد فيها. كانت السيارة من أجود الطُّرز التي صنعتها شركة أودي، وجديدة جداً.

فقال، وهو يبتسم إلـيَّ حين شغَّل المحرِّك: «سيارة دفع رباعي»، ثم قذف سيكاره في الشَّارع، فوقع في نطاق بضع بوصات من رماد «سجالي».

وكرَّر: «سيارة دفع رباعيٍّ. لا بُدَّ للمرء أن يأخذ كافة الاحتياطات في هذه الجبال»، ثم نقر بطرف إصبعه المفتاح الذي يغلق النافذة وقاد السيارة مبتعداً.

سرحت بأفكاري، للحظة، في شهر سپتمبر، حين كانت الحياة تبدو بسيطة والكالتشيو ليس إلا مسألة تسجيل أهداف. عبرت الشارع، وصعدت السلالم المعتمة إلى شقَّتي الباردة والفارغة.

خسرنا، خلال الأسابيع الثلاثة التالية، أمام كريمونييسه، 2-1 (سجَّل الهدف بونومي من ضربة جزاء)؛ وفزنا على پاليرمو في أرضه، 1- صفر (وهو أوَّل هدف يسجِّله سپينيسي في المباراة الخامسة التي لعبها معنا)؛ ثم تعادلنا، صفر-صفر، على أرضنا، مع كييڤو ڤيرونا. ظلَّ دي يوليس

حارس مرمانا. أظهرت قائمة التَّصنيف أنَّ ست أفرقة قد حلَّت بعدنا، ولكنَّ الفارق بيننا وبين المركز الأخير أربع نقاط فحسب. لا شك أنَّ الوضع خطير ودقيق، بَيْدَ أنْ لا خيارَ أمامنا سوى المجازفة.

تعرَّض لوقا دانجلو إلى الإصابة، في مباراة كييڤو، حين صدمه أحد المهاجمين. لم يكن ثمَّة سوء نيَّـة وراء تلك الخبطة، ولكن من الواضح أنَّها قد أصابت لوقا بسوء شديد. ولكنَّه أصرَّ، رغم ذلك، على مواصلة لعب الدقائق التِّسعين بأكملها، والتجهُّم لم يفارق محيَّاه، دون أن يفقد فعاليَّته.

وصل لوقا يومَ الثلاثاء التالي إلى التدريب مبكِّراً، حاملاً مظروفَ مانيلا كبيراً. كانت في داخل المغلف صور أشعة سينيَّـة أُخذت له في مستشفى پسكارا في اليوم السابق. بيَّنت الصور بكل وضوح أن فكَّه قد كُسر. لقد لعب نصف الساعة الأخيرة يومَ الأحد بفكٍّ مكسور، ولم ينبس بكلمة شكوى واحدة.

عُولج العظم المكسور، بمستشفى پسكارا، بوضع أسلاك أوليَّـة حوله، ولكن من الواضح أنَّه كان في حاجة إلى مزيد من العناية الطبيَّـة، ومن الواضح أيضاً أنَّه لن يكون قادراً على التهام الأطعمة الصَّلبة -ناهيك عن اللعب- لبعض الوقت.

وحين وصل ياكوني، اقترب منه لوقا وأراه صورة الأشعَّة. رفع ياكوني كل صورة عالياً في أشعَّة الشَّمس وحدَّق فيها على الشَّاكلة التي من المفترض أنَّها تحديقة اختصاصي أشعَّة متمرِّس.

وطوَّح بالصُّور على التُّراب، وقد امتقع وجهه بتلك الحُمرة الدَّاكنة التي تصاحب نوبات غضبه الشَّديد، وراح يجأر بأعلى صوته.

«أنت مخنَّث! عاهر قذر! وجبان رعديد»!

فانحنى لوقا بهدوء والتقط صور الأشعَّة قبل أن يَلحَق بها ضرر إضافيٌّ.

فصاح ياكوني «اخرج! اغرب عن وجهي! لا تجعلني أراك!» لم أجرؤ على سؤال أُزڤالدو، إلا حين حلَّ وقت العشاء، عما قدح شرارة غضبه، عدا احتقاره المُبطَّن لدانجلو، الذي ينطوي على سوء نيَّة.

ولكنَّني دهشتُ حين شرح الأمر بكل هدوء. حتى إنَّني قد دهشتُ أكثر، حين بدا أنَّه ينظر إلى ردَّة فعله تلك، والشَّرح الذي قدَّمه، على أنَّهما عقلانيَّان على حدٍّ سواء. لم يكن يتوجب على لوقا الذَّهاب إلى المستشفى في پسكارا. كان ينبغي عليه الانتظار حتى عودته إلى كاستل دي سانغرو ثم يجري صورة الأشعَّة السينيَّة هنا.

كان اختصاصي الأشعة، هُنَا، سيُري الصُّور إلى طبيب الفريق، الذي سوف يريها بدوره إلى أُزڤالدو، الذي سوف ينظر بدوره إلى الكسر على أنَّه غير خطير -فالعظم لم يكن، في نهاية المطاف، ناتئاً من الجلد!- مخبراً دانجلو أنَّ صور الأشعَّة لم تُظهر وجود أي ضرر، طالباً منه العودة كالمعتاد إلى التَّمرين.

ولهذا، فإنَّ مواجهته بصورة الأشعَّة التي تبيِّن الكسر بصورة واضحة، ستمنعه من فعل ذلك، وكان يعرف أنَّ دانجلو يعرف أنَّه لن يكون قادراً على فعل ذلك، ولهذا ذهب هذا «الشيوعيُّ المخنَّث» إلى المستشفى بپسكارا في المقام الأوَّل.

ثم قال أُزڤالدو، حسناً، إن كان دانجلو خائفاً من خوض مباراة رجوليَّة، فلن يغضبه على ذلك أحد. يمكنه قضاء ما تبقَّى من الموسم في دكَّة الاحتياط أو في المنصَّة. ذكر أزڤالدو أنَّه كان على وشك أن يرسل

دانجلو، في شهر نوفمبر الماضي، ليلعب في الفئة الأولى بدوري الدرجة الثالثة، لأنَّه رأى أنَّ لوقا يفتقر إلى المثابرة المطلوبة لقضاء موسم بأكلمه في كاستل دي سانغرو.

ولكنَّ غراڤينيا والسيِّد ريتسا رفضا القرار، فلم يستطع مقاومة رغبتهما، في أعقاب الضجَّة التي أحدثتها قضيَّـة آدو، بالقَدْر الذي كان يستطيع. بيدَ أنَّ هذا التصرُّف الجبان من طرف دانجلو -أن يعمد إلى تصوير فكه المكسور بالأشعَّة السينيَّـة، في اليوم الذي تلا لعبه مباراة كاملة رغم تحمُّله ألم الإصابة- سيقنعُ جميع الذين قد لايزالون على الحياد -ومن ضمنهم أنا، حذَّر ياكوني، مشيراً بإصبعه نحوي- أنَّ دانجلو، كجميع الشيوعيِّين، يفتقر إلى «الشخصيَّـة».

تلقَّيتُ، في وقت لاحق من تلك الليلة، رسالة بالفاكس من المدرِّب رونغن. قالت الرِّسالة: «مازال لاعبك جالساً في دكَّة الاحتياط يتفرَّج، لذا فسوف نقدِّم عرضاً لاستجلاب ولتر زينغا بدلاً منه». أُعلن بعد ثلاثة أيام بأنَّ زينغا سوف يغادر پادوڤا متوجِّهاً إلى بوسطن، لقاء راتب 500000$ طيلة الموسم. أما لوتِّي، الذي حصل على درجة أعلى من زينغا في تنصيف حرَّاس المرمى الذي أصدرته «كورِّيره ديلُّو سپورت»، والذي كان يصغره بسبع سنوات أيضاً، فقد كان سيوافق على الذهاب إلى أمريكا لقاء عشر ذلك المبلغ.

تقبَّل لوتِّي الخبر أفضل مما تلقيته، فأخبرني ألا أقلق، شاكراً إياي على المحاولة، حتى إنَّه منحني قلم حبر ناشف مذهَّباً كبادرة امتنان وتقدير. كان يطلب منِّي أن أظلَّ هادئاً. سيقف على قدميه ثانيةً، فهو يمتلك «قوة الإرادة la risolutezza»، كما قال. لم أشك في ذلك، ولمصلحة الفرقة -التي

كانت في تلك الفترة مصلحتي أيضاً- سررتُ لأنَّه سيبقى. لو أنَّ ياكوني يدرك ذلك أخيراً، فحسب.

بصراحة، كان جيجي بريتيه اللاعب الذي قلقت بشأنه على نحو أكثر. فلقد كان، طيلة الموسم، اللاعب الأضعف بين المدافعين، ولكنَّ خبرته كانت ذات أهميَّـة، سواء في الملعب أو في غرفة تبديل الثياب. أضحى أحدث المتردِّدين بانتظام على مطعم مارتشيلَّا، فزوجته، ڤانيسا، لم تعد من تشيلي بعد انتهاء أعياد الميلاد.

يبدو أنَّه لم يتعافَ بعد من آثار فعلته المروِّعة في المباراة ضدَّ كوزنتسا[158]. لذا، فقد توجَّب استبعاده من التشكيلة لصالح فرانكيتشيني، ولم يجلس حتى على مقاعد الاحتياط بسبب الحماقة التي ارتكبها في مباراة الأسبوع التالي ضدَّ فوجيا. لعب مباراة كاملة، بلا تميز، في كريمونا، ولكنَّه استبعد مرَّة أخرى ضدَّ پاليرمو، ولعب في آخر اثنتي عشرة دقيقة في مباراتنا التي تعادلنا فيها مع كييڤو بلا أهداف.

خطر ببالي ذات ليلة بمطعم مارتشيلَّا أن يكون جيجي راغباً في استخدام آلة الفاكس خاصَّتي ليبقى على اتصال وثيق بڤانيسَّا. فلقد مضى على غيابها لغاية الآن ستَّة أسابيع، ولم تكن تعرفة الاتصالات الهاتفية بين إيطاليا وتشيلي رخيصة، ولم يكن جيجي من بين لاعبينا الذين يتلقَّون أجوراً مرتفعة، فربما يتقاضى 35000$ في الموسم الواحد. لذا، فقد سألته إن رغب في أي وقت، فسوف أعطيه مفتاح شقَّتي، فيذهب ويرسل رسالة بالفاكس إلى ڤانيسا، متمتِّعاً بخصوصيَّـة مطلقة، وسأبقي الكلفة بكل بساطة على فاتورتي ولن أحمِّله إياها.

فرفع ناظريه من على كوب القهوة الفارغ الذي كان يحدِّق فيه تغمره الكآبة، مطفئاً عقب سيكارته الأخيرة من تلك السكائر الكثيرة التي دخَّنها. ابتسم، ولكنها كانت ابتسامة شاحبة.

ثم قال: «شكراً، يا جُو، لا ضرورة لذلك».

آه، اللعنة! أدركت فجأة ما الذي يجري: أزمة زوجيَّـة من نوع ما. من الواضح أنَّ المسألة لا تخصُّني، فشعرت بالحماقة على الفور لأنَّني عرضت عليه الأمر الذي وضعه في موقف محرج دفعه إلى رفض ما بدا، في شكله الظاهريِّ، معروفاً حقيقياً.

فقلت، ناهضاً عن الطاولة بسرعة: «حسناً، أرجو أن تبلِّغ ڤانيسا تحياتي الحارَّة، حين تتحدث معها في المرَّة القادمة».

«بالتأكيد، يا جُو»، ثم لوَّح لي نصف تلويحة حين هممت بالخروج.

أعتقد أنَّني قد وصلت مبكِّراً لتناول وجبة الغداء بمطعم مارتشيلَّا في اليوم التالي، على الرَّغم من أنَّه قد يكون اليوم الذي تلاه، فدخلت في الوقت ذاته الذي وصل فيه ساعي البريد لتسليم ما عُدَّ بريداً سريعاً في كاستل دي سانغرو.

فنادى، وهو يحمل مظروفاً: «بريبته». وقَّعت مارتشيلَّا نيابة عنه، كما هي العادة. كان اللاعبون يستلمون قدراً كبيراً من بريدهم الشخصيِّ في مطعم مارتشيلا، حيث لم يرغبوا، لسبب أو آخر، أن تطلع «لا سوتشتا» على تلك الرسائل. حتى إنَّني قد استخدمت عنوان مطعم مارتشيلَّا، حين أرسَلت لي نانسي بعض البريد السَّريع، لمعرفتي أنَّ شخصاً سيكون هناك للتوقيع نيابة عنِّي بالاستلام، بدلاً من استخدام عنوان شقتي التي نادراً ما أوجد فيها.

قالت مارتشيلَّا، وهي تتفحَّص المظروف وابتسامة عريضة ترتسم على محيَّاها: «آه! حسناً، حسناً. رسالة بالبريد السَّريع من ڤانيسَّا». لا بُدَّ أنَّ الرسالة سوف ترفع من معنويَّات جيجي الذي كانت مارتشيلَّا تقلق بشأن صحَّته النفسيَّـة كما لو كان أحد أبنائها.

ولكنَّ ساعي البريد قال، حين أخذ وصل الاستلام: «انظري إلى عنوان المرسل. ليس في أمريكا الجنوبيَّـة وإنما في روما»! وكان الأمر صحيحاً. قد أرسلت ڤانيسَّا رسالة البريد السَّريع من روما، على الرَّغم من أنَّها كانت لاتزال موجودة في أمريكا الجنوبيَّـة -بحسب ما يقوله جيجي- رفقةَ أختها المريضة.

خُطِفَ لون مارتشيلَّا، ثم وضعت يدها على خدِّها، وقالت: «يا إلهي! ما معنى هذا»؟

فقلت: «هذا يعني أنَّ ڤانيسَّا في روما، وليست في سانتياغو».

«آه، يا جُو، هذا خبر سيِّئ». ملت إلى الموافقة. قد يكون ثمَّة تفسير منطقيٌّ تماماً، يحوِّل الرسالة إلى خبر سعيد، ولكن يبدو أنَّ غريزة مارتشيلَّا في الأمور العائلية مُنزَّهة عن الخطأ.

كانت يداها ترتعشان في تلك الأثناء حين أمسكت بالمظروف. كرَّرت قائلة: «هذه مشكلة كبيرة».

لم يظهر جيجي بمطعم مارتشيلَّا لتناول وجبة الغداء في ذلك اليوم، فلم أعرف على وجه الضَّبط متى سُلِّمَ إليه المظروف وأين وكيف. لم أذكر، بالطَّبع، أنَّني قد شاهدت المظروف البتة. فإذا كان راغباً في إخباري أنَّ زوجته كانت في تشيلي، فمن غير اللَّائق أن أقول له إنَّني قد عرفت أنَّها موجودة في روما.

ولكنَّ جيجي بدا، خلال الأيام القليلة التي تبقَّت على مغادرتنا لخوض المباراة التي سوف تقام براڤينَّا في 9 مارس، مشوَّشاً تماماً. كان ذاهلاً في التَّدريب، يفتقر إلى التَّركيز، وانطوائياً. كانت قدماه على الأرض ولكنَّ «قلبه» لم يكُن، وبدا ذهنه شارداً أميالاً بعيدة.

وفي الحصة التدريبية يومَ الأربعاء، قبل يومَيْن من مغادرتنا إلى راڤينَّا، كتبتُ في مفكِّرتي: «إما أنَّ جيجي قد جُنَّ جنونه وإما أنَّه يشعر بخوف شديد، بيد أنْ لا دخل للكالتشيو في كلا الحالتَيْن. مشاكل مع ڤانيسَّا؟ لا بُدَّ أن أفكِّر في ذلك، أكثر فأكثر».

يمكن للمرء أن يقول إنَّني كنتُ على صوابٍ انطلاقاً من الحيثيَّات الخطأ.

تناول جيجي الطعام بمطعم مارتشيلَّا ليلةَ الخميس، ولكنَّه تلكأ في الخروج بعد الوجبة، وكذلك أنا. شعرت بضرورة ألا أسأله عن ڤانيسَّا، فسألته عوضاً عن ذلك، إن كان يشعر، مثلما شعرتُ، أنَّ أداءه في اللعب قد تدهور في الأسابيع الأخيرة .

لقد لعب، خلال النصف الأول من الموسم [مرحلة الذَّهاب]، في ثماني عشرة مباراة من أصل مبارياتنا التِّسع عشرة، أكثر من أي مدافع آخر في الفريق، وعلى الرَّغم من أنَّ درجة تقييمه التراكميَّة كانت 5,92، وهي الأدنى بين المدافعين، فإنَّ تقييماته كانت متساوقة، فلم يسبق أن حصل على تقييم أقل من 5,5. ولكنَّه في المباريات الخمس التي خاضها في النصف الثاني [مرحلة الإياب]، لم يحصل على تقييم إلا في اثنتَيْن: 5 في مباراة كوزنتسا و6 في مباراة كريمونييسه.

فهزَّ كتفيه، كأنَّ الأمر ليس ذا أهميَّة كبيرة، ثمَّ انفجر، فجأة، شاتماً ياكوني: «الأحمق، الغبي»، شاعراً أنَّه العقبة الكبرى أمام آمال الفرقة بتحقيق «الخلاص».

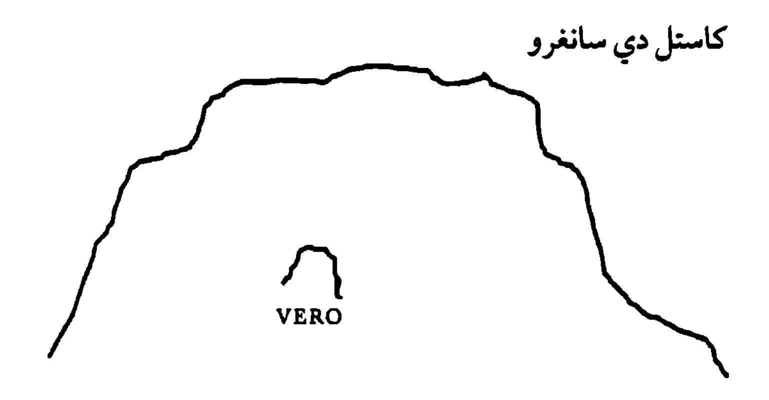
فقلت، مدافعاً عن جاري: «ولكن، يا جيجي، أليس صحيحاً أنَّ الفريق حين يكون على مقربة من الحضيض، فإنَّ اللاعبين دائماً ما يلومون المدير الفنيَّ، والمدير الفنيُّ يلوم اللاعبين؟ مثلما يريد كل امرئ أن ينسب الفضل إلى نفسه حين يكون الفريق في الصَّدارة»؟

فقال بحدَّة كادت تجفلني: «كلا!». لم تكن الحال كذلك في أي ناد آخر لعب فيه، ولقد لعب في بعض الأندية الرديئة على مرِّ السِّنين. كان ياكوني، على الإطلاق senza dubbio، أسوأ مدير فنيٍّ لعب تحت إمرته. لقد كان «فَالْصُوْ falso»، وهو مصطلح يحطُّ من قَدْر المرء إلى حدٍّ بعيد، ويعني في الإنكليزية، من ضمن ما يعنيه: المزيَّف، والمخادع، وغير الحقيقي.

ولكنَّ جيجي سارع إلى القول إنَّه ليس ياكوني فحسب، فلقد كانت بيئة كاستل دي سانغرو برمَّتها الشيء ذاته: مزيَّفة، وباطلة، وليست البتة كما تبدو على السَّطح. كانت ثمَّة «حثالة sordido»، تحت ذلك، ولا سيَّما «لا سوتشتا»، وذلك الـ «أَرُّوفُونِهْ arruffone» والـ «أَرُّوزُو arruso» غراڤينيا، بدرجة أكبر. (لم أستغرق وقتاً طويلاً لأعرف أنَّ معنى الكلمة الأولى هو «الأفَّاك»، ولكن ستمضي أسابيع قبل أن يستطيع أو يرغب أحد في شرح أنَّ معنى الثانية كان، في صقلية، بمثابة أشدِّ العبارات إساءةً يمكن أن ينعتَ بها المرءُ شخصاً آخر: لوطي).

ثم سألني جيجي، وقد تقطَّعت أنفاسه جرَّاء انفعاله في كيل تلك الشتائم المقذعة، أن أمرِّر له مفكِّرتي. فسلَّمته إياها، فخطَّ رسماً.

كاستل دي سانغرو



بدا معناه واضحاً بما يكفي: فما كان صحيحاً يمكن أن يندرج بسهولة في الجزء الصغير جداً من ذلك «الهراء» المحيط، الذي كان بالنسبة إليه هو كاستل دي سانغرو.

ولكنَّه لم ينته، فخطّ على الصفحة التالية بأحرف كبيرة:

ياكوني 1= فَالْصُوْ رقم 2
غراڤينيا = فَالْصُوْ رقم 1

ثم رسمَ سهماً تحت اسم غراڤينيا، كي لا يكون ثمَّة خطأ مُحتمَل، ثمَّ خطَّ، حيث ينتهي السَّهم: «كومة غائط PEZZO DI MERDA».

ثم نقر اسم ياكوني بقلمي: «كذَّاب. صديق مزيف».

وراح يغرز القلم في اسم «غراڤينيا» الذي خطَّه بأحرف كبيرة، ثم قال وقد ارتفع صوته فجأة: «لا أقول له سوى «مُورْتَاتْشّه تُوَا mortacci tua». لم أعرف ترجمة دقيقة لهذه العبارة، التي كانت ذات أصل روميٍّ[159] وليس صقلّياً، ولكنها ترتقي (أو تهبط) إلى درجة «أرُّوزو» (لوطي) كتعبير لفظيٍّ حافل بالدَّلالة ذاتها. فلو خطر ببالك أن يطلب منك شخص ما إن

تضاجع أمَّك الميّتة ثم جميع جثث أفراد عائلتك الميّتين، فسوف تتمكَّن من الوصول إلى الفكرة العامَّة التي تنطوي عليها هذه العبارة.

قال جيجي: «يمكننا، في شهر يونيو، حين ينتهي الموسم، أن نقول الحقيقة. تذكَّر: سأخبرك الحقيقة، في شهر يونيو، ولسوف تعرف، حينئذ، أشياء كثيرة لا تعرفها الآن، ولسوف تشعر بصورة مختلفة بشأن كثير من النَّاس».

ثم نهض سريعاً، وارتدى سترته الشتويَّـة، قائلاً «تشاوْ» على نحو سريع، وغادر. رجل غاضب. ولكنَّ الشَّيء الذي غاب عن بالي هو مدى الرُّعب الذي كان قد استبدَّ به.

28
الرجل الذي لا يُذكَر اسمُه

في العاشرة صباح اليوم التالي -يوم الجمعة الذي كنَّا سنغادر فيه لخوض المباراة في راقينَّا يوم الأحد- اقتحمت شقة جيجي قوة من ضبَّاط إنفاذ القانون، مكوَّنة من رجال مكافحة الجريمة الإيطاليين وعملاء الشرطة الدولية (الإنتربول)، يدعمها أعضاء من قوة خاصَّة بمكافحة الجريمة المنظَّمة (المافيا) مقرُّها روما، واقتادته مقيَّداً بالأصفاد إلى سجن «رجينا كُويْلِه»، سيِّئ السُّمعة، في روما.

وُجِّهت إليه تهمة الانتماء إلى عصابة دوليّـة، مقرُّها في تشيلي، مُتَّهمة بأنَّها قد هرَّبت كوكايينا تزيد قيمته على 25 مليون $ إلى إيطاليا. كانت ڤانيسَّا معتقلة. لقد اعتقلت في الواقع يوم الثلاثين من ديسمبر بمحطة القطارات المركزيَّـة في روما حين كانت تترجَّل من القطار السَّريع القادم من ميلانو، وهي حقيقة كان يعرفها جيجي منذ وقوعها، فأحاط غراڤينيا علماً بالخبر على الفور، رفقةَ صديقه الأقرب في الفريق، جياكومو غالِّي.

وكانت ڤانيسَّا، بعيداً عن حكاية بقائها بجانب سرير أختها المريضة، قد غادرت سانتياغو بعد يوم من انتهاء أعياد الميلاد المجيدة، عائدة إلى إيطاليا، عبر طريق غير مباشرة [للتَّضليل]، قادتها من بروكسل إلى أمستَردام ثمَّ إلى ميلانو. وجد بحوزتها، عند اعتقالها، 1,5 كيلو غرام من الكوكايين النقيِّ، في كيس واحد. فأودعت على الفور في سجن النِّساء بروما، حيث مازالت، بعد أن رُفض تكفيلها، خاضعةً إلى تحقيق متواصل.

وفي وقت المداهمة التي تزامنت مع اعتقال جيجي، دخلت قوة إضافية من عملاء إنفاذ القانون بيتَ غرافينيا، مُزوَّدين بمذكِّرة تفتيش. لم يعرف البتة إن كان أحدٌ قد وشى له بأمر المداهمة مسبقاً، أمْ أنَّ الحادثة كانت مجرَّد مصادفة، ولكنَّ غرافينيا لم يكن موجوداً بمنزله في ذلك الصَّباح بعينه. كان في الحقيقة قد ذهب بسيَّارته إلى روما، ثم عرفنا لاحقاً أنَّه على ما يبدو قد تشاور مع محامين سيكونون جاهزين للدِّفاع عنه إن رُفعت ضدَّه أي دعوى جنائيَّـة.

بَيْدَ أنَّ العملاء فتَّشوا المنزل ومكاتب «لا سوتشتا» على حدٍّ سواء، متحفِّظين على خزائن حديديَّـة وقاصات قال المتحدِّث الرسميُّ إنَّهم «يعتقدون أنَّها تحتوي على معلومات ذات علاقة بالتَّحقيق». وصف أحد التَّقارير بأنَّ منزل غرافينيا قد «قُلِبَ عاليه على سافِله» في ذلك التَّفتيش.

وحين عُلِمَ في أواخر النَّهار المكان الذي يوجد فيه غرافينيا، عرفنا أنَّه لم يُعتقَل وإنَّما تلقَّى «إخطاراً رسمياً avviso di garanzia» أنَّه قيد تحقيق جنائيٍّ. قال مدير قوة مكافحة الجريمة المنظَّمة (المافيا)، الدُّكتور نيقولا كافاليره، في مؤتمر صحافيٍّ، إنَّ غرافينيا واجه «اتِّهامات خطيرة»، مفادها أنَّه قد «مدَّ يد العون» لعصابة التَّهريب و«حرَّض على القيام بذلك». ثم قال الدكتور كالفيره، ردَّاً على أحد الأسئلة، إنَّه يعتقد أنَّ جيجي وغرافينيا «عضوان بارزان» في المنظمة الإجراميَّـة.

وكشفت السُّلطات أيضاً أنَّ عملاء سريِّين كانوا يعملون، بوصفهم مشجِّعين متعصِّبين، في كاستل دي سانغرو، وفي مراقص بروكَّاراسو المجاورة، لعدَّة شهور، ووُضعت منذ الأوَّل من شهر يناير أجهزة تنصُّت في هواتف غرافينيا.

وبُوشر بتحقيق إضافيٍّ في العلاقة المحتملة بين الكوكايين الذي قد يكون جيجي مصدره، وموت فرانكو غرافا، الذي يبلغ من العمر ثلاثة وأربعين، وجيوڤاني پيناكتشيوني، الذي يبلغ من العمر سبعة وثلاثين، بنوبة قلبيَّـة؛ وهما لاعبان سابقان في كاستل دي سانغرو، عُرفا أنَّهما من أصحابه المقرِّبين.

كنَّا مجموعة مشوَّشة حين صعدنا على متن الحافلة إلى راڤينَّا في الساعة الواحدة بعد الظُّهر. احتشدت الصحافة في أعداد لم نشهدها في البلدة من قبل -ولا حتى في المباراة الافتتاحية التي لعب فيها روبرت پونيك- وكانت جميع البوَّابات المحيطة بالاستاد قد أغلقت، فجنَّ جنون الصحافيِّين والمصوِّرين.

وقف ثلاثة حرَّاس عند بوَّابة موقف السيارات، سامحين بالدُّخول لسيَّارات اللاعبين، في حين كان فنِّيو الصَّوت بمحطَّات التلفزة يدفعون ميكروفونات عبر النوافذ المغلقة، والصحافيُّون يصيحون بالأسئلة، والمصوِّرون يؤرجحون معدَّاتهم الثقيلة كالهراوات. كنت أتمشّى، ولكنَّني صادفت سپينوزا، لحسن الحظِّ، قبل البوابات الرئيسية ببضع مئات من الياردات.

فهزَّ رأسه، قائلاً: «جحيم من الفوضى».

فسألته: «أهي كذلك حقاً»؟

فأجاب، وقد أشاح ناظريه عن الطريق لبرهة تكفـي كي تلتقـي عيناه بعينيَّ: «أُونِّي ڤِيرْ نُونْ إِي بِن دِتُّو Ogni ver non e ben detto». كانت تلك العبارة مثلاً يعني: «لا يجب أن تُقال الحقائق جميعها». تلك هي طريقته

المهذَّبة لإخباري ألا أطرح أسئلة غبيَّـة، أو كي لا أتوقَّع أجوبة صادقة، على الأقل، إنْ فعلت.

ولم نكد نصعد على متن الحافلة، حتى راح تِشيي يذرع الممرَّ جيئة وذهاباً، ليتأكَّد من فهم الجميع أنَّ الإجابة الوحيدة عن كل الأسئلة التي قد تُطرح، في هذه الأوقات، بصرف النظر عن السَّائل، هي بكل بساطة: «لا تعليق».

كانت الحافلة، في الأزمنة الماضية، ملاذاً مؤقَّتاً للهروب من الفوضى، ولكن ليس في زمن الهواتف الخلويَّـة. فلدى كل لاعب هاتف خلويٌّ، ويبدو أنَّ جميعها كانت ترنُّ في الوقت ذاته، منذ اللحظة الأولى التي غادرنا فيها موقف السيارات. تقع راڤينَّا على السَّاحل، وتبعد خمسة عشر كيلومتراً شمال ريميني، مما يعني أنَّ هذه الرحلة سوف تستغرق خمس ساعات فحسب، ولكنَّ هذه الحقيقة لم تمنع الزَّوجات والصديقات والآخرين من الاتصال باللاعبين في كل مرَّة تذاع فيها أخبار تحتوي على «حقيقة fatto» أو «شبه حقيقة quasi fatto» أو «شائعة voce»: لم يَبْدُ أنَّ أحداً من الموجودين على متن الحافلة قادر على التمييز بين هذه الثلاث.

وصلتنا معلومة، في الساعة الأولى، أن جيجي سيظلُّ في السِّجن ثلاث سنوات أو خمساً، قبل حتى أن يخضع للمحاكمة. وذلك لأنَّه عُدَّ مجرماً خطيراً جداً، نظراً إلى احتماليَّـة أن يهرب، علاوة على جدِّية الاتِّهامات الموجَّهة إليه، ولن تكون الكفالة ممكنة إطلاقاً في أي وقت من الأوقات. وهذا يعني أنْ لا أحدَ من الموجودين في الحافلة قد يراه البتة ثانيةً. كأنه، لجميع الأسباب العملية، قد مات ورحل إلى غير رجعة على شاكلة پيُّو ودانيلو.

ثم وردت في الساعة الثانية تقارير تفيد بأنَّ أجهزة التنصُّت على هواتف غرافينيا قد مكَّنت الشرطة من وضع قائمـة من الوعود المتكرِّرة المزعومة التي قطعها غرافينيا على نفسه تجاه جيجي في مقابل أن تواصل ڤانيسَّا رفض إفشاء أسماء المتورِّطين. قال المدَّعي العام: إنَّ غرافينيا كان «متورطاً coinvolgimento»، بلا أدنى شك.

وتوسَّعت الصُّورة أكثر، في الساعة الثالثة، بالنسبة إلى مدى تورُّط غرافينيا المزعوم. كان غرافينيا قد قال، في إحدى اتصالاته الهاتفية مع جيجي، وفقَ ما تقوله السُّلطات: «لا تقلق، سنعالج هذه المسألة». ولأنَّه لم يتمكن من فعل ذلك في الليلة السَّابقة، فإنَّ أقذع الشتائم التي كالها جيجي لغرافينيا في مطعم مارتشيلَّا، بدت، بالنسبة إلـيَّ على الأقل، تفسيراً جزئياً لحالة الغضب التي استبدَّت بهذا اللاعب.

ركب أحد مسؤولي «لا سوتشتا» في مقدِّمة الحافلة. كان هذا الشَّخص بمثابة «كَامِيلِّو cammello»؛ «الجمل» الذي يحمل في سنامه الماء تحسُّباً لعطش غرافينيا. وبدا واضحاً أنَّ هذا المساعد يحافظ على اتِّصال وثيق مع غرافينيا طيلة الرِّحلة.

جاء، في الساعة الرابعة، إلى مقعدي وتحدَّث إلـيَّ عن رغبةٍ في إجراء مقابلة، بالهاتف الخلويِّ، مع صحيفة «لا ريبوبليكا» التي تصدر في روما. فسألته: «رغبةُ مَن؟». كان تِشيي قد أوضح منذ البداية، وضوحاً لا لُبْسَ فيه، أنَّ «لا تعليق» هي الأمر الوحيد الصَّادر في ذلك اليوم. ولذلك، لم يُجب «الجَمَل». ولكنَّه، بدلاً من ذلك، وضع إصبعه على شفتيه، ورفع عينيه نحو السَّماء، ثمَّ هزَّ رأسه إلى الأعلى والأسفل بقوة، كأنَّ ياقة قميصه ضيِّقة جداً.

فقلتُ: «لست أفهم». لم أكن معجباً بهذا «الجَمَل» على وجه الخصوص. ولكنَّه انحنى علـيَّ حتى ظننتُ أنَّه سيعضُّ شحمة أذني، ثمَّ همس بصوت خفيض إلى درجة أنَّنـي لـم أكن متأكداً من أنَّني قد سمعته: «مِن فوق Dall'alto».

فقلت بصوت عاديٍّ: «مِن فوق». قفز «الجمل» كأنَّ أحداً قد صفعه على مؤخِّرته، ونظر حواليه وقد ثارت ثائرته ليرى مَن يمكن أن يكون قد سمع مصادفةً عبارتي المتهورة.

سمع ريميديو ما قلته، كي نُسمِّي أحداً، فمال عبر الممرِّ، وقال: «مِن فوق، يا جُو»، ثم أشار إلـى الأعلـى. أما سپينوزا، الذي كان جالساً خلفي، فقد مال إلى الأمام، ثم قال بصوت خفيض: «لنفترض أنَّه السيِّد ريتسا».

وعندما شاهد شفتَي سپينوزا تلفظان اسم «الشَّخص الذي لا بُدَّ ألَّا يُذكَر اسمُه una persona di cui non verra fatto il nome»، كأنَّه شيء خارج من التِّلمود، ألقى «الجَمَلُ» يديه كي يُغطِّي عينيه.

غدت المهزلة برمَّتها في هذه اللحظة مثيرة للسُّخط. قلت إنَّني لن أتلقَّى أوامري إلا من تِشيي، ومن تِشيي فحسب. فنادى «الجمل» على قائد الفريق فوراً، وحين حضر تِشيي، همسَ بضع كلمات في أذنه. شاهدت تِشيي يهزُّ كتفيه، ثم استدار نحوي، ورفع إبهامَيْه علامةً على الموافقة: «لا بأس، يا جُو، أن تجري المقابلة مع صحيفة لا ريپوبليكا».

أعتقد أنَّه عدني جديراً بالثِّقة، فلقد تمكَّنت أخيراً من إقناعه أنَّ «وست إغ» و«إيست إغ» تقعان إلى الغرب من مدينة نيويورك، في ذهن إف. سكوت فتزجيرالد على الأقل.

ناهيك عن أنَّ هذه المقابلة إن كانت بناء على طلب السيِّد ريتسا، فلا بُدَّ أن الترتيبات قد أُعدَّت لضمان ألا يطرح الصحافيُّ، دون شك، أي أسئلة قد تدفعني إلى قول شيء يلحق الضَّرر بأحد.

أُعطيت هاتفاً خلوياً في غضون دقائق. كان المُحاوِر -أو أياً كان- جاهزاً على الخطِّ. لم يكن يعرف الإنكليزيَّـة، فدار الحوار كاملاً بالإيطالية، والمتحلِّقون من حول مقعدي قد أخذوا بالازدياد.

نُشرت المقابلة في صحيفة الصباح التالي، وكانت ترجمتها الإنكليزيَّـة على هذا النّحو:

س: رغبتَ في سرد حكاية سعيدة، ولكن الآن..

ج: إنني أروي الحقيقة، وسأفعل هذه المرَّة أيضاً.

س: هل سبق أن خطر ببالك، قبل هذه الحادثة، أنَّ لعنةً قد أصابت كاستل دي سانغرو في دوري الدرجة الثانية؟

ج: كلا، اعتقدت أنَّها معجزة. ومازلتُ أظنها كذلك. ولكنَّنا قاسينا مأساةً مروِّعة في ديسمبر، بوفاة لاعبَيْن في حادث سيارة. وها نحن نعيش في هذه الأوقات تجربةً تعيسة أخرى. ومما لا شك فيه أنَّها لم تَعْد حكايةً خرافيَّـة. تبدو في هذه الأثناء أشبه بكابوس منها إلى أي شيء آخر. ولكنَّني أومن ببسالة هذا الفريق الذي هو بكل بساطة فريق استثنائيٌّ.

س: هل تعرف اللاعب المعتقل جيداً؟

ج: جيجي صديق خاصٌّ. صديق يتعرَّض لمحنة الآن. وسأفعل أي شيَء ممكن لمساعدته. لقد تناولت طعام العشاء معه ليلة الأمس. وأظنُّه بريئاً وأعرف أنَّه لاعب جيد. وأنا على يقين أنَّه سيحظى عما قريب بفرصة إثبات الأمرَيْن على حدٍّ سواء.

س: هل تعرف أنَّ زوجته موجودة في السِّجن منذ شهرِ ديسمبر؟

ج: لم أرَ ڤانيسَّا في أثناء ذلك الوقت. ظننتها في تشيلي. لم أُلح في الأسئلة، فليس من شأني التدخُّل فيما لا يعنيني. إنَّني في غاية الأسف على ما جرى لجيجي وزوجته.

س: وما ردَّة فعل الفرقة؟

ج: إنَّهم في غاية العزم، وفي غاية التَّركيز على المباراة التي ستجرى في راڤينَّا. على العكس، لقد زادت هذه الحادثة من رغبتهم في «الخلاص»، أكثر من أي شيء آخر.

حسناً، من الواضح أنَّ الإجابة الأخيرة كانت محض هراء. لقد كانت مباراة راڤينَّا أبعد شيء عن بالنا. ولكنها كانت الحقيقة حين قلت إنَّني سأفعل ما أستطيع لمساعدة جيجي. وعلى الرَّغم من أنَّه لم يكن صريحاً معي البتة، فإنَّ إعجابي به قد ازداد. ناهيك عن أنَّه بريء حتى تثبت إدانته، وما إلى ذلك من الأمور.

أُخبرتُ، بحلول الساعة الخامسة من الرِّحلة، أنَّ محطَّات الإذاعة كانت تذيع «أخباراً» حول زعمي بأنَّ لديَّ الدليل على براءة جيجي. (أي نعم، وكان ثمَّة عنوان رئيس في الصحف التي صدرت صبيحة اليوم التالي: «**الأمريكيُّ يعرف الحقيقة: بريبته بريء!**»).

حسناً، كانت تلك بكل بساطة المبالغة الصحافيَّـة الإيطالية المعتادة. بيد أنَّ ما أثار استغرابي في البدء كثيراً -ثمَّ لم يَعُد كذلك- هو امتناع المحاور عن طرح أي سؤال بشأن غراڤينيا، وسرعان ما أدركت أنَّه لو كان سيفعل ذلك، لما كان «الجمل» قد حثَّني على إجراء المقابلة أصلاً. حينئذ، لن تكون المقابلة قد رُتِّبَتْ مِن فوق.

عدتُ بذاكرتـي، قبيل انتهاء الرِّحلة، إلـى العشاء الذي تناولته رفقة جيجي وڤانيسَّا فـي الخريف، وإلـى ردِّ جيجي السَّريع حين سألته صدفةً كيف تعرَّف إلى ڤانيسَّا: «لماذا تريد أن تعرف»؟

ماذا خطر بباله؟ أنْ أكون عميلاً سرياً للشرطة الدوليَّـة (الإنتربول)، أتظاهر بحبِّي للكالتشيو، علَّني أتعقَّبه هو وڤانيسَّا عن كثب؟ لا يكاد الأمر علـى الأرجح أن يكون كذلك، ثمَّ إنَّهما لم يفعلا أي شيء آخر حينئذ.

كانت العتمة تهبط، ونحن نقترب من الفندق الذي سنبيت فيه، حين حثَّني روبيرتو ألبيرتي على الجلوس بجواره. كان هذا اللاعب المخضرم، صاحب الصوت النَّاعم والوجه الذي لا يُفصح عن شيء، قد بدأ يعاملني، منذ أن «شكرني» في پسكارا، بمودَّة واضحة أكثر من ذي قبل، على الرَّغم من أنَّنا لم نتجاذب أطراف الحديث فعلـيَّاً حتى الآن. ولكنَّني لبَّيتُ دعوته، على أي حال، بدافع الفضول وليس فقط على سبيل المجاملة.

ولم أكد أجلس، حتى راح يتكلم، على الرَّغم من أنَّه ظل ينظر إلى الأمام طيلة الوقت، متحدِّثاً بصوت خفيض جداً كي لا يتمكن أحدٌ -ولا حتى الجالسون وراءنا، أو أمامنا، مباشرة- من تخمين ما الذي يحدث.

قال: «منذ أن أعطيت تذكرتك لابني، وأنا أعدُّك فرداً من العائلة، وهِا أنذا أتحدَّث وأنت تُنصت فحسب، كأنَّني أقصُّ حكايةً على عائلتي. بدأ الأمر قبل سنين، حين كان جيجي في كالابريا وقد تزوَّج ڤانيسَّا للتوِّ. كان الكوكايين لدى عائلتها في تشيلي، وأرادت تهريبه إلى إيطاليا. كان

جيجي يلعب في الفئة الأولى من دوري الدرجة الثالثة، ولا مال لديه، ولا مستقبل، ولا عقل أيضاً، ولكنَّه كان جسوراً جداً.

«لقد شاهدتَ ريجيو كالابريا. لا مال يبقى فـي المدينة، ولكنَّ تهريب المخدِّرات يجـري هناك على نطـاق واسع. المتنفِّذون يديرون كل شـيء. جياكومو لاورو، منذ سنين عديدة. وربما يكون جيجي قد عقد صداقات مع أناس ما كان ينبغي عليه أن يصادقهم».

«ستلاحظ أنَّ جيجي لم يبقَ، بعد فريق ريجينا، أكثر من سنة في أي نادٍ آخر. النّاس يثرثرون، وثمَّة أشياء تحدث. لعلَّه ليس جديراً بالمخاطرة. ولكنَّ بعض الرِّجال يحتاجون إلى المخاطرة. هل تعرف أنَّ غابرييل يحلِّق بطائرة عاموديَّـة (هليكوبتر)؟ يحتفظ بها في پسكارا. لا أحد يركب معه أكثر من مرَّة».

«ثمَّة مخاطرة لو طارت الطائرة العاموديّة بتهوُّر. وثمَّة مخاطرة بممارسة الجنس مع زوجات الآخرين. وثمَّة مخاطرة، بالطَّبع، في تهريب الكوكايين. ولكن الأموال التي تُجنى من المتاجرة بالكوكايين لا حدَّ لها. ولذا، توجَّب على جيجي البقاء سنة أخرى في كاستل دي سانغرو. لماذا؟ كي يركب في الطائرة العاموديَّـة؟ كي ننجح في دوري الدرجة الثانية؟ لقد شاهدتَ جيجي يلعب عدَّة مرَّات، ولقد شاهدت ڤانيسَّا أيضاً. فأيهما تظنُّ غراڤينيا يفضِّل»؟

«فإذا كان الكوكايين سيمنحه ممارسة الجنس مع النِّساء بطريقة أفضل، وإذا جنى الأموال من المتاجرة بالكوكايين، فسوف يشعر أنَّه جالس على قمَّة العالَم، فـي السَّماء السَّابعة، وسوف يبلغ تلك النَّشوة حتى دون أن يتناول هذا المخدِّر. أفهم أنَّ المرء سوف يشعر بالنَّشوة ذاتها -لفترة وجيزة- إذا تناول المخدِّر».

«كان النَّاس يراقبون، لفترة مديدة، في هدوء تامٍّ، ولكنَّهم تصرَّفوا ذات يوم. ذهبت ڤانيسَّا إلى السِّجن، ولم تصل شحنة من الكوكايين، تقدَّر بـ 1,5 كيلو، إلى أولئك الذين كانوا ينتظرونها. هذه أموال طائلة، تبخَّرت في الهواء. وهذا يسبِّب المشاكل. يبحث المرء فجأةً عن المخرج، ولكنَّه قد يكون موصداً».

«أتعرف؟ حالما عرف غراڤينيا باعتقال ڤانيسَّا -في الوقت ذاته الذي عرف فيه جيجي، في شهر ديسمبر- حاول بيع جيجي إلى نادي أڤيللينو الذي يلعب بالفئة الأولى في دوري الدرجة الثالثة. ولكنَّ ذلك أغضب جيجي. فأخبر غابرييل، قائلاً: «هل تعتقد أنَّك ستحلُّ المشكلة بالتخلُّص منِّي؟ كلا، ليس قبل أن يُطلق سراح ڤانيسَّا. وإذا واجهتني أي مشكلة أبداً، فإنَّك سوف تواجه ذلك، أيضاً».

«لذا، ربما تتساءل، يا جُو، ماذا سيحدث. لا تتساءل كثيراً. ولا فائدة من طرح تلك الأسئلة، فالذين يجيبون لا يعرفون والذين يعرفون لا يقولون. ناهيك عن احتمال ألا يكون قد تقرَّر فعل المزيد».

«ولكن، هل تعرف أنَّ السيِّد ريتسا قد جاء على ظهر بغل، حين قدم إلى كاستل دي سانغرو، أوَّل مرَّة، قبل خمسين سنة؟ هذه حقيقة. فإذا كانت حرية جيجي يمكن ترتيبها، فقد يدخل جيجي، هو أيضاً، كاستل دي سانغرو على ظهر بغل. ولكن ليس على شاكلة السيِّد ريتسا أيام الشباب، وإنَّما كالمسيح. ولا بُدَّ حينئذ أن نحضر سعف النَّخيل من الجنوب لتزيين دربه».

«وهل تعلم أنَّ دانتي قد كتب جميع أعماله العظيمة بعد نفيه إلى فلورنسا؟ ولكنَّه ارتكب غلطة الوقوف في الجانب الخطأ سياسياً، فأجبر على مغادرة

المدينة، فظلَّ بعيداً عنها، طيلة عشرين عاماً، حتى وفاته. والآن يدَّعون في فلورنسا أنَّ دانتي يخصُّهم، ولكنَّني أعتقد بأنَّ رافينا جديرة بمثل هذا الزَّعم أكثر، فلقد استقرَّ بها، بعد تطواف كثير، وأكمل فيها «الكوميديا الإلهيّة»، ثم دُفن فيها. وهذه حقيقة، ولكنَّهم لا يحبُّون في فلورنسا قول هذه الحقيقة للسيَّاح. ولكنَّك لم تعُد سائحاً، يا جُو، لذا فإنَّني أخبرك بهذه الأشياء. آه، انظر: ها نحن أولاء قد وصلنا إلى الفندق الآن».

كان ألبيرتي ينظر إلى الأمام، طيلة الوقت، كأنَّه ينتظر وصول رجال الإطفاء إلى حريق ما. فلم تتغيَّر البتة نبرة صوته أو درجة علوِّها أو طبقتها. إلا أنَّ توقيته [لزمن انتهاء الرِّحلة] -كما في أرض الملعب- لم تشبه شائبه؛ إذ وقف الجميع، وراحوا يتحرَّكون هنا وهناك، مهيِّئين أنفسهم للترجُّل من الحافلة. لقد كان ألبيرتي رجلاً يتمتَّع بمهارات بارعة.

يمكن للمرء أن يقول، نظراً إلى حالتنا المرتبكة، إنَّنا قد خضنا مباراة محترمة. خسرنا، 1- صفر فقط، فلام ياكوني ألتامورا على الهدف الذي دخل مرمانا، ولكنَّني أعتقد أنَّه كان خطأ دي يوليس.

مازالت أمامنا خمسة فِرَق بحسب التَّرتيب المُعلن ليلة الأحد، ولكننَّا كنَّا الفريق الوحيد الذي يوجد مدافعه في السِّجن، وثمَّة شبهة علنيَّة بتورُّط رئيسه السَّابق في عمليَّة تهريب مخدَّرات تقدَّر بـ 25 مليون $ في السَّنة.

29
عودة جيجي

ساءت الأمور. أشارت صحيفة «إل كُرِّيره دِلَّا سِيرَا»، التي تُعَدُّ رفقةَ صحيفة «لا ريپوبليكا» واحدةً من أكثر صحيفتَيْن احتراماً على نطاق واسع في البلاد، إلى أنَّ غراڤينيا يخضع لتحقيق ليس «للمساعدة على» تهريب الكوكايين إلى البلاد و«التحريض على ذلك» فحسب، وإنَّما بسبب توفيره لبعض لاعبي فريقه لاستخدامه في «الحفلات الحمراء feste a luci rosse»، التي شاعت الإشارة إليها في الإنكليزيَّـة بـ «الحفلات الماجنة orgies».

قالت الصحيفة إنَّ تلك الحفلات ضمَّت صديقته الألمانيَّـة التي صدف أنَّ زوجها في السِّجن لتهريبه المخدِّرات، ثم ذهبت «إل كُرِّيره» إلى حدِّ أن ذكرت اسم القرية التي أُقيمت فيها الحفلات؛ قرية ألفيدينا التي لا تبعد عن كاستل دي سانغرو سوى عشرة كيلومترات، ولكن في اتِّجاه لا يُسلَكُ عادةً.

وذهب جياكومو غالِّي، يوم الإثنين أيضاً، إلى مستشفى كاستل دي سانغرو للتَّعالج من كاحله الملتوي، وهي إصابة تعرَّض لها في الحصة التدريبية الأخيرة قبل مباراة راڤينا.

ولأنَّ جياكومو كان معروفاً بوصفه اللاعب الوحيد الذي حظي بثقة جيجي -على الرَّغم من أنْ لا أحد سواهما عرف مقدار ما قد قِيل أو أي أسماء ذُكرت- فإنَّ شعوراً هائلاً من الإثارة قد شاع ترقباً لعودته إلى ملعب التَّدريب يوم الثُّلاثاء.

غير أنه لم يتمكن من العودة لسوء الحظِّ. حُقن غالِّي بإبرة غير معقَّمة فتسمَّم دمه على الفور إلى درجة هدَّدت حياته. كان لا بُدَّ أن ينقل على وجه السرعة إلى عيادة خاصَّة في روما، حيث قِيل إنَّه في وضع حرج، وقد لا يعيش بتاتاً.

ولدى الإعلان عن ذلك، نطق غراڤينيا عبارة «حادث لا مفرَّ منه»، كأنَّه حادث سير مأسوي آخر. ولكنَّنا لسنا في بوركينا فاسو أو بنغلاديش. ونحن في أواخر القرن العشرين، لا في القرن التاسع عشر. فمن المؤكَّد أنَّ مستشفى كاستل دي سانغرو لم يكن على أحدث طراز، ولكنَّ المرء لايزال يفترض استخدام إبر معقمة في مرافقه. وكانت هذه الإبرة الملوَّثة قد استخدمها أحد أطبَّاء كاستل دي سانغرو المعروفين بدعمهم الحماسيِّ للفريق. واستخدمها في حقن أحد لاعبي فريق كاستل دي سانغرو، الذي قد تكون السلطات راغبة في سؤاله بخصوص مدى معرفته بنشاطات عصابة تهريب المخدَّرات التي قِيل علانيةً أنَّ غراڤينيا «متورِّط» معها.

وينطوي استخدام غراڤينيا، بناء على هذه المُلابسات، عبارةَ «حادث لا مفرَّ منه»، على تلميح محدَّد بأنَّ تسمُّم الدَّم، بطريقة أو أخرى، قضاء وقدَر، وليس خطأً مرعباً وغير قابلٍ للتَّفسير ارتكبه طبيب محليٌّ متمرِّس. أما الاحتماليَّـة الثالثة -أنَّ سوء حظِّ جياكومو ليس ناجماً عن حادث أو خطأ- فقد كانت احتماليَّـة لم يرغب أحدٌ حتى في نطقها همساً.

هكذا، استُقبلَ اللاعبون عند عودتهم يوم الثلاثاء، إلى «لِيليپُت» [اسم بلدة خيالي يطلقه المؤلف على كاستل دي سانغرو] التي لم تعُد تبدو جذَّابة جداً أو ساحرة، بفيض من الأخبار المزعجة. أشارت أحدث نشرة طبيَّـة

صادرة عن العيادة الخاصَّة غير المعروفة في روما، التي أُخذ إليها جياكومو، إلى أنَّ فرصه في النَّجاة من عدمها كانت «متساوية urn probability su due». علاوة على أنَّ غرافينيا هو الوحيد الذي كان على اتِّصال مع مدير العيادة، الذي لم يذكر اسمه، ولهذا فهو المصدر الوحيد للأخبار الطبيَّـة في المستقبل المنظور.

قال لوقا دانجلو: «أترى ، يا جُو، لماذا قمت بإجراء صور الأشعَّة في بسكارا»؟

فأجريت حسبةً بسيطة: بِيعَ ثلاثة لاعبين من الفرقة الأصليَّـة، المكوَّنة من عشرين لاعباً، التي كانت هنا حين وصلتُ في شهر سبتمبر، إلى فرق في الفئة الأولى بدوري الدرجة الثالثة، ومات لاعبان، وواحد في السِّجن، وآخر في حالة صحيَّـة حرجة.

كنَّا في شهر مارس فحسب، ونحو ثلث «الفتية ragazzi » موتى أو غائبون، ورئيس النادي قد استقال، ويواجه الآن خطر تُهم جنائيَّـة جدِّية. خطر ببالي أنَّ طبيب الأسنان الجرَّاح، الذي كنت واثقاً أنَّه لم يستخدم إبرة غير معقَّمة في حقن أي مريض، و«رئيسه padrone» الغامض على قمَّة الجبل، لديهما مخاوف جِدِّية أكثر من «سجالي» النَّزِق والعابر.

ولم تكن الحياة هادئة في حدود «10 ڤِيَّا بِسْكِيرَا». أمضى ياكوني يوم الأربعاء خمساً وأربعين دقيقة من الحصَّة التدريبية في تقريع أنطونلُّو على الخطأ الذي أدَّى إلى تسجيل رافينا هدفَ الفوز في المباراة التي خيضت يوم الأحِد الماضـي. كان توبيخُ أُزڤالدو غاضباً وشخصياً إلى حدٍّ بعيد، خاتماً إياه بقول لا بُدَّ لأنطونلُّو أن يذهب من الآن فصاعداً إلى الحضانة، رفقةَ ابنه الذي يبلغ من العمر أربعة أعوام، بدلاً من القدوم إلى التَّدريب.

غادر أنطونلُّو الملعب مشتعلاً غضباً وذهب إلى منزله مباشرة. كانت صابرينا، في الوقت الذي وصلتُ فيه، واقفةً للتوِّ في الرُّواق خارج شقَّتي، مرعوبةً من أن يعمد أنطونلُّو، في نوبة غضبه، إلى قول شيء أو فعله، مما قد يدفع ياكوني إلى إنهاء مسيرته المهنيَّـة إلى الأبد.

«تحدَّث إليه يا جُو! فأنت الوحيد الذي يصغي إليه»!

فقلت: «ولكنَّ ذلك، يا صابرينا، لأنَّني الوحيد الذي لا يستطيع هُوَ أن يفهمه»!

خسرنا، في مثل تلك الحالة من الفوضى العارمة، أمام إمبولي، على أرضنا، 0–2. وكانت هذه هي المباراة الثالثة على التوالي التي لم نسجل فيها هدفاً، ولقد هبطنا بفعل هذه الخسارة إلى المرتبة التاسعة عشرة، متعادلين في مجموع النقاط مع ثلاث فرق أخرى، ولا يفصلنا عن پاليرمو، الفريق الذي يحتلُّ المرتبة الأخيرة، سوى نقطة واحدة.

ثم حلَّ الرَّبيع، معلناً عن وجوده في إقليم أبروستو، بعد بضعة أيام، في هيئة عاصفة تسبَّبت في هطول الثَّلج بغزارة لم نشهدها من قبل طيلة العام على كاستل دي سانغرو. نظر أزڤالدو خارج النافذة، فرأى أنَّ من المستحيل تدريب اللاعبين في الوقت المتبقِّي من الأسبوع. وهكذا، غادرنا صبيحةَ الأربعاء، 26 مارس، بالحافلة إلى پادوڤا التي تقع إلى الشمال ولكنها على مستوى البحر، حيث لا ثلجَ قد تساقط، وقِيلَ إنَّ العشب هناك قد بدأ يخضرُّ (سنلعب في پادوڤا يوم السَّبت، فيوم الأحد سيكون عطلة عيد الفصح، وهو اليوم الوحيد في إيطاليا الذي تُقدَّمُ فيه الشعائر الدينيَّـة على الكالتشيو).

علمتُ، في رحلة الحافلة هذه، أنَّ جميع اللاعبين، بلا استثناء، كانوا يتوقَّعون إطلاق سراح جيجي الوشيك. ولكنَّني لم أكفَّ عن ترديد سؤال: «على أي أساس»؟ مرَّات ومرَّات، وبأكثر الطرائق إحراجاً، يا لسذاجتي. لم يرغب أحد، بالطَّبع، في القدوم إلـيَّ وإخباري بالحقيقة، ولكنَّ الخبر قد تسرَّب في النهاية، مخترقاً وجهة نظري الأمريكية المحدودة عن أنظمة العدالة الجنائيَّـة، بأنَّ السيِّد ريتسا يستطيع ترتيب ذلك بمكالمة هاتفيَّـة.

وربما لا يكون قد رفع إصبعاً واحدة من أجل جيجي وحده. ولم يفعل ذلك من أجل ڤانيسًا بالطَّبع. أما من أجل غابرييل، والد ابنَي ماريًّا تريزا؟ فإنَّ المسألة تبدو بسيطة: إما أن يخرج جيجي وإما تكون ثمَّة خطورة أن يدخل غابرييل السجن.

كان الطقس في پادوڤا بديعاً، والفندق الذي سوف نقيم فيه، الواقع في إحدى الضَّواحي، بهيجاً على نحو غير متوقَّع، والملعب الذي على بُعْد مسافة قصيرة من الفندق، أحدَ أفضل الملاعب التي شاهدناها طيلة السَّنة.

كان اللاعبون يسيرون على مهلهم صوب الملعب، كل اثنَيْن أو ثلاثة معاً، مهيِّئين أنفسهم لأوَّل حصَّة تدريبيَّـة في ذلك اليوم، في حين كنتُ واقفاً عند طرف الملعب، أدوِّن ملحوظاتي صدفةً حول عدد الأقحوانات التي كانت تتفتَّح للتوِّ وسط العشب، وعندها سمعتُ، في الساعة 10:30 تماماً، صبيحةَ خميس الأسرار، 27 مارس، رنينَ هاتف أزڤالدو الخلويَّ.

كنت واقفاً على بُعْد أقل من عشرين ياردة منه، فسمعته يهمهم دون أن أتمكَّن من فهم الكلمات. دامت المكالمة أقل من دقيقة. ثمَّ زلق الهاتف إلى جيبه ثانيةً وسار نحوي.

وقال: «أُطلق سراح جيجي». لم تفصح نبرة صوته ولا تعابير وجهه عن أي مشاعر البتة. ولكنَّ جيجي قد أُطلق سراحه.

فصحت: «مستحيل»!

هزَّ أزڤالدو كتفيه، ثمَّ رفع عينيه إلى السَّماء، وقال: «يصنع الله المعجزات».

فقلتُ: «إنها معجزات السيِّد ريتسا».

فنظر إلــيَّ بحدَّة. ثمَّ قال: «جيجي هو الخبر السَّعيد. وينقل السيِّد ريتسا بعضَ الأخبار السيئة أيضاً».

فسألته، وصور جياكومو غالِّي وقد سُحبتْ ملاءة لتغطِّي عينيه تتقافز في ذهني[160]: «وماذا بعد»؟

«لقد أمر ريتسا بأنَّ يلعب لوتِّي من الآن فصاعداً».

فصحت: «مرحى!». قد لا يكون تصرفي لائقاً، ولكنَّ الخبر أفرحني أكثر من إعلان إطلاق سراح جيجي.

فنظر إلــيَّ أزڤالدو، ثمَّ شدَّ بيده على كتفي، وقال: «عيد فصح سعيد Buona Pasqua».

ثم ذهب مبتعداً ليخبر الفرقة.

●●●

كانت عودة غالِّي مهيبة. وصفته إحدى الصحف في اليوم التالي بـ«لوتِّي الخارق SuperLotti». في حين زعم عنوان رئيس في صحيفة أخرى: «لوتِّي: بطلٌ عظيم، وعملاق حقيقيٌّ».

إنَّ قوَّته التي لا تقهر تحت الضغط المتواصل -في أوَّل ظهور له منذ أربعة شهور ونصف- هي التي أمدتنا بأسباب الصُّمود في المباراة حتى أُدخل لوقا

ألبيري (الشَّاب الذي تلاعب بالطَّائرات في هاتفه الخلويِّ، والذي لم يلعب كفاية كي يحصل على تقييم منذ 10 نوفمبر) من على مقاعد الاحتياط، فسجل هدفه الأوَّل في الموسم، مانحاً إيانا التَّعادل 1-1. كتب أحد الصحافيِّين قائلاً: «إنَّهم يمتلكون سيقان البيانو وقلوب الأسود».

وفي اليوم التالي، عيد الفصح، راح سكَّان كاستل دي سانغرو يشيرون إلى سنة 1997 بوصفها «سنة البعثَيْن L'anno delle due risurrezioni». دعكم من حكاية بعث لعازر. كان الأمر هذه المرَّة حقيقياً: أُطلق سراح جيجي! فلقد دُحرجَ الحجرُ عن القبر[161]. هل ثمَّة شك في ذلك؟ هل سيكون ثمَّة شك أبداً؟ فالمعجزات أبديَّـةٌ.

كان يوم الثلاثاء -يوم كذبة نيسان في أمريكا- يوماً شتوياً، فمازالت السَّماء تنث ثلجاً. تدافع حشد، أكبر من الحشد الذي تجمَّع يوم اعتقاله، عند أبواب موقف سيارات الاستاد، في انتظار عودة جيجي المظفَّرة.

كان غرافينيا المسرور بعودة جيجي صراحةً، هو الذي أشرف على الاستقبال، إلى حدٍّ ما. (قِيل إنَّ حالة غالِي قد تحسَّنت، على سبيل المصادفة، في غضون ساعات من إذاعة خبر إطلاق سراح جيجي). حُمِّل أطفال مسؤولي «سوتشتا» لافتات كتب عليها «نحبُّك، يا جيجي!» و«لم نفقد الأمل البتة».

تمشيتُ بعد تناول الغداء بمطعم مارتشيلَّا، فوصلت إلى الاستاد قبل وقت التَّدريب. وصدف أنَّني كنت واقفاً في موقف السيارات حين لمحت سيارة جيجي العجيبة التي لا يمكن وصفها، تقترب. لا حمارَ ولا سعف نخيل، وإنَّما سيارة الفيات القديمة المتهالكة ذاتها. سريعاً، وفي أقل جلبة ممكنة، أدخله الرِّجال الواقفون عند البوَّابات.

ركن سيَّارته على بُعْد خمس أقدام من المكان الذي كنت واقفاً فيه. كنتُ أوَّل شخص شاهده هُوَ، حين ترجَّل من السيارة، وأوَّل من رآه. اندفعت بالفطرة صوبه وتعانقنا. كنت دهشاً لمدى السَّعادة التي شعرت بها.

أخبرته بسعادتي للإفراج عنه، فأخبرني بتقديره لما قلته حول رغبتي في مساعدته، ثم داهمنا الغوغاء جميعاً، وبرزت عدسات الكاميرات والمايكروفونات.

نشرت عدة صحف في اليوم التالي صورتنا مُتعانقَيْن، رفقةَ تعليق أو عنوان رئيسيٍّ يقول: «أوّل عناق مِن مَاكغِينيِسْ DA MCGINNISS IL PRIMO ABBRACCIO». كان توقيت العناق مصادفةً، ولكنَّ المشاعر حقيقيَّـة.

وصل غرافينيا في غضون دقائق، ثم سرعان ما أمسك جيجي، فأثار المصوِّرين الفوتوغرافيِّين المتحمِّسين، ودار به في الجوار كرفيق مراقصة، رافعاً إياه لأطول وقت في عناق شديد على نحو مضحك. لا أحد إلا الله يعرف أي مشاعر سرت بينهما، أو أيهما كان يشعر بالرَّاحة النَّفسيَّـة أكثر من الآخر.

ولكنَّ فرحتي الأولى تبخَّرت، على أي حال، فشعرت بالقذارة فجأة والسُّخرية والغضب. فلا مكان لمثل هذه العواطف في هذا اليوم، ثم غادرت موقف السيارات عائداً إلى شقَّتي. بَعْثَان؟ الابن الضَّالُّ؟ أم يدُ السيِّد ريستا المدهشة، غير النَّظيفة.

لم أكُن أضنُّ على جيجي حريَّته، وأفهم فرح اللاعبين وأهل البلدة. لقد اختُطف بِيُّو ودانيلو من بيننا فجأة وعلى نحو عنيف ولن يعودا أبداً. ثم اختفى جياكومو، أيضاً، بين عشيّة وضحاها، في ظلِّ ظروف توصف تلطُّفاً بأنَّها غامضة. هكذا، كان جيجي لازاروس الحقيقي، فعودته السريعة وغير المتوقَّعة إلينا دليل دامغ على ضرورة ألا تكون الخسارة دائمة.

ولكنَّ مزاج الاحتفاء غير المُقيَّد بدا، في أحسن الأحوال، سابقاً لأوانه. فلدى كتابة قرار الإفراج عن جيجي، شدَّد قاضي التَّحقيق على أنَّ «الدَّليل كان كافياً لإصدار أمر الاعتقال». كتب قائلاً إنَّه أمر بإطلاق سراح جيجي «لعدم وجود يقين بأنَّ هذا الدَّليل، في وضعه الحاليِّ [أُضيفت هذه العبارة التَّوكيديَّة] سوف يدينه بالضرورة في المحاكمة». لم تَبْدُ هذه الصِّيغة أنَّها تنطوي على إقرار صريح وقاطع بالبراءة.

وأوضح المدَّعيان العامان أنَّ التحقيق سيتواصل مع جيجي وغرافينيا على حدٍّ سواء. ولكنَّهما أشارا، في الواقع، إلى ضرورة عدم إجراء استنتاجات، بشأن إدانة أي منهما أو براءته، من دعوى المحاكمة. لم أستطع، بالطَّبع، أن أزيح من ذهني فجأة الحكايةَ المفصَّلة التي همس لي بها ألبيرتي في الحافلة.

علاوة على أنَّ اثنين من أصدقاء جيجي المقرَّبين قد عانيا من نوبتَيْن قلبيَّتَيْن «مشبوهتَيْن» (أي: بتعاطي المخدِّرات)، ولا أحد، في هذه الأجواء البهيجة، يرغب في الحديث عنهما. ولكن لا جهة أنكرت قيام «الحفلات الحمراء» في ألفيدينا، كما وُصفت، سواء أمدَّها جيجي بالكوكايين أم لا. لم تُثَرْ أي شكوك حول الجُرم المزعوم الذي اقترفته ڤانيسَّا، ولم تكن ثمَّة مخاوف في هذه اللحظات الاحتفاليَّة بشأن استمرار حبسها قد أُثيرتْ من طرف أي شخص، ولا حتى من جانب جيجي نفسه.

علاوة على ذلك، وبصرف النظر عما قد يُثبت مدى تورُّط غرافينيا الإجراميّ -إنْ وُجِد- فلا جدال أنَّه كان يعرف بأمر اعتقال ڤانيسَّا منذ بداية السنة، وقدَّم تطميناتٍ (عبر محادثات هاتفيَّة تنصَّتت الجهات الأمنيَّة عليها) أنَّه سوف يمد يد العون.

كما أنَّه قد سمح لجيجي بالاستمرار في اللعب، بعد أن أخبره لأول مرَّة بنبأ إلقاء القبض على ڤانيسَّا وبحوزتها أكثر من كليوغرام من الكوكايين كانت تعتزم تهريبه إلى إيطاليا من أمريكا الجنوبيَّـة.

لا شك أنَّ افتراض البراءة قائم في ساحات القضاء، ولكنْ لا ينبغي للمرء أن يظهر، في عالم الكالتشيو، بمظهر غير لائق، ولا أن يتصرَّف بطريقة قد «تجلب العار على اللعبة»، كما يصرِّح الإنكليز على نحو طريف.

بدا الأمر، بالنسبة إلـيَّ، أنَّ غراڤينيا كان بإمكانه، بمجرَّد اعتقال ڤانيسَّا بتلك التهمة الخطيرة، مقاربةَ المسألة ضمن أحد هذه المسارات: (أ) كان بإمكانه رفع تقرير كامل إلى اتحاد الكالتشيو وطلب المشورة بشأن أهلية جيجي لمواصلة اللعب؛ (ب) احترام رغبة جيجي بإبقاء المسألة شأناً خاصاً أطول وقت ممكن، إذ كان بإمكانه بكل بساطة الإعلان عن منح جيجي إجازة من اللعب مع الفريق لأسباب شخصية، وأنَّه سيستمرُّ في الحصول على راتبه كاملاً، وأنَّه سوف يعود في أقرب وقت ممكن؛ (ج) كان بإمكانه إخطار ياكوني بما حدث، على حدة، والطَّلب منه أن يسمح لجيجي بمواصلة التَّدريب مع الفريق، دون السَّماح له باللعب في أي مباراة حتى يتضح الأمر ولا يعود خاضعاً للتحقيق.

ولكنَّ الرَّاعي والرئيس السَّابق -وهنا تثار مسألة إن كان غراڤينيا متورِّطاً في تهريب المخدرات مباشرةً، أم أنَّ «تورطه» المزعوم لم يبدأ إلا حين أخبره جيجي بالحقائق أوَّل مرَّة- قد اختار مساراً أكثر سريةً: تشكيل تحالف سريٍّ مع جيجي.

وكان جيجي قد لعب، في هذه الأثناء، سبع مباريات منذ اعتقال ڤانيسَّا، في حين ظلَّ زملاؤه في الفريق، والمشجعون، ومسؤولو الدوري،

والملايين عبر إيطاليا الذين راهنو على الكالتشيو عبر سحوبات اليانصيب كـ «توتوكالتشيو» و«توتوغول»، لا يعلمون شيئاً، غير مدركين أنَّ زوجة لاعب، مازال يخوض المباريات، قد اعتقلت بتهمة تهريب الكوكايين.

ولقد سمح غرافينيا لجيجي أيضاً بالكذب بشأن المكان الذي توجد فيه ڤانيسَّا، وبألا يفعل أو يقول شيئاً قد يتناقض مع رواية «أختها المريضة» التي صدَّقها الكثيرون والتي دفعت الكثيرين إلى التَّعبير لجيجي عن مشاعر تعاطفهم الصادقة، حتى لو كانت في غير موضعها.

بدت تصرُّفات غرافينيا بالنسبة إلـيَّ تصرفات رجل ليس نظيف اليدين[162]. في حين بدا جيجي متمتعاً على الأقل بضمير أقل نظافة، في حين كاد غالِّي يموت جرَّاء دم غير نظيف. ولم يكد الرَّبيع يَبْدو فصل التجدُّد والانبعاث، ليس في كاستل دي سانغرو على الأقل.

ولكنَّني استلمت، في اليوم التالي تماماً، رسالة غير متوقعة من مصدر غير متوقَّع، أدَّت هذه الرِّسالة أكثر من أي شيء آخر إلى استرجاع الرؤية التي كانت لديَّ، وتذكيري بالسبب الذي جئت من أجله إلى هنا في المقام الأوَّل وبالرُّوح الحقيقية التي كان عليها الكالتشيو، أو التي يمكن أن تكون. كانت من شقيقة ڤيپُّو بيوندي وقد خطَّتها بالإنكليزية بيدها:

> أكتب لأشكرك على المحبَّة التي أبديتها: لقد كانت هديَّـة الصورة الفوتوغرافيَّـة صنيعاً في غاية الأهميَّـة بالنسبة إلينا، مثبتتةً مرَّة أخرى مدى حُبِّ الآخرين لفيليپُّو.
>
> ولقد تسبَّب موته في حزن فظيع، يتعذَّر قبوله أو يكاد. دمَّرت هذه المأساة، العنيفة جداً والمباغتة جداً، السّكينة بيننا. إنَّه حزن يصعب على عقلنا تقبُّله بسهولة.

لا نكفُّ عن ذكرك. نتذكَّرك بكلمات بِيُّو. نعرف القليل عنك، والفضل فيما نعرفه عائد إليه. لم يكفَّ عن الحديث عنك، وعن ذكائك وبساطتك، وعن لطفك ونزوعك إلى المساعدة.

أذكر حين أخبرني فيليبُّو أنَّه سيذهب في هذا الصَّيف إلى بوسطن في أمريكا. كان متأثراً جداً، تغمره السَّعادة، فلم يسبق له أن ذهب إلى هناك، والله وحده يعرف الأشياء التي تخيَّلها.

وعلى الرَّغم من أنَّه كان يشعر بالوحدة في بعض الأحيان، فإنَّه شعر بالرَّاحة في كاستل دي سانغور. لقد أحبها كثيراً. كان معجباً بأناسها الطيبين، المنفتحين في تعاملهم دائماً. أحبَّ بيئتها، وجبالها، والثلج، والهواء النقيَّ. ولقد عشق فريقها، ورفاقه.

كان يشعر في بعض الأحيان بالحنين إلينا. لم يحبَّ الوحدة. كان حسَّاساً جداً ولقد عانى كثيراً حين أثقلتنا الأحزان. كان دائماً ما يتصرَّف كأب معي، فحماني في كل لحظة. كان حُباً متبادلاً، وإعجاباً وفخراً كذلك، وإنَّني على يقين بأنَّ ذلك لن ينتهي.

من الصَّعب قبول خسارة أخ عزيز جداً، ولكن ربما من الأصعب قبول فقدان ابنٍ، ولا بُدَّ أنَّك سوف تفهم هذه المسألة، فأنت أبٌ بدورك. لا أرى، حين أنظر في عيني أمُّي، إلا الحزن العميق، ولا يفارق الألم والأسى وجهها أبداً.

لقد كان بِپُّو، وسوف يظلُّ، أحد مسرَّات حياتها القليلة، وها قد فقدت جزءاً من نفسها. ولكنَّنا نشعر، على أي حال، بعيشه بيننا، بوجوده القويِّ بيننا، وهي قوة عميقة جداً تدفعنا إلى المضي قُدماً، والاستمرار في الحياة.

30
الطَّريق إلى الخلاص

قد يعني شهر أبريل في إيطاليا عدَّة أشياء، كشأنه في أي مكان آخر، ولكنَّهُ يعني، في دوري الدرجة الثانية، الوقتَ الذي تتبدَّل فيها الحالةُ- نَحْوياً grammatically- من الشَّرْطيَّـة conditional إلى الخبرية indicative، وتتحوَّل صيغة الفعل من المستقبل إلى المضارع. ففي شهر أبريل، تبدأ الصحف بنشر المربَّع الإحصائيِّ «الطريق إلى الخلاص Road to Salvation»، الذي يُبيِّن المباريات التي لم يلعبها بعد كل فريق من تلك الفرق التي لايزال «الخلاص salvezza» بالنسبة إليها موضع شك، وفيه يمكن لـ «الموسم الطويل la stagione lunga» أن يبدو، فجأةً، قصيراً جداً.

وبما أنَّني لم أكن راضياً عن الطبيعة البدائيَّـة للتحليلات الإحصائيَّـة المنشورة في الصحف، فقد بدأت أحلِّل بنفسي. شعرت أنَّ أكثر التَّحليلات صلة بالموضوع لا تعرض سوى مجموع النقاط التي حصل عليها منافسو الفريق المستقبليُّون. كنَّا فريقاً من بين ستَّة فرق في قاع لائحة التَّصنيف، ولن يفلت من الهبوط إلى دوري الدرجة الثالثة سوى فريقَيْن. وتوجب على كل فريق خوض إحدى عشرة مباراة.

أظهرت اللائحة، اعتباراً من 1 إبريل، التَّصنيف التالي:

تشيزينا	29
پاليرمو	28

لوكيزي	28
كريمونييسه	27
كاستل دي سانغرو	27
كوزنتسا	26

لم يكن هذا التَّصنيف واعداً بصورة خاصة، ولاسيما حين يضع المرء في حسبانه أنَّه من بين المباريات الإحدى عشرة الباقية، فإنَّ ثلاثة فرق من الفرق المعنيَّة سوف تخوض ستَّ مباريات على أرضها، في حين سنخوض، نحن وفريقان آخران، خمس مباريات فقط على أرضنا (بالنظر إلى أنَّ اللازمة المتكرِّرة في نشيد فريقنا قد تكون «لماذا لا نستطيع الفوز خارج أرضنا؟»، فإنَّ هذا التَّبايُن [في عدد المباريات] قد أثقل كاهلنا كثيراً). ولكنَّ ذلك لم يكن الجزء الأسوأ. أظهرت اللائحة التي أعددتها حول تحليل قوة الأداء النسبيَّة المستقبليَّة للخصوم الجزءَ الأسوأ:

تشيزينا	358
باليرمو	377
لوكيزي	380
كريمونييسه	382
كوزنتسا	395
كاستل دي سانغرو	407

لقد تحصلت الأفرقة الإحدى عشرة التي يتوجب علينا مواجهتها للمرَّة الثانية على 407 نقطة، بشكل جماعيٍّ، اعتباراً من 1 أبريل. وهذا المجموع أكثر بِثِنْتَي عشرة نقطة من مجموع كوزنتسا، الفريق الذي يأتي في المرتبة الثانية من حيث صعوبة المباريات التي يتوجب عليه خوضها، وهو

فارق لم يبد، بالنسبة إلـيَّ، غير منطقيٍّ. أما تشيزينا، خصمنا التالي، فسوف يواجه خصوماً حصدوا تسعاً وأربعين نقطة أقل منَّا[163].

عرضتُ هذه الأرقام على فوسكو وشرحتها له، فهزَّ كتفيه. ثم قال: «إكِّفَايْ Eccheffai». كانت هذه استجابته الناپوليّة الشاملة، على شاكلة قولنا: «وما الذي ينبغي على المرء فعله»؟

وعرضتها على لوتِّي، فتفحَّصها وكأنما أُريه مخططَّات بيانيَّـة لسباقات الخيول، ثم هزَّ رأسه متجهماً، في نهاية المطاف، وقال: «أجل، نحن في ورطة. فلو كنَّا حصاناً، لما راهنتُ عليه».

وعرضتها على سپينوزا، فنسخها ثم شكرني على تكبُّد مشقة تجميعها.

وعرضتها، في نهاية المطاف، على ياكوني بمطعم مارتشيلَّا ليلةَ الثلاثاء. شرحتها له بعناية فائقة كي أتأكَّد من أنَّه قد فهم ما تعنيه الأرقام. أصغى إلـيَّ ثم نظر دون أن تتغير ملامح وجهه.

ثم إنه نظر إلـيَّ كأنَّه غاضب، وقال مشيراً إلى إحصائيَّاتي: «هذه مضيعة للوقت».

فقلت: «لا مشكلة». كنت قد أسأت قراءة مزاجه، معتقداً أنَّه كان قلقاً بشأن الوقت الذي قضيته في تجميع هذه الأرقام.

ولكنَّه مزَّق ورقتي، حينئذ، إلى نصفين، ومال عبر الطاولة وزنَّر عينيه، قائلاً: «لا تبحث عن المشاكل»! ثم نهض بعد هذه العبارة وخرج من الباب.

قرَّرتُ أنَّه لا بُدَّ غاضب منِّي لأنَّ السيِّد ريتسا أمره بإعادة لوتِّي إلى حراسة المرمى. كما لو أنَّني كنت شديد التأثير على السيِّد ريتسا ربما! ولكنني شعرت أيضاً أنَّ أُزڤالدو قد غدا شديد التوتُّر بسبب حالة جيجي،

وأنه لم يعد يرى الأمور بوضوح. أعرف أنَّ جميع من في البلدة، إلا غراڤينيا وريتسا، كانوا يخشون عاقبة غضبه.

ولهذا شعرتُ، على الرغم من أنَّني لم أسعَ إلى ذلك، بأنَّ مسؤوليَّـة ما قد أضحت أمانة في عنقي. فمن غيري يستطيع أن يرى -أو يرغب في أن يقول- أن أداء بونومي كان يتدهور منذ أن أخفقت صفقة فيورنتينا؟ وأنَّ مهارة ألبيرتي قد تردَّت كثيراً منذ أن ذاب الجليد عن أرض الملعب؟ وأنَّ سپنيسي لم يقترب بعد من تحقيق ما يصبو إليه؟

كرَّست نفسي، بهذه الذهنيَّـة، للعمل بحماسة بالغة على مباراتنا القادمة ضدَّ تشيزينا. سوف نلعب على أرضنا ضدَّ فريق لا يمكن أن نتخطَّاه في ترتيب لائحة التَّصنيف إلا بالفوز، وهو أمر لم نذق طعم فرحته منذ هدف سپنيسي الوحيد ضدَّ پاليرمو في فبراير.

بدا واضحاً أنَّه لا بُدَّ أن أحاول مرَّة أخرى مع أزڤالدو. فقد تكون إحصائيَّاتي قد شوَّشته. سأتحدَّث هذه المرَّة عن الأسماء فحسب، وليس عن الأرقام. فلا بُد أن ننحِّي خلافاتنا جانباً، لمصلحة الفريق، ومن أجل أمل «الخلاص»، وأن نتحدَّث، حديثَ الجار إلى جاره، والرجل إلى الرَّجل، ومن القلب إلى القلب. فالمصلحة متبادلة، بعد كل شيء.

أفهم جيداً حدوث نوبات غضب، فهذا هو الكالتشيو في نهاية المطاف، ولقد انهمكت في بضع مباريات بنفسي في هذا الموسم. ولكنَّ الضرورة تقتضي الآن أن نتبع مسار الموسم.

كان فريق تشيزينا، على الرغم من مركزهم المتدنِّي، فريقاً مُقلقاً، فلقد طردوا مديرَيْن هذه السَّنة، ولكنَّ أمورهم بدأت تتحسَّن مع المدير الفنيِّ الثالث. فمنذ أن تولَّى المدير الجديد زمام الأمور، حصدوا إحدى عشرة

نقطة، مقابل حصولنا على ستٍّ نقاط فقط، صاعدين من المركز الرَّابع خلفنا، إلى المركز الذي يسبقنا بدرجة. ونظراً إلى صعوبة المباريات المتبقيَّة لنا، والسهولة النسبيَّة لمبارياتهم، فقد شعرتُ بضرورة أن نهزمهم، لا محالةَ، كي نحظى بفرصة حقيقية لـ «الخلاص».

من المتوقَّع أن يباشروا اللعب بتشكيلة 5-4-1. وكان أكثر لاعبيهم مهابةً، مهاجمٌ ضخم، وقويٌّ، يتمتَّع بقدرات استثنائيَّة، من مدينة تريستة[164]، يُدعى داريُو هَبْنَر، وهو لم يُمنح الفرصة للَّعب في دوري الدرجة الأولى، ولكنَّ مجموع الأهداف التي سجَّلها لصالح تشيزينا قد ارتفع في السنوات الأربعة الأخيرة من عشرة إلى اثني عشر إلى خمسة عشر إلى اثنين وعشرين.

أمضيت عدَّة ساعات في وقت متأخر من الليل بشقَّتي في ذلك الأسبوع، محاولاً الوصول إلى أفضل نهج نستخدمه ضدَّهم. اعتقدت، بحلول يوم الجمعة، أنَّني قد توصَّلت إليه، ولكنني كنت أعرف أنَّ إقناع ياكوني لن تكون مهمة سهلة.

ومع ذلك، فقد اقتربت منه ليلةَ الجمعة بمطعم مارتشيلَّا مرَّة أخرى. ولم أكد أبدأ شرح خيارات التشكيلة والتَّكتيكات المفضَّلة لمباراة يوم الأحد، حتى راح ياكوني يخبط بقبضته على الطَّاولة. قال إنَّه لا يوجد سوى شيئَيْن لا بُدَّ لي أن أعرفها. الأوَّل، كان دي يوليس جيداً، في حين كان لوتِّي مجرَّد محظوظ. الثَّاني، سيبقى «صديقي» دانجلو في دكَّة الاحتياط، بلا ريب، بسبب سوء تقديره بإجراء صور أشعَّة لفكِّه المسكور في مستشفى متخصِّص، بسبب جُبنه -الذي لم يكفَّ ياكوني عن الإصرار أنَّ صور الأشعة قد كشفته جميعها- وبسبب أسلوبه المتعجرف.

بدا لي هذا الأمر جنوناً محضاً، فلقد حلَّ لوتّي في المرتبة الثالثة بين جميع حرّاس المرمى في الدرجة الثانية (متفوقاً على زنغا، الذي غادر پادوڤا من أجل عقده المُربح مع نادي «ريڤولوشن») وفق التنصيف الذي أصدرته «إل كُرِّيره ديلّو سپورت». وحلَّ دانجلو في المرتبة الرابعة بين جميع مدافعي الأطراف difensori laterali. كنت مقتنعاً بأنَّ لوقا يُعاقب على شيوعيّته في المقام الأوّل، انتقاماً من لقاء فيديل كاسترو مع الپاپا. ولكنّني حاولت البقاء هادئاً، متخيِّلاً كيف يمكن لباجيو أن يتصرف في موقف مثل هذا: أي طقوس زِنّ سوف يتّبعها.

فبعد أن أنهك أزڤالدو نفسه مؤقّتاً، استأنفت بهدوء الشَّرح أن من الواجب علينا يوم الأحد شنَّ هجومٍ كاسحٍ بلا هوادة على تشيزينا منذ البداية داكين دفاعاتهم دكّاً. أن نهاجمَ، ونهاجم، ونهاجم، وهذا يعني أنَّه لا بُد لنا- نظراً إلى وجود هبنر- من تعزيز دفاعنا.

بدا واضحاً بالنسبة إلـيَّ أنّنا نستطيع تحقيق ذلك بشكل أفضل عبر تشكيلة 5-3-2: فوسكو وتِشي وألتامورا ودانجلو وفرانكيتشيني في الدِّفاع؛ وبونومي ومارتينو وكريستيانو في خطِّ الوسط؛ وسپنيسي وروسُّو في الهجوم.

ومما لا شك فيه أنَّ روسُّو وفرانكيتشيني قد لعبا مراراً في خطِّ الوسط لغاية هذه اللحظة، ولكنَّ روسُّو يبدو بالنسبة إلـيَّ مهاجماً بالفطرة، في حين يستطيع فرانكيتشيني، الذي يمتلك سرعة هائلة ومهارات جيدة في التعامل مع الكرة، اللعب في أي موضع، ويستطيع في هذه التشكيلة على وجه الخصوص الانتقالَ بسرعة إلى الجناح من موقعه (الذي كان يلعب فيه جيجي عادة) خارج منطقة الدِّفاع.

وبصرف النظر عن الأسئلة الكبرى، فإنَّ جيجي لن يكون عنصراً فاعلاً، فهو لم يستعد لياقته بعد. ولهذا فإنَّ العناصر الأساسيَّـة لخطَّتي الاستراتيجيَّـة تشتمل على إعادة إدخال دانجلو في الدِّفاع (لأنَّه كان قوياً وسريعاً بما يكفي لمراقبة هبنر بصورة فرديَّـة) والاستفادة من كريستيانو السَّريع والمشاكس في خطِّ الوسط.

خاض ميمو مباراة رائعة ضدَّ تشيزينا في نوفمبر، ولكنَّه كاد يُنسَى منذ ذلك الحين، حتى استُخدم على نحو فعَّال ضدَّ پادوڤا الأسبوع الفائت. سيعمل وجود روسُّو في موضع هجوميٍّ على منع تشيزينا من الانقضاض الجماعيِّ على سپينيسي، ما قد يمنح جيوناتا الوقت والمكان اللذَيْن يحتاجهما للتَّسجيل. ولقد راجعت هذه الخطَّة في ذهني عشرات المرَّات، فبدت صائبة. أقنعت نفسي بأنَّ حلول ليلة الجمعة ضروريَّـة.

جلس ياكوني، نظر ثم أنصت حتى فرغت. لم يكن ذلك في حدِّ ذاته نصراً صغيراً. ولكنَّه، حينئذ، وقبل حتى أن يتكلم، بدا شعر شاربه الكث وقد انتصب، كأنَّه «نيصٌ» يستشعر الخطر.

ثم قال، مشيراً إلى رزمة أوراقي: «هل أنت جادٌّ»؟

«أوه، أجل، بالطَّبع».

«حسناً، إذاً، أنت أحمق تماماً».

التقط أحد أقلامي الرَّصاص، وضغطه بقوة حتى ظننت أنَّه سيكسر رأس القلم، وطمسَ اسم دانجلو. ثم، وبضغط أقل قليلاً، شطب اسم كريستيانو أيضاً. هزَّ رأسه، وهو لايزال محدِّقاً في الأوراق، ثم كتب أسماء دا فابيو، وألبيرتي، وميكليني، ودفع بسهم حادٍّ اسمَ روسُّو إلى خط الوسط.

وقال: «ستَّة لاعبين في خطِّ الوسط»، ثم نقر اسم سپنيسي برأس قلم الرَّصاص. «وحده سپنيسي في المقدِّمة»، ووضع القلم طاوياً ذراعيه، وحدَّق بي. كان شاربه يتحرَّك فعليَّاً حين ارتعشتْ غضباً الشَّفة التي تحته.

وسألني: «بأي حقٍّ تخبرني كيف أقوم بوظيفتي»؟ كان هذا سؤالاً لن تكون الإجابة الصائبة الوحيدة عنه، في ظلِّ الظروف الحاليَّة، سوى: «لا حقَّ بتاتاً».

«أنا، يا أزڤالدو-»

فصاح فجأة: «لا أستطيع تحمُّل ذلك»!

«إنَّني فقط-».

«اهتمَّ بشؤونك الخاصَّة فحسب»! ثم مال في كرسيِّه إلى الخلف، ورفع عينيه إلى السَّماء، مثلما كان يفعل في كثير من الأحيان، وصاح: «يا إلهي! لا أعرف ماذا أفعل معه»! ثم نهض، وجذب معطفه، والتقط وهو يرتدي المعطف قلمَ رصاص مرَّة أخرى، وخربش غاضباً حتى لم يَعُد يُرى اسم لوتِّي ثانيةً. «قُضي الأمر»! ثمَّ سار عبر مطبخ مارتشيلَّا، مرَّة أخرى، خارجاً من الباب الخلفيِّ.

تمكَّنا من هزيمة تشيزينا على أي حال، 1- صفر، وبطريقة لا يمكن تخيُّلها على الأرجح. فبعد انقضاء خمس وثمانين دقيقة على بعض أكثر مباريات كرة القدم كآبةً وأكثرها إحباطاً طيلة العام (على الرغم من أنَّه لا بُد من الاعتراف بأنَّ المنافسة كانت شرسة، حتى في مثل هذا النَّوع من اللعب)، تمكَّن روبيرتو ألبيرتي -الذي لم يسجِّل أي هدفٍ البتة في آخر

160 مباراة خاضها، على مدار خمس سنين- من الاستحواذ على الكرة، في ثلث ملعب تشيزينا، ثم راح يحاور بالكرة مندفعاً إلى الأمام، باحثاً عن أحد يمرِّر الكرة له، ولكنَّه واصل التقدُّم محاوراً بالكرة حين لم يجد أحداً متاحاً، وظلَّ كذلك حتى وجد نفسه عند حافَّة منطقة الجزاء ولا مدافعين من تشيزينا في أي مكان قريب منه.

فسدَّد الكرة نحو المرمى. انطلقت الكرة متجاوزة حارس مرمى تشيزينا، داخلة في الشباك. فجأةً ما كان مجرَّد عصر يوم آخر من الضَّحالة المُثبِّطة (باستثناء أداء لوتِّي في حراسة مرمانا، حيث منع هَبْنَر من التسجيل في عدَّة مناسبات) تحوَّلَ إلى فوز حيويٍّ، إن لم يكُن فوزاً مجيداً.

يا الله! في البَدْءِ ألبيري والآن ألبيرتي. كُنَّا ننتزع الأهداف من فوق أكثر الرُّفوف اغبراراً في الحظيرة[165]. ولكنَّنا عوَّلنا عليها. وبفوزنا على تشيزينا (الذي كنَّا سنحققه بطريقة أسهل لو اعتمدنا الخطَّة والتشكيلة التي اقترحتها، على الرَّغم من أنَّني لم أنوِ الخوض في ذلك مع ياكوني) قفزنا أربعة مراكز إلى الأمام. فمع حصولنا في هذه الأثناء على ثلاثين نقطةً، أضحتْ خمسة فرق خلفنا، وعلى بُعْد مسافة قريبة من «المنطقة المرعبة la zona terrore».

لم يتوقَّع أحدٌ أن نضيف نقاطاً إلى مجموعنا في الأسبوع التالي، ولكنَّنا لم نُضِف شيئاً. لعبنا في بريشَّا، أقبح المدن في الشمال، ضدَّ فريق يتقدَّم خمسَ نقاطٍ على ليتشه في صدارة اللائحة. كان من الواضح أنَّ بريشَّا على وشك أن يحقِّق واحدةً من عوداته الموسميَّة إلى دوري الدرجة الأولى، وكنَّا الفريق المتواضع الذي سيكون بمثابة لقمة سائغة، يمهِّد الطريق أمامهم.

ولكنَّ الحدث الدراماتيكيَّ الأبرز لذلك الأسبوع لم يحدث في أثناء المباراة، وإنَّما خلال وجبة الغداء في اليوم السَّابق، حين هُرع أحد مسؤولي «سوتشتا» إلى الغرفة التي يتناول فيها الفريق الطَّعام بالفندق، ملوِّحاً بنسخة، أُرسلت للتوِّ بالفاكس، من الحكاية التي نشرتها صحيفة «لا ريپوبليكا».

كان العنوان الرئيس يقول: «الكالتشيو & الكوكايين؛ اعتقال 11 في تشيلي». أشارت الحكاية، المرسلة من سانتياغو، إلى أنَّ أحد عشر فرداً من عائلة ڤانيسَّا قد اعتقلوا في مداهمة واحدة، خلال «المرحلة الثانية» من «عمليَّـة ڤانيسَّا دياس»، وهو الاسم الذي عُرفت به هذه الغارة بعينها، ضمن الحروب الدوليَّـة على المخدِّرات.

لم تكن المخدِّرات التي بحوزة ڤانيسَّا، وفق الحكاية، إلا غيضاً من فيض، وما خفي أعظم. نقل التقرير الجديد قول الشرطة التشيليَّـة أنَّ العمليَّـة قد أُعدَّت لتهريب كوكايين تقدَّر قيمته بأكثر من 100 مليون $ إلى إيطاليا، عبر ڤانيسَّا كمهرِّبة وجيجي بوصفه أحد الموزِّعين المركزيِّين.

غادر جيجي الطاولة فور قراءته للفاكس، ولم أره ثانية حتى اليوم التالي. وحين سألته إن كانت الاعتقالات الجديدة قد فاجأته، رمقني بنظرة باردة، ثم قال: «لا تعليق». كنتُ قد بدأتُ أشك في أنَّ «قول الحقيقة» الذي وعد به في نهاية الموسم سوف يحصل أصلاً.

وفي أرض الملعب، بعد شوط أوَّل بلا أهداف، تقدَّمنا على نحو مفاجئ في بداية الشَّوط الثاني، 1- صفر، بعد أن سجَّل كلاوديو هدفه الأوَّل (دون احتساب ضربات الجزاء) خلال نحو ثلاثة شهور. ولكنَّنا كنَّا نلعب من دون

تِشيي، الذي «لم يتأهَّل»، ودانجلو الذي أوهنته الإنفلونزا إلى درجة أنَّه ما كان ينبغي عليه أن يقوم بالرِّحلة أصلاً. وطُرد ألبيرتي، في منتصف الشوط الثَّاني، لصدِّه تسديدةً بيده عمداً. وما إن تفوَّق فريق بريشًا علينا بلاعب إضافيٍّ، حتى شنُّوا هجومهم المتواصل، مستحقِّين فوزهم، 3–1، عن جدارة.

ولكنَّني نظرت إلى المباراة بوصفها نصراً صغيراً: فلقد لعب دانجلو مرَّة أخرى. لقد كانت الأجواء المحيطة بالمباراة هي التي أزعجتني، ولاسيَّما تلك المحادثة المُقلقة التي أجريتها مع روبيرتو ألبيرتي حول جيجي في الليلة الفائتة.

أثار ألبيرتي وجهةَ نظر كبيرة، لمَّا صرَّح في الأسبوع الفائت، حين سجَّل هدفه، أنَّه لن يقبل عناقات التهنئة من زملائه حتى يركض إلى خطِّ التَّماس ويعانق جيجي. ثم أخبر الصحافة لاحقاً أنَّه يهدي الهدف إلى جيجي إحياءً لذكرى جميع المشقَّات غير العادلة التي كابدها جيجي.

وبالنظر إلى المونولوغ الذي ألقاه ألبيرتي عليَّ، في الحافلة إلى راڤينَّا، بخصوص مسيرة جيجي في تهريب المخدِّرات، فإنَّ أفعاله وكلماته اللاحقة كانت محيِّرة بالنسبة إليَّ.

بَيْد أنَّني حين أثرت هذه المسألة، رمقني بنظرة خاوية لم يرمقني بمثلها أحد من قبل، ثم قال: «لا بُدَّ أنَّك مشوَّش، يا جُو. أُطلق سراح جيجي، ولذلك فهو بريء، ولقد عانى بلا أي ضرورة، ولسوف أهدي هدفي إليه، بالطَّبع، تقديراً للمعاناة التي كابدها».

فقلت: «ولكنَّك أخبرتني بنفسك يا روبيرتو، بكلمات واضحة وبسيطة، أنَّ جيجي كان مذنباً؛ أنَّ جيجي وڤانيسَّا كانا يهرِّبان الكوكايين إلى إيطاليا، ربما منذ خمسة أعوام».

فشحبتْ زرقةُ عيني أليرتي، شحوباً شديداً، وبدا اللون في لحظات معيَّنة كأنَّه قد تلاشى كليةً. يا لها من لحظة!

«أنت مخطئ يا جُو. أنت مخطئ. لم أنبس ببنت شفة. الحقيقة أنَّني آمنت منذ البداية أنَّ جيجي كان بريئاً».

«هذا ليس صحيحاً».

فقال بصوته النَّاعم على نحو يكاد يكون غير طبيعيٍّ: «لقد أسأت الفهم، يا جُو. ولكن ينبغي عليك ألا تسيء فهم ما سأقوله لك الآن: لم يسبق لي أن قلت كلمة واحدة ضدَّ جيجي. يتوجب عليك أن تتذكَّر «قولي هذا» مثلما تتذكَّر اسمك. فلطالما أحببت جيجي واحترمته، وأرحِّب بعودته أخاً وزميلاً وصديقاً».

فقلت: «لا أفهم يا روبيرتو».

«ولا أفهم كيف تطير الصواريخ إلى القمر. لا يتوجب أن يفهم المرء كل شيء. لا تقلق بشأن ذلك، فهي ليست مشكلتك».

31
ذيل الحصان المُقدَّس

لم أعد من بريشًّا مع الفريق، فلقد دُعيت إلى حفل العشاء السنويِّ لجوائز «غورين سبورتيڤو» في الليلة التالية. كانت هذه الدَّعوة في إيطاليا أقرب ما تكون إلى تلقِّي المرء دعوة إلى حفل جوائز الأوسكار. عشاء باذخ يُقدَّم إلى مئات المدعوِّين في قلعة شيِّدت في القرن السادس عشر، في الريف خارج بولونيا، حيث تُقدَّم جوائز من طراز: «أفضل لاعب» و«أفضل مدير فنيٍّ».

أظنُّ أنَّ المجلة قد دعتني، فلقد نشرَت مؤخراً مقالة حولي، ولا بُدَّ أنهم قد عدُّوني شخصيَّة ثانويَّـة لكنها مشهورة. بيْدَ أنَّ لديَّ أسباباً أخرى لرغبتي في أن أكون هناك؛ فلقد اختير دانيلو دي فنتشنسو، كما ذكرت سابقاً، لاعبَ العام في الفئة الثانية بدوري الدرجة الثالثة في الموسم السَّابق، وكان سيتلقى جائزته في حفل العشاء هذا. ستستلم الجائزة، نيابةً عنه، خطيبته التي غادر من منزلها صبيحةَ اليوم الذي وقع فيه الحادث المميت. وثانياً؛ سيكرَّم ياكوني بوصفه: «أفضل مدير فنيٍّ في الدوريَّات الثانويَّـة»، لقيادته فريق كاستل دي سانغرو إلى دوري الدرجة الثانية في العام السَّابق. ولكنَّني رغبت في أن أكون هناك لرؤية باجيو، أكثر من أي شيء آخر.

كان الذي «لا يُدانيه أحد The Unequaled One» يواجه موسماً صعباً، مثلما واجهَ، في الحقيقة، السَّنةَ الفائتة. كنتُ أعتقد أنَّه لم يتغلَّب على صدمة

إهداره آخر ضربة جزاء في بطولة كأس العالم سنة 1994، فسمح لفريق البرازيل بأن يغدوا الأبطال.

ولقد التقيت باجيو في الواقع لفترة وجيزة حين كنتُ في پادوڤا رفقةَ ألكسي لالاس. وصل يوڤنتوس ليلةَ السَّبت لخوض مباراة ضدَّ پادوڤا في اليوم التالي، وبعد أن مارستُ درجةً من الإلحاح بلغت حدَّ الهوس، سُمح لي بالتشرُّف بلقائه لعشر دقائق في القاعة التي تُقدَّم فيها مختلف الأشربة بفندق «الهوليدي إنْ» حيث كان ينزل فريق يوڤنتوس.

من الصَّعب وصف شغف المشجعين الطليان المتعصِّبين لباجيو، ولكنَّ المثالَيْن الأوحدَيْن اللذَيْن شهدتهما في أمريكا، على هستيريا مماثلة، كانا حين وصلت فرقة «البيتلز» من إنكلترا، وحين ترشَّح روبرت كيندي، بعد بضع سنين، لمنصب الرئيس لفترة وجيزة. باجيو هو بطل شعبيٌّ إيطالي تتخطَّى شعبيَّته حدود الانقسام المرير بين الشمال والجنوب الذي يمزِّق البلاد، ويبدو أنَّ نجاحه، وسلسلة المذلَّات التي فرضها عليه قَدَرٌ قاس لا يرحم، قد عملا سويَّـةً على تعظيم درجة التَّمجيد المُفرط التي يُلهمها.

وليس من السهل أيضاً وصف أسباب لماذا يتمتَّع باجيو بمثل ذلك التَّبجيل الذي يأخذ بالألباب في الأراضي الأجنبيَّـة. فقد حدثت حالات انتحار في سيريلانكا حين أضاع ضربة الجزاء في المباراة التي أقيمت في استاد «روز باول». ووقعت أحداث شغب في بنغلاديش حين استبدله المدير الفني الحقود للمنتخب القومي الإيطالي، بأحد البدلاء في منتصف مباراة الدَّور الأوَّل ضدَّ النَّرويج.

وتوفُّر حقيقة أنَّه واحد من أفضل لاعبي العالم نقطة الانطلاق الضروريَّـة بالطَّبع. ولكنَّ باجيو متفوِّق في الأسلوب والجوهر على حدٍّ

سواء. يكتب غاليانو في وصفه قائلاً: إنَّ «طريقة لعبه غامضة. لساقيه عقلهما الخاصُّ، وقدمه تسدِّد من تلقاء نفسها، وعيناه تريان الأهداف قبل حدوثها».

إنَّه أحد أعظم صانعي الألعاب fantasisti الذين مارسوا اللعبة أبداً: لاعب موهوب، بقدرات ساحرة، يبدو في بعض الأوقات كأنَّه يلعب في الأبعاد الأربعة في وقت واحد، ويمتلك في أرض الملعب إدراكاً حقيقياً يتخطَّى الحواس، ورؤيةً جامحة المخيِّلة وفي غاية الإبداع».

ولد باجيو في كالدونغو، وهي قرية شمال ڤيتشينزا، وخاض مباراته الأولى في سنِّ الخامسة عشرة، وسجَّل هدفه الأول حين كان في السَّادسة عشرة، واشتراه فريق فيورنتينا الذي كان يلعب في دوري الدرجة الأولى حينئذ، وهو في الثامنة عشرة. ولكنَّه عانى، قبل أن يخوض أي مباراة معهم، من أوَّل إصابة ضمن سلسلة إصابات خرَّبت ركبته، وظلَّت تلاحقه طيلة مسيرته المهنيَّـة.

تعافى، بعد أن راح يدرس البوذيَّـة خلال وقت ألمه وعزلته، فلمع عبر سماء فلورنسا لثلاث سنوات مجيدة، قبل أن تتسبَّب إدارة الفريق بإثارة أعمال شغب عنيفة وكبيرة جرَّاء بيعه إلى نادي أثرى الأثرياء، وأقوى الأقوياء؛ فريق يوڤنتوس الذي تمتلكه عائلة أنيلِّي.

وبعد تألُّقه مع المنتخب الإيطالي في بطولة العالم 1990 (التي أقيمت في إيطاليا)، خاض أربعة مواسم مجيدة أخرى في تورين، مدينة يوڤنتوس، ثمَّ جعل العالم مسرحه كما لم يفعل مِن قَبْلُ بأدائه المذهل في أمريكا.

يكتب غاليانو قائلاً: «يتدفق إلى الأمام في موجة بديعة. يتحرَّش به الخصوم، يقرصونه، ويلكزونه بقوة. ثمَّة نقوش بوذيَّـة مكتوبة في داخل

شارة القائد التي يرتديها باجيو حول ذراعه. لا يحميه بوذا من الضَّربات ولكنَّه يساعده على تحمُّلها. ويساعد باجيو أيضاً، بسكينته اللامتناهية، على اكتشاف الصَّمت الكامن خلف صخب الهتافات والصَّافرات».

أعتقدُ أنَّ هذا العنصر الأخير؛ هالة التصوُّف تلك التي يبدو باجيو يعمل في داخلها، هي التي جعلته يحقِّق مكانة تتخطَّى حدود المكانة التي يتمتَّع بها البطل الرياضيُّ أو الأيقونة الثقافيَّـة. كما لو أنَّه، بكرامته المُنكرة للذَّات، قد بارك إيطاليا كلها بميزة الخلود التي لم تعرفها البلد من قَبْله. فلقد مكَّن الآخرينَ، عبر روحه الأنثويَّـة anima، وفق المصطلحات اليونغيَّـة[166]، من الاقتراب أكثر من المُطلَق.

ولقد جعلت من نفسي، لسوء الحظِّ، أضحوكةً في أثناء الوقت القصير الذي وافق على مشاركتي إياه في العام 1994. لسببٍ ما -ربما تحقيقاً لأمنية دارت في مخيِّلتي أو مجرَّد اعتقاد لا واعٍ بأنَّ مَن يلعب كرة القدم بمثل مهارة باجيو لا بُدَّ أن يكون قادراً على التحدُّث بجميع لغات العالم على نحو فطريٍّ- راحت تختمر في ذهني على مرِّ الوقت فكرة أنَّه يتحدَّث الإنكليزيَّـة بطلاقة.

فقلت له، وأنا أجلس في المقعد الذي بجوار طاولة الأشربة الدائريَّـة: «تشاوْ. أفهم أنك تتحدَّث الإنكليزيَّـة».

فتبسَّم لي بمودَّة، ثم نظر إلـيَّ بعينيه المشرقتين، وقال: «لا بأس».

بدا لي عن قُرب مجرَّد صبيٍّ. كأنَّه «بوذا طفلاً Buddha-child»، بطول خمسِ أقدام وستِّ بوصات، ووزنه أقل من 150 باونداً، ويرتدي قبَّعة بيسبول جلديَّـة سوداء بطريقة عكسيَّـة، حتى تستطيع حافَّة القبَّعة حجبَ شعره المعقود على شاكلة ذيل الحصان.

شرعت على الفور في مونولوغ حماسيٍّ حول مدى إعجابي وزوجتي نانسي به، ليس لقدراته كرياضيٍّ فحسب، وإنَّما لامتلاكه قوة الشخصيَّة بسلوك درب البوذيَّة في بلد كاثوليكيٍّ على نحو كاسح مثل إيطاليا، ولتفانيه الواضح تجاه زوجته وطفليه، ووفائه تجاه زملائه وأصدقائه، ولجميع الخصال العصيَّة على الوصف التي جعلته على وجه السرعة شخصيَّة مميَّزة في حياتنا.

بدا كأنَّه يصغي بانتباه كبير. وحين توقَّفت عن الكلام أخيراً، هزَّ رأسه، ثم تبسَّم ثانيةً، وقال: «لا بأس». في تلك اللحظة، مال أحد مسؤولي نادي يوڤنتوس نحوي، وقال: «لا بُدَّ أن تفهم بالطَّبع، أنَّ باجيو لا يتكلم الإنكليزيَّة بتاتاً».

ثمَّ... انقطعت المحادثة برمَّتها حينئذ، كمن تحدَّر منهكاً من أعلى التلة إلى القاع. ولكنه، على الرَّغم من ذلك، خطَّ عن طيب خاطر تحيَّةً مهذَّبة إلى نانسي، والتقط صورة معي (كان الفيلم لايزال في كاميرتي حين سُرقت في استاد پادوڤا في اليوم التالي)، لقد بدا في العموم أنَّه قد نجا من صولة بلاهتي بصفاء سكينته.

سجل في اليوم التالي هدفاً من ضربة حرَّة، جرَّاء تعرُّضه لعرقلة عنيفة، ولكنَّه راح يعرج بعد ذلك مباشرة، بسبب إصابة عضلة الفخذ التي عانى منها سابقاً في بطولة العالم. أثَّرت الإصابة فيه، تأثيراً بالغاً، طيلة ما تبقَّى من الموسم، فباعه يوڤنتوس بعد انتهائه إلى إيه. سي. ميلان، في حادثة هزَّت أركان عالم كرة القدم.

وعلى الرَّغم من أنَّ جماهير ميلان المتعصِّبة هامت بباجيو عفوياً على الفور -على شاكلة جماهير الأندية التي لعب فيها- فإنَّ مدرِّب النادي،

وهو مدافع سابق، مستبدٌّ وفجٌّ، قد عقد العزم على إثبات أنَّه أكبر من باجيو، فأبقى «ذيل الحصان المقدس il Divino Codino» على دكَّة الاحتياط، بإجباره على اللعب خارج موقعه حين يكون في الملعب، وبتشويه سمعته المستمرِّ في أحاديثه إلى الصِّحافة.

كانت النتيجة بؤساً دائماً. غادر المدرِّب النادي للتدريب في إسپانيا في السنة اللاحقة؛ السنة التي كنت فيها بكاستل دي سانغرو. دامت الفترة التي قضاها خليفته الأوروغوانيُّ أقل من نصف موسم، فاستبدل بأريغو ساكي، المدير الفنيِّ السَّابق لميلان -وعدوٌّ باجيو الأعظم حين درَّب المنتخب القوميَّ- المزهوٌّ بنفسه، والمصاب بجنون العظمة، ومتحجِّر الفؤاد، والحقير، والعنيد، والمتغطرس الذي أبدى رغبته منذ البداية في إذلال باجيو بأي طريقة ممكنة، واضعاً أداء الفريق في المرتبة الثانية. (هوى ميلان إلى المرتبة العاشرة تحت إدارة ساكي، فغادر الفريق مذلولاً في نهاية الموسم، في حين صوَّت مشجِّعو النادي لباجيو بوصفه لاعبهم المفضَّل في الفريق).

وحين اقترب موعد عيد ميلاده الثَّلاثين في منتصف فبراير، بدا باجيو ضائعاً في الكآبة. كانت المقابلات القليلة التي أجراها يتفطَّر لها القلب. كان يائساً في ميلانو. أرسلنا إليه، نانسي وأنا، رسالة عيد ميلاد بالفاكس عبر الأطلسيِّ، تضمُّ كل تعليق عموميٍّ أجريته في إيطاليا حول معبود الجِماهير الذي اعتقدتُّ أنَّه كانه.

أرسلتُ إليه الرسالة بالفاكس، لكنني لم أتوقَّع أنَّه سيراها، فهو يستلم أكثر من 5000 رسالة بريد في اليوم. بيد أني، حين عدتُ من التَّدريب،

بعد أسبوع من عيد ميلاده في 18 فبراير، وجدت رسالة أرسلها بالفاكس فيتوريو بيترونه، مدير أعمال باجيو الشّهير وموضع ثقته.

قالت الرِّسالة: «حاول روبي الاتصال بك عدَّة مرَّات ليشكرك وزوجتك على تمنيَّاتك الطيِّبة، النابعة من القلب على نحو واضح. لم يتمكن، لسوء الحظِّ، من الوصول إلا إلى جهاز ردِّك الآليَّ. ولهذا، فلقد طلب منِّي أن أرسل هذه الرسالة لك بالفاكس، لأخبرك أنَّه سيكون مسروراً لرؤيتك ثانيةً، إن تمكَّنت من حضور حفل عشاء غورين سبورتيڤو».

كنت سأحضر حتى لو اضطررت للزحف من بريشًّا على يديَّ وركبتيَّ.

كان الحدث رائعاً في كل شيء. تألَّمت لرؤية سيلڤيا، خطيبة دانيلو، وهي تعبر الممرَّ لتستلم درع تكريمه والدموع تنهمر على وجنتيها. لم أتكلم معها منذ يوم الجنازتَيْن، وكان لقائي بها حينئذ قصيراً. تمكَّنت، هنا، من إخبارها بفداحة مشاعر الفقدان التي يشعر بها كل شخص في كاستل دي سانغرو تجاه دانيلُّو، ليس لمهارته كلاعب فحسب، وإنَّما للإنسان الذي كانه.

شكرتني سيلڤيا، ولكنها أخبرتني أنْ لا أحدَ من وفد مسؤولي «سوتشتا» (لم يتضمَّن غراڤينيا الذي كان لايزال مختبئاً، قريباً من البلدة) الذي ارتحل من كاستل دي سانغرو لرؤية ياكوني يتسلم جائزته، قد تجشَّم عناء تحيَّتها، ناهيك عن السؤال عن حالها، ناهيك عن قول كلمة واحدة عن دانيلُّو.

فقلت: «عقليَّـة الهواة. ليسوا رفيعي المستوى». فأومأت برأسها، ثمَّ قالت: «لماذا لم يعترف بوجودها حتى ياكوني»؟

لم أعرف، على الرَّغم من أنَّني شعرت أنَّه يعدُّ إظهار المشاعر علامة على ضعف لا يليق إلا بالنِّساء. أما الأمر الأقسى، فتمثَّل في أنَّ ياكوني كان قد تخلَّى عن دانيلو كلاعب، في الوقت الذي مات فيه، وها هو ذا الآن يتصرَّف كأنَّه لم يكن موجوداً قطُّ. فلم أقل لها سوى «لا أعرف». ثم تعانقنا لبرهة وجيزة، لكنها كانت مديدةً بما يكفي، بالنسبة إلـيَّ، كي أشعر بصلة عابرة مع دانيلو مرَّة أخرى على الأقل.

استلم أزڤالدو جائزته بحضور زوجته وابنتيه، اللواتي لم يتقاسمن في أثناء الموسم الكثير من أحداث حياته، ثم قدَّمني عريف الحفل، في وقت لاحق، من بين آخرين من الحضور، فنهضت من مقعدي فترة كافية ليلحظني باجيو. فلوَّح إلـيَّ، ثمَّ نزل عن المنصَّة، حين انتهت المراسم، وعانقني كما لو كنت صديقه القديم. كان في غاية اللُّطف إلى درجة أنْ قال إنَّ من المؤسف ألا تتمكَّن نانسي من القدوم، مقترحاً أن نتناول طعام الغداء في ميلانو حين تتمكَّن نانسي من الزيارة لاحقاً في الرَّبيع.

بِتُّ في القلعة، وكذلك ياكوني وزوجته وابنتاه. وفي الصَّباح، توجَّهنا عائدين إلى كاستل دي سانغرو، والوهج النَّاعم لأشعَّة شمس الرَّبيع يملأ نفوسنا والشَّذا الفوَّاح للأزهار المتفتِّحة للتوِّ، متوقِّفين في تشيڤيتانوڤا، بلدة ياكوني، لتوصيل ابنتيه وزوجته.

كان غريباً أن أراه في صحبة العائلة. فغالباً ما جعلني وجوده الرَّهبانيُّ في كاستل دي سانغرو، العاقد العزم على تحقيق ما جاء من أجله فحسب، أن أنسى أنَّ له زوجة وأطفالاً. كانت ابنتاه مفعمتَيْن بالحيوية وشديدَتي الذكاء على نحو واضح. أما زوجته، فقد كانت امرأة نحيلة، تتصرَّف بهدوء رائق على عكس سلوكه المتقلِّب، ولكنها بدت، وفق الانطباع الأوَّل، كأنَّ الدَّهر قد أخنى عليها قليلاً.

لم تكُن تشيڤيتانوڤا مكاناً مميّزاً يستحق الذِّكر. ولا يتوجب عليك ذلك، لو كانت هذه البلدة موطنك، وكانت هذه هي حال ياكوني. كان كمثل جواد كبا في هذه البلدة، بطريقة أو أخرى، بعد أن عانى إصابة وهو في الخامسة والثّلاثين؛ جواد يجرُّ عربة الألبان قام بجولته الأخيرة. وبدلاً من إطلاق النار عليه، سمَّاه النادي مديراً فنياً للفريق، فغدا الجواد الذي كان يجرُّ عربة الألبان بلدوزراً في هذه المدينة الشموليّـة التي يبلغ عدد سكّانها 35000 نسمة، الواقعة في المنطقة السَّاحلية شرقَ أُومبريا وشمال جزء أبروتسو المعروف باسم ماركي.

لم تبد تشيڤيتانوڤا بلدة شاطئيَّـة، على الرغم من تشييدها مباشرة على الساحل الأدرياتيكي. ولم تكن، في جوهرها، كذلك. فما أبقى قلب البلدة نابضاً بالحياة على نحو ثابت هي الصناعة وليست السياحة، والعمل وليس اللهو. لقد كانت واحدة من مراكز البلاد الرائدة في صناعة الأحذية؛ لا من نوع تلك الأحذية التي بلا كعب المصنوعة من جلد الغزال، ماركة برونو ماغلي، المفضَّلة لدى أو. جيه. سمسن، ولا تلك التي يضع مصممو الموضة الآخرون أسماءهم عليها، وإنَّما أحذية تشيڤيتانوڤا المخصَّصة للعمل: في المصانع، وفي الحقول، أو حتى في المكاتب. لقد صُنعت، على شاكلة فريق درَّبه ياكوني، لتأدية عمل ما، لتدوم موسماً بأكمله، لا أن تُحوِّل مرتديها إلى فُرجةٍ.

عاشت العائلة في عمارة سكنيَّـة بلا ملامح محدَّدة؛ واحدة من آلاف العمارات الممتدة، ضمن تصميم غير مميّز، على طول السَّاحل الأدرياتيكي، لتكوِّن، بصورة جماعيَّـة، أكثر معالم إيطاليا إثارة للدَّهشة، في حقبة ما بعد الحرب، معبرة عن انتصار الجشع على الذَّوق.

كانت زوجة ياكوني، على شاكلته هو، تنحدر من إقليم لومباردي، في الشمال، وتتوق للعودة إلى هناك. لم يبد ياكوني مكترثاً بشأن المكان الذي يدعوه هو أو عائلته ديارَهم، فحياته عمله. كانت دياره أي بلدة يصدف أن يدرِّب فريقاً فيها خلال موسم معيَّن أو على مدار مواسم عدَّة.

ولهذا، فقد كانوا يعيشون «مؤقَّتاً» في تشيفيتانوفا، على الرَّغم من أنَّها كانت الموطن الوحيد الذي عرفته البنتان أو تستطيعان تذكُّره. ولقد تسلَّلت السِّنينُ، واحدة تلو أخرى، على أمل العودة دائماً إلى لومباردو في السنة التالية، حتى غدت الفتاتان في تلك الأثناء بالمدرسة الثانويَّـة، وبدت العودة ميئوساً منها في المستقبل المنظور. علاوة على أنَّ وجود ياكوني في كاستل دي سانغرو، قد جعل الوصول إلى تشيفيتانوفا بالسيارة أسهل من لومباردي على نحو ما على الأقل.

وكانت زوجته على أي حال قد اتَّخذت موقفها تجاه هذه المسألة منذ أمد بعيد: لا تليق بها حياة التشرد التي تضطرها إلى حزم أمتعتها وحمل طفلتَيْها، تابعة زوجها إلى أي مكان تقوده إليه مهنته، أو تجبره على الذهاب إليه. لذا، فقد كانت كاستل دي سانغرو المكان السَّادس الذي درَّب فيه منذ أن غادر تشيفيتانوفا سنة 1984، والمكان الأوَّل الذي قضى فيه أكثر من ثلاثة مواسم. ولذلك، فقد كانت تشيفيتانوفا، بالنسبة إليها وإلى طفلتَيْها، هي الدِّيار في السراء والضراء.

توقَّفنا هناك فترة كافية كي تحضِّر له زوجته وابنتاه حقيبةً على عجَل. وفي أثناء قيامهم بذلك، أخذني ياكوني إلى مكتبه، الذي كانت السِّمة الغالبة عليه هي مجموعة المجلَّدات الحاوية جميع قصاصات الجرائد التي تمكَّن من العثور عليها وحفظها وتخصُّ كل موسم لعب فيه أو درَّب. كانت

بمثابة «مكتبة كونغرس» مصغَّرة، ولا يوجد إلا اسم ياكوني في فهرست البطاقات. قلت لا بُد أن أعود ذات يوم لأقضي بعض الوقت متفحِّصاً هذه المجلَّدات، كي أتمكَّن من تقدير مجمل مسيرته المهنية، لاعباً ومديراً فنياً، حقَّ قَدْرها. فتألَّقت عيناه وتهلَّل وجهه. ليس من الصعب، بالطَّبع، ترتيب ذلك.

ظلَّ إحساس الرَّبيع ماثلاً بوفرة طيلة الطريق إلى السَّاحل، وحتى في الأراضي الداخليَّـة، إلى أن صعِدنا مسافة طويلة إلى سولمونا. ولا بُدَّ للمرء، كي يصل إلى سولمونا قادماً من كاستل دي سانغرو، أن يعبر في نفق طويل. ينقل هذا النفق المرء إلى الأعلى أكثر مما يبدو، وينفتح في نهايته على هضبة عالية تمتدُّ على جانبي الطريق لنحو خمسة أميال.

كان العبور من خلال ذلك النفق، في هذا الوقت من السَّنة، كالشُّروع في رحلة غير مرغوبة للعودة في الزَّمن. إلى منتصف شهر فبراير، على سبيل المثال. تركنا كل وفرة الرَّبيع وتلميحاته خلفنا حين خرجنا من نهاية النَّفق. لطمت السيارة فجأة ريحٌ عاتية، وهبطت فوقنا غيوم سوداء أسرع مما كان يقود ياكوني، ثم أثلجت في غضون ثلاثين ثانية.

إلى جواري، هزَّ ياكوني رأسه حزيناً وزمَّ شفتيه. كنَّا قد تقاسمنا لحظة مميَّزة في الليلة الفائتة، وقد تكون عنت بالنسبة إليه ذروة مسيرة طويلة وشاقَّة، ولكنها غدت لحظةً ماضويَّـة، فلقد عدنا.

قلت، مشيراً بإبهامي إلى الخلف: «عالَم آخر».

أصدر ما ظنَّ أنَّه صوت ضحكة، ولكنَّه كان أقرب إلى الزمجرة بالنسبة إلـيَّ، ثم وافقني قائلاً: «نعم، نعم، بالتأكيد. في الحقيقة: عالم آخر، وأفضل».

32

أُفعوانيَّة ياكُونِي

واصل الثلج الانهمارَ طيلة منتصف الأسبوع، وغدا كل يوم أبرد من سابقه. هبطت غيوم رماديَّـة واطئة من الجبال، جاعلة الظهيرة تبدو كأنها الغسق. أصابنا هذا الطقس بالكآبة، وكان الموسم الطويل والشَّاق قد عضَّنا بنابه.

كانت عبارة «مُنْتَانْيِهْ رُوسِّهْ montagne russe» هي المصطلح الإيطالي المقابل لعبارة «الأُفعوانيَّـة». قال ياكوني قبل شهور إنَّ الموسم سيغدو مثل ركوب الأفعوانيَّـة، نظراً إلى التَّبايُن الواضح بين اللاعبين في هذا الدوري. أما الآن، فقد بدا الوضع كأنَّ عدَّة «أفعوانيَّات» تدور في وقت واحد، ولا يستطيع المرء التأكُّد في أي واحدة كان قد ركب.

تعلَّق الأمر، لا محالةَ، بالتَّباين بين لاعبي الفريق، بحسب ما قال أزڤالدو. كان لوتِّي جديراً بالاعتماد عليه وأداؤه مدهشاً على الأغلب في حراسة المرمى، ولكن لا أحد من المدافعين يمكن الاعتماد عليه ليلعب بدرجة المهارة والتركيز ذاتها لأسبوعين متواصلين. وكان خطُّ الوسط خليطاً أسوأ، ولعلَّ ألبيرتي ودي فابيو يشذَّان عن القاعدة، الشُّذوذَ الأقل، ولكنَّه الشُّذوذ عن قاعدة كانت حَدِّيةً بالنسبة إلى دوري الدرجة الثانية.

أما كلاوديو، فيتمتَّع بومضات من التألُّق، يصاحبها أداء من نوعية ذلك الذي نشاهده في ساحات المدارس، والذي يزيده سوءاً عادته في تبادل الحوار مع ياكوني خلال المباراة.

كان كلاوديو يجري بالكرة إلى خطِّ التّماس، ثم يركلها على نحو غير قابل للتَّفسير فوق خطِّ النِّهاية دون أن يكون ثمَّة لاعب آخر من كاستل دي سانغرو يلوح في الأفق.

يهتـاج الجالسـون في دكَّـة الاحتيـاط نتيجـةً لذلك، ويقذفونـه بأقذع الشتائم.

ينظر كلاوديو إلى أزڤالدو بلا حول ولا قوة. «وماذا تريدني أن أفعل»؟

«عليك اللعنة! تباً لك»!

يواصل كلاوديو تحديقه بخطِّ التماس فاغراً فاه، واحتماليَّـة أن يرجع بسبب ذلك إلى اللعب في خطِّ الدِّفاع يعمي بصيرته. ولم يكن هذا الشهر هو سپتمبر، وإنَّما أبريل. وكان كلاوديو بمثابة رجل المليون دولار بالنسبة إلينا. ولأنَّه كان اللاعب المدلَّل لدى ياكوني، فإنَّه لا يكفُّ عن مدح «ذكاء» كلاوديو.

وكان سپنيسي اللاعب الآخر الذي لا يكفُّ ياكوني عن مدحه، بصرف النظر عن رداءة أدائه، مشيراً إلى ذكائه أيضاً. وهاكم مثال علـى «ذكاء» سپنيسي: قرَّر جيوناتا الاحتفاء بهدفه الذي سجَّله في مرمى پاليرمو، بطلب شراء سيارة جديدة باهظة الثَّمن، فهو كأي مراهق إيطالي آخر، يستمتع باندفاع التِّستيرون في عروقه. شُحِنت السيارة ووصلت إلى كاستل دي سانغرو. ولكنَّ سپنيسي لم يعرف إلا حينها فحسب أنَّه لا يمتلك رخصة قيادة؛ في الحقيقة، لم يكن يعرف كيف يقود السيارات.

ولكنَّ السيارة وصلت إلى هنا، على أي حال، وهي سيَّارته، فكان لا يجد غضاضة في نفسه أن يميل عليها كلما وجد الرَّغبة في أن يُعجَب بانعكاس صورته على سطحها المصقول والمُلمَّع بعناية فائقة. لا بُدَّ أنَّها نُكتة

لا يُمَلُّ من تردادها. فكنت أسأله في كل يوم إن كان قد شرع في دروس تعلُّم القيادة.

فكان يقول: «لا بُدَّ في آخر المطاف، ولكن لا داعي للعجلة».

كانت نظريَّتي تقول إنَّه بدا متردِّداً في قيادة سيارة جديدة باهظة الثَّمن عبر البلدة، حتى يسجِّل هدفاً آخر أو هدفَيْن على الأقل، وهذا مؤشِّر على حساسية صحيَّـة من لدنه، إن لم يكن ذكاءً على وجه الدقَّة.

وكانت ثمَّة أفعوانيَّـة ياكوني الخاصَّة، أيضاً، التي يبدو أنَّها عملت وفق آليَّـة مختلفة تماماً. كان يبدو متجهِّماً وكئيباً في بعض الصباحات، ثمَّ يغضب غضباً شديداً في وقت الغداء، حتى يكاد الشَّرر يتطاير من عينيه، ثم يغدو فجأة، في منتصف الظهيرة، مرحاً وصخَّاباً، ثم يُجنُّ جنونه في لمح البصر ثانيةً، إلى درجة اعتقادي أكثر من مرَّة أنَّه على وشك أن يضرب اللاعبين. وبعد ساعتين، في مأدبة عشاء خاصَّة أقيمت في قرية جبليَّـة (حرص على أن أُدعى إليها، فلقد حرص منذ البداية على أن أُدعى إلى كل شيء، بصرف النظر عن الشجارات التي قد تنشب بيننا بشأن التَّكتيكات) كان سارد الحكايات السَّاحر.

لو أدرك مقدار الاحتقار الذي يُكنِّه له معظم اللاعبين، لما تحدَّث بشأنه معي. ولكنَّه لم يتكلم مراراً إلا عن احتقاره وازدرائه وبُغضه ونفوره وعدم احترامه لكل واحد منهم، ما عدا الثلَّة التي يعدُّها «الحرس القديم».

ويمكن لطيشه المُطلَق أن يكون مرعباً. جذب فرانكيتشيني من ذراعه عصرَ أحد الأيام، منتزعاً إياه من حلقة اللاعبين الذين كان واقفاً بينهم، ثمَّ عنَّف هذا الشابَّ طيلة خمس وأربعين دقيقة بكل خسَّة وحقد يمكن

تخيُّلهما، قائلاً له: «لماذا»؟ لم يعرف أحدٌ السَّبب، ولا حتى فرانكيتشيني على الأقل.

وثمَّة من كان يتجاهلهم بكل بساطة. فلقد مرَّت أسابيع، على سبيل المثال، منذ آخر مرَّة تبادل فيها كلمة واحدة مع روسُّو، على الرَّغم من وجودهما معاً في أثناء وجبة الغداء، وخلال ساعات التدريب الثلاث، وفي أثناء وجبة العشاء، كلَّ يوم. وكان قد أذلَّ كريستيانو على نحو بغيض، وأهان ألبيري صراحةً، شاتماً إياه بأقذع الشتائم التي تستخدم عادة في الإشارة إلى المثليِّين.

ليست لديَّ أدنى فكرة عما قد تكون عليه ميول ألبيري الجنسيَّة، على الرَّغم من أنني افترضت أنَّ غالبية اللاعبين كانوا سيعرفون ميوله لو كانت مختلفة عن ميولهم. ولم يسبق لي أن سمعت مرَّة أحد اللاعبين يُبدي ملاحظة وضيعة مثيرة للشك بهذا الخصوص، سواءً بحضوره أو من وراء ظهره. ولكنَّ ياكوني فعل كل شيء إلا البصق في وجه الفتى المسكين.

كان لوقا دانجلو ضخم الجثَّة وقوياً، فلا يتجرأ عليه أحد، ولكنَّ ياكوني كان يثور، فيسبُّه، من وراء ظهره، بأقذع الألفاظ، خاتماً هيجانه بالنظر إليَّ ووصف دانجلو بـ «صديقك الشُّيوعي، المخنَّث، صاحب الشعر الطويل»!

لم تكن الأجواء أشدَّ توتُّراً وغرابةً مما كانت عليه. وعلى الرغم من أنَّ أيام الربيع قد بدأت تطول، فإنَّ الأسابيع المتبقية حتى نهاية الموسم آخذة في التناقص، مما يجعل «الرَّبيع»، بصورة عكسيَّة، لا وقت التجدُّد والانعتاق البهيج من أعباء الشِّتاء، وإنَّما وقت شدِّ الملزمة. ولا تبدو تلك الملزمة ضاغطة بمزيد من القوة أو الألم أكثر مما تضغط في هذه الأثناء على

جمجمة أُزڤالدو. وربما كان «المدرب» سيحظى بالتَّقدير، لو سارت الأمور على خير ما يرام، كما ينبغي، ولكنَّه يجنح إلى أن يفقد وظيفته سريعاً.

وكان نطاق «الحفل festa» الذي أعده غراڤينيا احتفاء بعودة جيجي إلى ممارسة كرة القدم، حين سنلعب ضدَّ ريجينا يوم الأحد، قد أضاف المزيد إلى الشُّعور بعدم الواقعيَّة الماكرة قليلاً. وعلى الرغم من أنَّني بقيت معجباً بجيجي، فإنَّ مشاعر التهكُّم قد تعاظمت لديَّ بخصوص أسطورة «جيجي بوصفه المسيح Gigi-as-Jesus» (متسائلاً طيلة الوقت عن حال غالٍي، وأين هو، رغم تأكيد غراڤينيا في هذه الأثناء أنَّه يتماثل للشفاء).

اقترحت على فوسكو ومارتينو، خلال وجبة عشاء ليلة السَّبت، بضرورة أن نمنح جماهيرنا، الذين سيوجدون في الجهة الشمالية من الاستاد، نشيداً جديداً، احتفاءً بمثل هذه المناسبة الخاصَّة؛ عودة جيجي إلى ممارسة اللعب في المباراة التي ستعقد في اليوم التالي.

فأومأ كلاهما برأسيمها، على نحو غامض.

وقال فوسكو، مرتقباً: «حسناً؟ إذاً؟ وماذا يجب أن يكون النَّشيد»؟

فقلت: «الجريمة تدفع Il delitto paga»[167].

وضع تونينو يده على جبينه ومال في كرسيِّه على الجانبَيْن، قبل أن ينفجر ضاحكاً بأعلى صوته، قائلاً: «آآآآآآه!. جُو العظيم! جُو العظيم»!

أما فوسكو، ابن صانع السُّجق، الذي كان يركل كرة الجوارب في الأزقة الخلفيَّة في نابولي، مسقط رأسه، حين كانت عصابة «غامورا»، في سنواته التكوينيّة تلك، أكثر من مجرَّد أسطورة، فلم يبتسم حتى. ولكنَّه وضع سبَّابته، بدلاً من ذلك، على شفتيه على نحو عاموديٍّ، ثم نظر مباشرة في عينيَّ، وهزَّ رأسه قليلاً من جانب إلى آخر.

وكما هو متوقَّع، فإنَّ ظهور جيجي في ملعب كاستل دي سانغرو أدَّى إلى انطلاق أعلى هدير استحسان وفرح سمعته منذ قدومي. كان الأمر صحيحاً؛ أن ثمة مهرباً من الجريمة، طالما يوجد شخص بجانبك يتكفَّل بالدَّفع.

لعب جيجي طيلة التِّسعين دقيقة، وكان أداؤه رائعاً. سجَّل سپنيسي هدفاً بتمريرة بديعة من مارتينو قبل ثوان من انتهاء الشوط الأول فحسب، وسدَّ لوتِّي منطقة المرمى طيلة عصر ذلك اليوم. وهكذا، فزنا 1- صفر. نهاية سعيدة لأسبوع شاقٍّ.

حضر المباراة، لسبب ما، مراسل صحافيٌّ قال إنَّه من هيئة الإذاعة الوطنيَّـة في أمريكا. لم أقتنع بسلامة طويَّته، ولكنَّه تركني في أثناء مقابلة قصيرة أتحدَّث بالإنكليزيَّـة على الأقل.

قلت: «لدينا، كما تعرف، عشرة لاعبين هناك اليوم لم يُتَّهموا بتهريب كوكاكيين بقيمة خمسة وعشرين مليون دولار إلى هذا البلد. وكان رائعاً أن أسمع تصفيقاً حارّاً من أجل أحدهم».

كانت جميع الصحف الصادرة صبيحة اليوم التالي قد استسلمت بلا شروط لظاهرة الهوس بجيجي Gigi-mania. فلقد منحته صحيفتان، من بين الخمس التي تفحَّصتها، تقييماً بدرجة 8، في حين منحته صحيفتان أخريان درجة 7. استحقَّ، بالنسبة إلـيَّ، درجة 5,6، على شاكلة تِشيي، من بين مدافعينا. ولكنَّ تقييمات جيجي قد تضاعفت على نحو واضح جرَّاء أدائه والوقت الذي قضاه في السجن.

كتبت إلى نانسي: «لو قضى في السجن أربعة أسابيع، لحصل على تقييم بدرجة 11».

●●●

كان يوم الإثنين من أسوأ الأيام التي أستطيع أن أتذكَّرها منذ منتصف الشِّتاء. كتبت رسالة إلى أحد الأصدقاء في أوَّل المساء:

> هبط الغسق الرَّمادي، البارد والرَّطب، مرَّة أخرى، على هذه المنطقة الجبليَّـة المتجمِّدة والمطر النهاريُّ الذي لا يلين يهيِّئ نفسه لتحوُّله الليلـيِّ إلى مطر ثلجيٍّ غدَّار، ويواجه السكان المعدمون والمحاصرون مرَّة أخرى -ومخزوناتهم الشتويَّـة من الحطب قد نفدت منذ وقت طويل- الخيارَ الأمرَّ بين استخدام قطعة أثاث أخرى حطباً للتدفئة أو ذبح خروف آخر من قطيع خرافهم المتناقص، لتزويد أنفسهم بطبقة أخرى من الصُّوف الغارق بالدِّماء كي يستلقوا تحتها وهم يصلُّون بأيادٍ متجمِّدة وإيمانٍ يتضاءل تدريجياً بأنَّ فجر الغد قد يجلب معه، لأوَّل مرَّة، منذ ذلك الأحد المُتقلِّب في شهر فبراير، دفء الشَّمس.
>
> ولكن، هل هم يتذمرون؟ كلا، بتاتاً! فلقد هزمنا ريجينا بالأمس. خضنا ثلاثين مباراة، وبقي أمامنا ثماني مباريات، وعلى الرغم من مصائبنا الكثيرة والمتنوِّعة، فإنَّ ستَّة أفرقة في دوري الدرجة الثانية مازالت تحتفظ برصيد أسوأ من رصيدنا (ولا بُدَّ أن ننهي الموسم ضمن المراكز الأربعة الأولى كي نضمن «الخلاص»).

ولكنَّ ريحاً شماليَّـة عاتية قد نثرت حينئذٍ عصفات ثلجيَّـة في وجه كل عصر، وغيوم شتائيّة قاسية، داكنة، واطئة، قد حجبت حتى سفوح التلال

القريبة، وخضع معلب تدريبنا الذي طال غيابنا عنه، أخيراً، إلى هجمات متكرِّرة من الطقس.

سُخِّرت كل الموارد، منذ أوائل ديسمبر، لملعب الاستاد، ولكنَّه ظلَّ سريع العطب كشجرة أوركيدا، ويحتاج إلى أسبوعين كاملين، لتنبعث فيه الحياة، بعد مباراة واحدة من تسعين دقيقة. كان التدريب هناك غير وارد على الإطلاق، ويرقد ملعب التدريب تحت طبقة من الوحل اللزج، شِبْه المتجمِّد، تمتدُّ لبوصتَيْن أو ثلاث، وتجعل اللعب عليه مستحيلاً.

ولكنَّ ملعباً ترابياً، يعجُّ بالأنقاض، مهجوراً منذ أمد طويل، كان على بُعْد عشرة كيلومترات، عند تخوم مشروع سكني لذوي الدخول المتدنية، يدعى «فِلَّا سكُونْتْرُونِهْ». لقد كان أرضاً مستطيلةً، مليئة بالمخاطر، لم يحاول حتى سكَّان المشروع لعب كرة القدم فيها منذ سنين. بيد أنَّ الفرقة قد أُجبرت في هذا الوقت على الارتحال إلى هناك في كل يوم من أجل التَّدريب. كانت شظايا الزُّجاج، وإطارات السيارات القديمة، والمعدَّات المهملة الصدئة، متناثرة في كل مكان، بالإضافة إلى الأحجار المنطمرة التي قد تكسر كاحل المرء في أي لحظة. ناهيك عن أنَّ كلمة «سكُونْتْرُوْنِه scontrone» تعني «مشهد نزال دمويٍّ» أو هي، بكل بساطة، الموقع الذي تسود فيه «الكآبة، والشَّراسة، والفظاظة، والوقاحة، والنَّزَق».

وربما يظنَّ المرء أنَّ فوزنا على ريجينا، الذي أبقانا متشبثين بأظافرنا بموضع مُصنَّفٍ فوق منطقة الهبوط [إلى دوري الدرجة الثالثة] -والذي مكّن سبنيسي أخيراً من البدء في مباشرة دروس تعلُّم قيادة السيارات- قد جلعنا نشعر براحة مؤقَّتة على الأقل من التوتُّر والاضطراب اللذين استنفدا طاقتنا شيئاً فشيئاً جرَّاء خبر اعتقال جيجي. ولكن إطلاق سراحه

السَّريع لم يعمل البتة على التَّخفيف من تلك المشاعر -إلا في حالة روبيرتو ألبيرتي الذي أزعجني تحوُّل موقفه المفاجئ المحير- بل زاد من حدَّتها في الحقيقة بالنسبة إلى الكثيرين. بدت الفوضى برمتها وقد أفسدت العزم والجسارة والشرف غير الأنانيِّ الذي صعد بالفريق إلى دوري الدرجة الثانية في المقام الأوَّل.

لم تُرق أي دماء خلال الحصص التدريبية الكئيبة والشرسة والفظَّة والوقحة والنَّزقة -والعبثيّة تماماً- التي جرت في «فِلَّا سكُونْتْرُونِه» خلال الأسبوع، ولكنَّ سُوء أحوال كل شيء من حول اللاعبين قد دفعهم إلى الشُّعور بأنَّ دوري الدرجة الثانية كان مجرَّد سراب وأنَّ كل واحد منهم قد علق في المنطقة المُطلقة الأدنى من مسيرته المهنيَّـة، وأنَّه سُيجبَر على أن يظلَّ عالقاً هناك إلى الأبد، وياكوني يجأر بأقذع الشتائم من خطِّ التَّماس. بدا مزاجي، أيضاً، في حالة من السُّقوط الحُرِّ بعد الأعالي المُدوِّخة التي وصلتُ إليها في حفل عشاء «غورين سبورتيڤو».

كان بيترو سبينوزا هو الذي تنبَّه، هذه المرَّة، إلى الحالة التي تردَّيتُ إليها. كنت أركب معه، قُبيل نهاية الأسبوع، عائدَيْن إلى البلدة من «ڤلَّا سكُونْتْرُونِهْ». كانت اللحظة المعجزة التي صدَّ فيها ضربة الجزاء قد مضى عليها أكثر من تسعة شهور، وكلما أمعنا الذَّهاب في الموسم، زاد إيماني بأنَّه ذاك الذي يمتلك «الشخصيَّـة carattere» و«الجسارة cuore» و«الذَّكاء mentalita» ، الأمر الذي حفظ هذه العمليَّـة العشوائيَّـة من الانهيار.

فلولا تهدئته المتواصلة للَّاعبين، لوقعت ربما ثورة مفتوحة ضدَّ ياكوني. ولولا تهدئته المتواصلة لياكوني، لأصاب ربما الفرقة دمار كليٌّ. ناهيك عن

أنَّ شعوراً براحة بالغة قد بدأ يغمرني برفقته على مدى الأشهر كأنَّه يبدو، في هذه الأوقات، الأخَ الذي جلبته معي إلى كاستل دي سانغرو.

ولأنَّه كان رجلاً بمثل ذلك التبصُّر، على أي حال، وصاحب ولاء مطلق لياكوني، فإنَّه لم يفصح عن مشاعره إلـيَّ، ولم يبح حتى بنسبة قليلة مما يعرفه بشأن كل ما يدور حولنا في هذه الأيام الفوضويَّـة بعد حادثة ما اعتقدتُّ أنَّها كانت «شراء حرية جيجي». ولقد أصر، في الواقع، على نحو لا يتزحزح، أنَّ أي حديث غير لائق لن يكون أكثر من تخمين، وتخمين طائش. ولكنني شعرت، على الرَّغم من ذلك، بأنَّ بيترو سبينوزا سيكون أوَّل مَن يحظى بثقتي المطلقة، إن اقتضى الأمر ذلك حقاً، ليس هنا فحسب، وإنَّما في أي مكان في العالم.

كان سيعيرني في عصر هذا اليوم المميَّز بعض قصاصات الصحف حول مباراة شهر يونيو الفائت، وهكذا كان يقود سيَّارته العائلية، قيادةَ الخبير، في الضوء الأخير قبل هبوط الظلام، عبر الأزقَّة الضيِّقة المرصوفة بالحصى التي تفضي إلى منزله مقابل الكنيسة المشيدة في القرن الثالث عشر والتي لم تُقصَف في الحرب. لم يكن يخفِّف من سرعته في الغالب، دون أن يفقد تركيزه البتة، عبر تلك الممرَّات المقنطرة بالحجارة التي خِلتها ضيِّقة جداً حتى على المحاولة.

فسألته، حين وصلنا إلى منزله: «كيف تفعل ذلك؟ تذهب عبر تلك الممرَّات المقنطرة كأنها تتَّسعُ على الجانبَيْن عَرْضَ ملعب كرة قدم»؟

فقال، مبتسماً: «أنا حارس مرمى. لديَّ عينان سليمتان».

فقلتُ، مُلمِّحاً: «وأذنان سليمتان أيضاً».

«نعم، وفم سليم لأنَّه لا يُلَغْلِغُ كثيراً».

فقلت: «كلساني».

فتبسَّم سپنيوزا، حينئذٍ، وأراح يده بخفَّة على ساقي: «أعرف أنَّ الأيام تدنو، وأعرف ألا أحد يعرف ما الذي سوف يجري، وأعرف أنَّ من الأفضل لي ولك ألا نقول شيئاً».

صمت، وراح يتفرَّس فيَّ بعينَي حارس المرمى تلكما، ثم قال أخيراً: «حتى لو لم تكن معجزتنا كما توقَّعت، فأنت لاتزال رجلاً محظوظاً جداً. ففرقة، كهذه الفرقة -ولا أتحدَّث عن الموهبة، بل عن الجسارة والمثابرة والشخصيَّة الحاضرة، بصرف النظر عن مدى غضب بعض اللاعبين- لا تحدث إلا مرَّة في العُمْر، مرَّة فقط، بالنسبة إلى أي شخص منهمك في الكالتشيو».

«وبالنسبة إليك، يا جُو، فإنَّ قضاء الموسم بين هؤلاء الرِّجال الطيِّبين هو المعجزة الحقيقية quello e il vero miracolo».

33
المَرِّيخِي

ذات صباح في ربيع 1893، أحضر مجموعة من البحَّارة البريطانيِّين، الذين مضى على وجودهم وقت طويل في الميناء، كرةً جلديَّـةً إلى الشَّاطئ في جنوا، وراحوا يركلونها في الجوار. كانت منطقة الرَّصيف تعجُّ كالعادة بالمتبطِّلين الإيطاليين الذين يحتسون القهوة، ويطلقون تعليقات بذئية حول النِّساء، ويفتِّشون عن جيوب ينشلونها. قال الإيطاليون بعضهم لبعض، بعد مشاهدتهم البحَّارة وهم يركلون الكرة جيئة وذهاباً لنحو خمس عشرة دقيقة: «يمكننا فعل ذلك أفضل منهم»، وهكذا ولد الكالتشيو.

لقد كان الترحالُ، بعد 104 سنوات، إلى المكان الذي بدأ فيه الكالتشيو، للَّعب ضدَّ نادٍ يمتدُّ تاريخه إلى أكثر من مئة عام، مسألةً مُبهجةً، بالنسبة إلـيَّ، ومثيرة للخوف على حدٍّ سواء. ولم تسهم حقيقة أنَّنا قد هزمنا جنوا، 1- صفر، في المباراة التكميليَّـة في شهر يناير (والفضل يعود إلى الركلة الـمَـقَصِيَّـة bicycle kick التي سدَّدها أنطونلو) في التَّخفيف من حدَّة الموقف. ولكنها، على العكس، رفعت درجة المخاطرة قليلاً.

كان فريق جنوا قد بلغ مرتبة عالية بما يكفي ليذيع صيته. هبط قبل سنتين إلى دوري الدرجة الثانية بعد خسارته أمام پادوڤا في مباراة فاصلة في التصفيات النهائيَّـة التي أقيمت بعد انتهاء الموسم النظاميِّ لتحديد الفرق الهابطة postseason playoff. وكان فريق جنوا، منذ تنظيم دوري الدرجة الأولى في العام 1929، عنصراً أساسياً في القسم العلويِّ، محقِّقاً

سجلاً تراكمياً من بين أفضل عشرة في إيطاليا. كان دوري الدرجة الثانية، بالنسبة إلى هذا الفريق ومناصريه، أرض منفى، وإحراجاً، ووصمة عار على شعار النَّبالة، وعُدَّ إخفاقهم في العودة إلى دوري الدرجة الثانية فضيحة على الفور.

تدحرجت رؤوس بعد أن حلَّ الفريق في المرتبة السَّابعة في دوري الدرجة الثانية بالموسم السابق، وتقلقلت التِّيجان فوق الرؤوس في عدَّة مباريات هذه السَّنة.

ولكنَّ فوز جنوا علينا سوف يعيدهم بين الأربعة الكبار في التصنيف، وعلى طريق العودة إلى ما كانوا يشعرون جميعاً بأنَّه مستواهم الحقُّ.

ركبنا الحافلة إلى فيوميتشينو. وبعد أن سلَّمنا أحد موظفي «سوتشتا» الإداريِّين تذاكر الطَّائرة (وتأكَّد من أن العمال قد جلبوا معهم كميَّة كافية من كتب غابرييل غرافينيا-ڤانيسَّا دياس المصوَّرة، لم تُحدَّث الحبكة لتعكس الأحداث الأخيرة)، رحنا نسير على مهل عبر الصالة المحليَّة صوب البوَّابة، حين ظهر أمامنا فجأةً شبحٌ.

متَّشحاً بالأبيض تماماً -ليس بياض الملابس الطبيَّة وإنَّما بذلة كتانيَّة بيضاء فاخرة- كان جياكومو غالِّي! هنا، بيننا، بشحمه ولحمه!

كانت صيحات لمِّ الشَّمل والعناقات قد بلغت ذروتها بفعل عنصر المفاجأة. حتى إنَّني قد اشتقت إليه أكثر مما ظننت. ربما لم يأخذ أي أهداف معه حين أسرعت به سيارة الإسعاف إلى العيادة الخاصَّة في روما، ولكنَّ غياب مونولوجاته التي تتداعى بحرية أدَّت إلى انخفاض مستوى الضَّحك بمطعم مارتشيلَّا إلى النِّصف.

لم يَبْدُ غالِّي متوعِّكاً، ولكنَّه لم يَبْدُ بخير أيضاً، عند رؤيته عن قُرْب. فمنذ افتراضنا أنَّه مازال متصلاً بالأنابيب وأجهزة التَّنفس، فإنَّ ظهوره فجأة بيننا كان مدعاة للفرح والرَّاحة على حدٍّ سواء، كأنَّه مسافر آخر، يرتدي ثياب الصَّيف، ماراً عبر روما، في رحلته إلى منطقة إلى أخرى.

قال إنَّه قاد سيَّارته من منزله إلى المطار ليلقي التَّحية بكل بساطة، ويشعر ثانيةً بفرحة أن يكون بين زملائه، ويخفف قليلاً من مشاعر القلق التي كان يعرف أنَّها تعترينا تجاهه على الأقل. ولكنه جاء، في المقام الأوَّل، كي يتمنَّى لنا «حظاً طيِّباً in bocca al lupo»، بشأن المباراة التي سوف نخوضها يوم الأحد. أعتقد أنَّ لحظاته القصيرة معنا كانت أفضل بشارة تطلَّعنا إليها.

ولقد جلب معه، على أي حال، بعض الأخبار السيِّئة. لن يلعب كرة القدم بعد الآن في هذا الموسم. فثمة مشاكل جدية تتعلق بالتسمُّم الذي تعرَّض له دمه. قال إنَّها ستشفى بمرور الوقت، ولكن ليس في وقت قريب قد يسمح له باستعادة قوَّته ولياقته بحلول شهر يونيو، ولهذا فقد كان حضوره تحيَّـة ترحاب وتلويحة وداع على حدٍّ سواء.

أجل، يمكنه محاولة قيادة سيَّارته لحضور ما تبقَّى من مباريات سنخوضها على أرضنا، ولكنَّ كل واحد يعرف أنَّ الأمور لن تعود كما كانت. وبصرف النظر على الحقيقة التي تقف خلف سوء حظِّه الغريب، فإنَّ جياكومو كان خسارة أخرى للموسم الطويل والشَّاق، وأعتقد أنَّنا قد شعرنا جميعاً بغصَّة حزن حين صعدنا على متن طائرة الخطوط الجويَّـة الإيطالية، ناظرين إلى الخلف وملوِّحين، في حين كان واقفاً عند الكاونتر، ملوِّحاً لنا، ومحاولاً إبقاء الابتسامة على وجهه.

جلستُ بجوار فوسكو في الطائرة. ها هو ذا اللاعب الذي لم يسبق له أن انتقد ياكوني مرَّة، ليس عندما أكون قريباً بما يكفي لأسمع انتقاده على الأقل. بدا فوسكو يشبه «المُدربَ» فعلـيّاً، بالإضافة إلى شعوره بالامتنان لإبقائه في الفريق طيلة رحلة الصعود المدهشة من الفئة الثانية بدوري الدرجة الثالثة إلى دوري الدرجة الثانية، على الرَّغم من أنَّه قد نال أكثر من بطاقة العبور.

قال: «خمس سنوات. لقد اكتفيت. حان وقت رحيلي». نظر من نافذة الطائرة. كنا جالسَيْن في الطرف الشمالي، متَّجهين شمالاً على طول السَّاحل، ونستطيع رؤية الشريط الساحلـيِّ الجميل بوضوح، وجزيرة إلبا الواقعة خلفه، وكورسيكا في المسافة الأبعد. سينتهي عقده في نهاية الموسم، ولا خطَّةَ لديه لتمديده.

أوضح فوسكو، على أي حال، أنَّ رغبته في آفاق جديدة لم تكن نتيجة شعوره بالمرارة أو خيبة الأمل. لقد أحبَّ كاستل دي سانغرو، ولكنَّه سئم اللعب طيلة خمس سنين في البلدة الجبليَّـة الصغيرة ذاتها التي تبعد ساعتين بالسيارة عن منزله في نابولي. أيقظت الرَّحلات، التي تقتضيها مباريات دوري الدرجة الثانية، في داخله، وهو لايزال في الرابعة والعشرين من عمره، رغبةً في رؤية المزيد: إن لم يكن من العالم، فمن إيطاليا على الأقل.

أفهم ما يعنيه. ولكنني قلت حينئذ بحماقة: «ليس الخلاص مهماً بالنسبة إليك، فأنت ستغادر على أي حال».

فجحظت عيناه على الفور. لم أعرف أحداً سواه تتبدَّل ملامحه بهذه السرعة الشديدة من السكينة إلى الشراسة التي تشعُّ في وجهه، ثم يعود إلى السَّكينة مرَّة أخرى، بعد أن تزول لحظة الاستفزاز.

«هل تفهم، يا جو؟ حتى في هذه اللحظة؟ أنَّ «الخلاص» أهم، بالنسبة إلـيَّ، لأنَّني، بكل بساطة، سوف أغادر»! فأقل ما يدين به المرء، هو أن يغادر والفرقة لاتزال باقية في دوري الدرجة الثانية، وليس كعضو في الفريق الذي أخفق في الصعود.

ولم تكن هذه هي أوَّل مرة، يثبت فيها شخص يبلغ من العمر أقل من نصف عمري، أنَّه حكيم مرَّتين. فاعتذرت قدر ما أستطيع، ولكنني واصلتُ التفكُّر: إذا كان اللاعبون من أمثال فوسكو -أصغر أعضاء الحرس القديم بكاستل دي سانغرو، إذا جاز التعبير- على وشك أن يغادروا، فإنَّ هذا الموسم سيكون فريداً بلا شك. وحتى لو حظي الفريق بـ «الخلاص»، فإنَّ اللاعبين الذين صعِدوا بكاستل دي سانغرو إلى دوري الدرجة الثانية، ثم أبقوه هناك، سوف يرحلون. ولن يرحل اللاعبون السَّاخطون فحسب، وإنَّما الموالون من أمثال كلاوديو أيضاً، في حين كان أولئك الذين من أمثال تِشيي وألبيرتي وميكليني على مشارف نهاية مسيرتهم المهنيَّـة دون شك. وإذا نال الفريق «الخلاص»، فمن المحتمل أن تُعرَض على أزڤالدو، أيضاً، وظيفة أفضل لدى نادٍ أقوى.

هكذا، اكتسبت الرحلة إلى جنوا طابعاً رثائياً على نحو ما. وفي حين ثمَّة رحلة إضافية بالحافلة إلى توسكانا، فإنَّ هذه الرِّحلة سوف تكون آخر مغامرة للفرقة في شمال إيطاليا الحقِّ: آخر مواجهة مع فريق ليس تاريخياً في حدِّ ذاته، وإنَّما الفريق الذي يمثِّل واحدة من أعظم مدن الجمهوريَّـة. ستُكرَّر التجربة في الموسم القادم، لو حظينا بـ «الخلاص»، ولكن من المحتمل ألا يحدث ذلك، وفي حال حدوثه، فإنَّ سنين كثيرة، كثيرة - إن كان ثمَّة- قد تمرُّ قبل أن يلعب كاستل دي سانغرو كرة القدم مرَّة أخرى في مدينة بمثل شهرة جنوا.

كان صباح السَّبت حارّاً وشديد الرُّطوبة. تطلَّب الوصول بالحافلة إلى ملعب التَّدريب من فندق «نُوفُوتِل أُوفِستْ»، الواقع في منطقة غير مناسبة، أن نعبر عشرات الأنفاق ونقطع عدَّة جسور شقت التِّلال، متعرِّجة فيها. بدأ المطر يرذُّ خلال التَّدريب، وفاحت رائحة العشب، فالرَّبيع الجَنَوِيُّ Genovese قد حلَّ.

أيقظت تلك الرَّائحة، التي تبدو هي ذاتها في العالم أجمع، في داخلي ولسبب ما، دفقةً من حنين مُبكِّر لتجربتي هذه التي سوف تنتهي في غضون أقل من شهرين. لا أريد أن أفكِّر في تلك اللحظة التي سوف أودِّع فيها هؤلاء «الفتية».

ركبتُ، في عصر ذلك اليوم، حافلة المدينة من موقعنا النائي إلى قلب جنوا. كانت الشوارع قرب الميناء تعجُّ بالنَّاس. مشيت لساعتَيْن أو ثلاث، كي أحسَّ بالمكان على نحو عميق فحسب. وكانت السَّماء قد أعتمت، وتكثَّف الهواء وسكَن. لم يكن ثمَّة زقاق أو شارع أقل ازدحاماً من الذي قبله أو من ذلك الذي كان بعده. كان الضجيج هائلاً، على الرَّغم من أنَّه ليس صوت حركة السيارات، وإنَّما صوت آلاف النَّاس السَّائرين على الأقدام في أماكن ضيِّقة.

بدا هذا المشهد أحد المظاهر الجامحة في جنوا، يفوق قدرتي على التَّحديد أو التعريف. كان عقد مقارنة سريعة بين جنوا والبندقية أمراً لا مفرَّ منه، فلقد كانت المدينتان منذ قرون جمهوريَّتَي الشمال البحريَّتَيْن المُتحاربتَيْن. وجدتُني أفكِّر في البندقيَّة على أنَّها تشبه «أَبَرْ إيسْتْ سايد» [الجانب الشرقي العلوي] الهادئ والأنيق من مدينة مانهاتن، في حين أثارت جنوا لديَّ شعوراً بالمرح والطَّاقة والتقلُّب التي يتمتَّع بها الـ «وِسْت سايد» [الجانب الغربي].

صادفتُ أخيراً مكتبة كتب مستعملة، فقضيت ما تبقَّى من العصر هناك، أتصفَّح المجلَّدات الإيطالية البالية التي تتحدَّث عن تاريخٍ وفهمٍ عميقٍ للثَّقافة التي عرفت أنَّني لن أتمكَّن منها البتة.

نظرتُ إلى الخارج، فرأيت السَّماء قد استحالت سوداء أو تكاد، على الرَّغم من أنَّ الوقت لم يتجاوز الخامسة مساء بعد. غادرت المكتبة سريعاً، عائداً أدراجي في الدرب الطويل إلى الفندق، جالباً نسخةً من كتاب تاريخ قديم يسرد رحلات كولمبوس، متضمِّناً رسومات توضيحيَّة على نحو مدهش.

عرفت أنَّ اليوم عيد ميلاد ألبيرتي السادس والثلاثين، وأنَّه من اللاعبين القلائل الذين سيقدرون نوعيةَ هديةٍ مثل هذه، حقَّ قدرها. مازلت منزعجاً من تبدُّل موقفه المفاجئ حيال جيجي، ولكنني لم أستطع معرفة أي ضغوط قد يتعرَّض إليها في هذا الصَّدد.

وحين عدت إلى الفندق -الذي وصلته قبل أن تنفجر العاصفة بكامل غضبها- دوَّنتُ على الكتاب بالإيطالية عبارات كانت، يا لدهشتي، خالية من الأخطاء. الترجمة الإنكليزية لتلك العبارات تقرأ على هذ النَّحو: «أتمنَّى لك، من المدينة التي شرع منها كولمبوس بحثه عن عالم جديد، النَّجاحَ وتحقيقَ ما تصبو إليه وأنتَ تتهيَّأ لدخول عوالمك الجديدة التي سوف تمتدُّ إلى أبعد من ملاعب الكالتشيو».

استيقظتُ يوم الأحد على أسوأ طقس في حياتي قد تُخاض فيه مباراة، دون حسبان أنَّها أولى محاولات كاستل دي سانغرو للَّعب ضدَّ جنوا، فتبيَّن في النِّهاية أنَّه يوم لن تخاض فيه أي مباريات بتاتاً.

بدا كأنَّ جميع المطر الذي سقط على جنوا منذ بدء الزَّمان كان يسقط ثانيةً في ذلك الصباح. ولا يسقط عمودياً، أيضاً. نظرت خارج نافذة

غرفتي بفندق نوفوتل، التي تطلُّ على منظر خلّاب لمدخل أوتوستراد ولافتة مخصوصة مضاءة لتحذير السَّائقين من «الرِّيح الباردة العاتية freddo vento forte» التي سيواجهونها حال دخولهم إلى الطريق.

ركبت المصعد، هابطاً من الطابق الذي توجد فيه غرفتي في الساعة 10:15، ولكنني لم أصادف في الرُّدهة إلا بيترو سپينوزا. هزَّ رأسه بكل بساطة، ثم قال: «سيِّئ جداً». ثم لمحتُ لوقا دانجلو، جالساً وحده في زاوية بعيدة، معتمة قليلاً.

ولكنَّ لوقا كان في غاية الكآبة إلى درجة أنَّه لوَّح إلـيَّ بيده كي أبتعد. لم يُرد الحديث مع أحد. كانت السَّماء في الخارج قد ازدادت عتمةً، وهو تذكير، بالنسبة إلـيَّ على الأقل، أنَّ الساعة قد تكون 3 صباحَ يوم الإثنين قبل عودتنا إلى الدِّيار ثانيةً، وأنَّ فرص حدوث أي شيء بهيج، في الوقت الحاليِّ، كانت، وفق عبارة كلاوديو، أقل من صفر.

لا أعرف إلى أي مدى يمكن أن ينخفض الضَّغط الجويُّ (البارومتريُّ)، ولكنني أستطيع القول، دون تردُّد، أنَّه إن استطاع الانخفاض عما كان عليه في صباح يوم الأحد، ذاك، في جنوا، فإنَّني لا أرغب في أن أكون في الجوار حين ينخفض.

كتبتُ في مفكِّرتي: «أغرب سنة في حياتي تبدأ حين اعتقدتُ أنَّها تنتهي». لم أكن متأكِّداً مما يعنيه ذلك. أعتقد الآن أنَّني ربما كنت أبحث عن بيت من مسرحيَّـة شكسبير، «العاصفة» -التي من الواضح أنَّها مسرحيَّـة هذا اليوم- «الماضي فاتحة المستقبل». لستُ أعرف.

بقيتُ فـي الرُّدهة نصف ساعة. وكان المصعد يأتي، في كل مرَّة يهبط فيها، بلاعب أو مزيد من اللاعبين، وقد شـحبت ملامحهم

واعتراهم الخوف وبدوا ثنائيِّي الأبعاد على نحو مخيف فـي ضوء النهار الغريب.

خفَّ المطر بحلول الظهيرة إلى حدٍّ ما، ولكنَّ أجهزة التلفاز في الرُّدهة بثَّت صورة أصوات لجوجة تحذِّر من أنَّ هذه كانت مجرَّد عين العاصفة، وأنَّ ظروفاً جويَّـة أشدَّ سوءاً ستحيق بالمدينة عند العصر. كانت ثمَّة أشعَّة شمس ضئيلة حين صعدنا على متن الحافلة متوجِّهين إلى الاستاد، ولكنَّ الصَّمت المُطبق خيَّم على الرِّحلة كلها. شعرتُ لأول مرَّة طيلة السَّنة بأنَّنا لم نكُن ذاهبين إلى مباراة، بل إلى الإعدام: إعدامنا.

شاهدتُ، حين كنت أمشي في أرض الملعب مع الفرقة عند وصولنا، أنَّ كل شيء في الاستاد -الذي يُعَدُّ على نطاق واسع الأجملَ في إيطاليا- كان على قَدْر البهاء الذي أُعلِنَ عنه. لاحظتُ أيضاً أنَّ طاقم محترفين، متخصِّصين في التعامل مع أرضيَّات الملاعب، قد حموا العشب الأخضر من أسوأ انهمار مطريٍّ بصفائح بلاستيكيَّـة ومنظومة معقَّدة من أنابيب التَّصريف. من المحتمل ألا تكون الظروف في غاية السُّوء، بعد كل شيء؛ وتلك لم تكُن، من وجهة نظرنا، ميزةً البتة.

أما أُزڤالدو، الذي مازال تحت رحمة أكثر غرائزه رجعيةً وغير قادر في الوقت ذاته على إشباع رغبته الجارفة في التجريب مستخدماً تشكيلته الكلاسيكيَّـة، 5-4-1، المرتبطة بعامل «الخوف la paura»، فلقد آثر استخدام تشكيلة 4-5-1.

كان أمام لوتِّي الظَّهيران فوسكو وبريِيته، رفقةَ دانجلو وتِشيي في قلب الدِّفاع. أما في خطِّ الوسط، فمارتينو وبونومي في الجناحَيْن، رفقةَ دي فابيو، وكريستيانو، وألبيرتي في المنتصف (ويُعدُّ استخدام ميمُّو بدلاً من

ميكليني هو امتياز أزڤالدو الوحيد تجاه أمل الشباب ووعدهم .(وهذا يترك سپنيسي بوصفه مهاجمنا الوحيد، مُعوِّلاً كثيراً على فتى بلغ التاسعة عشرة من عمره قبل شهر واحد).

استمرَّت السَّماء في الإعتام، ولم تكد الكرة تدور في أرض الملعب، حتى اندفعت غيوم داكنة ثقيلة من الشمال، قدمت من جبال الألب مباشرة على ما يبدو، فانهمرت الأمطار غزيرة كأنَّها كِسَفٌ، فانخفضت درجة الحرارة إلى عشرين وربما ثلاثين درجة في غضون عشر دقائق، فتاقفز اللاعبون [من شدَّة البرد]، كأنَّهم براغيث في مقلاة ساخنة، عند أوَّل عصفة ريح، ثمَّ تمكَّنت منهم عصفة الرِّيح الثانية.

قاوموا عناصر الطبيعة، خلال الدَّقائق الخمس عشرة الأولى، أكثر من مقاومة بعضهم بعضاً. بيد أنَّ تونينو مارتينو ركل الكرة، في الدَّقيقة السَّابعة عشرة، فارتطمت بساق مدافع جنوا، وخرجت إلى خارج منطقة التَّماس، ليُمنح فريق كاستل دي سانغرو ضربةً ركنية calico d'angolo. نفذ كلاوديو الضَّربة، فسدَّد الكرة منحرفةً على نحو رائع إلى داخل المنطقة أمام مرمى جنوا، حيث ظهر دانجلو على نحو غير متوقَّع -وفي غمرة انزلاق بعض اللاعبين وتأرجحهم وسحب بعضهم لبعض وتشبُّثهم وتدافعهم وتعثُّرهم- كأنَّه ملاك مُنتقم أرسلته السَّماء المظلمة. سدَّد الكرة مباشرة إلى داخل الشَّبكة.

كان ذلك هدفاً لصالح كاستل دي سانغرو! ضدَّ جنوا! في جنوا! كان أوَّل أهداف لوقا في الموسم (وسيظهر أنَّه آخر هدف). كنت جالساً وحِدي، محاطاً بمناصري جنوا، وهتافات فرحتي المروِّعة قد جذبت بعض التَّحديقات السَّاخطة. ولكنني لم أكترث. لم أكترث بأي شيء، سوى أنَّ لوقا قد سجَّل هدفاً وضعنا في المقدمة.

لم يصعق الهدف جميع من في الاستاد فحسب، وإنَّما «بدا كأنَّه يرسل صرخة استيقاظ للآلهة، لأنَّ الطقس قد ساء فجأة، سوءاً شديداً، كأنَّ الجحيم قد هوى على الأرض، فاسودَّت السَّماء وانفجر الرَّعد والبرق على الفور، دفعة واحدةً، في كل مكان في الاستاد، وغدا هطول الأمطار طوفاناً»، بحسب ما كتبته صحيفة «إل كُرِّيره ديلُّو سپورت».

فرقعت ألسنة وميض البرق فوق الملعب بقوة صاعقة إلى درجة أنَّني فكَّرت، لأول مرة في حياتي، أنَّ صورة الآلهة الغاضبة التي تقذف الأرض بصواعق بروق قد لا تكون استعارة تماماً. وكان هزيم الرَّعد، في داخل حدود الاستاد، شديداً كصوت نيران مدفعيَّة.

كنتُ، بصراحة، مرتعباً. بدا اللاعبون، عبر العاصفة، في أرض الملعب كأنَّهم تماثيل صغيرة، حين يُنظر إليهم من مسافة لا يمكن تخطِّيها. بدا مستحيلاً أن يستمرَّ اللعب. كان آلاف المتفرِّجين الجالسين في مقاعد غير محميَّة من المظلَّة العلويَّة المتدلية، قد تدافعوا مذعورين صوب مؤخِّرة الاستاد بحثاً عن ملجأ.

عمَّت الفوضى. وانفجرت فوقنا صاعقة برق إثر أخرى. انهمر المطر البارد بقوة الرياح الموسميَّة. وهزَّت الانفجارات الرعديَّة المقاعد البلاستيكيَّة التي في المدرَّجات، بكل ما في الكلمة من معنى.

ولكنَّ الحكم أشار إلى مواصلة اللعب، وهكذا فعل اللاعبون، ثمَّ أشعلت جنوا أضوية الاستاد، كأنَّها تتحدى قوى الطبيعة التي تحاصرنا. ظلت السَّماء سوداء، سوادَ منتصف الليل، ولكنَّنا نستطيع الآن رؤية اللاعبين على الأقل، ويستطيع اللاعبون رؤية الكرة، وهذا هو الأهمُّ.

ولم تكُن السيطرة على الكرة سهلة، نظراً إلى الظروف السَّائدة على أرض الملعب. فلقد هطل سريعاً جداً مطر غزير، فوصل منسوب الماء على العشب

إلى ما فوق الكاحل. ولكن ليس لفترة طويلة، إذ تضاءلت شدَّة العاصفة مرَّة أخرى، فاشتغل نظام تصريف المياه، المُعدُّ وفق متطلَّبات دوري الدرجة الأولى، المنصوب تحت تربة ملعب أُعدَّ وفق مقتضيات دوري الدرجة الأولى أيضاً. يا للبون الشَّاسع بينه وبين ملعب كاستل دي سانغرو!

وعلى الرَّغم من تواصل البرق والرَّعد وتحوُّل المطر إلى الانهمار بإيقاع ثابت، فإنَّ الظروف على أرض الملعب قد تحسَّنت سريعاً. في الحقيقة، سريعاً جداً بعض الشَّيء بالنسبة إلى رغبتي في ذلك. كان فريق جنوا، خلال منتصف الشَّوط، قادراً على شنِّ «هجوم طويل ومرهق» (على حدِّ قول صحيفة «إل تمپو») على مرمى كاستل دي سانغرو، استمرَّ حتى انطلقت صافرة نهاية الشَّوط. لم تحفظنا من الهزيمة سوى سلسلة من الصدَّات المذهلة التي قام بها لوتِّي («المرِّيخي Martian في وسط مجتمع من البشر»، قالت صحيفة «إل تمپو»، التي خشيت على نحو واضح من استدعاء أي صورة تكون قريبة من الألوهيَّة[168]).

ولكنَّ قوى لوتِّي قد خارت، قبل ثوانٍ من انطلاق الصَّافرة، إلى درجة أنَّه لم يكن قادراً على صدِّ ضربة منحرفة غير مقصودة سدَّدها فوسكو في أثناء قيامه بمحاولة صدِّ وابل من الرَّكلات التي سدَّدها لاعبو جنوا، فدخلت الكرة في الزاوية القصيَّة غير المحميَّة من الشَّبكة. فأصبحت النتيجة 1-1 في الشَّوط الأوَّل. ولعلَّ الهدف، بالنسبة إلى تأثيره النَّفسيِّ، كان بمثابة ثلاثة.

بدت المسألة، مرَّة أخرى، وبصرف النظر عن المدى الدراميِّ للظروف المحيطة، وبغض النظر عن مدى الجهود «الفذَّة» (بحسب صحيفة «إل كُرِّيره ديلُّو سپورت») التي يبذلها لوتي، فإنَّه مُقدَّرٌ علينا بكل بساطة ألا

نفوز بمباراة خارج أرضنا. وبما أنَّ جنوا قد عادل النتيجة، فإنَّهم سيأتون في الشوط الثاني ليجهزوا علينا لا محالةَ، وسيتهاوى دفاعنا المرهق عن بكرة أبيه. ولا يبدو، في هذه الأثناء، وسپنيسي وحده في المقدِّمة، أنَّنا قادرون حتى على تسديد ركلة واحدة على مرمى جنوا.

شنَّ جنوا علينا «هجمات هائلة» (بحسب صحيفة لا غازيتًا ديلُّو سپورت») منذ الدقيقة الأولى من الشوط الثاني. اكتسحوا متقدِّمين، مرَّة بعد أخرى، مستحوذين على الكرة في منتصف الملعب، مندفعين على وجه السرعة صوب مدافعَيْنَا المتقدِّمَيْن، فوسكو الذي يرزح تحت ضغط شديد، وجيجي برييته الذي كان يلعب بقوة أشد غضباً من أي وقت مضى شاهدته يلعب فيه.

وبعد مضي خمس دقائق على بداية الشوط الثاني فحسب، تشنَّج ظهر لوقا ألبيرتي، فاستدعى نقله على حمالة إلى خارج الملعب. الأمر الذي تطلَّب فجأة استدعاء أنطونلُّو إلى ساحة النِّزال، على الرَّغم من أنَّ ياكوني قد بدأ يبغضه في الآونة الأخيرة. ربما لا يكون على قَدْر كفاءة لوقا، ولكنَّ تِشيي، بجواره، كان أكثر ثباتاً، فحافظ الدِّفاع على صلابته.

ثم طُرد كريستيانو لحصوله على بطاقته الصفراء الثانية في المباراة، فنقصنا لاعباً. ثم انهار الفريق بعد ذلك. أضحت المباراة، بالنسبة إلى فريق جنوا، ليست أكثر من ممارسةٍ للتَّهديف. تسديدة بعد أخرى على المرمى، عن قُربٍ وعن بُعْد، ذات الشمال، وذات اليمين، ومن المنتصف، تسديدات عالية وأخرى واطئة، وتسديدات موجَّهةٌ بدقَّة إلى الزاويتَيْن البعيدتَيْن للمرمى، وتسديدات مقذوفة صوب الزاوية الوسطى مباشرة. ولكنَّ لوتِّي لم يجفل، على الرَّغم من ذلك، ولم يترك كرة واحدة تفلت منه.

كتبت صحيفة «لا غازيتَّا ديلُّو سپورت»، قائلة: «صدَّ لوتّي، في مباراة واحدة، جميع التَّسديدات العظيمة التي كان يحلم في صدِّها طيلة شهور».

ووصفته صحيفة «إل مسَّاجيرو» بكل بساطة: « لوتِّي الخارق SuperLotti ».

وخلصت صحيفة «إل تمپو» إلى نعته بـ«البطل الذي من الواضح أنَّه يتمتَّع بمكانة تليق بدوري الدرجة الأولى». لقد كان أداؤه أبهر أداء شاهدته لحارس مرمى طيلة حياتي.

في الحقيقة، كان لوتِّي ساحراً للغاية في إتقانه لصنعته craft كحارس مرمى، إلى درجة أنَّ مشجِّعي جنوا قد بدأوا، بحلول منتصف الشوط الثَّاني، بتقبُّل فكرة أنَّهم يشهدون شيئاً خارجاً على المألوف، فاستجابوا لذلك كرياضيِّين حقيقيِّين. كانت كل تسديدة جديدة يصدُّها لوتِّي تجعلهم يهتفون «أُوو ooh»، ثم «آآه aah»، ويترنَّمون في النهاية بـ«أوليه Ole» التي هي أعلى تقدير لفظيٍّ يمكن لأي مشجِّع أن يمنحه.

ثم «عرفتُ» فجأةً، في لحظة معينة، ربما حين لم يبقَ على انتهاء المباراة سوى عشرين دقيقة، أنَّ لوتِّي لن يسمح لجنوا إحرازَ أي هدف آخر. لم يحدوني أي أملٍ، للمرَّة الأولى والوحيدة طيلة الموسم، ولم يعترني أي خوف: كنتُ -على صعيد غريزيٍّ- قد عرفتُ فحسب.

كان هذا اليومُ اليومَ الذي انتهت فيه جميع الإحباطات وخيبات الأمل التي كانت تتنامى، بالنسبة إلى لوتِّي، طيلة الموسم. كان هذا اليومُ اليومَ الذي سوف يسمحُ بكل شيءٍ ويؤسِّس لبداية جديدة. ولسوف يفعل، في اِلحقيقة، ما هو أكثر: سيجذب اسمه انتباه كل فريق في دوري الدرجة الثانية ودوري الدرجة الأولى بطريقة ستضمن أنَّه لن يُتجاهَل أو يُستخفَّ به ثانيةً أبداً.

كنّا على وشك تحقيق تعادل فـي جنوا. كنَّا على وشك أن نفوز بنقطة حيويَّـة في المدينة التي شهدت ولادة الكالتشيو. كان ثمَّة رضا هائل في معرفة ذلك.

بدأ المطر ينهمر مدراراً مرَّة أخرى. وهبَّت الريح عاتيةً من جديد، ثم أعتمت السَّماء ثانيةً على نحو ينذر بسوء. ولكنَّني حين نظرتُ عبر الطرف القصيِّ من الملعب، رأيتُ ياكوني -وهو لا يكاد يُعرَف تحت طبقات عديدة من المطر- وقد خرج من المنصَّة المسقوفة، ليقف عند طرف الملعب، والعاصفة قد جدَّدت نفسها على نحو يقترب من الأجواء التوراتيَّـة، فبدا- لَعَمْرِي- كأنَّه «نُوح»!

ثمَّ وقع الحدثان اللذان لم أتخيَّل على الأغلب أنَّهما سوف يحدثان، في غضون ستِّ دقائق تفصل بعضهما عن بعض، ولم يبقَ على انتهاء المباراة سوى خمس عشرة دقيقة. أوَّلاً، سجل كلاوديو هدفاً أعادنا إلى الصدارة، 2-1. وسجل پستلَّا، الذي دخل مطرحَ سپنيسي، هدفه الثَّاني في الموسم فحسب. فتقدَّمنا على جنوا 3-1. ولأنَّ لوتي لن يسمح لجنوا بالتَّسجيل، فقد كنا ذاهبين إلى الفوز بالمباراة. لم يسبق لنا أن فزنا بمباراة واحدة طيلة الموسم بعيداً عن الدِّيار، ولكنَّنا على وشك أن نهزم جنوا في جنوا!

وهكذا فعلنا. لقد فاز كاستل دي سانغرو، القادم من ضيعة جبليَّـة صغيرة ومجهولة في إقليم أبروتسو، بمباراة في الاستاد العائد لأعرق فريق في عموم إيطاليا، وصاحب التَّاريخ المجيد.

في هذا اليوم، 27 أبريل، وفي هذا المكان، وفي ظلِّ هذه الظروف، ورغم كل الصُّعوبات، جدَّدت المعجزة نفسها حقاً.

فصحتُ، وقد جعلتني العاصفة أفكِّر بمسرحيَّة «العاصفة»: «آهٍ، أيها العالَم الجديد الشُّجاع»، «آهٍ، أيها العالم الجديد الشُّجاع، الذي يضمُّ أولئك البشر».

ثمَّ هرعتُ عبر الملعب بأقصى ما أستطيع لأشهد الاحتفال الدَّائر في غرفة تبديل الثياب، الذي أعرف أنْ لا أحد سينساه أبداً.

لم يبقَ على مغادرتنا الاستاد سوى ساعة ونصف. لم يرغب أحد بالذَّهاب؛ رغبنا في البقاء فترة أطول قليلاً، أن نظلَّ في هذه الأرض التَّاريخية حيث دخل كاستل دي سانغرو، بصرف النظر عما قد يجلبه المستقبل، في حوليَّات تاريخ الكالتشيو.

صاح أزڤالدو: «أشعر أنَّني أنتمي إلى هنا»! ثم انفجر فجأة بالبكاء بين ذراعيَّ؛ «لأوَّل مرَّة أشعر أنَّني مُدرِّب حقيقيٌّ».

ثم وقع هناك ما يمكن أن يكون الحدث الأروع في ذلك اليوم، أكثر لحظات الموسم التي لا تُنسى بالنسبة إلـيَّ. فلم تكد حافلتنا تخرج، خلف سيَّارات الشرطة التي ترافقنا، متوجهين صوب الشَّارع ذي الاتِّجاه الواحد الذي يبتعد بنا عن الاستاد، حتى شاهدنا مشجِّعي جنوا، واقفين على كلا الجانبَيْن، في صفَّيْن على مدِّ البصر.

صاح أحدهم: «اللعنة! إنَّهم على وشك أن يرجموننا»!

ولا يمكن لذلك الأمر أن يكون بعيداً عن الحقيقة. ولم تكد حافلتنا تزيد من سرعتها شيئاً فشيئاً، وتمر من أمامهم، حتى ضجَّ مشجِّعو جنوا على جانبَي الشَّارع بالتَّصفيق.

لقد عرفوا التَّاريخ حين يُصنَع، حتى لو كان على حسابهم. ولقد انتظروا تسعينَ دقيقة، يتجرَّعون مرارة خيبة أملهم، كي يحيِّيوا بكل بساطة الرِّجال القادمين من جبال أبروتسو، الذين لن يُستخفَّ بهم ثانيةً أبداً.

34
فيلم سينمائيٌّ

ليس ثمَّةَ إطراءٌ يمكن للمرء أن يُسبغه على حدث أو أداءٍ حيٍّ من أي نوع، في إيطاليا، أكثر تقديراً من قولك إنَّه بدا كفيلم سينمائيٍّ. و«come in un film» كانت هي العبارة التي أسبغتها عدَّة صحف قوميَّـة على المباراة التي خِيضت في جنوا.

كتب أحد الصحافيِّين، قائلاً: «قد نرغب في فيلم على شاكلة أفلام الويسترن (الغرب الأمريكي) في خمسينيَّات القرن العشرين، لعلَّنا نعيد خلق الصُّور والمشاعر ومَدَّ المشاعر الجبَّار». ولكن، أي بطل كاوبوي (راعي بقر) يمكن أن يؤدِّي شخصيَّـة لوتِّي؟ جون وين في عزِّ مجده؟ كلا، فلن يكون قد تمكَّن، حتى في ذلك الوقت، من التحلي بردود الأفعال التلقائيَّـة [المطلوبة]».

في تلك الليلة، حين كنَّا واقفين في انتظار أمتعتنا - بعد أن هدَّنا التَّعب جميعاً، لاعبين ومتفرِّجين على حدٍّ سواء، واستُنفدت طاقتنا العاطفيَّـة حتى آخر ذرَّة في كياننا- طلب مني لوتِّي أن أركب السيارة معه، رفقةَ صديقته مانويلا، في رحلة العودة، بدلاً من الصعود إلى حافلة الفريق. (ظننتُ، في الواقع، أنَّه قد سألني إنْ كنت أفضِّل الركوب معهما -على سبيل المجاملة العادية- ولكنَّني أقنعتُ نفسي بأنَّه راغب في صحبتي حقاً، علَّنا نستطيع إعادة صياغة أحداث عصر ذلك اليوم الذي يُعَدُّ حدث العُمْر بالنسبة إليه، على الرَّغم من قُدرتي المحدودة على إعادة الصِّياغة بالإيطالية، فقبلت الدَّعوة على الفور).

يعجبني، من بين السِّمات الشخصيَّـة التي يتمتَّع بها لوتِّي، ثباته وسلوكه المتوازن. لا يفتقر إلى الشَّغف (على الرَّغم من أن ياكوني ربما قد أساء فهمه بهذا الصدد) ولكنَّه حافظ على رباطة جأشه في كل الظروف التي رأيته يُواجَه فيها طيلة الموسم. ولهذا، فقد بدا، فيما يتعلَّق بهذه المسألة، بالإضافة إلى شعره الأشقر الفاتح، وعينيه الزرقاوين، وجسده الضَّخم، أقرب إلى أن يكون إسكندنافياً لا إيطالياً.

كان هادئاً في رحلة عودتنا، كأنَّه قد أمضى سحابة النهار في أرجوحة معلَّقة (ليس في جنوا، على نحو بيِّن) ينصت إلى الموسيقى ويقرأ في كتاب. لقد كان فرحاً، بالطَّبع، جرَّاء أدائه الشخصيِّ والفوز التاريخيِّ الذي حققه الفريق، ولكنَّه لم يُبْدِ، عدا مشاركتي احتساء زجاجة نبيذ فوَّار سعةَ ست أوقيَّات اشتراها من متجر على قارعة الطريق، سوى بضع علامات على أنَّه مسرور.

دار الحديث بيننا فاتراً، في غمرة فترات من الصَّمت المُريح. فكيف يمكن لحارس مرمى، على أي حال، أن يصف طريقة صدِّه المذهلة للكرة، ناهيك عن عشرات المرَّات؟ يمكن للمتفرِّجين الهتاف، ويستطيع الكتَّاب الكتابة، وتعزف الفرق الموسيقيَّـة تعبيراً عن ذلك، ولكنَّ السَّاحر يعجز عن وصف سحره بالكلمات.

كان ثمَّة شريط كاسيت لإلتن جون في مسجِّل السيارة، دار من البداية حتى النهاية مرَّة، ثمَّ مرَّتين، ثمَّ مرَّة ثالثة، حتى لم يُسمَع في السيارة، حين استبدَّ بنا التَّعب في نهاية المطاف، سوى صوت المطرب البريطانيِّ يصدح وقد رُفع صوت المسجِّل إلى التردُّد الأعلى.

أظنُّ الوقتَ سيكون طويلاً، طويلاً،
أجل، أظنُّه سيكون وقتاً طويلاً طويلاً...

عرفتُ أنَّه سيكون وقتاً طويلاً، طويلاً، قبل أن أتمكَّن من مشاهدة مباراة تعدل مباراة جنوا ضدَّ كاستل دي سانغرو. ولعلَّه سيكون أطول، قبل أن أتمكَّن مرَّة أخرى، إن حدث ذلك، من العودة بالسيارة، بعد انتهاء تلك المباراة، وبجواري حارس مرمى في مثل تلك الكفاءة والشخصيَّة.

ولقد سمعتُ كلمة «شخصيَّة carattere» تُستخدم طيلة الموسم، عبر طائفة من السِّياقات، ولكنَّني أظنُّ أنَّني لم أُدرك مدى عمق وجود هذه الكلمة وشيوعها، رفقةَ الشُّعور بالكرامة بين لاعبينا، إلا بعد الفوز.

توجَّب علينا الانتظار في مطار جنوا تسعينَ دقيقة من أجل رحلة العودة إلى روما. لقد حقَّق الفريق للتوِّ الانتصارَ الأكبر في تاريخ الدوريِّ، الانتصارَ الذي ربما لن يبزَّه انتصارٌ أبداً، فجلسوا بهدوء في استراحة المطار مهتمِّين بمشاهدة موجز أبرز أحداث المباراة على شاشة التلفاز، بالطَّبع، ولكن دون أن يكون لدى أي منهم الرَّغبة في طلب مشروب قويٍّ أو الانهماك في أي لهو.

ظهروا، وهم يرتدون بذلاتهم الرماديَّة، وقمصانهم وربطات أعناقهم الزَّرقاء، والفخر يعمر صدورهم، كلاعبين محترفين مُزدانين بالوقار، حتى في لحظات الفرح. كانوا متعبين ولكنَّهم فرحون. شرب معظمهم كأس نبيذ مع الوجبة التي سبقت صعودهم إلى الطَّائرة، دون أن يثيروا الانتباه إلى أنفسهم، ثمَّ أخذوا أماكنهم، حين أُعلن عن جاهزيَّة الطائرة للإقلاع، في الطَّابور رفقةَ النَّاس العاديِّين عند البوابة.

ردُّوا بمودَّة على أي كلمات مديح كالها لهم الجَنَوِيُّون genovesi المغادرون، ودهشوا من عدد التَّهاني التي تلقَّوها في المطار. ووقعوا عن طيب خاطر بخطٍّ أيديهم على «أوتوغرافات» لمن سألهم (وهو طقس جديدة بالنسبة إلى معظمهم)، ولم يُقدم على ترك ربطة عنقه غير معقودة سوى كلاوديو، ولم يرتد قبَّعة البيسبول الجلديَّـة رفقةَ بذلته سوى كلاوديو أيضاً؛ كان ذلك بكل بساطة أسلوب الأناقة عند كلاوديو.

طلب أنطونلُّو وأحد مدرِّبي الفريق، على متن الطائرة المتوجِّهة إلى روما، كلٌّ على حدة، نصف زجاجة[169] نبيذ فوَّار، ماركة سپيومانتي، فحظي كل منهما بثلاث كؤوس بلاستيكيَّـة نصف ممتلئة. وزِّعت هذه الكؤوس على الموجودين في متناول اليد، ولكن دون أنخاب، ولا هتافات انتصار، ولا طلب الحصول على مشروبات كحوليَّـة مجانيَّـة من المضيفات أو حتى محاولة مغازلتهن. أبقى كل رجل فرحتَهُ داخله، ليس لأنَّها تفتقر إلى الزَّخْم، وإنما لأنَّ كل واحد أدرك أنَّ الآخرين الموجودين على متن الطَّائرة قد لايعرفون شيئاً عنهم، وقد لا يكترثون لأمرهم، وقد يشعرون بالانزعاج جرَّاء أي احتفال تُقدِم عليه المجموعة، مقتحمة خصوصيَّتهم.

ولا تتأتَّى مثل هذه اللباقة بشكل فطريٍّ، حسبَ علمي، لفرق الرياضة الأمريكيَّـة، ولا بالتأكيد -وفقَ قراءاتي العديدة- للاعبي كرة القدم الإنكليز العائدين إلى الدِّيار بعد تحقيق فوز مذهل.

وبما أنَّ لاعبي كاستل دي سانغرو لم يكونوا قدِّيسين -بدوا في بعض الأحيان أجلافاً وأفظاظاً وأخشاناً- فقد جاء تصرُّفهم بأخلاق عالية في العلَن على نحو طبيعيٍّ. لقد كانت تلك ببساطة طريقةَ لاعبي كرة القدم، وهي جزء من الثقافة الاحترافيَّـة في إيطاليا، وحينما ينحرف اللاعب عن

جادَّتها، مثلما فعل الشابُّ لوقا ألبيري عندما أساء استخدام هاتفه الخلويِّ في رحلة العودة بالطائرة من ريجيو كالابريا، فعليه الانتظار حتى يوبِّخه ياكوني ساخطاً. ولسوف ينعته زملاؤه في الفريق، على نحو يخلو من اللين، بأنَّه لا يفتقر إلى النُّضج فحسب، وإنَّما إلى تلك السِّمة التي يُعلي كل واحد من شأنها: الشَّخصيَّة.

كنَّا نتقدَّم على ستَّة أفرقة في ترتيب النقاط، ولم يبقَ سوى سبع مباريات، وكنا نقترب من فريق البندقية، صاحب المركز الحادي عشر، كمثل اقتراب أقرب منافسينا منَّا. ولقد كان فريق البندقية الفريقَ الذي سوف نلعب ضدَّه -على أرضنا- يوم الأحد القادم. كم يَعِدُ هذا اليوم بأنَّه سوف يكون مختلفاً عن لقائنا الأوَّل، في ذلك الأحد الرَّطب والبارد من شهر ديسمبر، قبل يومَيْن من مقتل دانيلو وپبُّو فحسب.

إذا فزنا، فسوف ننتقل في الحقيقة إلى المركز الحادي عشر متعادلين [مع البندقية]! أتحدَّث عن [ارتقاء] المعالي التي لم يُحلَم بها مِن قَبْل. ولأن فريق البندقية لم يسبق له أن فاز خارج أرضه إلا في مباراة واحدة طيلة الموسم، وكنا قد بلغنا أعلى ذروة وجدانيَّـة استطعنا الوصول إليها، فإنَّ النَّصر بدا في متناول أيدينا.

بَيْدَ أنَّ المسألة لم تكُن كذلك، مثلما يبدو، بالنسبة إلى أُزڤالدو. لا بُدَّ أنَّه قد ردَّدَ عبارة: «مازالت الطريق طويلة la strada e ancora lunga» مئات المِرَّات طيلة الأسبوع. كان قد غمغم مرَّات ومرَّات: «فريق البندقية صعب جداً، فريق البندقية صعب جداً» إلى الحدِّ الذي دفع دانجلو إلى سؤاله إن كانت هذه العبارة هي تعويذته mantra الجديدة. فردَّ أزڤالدو

بأنَّه لا يحبُّ النِّكات التي تتعلَّق بالشيوعيَّـة، فأجابه لوقا أنَّ النكتة تتعلَّق بالبوذيَّـة، فهمهم أزڤالدو: «لا فرق».

بدا كأنَّ الخوف قد شلَّ تفكير أزڤالدو ثانيةً، ولكنَّه هذه المرَّة خوفٌ من النَّجاح. وشدَّد مرَّة أخرى على أنَّه يقارب المباراة القادمة يحدوه أمل الحصول على نقطة، نقطة واحدة فحسب.

تملَّكتني الحيرة، صراحةً، فأخبرته بذلك، فثارت ثائرته. جادلته، قائلاً إنَّنا سنخوض المباريات الثلاث من بين الأربع القادمة خارجَ أرضنا fuori casa، وقد تكون النقاط الثَّلاث لا مندوحةَ عنها. ولكنَّ البلدوزر ليس لديه سوى طريقة واحدة تمثَّلت في أنَّه يعدُّ المجد الذي حصدناه في جنوا، لم يكن أكثر من مجرَّد ضربة حظٍّ لم يأمل أحد، في أي موسم، أن تصيبنا عصرَ ذلك اليوم البتة. وبدلاً من أن يبني على ذلك، بدا كأنَّه يعمل ضدَّه على نحو محموم.

كانت النَّتيجة تعادلاً مُحبطاً وباهتاً، 1-1. حصل أزڤالدو على نقطته، ولكنَّ ذلك كان، في رأيي، على حساب أن نحقِّق مزيداً من الزَّخْم الثَّمين. سجَّل سپنيسي هدفاً في غاية الذَّكاء حين لم يمض على بداية المباراة سوى سبع دقائق، ولكن بعد أن حققت البندقية التَّعادل في الدقيقة التاسعة والثلاثين، بدونا غير قادرين على النِّزال. كنَّا، مثلما كتبت صحيفة «توتو سپورت» في اليوم التالي، «بلا إيقاع أو محفِّز أو طاقة senza sprint»، و«نفتقد إلى عنصر المخيِّلة أو القدرة على الإبداع mancano idee». حسناً، خطأ مَن كان ذلك، أزڤالدو؟

سرت في الأيام التي أعقبت ذلك، مردِّداً هذه العبارة بصوت عال، ربما أكثر مما كان ينبغي علـيَّ.

وكي أكون صريحاً، سارت الحياة الجماعيَّـة من سيِّئ إلى أسوأ في «10 فِيَّا بسكيرا». وفي حين ظلَّ فِيتُو، ابن أخت السيِّد ريتسا الذي يدير البناية، على علاقة طيِّبة مع الجميع، فإنَّ غضب أزڤالدو بشأن ما عَدَّهُ طريقتي غير المهذبة في تقديم نصيحة غير مطلوبة، وحتى تجاه النَّقد غير اللَّائق الذي وجَّهته لقراره، لم يكُن أقل شدَّةً من الغضب الذي اعتمل في قلبِه ضدَّ أنطونلُّو.

كان، لأسباب لا يعرفها إلا هُو، قد طرد من باله ومن الخطط المستقبليَّـة فرانكيتشيني وروسُّو؛ الوافدين الجديدَيْن الواعدَيْن، اللذَيْن يتمتَّعان بأسلوبَي لعب جذَّابَيْن، ولديهما الكثير من «الإيقاع أو المحفِّز أو الطَّاقة senza sprint» و«عنصر المخيِّلة أو القدرة على الإبداع mancano idee»، اللذين يستطيعان تقديمهما إلى الفريق. وأضحى ألبيري، على الرَّغم من الهدف الذي سجله في پادوڤا، كأنَّه غير موجود.

وعلى الرَّغم من جلوسه معهما على مائدة الغداء والعشاء ذاتها، لخمسة أيام أو ستَّةٍ في الأسبوع، فإنَّ أُزڤالدو قد تمكَّن من تجاهلهما تماماً. وها هو ذا الآن أيضاً، يتصرَّف في ملعب التَّدريب، بقدر ما يستطيع، على أساس أنَّهما غير موجودَيْن أصلاً. وكان أحياناً ما يقذف أحدهما بوابل قصير من الشَّتائم البذيئة لخطأ ظنَّ وحده أنَّ هذا اللاعب قد اقترفه، ولكنَّه بعد أن وبَّخ فرانكيتشيني لفترة طويلة قبل أسابيع، تصرَّف معظم الوقت وكأنَّهما مجرَّد قطعتَي عدَّة غير ضروريَّتَيْن تُوقِعان البلبلة في أرض الملعب.

وكان من الواضح أيضاً أنَّه قد أبغض أنطونلُّو، بُغضاً شديداً، ولأسباب غامضة كذلك. فلم يدخل أنطونلو إلى المباراة التي خيضت في جنوا، إلا بعد أن حُمِل دانجلو على النقَّالة. ولم يُقدِم أزڤالدو، في البندقية،

على اتِّخاذ خطوته الأخيرة باتِّجاه المحافظة على التَّعادل، بدلاً من محاولة الفوز، باستبعاد مارتينو ولمِ يبقَ على انتهاء المباراة سوى ثلاثين دقيقة، وإرسال أحد المدافعين، لم يكُن ذلك المدافع أنطونلُّو وإنَّما ريميديو.

وفي هذه الأوقات، وعند بدء الحصة التدريبية الصباحية تحضيراً لمباراة يوم الأحد في لوكيزي، انفجر غاضباً صوب أنطونلُّو فيما يبدو أنَّها ستكون آخر مرَّة. لم تكن قدما أنطونلُّو قد وطأتا الملعب بعد حين بدأ الصراخ.

صاح: «إنَّه خطؤك»! «إنَّه خطؤك ألا يكون دي يوليس حارس مرمانا بعد اليوم! كل ذلك بسبب حماقتك وطريقة لعبك الكسولة في المباراة ضدَّ رافينَّا»! عاد بالوقت ثمانيةَ أسابيع، إلى هدف رافينَّا الذي كان دي يوليس قادراً على صدِّه، ولكنَّ أُزفالدو ألقى باللائمة فوراً على أنطونلُّو؛ بدا من الواضح أنَّ البلدوزر لا ينسى أبداً.

«لطالما كنتَ جديراً باللعب في الفئة الأولى بدوري الدرجة الثالثة ولسوف تبقى، كذلك، في أفضل حالاتك! ربما ليس أكثر من اللعب ضمن الفئة الثانية. لقد فعلتَ ما يكفي لإلحاق الضَّرر بالدِّفاع هذه السَّنة أزيد مما قد تفعله صابرينا لو لعبت مطرحك! ولقد أضحى أداؤك أبطأ وأكثر حماقةً بمرور الوقت، وأسوأَ على الدَّوام ولا يتحسَّن البتة، لا بُد أن تخجل حتى من ربط قيطان حذائك الرياضيِّ. لستَ «جُكَاتُورِه giocatore» [لاعباً] وإنَّما «جُكَاتُّلُو giocattolo». وهذه الكملة تعني دمية الأطفال؛ شيئاً بسيطاً مصمَّماً لتسليتهم، ولكنها إهانةٌ شنيعة حين يُرمَى بها لاعب محترف.

استمرَّ التَّقريع عشر دقائق أخرى على الأقل، حتى خطرت ببال أزفالدو الفكرة الشَّنيعة بأنْ يتقدَّم دي يوليس، فيعتذر أنطونلُّو منه أمام جميع أعضاء الفرقة.

لحسن الحظِّ -وعلى الرَّغم من الصدمة التي انتابت أزڤالدو لعدم اصطفاف اللاعبين في الملعب لبدء التَّدريب- لم يكُن دي يوليس في أي مكان. ولقد عرفتُ السَّبب ولكنني لم أقُل.

كان ثمَّة بار عبر الزقاق المؤدي من مطعم مارتشيلَّا يدعى «إل پَپْ» [الحانة]، يتردَّد إليه من يصفهم ياكوني دائماً بـ«النَّوع الخطأ»، دون أن يدرك كم من الوقت تقضيه زوجات بعض مسؤولي «سوتشتا» وأطفالهم هناك، رفقة بعض لاعبي كاستل دي سانغرو غالباً، كجيجي وغالِّي ودي يوليس.

لقد كان دي يوليس في «إل پَپْ» الليلة الفائتة، ومازال موجوداً هناك في وقت مبكِّر من هذا الصَّباح. عرفت ذلك لأنَّني كنت هناك برفقته مع بعض الأصدقاء حتى الساعة الثالثة صباحاً، نستمع إلى مطرب أصيل ترعرع في شيكاغو يؤدِّي أغنيات البلوز الأمريكيَّة. غادرتُ الحانة في نحو الثالثة، شاعراً أنَّ خدماتي كمترجم لم تَعُد ضروريَّة، إذ لم يكن أحدٌ يعي في ذلك الحين ما يُقَال وبأي لغة كان، ولكن لم تَبْدُ على دي يوليس وشلَّته أي علامات التَّعب، ولهذا لم أدهش تماماً حين لم أره في الحصَّة التدريبية التي تبدأ في الساعة الثامنة صباحاً.

قاربت الساعة التَّاسعة حين التمسَهُ ياكوني للمساعدة في إذلال ألتامورا. كان دي يوليس، الرجل الذي لم تتذبذب حشمته البتة، على الرَّغم من حظوظه المتقلِّبة، صديقَ أنطونلُّو الحميم الذي قضى رفقةَ خليلته، في شقَّته مساءات شتاءات طويلة كثيرة. ولا شك أنَّه سوف يحبط المخطط بأي حال من الأحوال، ولكنَّه لم يكُن في أي مكان قريب.

وظهر أخيراً، وقد احمرَّت عيناه، في الساعة العاشرة صباحاً. ولكن حتى هذا الخرق الخطير للتَّعليمات قد أعاد أزڤالدو توجيهه بسرعة ضدَّ

أنطونلُّو. فصاح: «هناك!»، مشيراً إلى دي يوليس الذي يمشي حانياً ظهره من ألم التشنجات التي أصابت معدته. «انظر إليه هناك! إنَّه خطؤك. خطؤك! إنَّه خطؤك منذ راقينًا»!

في تلك اللحظة، غادر أنطونلُّو الملعب بكل ببساطة وذهب إلى منزله.

وحين دخلت إلى مطعم مارتشيلا، بحلول نهاية الأسبوع، أخبرتني بوصول بريد سريع إلـيَّ من أمريكا.

فقلت: «من أمريكا. هل هربت ڤانيسًّا إلى أمريكا»؟

زنَّرت مارتشيلَّا عينيها نحوي، مثلما فعلت تجاه أي شخص قد يُبدي تعليقاً يفتقر إلى الاحترام بشأن ڤانيسًّا.

ولكنَّ الطرد كان من نانسـي، علـى أي حال. عرفتُ محتواه على الفور. فذات مساء، قبل نحو أسبوعين، طرقَ باب شقَّتي، بخفَّةٍ، معالجُ التَّدليك massaggiatore بالفريق، وهو رجل قصير ومخادع يدعى أنجيلو، بدا كأنَّه يقوم بعدَّة مهام في وقت واحد. كان في الواقع قد طرق بخفَّة شديدة إلى درجة أنَّني لم أتأكَّد من سماعي أي طَرْقٍ إلا بعد طرقته الثالثة أو الرَّابعة.

ولم أكد أفتح الباب، حتى وضع إصبعه على شفتيه ودلف إلى الداخل، حيث أشار على الفور إلى شقة ياكوني المجاورة، ثم قال، بصرف النظر عن سبب زيارته، إنَّه لا يريد لياكوني أن يعرف.

سألته أن يخلع معطفه ويجلس، ولكنَّه أبى، فهو لا يستطيع المكوث أكثر من دقيقة. ثم وضع إصبعه على شفتيه ثانيةً، ونظر إلـيَّ، مومئاً برأسه. ولم يتوقَّف حتى أومأتُ برأسي.

فأخرج من جيبه، حينئذ، ورقةً بيضاء مربَّعة مطويةً بعناية. كان مطبوعاً على الورقة الحروف الأربعة التالية: DHEA، ثمَّ لفظ الحروف همساً؛ حرف الـ «H» يُلفَظ «أَكَّا» في الإيطالية. ثم نظر إلـيَّ.

«هل لك أن تحضر هما من أمريكا»؟

«عمَّ تتحدث، بحق الجحيم، يا أنجلو»؟

«زجاجتين، موافق؟ اثنتين»، ثم رفع إصبعين.

«إنكليزيَّتك جيدة جداً، يا أنجلو. ولكنَّني لا أعرف ماذا تقصد».

ارتسمت على وجهه نظرة حانقة. يضطر أكثر من مليوني شخص في أمريكا وكاستل دي سانغرو إلى عقد مثل تلك النظرة البلهاء على وجوههم من حين إلى آخر.

ثم همس: «أقراص[170]؛ إنَّه دواء».

فقلت: «DHEA؟ لم أسمع به من قبل».

«إششششششش». ثم تلفَّت حوله كأنَّه يتوقَّع أن يقتحم ياكوني المكان في أي لحظة وينتزع قصاصةَ الإدانة من يده.

حسناً، كان لا بُدَّ أن يجلس في نهاية المطاف، على الرَّغم من أنَّه لايزال رافضاً أن يخلع معطفه، ثمَّ أخذ يشرح على مهل، والحيرة البالغة تتملَّكني، بأنَّ «DHEA» هي مادَّة أو مكمِّل غذائيٌّ يشبه الڤيتامينات، لم يُوافَق على بيعه في الصيدليات الإيطالية بعد، ولكنَّه يوزَّع كأقراص حرقة المعدة، ماركة «تمْبز Tumbs»، على كاونتر الصيدليَّات في أمريكا.

قال أنجلو: «إنَّه ممنوع في إيطاليا، ولكن يمكن أن تباع هذه المادة الغامضة، في أمريكا الحرَّة والرَّغيدة، دون وصفة من الطَّبيب senza ricotta!».

ثم قال: «موافق؟ هلَّا أرسلتها زوجتك؟ زجاجتين؟ ولسوف أدفع، سأدفع. لا تدفع أنت. أنا من سيدفع».

«على رسلك، يا أنجلو. فمازلت لا أعرف ما هو هذا الدَّواء».

فكرَّر قائلاً: «أقراص. أخبرتك: إنَّها أقراص».

«نعم، ولكن أي نوع من الأقراص؟ ماذا تفعل»؟

فاحمرَّ وجه أنجلو خجلاً، وطأطأ رأسه، وراح ينقر الأرضيَّة بطرف حذائه.

ثمَّ نظر إلـيَّ في نهاية المطاف، وقال: «مسألة شخصيَّـة».

فقلت: «لا يمكنك يا أنجلو أن تأتي لتطرق بابي حاملاً قصاصةً عليها أربعة أحرف، لتخبرني بأنَّها اسم أقراص دواء ممنوع بيعه في إيطاليا، وتريدني أن أحضرها من أمريكا، ثمَّ ترفض أن تخبرني ما هي»!

فقال، بعد أن وضع إصبعه على شفتيه ثانيةً، كأنَّ ياكوني قد ضغط أُذنه على جدار غرفة المعيشة في شقَّته بالجوار [كي يتنصَّت علينا]: «حسناً، حسناً. إنَّها أقراص لممارسة الجنس il sesso».

«أقراص لممارسة الجنس»؟

«نعم، نعم، نعم، بالضَّبط». كان الرَّجل يتفصَّد عرقاً، ولا بُدَّ أن ذلك بسبب التَّوتر، فشقَّتي ليست دافئة جداً، حتى وهو يرتدي معطفه.

فسألته: «ولكن، كيف تعمل؟ ماذا تفعل؟»

أخـذ أنجلـو نفساً عميقاً، فمـن الواضـح أنَّه قـد قرَّر البـوح بكل شيء.

«لا تستطيع المضاجعة دون أقراص. وحين تأخذ الأقراص لا تكفُّ عن المضاجعة، والمضاجعة، والمضاجعة. طيلة الليل. وطيلة النَّهار. تضاجع كأنَّك آلة مضاجعة. وهذا ما يُسعد كل امرأة».

فهمت قصده. (على الرَّغم من أنَّني لم أُرد معرفة ماذا قصد بقوله «آلة مضاجعة»). حيَّرني كيف يمكن لعقار عجيب، مثل DHEA، أن يكون قد فاتني (كان ذلك قبل عصر الفياغرا).

وحِرْتُ أيضاً بشأن حقيقة أنَّ ذلك الطلب قد صدر عن أنجلو. فلديه زوجة جميلة ولديه ثلاثة أطفال من بين أجمل أطفال البلدة وأعذبهم، ولم أكُن لأفترض بأن تكون له حياة أخرى جذب فيها انتباه نساء أبروتسو إلى الحدِّ الذي يجعله في حاجة إلى أن يتقوَّى بالأدوية.

فقلتُ: «هذا ليس من شأني، يا أنجلو. الحياة الشخصيَّة هي الحياة الشخصيَّة. ولكن أنت؟ إنَّني مندهش».

فردَّ قائلاً، بعد أن ظننت أنَّه سيصاب بنوبة قلبيَّة على الفور: «مهلاً! يا إلهي! كلا، كلا، كلا، كلا، كلا، كلا، كلا، كلا، يا جُو! ليست الأقراص لي»!

«فلمن، إذاً»؟

فهزَّ رأسه، ورفع يديه إشارةً على أنْ لا حول له ولا قوة، ثم كرَّر ثانية: «مسألة شخصيَّة».

فأعدت إليه الورقة، وقلت: «إنَّني آسف. ولكن إن أردت أن أهرِّب إلى إيطاليا بعض الدَّواء الذي تمنعه الحكومة -وأخاطر بالذهاب إلى السجن على شاكلة ڤانيسَّا وجيجي- فلا بُدَّ أن تخبرني لمن الدَّواء على الأقل».

استعاد الورقة ثم هزَّ رأسه بأسى، وقال: «لا سجن، ليس كالكوكايين، إنَّه مجرَّد دواء».

«لمن»؟ ولكنَّني سرعان ما أدركت ما سيكون عليه الجواب. أجل، أجل، مثلما سمعت دائماً: يؤدُّون لك معروفاً، ثم يأتون سائلين أن تردَّ لهم المعروف، ولا يتوقَّعون أن تردَّهم خائبين، فقلتُ: «إنَّه للسيِّد ريتسا. أليس كذلك»؟

ولكنَّ أنجلو رفض الإفصاح عن شخصيَّة صاحب الدَّواء هذا، كان أكثر تأكيداً هذه المرَّة مما بدا عليه حين ظننت أنَّ الأقراص له. «ليست للسيِّد ريتسا! أبداً! أبداً»!

فهززت كتفيَّ: «حسناً. إنَّني آسف يا أنجلو، لن أحضر الأقراص، إن لم تخبرني».

فنظر إلـيَّ، زاماً شفتيه، ثم أدخل يده في جيبه وأخرج قلم رصاص. خطَّ اسماً على الورقة الصغيرة المربَّعة التي تحتوي على الأحرف الأربعة، ثمَّ مرَّر الورقة بسرعة أمام عينيَّ دونَ أن يلفظ الاسم ولا مرَّة واحدة، ثمَّ مزَّق الورقة قصاصات صغيرة جداً، ووضعها جميعاً في جيبة بحرص شديد.

ثم سأل: «موافق»؟

«موافق، يا أنجلو. موافق».

«شكراً، يا جُو. فليكن الأمر سراً بيننا. أتفهم»؟

فأومأتُ أنَّني أفهم. كان اسم غراڤينيا هو الذي على الورقة.

وها هي ذي الأقراص قد وصلت، رفقةَ ملحوظة من نانسي تقول إنَّ أحد الأطباء الأصدقاء أكَّد لها أنْ لا تأثير للأقراص من أي نوع سواء على الرغبة أو القوة الجنسية، ولكنها كانت من ضمن حفنة من المنتجات التي سُوِّقَتْ إلى السذَّج على وجه الخصوص.

كانت كلفة البريد السريع أكثر من كلفة الأقراص في حدٍّ ذاتها، التي كلفت أقل من خمسة دولارات للعلبة الواحدة. مرَّرت العلبتين إلى أنجلو، حين التقتيه، قائلاً إنَّهما كانتا هديَّـة من «مِسْترِ إكس». بدا أنجلو وكأنَّ العبارة قد أعجبته، فقال: «مِييسْترِ إكس»، وابتسامة عريضة ترتسم على محيَّاه. «حسناً، يا جُو. كأنَّنا جاسوسان، أليس كذلك؟ كما في الأفلام».

«نعم، يا أنجلو. كما في الأفلام. على شاكلة الذي في جنوا».

تُعَدُّ لُكَّة Lucca المدينةَ المفضَّلة لدى السيَّاح الأمريكيِّين، بسبب مدينتها الداخليَّـة العتيقة والمصونة، التي يحيمها من أسوأ ما في الزَّحف [العمراني] الحديث، الجدارُ الأعلى والأوسع والأكثر فعاليَّـة من بين الجدران التي مازالت قائمة حول أي بلدة أخرى من بلدات توسكانا الفاتنة. وأعلى الجدار كأنَّه متنزَّه يطوف في محيط المدينة الداخليَّـة، والعشب يمتدُّ تحت أقدام العابرين وتظلِّلهم تشكيلة واسعة من أشجار الظلِّ الباسقة.

يوم أحد مشمس من شهر مايو في تلك البقعة؟ هل تأتي أحلام يقظة التُّوسكانيِّين بأعذب من ذلك؟

حسناً، أجل، إذا سرتَ، بدلاً من ذلك، في الممرِّ الدائريِّ المكتظِّ والأقل جاذبيَّـة الذي يقع خارج الجدار (الذي يقع في وسطه استاد لوكيزي) وإذا كان سبب رحلتك الوحيد هو محاولة الفوز بنقطة حاسمة على الأقل ضدَّ فريق يتخلَّف عنك بأربع نقاط في لائحة التَّصنيف. وإذا كان لوتِّي، على وجه الخصوص، قد تخلّف في الدِّيار كي يتعافى من الإنفلونزا.

وما كدت أجلس في مقعدي، حتى صادفت فجأةً والدةَ پيُّو بيوندي وشقيقته اللتين قدمتا لحضور المباراة تعبيراً عن دعمهما المتواصل لفريق پيُّو. لـم أتواصل معهما منذ ردِّي على الرِّسالة التي أرسلتها شقيقة پيُّو، فدفعنا هذا اللقاء غير المتوقَّع إلى أن نبكي، نحن الثلاثة، على وجه السرعة مرَّة أخرى.

ولم تنتقلا إلا بعد بدء المباراة إلى مقعدَيْهما اللذين يبعدان نحو عشرين ياردة عن يميني، وثلاثةَ صفوف إلى الخلف، بجوار المقعدَيْن اللذين يجلس فيهما والدا ريميديو الذي كان صديق پيُّو الحميم في الحياة. قابلت والدي ريميديو في مناسبتَيْن أو ثلاث، فلم تنتابني أي شكوك البتة، بعد مقابلتهما،

بشأن مصدر الشخصيَّـة الاستثنائيَّـة الرَّفيعة التي تمتَّع بها ريميديو.

سرَّني أن يكون أهل ييُّو في مثل هذه الصُّحبة المتناغمة، فركَّزت انتباهي على المباراة التي لم يكن قد فات على بدايتها إلا وقت قليل.

في الواقع، سجَّل لوكيزي هدفاً بعد دقيقتَيْن فحسب. كنت سأظنُّ -قبل مباراة جنوا- بأنَّ كل شيء قد انتهى، على الرَّغم من الدقائق الثَّماني والثَّمانين المتبقيَّـة. ولكنَّ مباراة جنوا أظهرت أنَّ كل شيء ممكن، وأنَّ بعض الأشياء يمكن تحقيقها.

ولم تكد تمضي عشر دقائق فحسب، حتى سدَّد دي فابيو ركلةً ركنيَّـةً دخلت مرمى لوكيزي عن غير قَصْدٍ من طرف أحد لاعبيهم الذي كان يحاول صدَّها. كانت هذه الطريقة إلى حدٍّ بعيد أقل الطَّرائق جاذبيَّـة لاحتماليَّـة التَّسجيل في مباراة كرة قدم، ولكنها عادلت النَّتيجة، 1-1.

لم تحدث أشياء أخرى ذات قيمة على أرض الملعب خلال الشَّوط، ولكنَّي سمعتُ، قبل عدَّة دقائق من انتهائه، دمدمةَ الأصوات الذكوريَّـة الفجائيَّـة الخفيضة التي تعني، فـي أي لغةٍ، أنَّ المشاكل قريبة، فنهضتُ لأرى مصدرها.

رأيتُ، وقد تملكتني الدَّهشة، والدَ ريميديو -هذا الرُّومانيَّ النَّبيل، صاحب الأخلاق الرَّفيعة المُنزَّهة عن كل سوء، والثياب الأنيقة، والزوجة الجميلة، وأكثر الأبناء توقيراً- وقد احمرَّ وجهه، يصيح بأقذع الشتائم، ثمَّ يندفع إلى الأمام، مؤرجحاً ذراعَيْه وقابضاً كفيه، قبضاً شديداً، تجاه مجموعة صغيرة من مشجِّعي لوكيزي.

لم أستطع تخيُّل ما فعلوه كي يغضب. سرتُ خارجاً من الصَّف الذي كنت جالساً فيه، لتقديم المساعدة، ولكنَّ مشرفي الاستاد والشرطة حضروا، قبل

وصولي إلى هناك، ثم راحوا يطردون حفنة من مشجِّعي لوكيزي، الذين يقدح الشرُّ من عيونهم، إلى خارج الاستاد.

ووجدتُ السيِّد ريميديو، عند انتهاء الشوط الأوَّل، واقفاً في الطابق السفليِّ، قرب منضدة للمرطبات، محوِّطاً بذراعيه على والدة پيُّو وشقيقته، اللتين كانتا تبكيان.

استجمع السيِّد ريميديو رباطة جأشة ثانيةً، ووجهه لايزال مُحمراً قليلاً، وفسَّر لي ما جرى ببضع كلمات قليلة. وحين تناهى إلى مسامع المجموعة الصَّغيرة من مشجعي لوكيزي بأنَّ المرأتَيْن الواقفتَيْن عند طرف المنصَّة كانتا والدة وشقيقة أحد لاعبَيْنا اللذين قُتلا في حادثة سيارة، قرَّروا التَّرويح عن أنفسهم بالسُّخرية منهما بطرائق أقسى وأكثر ساديَّـةً مما قد يستطيع العقل البشريُّ الطبيعيُّ أن يتخيَّله.

وما إن حدث ذلك، حتى ألقى السيِّد ريميديو، الذي أظنُّه في مثل عُمري، نفسَهُ في وسطهم، غير مكترث بتاتاً بسلامته الشخصيَّـة، عازماً على سحق تلك الحشرات البغيضة التي سُمِحَ لها، على نحو ما، بالتَّجوال بحرية في الاستاد.

ولقد حال وصول قوَّات الأمن الفوريُّ وطرد المعتدين الفوريُّ دون حدوث ضرر جسديٍّ لأي أحد، ولكنَّ والدة پيُّو وشقيقته قد أفصحتا عن قلقهما بشأن استمرار وجود المسحة الحمراء على وجنتَي السيِّد ريميديو، وبِشأن حقيقة استمرار جبينه بالتفصُّد عرقاً.

أكَّد لنا بأنَّه ليس على وشك التعرُّض لنوبة قلبيَّـة، ثم اعتذر على المشهد الذي تسبَّب في حدوثه. بيد أنَّ الأمر بات واضحاً أنَّه قد نال العرفان الأبديَّ

بالجميل الذي صنعه من لدن السيِّدتَيْن بيوندي. ولا يُقاس الاحترام الذي أكنُّه له مثقال ذرَّة بمشاعر والدة پيُّو وشقيقته، ولكنَّني، بصرف النظر عن المقدار، فقد أخبرت السيِّد ريميديو أنَّه كسب احترامي أيضاً.

ثم بدأ الشوط الثاني. شاهدنا، بعد سبع دقائق، دي يوليس منبطحاً بلا حول ولا قوة بعد أن سجل لوكيزي هدفاً آخر، ليفوز بالمباراة، 2-1، فيغدو على بُعْد نقطة واحدة منَّا في لائحة التَّصنيف.

بدا مجموع النقاط، وفقَ لائحة التَّصنيف ذات الصِّلة، بحسب ما آلت إليه مجريات الأمور ليلةَ الأحد، 11 مايو، على هذا النَّحو:

ريجينا	38
ساليرنيتانا	37
كاستل دي سانغرو	37
تشيزينا	36
لوكيزي	36
كوزنتسا	34
كريمونييسه	31
پاليرمو	31

لن ينال «الخلاص» من الأفرقة الثَّمانية سوى أربعة. ويهبط أربعة.

ولم تبق سوى خمس مباريات فحسب.

سنخوض ثلاث مباريات، من تلك الخمس، خارج أرضنا fuori casa؛ اثنتَيْن منها ضدَّ ليتشه وباري، وهما عملاقان جنوبيَّان يتبوَّءان الآن المركزَيْن الثالث والرَّابع في دوري الدرجة الثانية.

أما المباراتان اللتان سوف نخوضهما على أرضنا، فضدَّ تورينو وپسكارا، اللذين كانا، رفقةَ جنوا، في الوقت الحاضر، قد حُصرا مع باري في معركة مذهلة على المركز الرَّابع والأخير المؤهِّل للصُّعود.

هكذا، ستكون أربع مباريات، من الخمس الأخيرة، ضدَّ فرق مصنَّفة من ضمن السَّبعة الكبار في هذا الدوري، في حين كنَّا نحتلُّ في ذلك الوقت المرتبة السَّادسة من القاع. سنحتاح أكثر من إيماننا بـ «قوة الأمل» كي تلوح لنا بوارق الحماسة لتحقيق «الخلاص».

وكان الشَّيء الوحيد الذي حرصت على فعله، بقَدْر المستطاع، إخبار ريميديو عن شجاعة والده وكبريائه.

فقال: «أنا فخور به، فخراً شديداً».

ثم تبسَّم في وجهي ابتسامةً كبيرة لم أعهدها منه مِن قَبْل، وقال: «شيء متوقَّع، بالطَّبع».

فالأصل الرَّفيع يكمن، حقيقةً، في الجينات، مثلما يعرف ذلك مربُّو خيول السِّباق الأصيلة، منذ قرون.

35
كاتب أميركيٌّ مجنون

حلَّ الصَّيف بين عشيَّـة وضحاها. كنا مانزال في منتصف شهر مايو، بيد أن التلال الواطئة اكتست فجأة بالخضرة، فتذكَّرتُ الكاريبي أو جنوب شرق آسيا. كان ثمَّة رجال عراة الصُّدور، في أرجاء البلدة كافة، يجزُّون عشب مروجٍ لم أعرف أنَّها موجودة، ورائحة الفحم المحترق منتشرة في الهواء.

وبصرف النظر عن البهجة التي أدخلها التحوُّل الموسميُّ على سكَّان البلدة، فقد ملأ قلبي بالرُّعب. سنواجه تورينو على أرضه في مباراة نادرة ليلةَ الخميس، وسوف نغادر صبيحةَ اليوم التالي في رحلة طويلة إلى ليتشه في الجنوب لخوض مباراة ستعقد يوم الأحد، وستجري وفق كل الاحتمالات في درجة حرارة ورطوبة شديدتَيْن، شدَّةَ الأجواء الإفريقيَّـة.

ستبقى، بعد تلك المباراة، ثلاث مباريات فحسب. كُنَّا قد بلغنا المرحلة النهائيَّـة في تلك الأثناء، ولسوف تكون سريعة وعديمة الرَّحمة.

وكانت حقيقةُ وجوبِ أن أغادر كاسـتل دي سانغرو، حالَ انتهاء المرحلة النهائية، أسوأَ من خوف ألا تنتهي هذه المرحلة علـى خير. فبعد نهاية الموسم، وسواءً فزنا بـ «الخلاص» أم لم نفز، فإنَّ نهاية مهمَّتي القصيرة في الكالتشيو سوف تحلُّ.

أما الآخرون، وبصرف النظر عن المستوى الذي سيجدون أنفسهم يلعبون فيه، فإنَّ موسماً جديـداً سوف يبدأ فـي شـهر سبتمبر، أو حتى سيلتحقون بالتَّدريب في شهر أغسطس. لكنَّني سأعود إلى أمريكا، تاركاً

خلفي كل الشَّغف والصَّداقات المتينة التي منحتني الحياة منذ سبتمبر. لقد ظهرت هويَّتي الخاصَّة مرتبطة كلياً بهوية البلدة والفريق اللذين لم أتخيَّل مستقبلاً من دونهما. فالـ «أنا» التي كانت «نحن» لتسعة أشهر مجيدة، إن لم تكُن عاصفة، ستغدو «أنا» وحيدةً وبائسة مرَّة أخرى.

ولا بُدَّ من القول، على أي حال، إنَّ وضعي في كاستل دي سانغرو قد أضحى متقلقلاً، بطريقة أو أخرى، إلى حدٍّ كبير، فكلما تعلَّمت المزيد من اللغة، ازداد طيشي في استخدامها.

وكلما زاد هوسي بالـ «خلاص» -كأنَّ روحي الخالدة قد أضحت في تلك الأثناء معلَّقة بميزان- تكرَّر انتقادي لياكوني، بصوت عال، حول خياراته في انتقاء التَّشكيلة وتكتيكاته في اللعب. وضعتُ كفَّي حول فمي، طيلة الشَّوط الثاني من مباراة البندقية، صائحاً «رُوو-سُّو.. رُوو-سُّو»، حاثاً أزڤالدو على إدخال روسُّو لتعزيز هجومنا المتراخي. ولكنه اختار المدافع ريميديو، فلم أتلقَّ سوى حملقاتٍ عابسة من غراڤينيا والسيِّد ريتسا على حدٍّ سواء.

وصادفتُ ياكوني، في فندقنا خارج لُكَّة Lucca، جالساً وحده في غرفة الطَّعام، يمسح باطن منفضة سكائر بمنديله، وقد استبدَّ به قلق شديد، فسألته، مشيراً إلى المنفضة: «متوتِّر»؟

كان ثمَّة غضب خالص في عينيه لهنيهة، ثمَّ إنه كزَّ على أسنانه، وغمغم قائلاً: «كاتب أمريكي؟ بالطَّبع كلا! بل مجنون أمريكيٌّ»! لم يكن الوقت مناسباً كي أشير إلى عدم وجود تعارض بين الصِّفتَيْن.

ولم يكن الوقت متاحاً، في تلك اللحظة أيضاً، كي أُلمِّحَ إلى أزڤالدو أنَّ المجانين يكونون على صواب أحياناً. ولكنَّ صحيفة «إل تمبو» وصفت

خسارتنا أمام لوكيزي على أنَّها «كارثة فنيَّة وتكتيكيَّـة»، حتى إنَّ روبيرتو ألبيرتي، أحد لاعبي ياكوني المفضَّلين، قد لامه هو أيضاً.

كان قد قال لي بعد المباراة: «ليس من الممكن أن يكون الفريق قد انهار تماماً في غضون أسبوعين فحسب». لا بُدَّ أن يُلقَى كثير من اللوم، نتيجةَ الانهيار الذي أعقب مباراة جنوا، على عاتق مدرِّبنا الأخرق الحقود الذي استبدَّ به الخوف.

ومثلما انتابني شعور أنني لن أكف عن احترام نفسي طالما احترمني سپينوزا، فقد اعتقدت بأنَّ ألبيرتي لو وافق على التشكيلة التي اخترتها والتَّكتيكات التي وضعتها، لما كنت على خطأ تماماً.

بَيْدَ أن المسألة، على نطاق أوسع، لا علاقة لها بالصَّواب والخطأ. فياكوني كان المدير الفنيَّ وسوف يبقى كذلك. وأنا مجرَّد زائر، قادم من أرض لا يعرف شعبها أي شيء عن كرة القدم. ربما يكون اهتمامي الشَّديد قد بدا جذَّاباً لبعض الوقت، ولكنَّ تعصُّبي في هذه الأثناء قد أضحى مزعجاً كثيراً على نحو واضح.

وكانت علاقتي بـ «لا سوتشتا» تسير علـى المنوال ذاته. فعلاقتي مع غراڤينيا بدأت تتدهور منذ حماقـة حادثـة راكو پونيك، وهي الآن غير موجودة بكل بساطة، على الرَّغم من هديَّـة أقراص «DHEA» (لن يشكرني عليها، بالطَّبع، فمن المفترض ألا أعرف أنَّها كانت من أجله أصلاً). ولقد كان يرفض حتى أن ينظر إلـيَّ، حين أكون على مدِّ بصره، وكان إذا صادفني في مجموعة، لا يقول حتى «تشاوْ».

ناهيك عن أنَّ السيِّد ريتسا قد بدأ يتصرف معي بطريقة مختلفة. لم يَعُد ينخر قائلاً «مرحباً salve»، ولم يَعْد يحيِّيني رافعاً سيكاره حين يصادفني

في ملعب التَّدريب، ولم يَعُد حرَّاسه الشَّخصيُّون يومئون برؤوسهم ويبتسمون.

وكي أكون مُنصفاً، فللرَّجلَيْن أسبابهما الخاصَّة، ذلك أنني نظَّرتُ علانيةً، في الأسابيع التي أعقبت اعتقال جيجي، حول مدى تورُّط غرافينيا في عمليَّـة تهريب المخدَّرات برمَّتها، ثم أصررتُ بعد إطلاق صراح جيجي المفاجئ على التَّعبير عن وجهة نظري أنَّ ثمة رشوةً ما لا بُدَّ أنَّ السيِّد ريتسا قد دفعها، وأنَّ نيَّته الحقيقية لم تكُن تهدف إلى عودة جيجي الفوريَّـة إلى الفرقة وإنَّما إبطال أي اتِّهامات إضافية ضدَّ غرافينيا.

شعرتُ أنَّني أفكِّر بطريقة منطقيَّـة، ولكن لا حقائق دامغة تدعم ذلك. لا يكفُّ الناس، في عموم إيطاليا، بالطَّبع -وبخاصَّة ما يتعلَّق بالكالتشيو- عن التَّعبير كل يوم عن آرائهم التي لا تدعمها أي حقائق بتاتاً، ولم تكن نسبة لا بأس بها من هذه الآراء منطقيةً قَط.

ولكنَّني لم أكُن في كاستل دي سانغرو إلا مجرَّد صوت مجهول آخر. كنتُ «الكاتب الأمريكيَّ scrittore americano»، ولأنَّني بدوت مختلفاً، كانوا يتتبَّعون كل ما يصدر عنِّي، علاوةً على أنَّني قد امتلكتُ الشَّجاعة الأدبيَّـة للجهر بقول ما كان يهمس به الآخرون، ليس إلا، بَيْدَ أنَّ بعضهم قد رأى تلك الشَّجاعة مجرَّد حماقة تفتقر إلى الدَّهاء.

لا أعرف ما الذي كان يحفِّزني. لا أعرف لماذا لم أصمت فحسب؛ إن لم يكُن بشأن التَّكتيكات، فعن الخوض في مسألة الرِّشى على الأقل. هل خطرِ ببالي أنَّني حين لا أكفُّ عن الكلام بصوت عال بما فيه الكفاية أنَّ السيِّد ريتسا وغرافينيا كانا محتالَيْن، فسوف أدفعهما إلى دعوتي ذات يوم إلى ذلك المنزل بقمَّة الجبل، ليعترفا بكل شيء ويستجديانى الرَّحمة والغفران؟

لم أكُن منفصلاً عن الواقع، ولكنَّني غدوت محبطاً لأنَّ كثيراً من الأشياء قد ظلَّت مُحيِّرةً وغير مفهومة. ولا بُدَّ أنَّني قد شعرت (بدت هذه الفترة برمَّتها، في تلك الأثناء، ضبابيَّـةً بالنسبة إلـيَّ، وكنت في غاية التوتُّر بسبب الضَّغط الشديد الذي تعرَّضنا له إبان سعينا إلى تحقيق «الخلاص») أنَّني إن واصلت السَّير على النَّهج الأمريكيِّ في الوضوح والمثابرة، فسوف أتمكَّن، بطريقة أو أخرى، من خرق جدار الصَّمت والخداع، فأجد جميعَ الحقائق -القذرة وغيرها- التي قضى السيِّد ريتسا نصف قرن وهو يخفيها، مبسوطةً أمامي.

ولكنَّني خشيتُ أن أكون قد جلبت لنفسي المتاعب فحسب. ويبدو أنَّني، لحماقتي، قد فعلت ذلك حقاً، فقد كان بإمكاني تجنُّب الكثير من الأشياء غير السَّارة لو وضعتُ في الحسبان الدَّرسَ الأوَّل الذي تعلَّمته عند وصولي: لقد كانت تلك المراوغة، التي بدت شيئاً مختلفاً اختلافاً شديداً عن سوء النية، طريقةَ حياةٍ هنا، ومُورسَت في هذه الجبال قبل وقت طويل من ولادة المسيح.

اقترفت طيلة الموسم غلطةَ التَّخمين بأنَّ ذلك الانفتاح وتلك المودَّة التي أبداها سكَّان البلدة تفتقران إلى الدَّهاء. وها أنذا أفاقم الغلطة بإقناع نفسي بأنَّني تعلَّمت أشياء في الأشهر الثَّمانية التي قضيتها هنا، قد غابت قروناً عن بال هؤلاء النَّاس وأسلافهم.

لا يسعني الدِّفاع عن نفسي إلا عبر الاستشهاد بالكالتشيو، ثم أصبحت مدركاً، وعرق التَّوتر يتفصَّد منِّي ليلَ نهار، أنَّ اللعبة كانت حياتي. لم أعد أتخيَّل وجودي دونها. ولكنَّ إدراكي حقيقة أنَّني، في غضون شهر فحسب، سوف أترك كل شيء ورائي، مازال مُسلطاً على عنقي كسيف ديموقليس.

أدَّى هذا الصِّراع إلى توتُّرات داخليَّـة، عبَّرَ جُلُّها عن نفسه لسوء الحظِّ في شكل تصرُّفات غريبة أبديتُها. فَـ «المتعصِّبُ مُشجع لكنه ينتمي إلى مستشفى للمجانين»، يكتب غاليانو، على الرَّغم من أنَّه لم يقضِ موسماً بأكمله مرتبطاً بفريق بعينه، على نحو حميميٍّ، مثلما فعلت أنا.

كان فريق تورينو، على شاكلة جنوا، فريقاً متجانساً. صحيح أنَّ النادي لم يتأسَّس إلا في العام 1906، بيد أنه تبوَّأ، على مرِّ السنين في منافسة دوري الدرجة الأولى، مكانةً أعلى من جاره الغربيِّ. فهو يُعَدُّ، بعد يوفنتوس، وإنتر ميلان، وإيه. سي. ميلان، رابع أكثر الأندية نجاحاً في التاريخ الإيطالي، ولقد فاز ببطولة دوري الدرجة الأولى سبع مرَّات.

ولم يهبط تورينو، منذ تأسيس دوري الدرجة الأولى في العام 1929، إلا هذا الموسم، ليحلَّ رابعاً في دوري الدرجة الثانية. يتسع هذا الاستاد (الذي يشاركهم فيه يوفنتوس) إلى أكثر من 70000 متفرِّج. ولم يسبق للفريق أن باع أحد لاعبيه إلا قبل أربع سنين، إلى فريق إيه. سي. ميلان لقاء ما يناهز الـ 20 مليون دولار. وهم متفوِّقون علينا، بكل المعايير المتخيَّلة، حتى بالنسبة إلى الموهبة التي يتمتَّع بها لاعبونا هذه السَّنة. لم نشعر بأننا أقزام (ليليبوتانيُّون) أكثر من يوم الخميس حين حضر تورينو إلى البلدة.

ولم يبق في هذه الأثناء سوى ثلاثة مراكز صعودٍ، من بين الأربعة المتبقية، مدارَ الحديث الآن. ضمن فريق بريشَّا الصُّعود دون شك، وربما ليتشِه وإمبولي كذلك. كان إمبولي مفاجأة الموسم، نظراً لكونهم قد هبطوا إلى الفئة الأولى من دوري الدرجة الثالثة في السَّنة السابقة، وبلغوا دوري الدرجة الأولى مرَّتين في تاريخهم.

كان المركز الرَّابع والأخير متاحاً، يتنافس عليه باري (إحدى وخمسون نقطة) وجنوا (خمسون نقطة)، وتورينو (تسع وأربعون نقطة). سيكون باري خصمنا الأخير هذا الموسم. ولقد منحنا جنوا مجدَنا الأعظم. ولكنَّ تورينو كان هناك الآن، طافحاً بالعجرفة الشمالية، التي يتمتَّع بها قاطنو المدن الكبيرة، مطالباً بالحصول على ثلاث نقاط على طبق من فضَّة.

لم «يتأهَّل» فوسكو وكريستيانو لخوض هذه المباراة معنا. ربما لن يلعب كريستيانو على أي حال، ولكنَّ غياب فوسكو كان ملحوظاً إلى حدٍّ بعيد. غير أن فداحة هذا الغياب لم تتبدَّ لي إلا حين أسرَّ لي ريميديو في أثناء الوجبة التي سبقت المباراة أنَّه سيكون من بين الذين سيفتتحون اللعب في المباراة.

مستحيل! سيفتتح ريميدو اللعب ضدَّ تورينو؟ اللعنة! الأمر أشبه بالحديث عن إطعام المسيحيِّين للأسود، وكالحديث عن صبيٍّ بين الرِّجال! فلم يكد يبلغ ريميديو الحادية والعشرين، ولم يكن أداؤه في المباريات الخمس، التي خاضها طيلة الموسم، بالقَدْر الكافي الذي يضمن له الحصول على تقييم عال. أجل، أجل، يتمتَّع الصبيُّ بكل صفات المنزلة الرفيعة، والشجاعة، والشخصيَّة الموجودة في العالم أجمع، وكأب فإنه أبدى هذه الصِّفات جميعاً؛ ولكن، من فضلكم، سيلتهمه تورينو حياً. لم يفتتح ريميديو اللعب إلا في مباراة واحدة طيلة الموسم، ضدَّ كريمونييسه، الذي يحتلُّ المركز الأخير ضمن العشرين فريقاً في دوري الدرجة الثانية. حصل في تلك المباراة على تقييم 5,5، وخسرنا المباراة. وليس من الإنصاف أن يفتتح اللعب في هذه الليلة؛ لا بالنسبة إليه، أو إلى الفريق، أو حتى آلاف الجماهير.

خرجتُ من مطعم مارتشيلَّا في منتصف الوجبة، ولم يكن الأمر متعلِّقاً بالسَّمَك. ريميديو! من المحتمل أن يتمكن ريميديو من تطوير مهاراته كمدافع قادر على اللعب ضدَّ تورينو، في غضون سنتَيْن أو ثلاث، إن توافر له التَّدريب الجيد ولاعبون أشدَّاء يلعب معهم. ولكنَّ هذا الفتى قد وقَّع عقده -بناءً على توصيتي!- بعد مباراة تجريبيَّـة مع فريق من الهواة في الخريف الفائت فحسب. يا إلهي، لقد كان ذلك أكثر القرارات المدمِّرة التي اتَّخذها أزڤالدو. لم أكترث بشأن مدى كراهيته لأنطونلُّو، ولكننا نحتاج إلى الخبرة، والروح القتالية، ولاسيَّما قوة ألتامورا البدنيَّـة في أرض الملعب منذ البداية.

كنتُ واقفاً خارج مكتب أزڤالدو أسفل الاستاد، في انتظاره حين يصل. سأكون مباشراً، ولكن مؤدَّباً. أومأ لي برأسه، ثمَّ زنَّر عينيه، لم يقل مرحباً حين فتح باب مكتبه. دلفتُ إلى الداخل معه.

وقلت: «أفضِّل، يا أزڤالدو، ألا تُشرِك ريميديو».

فردَّ: «تباً لك»!

«معذرة، يا أزڤالدو، لا يروق لي الحديث على هذا النَّحو، ولكن».

«اغرب عن وجهي»!

«لا يمكنك إشراك ريميديو»!

يبدو أنَّنا قد وصلنا إلى طريق مسدود.

فقلت: «آسف، ولكنَّني لا أتَّفق مع خيارك».

«اغرب عن وجهي».

دخل سپنيوزا، في تلك اللحظة، إلى المكتب الذي يتشارك فيه مع ياكوني. ولكنَّني، بدلاً من أُقحم صديقاً في هذه المعمعة، غادرتُ بكل بساطة، متذكِّراً على الأقل أنَّني قد قلت: « إنْ بُكَّا ألُوپُو »[171]، التّعبير الذي يُطلَق قبل المباراة، ويعني «حظّاً طيِّباً».

فردَّ سپنيوزا، على نحو لائق، قائلاً: « كرِيبْهِ إلُوپُو » (الموت للذئب). ولم أتمكَّن، لسوء الحظِّ، من سماع ردِّ ياكوني.

امتلأت مقاعد الاستاد على بكرة أبيها، لأوَّل مرَّة، منذ تشييده. احتشد داخل البوَّابات أكثر من من 8000 متفرِّج -وهو حشد أكبر من مجموع سكَّان البلدة بما يزيد على 50٪- ليشاهدوا المباراة. لقد كان، بفارق واسع، الجمهور الأضخم الذي يشاهد أي شيء حدث في كاستل دي سانغرو.

وكان أيضاً الجمهور الأكثر صخباً. هتف الجمهور بصوت واحد: «كَا-سْتِلُّ-و! كَا-سْتِلُّ-و!»، حتى قبل أن يدخل اللاعبون إلى أرض الملعب. وكنت، بعد مضي خمس دقائق على بدء المباراة، قد خضعت إلى -وشاركت في- ما ظننتُ أنَّه أعلى صوت سمعته في حياتي.

تعرَّض فريقنا إلى عرقلة على بُعْد عشرين ياردة من مرماهم، فحصلنا على ضربة حرَّة. وعادةً ما تمنح الضَّربات الحرَّة، من مسافة عشرين ياردة أو أقل، الفِرقَ فرصاً جيدة للتَّهديف. ولكنَّنا أخفقنا طيلة الموسم في تسجيل هدف واحد من ضربة حرَّة. كانت نظريَّـة ياكوني [في تفسير ذلك] أنَّنا بكل بساطة غير محظوظين. أما نظريَّتي، فتمثَّلت في أنَّ ياكوني لم يكرِّس وقتَ تدريب لممارسة خطط اللعب المختلفة التي يمكن تطبيقها حين تلوح مثل تلك الفُرص.

تقدَّم كلاوديو لتنفيذ الضربة، على أي حالٍ، فسدَّدها بقوة. ارتدّت الكرة، لحسن حظِّنا، بعد ارتطامها برأس أحد مدافعي تورينو الذي لم يكن قادراً على إبعادها. كانت الزَّاوية التي ضُربتْ بها الكرة زاويةً مُنحنيةً تركت الحارس عاجزاً عن إيقافها، فتقدَّمنا، 1- صفر.

ثم انعكس الوضع، بعد أقل من نصف ساعة. كان فريق تورينو الأقوى، فأظهر قوَّته على نحو مُقنع خلاف الدقائق التي أعقبت الهدف الذي سجَّلناه. ولم يحرمهم من معادلة النَّتيجة سوى صدُّ لوتّي المذهل لطائفة جديدة من التَّسديدات.

كان ريميديو مشكلة، فلقد تجاوزه لاعبو خطِّ وسط تورينو ومهاجموه، وتفوَّقوا عليه في المناورة، مرَّات ومرَّات، فهم بكل بساطة أخبر منه وأمهر. أدَّى هذا الوضع إلى ضغط إضافيٍّ على المدافعين الآخرين، ما دفع دانجلو، بسبب ذلك، إلى ارتكاب مخالفة عند حافَّة منطقة جزائنا.

سدَّد سكارتشيلِّلي الخطير، من بُعْد اثنتي عشرة ياردة فحسب، ضربةً أقوى حتى من ضربة كلاوديو. انحرفت قليلاً عن أليبرتي، مستقرّة في المرمى. تعادلت النتيجة، 1-1.

ثم مُنحنا، بعد دقيقتَيْن فحسب، ضربةً حرَّة أخرى، بَيْدَ أنَّها كانت، هذه المرَّة، على شاكلة ضربة تورينو، على بُعْد اثنتي عشرة ياردة، عند حافة منطقة الجزاء. رغب ياكوني، لسبب ما، في أن ينفِّذ الضربةَ سپينيسي بدلاً من بونومي، فنفَّذها. سُدِّدت على الهدف، ولكنَّ حارس تورينو انقضَّ علِيها فحال بينها وبين المرمى. ارتدَّت الكرة بعد أن ارتطمت بجسده، فاستقرَّت مباشرة على قدم ريميديو المنتظر، الذي غفل عنه دفاع تورينو. كانت الشَّبكة، من مسافة خمس ياردات، مفتوحةً برمَّتها أمامه. ولكنَّ

ذهنه تفتَّق عن تسديد الكرة عرضيَّـةً. آه، يا إلهي، إنَّه الذُّعر تحت الضَّغط، النتيجة الحتميَّـة لقلَّة الخبرة. وكان هذا سبباً آخر لضرورة أن يكون ألتامورا في أرض الملعب.

انتهى الشَّوط الأوَّل والنتيجة لاتزال متعادلة. وبعد خمس عشرة دقيقة على بدء الشَّوط الثَّاني، كان ريميدو ضحيَّـةً لأسوأ قرار تحكيم شاهدته منذ العَرْض المُقزِّز الذي قام به روسِّي التَّشامپيونيّ. كان هذا الحكم يُدعى تشيكاريني الليڤوروني[172]، الذي لم يكن معروفاً لديَّ في ذلك الوقت، ولكنَّ اسمه سوف يتلطَّخ بالخزي ويلحقه العار في الموسم القادم لرفضه منح رونالدو من فريق الإنتر ضربةَ جزاء في مباراة حاسمة ضدَّ يوڤنتوس. ولم يكن القرار حينئذ خاطئاً فحسب، وإنما بدا نتاج تحيُّزه الواضح لفريق يوڤنتوس وعائلة أنيللي [التي تمتلك النادي]، إلى درجة أنَّ الحادثة غدت محور كتاب بأكمله، نشرته إحدى دور النَّشر الرَّائدة في إيطاليا.

لم يكن أحد راغباً في تأليف كتاب عن الظُّلم الذي حاقَ بريميديو أو كاستل دي سانغرو، ولكنَّ البطاقة الحمراء التي رفعتها فجأة يدُ تشيكاريني بدت كأنَّها ناجمة عن خَبَلٍ أكثر من أي شيء آخر حدث في أرض الملعب.

وعلى الرَّغم من معارضتي خيار إشراك ريميديو، فإنَّ قلبي قد تعاطف معه في تلك اللحظة. ربما لأنَّه نجح، لأوَّل مرَّة طيلة تلك الليلة، في تخليص الكرة من أحد مهاجمي تورينو دون أي احتكاك معه على الإطلاق. ولم يكن ثمَّة مبرِّر محتمل لِعَدِّ حركته تلك عرقلةً خاطئة في الأساس، ناهيك عن أن يُطرَد عليها فوراً!

شنَّ تورينو هجوماً كاسحاً، بعد أن باتت لديه أفضليَّـة التفوُّق علينا بلاعب واحد. ولكنَّهم لم يستطيعوا السيطرة على مجريات المباراة لسببَيْن:

الأوَّل متعلِّق بتأثير 8000 من مشجعي كاستل دي سانغرو، المحتشدين في المدرَّجات التي تمتدُّ إلى أطراف الملعب أو تكاد. ولم تكن شدَّة صخبنا هي التي رفعت من معنويَّات لاعبينا فحسب، وإنَّما نوعية الصَّوت الذي صدحت به حناجرنا.

بات «الخلاص» قاب قوسين أو أدنى. لم يكن ثمَّة أحد بيننا لم يؤمن بأنَّنا لن نتمكَّن من الفوز إلا حين يكون هتافنا شديداً بما يكفي. ولسوف يسمع الله صوتنا! ولن يمنحنا معجزةً هذه المرَّة، بل عدالةً بكل بساطة.

لم أدرك أكثر من هذه المرَّة دورَ المشجعين بوصفهم «اللاعب الإضافيَّ»، على نحو جماعيٍّ، في أرض الملعب. كان ثمَّة نشاز في البداية، بيْد أنَّ كل واحد قد شعر في تلك اللحظة كأنَّه يتوجب عليه أن يحلَّ مطرح ريميديو، وأنَّه يستطيع فعل ذلك، عبر قوة الإرادة المحضة، أو عبر شدَّة صوت الهتاف على الأقل. يكتب غاليانو، قائلاً: «يعرف المشجِّع مَن يُثير رياحَ الحماسة التي تدفع الكرةَ حين ترقد»، وهكذا كُنَّا.

ولكنَّ الأمر تطلَّب أكثر من رياح الحماسة لصدِّ الكرة حين يُسدِّدها الفريق الآخر بقوة ودقَّة على المرمى. وهنا كان دور العنصر الآخر غير المتوقَّع: لوتِّي الخارق SuperLotti.

بدا الأمر في نصف الساعة الأخيرة كأنَّ مباراة جنوا لم تتوقَّف. بل على العكس، بدا لوتِّي أعظم مما كان عليه قبل ثلاثة أسابيع. ومما لا شك فيه أنَّ الهجوم الكاسح الذي شنَّه تورينو كان أشدَّ من ذلك الذي تصدَّى له في مباراة جنوا، فلقد كان تورينو من بين بضعة فرق في دوري الدرجة الثانية تمكَّنت من تسجيل أكثر من أربعين هدفاً حتى تلك اللحظة في الموسم؛ كانوا قادرين على الاندفاع من أي مكان وفي أي مكان، وهكذا فعلوا.

ولكنَّ لوتّي تصدَّى بألمعيَّـة وذكاء ودرجة من التحمُّل لم يشهدها أهل كاستل دي سانغرو مِن قَبْل (الذين لم يشاهدوا مباراة جنوا إلا على شاشة التلفاز)، صدَّ كل ركلةٍ سدَّدها فريق تورينو، حتى حين انهالت عليه كالبَرَد. قالت صحيفة «لا غازيتَّا ديلُّو سبورت» في اليوم التالي: «لا بُدَّ أن يُقيموا نُصُباً لهذا الرَّجل في السَّاحة المركزيَّـة لهذه البلدة، ولا بُدَّ لجميع الذين يحبُّون الكالتشيو القدوم والانحناء له تبجيلاً في كل يوم». أجل، أجل، لقد كان على ذلك القَدْر من البراعة.

وفـي أثناء عَرْضه الـذي لا يُنسَى، وقع حـدثٌ عُدَّ بين أحداث الموسم الأقل احتمالاً. فحين شنَّ تورينو هجوماً بسبعة لاعبين، حاز كلاوديو بونومي الكرةَ، ثمَّ مرَّرها عاليةً ببراعةٍ صوب سبنيسي في قلب الملعب.

وحين كرَّ مدافع تورينو الوحيد، الذي بقي في الخلف، على سبنيسي، قام هذا الشمالي بتمرير الكرة بهدوء ودقَّة إلى غويدو دي فابيو، من بين اللاعبين جميعاً. ركل دي فابيو الكرة على الفور، دفعةً واحدة، «كأنَّ أسداً قد ضربَ ببرثنه»، فتجاوزت الحارسَ إلى داخل المرمى، لتكون أول هدفٍ له في دوري الدرجة الثانية خلال خمس سنين، وهدفنا الثَّاني لهذه الليلة، وهذا هو الأهمُّ.

النتيجة النهائيَّـة: كاستل دي سانغور 2، وتورينو 1.

لم يُرِد أحدٌ المغادرة في النِّهاية، فلم يغادر أحد. وقفنا هناك لساعةٍ بعد المباراة: 8000 من مشجعي كاستل دي سانغرو المبتهجين يحاولون الترنُّم «نحن الأبطال We Are the Champions» بالإنكليزيَّـة، على شاكلة المنتخبات

الوطنيَّـة الفائزة لتلك البلدان، كألمانيا، التي شاهدناها تفعل ذلك على شاشات التَّلفزة.

أهدى دي فابيو هدف الفوز الذي سجَّله إلى پپُّو ودانيلو، قائلاً إلى أطقم التَّلفزة المحتشدة: «أنَّهما سيطيران من الفرح حين يعرفان أنَّ تصميمهما والتزامهما كانا المُلهم لكل ما حدث».

قال لوتِّي: «نستحقُّ جميعاً الليلةَ تقييماً من ثماني درجات» (على الرَّغم من أنَّه وحده قد حصل على تلك الدَّرجة الاستثنائيَّـة في اليوم التالي). وقال أيضاً إنَّ حماسة الجماهير جعلته يشعر أنَّه كان يلعب بيدَيْن إضافيَّتَيْن.

كان المشجِّعون خارج الاستاد قد رسموا بالدِّهان على الملاءات، صانعين على الفور ملصقات ضخمة تصوِّر «سوپرمان» و«باتمان» (الرَّجل الوطواط) في بعضٍ آخر، ثم طبعوا، بشكل جذَّاب، قرب رسومات الحجم الطبيعيِّ، في كلتا الحالتَيْن، عبارةَ «سوپر لوتِّي SuperLotti»، أو «باتمان-لوتِّي Batman-Lotti». كأنَّ «ديلان دوغ» و«دياپوليك» قد أصبحا فجأةً قوة واحدةً وفَّرتها العناية الإلهيَّـة للدِّفاع عن مرمانا، بوصفها مظهراً آخر من مظاهر المعجزة.

ساد الفرح طيلة الليل. لم يُخفق في استيعاب ما حدث إلا ياكوني. فلقد صرَّح للصحافة، قائلاً: «ما حدث الليلة لم يكُن شيئاً طبيعياً». ذكَّر الجميع: «لوتِّي ودي فابيو: هذان لاعبان من الفئة الأولى بدوري الدرجة الثانية. وتورينو فريق حقيقٌ بدوري الدَّرجة الأولى»، ثمَّ عبسَ وهزَّ رأسه قائلاً: «ليس هذا طبيعياً».

ولكنَّ الكالتشيو مرتبط بالفرح بقَدْر ارتباطه بأي شيء آخر. إنَّه عن الفرحِ غير المتوقع، وحتى غير المتخيل. ولقد انتابنا مثل ذلك الشُّعور بعد

جنوا، ولكنَّ تلك المباراة دارت في مكان بعيد جداً عن الدِّيار، وبحلول الساعة 2:30 صباحاً، حين اجتازت حافلة الفريق، في نهاية المطاف، «ڤِيَّا سِتِّيمْبرِه» الباردة والمقفرة، كان الرَّقص قد هدأ في الشَّوارع منذ وقت طويل.

ولكن هذا حدث هنا، في بلدتنا. حدث في الاستاد الذي بدا لعدَّة شهور صورةً زائفة من خيال عقيم. لقد فزنا، بعد أن لعبنا نصف الساعة الأخيرة بعشرة لاعبين، بأعظم نصر شهدته كاستل دي سانغرو أبداً.

وهكذا، وعلى الرَّغم من أزڤالدو، ساد الفرح طيلة الليل.

36
سلطان الضَّربات السَّاحقة

سِرتُ إلى الاستاد، طيلة الأسبوع، على عكس العادة التي مارستها على مرِّ الشهور الماضية، في الطرف المُظلَّل وليس المُشمِس من الشَّارع. ولكنَّني لم أشعر بالحرِّ، على نحو مزعج، منذ وصولي إلى كاستل دي سانغور قبل ثمانية شهور، إلا في ذلك اليوم، الجمعة 16 مايو؛ الصَّباح الذي أعقب الفوز على تورينو.

فإذا كان الطقس على هذه الشَّاكلة هنا، في الـ 8:30 صباحاً، فكيف سيكون في ليتشه إذاً؛ ليس عند مستوى البحر فحسب، وإنَّما على بُعْد 400 كيلومتر جهة الجنوب أيضاً؟ جاء الرَّد سريعاً، واضحاً بلا أي غموض، حين اشتدَّت درجة الحرارة حتى قبل هبوطنا 1000 قدم [من مستوى سطح البحر].

لم تستطع الحافلة السَّير أسرع من 100 كيلومتر في الساعة. كان «تكييفها المركزيُّ» في غاية الضَّعف، فاضطر نصف اللاعبين على الأقل إلى الذَّهاب نحو مقدِّمة الحافلة للتأكُّد بأنفسهم قبل أن يتقبَّل بقيَّتنا حقيقة أن التَّكييف يعمل بكامل طاقته. ولكنَّ نظام الصَّوت ظلَّ قوياً. هذه رحلتنا الأطول بالحافلة طيلة الموسم، وعلى الرَّغم من أنَّنا لن نذهب أبعد من «ڤِيَّا سِكونترونه»، فإنَّها ستظلُّ الرِّحلةَ الأشق والأكثر إزعاجاً أيضاً.

لم نكترث في السَّاعات القليلة الأولى، فمازلنا منتشين لفوزنا على تورينو. لم يعرف اللاعبون -وقد أثقل النُّعاس جفونهم وملأ نفوسهم

الفوز العجيب بالإثارة- درجةَ الحرارة ولم يكترثوا لمعرفة ذلك: لم يكترثوا إلا بدرجات التَّصنيف.

لم يخسر، من بين الأفرقة الثمانية المتنافسة على «الخلاص»، سوى فريق ساليرنيتانا ليلةَ الأمس، وتعادل كل من تشيزينا وكوزنتسا، في حين أدَّى الفوز الذي حقَّقه ريجنًا ولوكيزي إلى اللحاق بنا.

ولهذا، فقد كان التَّصنيف الذي واجهناه على هذه الشَّاكلة:

كاستل دي سانغرو	40
ساليرنيتانا	40
ريجينًا	39
لوكيزي	37
تشيزينا	37
كوزنتسا	35
پاليرمو	32
كريمونييسه	32

ستتمكَّن أربعة أفرقة من «الخلاص»، في حين لن يفلح أربعة. بدا پاليرمو وكريمونييسه خارج المنافسة، إن لم يُستبعدا أصلاً من الناحية الحسابيَّة. لذا، كانت وجهة نظري على الأقل هي: بصرف النظر عما حدث، فإنَّنا لم نتعرَّض للإذلال في دوري الدرجة الثانية. لم نتعرَّض لهزائم نكراء طيلة الموسم، بحسب ما بدت عليه التكهُّنات قبل بداية الموسم، أو في شهر ديسمبر. وبصرف النظر عما إذا كنَّا سوف نصمد حتى النِّهاية، بعد ثلاثة أسابيع من هذه اللحظة، فإنَّنا لن نكون أوَّل الهابطين [إلى دوري الدرجة الثالثة] على الأقل.

يا إلهي! لقد بدأتُ أفكِّر مثل ياكوني!

ياكوني الذي كان، بالمناسبة، قد حيَّاني بمودَّة في موقف السيارات قبل صعودنا إلى الحافلة. وعلى الرَّغم من أنَّه لم يعتذر فعلياً على الجلافة التي أبداها في الليلة الفائتة، فإنَّه وضَّح بما يكفي أنَّ الضغط كان شديداً عليه، وأنَّه لم يعتقد، قبل ساعة من بدء مثل تلك المباراة، أنَّه سيتصرَّف بطريقة مهذَّبة بصرف النظر عن الشخص الذي سيتحدَّث معه، أو عن أي موضوع.

وعلى الرَّغم من أنَّني لم أعتذر فعلياً، فإنَّني عبَّرت على الأقل عن أسفي بشأن التوقيت السيء الذي أبديت فيه اعتراضي على التشكيلة التي اختارها، دون أن أُلمِّح إلى أنَّني قد أدركت في تلك الأثناء بأنَّني كنت على حق. هكذا، تصالحنا وعدنا إلى سابق عهدنا في هذا الوقت المتأخِّر من الموسم المُرهق.

وكان تضافُر الحَرِّ، والمدَّة المتوقَّعة للرِّحلة، والإرهاق في أعقاب أحداث الليلة الفائتة، قد أبقى اللاعبين هادئين على نحو غير عاديٍّ. كان ريميديو، على الرَّغم من الفوز، في وضع لا يُحسَد عليه تماماً. فلقد حصل على تقييم 4 في تلك المباراة، وهي أسوأ علامة منحت لأيٍ من لاعبي كاستل دي سانغرو طيلة الموسم. ولكنَّه تمتَّع بشخصيَّة تمكِّنه من العودة إلى اللعب ثانيةً على الرغم من أدائه الشنيع، بيد أن ياكوني لن يمنحه فرصة العودة قريباً بعد أن ثبت أنَّه أخطأ حين أشركه في المباراة. كانت الرحلة الطويلة إلى لِيتشه، بالنسبة إلى ريميديو، شكلاً من أشكال التَّكفير عن الذَّنب، ليس إلا.

جلس ألبيرتي بجواري برهةً وجيزة. لم يتكلم عن جيجي، بالطَّبع، وإنَّما عن ياكوني. أراد ألا تساورني شكوك بشأن فوز الفرقة «للخلاص»،

وأنَّها إن فعلت ذلك، فسوف يكون على الرَّغم من ياكوني، وليس بسبب وجوده على أي حال. كان ينظر إلـيَّ وهو يتحدَّث، ليتأكَّد من أنَّني قد دوَّنت ذلك في مفكِّرتي. («ليس بسبب وجود ياكوني، بل على الرَّغم منه!»). أراد الرَّجل، الذي يُعَد العقل المدبِّر للفريق، والذي غالباً ما يتحدَّث عنه ياكوني باحترام، ألا يكون ثمَّة وهمٌ بشأن مشاعره حول تلك المسألة.

توقَّفت الحافلة كل ساعتَيْن. فسَّر السَّائق الأمر بأنَّه يحمي المحرِّك من الحرارة الزَّائدة، بيد أنَّ أحداً لم يكترث، فقد كانت فرصة كي يهرع الجميع إلى أقرب متجر لمحطَّة الوقود، والحصول على جميع زجاجات المياه الباردة المتوافرة.

كنت غالباً ما أشاهد اللاعبين يستخدمون زجاجات الماء في أرض الملعب، ليس للشرب فحسب، وإنَّما لسكب المياه على رؤوسهم في محاولة لتبريد أنفسهم، ولطالما فعلت ذلك بنفسي في أيام تدريباتي الشاقَّة. ولكنها هذه المرَّة الأولى التي أرى فيها رجالاً ناضجين يسكبون زجاجات مياه كاملة على أنفسهم قبل الصعود ثانية إلى الحافلة. حتى إنَّهم لم يذهبوا إلى الحمَّام إلا بعد مضي نحو ثماني ساعات على انطلاق الرِّحلة.

لم يكُن هذا الحَرُّ طبيعياً في منتصف شهر مايو. أخبرني الجميع بذلك، كأنَّ الحقيقةَ سوف تجعلني أشعر بالبرودة. ولكنَّي أستطيع مشاهدة القناة الإيطالية التي تبثُّ نشرات الطقس أيضاً. وكان واضحاً ما الذي حدث: رياح حارَّة وجافَّة -إن لم تكُن خماسينيَّة بكامل قوَّتها- هبَّت فجأة، في غير أوانها، من شمال إفريقيا، فاجتاحت جنوب إيطاليا، تاركةً الرِّيف يبدو من شدَّة القيظ كأنَّه في شهر أغسطس.

بدا الأمر، بالنسبة إلـيَّ، نظراً إلى وجهتنا، وطول رحلتنا أيضاً، أنَّنا قد نكون في طريقنا إلى طنجة. ولكنَّ ذلك أظهر بكل بساطة مدى تشوُّه إحساسي بالجغرافيا الإيطالية. فمتلازمة شمال إفريقيا كانت مجرَّد خدعة يقوم بها الطقس وطبيعة الأرض. ولا دخل لليتشه بشمال إفريقيا البتة. وإذا أراد المرء العثور على مدينة رئيسة أقرب في طبيعتها إلى ليتشه، فلن تكون روما، وإنَّما أثينا، بالأحرى، أو حتى صوفيا. ومِن ميلانو؟ تكاد ليتشه أن تكون أقرب إلى بيروت منها إلى ميلانو. معجزة صغيرة أن يكون المسيح قد توقَّف في إبولي.

ثمَّ غلب معظمنا النُّعاس، من حين إلى آخر، حين اندفعنا ببطء صوب قاع كعب جزمة إيطاليا[173]، لا نستهلك مزيداً من الطَّاقة إلا بقَدْر ما نحتاج حتى تنتهي الرِّحلة. استمعت، وأنا بين الصَّحو والنَّوم، إلى كريستيانو وسپنيسي، الوحيدَيْن اللذين ظلَّا مستيقظَيْن، وقد انهمكا في جدال حماسي حول المزايا النسبيَّـة لديلان دوغ وديابوليك. كان ميمُّو في صفِّ ديلان دوغ، البطل الإيطالي الخارق الأصلي، منذ البداية. ولكنَّ سپنيسي قال إنَّ ذلك يُثبت أنَّ أهل روما، بخلاف الشماليين، يفتقرون إلى المقدرة الفكريَّـة التي تدفعهم إلى تقدير ذكاء ديابوليك الذي كان أقل لجوءاً إلى العنف من ديلان دوغ ليخرج نفسه من أي ورطة.

استيقظتُ بما يكفي لأقول لهما إنَّني، بعد ستة أشهر من الدراسة المقارنة الدقيقة، أصوِّت لصالح ديلان دوغ. فصفَّق كريستيانو، أما سپنيسي فقد سخر منِّي قائلاً إنَّه لم يعرف إلا في هذه اللحظة أنَّ الأمريكيين كانوا أغبى مِن الرُّومان، ثمَّ نظر إلى فردتَي حذائي، اللتين أعترف أنَّهما لم تكونا على أحدث طُرُزِ الأناقة الإيطالية، قائلاً إنَّه لا يحترم رأي مَن يضع قدميه في مثل هذين الشَّيئَيْن.

سألني: «أي تقييم تستحقَّان»؟

«فردتا حذائي؟ ربما خمس درجات من خمس درجات».

فقال: «مستحيل! ولا حتى في أحلامك»، ثم أضاف وهو يميل إلى الأمام، ممسداً شعر ريميديو: « أربع درجات لأجل فردتَي حذائي، ولا شيء أعلى».

المسكين فابيو؛ لقد أخلده النوم إلى الرَّاحة أخيراً، كي يستريح من شقائه، وها هو ذا يُوقَظ الآن! حسناً، لم تكن الحياة على الطريق سهلة، ولاسيَّما قرب نهاية موسم في دوري الدرجة الثانية.

كان الحَرُّ قد بلغ من تِشيي مبلغاً عظيماً، إلى درجة محاولته حلَّ كلمات متقاطعة مكتوبة باللغة الإنكليزيَّـة. استغلَّ شبه يقظتي ليسألني عن لقب «بيبي روث» المكوَّن من اثني عشر حرفاً.

فهمهمتُ «سلطان الضَّربات السَّاحقة Sultan of Swat»، ثمَّ توجَّب علـيَّ أن أنهض كي أتهجَّاها له. حينئذ، وقع في حيرة من أمره، كما حدث معه بشأن «غاتسبي». لم تكن لديه مشكلة مع كلمة «سلطان»، فالكلمة الإيطالية «سُلْطَانُو sultano» تعني الشيء ذاته. لقد شاهد دافده أفلاماً أمريكيَّـة كثيرة، ولا تعني كلمة «سْوَاتْ swat»، بالنسبة إليه، سوى فرقة «التدخُّل السّريع SWAT»: الشرطة المدربين على القتل، ولا يمكن لقائدهم أن يكون «بيبي روث» بأي حال من الأحوال، فلقد عاش ومات قبل ظهور فرق «التدخل السريع» بوقت طويل.

ولربما كانت المسألة مسليةً، في سياق آخر، ولكنَّ درجة الحرارة في داخل الحافلة كانت ترتفع في تلك اللحظة لتقترب من خمس وتسعين درجة فهرنهايتية [35 درجة سيليزية]، على شاكلة درجة الحرارة في الخارج.

فقلت «سوَاتْ! يا داڤده»! ثم صفعتُ ذراعي بيدي، كأنَّني أسحق بعوضة. وأخرجت قاموسي الإيطالي من حقيبة سفري، ثم أشرت إلى فعل «سحقَ schiacciare»، آملاً في أن يفهم، بطريقة أو أخرى، استخدام هذه الكلمة في صيغتها غير الفعليَّة، بوصفها جزءاً من لقبِ أمريكيٍّ استُخدم منذ ما يزيد على نصف قرن.

ولكنَّ تِشيي لم يكن أحمقَ، فقال على الفور: «كلا، مستحيل». ثمَّ ضغط إبهامه، ضغطاً شديداً على مسند الذِّراع الذي بيننا كأنَّه يسحق بقَّة، وقال «Schicaccio». إنني أسحق. إنَّني أهرس. أنا سلطان السَّحق The Sultan of Squash؟ كلا، لن يجدي ذلك نفعاً. كان تِشيي يعرف، على أي حال، كيف يقتفي الأثر الأدبيَّ، كما أثبت مع «إيست إغ» و«وست إغ».

ثم قال، بعد بضع دقائق من التَّفكير: «أفهم، يا جُو. أسحقُ خصماً». قد بدأ الآن يفهم. «سلطان الضربات السَّاحقة» تعني «الملك الذي يسحق الخصوم».

فقلت له، وقد ارتحت لأننا اقتربنا من المعنى إلى ذلك الحدِّ: «نعم، يا داڤده، نعم. بالضَّبط».

ولكنَّ تِشيي، بعد أن حدَّق هنيهة في الحروف التي دوَّنها في المربَّعات، أغلق كتاب الكلمات المتقاطعة.

ثم قال، وابتسامة عريضة على محيَّاه: «مثلي أنا قائد الفريق، السُّلطان. ويوم الأحد سوف أسحق ليتشه».

ثم قبض يديه ورفعهما في الهواء، قائلاً: «هيَّا، يا بيبي روث! أنا سلطان الضربات السَّاحقة»!

قِيل لي إنَّ ليتشه هي فلورنسا الجنوب، وكان ذلك صحيحاً، بطريقة أو أخرى، على الرَّغم من أنَّ المعمار هو الذي يدهش أكثر من الفنون. وصفها أحد الأدلَّاء أنَّها «واحدة من أجمل المدن الإيطالية، المخبوءة في جنوب بُولْيَا، التي نادراً ما يزورها الأجانب». كانت ليتشه، ضمن نطاق خبرتي على الأقل، «المدينة الإيطالية الأكثر بذخاً في التَّنويع على العمارة الباروكيَّـة»، بحسب ما وصفها دليل «إيطاليا على الإنترنت». «تنتظر أن تدهش ببهائها غير المعروف إلا على نطاق ضيّق».

تمثَّلت مشكلتنا في أنَّنا قد دخلنا للتوِّ في حالة من تعطُّل الحواس -إن لم تكُن حالةً من التبلُّد- بسبب طول الرِّحلة والحَرِّ. لم نكترث، حين وصلنا، إنْ كان اليونان قد عاشوا هناك قبل الرُّومان، لم نكترث إلا بشأن حالة تكييف الهواء في الفندق الذي سوف ننزل فيه.

أكَّد لنا مساعد المدير حين وصلنا أنَّ الفندق يضمُّ «أفضل نظام تكييف في عموم جنوب إيطاليا. ولكنَّه، لسوء الحظِّ، لن يشتغل قبل بداية شهر يونيو». اللعنة! لم أعرف أنَّ فندق «كوراديتِّي» جزء من سلسلة فنادق [على شاكلة هذا الفندق]!

فدبَّ عويل، وصَرٌّ على الأسنان، فاضطر سكرتير «لا سوتشتا» الذي حجز لنا في هذا الفندق، إلى مواجهة غضب اللاعبين وازدرائهم وتهكُّمهم.

ولكنَّ ياكوني تولَّى زمام الأمور حينئذ، فوقف هناك، في الرُّدهة، ودرجة الحرارة تقترب من 100 درجة فهرنهايت في الساعة 8 مساءً، متحدِّثاً إلى فريق قد تحمَّل للتوِّ مشقة رحلة استمرَّت اثنتي عشرة ساعة في حافلة غير مزوَّدة بنظام تكييف (بصرف النظر عمَّن ادَّعى خلافَ ذلك) في اليوم الذي أعقب فوزهم الأعظم على مرِّ التاريخ، مدعياً أنَّ التَّكييف

ليس صحياً، كالثوم تماماً، قائلاً إنَّه حتى لو كان التَّكييف متوافراً، فإنَّه سوف يطلب من الفندق عدم تشغيله.

ثمَّ ادَّعى لاحقاً أنَّ عدم اعتراض اللاعبين أظهرَ قوة شخصيَّته، ولكن بيني وبينكم فإن الإرهاق هو السَّبب في المقام الأوَّل.

خشيتُ أنَّني لم أُوفِ ليتشه حقَّها، فساعة واحدة من السير عبر مركز المدينة جعلني أشعر بأنَّها «مملكة أُوزْ Kingdom of Oz». ركبنا الحافلة يوم السَّبت إلى ملعب التَّدريب بعيداً جداً عن المدينة، فدُهشتُ لتنوُّع الحشرات التي استوطنت هناك، ومدى حجومها؛ حشرات لم أشاهدها في أي جزء آخر من إيطاليا، مخيفة جداً إلى درجة أنَّ تِشيي قد أحجم عن سحق واحدة بقدمه.

ظلَّ الحَرُّ لا يُطاق، ولكنَّه كان أسوأ في الفندق مما كان عليه في الشَّوارع، فمشيتُ ليلةَ السَّبت في الجادَّات المرصوفة بتلك الأمثلة الباذخة من مباهج الحياة المعماريَّـة، متعجِّباً من وجود ما بدا أنَّه مركز حضارته الخاصَّة، في حين اعتقدت دائماً أنَّه منتصف اللامكان.

وحين عدت أخيراً إلى الفندق، لمحت جيجي في ركن قصيٍّ من الرُّدهة، منحنياً على إحدى منضدات الكتابة. حافظنا، أنا وإياه، على قَدْرٍ من المزاح الظاهريِّ، منذ عناقنا العفويِّ الأوَّل في يوم عودته إلى كاستل دي سانغرو. ولكنَّني مقتنع الآن أنَّه لم يستطع إخباري بأشياء كثيرة، علاوةً على أنَّ أشياء كثيرة أخبرني عنها وكانت باطلة، ولهذا فإنَّ علاقتنا لم تكن كسابق عهدها.

ولكنَّني اقتربت منه، رغم ذلك، فلوَّح إلـيَّ سريعاً كي أجلس في مقعد مجاور. أخبرني أنَّه يكتب رسالة إلى ڤانيسًّا، ولكنَّه عاجز عن التَّعبير عن مشاعر كثيرة بالكلمات.

فأخبرته أنَّني أعرف كيف يشعر. قلت إنَّني غالباً ما أجد نفسي، ككاتب، في مواجهة مشاعر أعجز عن إيجاد الكلمات المناسبة للتَّعبير عنها. بدت هذه الحقيقة مفاجئة بالنسبة إليه، فأظنه قد افترض أنَّ الكتاب يستطيعون الكتابة، على نحو طبيعيٍّ، مثلما يستطيع اللاعب لعب كرة القدم. وقد يكون بعضهم أفضل من بعض، ولكنَّ حقيقة أن يكون الكاتب محترفاً تفترض قَدْراً كبيراً من المهارة.

فقلتُ: نعم ولا. نعم ولا. فأومأ برأسه، ثم أخرج من تحت مفكرته كتاباً، وأراه لي بخجل أو كاد. كان الكتاب مجموعة شعريَّـة لبابلو نيرودا الذي قال إنَّه شاعر ڤانيسًا المفضل.

قال إنَّه قضى الساعة والنِّصف المنصرمتَيْن وهو يتأمَّل في الكتاب، باحثاً عن عبارة أو بيتٍ يكون الأفضل في التعبير عن مشاعره. وكان مقتنعاً بأنَّه قد عثر عليه، قبل دقائق فحسب. ولكنَّه رغب في معرفة رأيي بوصفي كاتباً.

حاولتُ الشَّرح بأنَّه سيكون حكماً أفضل منِّي في مسألة تتعلَّق بالمشاعر القلبيَّـة، كهذه المسألة. ولكنَّ جيجي أصرَّ. أكان ذلك صائباً؟ أكان جديراً؟ أذلك ما ينبغي عليه إرساله إلى ڤانيسًا؟

أسلمني الكتاب. كانت الفقرة المعنيَّـة مُعلَّمٌ تحتها، وكانت بالإنكليزيَّـة:

مِن كل جريمةٍ يولدُ الرَّصاصُ
الذي سوفَ يبحثُ فيكِ
أينَ يكمنُ القلبُ.

كان ثمَّة، بالطَّبع، أشياء كثيرة لا أعرفها. ولكن إذا شعر جيجي، بعد أكثر من ساعة ونصف من البحث، بأنَّ هذه الكلمات أفضل كلمات تمثِّل المشاعر التي ودَّ التَّعبير عنها لڤانيسَّا، فلا بُد أنَّها كانت كذلك.

فأكَّدت له، قائلاً: «اختيار مثالي». فلملم حاجيَّات الكتابة، ثم ركبنا المصعد سويَّة إلى غرفتَيْنا الحارَّتَيْن، حيث سنحاول، بطريقة أو أخرى، الخلود بضعَ ساعات إلى النَّوم.

ربما تعلَّق الأمر بحَرٍّ يوم الأحد، الذي كان أسوأ من الحَرِّ الذي ساد في اليومين السَّابقين. وربما كنَّا لانزال في طَوْر العودة إلى حالتنا الطبيعية بعد النَّشوة الناجمة عن فوزنا على تورينو. وربما كان فريق ليتشه يعرف أنَّه قد أمن الصُّعود إلى دوري الدَّرجة الأولى، فلم يكن يتطلَّع إلى تحقيق الكثير. لقد كانت المباراة، على أي حال، باهتة بما يكفي كي يشعر المرء بأنَّ ضربة شمس قد أصابته حتى لو كان جالساً في الفيء.

اختار أزڤالدو، لأسبابه الغامضة المعتادة، سپنيسي بوصفه مهاجمنا الوحيد، وقرَّر استخدام ميكليني في خط الوسط بدلاً من روسُّو أو فرانكيتشيني. عرفت قبل بدء المباراة أنَّنا لن نتمكَّن من التَّسجيل بتشكيلة من هذا النَّوع، ولاسيما أنَّ حارس مرمى ليتشه هو فابريتسو لوريري الذي لعب ستَّ سنوات في دوري الدرجة الأولى مع تورينو وروما، وكان حصن ليتشه الصاعد حديثاً من الفئة الأولى بدوري الدرجة الثالثة إلى المرتبة التي يحتلُّونها في ذلك الوقت، والتي ضمنت لهم الصُّعود إلى دوري الدرجة الأولى. وكان لوريري، البالغ من العمر ثلاثة وثلاثين عاماً، حارس المرمى

الوحيد، أكثر من إيليو حارس مرمى جنوا، الذي يمكن أن يكون على الأقل نظيراً للوتّي، ضمن حرّاس المرمى في دوري الدرجة الثانية.

تعرَّض تِشيبي، بعد انقضاء نصف ساعة من المباراة، لشدٍّ عضليٍّ. بدا وجهه [من شدَّة الألم] كأنَّه قد ابتلع للتوِّ رأس ثوم بأكمله، فأدخل أزڤالدو أنطونلُّو إلى المباراة. كان من الواضح أنَّه قد توقَّع الأسوأ.

ولقد حلَّ الأسوأ على الفور، ولكنَّه ليس نتيجة خطأ ارتكبه أنطونلُّو، بل كان ميكليني هو من ارتكب خطأً غير مبرَّر في داخل منطقة جزائنا قبل دقيقتَيْن من انتهاء المباراة.

نفَّذ الضربةَ فرانشيسكو، وهو مهاجم مخضرم سجل في هذا الموسم أربعة عشر هدفاً لغاية الآن. اندفع لوتّي جهة اليمين -التي تبيَّن أنَّها الجهة الصحيحة- في الوقت الذي لمس فيه فرانشيسكو الكرة. إلا أنَّه، وقد مدَّ جسده على طوله، لم يستطع الوصول إليها. ولكنَّ الكرة، على أي حال، ارتطمت بالعارضة التي كانت أبعد من متناول قبضة لوتّي. لا هدف. والنتيجة لا أهداف في الشَّوط الأوَّل.

ادَّعى أزڤالدو ذو الوجه المتهلِّل، فيما بعد، أنَّ التَّعادل بلا أهداف «نقطةٌ من ذهب»، وفسَّر للصَّحافة كيف أنَّ تكتيكاته قد جعلت ذلك ممكناً. وبدت الرَّكلتان اللتان سدَّدهما فرانشيسكو، وارتطمتا بالعارضة، «مجرَّد ضربة حظٍّ»، بالنسبة إليَّ، ولكنَّ نقطةً واحدةً في هذه المرحلة هي نقطةٌ؛ إنها نقطةٌ .

تسابق اللاعبون، رغم الإرهاق وجفاف أجسادهم، إلى أماكن الاستحمام، ثم هرعوا خارجين من غرفة تبديل الثياب إلى الحافلة ثانيةً في وقت قياسيٍّ. لم يرغبوا في التخلُّف عن سماع نشرة الأخبار الإذاعيَّة التي

تذيع نتائج المباريات التي خيضت في ذلك اليوم.

فاز ريجنًا ولوكيزي، وتعادل كوزنتسا، وخسر ساليرنيتانا وفريقان آخران على حدٍّ سواء.

هكذا، بدأنا رحلة عودتنا الطويلة إلى الدِّيار، شاعرين ببعض الارتياح جرَّاء لائحة التَّصنيف، على الرَّغم من عدم شعورنا بأي راحة البتة بسبب تعطُّل مكيّف الهواء في الحافلة.

بدا الرُّكن الصغير الذي نحتلُّه في عالم الكالتشيو، رغم بقاء ثلاث مباريات فحسب، على هذا الشَّكل:

ريجينًا	42
كاستل دي سانغرو	41
ساليرنيتانا	40
لوكيزي	40
تشيزينا	37
كوزنتسا	36
پاليرمو	32
كريمونييسه	32

لم نبلغ كاستل دي سانغرو إلا في الساعة الـ 3:20 صبيحةَ يوم الإثنين.

كانت تلك الأيام الأربعة أكثر الأيام إرهاقاً، طيلة الموسم، من الناحية الجسدية والوجدانيَّـة على حدٍّ سواء (ما خلا أيام الحزن والاستنزاف العاطفيِّ التي أعقبت موت پيُّو ودانيلو)، ولكنَّنا حصدنا فيها أربع نقاط، حين لاح في البداية، لمَّا شرعنا في الرِّحلة، أنَّنا لن نحصد فيها سوى الصِّفر على الأرجح.

هل كان ذلك ممكناً؟ هل من الممكن أن يحصل ذلك؟ لم يعرف أحدٌ الإجابة، ولكن المسألة بدت في هذه الأثناء، بعد أن خضنا خمساً وثلاثين مباراة حتى الآن ولم يبقَ سوى ثلاث، كأنَّ السُّؤال مازال من الممكن طرحه.

37
المباراة المصيريَّة

لو أنَّ . .

لو أنَّ المباراة التي خيضت ضدَّ ساليرنيتانا كانت أقل بدقيقتَيْن..

لون أنَّ أزڤالدو لم يصرَّ على إشراك پستلَّا بوصفه مهاجمنا الوحيد..

لو أنَّ لوتِّي قال في النهاية فليذهب كل شيء إلى الجحيم..

ولو أنَّ الطَّائرة -وهذا الأهم- التي أقلت فيليمون ماسنغجا عائدةً إلى إيطاليا من المباراة التي خاضها ليلةَ السَّبت في إنكلترا قد أخر إقلاعها الضَّبابُ فترةً أطول..

لو أنَّ واحداً من هذه الأشياء قد حدث، لتمكَّنا من تحقيق التَّعادل مع ساليرنيتانا بدلاً من الخسارة، 1- صفر، وخسارة لوتِّي بقيَّـة الموسم جرَّاء ذلك.

يشتمل وقت الموسم في دوري الدَّرجة الثانية على سبع وخمسين ساعة من اللعب، دون احتساب الأوقات الإضافية التي يحتسبها الحكم في كل أسبوع، إلا أنَّنا نتذكَّر تلك الدقائق الأربع في نهاية المباراة التي خضناها ببسالة في ساليرنو على أنَّها كانت في تلك الأثناء الدَّقائق التي قرَّرت مصيرنا.

فحين قضينا، في شهر أكتوبر، الليلةَ التي سبقت مباراتنا ضدَّ إمبولي في مقرِّ المنتخب القوميِّ الإيطالي بكُفِرْتشَانُو، شاهدتُ رفقةَ عدد من اللاعبين

المباراةَ الماضية بدوري الدرجة الثانية، على شاشة التلفاز. لم يلعب ماسينغا لصالح ساليرنيتانا إلا في الدَّقائق العشرين الأخيرة، وكنت قد أسرفت في مدحه على أساس أنَّني قد شاهدت لعبه في إنكلترا. ولكنَّ فوسكو، على وجه الخصوص، كان متشككاً، قائلاً: «ليس في دوري الدرجة الثانية، يا جُو. إنَّه مغرور جداً».

لعب ماسينغا نحو اثنتي عشرة مباراة منذ ذلك الوقت، وسجَّل هدفَيْن، بَيْدَ أنَّه لم يجذب الانتباه إليه كثيراً، ولم أُعره كثيراً من الاهتمام أيضاً. ولكنَّه، حين بلغ السَّابعة والعشرين، أصبح لاعباً إفريقياً ذكياً ومفعماً بالحيوية مكتسباً خبرة، لا في موطنه فحسب، وإنَّما في إنكلترا وسويسرا قبل وصوله إلى إيطاليا.

وحين واجهنا حشداً، يُقدَّر بنحو 40000، من مشجعِّي ساليرنيتانا الذين سرعان ما باتوا عدوانيِّين -وهو الحشد الأكبر الذي لعبنا أمامه طيلة الموسم- في عصر يوم الأحد، 25 مايو، كان ماسينغا لايزال غائباً عن بالي. كنَّا متقدِّمين على ساليرنيتانا ولوكيزي بنقطة واحدة، ونتقدَّم على تشيزينا بأربع نقاط وعلى كوزنتسا بخمس، ولم يبق سوى ثلاث مباريات. وإنَّ فوزاً سوف يمنحنا يقيناً يكاد يكون حاسماً، من الناحية الحسابيَّـة على الأقل، بحصولنا على «الخلاص»، بَيْدَ أنَّ تعادلاً سوف يجعلنا على شفير الهلاك [والهبوط إلى دوري الدرجة الثالثة].

بدا فريق ساليرنيتانا أكثر عُرضةً من معظم الخصوم للتَّعامل مع أي تشكيلة قد نختارها وأي مفاجآت تكتيكيَّـة قد نأتي بها. كانوا أفضل منَّا في الهجوم قليلاً، مسجِّلين ثمانية وعشرين هدفاً طيلة السَّنة فحسب، مقابل العشرين هدفاً التي سجَّلناها، وهي أسوأ حصيلة تُسجَّل لغاية الآن في

هذا الدوري. ولقد حصدوا أربعين نقطة، على شاكلتنا نحن. كنَّا قد هزمناهم في السَّابق، 1- صفر، يومَ كان دي يوليس في حراسة المرمى. ومما لا شك فيه أنَّهم لم يخسروا مباراة على أرضهم، ولكنَّهم تعادلوا ثماني مرَّات في المباريات السَّبع عشرة التي خاضوها على أرضهم.

بدا النَّهج واضحاً بالنسبة إلي: أن نشنَّ عليهم هجوماً كاسحاً منذ البداية، مُزعزعين دفاعهم في أرض ملعبهم، عبر سپنيسي وروسُّو وفرانكيتشيني، الذين لم يشاهدوهم في المباراة التي أجريت في شهر يناير. ونستطيع تحمُّل أخطار هذه المجازفة بوجود لوتِّي في حراسة المرمى.

وغنيٌّ عن القول أنَّ ياكوني لم يرَ الأمر على هذا النَّحو. فلقد افتتح اللعب بتشكيلة 4-5-1؛ وهي تشكيلة لم تشتمل، لأسبابٍ لم أستطع سبر أغوارها، على سپنيسي الذي كان قد سجَّل هدفَيْن في غضون الشَّهر المنصرم، وصاحب المهارة التي كانت تتطوَّر في كل ساعة، ناهيك عن أنَّ زهوه بنفسه قد أُعدَّ لمباراة صعبة بعيدة عن الدِّيار مثل هذه. ولكنَّ مهاجمنا الوحيد كان پستلَّا البطيء، الذي يمكن التنبُّؤ بتحرُّكاته، والذي لم يسجِّل سوى هدفَيْن طيلة الموسم، والحاصل على تقييم تراكميٍّ، بلغ 5,68، ويُعَد لغاية الآن التَّقييم الأدنى بين التَّقييمات التي حصل عليها لاعبونا المُنتظَمون، ناهيك عن أنَّ ياكوني كان يحتقر پستلَّا علانيةً منذ شهر سپتمبر.

لم تكُن لديَّ الرَّغبة في التعجُّل بحدوث واقعة مُستهجنة أخرى، بإثارة اِعتراض في اللحظة الأخيرة، بيد أنَّه قد توجَّب علـيَّ طرح سؤال على الأقل: لماذا ليس روسُّو، أو فرانكيتشيني، أو ألبيري، ولكنَّ الأهمَّ من ذلك كله، لماذا ليس سپنيسي؟

فقال: «لا يستحق الأمر المخاطرة».

فسألته: «أي مخاطرة»؟

«خطر الإصابة. أريده في المباراة ضدَّ پسكارا».

هل هذا ممكن؟ لن يُشرك ياكوني سپنيسي في مثل هذه المباراة المصيريَّـة، لأنَّه يخشى أن يتعرَّض للإصابة، ومِن ثمَّ لا يكون قادراً على اللعب في المباراة التي من المحتمل أن تكون حاسمةً ضدَّ پسكارا؟ وماذا لو تعرَّض للإصابة في المباراة ضدَّ پسكارا، ومن ثمَّ لن يكون قادراً على اللعب في المباراة الأخيرة لهذا الموسم ضدَّ باري، التي قد تكون المباراة الأكثر مصيريَّـةً على الإطلاق؟ كان ذلك «خوف» تصاعد إلى درجة من اللاعقلانيَّـة التي بكل بساطة قد حيَّرتني.

فسألني ياكوني حين تبدَّى الذُّهول علـيَّ: «أتفهم؟ لن نتمكَّن من التَّسجيل علـى أي حال، فلمَ المجازفة»؟ بدت هذه العبارة قريبة من مصطلح «كاتشْ 22» -لماذا نُشرك اللاعـب الذي سوف يسجِّل على الأرجح فـي الوقت الذي لن نتمكَّن فيه من التَّسجيل علـى الأرجح؟- ولكنَّه كان في الوقت ذاته جوهر «منطق البلدوزر»، فلم تعد لديَّ الرغبة في مقاومة ذلك.

فقلت: «فهمت، يا أزڤالدو. أشكرك».

تمكَّنا من الصُّمود في الشوط الأوَّل دون أن تدخل مرمانا أي أهداف، والفضل في ذلك عائد، مرَّة أخرى، إلى لوتِّي. وبعد انقضاء عشر دقائق على بداية الشوط الثاني، تخلى ياكوني عن حذره تماماً، فأخرج دي فابيو غير الفعَّال لصالح إشراك سپنيسي. ولكنَّه، والنتيجة لاتزال صفر-صفر، ولم يبق على انتهاء المباراة سوى عشرين دقيقة، فزعَ ثانيةً فأخرج كريستيانو الذي كان

أداؤه مدهشاً، لصالح إشراك ميكليني المخضرم صاحب الأداء البطيء. حدث ذلك في الوقت الذي دخل فيه ماسينغا إلى المباراة.

لم يكن من المفترض أن يكون ماسينغا هنا. فلقد لعب الليلةَ الماضية في استاد «أولد ترافورد» الذائع الصِّيت في مانشستر، بإنكلترا، وسجَّل هدف منتخب جنوب إفريقيا الوحيد في المباراة التي خسرها أمام المنتخب القومي الإنكليزيِّ، 2-1. ولن يكون معظم اللاعبين، بعد أداء مثل ذلك، راغبين حتى في محاولة مغادرة شمال إنكلترا إلى جنوب إيطاليا، في غضون اثنتي عشرة ساعة، ليكون متاحاً لدى فريق في دوري الدرجة الثانية قد لا يعمد مديره الفنيُّ إلى إشراكه في المباراة.

ولكنَّ فيل ماسينغا لم يكن كمعظم اللاعبين. لقد كان الهداف الرئيس في تاريخ جنوب إفريقيا، ورجلاً كان كبرياؤه مُتأصِّلاً بقَدْر موهبته. فبعد سفره بكل وسيلة نقل متاحة، ما عدا المناطيد، وصل إلى استاد ساليرنيتانا عند انتهاء الشَّوط الأوَّل.

أمضى خمس عشرة دقيقة يمارس تمارين الإحماء، محاولاً استيعاب الموقف تدريجياً، متعرِّفاً بكل هدوء على مواطن القوة والضَّعف لدى الفريقَيْن في هذا الوقت المتأخر من المباراة، ثمَّ شنَّ هجومه، ولم يبقَ سوى عشرين دقيقة على انتهاء المباراة. تلقَّى ماسينغا، عبر ثغرة كبيرة في دفاعنا الخلفيِّ، تمريرةً مثالية فسدَّدها إلى الزاوية العلويَّـة من المرمى. ارتطمت الكرة بالزَّاوية المتقاطعة بين العارضة والقائم الذي يسندها، فانحرفت لسرعتها الشَّديدة مدوِّمةً حتى دخلت إلى الشِّباك.

حسناً، سينهي هذا الهدف المباراة: ساليرنيتانا 1، وكاستل دي سانغرو صفر، على الرَّغم من أنَّ صحيفة «لا غازيتَّا ديلُّو سبورت» قد وصفت أداء لوتِّي هذا بأنَّه كان «مذهلاً طيلة المباراة».

بيد أنَّ الحكم قرَّر حينئذ احتساب أربع دقائق إضافية (بدلاً من الوقت الضَّائع). كأنَّه قد منحنا حياة جديدة؛ فرصة يائسة أخيرة لإحراز التَّعادل. لو نستطيع تسجيل هدف!

ولكنَّ الأمور سارت، لسوء الحظِّ، في الاتِّجاه المعاكس. كنا، وقد اندفعنا جميعاً إلى الأمام، غير محصَّنين إلى حدٍّ بعيد ضدَّ أي هجمة مرتدة، وهذا ما كان ماسينغا يعتمد عليه تماماً، فانقضَّ على لوتِّي الوحيد ولم يبق على انقضاء الوقت الإضافيٍّ سوى دقيقتَيْن.

فعل لوتِّي الشَّيء الوحيد الذي يستطيع فعله؛ أن يندفع إلى الأمام ويُسقط ماسينغا من قدميه قبل أن يتمكن هذا المهاجم من تسديد الكرة. تلقَّى لوتِّي على فعلته -مثلما كان يعرف- بطاقةً حمراء. أدَّت مجازفته، بالطَّبع، إلى إنقاذ الفريق من هدف ثانٍ مُحقَّق، وأبقى الفرصةَ متاحةً أمامنا، من الناحية النظرية على الأقل، لتحقيق التَّعادل.

ولكن، كلا. لم نتمكَّن البتة بعد ذلك، وقد دبَّت الفوضى في صفوفنا، من تهديد مرماهم، فغادرنا أرض الملعب لا مهزومين فحسب، على يد رجل لم نتوقع أن نراه في المباراة البتة، وإنَّما مدركون أيضاً أنَّ لاعبنا الأثمن، ماسيمو لوتِّي، سوف يُحرم بالتأكيد من اللعب مبارتَيْن متتاليتَيْن (وهي النَّتيجة التلقائيَّة للحصول على بطاقة حمراء) ومن ثمَّ لن يتمكن من اللعب مع الفريق ثانية. ولا بُدَّ أن نجابه پسكارا، حينئذ، بدي يوليس في حراسة المرمى.

وهكذا سوف ينطلق ديربي أبروتسو، الجزء الثَّاني. كاستل دي سانغرو ضد پسكارا، ولكنَّ الموسم بأكمله هذه المرَّة على المحكِّ، بالنسبة إلى كلا الفريقَيْن، فبقَدْر ما نحتاجُ إلى الفوز كي نحظى بـ «الخلاص»، فإنَّ پسكارا

يحتاجه كي يحافظ على فرصة الصعود إلى دوري الدرجة الأولى، بعيدة الاحتمال، حيَّـةً لا تموت.

ولم تكن نتائج مباريات الأحد الفائت، من وجهة نظرنا، أسوأ مما كانت عليه. تمكَّن لوكيزي من التَّعادل مع تورينو، فأصبح يشاركنا التَّرتيب ذاته، وفاز تشيزينا وكوزنتسا على حدٍّ سواء.

كان وضعنا، بحلول شهر يونيو، على النَّحو التالي:

لوكيزي	41
كاستل دي سانغرو	41
تشيزينا	40
كوزنتسا	39
پاليرمو	32
كريمونييسه	32

كانت المرحلة النِّهائية بلا رحمة. خرج فريقان للتوِّ. ولن يتمكن من النَّجاة، من بين الفرق المتبقية، سوى فريقَيْن، في حين لن يتمكن فريقان من ذلك.

كانت الخُضرة قد صعدت مرَّة أخرى إلى طرف الجبل. ولهذا، كان المنظر من نافذتي هو المنظر ذاته في شهر سپتمبر، إلا أنَّني كنت هنا بدلاً من فندق كوراديتِّي. وفوقَ ذلك الشُّعور، لا شيء تغيَّر البتة. على الرَّغم من أنَّني أدركتُ فعليّاً أنَّ الكثير قد تغيَّر، وأنَّ التغيُّرات كانت غير قابلة للتحوُّل. وأدركت أيضاً أنَّ الفترة التي كانت، بطرائق عدَّة، الفترة الأكثر توتُّراً في حياتي، سوف تغدو، في غضون أقل من أسبوعين، مجرَّد ذكرى مؤثِّرة.

ولكنَّ الشُّعور الأقوى الذي استحوذ عليَّ في تلك اللحظة هو شعور الغضب المتجدِّد تجاه «لا سوتشتا». ففي محاولة يائسة لإنفاق آخر ليرة، غصباً عنه، على ما قد يبدو آخر موسم لنا في دوري الدرجة الثانية، أمر غرافينيا إضافة 2000 مقعد إلى الاستاد، فزادت سعته 25٪، الأمر الذي سوف يؤدِّي، بالطَّبع، إلى زيادة متساوية في الإيرادات.

وها هما الرَّجلان -غرافينيا والسيِّد ريتسا- اللذان سمحا لفريقهما باللعب، طيلةَ الأشهر الثلاثة الأولى من الموسم، دون أن يمتلك ملعبه الخاصَّ في موطنه، بعد أن كانا يقيسان نسب الربح والخسارة، ها هما الآن يتعهدان إضافةَ 2000 مقعد إضافيٍّ في غضون أسبوع، مستخدمين تقنيات بناء وموادَّ بدت كأنَّها خارجة للتوِّ من مجموعة «إريكتور»[174] التي شاعت في خمسينيَّات القرن العشرين.

ولكنَّ الأسوأ -الأسوأ من ذلك- قد حدث؛ أمر السيِّد ريتسا شخصياً بيع 25٪ من تذاكر مقاعد الاستاد إلى مشجِّعي پسكارا.

عادة ما يحصل الزوَّار على مبلغ رمزيٍّ -يتراوح عادة ما بين 2 إلى 5 بالمائة من إيرادات التَّذاكر المباعة- ولكن ليس أكثر من ذلك، فالسَّماح بدخول مزيد من مشجِّعي الفريق الخصم لا يخلق مشاكل أمنيَّـة فحسب، وإنَّما يحرم الفريق المضيف من أفضليَّـة «اللاعب الثاني عشر»، التي أثبتت نجاعتها بالنسبة إلينا في مباراتنا ضدَّ تورينو.

كان السيِّد ريتسا، في هذه الحال، قد باع إدارة پسكارا، دفعة واحدة (بسعر أعلى بكثير مما يجرؤ على تقاضيه من أهل كاستل دي سانغرو) أكثر من 2000 تذكرة، للمقاعد الواقعة في المدرَّجات الجنوبية المنحنية، التي تقع مباشرة خلف المرمى. ورُصدت خمسمائة تذكرة أخرى، مخصَّصة للمنصَّة الرئيسة، سوف تباع مُفردةً في پسكارا بأسعار أعلى بكثير.

هكذا، وبدلاً من الحصول على 10000 صوت، تهتف وتنشد وتغنِّي كأنَّها صوت واحد، سوف تكون هناك تلك المخلوقات البغيضة القادمة من البحر -أو من شاطئ البحر، على أي حال- محتشدة في مقاعدنا، كي تسخر من لاعبينا عالياً، وتتنابزهم بالألقاب، وربما ترشقهم بالزُّجاجات وبأشياء معدنيَّـة صلبة.

كانت ردَّة فعلي، التي أشعر بها حين أتأمَّل في هذه الأثناء تلك الأحداث أنَّها لم تكُن الأصوب؛ أنْ أُوقفَ في الشَّارع حتى أولئك الذين أكاد أعرفهم، مُندِّداً بفعلة السيِّد ريتسا بأقذع العبارات التي كنت قادراً عليها، معيداً ترديد تلك الشَّائعة التي سمعتها في الآونة الأخيرة: أنَّ السَّبب الحقيقي الذي حال دون سفر الرَّجل العجوز لحضور المباريات التي خضناها بعيداً عن الدِّيار هو خوفه من القتل على أيدي أعدائه.

أصدر غراڤينيا في الوقت ذاته بياناً، عبر جوزبِّه، قال فيه إنَّ بيعَ التَّذاكر الاستثنائيَّ إلى خصمنا قد تمَّ «لأسباب تتعلَّق بالروح الرياضيَّـة العليا التي يؤمن بها عميقاً»، ثم شدَّد على أنَّ الأمر لا يتعلَّق، كما يقول بعض المتشائمين، بدوافع الرِّبح والجشع.

ثم وجدت نفسي وقد انتابتني مشاعر قلق جديدة بشأن ياكوني، فلقد شُوهد، منذ الخسارة في ساليرنيتانا، وهو يحمل إنجيلاً معه في كل مكان، ويقتبس منه عند أدنى استفزاز، أو دون أن يحدث شيء من ذلك البتة.

فسألته: «لماذا الإنجيل الآن، فجأة، يا أزڤالدو»؟

نقرَ الأحرف الذهبيَّـةَ النّافرة على الغلاف، وقال: «كتب الله العاقبةَ هُنَا، يا جُو. كل شيءٍ بِقَدَر. أحاول بقراءة الإنجيل أن أسترق النظر من فوق كتف الله لمعرفة مَا قد كَتَبَه».

وأنا لا أستمدُّ السَّكينة من الكتاب المقدَّس أيضاً، ولكنَّني ابتعتُ لعبةً حاسوبيةً تدعى «كالتشيو الحاسوب الشخصي، الإصدار الخامس». كانت تبثُّ إحصاءات على مدار الدَّقيقة، حول كل فريق ولاعب في دوري الدرجتَيْن الأولى والثَّانية. حمَّلت اللعبةَ على حاسوبي المحمول فوراً، ثمَّ -مستخدماً خيارات التشكيلات والتَّكتيكات التي أظنُّ أنَّ كل مدير فنيٍّ يفضِّل استخدامها (وليست تلك التي قد أفضِّل استخدامها بنفسي)، واضعاً دي يوليس في حراسة المرمى، ومُستبعداً دانجلو الذي لم يتأهَّل لتجاوزه الحدِّ المسموح به من البطاقات الصَّفراء- جعلتُ الحاسوب يخوض مباراة كاستل دي سانغرو ضدَّ پسكارا.

مرحى! مرحى! لقد فزنا، 2-1، بهدفَيْن سجَّلهما پستلَّا وبونومي! خزَّنت المباراة في مجلَّد يسمح لي بإعادة تشغيل المباراة بقَدْر ما أرغب. لم تكن المباراة التي خاضها الحاسوب واقعيَّـةً إلى حدٍّ بعيد في تمثُّلها لطريقة اللعب فحسب، وإنَّما اشتملت أيضاً على مُعلِّقٍ، كان يعلِّق على الأحداث بنبرة مثيرة على نحو ملائم.

جلبتُ حاسوبي الشَّخصيَّ إلى العشاء بمطعم مارتشيلَّا ليلةَ الأربعاء، ثمَّ أدرتُ اللعبةَ، بعد أن رفعت الصوت، دون أن أكشف عن النتيجة، قائلاً لهم إنَّني قد «برمجتُها» على نحو واقعيٍّ.

وضع أزڤالدو الإنجيل، وانضمَّ إلى حشد اللاعبين المحدِّقين بشاشة الحاسوب الصَّغيرة.

تعالت صيحات الاستنكار حين كانت تُحتسَب ضدَّنا حالات تسلُّل، ثم علا هتافٌ حين عرقل جيجي مهاجم پسكارا عرقلة قويَّـة دون أن يحصل على بطاقة صفراء، ودوَّت جلبةٌ، عندما صاح المذيع بحماسة «غُوووووول!.. كاستل دي سانغرو هدف، پسكارا لا شيء».

بُرمجَتْ اللعبةُ لتشتمل على استراحة قصيرة بين الشَّوطَيْن. صرخ اللاعبون علـيَّ كي أتجاوزها وأمضي في عرض بقيَّـة المباراة. وفي النِّهاية، كان «الخلاص» على المحكِّ!

سرعان ما عادل پسكارا النتيجة في الشوط الثَّاني، فأخذ فوسكو يجادل مارتينو حول مَن يتحمَّل مسؤولية السَّماح للاعب خطٍّ وسط پسكارا بالاندفاع من الجناح الأيمن، الأمر الذي منحه فرصة إرسال تمريرة عرضيَّـة مثالية لأحد المهاجمين فوضعها في المرمى. أطلق دي يوليس سلسلة من الشتائم في وجهه.

ولكنَّ بونومي الافتراضي سوف يركل، ولم يبق على انتهاء المباراة سوى عشرين دقيقة، تسديدةً انطلقت بقوة من بُعْد نحو ثلاثين ياردة إلى داخل مرمى پسكارا. كنتُ على يقين أنَّ الهتاف المتعالي في مطعم مارتشيلًّا يمكن سماعه في أنحاء البلدة كافة.

توجه اللاعبون لتناول طعامهم بهمَّة وحماسة لم أشهد مثلهما منذ أسابيع، حتى إنَّ أزڤالدو أجل في تلك الليلة قراءةَ سفر الجامعة التي خطَّط لها.

مثلت الحقيقة الجلية في أنَّنا جميعاً على شفير الجنون، فلقد كان الموسم طويلاً جداً وشاقّاً جداً، والضَّغطُ الذي نتعرَّض له في تلك الأثناء ضغطاً شديداً.

عُومل كل شيء يتعلَّق بمباراة پسكارا بوصفه حكاية إخباريَّـة رئيسة في ذلك الأسبوع. ولذا، فقد نُشرت نيتجة مباراة حاسوبي تحت عناوين كبيرة غير طبيعيَّـة، ثمَّ تحوَّلت في تلك الأثناء من مجرَّد نتيجة ناجمة عن برنامج حاسوبيٍّ ثمنه 29 $ إلى «تحليلِ خبيرِ من طرف الكاتب الأمريكي». ورغم شعوري بفخرِ أنْ يعدَّني الإيطاليون، ولو على نحو غريب الأطوار،

خبيرَ كالتشيو، فإنَّ الدَّهشة انتابتني حين قرأت ما افترضتُ أنَّه مجرَّد تفكير أو مشاعر، وما قد قُلته على سبيل الافتراض.

أخبرت صحيفة «إل مسَّاجيرو»: « أننا سوف نفوز. سيكون نزالاً صعباً، ولكنَّ النَّصر سيكون حليف كاستل دي سانغرو. لا شك لديَّ في ذلك. لقد تغلَّبت الفرقة على آلاف المحن، ولسوف تشاهدون پيُّو ودانيلو يمدَّان يد المساعدة لزملائهم يوم الأحد. ستكون النتيجة النهائيَّة اثنان إلى واحد. سيسجِّل هدفَيْنا پستلَّا وبونومي. سوف نفوز. لا بُدَّ أن نفوز»!

من المفترض أنَّ نبرة صوتي قد غدت أكثر جزماً إلى درجة لا يمكن فيها تأويل كلماتي الختاميَّة بطريقة لائقة إلا بترجمتها إلى الإنكليزيَّة فحسب. «لا بُدَّ أن نفوز! قال الكاتب».

ربما أكون قد قلت ذلك فعليّاً. لم أعُد أعرف. لا أكاد أفصل حياة أحلامي عن لحظات يقظتي في النَّهار، فقد أتشبَّث بأظافري، لأسابيع، بحافَّة جُرف يُمثِّل ضبط النَّفس والعقلانيَّة، ولكنَّ قبضتي كانت تتراخى في النِّهاية.

كتبت صحيفة «إل مسَّاجيرو» عنِّي، قائلةً: «إنَّه يعاني، إنَّه أكثر مشجِّعي النادي حماسةً، حتى لو بدت نبرة صوته هادئة». ذهبت إلى أزڤالدو مباشرة حاملاً الصَّحيفة. قلت: «أترى؟ ربما كانت الأمور ستسوء أكثر. تخيَّل لو أنَّ حماستي قد ثارت»!

قلت ذلك على سبيل الدعابة. استراحة قصيرة ومرحة من الضُّغوط التي لا تُطاق والتي غشيت اللحظة. ولكنَّني كنت قد تأخرت فعلاً، فلا مزيد من الاستراحات بالنسبة إلى أزڤالدو.

جذب الصحيفة منِّي وقدَّها نصفين، ثم صاح: «أكاذيب. أكاذيب. دائماً ما تنشر الصحف الأكاذيب»! وضغط إصبعه على صدري: «لا تقل المزيد حول المباراة. إنَّه فأل سيِّيء أن تتحدَّث مسبقاً، ولا بُدَّ أنَّك مجنون لتقول إنَّ پستلَّا سوف يسجِّل هدفاً. پستلَّا رديء، لا قيمة له! أخبرتك بذلك في شهر أكتوبر، ولكنَّك لم تستمع. إنك لا تكفُّ عن ترديد پستلَّا، پستلَّا، پستلَّا، ولذلك فقد أشركته في اللعب حتى يرى العالم أجمع أنه رديء ولا قيمة له. ولهذا، كُفَّ عن الحديث عن پستلَّا».

«ولكنَّه سيلعب يوم الأحد، أليس كذلك»؟

«بالطَّبع، ولكن لأنَّ الآخرين بلا قيمة أيضاً»!

فقلت: «فوسكو وفرانكيتشيني بلا قيمة»؟

فصاح: «اغرب عن وجهي»!

أعتقد أنَّ ذلك كان مؤشِّراً واضحاً على أنَّ روسُّو وفرانكيتشيني لن يكونا ضمن التشكيلة التي سوف تفتتح اللعب، وكان مؤشِّراً واضحاً أيضاً على ألا جدوى من سؤالي؛ فإذا كان بستلَّا بهذه الدرجة من السوء، فكيف سيفتتح اللعب، إذاً، ضدَّ ساليرنيتانا؟

كم كانت هذه الأجواء مختلفة عن الأجواء المشمسة والاحتفاليَّـة التي أحاطت بأوَّل مباراة ديربي في پسكارا. لم أغضب وحدي، وإنَّما جميع أهالي كاستل دي سانغرو، جرَّاء القرار الذي اتخذته «سوتشتا» ببيع 25٪ من تذاكر المباراة إلى خصمنا. لم يُسمَع بذلك من قَبْل، بكل ما في الكلمة من معنى. فسألتُ ثمَّ سألت، وكان جواب الجميع الجوابَ ذاته: لم يسبق لأي «نادٍ»، في جميع المستويات، أن حاول جني أرباح إضافية من مباراة

مصيريَّـة، مثل هذه المباراة، سامحاً أنْ تمتلئ ربع مقاعد استاده بمناصري الفريق الضيف.

عبَّر كل لاعب -ويكاد هذا يشمل جميع اللاعبين- من الذين كانوا يخبرونني طيلة الموسم أنَّ «لا سوتشنتا» جشعة، ومخادعة، وغير كفؤة، عن وجهة نظرهم، مرَّة أخرى بالاقتراب منِّي قائلين إن كنتُ قد أدركت الآن ماذا قصدوا، كأنَّني لم أكُن متَّفقاً معهم منذ أمد طويل.

وأكد كل واحد منهم على ضرورة أن أتطرَّق إلى هذه المسألة في كتابي. وكان هذا الأمر مذهلاً، إذ لم يَعُد أحدٌ يتكلم على كتابي. بدا الأمر، منذ عدَّة شهور، كأنَّ الكتاب لن يُكتَب أبداً: كنت هنا لمجرد أنَّني كنت هنا؛ مجرَّد جزء من نسيج الموسم.

وأدَّى توافر العدد الكبير من التَّذاكر في پسكارا إلى فتح شهيَّتهم لطلب المزيد. لذا، فقد شاع على ما يبدو كلامٌ أنَّ «الپسكاريِّين pescaresi» سيأتون إلى كاستل دي سانغرو، ومن المتوقع أن يقتحموا بكل بساطة بوَّابات الاستاد، إلى درجة أنَّ سيارات الشرطة المحلية، التي ترتفع فوقها مكبِّرات الصوت، قد جابت الشوارع، طيلة ثمانٍ وأربعين ساعة، تردِّد الرسالةَ ذاتها مرات ومرات: «إن كنت لا تمتلك تذكرةً، فلا يتوجب عليك القدوم إلى كاستل دي سانغرو». ولسوف يكون عدد كبير من شرطة مكافحة الشَّغب متاحاً على الفور، لإلقاء القبض على المخالفين أوَّلاً، ومِن ثمَّ السَّماح لسلطات التَّحقيق بطرح الأسئلة لاحقاً.

وكانت المسألة أكثر من مجرَّد اهتمام نظريٍّ، بالطَّبع، أنَّ وضع پسكارا على المحكِّ، في هذه المباراة، على شاكلتنا نحن تماماً. فلقد وضعتهم النقاط الأربع والخمسون التي حصلوا عليها، على مقربة من فريقَيْن متعادلَيْن

في عدد النقاط الموجبة لتبوُّؤ المركز الرَّابع والأخير المُؤهِّل للصعود، وهما ليتشه وجنوا اللذان حصل كل منهما على سبع وخمسين نقطة. فإذا خسر هذان الفريقان وفاز علينا پسكارا، فإنَّه سيتأهل إلى المباراة النهائيَّة لهذا الموسم، ويحظى بفرصة حقيقيَّة للصعود إلى دوري الدرجة الأولى. الشَّيء الوحيد الذي بات أكيداً هو أنَّ التَّعادل سوف يقضي على آمال كلا الفريقَيْن؛ فلا بُدَّ حينئذ أن يُجبَر أزڤالدو، للمرَّة الأولى والوحيدة طيلة الموسم على أن يسعى إلى الفوز بكل ما أوتينا من قوة، مهما كانت شدَّة مقاومة غرائزه المحافظة لذلك.

•••

أعلنت «سوتشتا» ليلةَ الخميس أنَّه لم تبقَ سوى ستمائة تذكرة متاحة، بما في ذلك المقاعد التي أُضيفتْ حديثاً. ستباع في مكتب الفرع (المجاور لمقرٍّ «سوتشتا»، الذي يستطيع المرء دخوله دون الحاجة إلى صعود ثلاثة طوابق من السلالم) في الساعة 9 صباحاً. وكان الحدُّ المقرَّر في اليوم التالي: تذكرتين لكل زبون، والدَّفع نقداً، من فضلكم.

بدأ النَّاس يحتشدون عند الباب قبل منتصف الليل، فامتدَّت طوابيرهم لمسافة طويلة طيلة الليل على الرَّغم من أنَّ مطراً راح ينهمر دون انقطاع. كانوا هؤلاء هم زبدة المشجعين المخلصين: قد يكونون فقراء معدمين لا يستطيعون شراء تذكرة الموسم، ولكنَّهم مؤمنون حقيقيون بالمعجزة، ومستعدون لمكابدة المشقة لحضور هذه المباراة. وكان من الممكن أن يستوعبهم الاستاد جميعاً، لولا السيِّد ريتسا وغراڤينيا.

لم يعد يزعجني أنَّ الرجل العجوز لم يقُل «مرحباً salve» حين رآني. كنتُ فخوراً في الماضي بالأعداء الذين اكتسبتهم، وأستطيع الآن إضافة السيِّد ريتسا وغراڤينيا إلى هذه الفئة.

وليس أزفالدو، بالطَّبع، على الرَّغم من مشاحناتنا الكثيرة. فعلى الرَّغم من أنَّني لم أعده المدرَّب الألمعَ أو الأجرأ في إيطاليا، وعلى الرَّغم من شناعة غُبْنه الفاحش للاعبيه، فإنَّني احترمت نزاهته الشخصيَّـة، وكنت في غاية الامتنان لأنَّه كان نِعْمَ الجار، طيلةَ الموسم، على نحو استثنائيٍّ؛ فلن يضطر مدرِّب آخر في البلاد إلى تحمُّل غريب أمريكي، ربما كان متواضعاً بما فيه الكفاية عند قدومه، بَيْدَ أنَّه بات يظنُّ نفسه خبيراً في نهاية المطاف.

كان المشهد عند المكتب المؤقَّت لبيع التَّذاكر صباح الجمعة أعظم جلبة رأيتها في حياتي. وكل ما أستطيع قوله هو أنَّ حدوثها كان شيئاً جيداً في كاستل دي سانغرو. فالنَّاس هنا، على الأقل، يتمتَّعون بالذَّوق واحترام الآخرين إلى درجة تمنعهم من استخدام العنف حين يحاولون القفز إلى الأمام في الطابور.

ولكنَّه لم يكُن في الواقع طابوراً، بل حشدٌ يجيش ويمور، ولولا رقَّة هؤلاء المحتشدين وإيثارهم، لتعرَّضت صحَّة الموجودين في الطَّابور وحتى حياتهم إلى الخطر؛ وأكثر هذه الأخطار وضوحاً كان الدَّوس بالأقدام والاختناق.

بِيعَتْ بحلول الظَّهيرة آخر تذكرة. وكان أكثر من ألف شخص على الأقل، سواءً من أهل البلدة أو من عدَّة قرى مجاورة، من أولئك الذين أخلصوا في تشجيعهم للفريق على مدار سنين، قد رُدُّوا على أعقابهم خائبين. وصلت شاحنات التَّلفزة لتصوير الشَّغب، الذي ظنَّ كثيرون أنَّه سيندلع، وبثِّه على الهواء. ولكنَّ أهل كاستل دي سانغرو حافظوا في نهاية المطاف على كرامتهم، فتفرقوا ببساطة، شاعرين بخيبة أمل كبيرة،

ولكن ليس إلى الدَّرجة التي ستحوِّلهم إلى همج يغدون فُرجةً على شاشات التَّلفزة.

شعرتُ، بقَدْر ما يشعر اللاعبون أنفسهم، بأنَّ هؤلاء النَّاس يستحقُّون «الخلاص».

38
الرقص برشاقة والهجوم بمباضع

بزغ فجر السَّبت على نحو مثالي. سرتُ إلى الاستاد لحضور ما سوف تكون الحصَّة التدريبية الأخيرة قبل أن نعلم مصيرنا.

وقد يجلب لنا الفوز على باري يوم 15 يونيو -من النَّاحية الحسابيَّة- النقاط الضروريَّة، لو صبَّت النتائج الأخرى في صالحنا، بَيْدَ أنَّ اللاعبين قد أجمعوا رأيهم على أنَّنا إن لم نستطع هزيمة پسكارا على أرضنا، فلن نحظى بفرصة التغلُّب على فريق أشد منه قوة؛ فريق باري الذي مازال يكافح للعودة إلى دوري الدرجة الأولى، والذي سيلعب، حينئذ، أمام جمهوره المقدَّر بـ 60000 مشجِّع.

ولذا، فإنَّ موسمنا سينتهي، لأسباب عمليَّة، في اليوم التالي. فبحلول الوقت الذي سوف يجتمع فيه الفريق هنا ثانيةً، فإنَّ الأمل الذي كان يحدونا طيلة السنة سوف يحلُّ مطرحه الفرح أو اليأس.

لم يَبْدُ الاستاد، في حدٍّ ذاته، أفضل مما بدا عليه. والهواءُ النظيف والنقي، الذي تمتاز به كاستل دي سانغرو، قد عاد. وكان عشب الملعب قد اخضرَّ ثانيةً أخيراً، أخضرَ نضراً، ولمعت الشَّمس فوق أسطح المدرج المعدنيَّة المدهونة حديثاً، فبدا المكان برمَّته كأنَّه جوهرة. اليوم رائق جداً، ولكنَّ المشهد سوف يكون صاخباً يوم غدٍ. انتابني شعور بألم حادٍّ جداً، حين أدركتُ أنَّ هذا الصباح هو آخر صباح يوم سبتٍ سوف أقضيه هنا، فأخذتُ نَفَساً سريعاً.

تمشيَّتُ في أواخر العصر طويلاً عبر البلدة، ورأيت كثيراً من الذين عرفتهم. كانت أيدي معظمهم ترتعش من التوتُّر. اقترب منِّي كهل لا أعرفه. أخبرني بلهجة تمزج بين الإيطالية القاعدية والعامية المحلية تدعمها إشارات كثيرة أنَّه لم يشعر بمثل هذا الخوف منذ نصف قرن. ليس منذ الحرب، حين كان يستطيع سماع قدوم الطائرات الأمريكيَّة، فعرف بأنَّ القنابل القاتلة سوف تسقط ثانيةً، ولا مكان للاختباء.

وصل كريستيان، في تلك الليلة، للعمل بمطعم مارتشيلَّا حاملاً نحو 500 قرص ڤاليوم، عيار 500 ملليغرام. قال إنَّه قد حصل عليها من «طبيب صديق». كانت، بالطَّبع، لاستخدام الجمهور فحسب.

نصَّت تعليمات الطَّبيب، كما ترجمها كريستيان على الأقل، بأخذ قرصَيْن الليلةَ قبل النَّوم، وقرصَيْن صباحَ الغد عند الاستيقاظ تماماً، وقرصَيْن قبل الغداء، ثمَّ ثلاثة أقراص عند الساعة 3 مساءً، قبل ساعةٍ من بدء المباراة، وقرصٍ إضافيٍّ حين تنطلق المباراة، وآخرِ قرصَيْن، بصرف النظر عن النتيجة، عند انتهاء الشَّوط الأوَّل.

سيستهلك أشخاص لا خبرة لديهم في التَّعامل مع المهدِّئات، ستِّينَ ملليغراماً من الفاليوم، في غضون أربع وعشرين ساعة. فأخبرت كريستيان أنَّ الجرعة عالية بعض الشَّيء، ولكنَّه سخر منِّي.

قال: «أنت لا تعرف يا جُو؛ لا بُدَّ أن نحصل على السَّكينة من الأقراص وإلا مِتنا بانفجار قلوبنا».

ثمَّ سلَّمني جرعةَ الاثنَي عشرَ قرصاً التي كان يوزِّعها على الأصدقاء الآخرين.

«لا تبدو بخير، يا جُو. أعتقد أنَّك تحتاجها».

بالنظر إلى الصور الفوتوغرافيَّـة التي التقطُّها في يوم المباراة، وجدتُ أنَّ كريستيان كان على حقٍّ: لم أبدُ بخير، ولم أشعر بخير، حتى بعد أن أخذتُ قرصَي ڤاليوم قبل وقت النَّوم، واثنَيْن آخرَيْن عند الاستيقاظ -على الرَّغم من أنَّني لم أنم أكثر من عشرين دقيقة متواصلة- فلقد شعرت بتوتُّر وخوف غير مريحَيْن.

وكان أزڤالدو قد أخبرني مسبقاً أنَّه، نظراً إلى عدم تأهُّل دانجلو، علاوةً على لوتِّي، فإنَّه عازم على إشراك ريميديو بدلاً من أنطونلُّو مكان دانجلو. إنَّها ظلال مباراة تورينو! كان هذا جنوناً محضاً، إلى درجة أنَّني لم أتمكَّن من التَّفكير في الأمر. دي يوليس في حراسة المرمى الذي يحمي ريميديو مَيْمَنته ضدَّ جيامپاولو، مهاجم پسكارا، الذي سجَّل حتى الآن ستَّة عشر هدفاً في هذا الموسم، واضعاً إياه في المرتبة الرَّابعة في قائمة الهدافين. في حين سنحاولُ التَّسجيلَ في شباك مورغان دي سانكتيس، البالغ من العمر عشرين عاماً، الذي تلقَّى للتوِّ عرضاً للانضمام إلى نادي يوڤنتوس في الموسم القادم!

تدبرتُ هذه العوامل عند الغداء، ثمَّ بلعتُ قرصَي ڤاليوم آخرَيْن. وكان جميع الموجودين في مطعم مارتشيلَّا يفعلون الشَّيء ذاته؛ بلع الأقراص وشرب كؤوس كبيرة من النَّبيذ وراءها. كان هذه التَّصرُّف غير معهودٍ، ولكنها حالة الهستيريا التي حرَّضت على ذلك كله. لن تسمح مارتشيلَّا لأحد بالمغادرة للمضيِّ في طريق الذَّهاب إلى الاستاد التي تستغرق عشر دقائق مشياً على الأقدام دون أن يكون قد تزوَّد بكأس من الغراپَّا على الأقل.

كان دانجلو، الذي يعتصر قلبَه الحزن لأنَّه لم يتأهَّل للمباراة، واقفاً إلى جواري بمطعم مارتشيلَّا. قال إنَّه لا يستطيع، كشيوعيٍّ، شرب الكحول، ولكنَّه حثَّني على تناول كأس ثانيةٍ من الغرابَّا، ففعلت، ثم قلت: «واحدة لكل هدف نسجله». بدا الأمر منطقياً.

كنتُ، في الساعة الـ 3 مساءً، بين آلاف الذين احتشدوا عبر البوابة. أتذكر شيئاً يتعلق بالساعة الـ 3 مساء، بالطَّبع! إنَّه وقت أقراص الڤاليوم الثلاثة التي تُؤخذ قبل المباراة.

كان الرُّواق المفضي إلى غرفة تبديل الثِّياب يضمُّ، بالإضافة إلى مكتب ياكوني، جناحاً خاصاً تستخدمه «لا سوتشتا» للتَّرفيه عن الضيوف المميَّزين. كان هذا الجناح المؤثَّث بصورة جذَّابة، والمفروش بالسَّجاد، مساوياً لأي جناح ضيافة رأيته في عالم الكالتشيو أبداً. أما اليوم، فتمتدُّ صينيَّات من المقبِّلات الطازجة على طاولات مغطَّاة بمفارش كتانيَّة بيضاء نقيَّة. وكانت بينهما طاولة تشتمل على بعض أجود الأنبذة والمشروبات الرُّوحية والخمور المُحلَّاة المتاحة في إيطاليا.

فتحتُ الباب المؤدِّي إلى الجناح، لقضاء حاجتي، في الساعة الـ 3:05 مساءً. كان يضمُّ نحو اثني عشر رجلاً. عرفتُ رئيس نادي پسكارا من صورته المنشورة في الصحف. وعرفت غراڤينيا وماريا تريزا اللذين اختارا تنظيم هذه الحفلة دوني.

فقلتُ: «الحمَّام il bagno»، مشيراً إلى حمَّام الرِّجال في الطريق القصيَّة مِن الجناح، ثمَّ سرت صوبه. خرجت من الحمَّام، وأنا في حاجة إلى شيء أشربه لأبلع أقراص الڤاليوم الثَّلاثة، فذهبت مباشرة إلى الطَّاولة التي عليها زجاجات الشَّراب. لم تكن لدى غابرييل أو ماريا تريزا أي رغبة

واضحة في تقديمي إلى ضيوفهما. لفتت انتباهي زجاجة شراب يُدعى «فيرنيت برانكا»، لعلَّها خمرٌ مُحلًّى أو فاتح للشهية أو مهضِّم، ولا أعرف صراحةً ما الغاية من شُربه أصلاً. كنتُ قد شربت كأساً من هذا الشَّراب ذات مرَّة، رفقةَ طبيب فريقنا، في أحد الفنادق التي نزلنا فيها. كان قد أوصى به بشدَّة.

ومع ذلك، هل ثمَّة ما هو أفضل من كأس «فيرنيت برانكا» أشربه مع أقراص الڤاليوم الثَّلاثة؟ حسناً، ربما الماء على سبيل المثال. كان شراب «فيرنيت برانكا» لاذعاً وحارقاً، فدمعت عيناي، ثمَّ سعلت. علمتُ لاحقاً أنَّ نسبة تركيز الكحول فيه كانت 40٪.

همهمت «معذرةً» باتِّجاه غراڤينيا وماريا تريزا، ثمَّ غادرت الجناح، مومئاً برأسي إليهما بما أملتُ أن يكون على الأقل قَدْراً يسيراً من الرقَّة، قائلاً: «حظاً سعيداً In bocca al lupo»، ثمَّ توجَّهت صاعداً إلى مقعدي في منصَّة الشَّرف.

وحين دخل الفريقان أرض الملعب، راح 2000 من مأفوني پسكارا الذين سُمح لهم بالدُّخول إلى الاستاد -استادنا- بقذف مشاعل أطلقت دخاناً أزرق. الأزرق! لون فريقهم! ريتسا، ذلك الوغد الجشع.

فكَّرتُ لحظةً أن أذهب إليه -كان جالساً على بُعْد نحو عشرين ياردة عن يميني- وأخبره بالأفكار التي خطرت ببالي عنه وعن علاقاته بمنظَّمة «غامورا» الإجراميَّـة وناديه الذي ينخره الفساد نخراً وزوج ابنته المتورِّط في تهريب المخدِّرات وربما بعض أشياء أخرى عن التشكيلة التي اختارها ياكوني وتكتيكاته أيضاً.

وقبل أن أهمَّ بذلك، على أي حال، بدأ مشجِّعو پسكارا في المدرَّجات الجنوبيَّـة المنحنية، يتصرَّفون بأسوأ طريقة توقعت أنَّهم سيقدمون عليها. أخذوا، قبل بداية المباراة، بقذف الزُّجاجات لتهشيم شاشة «پلكسيجلاس»[175] الشَّفافة، المنصوبة أمام القسم الذي يوجدون فيه، على الرَّغم من أنَّ ذلك قد أدَّى إلى تشويه الصورة المعروضة أمامهم. ولكن، ما الذي يُرتجى من أولئك الحمقى؟ فالتَّخريب هو كل ما أرادوه. تدمير أكبر قدر ممكن من الاستاد، في حين يحاول فريقهم البائس والمتردِّد القضاء على آخر أمل لنا في «الخلاص».

«الخلاص»! قفز المصطلح مخترقاً غشاوة الڤاليوم كما يخترق فنار المنارة الضباب البحري الكثيف. اِنسَ ريتسا. اِنسَ غراڤينيا. اِنسَ المعتوهين الوضيعين القادمين من پسكارا. فلقد كانت هذه المباراة من أجل «الخلاص»، ولن أختبر تجربةً أخرى مثلها، بصرف النظر عن النتيجة، ما دمتُ حياً.

تسلَّمنا زمام القيادة منذ البداية على نحو مدهش. بدا فريق پسكارا بطيئاً ومملَّاً، كأنَّ دوري الدرجة الأولى لا يلوح أمامهم البتة. بدأنا، بعد الدقائق الخمس عشرة الأولى، بالثِّقة في أنفسنا قليلاً، فاندفعنا مهاجمين، ثم سدَّد تونينو مارتينو، في الدقيقة السَّادسة عشرة، واحدةً من أفضل تسديداته طيلة الموسم، ولولا أنْ صدَّ دي سانكتيس الكرةَ، كما يليق بحارس سيلتحق بنادي يوڤنتوس، لدخلت المرمى. وقذف تونينو، بعد دقِيقتَيْن، تسديدةً قويَّـة صوب المرمى. لم يتمكنِ دي سانكتيس من صدِّ هذه الكرة، ولكنها ارتطمت بالعارضة الأفقيَّـة -ربما لأنَّها كانت أعلى من المطلوب بسنتيمتر واحد- فارتدت، ليستمرَّ اللعب.

وعلى الرَّغم من ذلك، فإنَّ الحضور الأقوى كان يهدِّد المباراة. كان ذلك هو الحكم، ترينتالانغه التُّوريني. لم يكن واضحاً تحيُّزه لأي من الفريقَيْن، ولكنَّ ترينتالانغه كان رجلاً لم يُحكِم طيلة تسعينيات القرن العشرين إلا مباريات دوري الدرجة الأولى. وكان اتِّحاد الكرة الذي أدرك مدى أهميَّة هذه المباراة، قد أسند إدارتَها إليه.

بدا واضحاً منذ البداية أنَّه عازم، في المقام الأوَّل، على إثبات أنَّه، كحكم معتاد على دوري الدرجة الأولى، سيحكم بقسوة على أي انحرافات ملموسة عن قوانين اللعبة يمارسها اللاعبون الذين يعتقد أنَّهم ليسوا على ذلك القَدْر من البراعة.

منح جيجي بطاقة صفراء في غضون خمس دقائق. بدا الأمر تحذيراً عاماً أكثر من كونه عقاباً على مخالفة معيَّنة، مثلما حصل بعد خمس دقائق، حين منح جيامپاولو بطاقة صفراء. وحين احتجَّ لاعب خطٍّ وسط پسكارا، منحه ترينتالانغه بطاقةً صفراء أيضاً.

وقُبيل نصف الساعة الأولى، وقعت أوَّل لحظة لا تُنسَى من المباراة. تلقَّى سپبنيسي تمريرة طويلة، فمرَّرها برأسه إلى پستلَّا الذي اندفع بحرية عبر قلب دفاع پسكارا، فبدا كأنَّه قد أوجد له ما وصفته إحدى الصحف في اليوم التالي بـ «حفرة واسعة على نحو مذهل»، ثم قذف پستلَّا الكرة مستقيمةً وبدقَّة، من مسافة تقلُّ عن عشر ياردات، فدخلت الشِّباك، متجاوزة دي سانكتيس الذي عجز عن صدِّها.

تقدَّمنا، 1- صفر، بهدف سجَّله پستلَّا «الذي لا قيمة له». أحببت الرَّجل كثيراً -فلقد كان لاعباً من الطراز الأوَّل، وظل كذلك حتى حين ذاق الأمرَّين خلال هذا الموسم الكابوسيِّ تماماً- إلى درجة أنَّني كنت فرحاً

من أجله أكثر من فرحي لنفسي. ولكنَّني كنت في غاية الفرح من أجل نفسي -ومن أجل الجميع- أيضاً.

ثم أضاع جياميّاولو الكرة، بعد دقيقتَيْن، في خضمِّ هجمة مرتدة، فارتكب خطأً على الفور بعرقلة أحد اللاعبين من الخلف. هرع ترينتالانغه نحوه، وقبل أن يتمكن من الوقوف على قدميه، لوَّح له بالبطاقة الصَّفراء، ومن ثمَّ أخرج له البطاقة الحمراء؛ فهذه هي المرَّة الثانية التي يحصل فيها جياميّاولو على بطاقة صفراء في المباراة. طُرد جياميّاولو من المباراة!

حُرم پسكارا من هدافه الأوَّل، وسيضطر إلى اللعب بعشرة لاعبين الخمسَ عشرة دقيقةً المبتقية على انتهاء الشوط الأوَّل، والشَّوطَ الثَّاني من المباراة. تمثَّلت ردَّة فعلهم الفوريَّـة في التَّشاجُر فيما بينهم، ومن ثمَّ اللعب بطيش، فاضطر ترينتالانغه إلى معاقبتهم ببطاقتَيْن صفراوَيْن أُخريَيْن في غضون خمس دقائق.

سمح مدافعو پسكارا، الذين مازالوا يتناقرون، لبونومي بقذف تسديدة وُصفتْ في اليوم التالي على أنَّها «صاروخ»، فلم يحرمنا من مغادرة أرض الملعب، عند انتهاء الشّوط الأوَّل، متقدّمين 2- صفر، إلا الطريقة المدهشة التي صدَّ بها دي سانكتيس الكرة.

مضى على بدء المباراة خمسٌ وأربعون دقيقة، ولا يفصلنا عن «الخلاص» سوى خمس وأربعين دقيقة أخرى فحسب. ولكنَّ فيضاً من الخوف عمَّ قلبي عند انتهاء الشَّوط الأوَّل.

لم تُختَبر حلقتا ضعفنا، ريميديو ودي يوليس، بعد. وعلى الرَّغم من أنَّ فريق پسكارا كان يلعب بعشرة لاعبين، فإنَّهم عازمون على الهجوم بشراسة أكثر مما كانوا عليه، فهم بحاجة إلى هدفين، وليس واحداً فحسب، لإبقاء جذوة أمل الصُّعود مشتعلة.

توجَّستُ خيفةً من قدرتنا على منعهم من التَّسجيل. ولكنَّني توجستُ، أيضاً، من قدرتنا على التسجيل من جديد. ساءت هذه المخاوف، حين استبدل المدرِّب الفنيُّ لفريق پسكارا، عند بدء الشوط الثاني، أكثر مدافعيه سلبيةً بمدافع أكثر عدوانيةً يدعى كولونيلُّو الذي كان قد لعب فعليَّاً لصالح كاستل دي سانغرو خلال آخر موسمَيْن للفريق بالفئة الثانية في دوري الدرجة الثالثة.

وفي الوقت ذاته -وهذه مسألة عصية على التَّفسير دون شك، فربما كان مارتينو، صاحب الخبرة الطويلة، أفضلَ لاعبينا خلال الشوط الأول- أخبر ياكوني تونينو أنَّ وقته قد انتهى، ثمَّ أدخل كريستيانو، الموهوب العصبيَّ المزاج، عوضاً عنه.

هكذا بدأت مرحلة من المباراة وصفتها صحيفة «إل مسَّاجيرو» أنَّها المرحلة التي كان فيها فريق پسكارا «يرقص برشاقة ويهاجم بمباضع». أثبت دي يوليس جدارته، وكذلك ريميدو، ولكن إلى متى سيصمدان؟ أما خطُّ وسطنا فقد كان يفتقر إلى وجود مارتينو افتقاراً شديداً على نحو واضح.

كان الوقت يمر، على أي حال، ومزيد من النَّاس حولي ينظرون إلى ساعاتهم، كي يعرفوا عدد الدقائق المتبقية، فاستادنا غير مُجهَّز بساعة كبيرة. كنَّا، على نحو مدهش، نلعب في الدقائق الخمس عشرة الأخيرة، فبدا تحقيق «الخلاص» ممكناً!

ولكنَّ ياكوني، لسوء الحظِّ، أمر الفرقة كلها، في هذا الوقت، أن تلعب ضمن تشكيلة «الخندق il bunker»، وهي أكثر التشكيلات الدفاعيَّة تطرُّفاً، مما يعني أنَّنا لن نحظى بفرصة شنِّ هجمة مرتدة عابرة قد تخفِّف الضغط عن كاهل دفاعنا بعضَ الوقت.

ولطالما شاهدت على امتداد الموسم إخفاق هذا النهج الدفاعي، لا حين يطبّقه ياكوني فحسب. فالحقيقة البديهيّـة لكرة السلّة الأمريكية القائلة إنَّ أفضل وسيلة للدِّفاع هي الهجوم الجيد، لا تنطبق بأي حال من الأحوال على الكالتشيو، ولكنَّهم ينظرون إلى هذه العقيدة، في معهد إعداد المدرِّبين بكُفِرْتشَانُو، بوصفها هرطقة.

وحين بدأ مزيد من لاعبينا بالاحتشاد قريباً من مرمانا على نحو لم نعهده من قبل، أخذ فريق پسكارا بالتَّسديد بوتيرة متكرِّرة وسريعة ودقيقة. وفي الدقيقة السَّابعة والسَّبعين، استحوذ مهاجم بارع، يُدعى دِيْ جيَانْتَالِّهْ، على كرة مرتدة ركلها تِشيي على نحو غير ملائم، فسدَّدها في المرمى بعد أن تجاوزت دي يوليس، لتصبح النَّتيجة 1-1، وهي النَّتيجة التي كانت بمثابة حُكم الموت بالنسبة إلينا، ولكنها منحت پسكارا فرصةً لمدَّة خمس عشرة دقيقة للفوز بحياة جديدة.

كتبت صحيفة «إل كورِّيره ديلُّو سپورت»: «عمَّ الخوف ثانيةً. كان كابوس الهبوط إلى الفئة الأولى من دوري الدرجة الثالثة، في هذه اللحظة، كابوساً عظيماً».

ولكن، بعد ثلاث دقائق -ولم يبقَ إلا عشر دقائق على نهاية المباراة، والتوتُّر على أشدِّه، إلى الحدِّ الذي هدَّد بحدوث اضطراب جماعيٍّ في نبضات القلب- حاور كلاوديو بالكرة، بالغاً مسافةً تبعد عشرين ياردة عن مرمى پسكارا، ثمَّ قذف، من تلك المسافة، أعنف تسديدة ركلها في حِياته.

بدا مورغان دي سانكتيس في تلك اللحظة كأنَّه تمثال لعرض الأزياء. تخطَّته الكرة كأنَّها أُطلقت من قاذف صواريخ.

هدفٌ سجَّله كلاوديو -وُصف لاحقاً أنَّه هدف أوروبيٌّ eruogol، أي أنَّه جدير بإحدى مباريات «كأس الأبطال»، بين أي فريقَيْن من الفرق الأقوى في القارَّة- ولكنَّه كان بالنسبة إلى معظمنا: «المعجزة الثانية لكاستل دي سانغرو».

وصفته صحيفة «إل مسَّاجيرو» أنَّه «هبة من الله»، وعلى الرَّغم من أنَّ اسمه ربما لم يظهر في إنجيل ياكوني، فإنَّ أحداً لم يعترض في كاستل دي سانغرو على ذلك، لا حينئذ، ولا في أي وقت بتاتاً.

سمح پسكارا أن تمرَّ المباراة بلا وقائع تُذكَر، بعد أن دبَّ في صفوفه اليأس من إحراز هدفَيْن إضافيَّيْن خلال الدقائق العشر المتبقية.

بَيْدَ أنَّ أنصارهم الموجودين في المدرَّجات المنحنية الجنوبيَّـة قد جُنَّ جنونهم. لم يعودوا قانعين بتهشيم شاشة «پلكسيجلاس» الموجودة أمامهم، فحاول المئات منهم إزاحتها من مكانها، قاذفين حطام الشَّاشة في الوقت ذاته إلى أرض الملعب. هرعت الشرطة ملوِّحة بهراواتها من كلا الجانبَيْن، فنشب عراك واللحظات الأخيرة من المباراة على وشك أن تنقضي.

لم نكترث تماماً لما حدث. لم نكترث، حين أطلق ترينتالانغه صافرته، بعد ثلاث دقائق من الوقت الإضافي، إلا بنتائج المباريات الأخرى. أُعلنت تلك النتائج حتى قبل مغادرة لاعبينا أرض الملعب، وهي كل ما أملنا في الحصول عليه. خسر تشيزينا في إمپولي، ولم يتمكن كوزنتسا إلا من التَّعادل في پادوفا.

أدرك الجميع الأهميَّـة الحيوية لهذه النتائج على الفور.

حصلنا على أربع وأربعين نقطة.

وحصل كوزنتسا وتشيزينا على أربعين نقطة على حدٍّ سواء.

وبصرف النظر عما قد يحدث لنا في باري، فإنَّهما لن يستطيعا اللحاق بنا.

قُضي الأمر. لقد فُتحت بوابات عَدْنٍ، فدلفنا راقصين، وكلاوديو بونومي يتقدَّم الطريق.

قُضي الأمر. وجلبت النِّهاية، مثلما يحدث في فيلم طويل، طويل، دموع الفرح والرَّاحة إلى جميع أولئك الذين حظوا بفرصة مشاهدته منذ البداية.

قُضي الأمر. أهدى اللاعبون «الخلاص la salvezza»، على الفور، وبالإجماع، إلى پيُّو ودانيلو، اللذين من المحتمل أنَّهما قد وصلا إليه قبلهم جميعاً، وبطريقة أكثر ديمومة.

قال لي روبيرتو ألبيرتي في غمرة البهجة الصاخبة التي عمَّت غرفة تبديل الثِّياب: «في الأسبوع القادم يا جُو، وبعد عودتنا من باري، سوف يذهب بعضنا، نفرٌ قليل منا، في رحلة خاصَّة إلى قبرَي پيُّو ودانيلو لإلقاء تحيَّـة الوداع الأخيرة. ونرغب في أن تأتي معنا».

لا أظنُّني قد شعرت بمثل هذا التَّشريف في حياتي قطُّ.

39
النِّهاية المُعجِزة

أن أستيقظ متحرِّراً من الخوف، متحرِّراً من الريبة المزعجة، متحرِّراً من الحاجة إلى العيش على الأمل؛ كانت هذه تجربة لم أختبرها مِن قَبْلُ في كاستل دي سانغرو. ظننتُ أنَّني قد أتعلَّم، بعد فترة من التأقلم، كيف أحبها. ربما كانت هذه الطريقة التي عاش بها النَّاس العاديُّون.

حسناً، ربما لم يكن الأمر كذلك. فلم يعش الناس العاديون، ومثل تلك السَّعادة تغمرهم. ولم يعيشوا في بلدة مزدانة من طرفها حتى نهايتها، ومن فوقها حتى تحتها، ومن داخلها إلى خارجها، بالأحمر والذهبي. ولم يبددوا اليوم بأكمله -على شاكلة سكَّان كاستل دي سانغرو يومَ الإثنين، وعلى شاكلتي أنا أيضاً في ذلك اليوم- في ذَرْع البلدة من طرف إلى طرف جيئة وذهاباً، تحت سماء زرقاء صافية وشمس ساطعة، لا تحدوهم أي غاية سوى رغبة بعضهم في تحية بعض ومعانقة بعضهم يغمرهم الفرح. فليس من الطبيعيِّ أن يستمرَّ الناضجون في البكاء علانيةً في عزِّ الظَّهيرة.

كتبت صحيفة «إل كورِّيره ديلُّو سپورت»، قائلة: «لا يمكن للمرء تخيُّل مثل هذه النِّهاية ولا حتى في أحد أفلام هيتشوك».

وكتبت صحيفة «إل تمپو»: «كان فيلماً طافحاً بالفرح، والخوف، والنشوة. ولقد مرت أحداثُه ومشاعر الخوف تشل الجميع».

وقالت صحيفة «إل مسَّاجيرو»: «كان فيلماً ذا نهاية معجزة، تحقق بعد مأساةٍ وشجن وفضيحة ويأس»، فيلماً يستحقُّ حقاً عنوان: «أعظم حكاية رُوِيَتْ على الإطلاق».

ولا بُدَّ أنَّ الصحافة، في تناولها هذا الفيلم، قد رشَّحت «هبة الله» كلاوديو بونومي لإحدى جوائز الأوسكار.

رأيتُ كلاوديو برهةً يومَ الإثنين. كان في وسط البلدة رفقةَ زوجته الحامل التي كانت على وشك أن تلد أوَّل أطفالهما في غضون أسبوع.

فقلت لها: «مندهشٌ أنَّك لم تلدي الطِّفل يومَ أمس».

فاحمر وجهها خجلاً وهمست بشيء إلى كلاوديو. أخبرني: «تقول إنَّ النَّشوة قد جاءتها بالأمس حين سجَّلتُ الهدف، وليس المخاض».

ثمَّ تحدَّث كلاوديو بجديَّة قليلاً، وقال وهو ينظر إلى الحشود التي مازالت تتسكَّع في الساحة المركزيَّة: «لا بُدَّ أن تتذكَّر دائماً هؤلاء النَّاس يا جُو. لا كيف يعيشون في هذا اليوم فحسب، وإنما طيلة الأيام، بطريقة خاصَّة جداً. وسواءَ أفزنا، أم خسرنا، فلن يتغيَّر شيء البتة، فهم يحبُّوننا بالقَدْر ذاته، ذلك أننا بذلنا كل ما في وسعنا.

أنت لا تعرف، ولكن صدِّقني: لا بلدةَ إيطالية أخرى تعيش على هذه الشَّاكلة. سوف أغادر، فلقد لعبت آخر موسم لي في كاستل دي سانغرو، ولكنَّ قلبي سيظلُّ مُعلَّقاً بهؤلاء النَّاس هُنَا.

الشخصيَّة؟ أجل، لقد امتلكها الفريق، ولكنها تتجلَّى على نحو أوضح في كل يوم هنا في هذه البلدة. فالمعجزة «الحقيقية» لكاستل دي سانغرو، يا جُو، هي كاستل دي سانغرو نفسها.

لم أتمكَّن من قراءة الصحف، قراءةً متعمقة، إلا في وقت متأخر من ذلك اليوم، فأدركتُ أنَّنا قد فزنا كما تنبَّأتُ (أو، لمزيد من الدقَّة، كما تنبَّأت لعبة «كالتشيو الحاسوب الشخصي، الإصدار الخامس») تماماً. كانت النتيجة 2-1، وسجَّل هدفَيْنا بستلَّا وبونومي.

أحضـرتُ حاسوبـي الـشَّخصيَّ، فـي تلك الليلـة، استجابـةً للطَّلـب الجماهيريِّ، إلى مطعم مارتشيلَّا، وأعدت تشغيل المباراة لساعات. كانت النتيجة فوزنا، 2-1، في كل مرَّة، «كما يحدث في الأفلام».

وفي يوم الثُّلاثاء، كما يحدث في الحياة الواقعيَّـة، طرد پسكارا مديرَه الفني.

وكانت مراقبة التحوُّل السنوي للصَّفائح التِّكتونيَّـة tectonic plates من نقطة رَصْدٍ آمنة، واحدة من أغرب الأحاسيس التي اختبرتها في ذلك الأسبوع الجديد. الأفرقة الأربعة التي سوف تهبط إلى الفئة الأولى من دوري الدرجة الثالثة هي: تشيزينا، وكريمونييسه في الشمال، وكوزنتسا، وپاليرمو في الجنوب. أما الفرق التي ضمنت الصُّعود من الفئة الأولى بدوري الدرجة الثالثة إلى دوري الدرجة الثانية فهي: تريڤيزو من الشمال، وفيديليس أندريا من الجنوب، رفقةَ فريقَيْن سيُحدِّدهما نظام التَّصفيات ذاته الذي سمح لـ «المعجزة miracolo» الأصلية بالحدوث.

وسيهبط من دوري الدرجة الأولى فريق هيلاس فيرونا، وبيروجيا، ورجينا، بالإضافة إلى الخاسر في المباراة الفاصلة بين پِيَاتِشنْسَا وكاليغاري. والسؤال الوحيد الذي ظلَّ مطروحاً يتعلَّق بالأندية التي سوف تصعد لتأخذ مكانها. وحده نادي بريشَّا كان متأكِّداً من الصُّعود. أما إمپولي وليتشه وباري وجنوا فقد تبوَّأت المراكز من الثاني حتى الخامس، بالتَّرتيب، تفصل بعضها عن بعض نقطة واحدة. ولهذا، يحتاج باري إلى هزيمتنا كي يضمنوا لأنفسهم العودة إلى دوري الدرجة الأولى. أما التَّعادل فسوف يضعهم تحت رحمة نتيجة المباراة التي سوف تجري في جنوا.

وتُعَدُّ مقولة إنَّه لمن حُسن حظِّنا ألا يتوجب علينا السَّفر إلى باري على الرَّغم من حاجتنا إلى نقطة كي نفوز «بالخلاص»، تبسيطاً للأمر برمته واستهانةً بالموسم. اقشعرَّ بدني لمجرَّد التَّفكير في ذلك.

كُنَّا في غنى عن التَّفكير مرَّة أخرى في نهاية الموسم الكابوسيَّة تلك، والفضل يعود إلى كلاوديو وپستلَّا؛ وإلى إمپولي لهزيمتها تشيزينا، وإلى پادوڤا لتعادلها مع كوزنتسا. لم نسجل سوى تسعة وعشرين هدفاً، وهو المجموع الأدنى في دوري الدرجة الثانية، ولكنَّنا كسبنا حقَّ محاولة تحقيق مجموع أفضل من ذلك في السَّنة القادمة.

كنتُ أستطيع، في تلك اللحظة، العودة بكل بساطة إلى الدِّيار. فلن تكون مباراة باري ذات قيمة بالنسبة إلينا، ولم تكُن احتماليَّة الذَّهاب جنوباً، في رحلة طويلة أخرى بالحافلة، مغريةً البتة. وثمَّة، من جهة أخرى، بهجةُ قضاء بضعة أيام أُخر، في استرخاء مطلق، رفقةَ هؤلاء الرِّجال الاستثنائيين، الذين صنعوا فريقنا، والذين قد لا أراهم ثانيةً طيلةَ حياتي، بمجرَّد أن أرحل.

ناهيك عن أنَّنا سوف نذهب، في اليوم الذي يعقب مباراة باري، في رحلة لزيارة قبرَي پيو ودانيلو.

طفق اللاعبون يعودون إلى البلدة يومَ الأربعاء، بعد منحهم يوم عطلة إضافياً، وقد تباهى أغلبهم بارتداء ثياب جديدة في غاية الرَّوعة تعبيراً عن النَّجاح الباهر الذي حقَّقوه. كان كريستيانو، الذي تناوب طيلة الموسم على ارتداء بنطالَيْن من الجينز الأزرق، قد ارتدى فجأةً، من رأسه حتى أخمص

قدميه، ثياباً من صُنع كالڤِن كلاين. حتى إنَّ لوقا أَلبيري عادَ متشحاً بثياب من صُنع رالف لورين، بِقَدْر ما أمكنه رصيده في البنك على تحمُّل شراء مثل تلك النَّوعية من الملابس.

ولسوف يتقاضى الجميع، بالطَّبع، مكافآت إضافية مجزية من «لا سوتشتا» كجزء من مكافأتهم التعاقديَّـة جرَّاء فوزهم «بالخلاص». وكان ثمَّة سبب هذه المرَّة كي يأمل المرء باحتماليَّـة أن يدفع السيِّد ريتسا أموالاً في وقتها المستحق، فلقد حقَّقَ هو وغابرييل إنجازَ حياتهما الأعظمَ في الكالتشيو.

أعلن غراڤينيا، ليلةَ الأربعاء، بيعَ كلاوديو إلى تورينو، اعتباراً من 30 يونيو، لقاء 3 ملايين $. وكان هذا المبلغ أعلى سعرٍ دُفع ثمناً للاعب من كاستل دي سانغرو على الإطلاق، بعشرة أضعاف على الأقل. وقد تبيَّن، على الرَّغم من وساوس ريتسا، أنَّ دوري الدرجة الثانية هذا، لم يكن تجارةً بائرةً في نهاية المطاف.

وأعلن غراڤينيا أيضاً أنَّ ياكوني قد وقَّع على تمديد عقده لمدَّة سنتين إضافيَّين. وعلى الرَّغم من فرحة أهل البلدة بهذا الخبر، فإنَّ عدداً من اللاعبين قد أبدوا حماسةً أقل.

وكان ثمَّة آخرون، على شاكلة غويدو دي فابيو، لم تعنهم أي أخبار إضافية عن كاستل دي سانغرو. أخبرني في مأدبة العشاء التي أقيمت ليلةَ الأربعاء أنَّ عقده لم يُجدَّد، وأنَّ غراڤينيا لم يجد نادياً آخر يقبله، ضمن الأندية الأخرى التي تلعب في دوري الدرجة الثانية. هكذا، عُدَّ فابيو على الفور، وهو في الثانية والثلاثين، لاعباً مُستهلَكاً، وسوف يعود إلى اللعب في الفئة الأولى بدوري الدرجة الثانية، على الرَّغم من الدَّور المهمِّ الذي أداه كي ننال «الخلاص» (شارك في إحدى وثلاثين مباراة، واحتلَّ المرتبة الرَّابعة في

الفريق من حيث عدد الدقائق الملعوبة، وهو اللاعب الذي سجَّل هدف الفوز ضدَّ تورينو، وحصل على تقييم تراكمي بلغ 6,05 درجة).

أعربتُ عن دهشتي وأسفي الصَّادق، فلقد جسَّد غويدو، مثل أي لاعب آخر، عنصرَ «الشخصية carattere»، الذي لا يُمَلُّ من الحديث عنه، حتى في أشدِّ شهور الموسم كآبة.

فقال: «آهٍ، يا جُو. لا بأس. فلقد تلقَّيت مكافأة جيدة، لم أتوقَّع الحصول عليها؛ تشرَّفتُ في أن أكون عضواً في هذه المجموعة، التي تشتمل على أفضل رجال عرفتهم في الكالتشيو طيلةَ حياتي؛ ولسوف أنضمُّ في السَّنة القادمة إلى فيرمانا بالفئة الأولى بدوري الدرجة الثالثة، حيث سُعدت باللعب له في السَّنة السابقة قبل حضوري إلى هنا، وهي لا تبعد عن منزلي سوى خمسين كيلومتراً».

فقلت: «حسناً، ربما ليست بهذا السُّوء، ولكنَّني مازلتُ أشعر بالحزن الشديد لمجرد التفكير في أنَّك لن تكون هنا بعد اليوم».

«أرجوك، يا جُو! لا تُضيِّع لحظةً واحدة في مثل هذا التفكير. ألا تدرك مقدار السعادة التي تغمرني حين عرفتُ أنَّني لن ألعب ثانيةً تحت إمرة ياكوني»؟ ثمَّ دوَّى صوته بضحك مُجلجل، ولم ينتابني أدنى شك في أنَّه قصد ما قاله.

وعلى الرَّغم من أخبار رحيل اللاعبين وتجديد عقودهم -التي كانت في حدود النِّسبة الطبيعية المتعلقة بعشر شائعات لكل حقيقة- ورغم إحساسي بأنَّ حكاية جيجي والكوكايين لم تصل إلى فصلها الأخير بعد، فإنَّ هذا الأسبوع كان خالياً من أي توتر على نحو مدهش.

لم يكُن التَّدريب عادياً فحسب، وإنما كان اختيارياً. حتى إنَّ أزڤالدو لم يكن دائماً هناك. ذهبنا بالسيارة، ذات يوم، أنا وهو -وقد عدنا أفضل صديقَيْن، مرَّة أخرى، وأفضل جارَيْن- إلى بلدةٍ في إقليم مُولِيزِه، حيث خطا تِشيي وميكليني خطواتهما الأولى على الدَّرب الطَّويل والبيروقراطي ليغدوا لاعبَيْن مُجَازَيْن (قانونيَّيْن).

اعتذرتُ في الطريق على كل النَّقد الذي وجَّهته إليه، وعلى أي تعليقات قد تكون بدت كأنَّها عديمة الاحترام، وعلى جميع نصائحي غير المرغوب فيها.

فقال: «لا بأس أبداً. لقد كانت مفيدة في الغالب، فلقد جعلتني أفكِّر بكل ما قُلته، سائلاً نفسي، هل يمكن أن يكون على حق»؟

«وهل كنت كذلك»؟

«ولا مرَّة. ولكنها كانت مفيدة، لأنَّني بِتُّ أشعر في النّهاية بمزيد من الثِّقة في نفسي وخياراتي».

كان التَّدريب في ذلك اليوم، بالنسبة إلى تِشيي وميكليني، إعدادَ تكتيكات هجوميَّـة مختلفة، يمكن اختبارها في مباراة خُماسيَّـة. أُخذت المسألة برمَّتها على محمل الجد، وثمة رجالٌ متجهِّمون، يرتدون ربطات عُنق، يحملون أكواماً من الجداول البيانيَّـة والنَّماذج التفصيليَّـة المتَّصلة بألواح الكتابة. تساءلتُ عن مدى سوء الخطط التَّكتيكيَّـة التي قد لا تمنح المُرشح علامةَ النَّجاح، مدركاً أنَّ أزڤالدو لم يتغلَّب على هذه العقبة منذ أمد بعيد فحسب، وإنما اجتازها، بأمانٍ، عبر حقل الألغام المُمتد في مقر اتحاد الكرة بكُڤِرْتشَانُو. قِيْلَ لي، على أي حال، إنَّ واحداً من ثلاثة مرشَّحين

واعدين، على وجه التَّقريب، قد استُبعد عند هذا المستوى من الفحص.

ثم سُنحت لي الفرصة لأداءِ دوري في هذه العملية. لم تُعَد أي ترتيبات لحارس المرمى، وهكذا، تطوَّعتُ، حالماً بآخر أحلام المجد. ويا إلهي! هل أحببت ذلك أبداً!

أثارت كل تسديدة صددتها لحظةً من البهجة التي لا حدود لها. ليس لأنَّني لم أتخلَّ عن مراديَ الغريب فحسب، وإنما لاعتقادي أنَّ أدائي، بالنسبة إلى أمريكي يبلغ من العمر أربعة وخمسين عاماً، ولم يسبق له أن مارس اللعبة من قَبْل، كان يمكن أن يكون أسوأ. وفي نهاية اليوم، حين عفَّرني التُّراب وكُشطت ساقي، وانقضضتُ على نحو أفقيٍّ تقريباً، لأبعد كرةً مرتدةً من مسافة قريبة قبل انطلاق الصافرة النهائية، خطر ببالي أنَّني قد اختبرتُ على نحو عفويٍّ اللحظة الجسديَّة المثالية الأخيرة في حياتي. ولكنَّني شعرت، على أي حال، بحسرة شديدة لإعادة القفَّازَيْن المُستعارَيْن عند انتهاء المباراة.

كان أزفالدوا قد غادر مبكراً لاستلام جائزة في سولمونا قبل الانضمام إلى حفلة كبيرة على شرف الفريق بعد ذلك، فعدتُ بالسيارة رفقةَ ميكليني وتِشيي، اللذين نجحا في الاختبار على حدٍّ سواء.

قلت في السيارة: «هذه هي الحياة. لا أريد ترك اللعبة بتاتاً. أعتقد، كما تعلمان، أنَّ لي مستقبلاً».

فسألني ميكليني وقد ارتاب قليلاً : «كمدرِّب»؟

«كلا، كحارس مرمى. ربما أتمكَّن في الموسم القادم من أن أكون الحِارس الثاني في كاستل دي سانغرو».

فضحكا وتمنيا لي التَّوفيق. ولكنَّ تِشيي أضاف أنَّ الأمر قد يكون شديداً على أَنَايَ، بعد قضاء موسمي المتوتر نائباً لياكوني، أن أقبل النَّزول

إلى مرتبة أدنى، والاكتفاء بأداء دور لاعب احتياط، لا يُسمح له بانتقاد التّكتيكات أسبوعياً.

فقلت: «سأقوم بالتضحية من أجل هذه الفرقة».

أُقيمت حفلة ضخمة في تلك الليلة على شرف الفريق، نظَّمتها قرية باريا، الواقعة على ضفاف البحيرة، في حدود المتنزَّه القومي لإقليم أبروتسو. أقيمت الحفلة في الهواء الطَّلق، على مرجة كبيرة منحدرة، تعلوها فوانيس الكاز، تفضي إلى حافَّة المياه، مما دفعني إلى أن أقول إلى تِشيي: «إنها تُشبه حفلات غاتسبي».

فتلفَّت حوله حذراً، ثم غمزني وهزَّ رأسه قائلاً: «كلا، يا جُو. كثير من الأطفال يطلبون توقيع الأوتوغرافات، ولا يوجد عدد كاف من النساء الجميلات».

وما جعل تلك الحفلة مختلفة، أيضاً، تلك الخطابات المتنوعة التي أُلقيت في أثنائها. خطابات ألقاها غرافينيا وياكوني وكلاوديو ودي يوليس (الذي ظلَّ محبوب الجماهير أكثر من لوتّي) والكاتب الأمريكي lo scrittore Americano أخيراً.

لم يسبق لي أن ألقيت خطاباً بالإيطالية البتة، ناهيك عن إلقائه من فوق منبر مجهَّز بميكروفون وجمهور حيٍّ يقترب تعداده من ألف شخص، بيْدَ أنَّ الذي قلته كان نابعاً من القلب.

أخبرتُ الحضورَ أنَّ هذه السنة كانت أكثر سنة مميَّزة في حياتي. ولقد بِتُّ أحبُّ أبروتسو، على مدار هذه السَّنة، وأشعر أنَّ كاستل دي سانغرو كانت موطن روحي الحقيقي، ثمَّ بِتُّ أحبُّ كل لاعب من لاعبي فريق كاستل دي سانغرو.

وقلت في تلك الأثناء: «أزِفَ وقت رحيلي per me, e arrivata l'ora di partire». وعلى الرَّغم من أنَّ توقي الشَّديد للعودة إلى زوجتي وولدَي في أمريكا، فإنَّ الرَّحيل على وشك أن يفطر قلبي، إذ عرفتُ أنَّني لن أتمكَّن بتاتاً مرَّة أخرى من أن أكون شديد الالتصاق بمثل تلك المجموعة المدهشة من الرِّجال كمثل التصاقي باللاعبين الذين صنعوا فريق كالتشيو كاستل دي سانغرو.

وقلت إنَّني آمل كثيراً في أن يظلَّ أهل المنطقة، في السنوات القادمة، مشجِّعين أوفياء لكاستل دي سانغرو «في السراء والضراء in tempi buoni e cativi». ولا بُدَّ أن يتذكَّروا، بكل بساطة -في حال شعورهم أنَّ تشجيعهم قد بدأ يتذبذب- الأمريكيَّ الذي قدم في شهر سپتمبر، و«حافظ على إيمانه mantenuta fiducia» طيلة الموسم.

ولعلَّه كان ذلك المزاج -تَرْكِيَ حَذَري، واستنزاف مشاعري، وتفكيري في النهاية السَّعيدة فحسب- هو ما دفعني إلى أن أكون أقل انتباهاً في غضون نصف الساعة التي أعقبت خطابي، حين تقدَّم نحوي أحد اللاعبين وراح يُكلمني بهدوء. لم تهمني هويَّته بِقَدْر ما همَّني قوله.

«شكراً، يا جُو، كان ذلك لطيفاً».

«على الرَّحب والسَّعة. كان ذلك مُستحقاً».

«أجل، ولكن يتوجب عليك أن تتعلَّم، يوماً ما، كيف تتحدَّث بالإيطالية حقاً».

فقلتُ بغضبٍ مُفتعَل: «اغرب عن وجهي Vaffa»، ولكنَّه سرعان ما وضع يده على ذراعي.

ثم قال: «أَسْدِ إلى الفريق وإلى نفسك، يا جُو، معروفاً آخر».
«ما ذاكَ»؟
«لا تأتِ معنا إلى باري».
«ماذا»؟
«ابقَ هنا، استرح. شاهد المباراة على شاشة التلفاز إن لزم الأمر. ولكن، انضمَّ إلينا بكل بساطة حين نعود. لا تأتِ معنا».
«لِمَ تمزح معي على هذا النَّحو؟ سأذهب إلى باري، بالطَّبع. فلِمَ تخبرني بأنَّه لَا ينبغي عليَّ»؟
«لعل حياتك أبسط، ليس إلا، وحياتَنا أيضاً. لا أستطيع قول المزيد. ولكنَّني أرجو أن تُفكِّر مَلِياً بالأمر».
ثمَّ مشى مُبتعداً، تاركاً إياي وحدي في العتمة، وكأس نبيذٍ نصف مملوءةٍ في يدي، ولا أدنى فكرة لديَّ عما كان يتحدَّث عنه.

كان الجو حاراً، شديد الحرارة حقاً، في الأيام التي سبقت مغادرتنا إلى ليتشه. ولكنَّه حَرُّ أوَّل الرَّبيع مقارنةً بالحَرِّ الذي اجتاحَ كاستل دي سانغرو يوم الجمعة. وهبَّت ريح لافحة وجافَّة من إفريقيا مباشرة، عبر مئات الأميال لشبه الجزيرة المُنبسطة الواقعة جنوبنا، ولفحت وجوهنا كأنَّ صفعةً حادَّة قد لطمتنا على خدودنا التي سفعتها أشعَّة الشَّمس. كانت هذه رياح الخماسين الحقة، الذَّائعة الصِّيت، التي يهابها النَّاس في صقلية وعلى طول السَّاحل الجنوبي الإيطالي، بَيْدَ أنَّها مجهولة فعليّاً في الشمال حتى أقاصي أبروتسو.
واعتاد كُبراء البلدة وحكماؤها، حين تهبُّ على أي حال، أن يقولوا إنَّها تجلب الشر إلى حيث لم يكُن الشر قد حلَّ بعد. لقد كانت ريحاً مشؤومةً

حقاً، قد لا تهبُّ على أبروتسو إلا مرَّة أو مرَّتين كل جِيلٍ، ولكنها حين تهبُّ، فلا مفرَّ من تأثيراتها المشؤومة.

ولقد كانت تهبُّ بكامل قوتها، حين ركبنا الحافلة إلى باري صباح السبت. نظر إلـيَّ اللاعب الذي كلمني ليلةَ الخميس وهزَّ رأسه بكل بساطة، ثم انطلقنا إلى فم التنين.

40
كهول لِوَّحتهم الشّمس

مضى على سفرنا جنوباً نحو ساعة -كانت درجة الحرارة في الخارج قد جاوزت تسعين درجة فهرنهايتية ورياح الخماسين تهبُّ على أشدِّها في الاتِّجاه المعاكس، فأبطأت الحافلةُ من سرعتها- حين جلس أحد اللاعبين في المقعد الشَّاغر بجواري، وسألني إنْ كان بإمكانه تصفُّح نسختي من صحيفة «إل كُريره ديلُّو سپورت» الصَّادرة في ذلك الصَّباح.

فناولته إياها، وقد كانت مفتوحةً على القسم المعنيِّ بدوري الدرجة الثانية. كانت القصَّة الرئيسة تتحدَّث عن التنافُس الشديد بين الفرق على المراكز الأولى للائحة تصنيف هذه السَّنة. وبينما ضمن بريشًّا الصعود، فإنَّ الأفرقة الأربعة المتنافسة على المراكز التالية كانت إمپولي (61) وليتشه (60) وباري (59) وجنوا (58)، ولن يتمكن فريق واحد من هذه الأربعة من الصعود إلى دوري الدرجة الأولى. وفي حين لم يبق سوى مباراة أخيرة لكل فريق في هذا الموسم، فمن المحتمل أن يكون واحداً من هذه الأربعة.

بدا إمپولي وليتشه، اللذان سيلعبان ضدَّ فريقَيْن قد هبطا للتوِّ إلى الفئة الأولى من دوري الدرجة الثالثة، واثقَيْن من الفوز. وحده باري قد يواجه المتاعب، لو كنَّا في مزاج يتكفَّل بذلك. ولو حقَّقنا التَّعادل في باري وفاز جنوا، فسيتحتَّم حينئذ على باري، لا جنوا، قضاء سنة أخرى في دوري الدرجة الثانية.

كان الوضع كما وصفته صحيفة «إل كُرِّيره» «دقيقاً جداً molta delicata»، ولاسيَّما أنَّ الصعود إلى دوري الدرجة الأولى يجلب للفريق

أكثر من 10 ملايين $، فضلاً عن أخْذنا جميع الفوائد النَّاجمة عن ذلك بعين الاعتبار.

ثم قال لي اللاعب، بعد تمعُّنه في الصَّفحة هنيهة: «مسكين فريق جنوا».

«لماذا»؟

«لأنَّهم سوف يفوزون، لكنَّهم سيخسرون على أي حال».

«ماذا تقصد»؟

«إن خسروا فلن يصعدوا إلى دوري الدرجة الأولى».

«ولكن ليس إن خسر إمبولي أو ليتشه أو باري»؟

«هذا لن يحدث».

«يكاد الأمر أن يكون محتملاً، ولكن-»

«معذرة، يا جُو، إنَّه مستحيل».

فقلت: «ولكنَّ الكرة مستديرة. ولا شيء مستحيل في الكالتشيو».

«أصحيحٌ ذلك؟ أنت لا تفهم؟ كل شيء مُعَدٌّ سلفاً».

«ما الذي تتحدَّث عنه؟».

بدا عليه التَّوتر فجأةً، فلم يُجِب على السؤال في التوِّ واللحظة، ثم قال: «معذرة يا جُو، من الأفضل نسيان كل شيء».

ثم نهض سريعاً، وأعاد إلـيَّ الصحيفة، عائداً إلى مؤخرة الحافلة.

كنتُ أتعرَّض لاهتزازات غريبة هُنا، ولم تكُن قادمة جميعها من محرِّك الحِافلة الذي يعمل بجهد جهيد. ولكنَّ النَّعاس غلبني، على أي حال، حين اشتدت حرارة الشمس، حتى عندما دوَّت أحداث فيلم بعنوان «القفص، الجزء الثاني: حلبة الموت»، شاقَّة طريقها إلى جهازي العصبيِّ.

اشتملت الحبكة على سلسلة نزالات حتى الموت، يخوضها رجال محبوسون في أقفاص، بعضهم مع بعض. وحين غفوت، تحوَّل القفص في حدِّ ذاته إلى مرمى كرة قدم، ثم وجدت نفسي ألعب كحارس مرمى مرَّة أخرى، وصرخات الجماهير المتعطِّشة للدماء، التي في الفيلم، قد تحوَّلت إلى هتافات عند كل تسديدة أصدُّها.

صحوتُ بعد مواجهة قوية، لأجد أنَّ لوتِّي قد انضمَّ إلـيَّ.

ثمَّ قال، مبتسماً وهو يومئ برأسه نحو الشَّاشة الصَّغيرة: «ألا يعجبك»؟

فقلت: «إنَّه لأولئك الذين ماتت عقولهم فقط يا ماسيمو».

فضحك قائلاً «إنْفَاتّه infatte»، قاصداً، أجل، الأمر صحيح في هذه الحالة.

ولكنَّه راح حينئذ يكلمني بجديَّـة وبصوت خفيض جداً.

قال: «الأمر مهمٌّ، يا جُو. هل تسمعني؟ فأومأت برأسي وفركتُ عينيَّ».

«سأظلُّ أتمنَّى لو أنَّني استطعت اللعب في المباراة ضدَّ پسكارا، ولكنَّني أشكر الله على أنَّني لن ألعب غداً».

كنتُ قد استيقظت تماماً حين قال ذلك.

فسألته: «لماذا؟ بسبب خوفك»؟ كان في تلك الفترة قد عرفني بما يكفي ليعرفني حين أمزح.

ولكنَّه أجابني، على الرَّغم من ذلك، بجدية مُفرطة: «ليس الخوف، يا جُو، وإنَّما الشَّرف».

ثمَّ سار حينئذ إلى مؤخرة الحافلة، هو أيضاً، قبل أن أطرح عليه أسئلة أخرى.

لم نذهب إلى باري مباشرة، بل نزلنا في فندق قبالة الشَّاطئ، يضمُّ بركة سباحة كبيرة، في بلدة استجمام تبعد خمساً وأربعين دقيقة بالحافلة عن السَّاحل.

أخبرني ياكوني في أثناء إتمامي لإجراءات الدُّخول إلى الفندق، قائلاً: «[المكان] هادئ، هادئ تماماً». بدا مبتسماً ومرتاحاً تماماً. كانت زوجته قد قدمت معه لحضور مباراته الأخيرة، ولهذا انطلق بسيَّارته قبلنا بيوم واحد، بدلاً من الرُّكوب في الحافلة.

ولكنَّني كنت في تلك الأثناء أبعد ما يكون عن الهدوء، بَيْدَ أنَّني ربما كنت ضحيَّة مخيِّلتي حامية الوطيس. وجدت حضور ياكوني وسلوكه يبعثان على الطمأنينة، فياكوني لن يحضر زوجته، بالطَّبع، كل تلك المسافة من تشفيتانوفا إلى باري، إلا كي تشاهد فريقه يلعب بأقصى طاقته في المباراة النهائيَّة، وربما يبهرنا بأداءٍ ساحر أخير، أمام 60000 من المتعصِّبين الغاضبين وغير المصدِّقين، متحدياً كل الصعاب القاهرة.

كان الحَرُّ، إن أمكنت المقارنة، أسوأ مما كان عليه في ليتشه. كنَّا في شهر يونيو، ولكنَّ أملي السَّاذج في الحصول على غرفة مكيَّفة الهواء قضى عليه أحد موظفي الاستقبال الذي قال: «لا تكييفَ بالطَّبع، فنسائم البحر تُنعشنا».

فسألته: «ورياح الخماسين»؟

فهزَّ كتفيه، وقال: «لن نشغِّل تكييف الهواء، يا سيِّدي، لأنَّ رياح الخماسين تهبُّ علينا كل عشر سنين مرَّة. هذه بُولْيَا، على أي حال، ونحن هُنا لا نبدِّد الأموال مثل أمريكا».

فقلت له: «شكراً»، ثم سرتُ مبتعداً. كنتُ قد بدأتُ إقامتي في إيطاليا بمجادلة رجل يجلس خلف مكتب بأحد الفنادق، ولن أختمها بالطريقة ذاتها. بِتُّ أنظر إلى الأمر، في الحقيقة، على أنَّه قاعدة عامة: لا تُجادل البتة رجلاً خلف مكتب، حين تكون في إيطاليا. فهو خلف المكتب وليس أمامه، ولهذا فهو يعرف أنَّه على حق. فلو كان على خطأ، لما كان خلف المكتب؛ إنَّه منطق البلدوزر.

نحَّى اللاعبون وجبات غدائهم جانباً، بعد أن هدَّ أجسادهم الحَرُّ، وتوجَّهوا مباشرة إلى بركة السِّباحة الواقعة أمام الفندق. ولكنَّهم طلبوا، على نحو غير معهود، أن يحضروا معهم تلك الكميَّات الكبيرة من علب البيرة وزجاجات النَّبيذ. وهذا سلوك أعتقد أنَّ ياكوني لم يكُن ليسمح به، ليس قبل الليلة التي تسبق المباراة على الأقل، بيد أنَّ ياكوني انزوى هو وزوجته في مكان آخر.

ولم تمض أكثر من ساعة قبل أن يقرِّر اللاعبون أنَّ مَن يخطو خارج باب الفندق الأمامي طلباً لنسمة هواء عليلة، لا بُد أن يُقذف في بركة السِّباحة فوراً. لم يكن هذا التصرُّف مستفزاً تماماً، بالقَدْر الذي بدا عليه، فلا نزلاء غيرنا هناك، والضحايا المحتملون -بخلافي أنا- هم موظَّفو «لا سوتشتا» الرَّسميُّون (ما عدا غراڤينيا، الذي سيغادر غداً بسيارته جنوباً ويعود في اليوم ذاته).

وكي أوفِّر على أي أحد مهمة اتِّخاذ قرار إنْ كانوا سيجنبوني ذلك من عدمه، خرجتُ من الباب الأمامي، مرتدياً ثيابي كاملة، ثمَّ قفزتُ في البركة من تلقاء نفسي.

فتعالت على نطاق واسع هتافات «براڤو»! و«جُو العظيم»؛ هتافات أدركت أنَّني على وشك ألا أسمعها ثانيةً وأنَّني سأفتقدها كثيراً.

كنت أخوِّض في الماء، مفكراً أنَّ من الأفضل قضاء الليلة في البركة بدلاً من غرفتي، حين أدركت أنَّني لم أجلب معي سوى قميص نظيف واحد فحسب كي أرتديه في اليوم التالي، ولا شيء آخر لديَّ كي أُبدِّل به ثيابي المبتلَّة. ولذا، خرجت من البركة، وذهبت إلى غرفتي، ثم علَّقت ثيابي على الشُّرفة، حيث يمكن لرياح الخماسين تجفيفها خلال ساعة، وعدتُ إلى طرف البركة مُلتفاً بالمناشف.

تناولت علبة بيرة وكرسياً عند طرف البركة، وجلست بكل بساطة مستمتعاً بعبق المكان. تلاطمت أوراق أشجار النَّخيل العالية، بعضها ببعض، في الرِّيح، بيْدَ أنَّني أستطيع سماع نُتَفٍ من الأحاديث الدَّائرة عند طرف بركة السِّباحة.

قال أحد اللاعبين: «ثلاثة أهداف على أكثر تقدير».

فأجاب آخر: «أجل، ولكن ليس ثلاثة مقابل لا شيء».

فردَّ ثالثٌ: «كلا، لا بُدَّ أن نسجل هدفاً».

فقال آخر: «ليس مبكِّراً جداً، وإلا سيبدو الأمر خطراً».

جلستُ ساكناً، ورحتُ أُصيخ السَّمع. لعلَّ هيئتي الجديدة قد جعلتني أبدو غير معروف، أو أنَّ اللاعبين بكل بساطة لم يكترثوا، في تلك اللحظة، بما سمعته.

«ولكن ثلاثة على أكثر تقدير، هذا مُتَّفقٌ عليه». كانت ثمَّة همهمة إجماعٍ. لم أستطع معرفة عدد اللاعبين الذين كانوا منهمكين في هذه المحادثة، ولِكنَّهم كانوا ستَّة لاعبين على الأقل.

«لعلَّ فريق باري يغدو جشعاً ويسعى إلى المزيد».

«لا تقلق. لقد بُلِّغُوا بما ينبغي عليهم فعله أيضاً».

«كيف سنسجل؟ ومتى؟»

«أُعِدَّ كل شيءٍ مسبقاً. «رِيغُورِهْ rigore». [صرامةٌ].

فاحتجَّ أحد اللاعبين: «رِيغُورِهْ؟». هذا يعني أنَّ كلاوديو سوف يسجِّل هدفاً سهلاً آخر، ليس في حاجة إليه».

«وما الضَّير في ذلك؟ يستحقُّ. انظر ماذا فعل من أجلنا في الأسبوع المنصرم».

«وماذا لو أخطأ المرمى»؟

«لن يُخطئ».

«وماذا لو صدَّها الحارس»؟

«لن نصدَّها، فَفُونْتَانَا ليس غبياً». كان فونتانا حارس مرمى باري.

توقَّفت المحادثة لبضع دقائق. أستطيع سماع صوت السَّجائر وهي تُشعَل، والنَّبيذَ يُسكَب، وعلب البيرة الجديدة تُفتَح.

ثمَّ قال أحد اللاعبين: «لا بُدَّ أن يأتي الهدف الأول على الفور. قبل أن يأخذ النَّاس أمكنتهم. لن تُلحَظ بهذه الطريقة أشياء كثيرة. والآخران، عندما يحين موعد تسجيلهما، ولكن لا بُدَّ أن تُسجَّل جميعاً في الشوط الأوَّل».

«وفي الشَّوط الثاني»؟

فضحك أحد اللاعبين، «سنستلقي في الشَّوط الثاني ونَقِيل»، فسأله لاعب فتيٌّ، وقد بدا عليه القلق: «أَلَنْ يبدو ذلك سيئاً»؟

فضحك لاعبٌ آخر، «يبدو سيِّئاً لِمَنْ؟ إلى جمهور باري الذي مازالت تدبُّ في صفوفه هستيريا الفرح لعودتهم إلى دوري الدرجة الأولى؟ إلى مَاتَرِّيِيْسِهْ، رئيسهم؟ في الأفلام التي تُسلِّط الضوء على الأحداث المهمة،

التي لا يشاهدها أحد؟ لا تقلق. لن ينتبه أحد في هذه الأوقات. ينظر الجميع إلى الجهة الأخرى. اِحرص، فقط، على ألا تُسدِّد على مرمى باري غداً. سيكون ذلك خطأ».

ثمَّ نهض أحدهم ومرَّ بالكرسيِّ الذي كنت جالساً عليه، ونظر إلـيَّ، وقال: «جُو، أهذا أنت»؟

«أجل».

«وهل كنت تُنصت»؟

«كنت جالساً هنا. لم يكن ممكناً ألا أسمع».

«لا ضَيْرَ يا جُو، ولكنَّ هذه المحادثة شخصيَّـة وليست للنشر».

فقلت بالإنكليزيَّـة: «تباً لك».

ثمَّ تقدَّم لاعب آخر على الفور: «لا بُدَّ أن تظلَّ هذه المعلومات سريّةً تماماً».

فقلتُ بالإنكليزيَّـة: «هُراء».

فقال لاعب ثالث: «لقد وثقنا بك طيلة السَّنة يا جُو، ولا يتوجب عليك أن تخوننا الآن».

فقلت: «أخون؟ أرجو المعذرة، ولكنَّكم الخونة».

«نحن مجبرون. لا خيار أمامنا. لسنا سعداء».

«أنتَ تصيبني بالغثيان!»

ثـمَّ تقـدَّم لاعـبٌ وجلـس على حافَّـة كرسـي البركـة الذي أجلـس عليه: «يؤسفني أن أقول لك هذا، العمل هو العمل، وهذا العمل ليس من شأنك».

فقلت: «كل شيءٍ شأنُ كتابي».

فأخذ اللاعب نفساً عميقاً ونظر إلى الآخرين، ثم قال: «من الأفضل لو تفكِّر بالأمر ثانيةً».

فقلت بنبرة رسمية مصطنعة: «أخشى أنَّه يتوجب علـيَّ أن أرفض».

فانتاب الغضب اللاعب فجأة: «لا ينبغي أن تكتب هذا البتة»! لم يسبق لأحد من اللاعبين أن تكلم معي بمثل تلك النَّبرة.

فنهضتُ، ممسكاً بالمناشف التي تلفُّني بِقَدْر ما أستطيع.

ثم قلت: «تتملَّكُني مشاعر فظيعة. ولكنَّكم محتالون جميعاً، بلا أدنى شك، مثل ريتسا وغرافينيا».

فلم ينبس أحدٌ ببنت شفة.

ثم أضفتُ: «حثالة. أتمنَّى أن تنالوا غداً ما تستحقُّون».

وعدتُ أدراجي إلى داخل الفندق، بعد أن أزحت عن كاهلي عبء تلك المشاعر، ومِن ثمَّ إلى غرفتي مباشرة، وأغلقت الباب خلفي وأقفلته، متسائلاً كيف سأقضي واحدةً من أشدِّ اللَّيالي بؤساً في حياتي.

يا لِفِتْيَتِي ragazzi؛ هؤلاء اللاعبين، الذين اكترثت لأمرهم أكثر من أي مجموعة أخرى من الرِّجال طيلة حياتي، سيقومون غداً، أمام 60000 شخص، بخيانة المبادئ التي هي أهمُّ بالنسبة إليهم من رأيي، ولكنَّني شعرت، على الرَّغم من ذلك، بأنَّني قد تعرَّضت للخيانة شخصياً وعلى نحو عميق.

ولقد كانت واحدةً من تلك الليالي القليلة في حياتي التي يمكنني القول بلا ريب إنَّني لم أنم فيها حتى للحظة واحدة، ولم يَدْنُ النُّعاس من جفوني قط. شعرت بالغثيان بما فيه الكفاية، بسبب ما سمعته وما قد قُلته، ولكنَّ الهواء، أو نقصه، قد بدا في غرفتي -أبعدَ مما أحسُّ به- كأنَّه على وشك أن يخنقني بكل ما في الكلمة من معنى.

سحبت الفرشةَ عن السَّرير، في نهاية المطاف، إلى الشُّرفة الإسمنتيَّة، حيث ربما كانت درجة الحرارة أخفَّ درجتَيْن أو ثلاثاً، ولكنَّ الضجيج، المنبعث من مرقصٍ ليليٍّ بالقرب من فندقنا، كان عالياً كالموسيقى التصويريَّة التي في الحافلة. كانت رياح الخماسين قد هبَّت على أشد ما يكون، تاركةً خلفها كتلةً هوائية حارة شديدةَ الوطأة عليَّ كشدَّةَ وطأة أفكاري.

ارتديتُ في الصباح ثيابي الجافَّة، التي مازال الرَّمل عالقاً بها، وسرت مباشرة صوب طرف البحيرة، حيث قمت بأداء عرض كبير؛ مُخرجاً مفكرتي الأكبر وما حوته من تدوين، على الرَّغم من أنَّ معظم ما كتبته في كل صفحة كان: «لا أستطيع تصديق هذا البتة».

ثمَّ جاء لوتِّي في النهاية وجلس في الكرسيِّ الفارغ بجواري. كنَّا، لوقت مديد، قد جلسنا صامتَيْن، لم ننبس ببنت شفة.

فسألته أخيراً: «هل ستفعل ذلك، يا ماسيمو»؟

«أن أتقصَّد إدخال هدفٍ في مرماي»؟

«أجل».

«أودُّ القول كلا بكلِ تأكيد، يا جُو. سيكون ذلك بسيطاً ويجعلك تشعر بتوتُّر أقل، ويضمن أن أُعامَل كرجل شريف في كتابك».

«ستكون كذلك، يا ماسيمو، على أي حال. ولكنَّني أرجوك أن تخبرني الحقيقة بشأن ذلك».

«الحقيقة، يا جُو، أنَّني لا أعرف. فلم يسبق أن تعرَّضت لمثل هذا الموقف، على الرَّغم من معرفتي بوجود هذه الأشياء. فبعض الفرق التي تكون في أمسِّ الحاجة إلى النقاط تدفع من أجل الحصول عليها. فيقبل

أولئك الذين لا تعني لهم النقاط شيئاً. ولا يحدث ذلك دائماً، إنَّها مسألة تتعلَّق بالمال فحسب. قد تكون مجرَّد معروف يُطلَب أو معروف يُسدَّد بين رؤساء النَّوادي، ويمكن أن تكون أشياء كثيرة. تُدعى هذه المسألة في إيطاليا «النِّظام il sistema»، وبالنسبة إلى شخص لم يألف وجودها منذ نعومة أظفاره، فإنَّني على يقين أنَّ الأمر يبدو معقداً جداً».

«لا يبدو الأمر معقداً؛ يبدو احتيالاً فحسب».

ثمَّ اقترب وربَّت على ذراعي. «لا بُدَّ أن أقول لك يا جُو، متحدِّثاً كصديق وبكل احترام، أنَّني أخشى أن يكون هذا هو الثَّمن الذي ستدفعه لكونك أمريكياً. فثمَّة مناحٍ في طريقة عيشنا لا يمكن أن تفهمها ببساطة. ولأنَّك لا تستطيع أن تفهم هذه المسألة، التي تتعهدها بمثل ذلك الشغف، فإنَّك تلعنها، ثمَّ تلعن أيضاً اللاعبين الذين يهتمون بأمرك مثلما تهتم بأمرهم، وسيكون من المؤسف جداً أن ينتهي الموسم بمثل سوء التَّفاهم المؤلم هذا».

فقلت: «يتحدث اللاعبون عن خيانتي، ولكنَّهم هم الذين يخونون أنفسهم».

«كلا يا جُو، ليس الأمر بهذه السهولة. لم يكن ذلك خياراً اتَّخذه اللاعبون. تخيَّل أن تقول إدارة نادي باري لكاستل دي سانغرو: «سنهبكم مليارَي [ليرةٍ] مقابل مساعدتكم، ولن ننسى المعروف الذي أسديتموه لنا». أنا لا أعرف شيئاً عن هذا الأمر، يا جُو، مفهوم. إنَّني أتحدث من الناحية الافتراضية، مثلما قد ترغب في معرفة حقيقة ما. ولكن ثمَّة شيء واحد يا جُو ليس افتراضياً، إذا قال السيِّد ريتسا نعم، فعلى كل لاعب أن يُطيع».

ثمَّ ذهب لوتِّي إلى مكان آخر، فكنتُ وحيداً مرَّة أخرى لبرهة من الزَّمن.

وكان الشَّخص الثاني الذي سوف ينضمُّ إلـيَّ هو سپينوزا.

فسألته: «أتريد أن ترى المعجزة تتحول إلى شيء مقرف»؟

«لا أحد سعيد، ولكنَّهم لا يملكون الخِيرَة من أمرهم».

فقلت ملوِّحاً بيدي قرفاً: «نعم، نعم، إنَّه النِّظام».

«لم آتِ للشجار معك يا جُو. أتمنَّى أن تفهم أنَّ أشياء معيَّنة لا بُد أن تحدث على الرَّغم من رغبة جميع اللاعبين في ألا تحدث. فأنت، بكل احترام، أمريكيٌّ يأتي ليشاهدنا نلعب لموسم واحد، ثم تذهب إلى ديارك، ونحن الذين يتوجب علينا البقاء. لا بُد أن نبقى هنا من أجل وظائفنا، ومن أجل حيواتنا.

أن تكون لديك وظيفة، في إيطاليا، يعني أنَّك غير سعيد مرَّات ومرَّات. لا بُدَّ أن تغمض عينيك، وأن تؤدِّي عملك ولا تحشر أنفك فيما لا يعنيك، والأهم من ذلك كله هو أن تمسك عليك لسانك. أعتقد أنَّ ذلك ليس جيداً، ولكنني أعرف أيضاً أنَّ هذه سُنَّة الحياة. أتمنى أن تفهم ما أقوله، ولو على نحو ضئيل على الأقل. بيْدَ أنَّك إن لم تفهم، فكل ما أطلبه على أي حال هو ألا تستخدم ألفاظاً قاسية، فلقد ذقنا ما يكفي من البؤس جرَّاء ما يحدث حقاً، ولا ينقصنا أن ترنَّ شتائمك في آذاننا».

«ولكن، يا پييرو، لا أستطيع تقبُّل فكرة أن يعمد فريق، كافح بقوة طيلة السَّنة كي يفوز، أن يعمد إلى اللعب الآن ليخسر»!

«إنَّه حظُّنا السيء يا جُو فحسب. سيتعرَّض أي فريق كان سيلعب ضدَّ باري اليوم إلى الموقف ذاته. فكل شيء قد جرى بحسب ما يقتضيه «النِّظام». أنت تعرف أنَّ رئيس نادي باري هو السيِّد ماترِّيسِهْ. فهل تعرف أنَّ أخاه كان رئيس اتِّحاد الكرة؟ وأنَّ أخاه الثَّالث كاردينال في الڤاتيكان»؟

أما اليوم، فالفريق مُتعب على أي حال، وأنت تعرف ذلك: أجسادهم متعبة، وعقولهم متعبة، وقلوبهم متعبة. ولهذا، فقد قِيل لهم: «سوف تخسرون. وإنْ لم يقل أحد شيئاً، فإنَّنا لن نتمكَّن من الفوز على باري».

«فَلِمَ الضَّرورةُ إذاً»؟

«حسناً، فريق باري متعب جداً أيضاً. ربما يقترفون خطأ. ربما يسجِّل كلاوديو أو سپنيسي هدفاً. ربما يسدِّد باري عدَّة مرَّات فترتطم تسديداتهم بالعارضة، على شاكلة ليتشه. فالتعادل الإيجابي «بهدف لمِثْله»، بالنسبة إلى باري، كارثة أشدُّ وقعاً من زلزال، ولا يتوجب، في مثل هذه المسألة المهمة، أن تُترَكَ مثقال ذَرّةٍ للصُّدفة».

«سأظلُّ أكُنُّ لك بالغَ الاحترام يا پيرو، ولكنَّك لن تقنعني أبداً بصحة هذا الأمر».

«حسناً، فكِّر في هذه المسألة أيضاً: كانت وظيفتنا منذ الأسبوع الأول من الموسم الفوز «بالخلاص»، وحقَّقنا ذلك. ولهذا فنحن نقوم بواجبنا: تجاه أنفسنا، وتجاه أهل البلدة، وحتى تجاهك أنت؛ أن نصنع نهايةً سعيدةً تذكرها في كتابك، وليس مهماً ما يحدث بعد ذلك».

«ولكنَّه خطأ».

فتبسَّم سپينوزا. «هل أصبحت قسيساً، فجأةً، يا جُو؟ لا أجلسُ هنا كي أُدلي باعترافاتي، كل ما أتمناه أن أجعلك تفهم. حسناً، يبدو أنَّني لا أستطيع فعل ذلك، ولكنَّني أقول لك هذه الأشياء كي تتذكر: لسنا الوحيدين».

«فكل موسم، عند النهاية، يكون على هذه الشاكلة، فلقد توجَّب على بريشَّا، قبل سنة، وفي الأسبوع الأخير من الموسم، إما الفوز على تشيزينا

وإما الهبوط إلى دوري الدَّرجة الثالثة، فدفعوا مقابل النقاط اللَّازمة. مقابل ثلاث نقاط. سجلوا هدفَيْن سهلَيْن، ففازوا بالمباراة، 2-1».

«وفي هذا السنة يا جُو. أعرف ما حدث مع لوكيزي، وساليرنيتانا. لقد بذلا الأموال للحصول على النقاط اللازمة. توجَّب عليهما في النِّهاية الحصول على أربع وأربعين نقطة، على شاكلتنا نحن. ولكنَّهم لم يرغبوا في الانتظار حتى النهاية، فرتَّبوا كل شيء الأحدَ المنصرم، حين لعبوا ضدَّ كريمونييسه؛ صاحب المركز الأخير. قد تقول إنَّهم كانوا سيفوزون دون شك، ولكن لا شيءَ أكيد، مرَّة أخرى، في عالم كرة القدم. دفعوا الأموال، فسجلوا أربعة أهداف. انظر إلى إحصائياتك يا جُو. هل سبق لفريق لوكيزي أن سجَّل، طيلة العام، أربعة أهداف في مباراة واحدة، إلا يوم الأحد الماضي».

«ومَن يحتاج أيضاً إلى التأكُّد من حصوله على أربع وأربعين نقطة، وليس على ثلاث وأربعين؟ فريق ساليرنيتانا. انظر في احصائياتك مرَّة أخرى، فلم يسبق لساليرنيتانا أن فاز، خارج أرضه، بمباراة واحدة. ليس يوم الأحد، ولكنَّهم تعادلوا في البندقية، 1-1، فلم تكن النتيجة ذات أهمية بالنسبة إلى البندقية. أما بالنسبة إلى ساليرنيتانا فإنَّها تعني كل شيء. سجل ساليرنيتانا في غضون خمس عشرة دقيقة، ثمَّ سجل البندقية بعد دقيقتَيْن. كانت بقيَّـة المباراة كأنَّها رقصة ڤالس «ballare il valzer».

لم ننبس ببنت شفة، مثلما فعلنا لوتِّي وأنا سابقاً، والحَرُّ قد اشتدَّ والشَّمس تدنو في السَّماء إلى الموضع الذي تحتلُّه في الظَّهيرة.

ثمَّ قال سپينوزا: «لا أستطيع التفسير يا جُو، ولا أحد يستطيع على الأرجح. ربما لن تستطيع فهم المسألة إلا حين تُولد هُنَا، وتترعرع هُنَا. إنَّها

كمثل التحدُّث بلغتنا. فعلى الرَّغم من تحقيقكَ لكثير من التقدُّم [في تعلُّم اللغة]، فأنت لا تستطيع القول إنَّك تفهم ما يقال إلا حين تودُّ قول ذلك».

«كلا، بالطَّبع. فمازلت أشعر كأنَّني غبيٌّ حين أتحدَّث الإيطالية».

«لستَ غبياً حين تتحدَّث أي لغة، ولكن ربما تفكِّر في «النِّظام il sistema» مثل لغتنا. ستمضي عدَّة سنين قبل أن تفهم كفايةً، ويمكن، حينئذ، لأي إيطالي أن يقول في نصف دقيقة، حتى لو مضى على دراستك اللغة وممارستها عشرون سنة: «هذا غريب لن يتمكن حقاً من أن يكون واحداً منا».

«آسفٌ إن كان هذا يجعلك حزيناً. آسفٌ إن كان هذا يجعلك غاضباً. ولكنَّني لا بُدَّ أن أقول لك، كصديق، إنَّني آسف أيضاً أن تعتقد ليلةَ الأمس أنَّه كان من الضروريِّ أن تشتم هؤلاء اللاعبين وتصيح عليهم. فحين لا يفهم المرء يا جُو، لا بُدَّ أن يحين وقت الصَّوت الخفيض. أو، ربما من الأفضل، ألا يكون ثمَّة صوت البتة.

ثمَّ ذهب سبينوزا مبتعداً، أيضاً.

بدت كل التبريرات فذلكةً. وحدها حقيقة «لا بَسْتَرِيلَّا» -الرَّشوة المدفوعة أو الأموال المُقترضة أو الدين القديم المُلغَى- التي تكمن في التفاصيل التي لا يعرفها سوى ماتريسه وريتسا (وربما غرافينيا) بدت حقيقيةً بالنسبة إلـيَّ.

وبقيتْ كذلك، حتى حين ركبتُ الحافلة إلى الاستاد. لم يُشِر أحدٌ من اللاعبين إلى هيجاني أو إلى أي من الأشياء التي قالوها وكانت السَّبب في اندلاعه. وحده تِشيي، الذي تلقَّى بطاقة حمراء في الدقائق الأخيرة من مباراة بسكارا، توقَّف عند الكرسيِّ الذي كنت جالساً فيه، وقال: «تذكر. نحن بلاد دانتي، ولكنَّنا بلاد ميكافيلِّي أيضاً».

ثمَّ اجتازت الحافلة بوَّابة معدنيَّة ضيِّقة، ومضت في منحدر مسقوف، أفضى مباشرة إلى الباب الخلفي لغرفة تبديل الثياب المخصصة للفريق الضيف. لم يسبق لي أن شاهدت مثل تلك التَّدابير الأمنيَّة المشدَّدة في أي استاد، ولا يمكن لِمَنْ لا ينتمي إلى المكان أن يخترق الطبقات الأمنية المتعدِّدة، ثمَّ وجدت نفسي، حين ترجَّلت من الحافلة، أنظر مباشرة في عيني السيِّد ريتسا.

كان واقفاً على بُعْد أقل من خمس أقدام من المخرج، وكان يتوجب على كل مَن ترجَّل من اللاعبين، ليدخل غرفة تبديل الثياب، أن يخضع لفحصه الدقيق.

كان حارساه الشخصيان المعتادان برفقته، ولكنَّه محاطٌ بأربعة رجال إضافيِّين لم أرهم من قَبْل.

فجأةً، لم تكن ثمَّة فذلكة، فالسيِّد ريتسا قد جاء لحضور مباراة خارج الدِّيار. لحضور مباراة عبثيَّة، لا معنى لها، بعد أن فاز فريقه للتوِّ «بالخلاص». كان واضحاً أنَّه لم يأت من أجل اللعبة.

لم ينبس ببنت شفة مع أي لاعب أو معي. لم يتوجب عليه ذلك. فتحديقته، الباردة عديمة الرحمة، لفتت أنظار كل مَن ترجَّل من الحافلة. ولو كانت ثمَّة حاجة إلى تذكيرٍ في اللحظة الأخيرة، فالسيِّد ريستا هو المطلوب، بكل الفساد والوعيد اللذين يُفصح عنهما وجهه المترهل وينفثهما سيكاره العريض.

أما بالنسبة إلى المباراة؟ ركل تونينو الكرة، بعد انطلاق صافرة البداية، مباشرةً إلى لاعب خط وسط باري، الذي مرَّرها إلى أحد المهاجمين غير

المُراقَبين، فسدَّد الكرة عن بُعْد خمس عشرة ياردة، فسجل هدفاً، بعد أنَّ ظل دي يوليس ينتظر الكرة كي تتجاوزه بأمان إلى داخل المرمى. تطلَّب هذا الإجراء أقل من عشرين ثانية.

تناوبَ الفريقان، في نصف الساعة التي أعقبت ذلك، على ركل الكرة إلى خارج خطَي التَّماس، ثمَّ سدَّد أحد لاعبي باري تمريرةً طويلة إلى زميله الذي كان واقفاً أمام المرمى، ولوقا دانجلو خلفه. بَيْدَ أنَّ لوقا، الذي صدَّ مئات التمريرات التي تشبه هذه التَّمريرة طيلة الموسم، قفز، ولكنَّه في الوقت ذاته لفَّ رأسه بعيداً، كي يضمن أنَّه لن يلمس الكرة. فسدَّدها مهاجم باري برأسه مباشرةً، دون عائق، في الشِّباك.

وقبل دقيقتَيْن من انتهاء الشَّوط الأوَّل، وثلَّة من لاعبي كاستل دي سانغرو يتفرَّجون، قذف أحد لاعبي خطٍّ وسط باري تسديدة من بُعْد عشرين ياردة، لم يبذل دي يوليس أي جُهْد ليصدَّها، مُفسحاً لها المجال كي تتجاوزه بسهولة. كان ذلك هو الهدف الثَّالث، فعرف دي يوليس بأنَّ عمله قد انتهى لهذا الموسم، مثلما كان من المفترض أن يكون.

وقبل ثوانٍ من نهاية الشَّوط الأول، ركض كلاوديو إلى منطقة جزاء باري، ثمَّ تعثَّر من تلقاء نفسه فسقط، ومدافع باري يقف مراقباً إلى جواره. ولكنَّ الحكم، الذي يُدعى ترِيُوسِّي الفُورْلِي[176]، وهو حكم آخر قاد مباريات دوري الدرجة الأولى، بصورة أساسيَّة، ورغب في الاستمرار في ذلك، صفَّرَ معلناً ضربةَ جزاء.

ولطالما سدَّد كلاوديو ركلات الجزاء بقدمه اليُمنى. وهذا يعني أنَّ الكرة سوف تجنح للدُّخول في الزَّاوية اليُسرى من الشِّباك التي يواجهها. ولكنَّ حارس مرمى باري، الذي كان يعلم هذه الحقيقة على ما يبدو، لم

يقف في منتصف المرمى، وإنَّما على بُعْد خطوتَيْن واسعتَيْن جهه الزَّاوية التي على شماله، أبعدَ من المكان الذي من المتوقَّع أن تُسدَّد الكرة إليه.

وكان ذلك هو المكان الذي انطلقت الكرة إليه تماماً، فانقضَّ عليها حارس مرمى باري، ولكن من مسافة بعيدة جداً. كان ذلك هدف كلاوديو العاشر والأخير في هذه السَّنة (والرَّابع من ركلة جزاء) فغدت النَّتيجة -ويا لها من مفاجأة che sorpresa- عند انتهاء الشّوط الأوَّل، 3-1.

الكهول الذين لوَّحتهم الشَّمس، مُستندينَ في كل صباح على واجهة مبنى بنك نابولي في الساحة الرئيسة لكاستل دي سانغرو، أظهروا، في أيام كَسَلِهم الأعظم، طاقةً أكثر من تلك التي بذلها الفريقان في الشَّوط الثاني.

ولكنَّ أزڤالدو، لإزالة أي ذرَّةِ شكٍ قد تظلُّ ماثلة، أخرج كلاوديو بعد مضيٍّ عشر دقائق، وأدخل ميكليني. لقد أخرج مدير كاستل دي سانغرو الفني نجمَه الوحيد في خطِّ الهجوم، والفريق متأخِّر بهدفَيْن ولم يبقَ سوى خمس وثلاثين دقيقة على انتهاء المباراة، لصالح إدخال لاعب خطٍّ وسط عجوز لم يُسجِّل أي هدفٍ في دوري الدرجة الثانية البتة، ولم يتمكن سوى من تسجيل هدفَيْن في الفئة الأولى بدوري الدرجة الثالثة طيلة مسيرته المهنيَّة التي امتدت ستة عشر موسماً.

وكانت النتيجة النهائية -ويا للمفاجأة!- باري 3، وكاستل دي سانغرو 1.

وفاز جنوا، 4-1، ولكنَّ باري سوف يصعد إلى دوري الدرجة الأولى.

ثم عاد السيِّد ريتسا إلى كاستل دي سانغرو، بعد أن حصل على ممرٍّ آمن على ما يبدو في ذلك اليوم.

41
نهاية الحكاية الخرافيَّة

لا بُد من الاعتراف أنَّ رفقتي لك لم تكن طيِّبةً على متن الحافلة. حاولتُ، بِقَدْر ما أستطيع، إيجادَ مُسوِّغ عقلانيٍّ لما قد شاهدته، لأذكِّر نفسي بقوى «النِّظام» الذي لم يكن لديَّ أدنى فهم لطبيعته على ما يبدو، ولكنَّ الغضب والقرف لم يفارقاني.

كان ريميديو الوحيد الذي لعب مباراة نزيهة، من بينهم جميعاً، وفقَ رأيي. كان جالساً قبالتي عبر الممر مباشرة، ولكنَّه سرعان ما أشاح وجهه إلى النَّافذة ولم ينظر إلى أحد لساعاتٍ ولم يكلم أحداً. لعلَّ هذا التصرُّف كان جزءاً مُستهجناً من تربيته مثلما كان كذلك بالنسبة إلـيَّ، ولكنني لم أرغب في أن أدفعه إلى المراوغة بسؤاله عن ذلك.

ثم سألني سبنيسي، في لحظة ما، إن كان ثمَّة شيء سيئ قد حدث.

فقلت: «شيئان يا جيوناتا. الأوَّل؛ أنت صغيرٌ جداً لتكون فاسداً جداً، وثانياً؛ لستَ ممثلاً جيداً أيضاً». سمع كثير من اللاعبين ملاحظتي، بَيْدَ أنْ لا أحد قد ردَّ، ولا حتى سبنيسي.

كان اللاعب الوحيد الذي تجاذبت معه أطراف الحديث هو لوقا دانجلو.

فقلت: «في النهاية، يا لوقا، أنت لا تمتلك شجاعة الأفكار السياسية التي تعتنقها».

فقال: «لا داعي للحديث».

«كلا، ولكنني اخترتُ أن أتكلم. أنتَ تتحدَّث عن «الألوية الحمراء Brigate Rosse» الذين ذاع صيتهم في سبعينيات القرن العشرين، بوصفهم أبطالك. لعلَّهم كانوا جبناء، أيضاً. قتل العُزَّل والذين لا يثيرون الريبة من أجل «نظامهم» الخاص.

«أنصحك ألا تتحدث بمثل هذا الهراء».

فقلت: «أعتقد، يا لوقا، أنَّ تشي جيفارا سيكون خجلاً منك».

لو كنت وصفتُ أمَّه بالعاهرة، لما كان وقع ذلك أشدَّ سوءاً عليه من هذه الإهانة. نظر إلـيَّ والحقد يتطاير من عينيه على نحو لم أعهده من بشر في حياتي قطُّ. كانت نظرته نظرةَ رجل لن يغدو صديقي أبداً بعد اليوم.

ثمَّ قال: «أرِّڤيدِير لَا! ArrivederLa». كانت هذه طريقة رسميَّـة جداً كي يقول المرء وداعاً؛ طريقة ليس فيها ذرَّةَ مودَّة من تلك التي تشي بها عبارة «أرِّڤيدِيرتشي arrivederci». وكانت تلك آخر كلمة قالها لي لوقا أبداً.

ثمَّ استلقيت في مقعدي، وأشحت وجهي إلى النَّافذة، متظاهراً بالنَّوم.

ولكنَّ روبيرتو ألبيرتي اقترب منِّي، حين وصلت الحافلة أخيراً إلى موقف السيارات خارج الاستاد، في الساعة الـ 2:10 صباحاً، وقال: «سنغادر في التاسعة لزيارة القبرَيْن»، فنظرت إليه وقد اغرورقت بالدُّموع عيناي.

قلت: «لا أستطيع الذهاب معكم، لأنَّني أعتقد بأنَّكم ستجلبون الخزي إلى القبرَيْن، بعد اليوم. أعتقد أنَّ پيُّو ودانيلو سيخجلان منكم، ومن الآخرين جميعاً. ولكنني أشكرك، شكراً جزيلاً، على دعوتي».

قال، دون أن تتغير ملامح وجهه البتة: «افعل ما يحلو لك يا جُو. افعل ما يحلو لك».

فاستدرت، عائداً أدراجي في الليل إلى شقَّتي.

قمتُ صباحَ الإثنين بترتيبات عودتي بالطَّائرة إلى الدِّيار يوم الثُّلاثاء. سيقلُّني جيوڤاني، ابن مارتشيلَّا، بسيَّارته إلى روما. قضيتُ معظم النَّهار في شقَّتي أحزم أمتعتي، ثم خرجت في أوائل العصر إلى المتجر عبر الشارع، لشراء بعض الجُبنة والخبز والنَّبيذ. لم أرغب في الحديث مع أحد. لم أُطق الذَّهاب إلى مطعم مارتشيلَّا. لم أرغب في رؤية اللاعبين الذين لا بُد عادوا من زيارتهم إلى قبر پيُّو وقبر دانيلو. رنَّ هاتفي مرَّات ومرَّات ولكنَّني لم أُجب.

وفي المساء، كتبتُ ملحوظةً وعلَّقتها على باب شقة أزڤالدو.

لو سُمح لي التَّعبير عن رأيي،
لوددتُ القولَ إنَّك قد أخزيت
مهنتكَ والكالتشيو على حدٍّ سواء.
كانت مباراة الأحد مخزية وشنيعة
وخيانةً لكل ما أومن به.
حسناً، سأسرد الحقيقةَ في كتابي.
وعلى الرَّغم من تورُّطك في هذا الاحتيال
المُشين، فإنَّني أعبِّر لك عن عظيم امتناني
لمساعدتي كثيراً في هذا الموسم.

أطيب التمنيات للموسم القادم،
راجياً أن تُبلِّغ تحيَّاتي الحارَّة إلى زوجتك.
وأرجو أن تُري هذه الملحوظة إلى غرافينيا أيضاً،
عرَّاب هذا النِّظام الإجرامي.

كان ضوء غرفة معيشتي مُناراً، في وقت متأخر من تلك الليلة، والستائر غير مُسدلةٍ بسبب الحَرِّ، فنظرت خارج النَّافذة، لأرى سپينوزا وزوجته وابنه يسيرون عبر موقف السيارات، الذي كان بمثابة طريق مختصرة إلى المقهى الذي تقدَّم فيه البوظة والقهوة في الهواء الطَّلق، حيث كان اللاعبون يستمتعون بتزجية أوقاتهم.

كان يستطيع رؤيتي بوضوح، فلوَّح بيده، ثمَّ أمسك هاتفه الخلويَّ. وبعد دقيقة رنَّ هاتفي. طلب منِّي أن ألاقيهم لاحتساء فنجان قهوة أخير، ففعلت. لاحظتُ، في طريق خروجي، أنَّ ملحوظتي قد أُزيلت من على باب شقة أزفالدو، وهذا غريب، فمن غير المتوقَّع أن يعود أزفالدو إلى البلدة قبل يوم الأربعاء.

وما كدت أصل إلى شرفة المقهى الخارجية المكشوفة، حتى رأيت أنَّ عائلة سپينوزا لم تكُن وحدها التي تجلس إلى إحدى الطَّاولات، وإنَّما رأيت غرافينيا والسيِّد ريتسا يجلسان إلى طاولة أخرى أيضاً.

فِسألت سپينوزا: «متى آخر مرَّة جاء فيها السيِّد ريتسا إلى هنا من أجل أن يأكل البوظة؟».

فقال: «ولا مرَّة».

فانتظرتُ ما سوف يحدث تالياً. ولم اضطر إلى الانتظار طويلاً. ففي أقل من خمس دقائق، كان غرافينيا يقف بجواري، راغباً على نحو واضح في قول أكثر من مجرَّد وداعاً.

فنهضت ثم استدرت كي أواجهه. لم أره على وشك أن يفقد السيطرة على أعصابه من قَبْل. كان غاضباً جداً، فلم تهتز يداه فحسب، وإنما تهدَّج صوته، واهتزَّ رأسه فوق عنقه حين تكلم، بصوت عالٍ وسريع.

أخبرني بأنَّ الملحوظة التي كتبتها لياكوني لم تكن إهانةً له فحسب، وإنَّما لـ «لا سوتشتا» أيضاً.

فقلت: «جيد، فهذا ما قصدته بالضَّبط».

ثم قال: إنَّها كانت أيضاً إهانة له وللسيِّد ريتسا شخصياً، ولا يمكن التَّساهل تجاه مثل هذه الإهانات الشخصيَّـة، ولا بُد من فعل شيء ما.

«حسناً، سأغادر غداً، فمهما يكُن الذي تنوي فعله، افعله بسرعة».

«إن ذكرتَ كلمةً واحدة في كتابك عن «الرَّشوة bustarella»، وعن أي مشكلة بخصوص مباراة باري، فسوف تندم جداً إلى درجة أنَّك لن ترغب في الكتابة ثانيةً. فهل تفهمني»؟ ونظر صوب السيِّد ريتسا، كأنَّه يريد أن يخيفني، ولقد أخافني فعلاً.

ولكنَّ غضبي كان أشدَّ من خوفي، فصحت: «لِمَ تنظر إليه؟ فهو لا يستطيع حتى القراءة».

فوضع غرافينيا إصبعه على صدري، فدفعته بعيداً، ولكن ببطء. كان ثمَّة جَمْعٌ قد احتشد في هذه الأوقات.

فراح يصرخ كيف سيجعلني أندم، إلى درجة أنَّني سوف أتمنَّى لو لم أذهب إلى إيطاليا في حياتي قطّ، وأنَّه سيسعى جاهداً إلى أنَّني لن أعود ثانية، وأنَّه سيحرص على إلا تُطبع نسخة واحدة في كتابي في إيطاليا بتاتاً.

ففقدتُ، حينئذ، كل ذرَّة احترام كانت لديَّ، وما تبقَّى من ضبط النَّفس.

«اخرس، أيها الأحمق! لا أُبالي بك أبداً»! ثم ضحكتُ وأشرتُ إليه. «هل تعتقد أنَّ أقراص DHEA ستساعد قضيبك على البقاء منتصباً. يا للغباء المطلق! أيها القذر! أيها الجنوبي»!

فسمعت سپينوزا ينادي: «جُو»!

وأصدر السيِّد ريتسا ضجيجاً، في الوقت ذاته، فاستدار غراڤينيا إليه. سرى بينهما تواصل سريع غير لفظي، ولم يقل غراڤينيا، بعد ذلك، سوى أنَّ محاميه سيعرِّضني لمتاعب جمَّة. حسناً، لقد عرَّضني المحامون إلى متاعب من قَبْل. لم يقلقني سوى حارسيه الشخصيِّين.

ولكنَّ ذلك كان نهاية المشهد. لا أعتقد أنَّ غراڤينيا كان مسروراً أن يَسمع حشدٌ، يتراوح بين خمسين ومئة شخص، انتقادي حول تعاطيه أقراص DHEA في محاولة لتحسين أدائه الجنسيِّ.

ثمَّ غادر السيِّد ريتسا وغراڤينيا، فأنهينا -أنا وسپينوزا- احتساءَ فنجانَي قهوتنا. لم تكن لديَّ أدنى فكرة عما دار في خلَد ابن سپينوزا الفتيِّ حول كل ما دار، ولكنها لم تكن مسألة أريد معرفتها.

هزَّ سپينوزا رأسه على نحو بدا كأنَّه حزن حقيقيٌّ، ثم قال: «لقد تهدَّم كل شيء. لقد تهدَّم كل شيء بينك وبين كاستل دي سانغرو إلى الأبد. آه يا جُو، إنك لا تُنصِت. إنَّه وقت الصَّوت الخفيض! وقت ألا يتعالى أي صوتٍ أبداً»!

«تملَّكني غضب شديد، يا پييرو».

«دائماً يا جُو، هذا أكثر الأوقات أهميَّـة كي لا يتعالى أي صوت».

فتنهدتُ كي أهدأ قليلاً. «أعرف أنَّك على حقٍّ، وأعرف أنَّني قد أخطأت في التحدث على ذلك النحو. وإنَّ قلبي لينفطر حين أفكِّر أنَّني سأغادر غداً ولن أرى أياً من هؤلاء اللاعبين ثانيةً أبداً».

«قد تراهم يا جُو، ولكن ليس هُنَا. لن تكون موضع ترحيب في كاستل دي سانغرو مرَّة أخرى».

«كان من المفترض أن تكون نهاية كتابي سعيدة».

«كان من الممكن أن تكون يا جُو، لو سمحتَ لها بأن تكون كذلك. ولكنَّك تترك خلفكَ أعداءً الآن وكثيراً من الضَّغائن. ومِن أجل ماذا؟ هل تظن أنَّك قد غيَّرت النّظام il Sistema»؟

«ولا مثقالَ ذرَّةٍ». أُقرُّ بذلك.

فقال: «يا للخسارة».

فسألته: «ما الذي يتوجب فعله»؟

فهزَّ رأسه. «لا شيء. فلقد سبقَ السَّيفُ العَذَل».

ثم نهض، قائلاً إنَّ الوقت قد حان لعودته إلى البيت، وإخلاد ابنه إلى النَّوم. فعانقتُ الصبيَّ، ثمَّ عانقت فابيرتسا، وعانقت سپينوزا عناقاً أشد.

قلت: «أتمنَّى أن تظلَّ صديقي على الأقل».

فقال: «دائماً. رحلة سعيدة».

ثمَّ سار مبتعداً رفقةَ عائلته، عائدينَ أدراجهم إلى موقف السيارات الذي يُفضي إلى السلالم الحجرية الصاعدة إلى منزلهم الجميل مقابل الكنيسة التي قُصِفتْ في الحرب. سپينوزا، الرَّجل الذي صنع المعجزة. لعلَّه الأفضل في زُمرةٍ من الرِّجال الطَّيِّبين.

عرفتُ أنّني سأفتقدهم طيلة حياتي، بصرف النظر عما حدث في باري.

أجل، كنت سأحظى بنهاية سعيدة لو غادرتُ قبل أسبوع، بيّدَ أنَّ الوقت قد فات. فما جرى قد جرى Quello che e fatto e fatto.

لا بأس، فليس لكل الحكايات الخرافية نهايات سعيدة، ولا تدوم جميع المعجزات إلى الأبد.

شكر وتقدير

أود شُكر الأشخاص التالية أسماؤهم الذين أسهموا كثيراً بطريقة أو أخرى في نوعية الوقت الذي قضيته حتى الآن في متابعة «الكالتشيو il calico» في إيطاليا. ألكسي لالاس وجيل مكنيل، ومايكل كريك، فيتُّوريو بيترونه، روبيرتو باجيو، بيرتو ليوناردي وسيرينا ناليسُّو، ريناتو وكارلا غروبُّو، وماسيمو پاسيفيكو، بيل وإيدويج كولمن، وباربرا جيانيني، وكورَّادو ميرالدي، وماريو جياكوينتو، وإيتالو غوتشي، وليوپولدو غـاسبـارو، وأنـدريـا سـكيـانتشي، وليونـاردو ليونـاردي، وڤـنتشنسـو فرانسكونه، وماوريتسيو دانلجو پترارکا، وغلاوكو پالتسانو، ومسؤولي «لِتِلْ كلَبْ أُف جَنَوَا»، و«الرَّائد» حيثما قد يكون، وأهالي كاستل دي سانغرو الأشدَّاء الذين كانوا في غاية اللُّطف - كل واحدٍ منهم- وعلى رأس هؤلاء، بالطَّبع، «فتية» كاستل دي سانغرو وعائلاتهم الذين سمحوا لي بسخاء، بعضَ الوقت، بتوهُّم أنَّني كنت واحداً منهم.

وأعرب عن عميق شكري وصدق امتناني إلى مارتشيلَّا وعائلتها، وإلى أزڤالدو ياكوني، أروع جار يمكن أن يحظى به المرء.

ألا نتمنَّى جميعاً لو أنَّ الأمور قد انتهت على نحو مختلف.

جُو مَاكغينيسْ

وليامز تاون، ماساتشوستس

15 يناير 1999

الهوامش:

1 Serie B: دوري الدرجة الثانية في إيطاليا (المترجم).

2 Padua هو اللفظ الإنكليزي الذي يطلق على مدينة Padova. وعُرفت هذه المدينة عند العرب باسم «بَاذُوَة»، بحسب اللفظ الذي يورده الشريف الإدريسي في «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» (المترجم).

3 La Scala: أشهر مسرح ودار أوبرا في العالم. والمؤلف يقصد، بهذا التشبيه، أنَّ ستاد سان سيرو هو أشهر ملعب كرة قدم في العالم (المترجم).

4 Star Spangled Banner: النشيد الوطني الأمريكي (المترجم).

5 Major: رتبة عسكرية (المترجم).

6 يُورد المؤلف هنا اللفظة الإيطالية (tifoso) التي تعني المشجع المتعصِّب (المترجم).

7 باتت تعرف في الوقت الحاضر ببطولة كأس العالم للأندية (المترجم).

8 يقصد بطولة كأس ليبرتادوريس (المترجم).

9 تجدر الإشارة، هنا (وفي مواضع مختلفة من الكتاب) أنَّ اللغة المستخدمة هي «عامية مكسرة»؛ فجوزبِّه يتحدث بالإنكليزية كما يعنُّ على باله، منتقياً الألفاظ التي يعرفها لتوصيل المعنى الذي يريده دون أدنى معرفة بالتركيب الصحيح للجملة في اللغة الإنكليزية. فنراه هنا يستخدم، على سبيل المثال عبارة: «I take you the details of your arrive»، راصفاً الكلمات وراء بعضها، بلا تسلسل لغوي منطقي، في محاولة منه ليقول حرفياً: «لقد حصلتُ لكَ على تفاصيل رحلة قدومك إلى كاستل دي سانغرو»، أو شيئاً من هذا القبيل (المترجم).

10 وهذا مثال آخر على طريقة اللفظ «المكسرة» التي يستخدمها جوزبِّه؛ فهو هنا يلفظ كلمة «mountain» الإنكليزية على هذا النَّحو: «montain» (المترجم).

11 هكذا هي في النص، بحسب صيغة التوقيت العسكري؛ أي: الساعة الثالثة وست دقائق عصراً (المترجم).

12 وهذا مثال ثالث على إنكليزيَّة جوزبِّه، فهو هنا يقول «this days» (يستخدم ضمير الإشارة إلى المفرد مع الجمع) عوض أن يقول «these days» (المترجم).

13 هنا، إشارة إلى الشعب الذي كان يقطن جزيرة لِيلِيبُتْ المتخيَّلة في رواية «**رحلات غَلِفَر**» (1726) للروائي جونثن سويفت (1667– 1745). سكّان هذه الجزيرة من الأقزام الذين لا تتجاوز أطوالهم عشرة سنتمترات (المترجم).

14 نلحظ، هنا، من طريقة صياغة هذه العبارة «five 'undred thousand»، أنَّ السائق قد لفظَ بداية «خمس مئة»، ثمَّ أردفها بقوله ألف. أعتقد أنَّه كان يقصد القول «خمسة آلاف»، فمن غير المعقول أن تكون الأجرة «خمسمائة ألف» (المترجم).

15 يقصد، بالطبع، القرن العشرين؛ فالكتاب صدر في طبعته الأولى في الثالث من أغسطس سنة 2000 (المترجم).

16 التأسُّل: الاقتداء بالسَّلف. تقول العرب: تأسَّل أباه: أي «أشبهه وتخلَّق بأخلاقه» (المترجم).

17 وتعني حرفياً: المرأة الفائقة الجمال التي يتهلَّل وجهها ضوءاً (المترجم).

18 الفترة التي في المنتصف بين الظهيرة وغروب الشمس، وتتمحور حول الساعة الثالثة عصراً على وجه الخصوص (المترجم).

19 يتحدث جوزبِّه، بإنكليزيَّته المكسَّرة، هنا، عن القطار بضمير المؤنث، فيقول: she is not arrive (المترجم).

20 العبارة بالإيطالية في الأصل: ciaos. وكلمة «تَشاوْ Ciao» تعني: مع السلامة، وداعاً، إلى اللقاء، إلخ. وهي مستخدمة -في لفظها الإيطالي، هذا، ودلالة معناه- في الحديث العامِّي، في أغلب الدول العربيَّة (المترجم).

21 نلحظ، هنا، أنَّ جوزبِّهْ قد ظنَّ «see» (يرى) -المستخدمة في كلام المؤلف، في الجملة السابقة- أنَّها كلمة «si» الإيطاليَّة التي تعني «نعم» (المترجم).

22 استخدمتُ كلمة «نعم» مقابلاً لكمة «si» الإيطالية، و«أجل» مقابلاً لكلمة «yes» الإنكليزيَّة، للتفريق بينهما في النص (المترجم)

23 يلفظ جوزبِّهْ، هُنَا، كلمة «ski» الإنكليزية، التي تعني «التزلج على الثلج، بإنكليزيته المكسَّرة، على هذا النَّحو «schee»، ولهذا لم يفهم الكاتب ماذا يقول. اجتهدت أن أضع لفظة «تزحلق» كبديل لكلمة «schee»، لإضفاء بعض الغموض على معنى الكلمة، كما هو في اللفظ الإيطالي (المترجم).

24 إشارة إلى الإيطاليِّ ألبيرتو تومبا Tomba، بطل العالم السابق في التزلج على الثلج (المترجم).

25 إشارة إلى الهدف الأسطوري الذي سجله سعيد العويران في مرمى المنتخب البلجيكي، بعد أن راوغ أربعة لاعبين (المترجم).

26 بالإيطالية، في الأصل: milanisti؛ وتعني «مشجعي فريق ميلان المتعصِّبين». وقد آثرتُ استخدام لفظة «ميلاناويَّة» (على شاكلة «الزَّملكاويّة» و«الأهلاويَّة»، إلخ) كبديل لهذه اللفظة (المترجم).

27 بالإيطالية في الأصل: La Societa. والكلمة تعني حرفياً: شركة، مؤسسة، منظمة، ولكنَّها هنا تعني إدارة نادي كرة القدم (المترجم).

28 إشارة إلى الأسطورة التي تقول إن المرء سوف يعثر على جرَّة ذهب مدفونة في المكان الذي

يلامس فيه قوس قزح الأرض. وقد درجت العبارة للإشارة إلى قدرة المرء على تحقيق الثراء الفاحش وتحقيق المستحيلات والآمال العظيمة في حياته (المترجم).

29 بالإيطاليّـة، في الأصل: cumuni، وتعني: المجتمعات الصغيرة التي يعيش فيها عدد من الأفراد يتشاركون الموارد والممتلكات ولا سلطة مركزيّة تحكمهم، وهي أقرب إلى المجتمعات المشاعيّـة (المترجم).

30 ثمّة إشارة، هنا، من المؤلف إلى جوزبّه الذي وجد صعوبة في لفظ الكلمة، فنطقها «schee»، كما مرَّ سابقاً (المترجم).

31 يضع المؤلف، هنا، كلمة «فندق Hotel»، بلفظتها الإنكليزيّـة، بين معقوفين، في إشارة إلى أنّها ليست في الأصل جزءاً من اسم الفندق بالإيطاليّـة، وإنما يضع المقابل الإنكليزي لكلمة albergo؛ فاسم الفندق هو «Albergo Coradetti» (المترجم).

32 بالإيطاليّـة، في الأصل (Grazie. Molto Grazie)، وتعني: «شكراً. شكراً جزيلاً». وقد آثرتُ إبقاءها بلفظها الإيطاليّ (وهي والألفاظ الأخرى الواردة في سياق هذا الحوار بعدها) دون ترجمة، كي لا يتهدّم سياق الحديث، كما أورده المؤلف قصداً، وبخاصّة أن باربرا تريد هنا تعليمه التحدث بالإيطالية (المترجم).

33 بالإيطاليّـة، في الأصل (prego)، وتعني: «عفواً» (المترجم).

34 بالإيطاليّـة، في الأصل (Mangia. Mangia!)، وتعني: «تناول طعامك، تناول طعامك» (المترجم).

35 لقب الدُّون Don في إيطاليا وإسبانيا والبرتغال لقب شرفيٌّ يدلُّ على المكانة الرفيعة، ويعني القائد أو السيد (المترجم).

36 بالإيطالية، في الأصل: raggazi، وتعني: الأولاد الذكور؛ ولكنها تتعدى المعنى الحرفيّ لتدلَّ على الرّابط الوثيق الذي يجمع بين الرجال (وتنسحب على النساء أيضاً) ضمن فريق أو حلقة ضيِّقة، إلخ (المترجم).

37 .بالإيطالية، في الأصل: campo، وتعني: حقل/ساحة/مجال، ولكنّها تعني هنا ملعب كرة القدم (المترجم).

38 نستخدم كلمة «فرقة» مقابلاً للفظة «squad»، في حين نستخدم كلمة «فريق» كمقابل لكلمة «team» (المترجم).

39 بالإيطالية، في الأصل: Lo scudetto، وتعني: الدِّرع الصغير؛ إشارة إلى الشّارة التي ترتديها الأندية التي فازت بالدّوري في السنوات السابقة (المترجم).

40 بالإيطالية، في الأصل: *Campionato Promozione*، وتعني: بطولة الترويج وهي: «المستوى السادس من بطولة كرة القدم الإيطالية. وقسم الهواة الثالث في الترتيب الهرمي، والثاني على المستوى الإقليمي ، ويتم تنظيمه من قبل اللجان الإقليمية للرابطة الوطنية للهواة»

المترجم.

41 بالإيطالية، في الأصل: Prima Categoria و Seconda Categoria: الفئة الأولى، والفئة الثانية (المترجم).

42 عبارة «تطوّق عنقه مثل حجر الرَّحى» التي يستخدمها المؤلف، هنا، مأخوذة من الآية السادسة من الإصحاح الثامن عشر من إنجيل متّى «وَمَنْ أَعْثَرَ أَحَدَ هؤُلاَءِ الصِّغَارِ الْمُؤْمِنِينَ بِي فَخَيْرٌ لَهُ أَنْ يُعَلَّقَ فِي عُنُقِهِ حَجَرُ الرَّحَى وَيُغْرَقَ فِي لُجَّةِ الْبَحْرِ»، في إشارة إلى العبء الثقيل الملقى على عاتقه (المترجم).

43 هنا إشارة إلى الاسم المستعار الذي باتت تعرف به شبه الجزيرة الإيطالية التي تتّخذ هيئة الجزمة على الخارطة؛ والمعنى هنا أنّ ليتشه تقع في أقصى جنوب شرق إيطاليا، في منطقة سالينتو التي يطلق عليها اسم «كعب إيطاليا» (المترجم).

44 يورد المؤلف، هنا، عبارة: «pinching pennies so hard, his forefingers and thumbs turned black and blue»، وتعني حرفياً: أنَّ غراڤينيا ولشدّة ما يقبض على النقود ويفركها بين إبهاميه وسبّابتيه قد تلوّنت أطرافها بالأسود والأزرق، كناية عن شدّة بخل الرجل وحرصه الشديد على عدم الإنفاق (المترجم).

45 بالإيطالية، في الأصل: l'uomo della provvidenza (المترجم).

46 بالإيطالية في الأصل: Di miracolo in miracolo (المترجم).

47 وردت بلفظ «طَرُوْنَة» عند الإدريسي في كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (المترجم).

48 وردت بلفظ «بَلَرْم» عند ياقوت الحموي في معجم البلدان، وكذا عند الإدريسي في نزهة المشتاق، وعند ابن حوقل في صورة الأرض (المترجم).

49 بالإيطالية، في الأصل: Grazie mille, signore. Lei e molto gentile (المترجم).

50 هنا يحمل الكاتب كلمة «che» على غير معناها الأصلي، فيقول: «what the che did you tell them»، لتكون أقرب في معناها إلى عبارة: بحقّ السَّماء؛ بحقّ الجحيم؛ إلخ (المترجم).

51 Sea River Club، ويعني حرفياً: نادي النهر البحري (المترجم).

52 طوق الخنق (garotte) أو العاصبة الإسپانية: الحبل الذي يستخدم في الإعدام خنقاً (المترجم).

53 بالإيطالية، في الأصل: la Potenza della speranza (المترجم).

54 المدرَّجات المنحنية curva: مصطلح إيطالي يطلق على المدرجات التي تقع خلف المرمى، وتكون مشيَّدة في الغالب على هيئة منحنية أو مقوّسة، تحتشد فيها الجماهير المتعصّبة على وجه الخصوص (المترجم).

55 بالإيطالية، في الأصل: mercoledi. وهذه الجملة مثال جديد على اللغة المكسرة التي يستخدمها جوزبّه، حيث يصوغها على النحو التالي: «He tell me to remember you that

the 'otel will be close on mercoledi» (المترجم).

56 يستخدم جوزبّه، هنا، بسبب جهله باللغة، ضمير المؤنث she (المترجم).

57 وهنا يستخدم ضمير المذكر he (المترجم).

58 ويلفظ Wednesday على هذه الشاكلة: Wen-ness day. وهي أقرب، في غرابة لفظها هذا، إلى قولنا في العاميَّة: «يوم لَرْبَعَا/لَرْبَعْ/لِربْعَا»، بدل «يوم الأربعاء»، أو شيء من هذا القبيل (المترجم).

59 وهنا يلفظ جوزبّه this على هذه الشاكلة: thees (المترجم)

60 بالإيطاليَّة، في الأصل: Mercoledi. Ogni volta. Chiuso, Ecco fatto!. وتعني حرفياً «يوم الأربعاء. في كل مرة. مغلق، قُضي الأمر!». ويستخدمها جوزبّه بلفظها الإيطاليّ هذا تأكيداً للكلام الذي قاله بالإنكليزية في الجملة التي قبلها (المترجم).

61 أي أنه يعمل في أكثر من عمل في وقت واحد. يشبه المثل الشعبيّ: «يحمل عشر بطيخات في يد واحدة» (المترجم).

62 يستخدم المؤلف هنا عبارة: «stair-bounds»، كوحدة قياس افتراضيَّة، للإشارة إلى وزن الأمتعة الكلي التي سوف يصعد بها على سلالم الطوابقَ الأربعة (المترجم).

63 كان المؤلف في البداية قد طلب زجاجة الكوكا كولا بالإيطاليَّة، ثم حين عرف بعدم وجود كوكا كولا في الفندق، راح يعبر عن غضبه بالإنكليزية (المترجم).

64 ذكرت سابقاً، وتعني حرفياً: مغلق (المترجم).

65 Cot: سرير صغير يُطوَى في العادة ويستخدم في التَّخييم، ويطلق أيضاً على أسرَّة الأطفال الصغيرة (المترجم).

66 بالإيطاليَّة، في الأصل: La potenza della speranza. Si, si, grazie a Lei. Ciao, ciao, ciao, ciao, ciao. وتعني، كما ورد سابقاً في أماكن مختلفة من الكتاب: «قوَّة الأمل. نعم، نعم، شكراً لكم، إلى اللقاء، إلى اللقاء . . .». وقد آثرت الإبقاء على لفظها الإيطالي (وذكر معناها في الهامش) لأنها، بصيغتها هذه، جزء أساسيٌّ، من بنية السَّرد وأسلوب الكاتب (المترجم).

67 A rising tide lifts all boats، وهي عبارة صاغها، في الأصل، الرئيس الأمريكي كيندي لوصف الفكرة القائلة إنَّ الاقتصاد حين يسير على أكمل وجه فإنَّ الجميع يستفيدون، ثم أصبحت العبارة تطلق على كلِّ عمل جيد تعمُّ خيراته على الجميع (المترجم).

68 a drunk throwing darts on a map: إشارة إلى تعثُّر مسيرته، وتشعُّب الطريق التي سلكها، وبُعْد الأماكن التي ذهب إليها، كأنَّ طريقه قد رُسِمَتْ بحسب المواقع التي تسقط فيها السِّهام المُريّشة التي يقذفها على الخريطة سكّيرٌ يترنَّح (المترجم).

69 وردت Civitavecchia بلفظ «جبت بكه» عند المسعودي في نزهة المشتاق (المترجم).

70 وردت Pavia عند المسعودي بلفظ «بَابِيَة» (المترجم).

71 بالإيطالية، في الأصل: molto bravo domenica، ومعناها مذكور في سياق الحديث الذي يليها (المترجم).

72 يقصد علاقة غير رسميَّة متحرِّرة من أيِّ تكلُّف، فالـ «tu» تستخدم في التخاطب غير الرسميّ لقول أنت، كما مرَّ سابقاً (المترجم).

73 بالإيطالية، في الأصل: un bel pasticcio. وكان يقصد باستخدامها أن يقول: «مباراة جميلة»، ولكنها كانت العبارة الخطأ، كما يتَّضح من سياق الحديث في الأسطر اللّاحقة (المترجم).

74 بالإيطالية، في الأصل: ?Si, davvero، وتعني «نعم، حقاً؟»، كما يشرح المؤلف في الجملة التي بعدها (المترجم).

75 بالإيطالية، في الأصل: ?Perche، وتعني «لماذا؟»، كما يشرح المؤلف في الجملة التي بعدها (المترجم).

76 كريم عبدالجبَّار: لاعب كرة السلَّة الأمريكي الشهير (المترجم).

77 بالإيطالية، في الأصل: la stagione e lunga e dura. والجملة التي بعدها تشرح المعنى (المترجم).

78 بالإيطالية، في الأصل: Niente!. وتعني: «لا شيء»، بحسب الجملة التي قبلها (المترجم).

79 بالإيطالية، في الأصل: Benvenuto a Castel di Sangro!. A casa mia tu sei sempre il benvenuto. Saro lieto di poterti essere utile in qualsiasi cosa, e anche i presenti sono invitati a rispondere sempre alle tue domande!، ومعناها في سياق الحديث الذي يلي ذلك (المترجم).

80 هنا، بالطَّبع، يترجم كريستيان ما قاله ياكوني بإنكليزية مكسَّرة، لا يصلح نقلها إلى العربيَّة كما هي (المترجم).

81 بالإيطالية في الأصل: Mamma mia، وتعني: يا إلهي (المترجم).

82 بالإيطالية، في الأصل: Chiuso، وتعني: «مغلق»، كما ورد معناها سابقاً (المترجم).

83 بالإيطالية، في الأصل: Io sono il famoso scrittore americano، وتعني أنا الكاتب الأمريكي الشَّهير (المترجم).

84 بالإيطالية، في الأصل: Sono imprigionato in questo albergo! (المترجم).

85 بالإيطالية، في الأصل: Aiuto! Aiuto! Per piacere!، وتعني: النجدة! النجدة! أرجوكم! (المترجم).

86 بالإيطالية، في الأصل: Aiuto! Subito!. والجملة التي بعدها تشرح المعنى (المترجم)

87 بالإيطالية، في الأصل: mannaggia، وتعني: «اللعنة»، كما هو موضَّح في العبارة التي بعدها. وهي تستخدم في الإيطالية للتعبير عن حالة الانشداه والذهول التي تنتاب المرء حين

يفقد صبره أو يكون محبطاً أو ينتابه الضيق، إلخ (المترجم).

88 بالإيطالية، في الأصل» Permesso، وتعني هنا: نطلب الإذن بالدُّخول (المترجم).

89 بالإيطالية، في الأصل: ?Ciao. Come va?Bene. ومعناها مشروح في الجملة التي تليها (المترجم).

90 بالإيطالية، في الأصل: grazie. Pero un attimo, per piacere. والجملة التي تليها تشرح المعنى (المترجم).

91 بالإيطالية، في الأصل: Certo, Jo, Certo (المترجم).

92 بالإيطالية، في الأصل: «L'ultima settimana، والجملة التي بعدها تشرح المعنى (المترجم).

93 بالإيطالية، في الأصل: Ho detto. ومعناها في الجملة التي تليها (المترجم).

94 بالإيطالية، في الأصل: Ho detto, un bel pasticcio. وقد تم التطرق إليها سابقاً، عندما حاول المؤلف القول بالإيطالية: «مباراة جميلة»، ولكنه استخدم العبارة الخطأ. وهو يخبره هنا بأنَّه كان ينوي أن يقول له، عند لقائه الأول، عبارة: «إنها مباراة جميلة» (المترجم).

95 بالإيطالية، في الأصل: ricordo. وتعني، بحسب العبارة التي بعدها، يتذكَّر(المترجم).

96 بالإيطالية، في الأصل: Quello era un errore. ومعناها بحسب الجملة التي تليها (المترجم).

97 بالإيطالية، في الأصل: Volevo dire. ومعناها، بحسب الجملة التي بعدها، «كنت أعني» (المترجم).

98 بالإيطالية، في الأصل: ?Noi siamo amici, no. ومعناها في الجملة التي بعدها (المترجم).

99 بالإيطالية، في الأصل: Io la leggo. ومعناها في الجملة التي بعدها (المترجم).

100 بالإيطالية، في الأصل: A lui. وتعني إليه هو، كما هو وارد في سياق الحديث (المترجم).

101 بالإيطالية، في الأصل: Io sono in panchina، ومعناها في الجملة التي بعدها. (المترجم).

102 بالإيطالية، في الأصل: ?Che fai. ومعناها في الجملة التي بعدها (المترجم).

103 بالإيطالية، في الأصل: Sto cercando i quadrifogli، ومعناها، بحسب ذكره في السِّياق: «أبحث عن زهر البرسيم رباعيِّ الأوراق» (المترجم).

104 بالإيطالية، في الأصل: Scusa, non capisco. ومعناها في الجملة التي بعدها (المترجم).

105 بالإيطالية، في الأصل: Aspetta. ومعنا في الجملة التي بعدها (المترجم).

106 بالإيطالية، في الأصل: Niente (المترجم).

107 بالإيطالية، في الأصل: I quadrifogli portano bene, no، ومعناها في الجملة التي بعدها (المترجم).

108 بالإيطالية، في الأصل: anche in America، والمعني في الجملة التي بعدها (المترجم).

109 بالإيطالية، في الأصل: Si, Certo. In tutto il mondo. ومعناها في الجملة التي بعدها (المترجم).

110 بالإيطالية، في الأصل: Questo campo. Per te e speciale, no?U miracolo?. ومعناها في الجملة التي بعدها (المترجم).

111 بالإيطالية، في الأصل: Piangevo, piangevo. Quando ho visto Spinosa, ho detto, 'No, no, no! Ma. Eccoci qua. Speriamo in meglio (المترجم).

112 Trick-or-treat: «يقوم الأطفال، الذين يتنقّلون من بيت إلى آخر، في عيد الهالووين، طلباً للحلوى، بإلقاء هذا السؤال على من يفتح الباب. فإن لم يعطهم الحلوى، فيحق للطفل إلقاء خدعة أو سحر على صاحب ذلك المنزل» (المترجم).

113 بالإيطالية، في الأصل: il commendatore، وهنا إشارة إلى أوبرا «دون جيوڤاني» للموسيقار النِّمساوي موتسارت (المترجم).

114 بالإيطالية، في الأصل «Esattamente»، ومعناها في الكلمة التي بعدها (المترجم).

115 بالإيطالية، في الأصل: La squadra e senza umilta (المترجم).

116 بالإيطالية، في الأصل: Peccato! Nessuno e molto capace. Forse solo Lotti (المترجم).

117 بالإيطالية، في الأصل: Non capacita. Ho detto umilta!. (المترجم).

118 بالإيطالية، في الأصل: Sicuro nessuno ha le capacita! Quello non e il problema! E'che mancano d'umilta! (المترجم)

119 بالإيطالية، في الأصل: Gangsta rap (المترجم).

120 إشارة إلى شخصية هوراشيو في مسرحة هاملت لشكسبير (المترجم).

121 يقصد: أحد سكان روما (المترجم).

122 يقصد درجة فهرنهايتية، بحسب المقياس المستخدم في أمريكا؛ وأربعون درجة فهرنهايتية، على سبيل المثال، تعادل نحو 4,44 درجة مئوية أو سيليزية. (المترجم).

123 حيث يقوم اللاعبون بالمزج بين مهارات كرة السلّة ومهارات كرة القدم في التدريب، كأن يقوم اللاعب بتنطيط الكرة بيده، على شاكلة لاعب كرة السلّة، ويقوم، في الوقت ذاته، بركل كرة أخرى بقدمه (المترجم).

124 كلمة Impresario، تعني: متعهِّد/مدير الحفلة؛ وجياكومو هو الاسم الأوّل لغالي (المترجم).

125 يستخدم المؤلف هنا عبارة «درويش dervish» للإشارة إلى السرعة الفائقة التي يتمتّع بها كريستيانو، ودورانه المستمر في محيط المنطقة التي يلعب بها، كالدراويش، سيراً على المثل الإنكليزي: whirl like a Turkish dervish (المترجم).

126 إشارة إلى ستيف أوستن الرجل الخارق في المسلسل الذي يحمل العنوان نفسه (المترجم).

127 يلفظ ميكليني، هنا، كلمة «محظوظ lucky»، على هذا النَّحو: looky (المترجم).

128 بالإيطالية، في الأصل: (Da dove sei venuto) (المترجم).

129 يلفظ جوزبّه هذا السؤال بإنكليزية مكسّرة على هذا النّحو: (From which places you be

arrive)، ويمكن ترجمته: «من أيِّ الأماكن سوف تصل» (المترجم).

130 كناية عن أنَّ أداءهما في غاية الرداءة، كأنَّهما غير موجودين في الملعب (المترجم).

131 Rub salt in the wound: عبارة تستخدم في الإشارة إلى جعل الأمور السيئة تزداد سوءاً على نحو شنيع (المترجم).

132 Ey, 'ey, Elle Bee Zhay' : هنا إشارة إلى الشِّعار الذي رفع في أثناء الحرب الفيتناميَّة ضدَّ الرئيس ليندن بنز جونسن، الذي كان يعرف بأحرف اسمه الأولى LBJ، التي وردت في هذا الشِّعار (المترجم).

133 إشارة إلى والد زوجته (المترجم).

134 Pippo: تصغير Filippo (اسم بيوندي الأوّل) في الإيطالية (المترجم).

135 il divino codino: إشارة إلى تسريحة الشعر التي اشتهر بها روبيرتو باجيو، حيث كان يعقد شعره على شكل ذيل حصان (المترجم).

136 إشارة إلى الأغنية الشهيرة من فيلم: «The Wizard of Oz» (المترجم).

137 يقصد، هنا، قيام بونيك بتمثيل أنَّه لاعب نيجيري، ومن ثم كان لا بُدَّ أن يدهن وجهه باللون الأسود. وهذه، في حدِّ ذاتها، ممارسة عنصريَّة؛ فمصطلح: «blackface» يستخدم في أمريكا حين يعمد الممثل الأبيض، لتسلية الجمهور الأبيض، بدهن وجهه باللون الأسود، والسخرية من السود: ثقافة ولغة وتاريخاً (المترجم).

138 إشارة إلى شكل شبه الجزيرة الإيطالية التي يشبه الجزمة على الخريطة (المترجم).

139 إشارة إلى حادثة إعدام الحكم شنقاً من طرف الجماهير الغاضبة بتشيلانو، كما مرَّ سابقاً (المترجم).

140 بالإيطالية، في الأصل: Squadra Speciale: Operazione Simpatia - un'avventura di Serie B (المترجم).

141 المعنى الحرفي لكلمة forza في الإيطالية، يعني: القوّة. ولكنَّها تأخذ في الاستخدام اليوميِّ بُعداً أوسع، بحيث تكون أقرب إلى عبارة: «هيا، يمكنك فعل ذلك» حين يريد المرء أن يشجِّع الآخرين على فعل شيء ما ويحثُّهم عليه (المترجم).

142 بالإيطالية في الأصل: (.Fidel... Fidel... Joe, viviamo in un mondo in cui tutto e possibile Forza Castró! Forza il Comunismo! lo dedichero la mia stagione alla gente coraggiosa di Cuba!») (المترجم).

143 لأنَّ الكلام الذي قاله ميكلّيني حول الطقس كان بإيطاليَّة لم يفهمها المؤلف (المترجم).

144 هكذا يلفظها: ('urricane') دون حرف الهاء في البداية، وتشديد نطق الحرف الأول (المترجم).

145 بالإيطالية، في الأصل: (troppo stress, troppo ansia. Un disturbo da stress, colpa

dell’ansia. Capita, Joe) (المترجم).

146 كناية عن استحالة حدوث الشيء. والعبارة بالإيطالية، في الأصل (المترجم).

147 العالم الأسطوري الذي أوجده الروائي سي. إس. لويس في سلسلته الروائية «سجلّات نارنيا» (المترجم).

148 تُعدّ مدينة «لا باس La Paz»، عاصمة بوليڤيا، أعلى عاصمة في العالم؛ ترتفع أكثر من 13000 قدم فوق سطح البحر (المترجم).

149 آثرت، هنا، استخدام كلمة «شديد» مقابل «hard»، بدلاً من «شاق»، الأنسب في هذا المقام، تماشياً مع ما توحي به اللفظة في الجملة التي بعدها (المترجم).

150 A Lie, Fiorentina: والذي يعني حرفياً: من أجلك، يا فيورنتينا (المترجم).

151 Finger-across-the-lips gesture: تلك الإشارة التي يستخدمها المرء حين يريد أن يزجر شخصاً ليسكت؛ أن يقول له «هُسْ» (المترجم).

152 أي أن غرافيينا قد خدع كلاوديو حين أبلغه أنّ سبب عدم إتمام الصفقة عائد إلى أنّهم لا يرغبون بالتخلي عنه، ولا يتعلق الأمر بالمال (المترجم).

153 إشارة إلى أنّ ياكوني كان يُقدِّر «شخصيّة» اللاعب أكثر من تقديره موهبته، كما مرّ سابقاً (المترجم).

154 وتعني بلوغ نقطة اللاعودة. وعبارة الكاتب هذه: «our die appeared to be cast»، مأخوذة من العبارة الشهيرة التي قالها يوليس قيصر، حين عبر بجيوشه نهر روبيكون: the die is cast (المترجم).

155 عبارة المؤلف هذه: our doom sealed»، مأخوذة من عبارة: «seal your doom»؛ في إشارة إلى حكم الموت، الذي كان لا يُنفذ في العصور القديمة، إلا بعد أن يُمهر بختم الملك (المترجم).

156 التعبير الحرفي الذي يستخدمه المؤلف هو «walking side effect»، أي: «عرضٌ جانبيٌّ يسير على قدميه»، إشارة إلى حالتها المرضية المتفاقمة، بحيث يمكن أن تنشأ عن الأودية التي تتناولها أعراضٌ جانبية ومضاعفات لا يُحمد عقباها (المترجم).

157 عنوان رواية الأمريكي جوزيف هيلر. ولكنه هنا يقصد المعنى الذي تنطوي عليه هذه العبارة، كما صاغها هيلر في روايته، من حيث إنّها تشير إلى «المأزق الذي يقع فيه المرء نتيجة الظروف المتناقضة التي تحيط به»؛ وهي في حالة لوتّي، هنا، اشتراط أن يلعب مع فريق كاستل دي سانغرو مرّة أخرى، قبل انتقاله للعب في أمريكا (المترجم).

158 حين عرقل لاعب كوزنتسا في منطقة الجزاء على نحو أخرق، فمنح فريق كوزنتسا ضربة جزاء سجل منها هدفاً (المترجم).

159 نسبة إلى مدينة روما (المترجم).

160 كناية عن الموت (المترجم).

161 إشارة إلى الآية 12 من الإصحاح 24 من إنجيل لوقا: «فوجدنَ الحجرَ مدحرجاً عن القبر» التي تشير إلى قيامة السيِّد المسيح (المترجم).

162 بمعنى أنه ليس بريئاً. وآثرت المحافظة على استخدام كلمة «نظيف» لتتناغم مع ظلال معانيها المستخدمة في العبارات التي تليها: ضمير أقل نظافة، ودم غير نظيف (المترجم).

163 الفارق بين مجموع النقاط التي حصل عليها تشيزنا وتلك التي حصل عليها كاستل دي سانغرو (المترجم)

164 عرفت «تريسته Trieste» لدى العرب، بحسب ما يورده المسعودي في نزهة المشتاق، باسم «إسطاجانكو» (المترجم).

165 pulling goals down from the dustiest shelves in the barn: كناية عن قلّة الأهداف التي سجّلها الفريق، وصعوبة تمكّنهم من ذلك (المترجم).

166 نسبة إلى عالم النفس كارل يونغ (المترجم).

167 يقصد أن المافيا قد رشت السلطات للإفراج عن جيجي (المترجم).

168 أي حين وصفت لوتي بأنّه مريخي، أو أحد سكان المريخ في مجتمع من البشر الفانين، بدلاً من وصفه بالإله (المترجم).

169 عادة ما تكون الـ split نصف زجاجة نبيذ سعة 375 مللتر (المترجم).

170 هنا يلفظ أنجلو كلمة: «bills» التي تعني أقراص، على هذا النَّحو: peels (المترجم).

171 المعنى الحرفي لهذه العبارة، بحسب ما مرَّ سابقاً، هو: «في فم الذئب»، وهي الطريقة الإيطالية لتمنّي التوفيق لأيِّ شخص قبل كل منافسة. وفي هذه الحالة يردُّ الشخص المعني، بعبارة: «كْرِيْبِهْ إِلْوُبُوْ! Crepi il lupo!»، وتعني حرفياً: «الموت للذئب» (المترجم).

172 نسبة إلى مدينة ليڤورنو Livorno الإيطالية (المترجم).

173 سبق أن أشرنا إلى أنَّ إيطاليا تبدو على الخارطة في شكل جزمة، وأنَّ لينتشه تشكل مع مدن أخرى ما بات يعرف «بكعب الجزمة» (المترجم).

174 Erector: علامة تجاريّة لشركة متخصصة في صناعة مواد البناء والآليّات المعدنيّة التي يلعب بها الأطفال، والتي تكون عادة جميعها في مجموعة واحدة (المترجم).

175 علامة تجارية، أما الكلمة في حدِّ ذاتها فتعني الزُّجاج العضوي (المترجم).

176 نسبة إلى مدينة فورلي، في شمال إيطاليا (المترجم).

المؤلِّف

جو ماكغينيس (1942 - 2014): روائيٌّ وصحافيٌّ أمريكيٌّ ذائع الصِّيت. ظهرت مقالاته، أسبوعياً، في كبريات الصحف والمجلَّات الأمريكيَّة والبريطانيَّة، كالنيويورك تايمز مغازين، وجي كيو، والديلي تلغراف، والأبزيرڤر، والغارديان. أصدر اثني عشر كتاباً، على رأسها كتاب «بيع الرئيس» (1968) الذي ألَّفه وهو في السادسة والعشرين من عمره، عن تسويق ريتشارد نيكسون وترشحه لمنصب رئيس الولايات المتحدة، فحقق له الكتاب شهرة واسعة ومبيعات كبيرة. من كتبه الأخرى: «أبطال» (1976)، و«الرؤية القاتلة» (1980)، و«الإيمان الأعمى» (1989)، و«ريبة قاسية» (1991)، و«الأخ الأخير» (1993)، و«الحصان الكبير» (2004)، و«المُخادعة: البحث عن سارة بيلن» (2011).

المترجم

تحسين الخطيب: شاعر ومترجم أردني. صدر لـه مؤخراً: «إلياس نانديينو: ليليَّة الجسد وقصائد أخرى» (دار خطوط وظلال، عمَّان، 2020). وله، ضمن مشروع كلمة للترجمة: «مدن مستقبليَّة» (2020)، و«أدب أمريكا اللَّاتينيَّة» (2019)، و«المجرَّة: رسم خريطة الكون» (2018).

معجزة كاستل دي سانغرو

حكاية شغف وطيش في قلب إيطاليا

يـــروي هذا الكتاب حكايةَ هوسٍ فجائيٍّ بكـــرة القدم، يدفع مؤلفه الأمريكي إلى ترك كلِّ شيء خلفه، والبدء في رحلة شاقَّة لاستقصاء أحوال «المعجزة» التي حققتها بلدة إيطاليَّـــة مجهولة، في منطقة جبليَّة نائية، حين شـــقَّ فريقها طريقه، بثبـــات منقطع النَّظير، من دوري الهـــواة، ليحجز له مكاناً مرموقاً في مصاف أنديـــة دوري الدرجة الثانية، دوري المحترفين، حيث المجد والشهرة، واحتلال العناوين الرئيسة في كبريات الصحف والمجلَّات المعنيَّـــة بهـــذه الرياضة. تلك المعجزة، التي كانت عصيَّـــة على الفهم ولا يمكن لأشـــدِّ المخيلات جموحاً وحماســـةً أن تدرك كنهها وتحيط بأسباب وقوعها، قادت المؤلِّف منذ اللحظة الأولى التي قرأ عنها، سنةَ 1996، إلى الكتابة حول كاستل دي سانغرو وفريقها، ومعايشة حكايتها الخرافيَّة على امتداد ما يقارب السنة. ولقد اختير هذا الكتاب أفضلَ مُؤَلَّفٍ يوضع عن كرة القدم في العام 1999 من طرف لجنة جوائز وليم هِلْ في لندن.

